# جدل ومواقف
## في الشعائر الحسينية

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ISBN 978-9953-510-64-4




هاتف:03/896329-01/550487- فاكس:541199- ص.ب:25/286غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329-01/550487-Fax:541199-P.O.Box:286/25 Ghobeiry-Beirut-Lebanon

E-Mail: daralhadi @ daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

سلسلة كتاب نصوص معاصرة

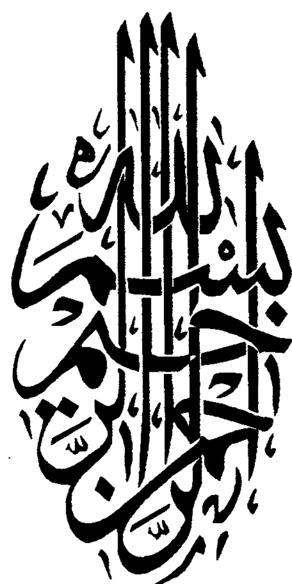
# جدل ومواقف في الشعائر الحسينية


د. محمّد صالح الجويني — الشيخ محمّد صحتي
د. محسن حسام ظاهري — السيد حسن إسلامي
الشيخ محمّد سردرودي — الشيخ رضا بابائي
أ. محمّد جواد صاحبي — د. محمّد علي سلطاني
أ. عبد الحسين حاجي — أ. محمّد اسفندياري
أ. محمّد نوري — د. محمّد منصور نجاد
الشيخ محمد صحتي السردرودي — الشيخ مهدي حسينيان القمي
د. مجيد محمدي

إعداد
حيدر حب الله



دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

# كلمة المجلّة

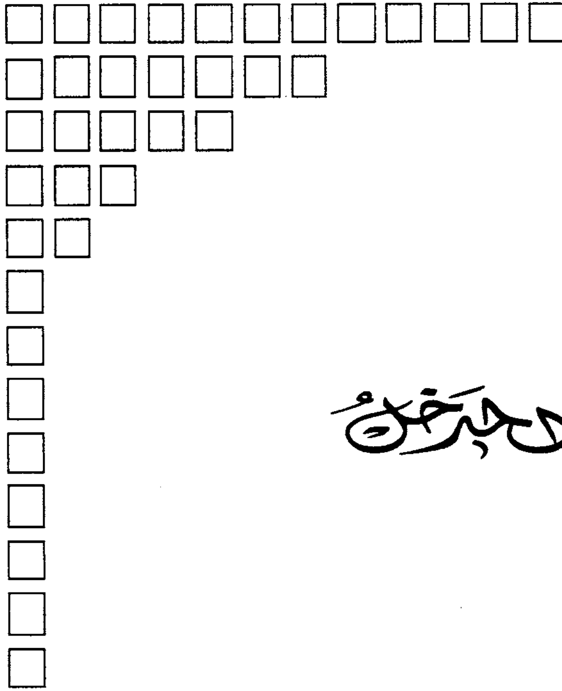
يسعدنا أن نزفّ إلى قرائنا الكرام، مشروع مجلّة «**نصوص معاصرة**» الجديد، وهو إصدار كتاب المجلّة، الذي سيكون كتاباً كل عام في الحدّ الأدنى إن شاء الله تعالى.

إن كتاب المجلّة سوف يجمع في طيّاته جملة الموضوعات التي تلتقي في محورٍ واحد، يحتوي على وجهات نظر متعدّدة في هذا المحور، ليكون المشهد واضحاً أمام القارئ.

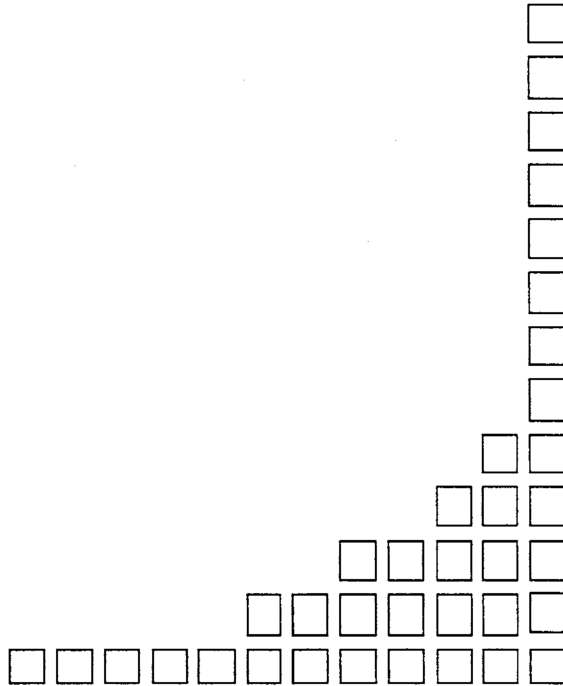
وقد رأينا أن نأخذ محور: «**الشعائر الحسينية، التاريخ، الجدل والمواقف**» رابع محاور «**سلسلة نصوص معاصرة**»، كونه من المحاور الهامة، والتي لاقت رواجاً وترحيباً بعد نشر دراساته في مجلّة نصوص معاصرة.

نسأل الله سبحانه أن يوفقنا لمراضيه، ويجنّبنا معاصيه، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

**حيدر حب الله**




# الإصلاح الديني وكتب الزيارات



# الإصلاح الديني وكتب الأدعية والأذكار والزيارات

حيدر حب الله

تحتلّ الأذكار والدعوات والصلوات والعبادات والزيارات والآداب و... مركزاً هاماً في شخصية الإنسان المسلم المتديّن، ولا يقتصر هذا التأثير على الواجب من هذه الأعمال، بل يمتدّ ليشمل مستحب أيضاً، فإن الكثير من المستحبات والمكروهات تترك أثراً على تكوين وعي الإنسان وشخصيته وطريقة تفكيره.

وفي إطار رصد أهمية المستحب ومكانته في الحياة الدينية، نلاحظ تأثير زيارة المراقد المطهّرة على شخصية الإنسان الصالح، وما تتركه من تعميق لروابط الحبّ والولاء لأهل البيت عليهم السلام في حياته، وما ترسّخه في نفسه من قيم الفضيلة والتضحية والوفاء و... بعيداً ـ فعلاً ـ عن القول الذي ذهب إليه بعض العلماء والمحدّثين من وجوب الزيارة ولو مرّة واحدة في العمر.

وأمام حجم تأثير المستحب والمندوب والمكروه والمرغوب عنه في حياة المسلم، نجد اتجاهاً كبيراً في الأوساط الدينية يميل إلى عدم أهمية البحث والوقوف كثيراً عند المستحب والمكروه، حتى أنّ العلامة محمد مهدي شمس الدين ينقل عن أستاذه السيد الخوئي أنّه لا يجب على الفقيه تبيين قضايا المستحب والمكروه والمباح (شمس الدين، الاجتهاد والتجديد: ١٥٣)، هذا مع أنّ السيد الخوئي رافضٌ لنظرية التسامح، ولعلّ لهذه النظرية تأثيراً كبيراً على هذه النزعة التساهلية عند العلماء المسلمين، حيث قبِل بها الكثير من علماء السنّة والشيعة، انطلاقاً من وجود

أدلّة من الروايات عليها.

ولسنا بصدد الحديث عن هذه القاعدة وكيف تطوّرت واتسعت، لتشمل عند مثل النراقي و... القضايا التاريخية وتستوعب السيرة الحسينية، الأمر الذي انتقد بعض أبعاده المحدث النوري، وهو وجهٌ من وجوه المحدثين المتأخرين (انظر: حيدر حب الله، نظرية السنّة في الفكر الإمامي الشيعي: ٧٤٨ ـ ٧٦٣)، إنما الذي نريد تسليط الضوء عليه هنا هو معالجة اجتماعية لهذه الظاهرة التي بات لها حضور بارز في حياتنا.

ولن آخذ مطلق المستحبات والمكروهات هنا بالحسبان، بل سأسلّط الضوء على الأدعية والزيارات والصلوات والأذكار... منطلقاً من مشروع كان يحضّر من طرف السيد الشهيد محمد باقر الصدر (١٤٠٠هـ)، بوصفه من كبار رموز الإصلاح الديني في القرن العشرين، ففي رسالةٍ وجّهها الصدر إلى تلميذه المعاصر السيد محمد الغروي، بدا فيها راغباً ـ بل ساعياً ـ لتدوين كتاب في الأدعية والزيارات بدل كتاب مفاتيح الجنان للمحدّث الشيخ عباس القمي (١٣٥٩هـ)، يتجاوز ما يثير المسلمين، ويركز على النصوص الصحيحة السند، والمشهورة الصحيحة المتن.

يقول الإمام محمد باقر الصدر في هذه الرسالة: «... كان لدينا مشروع كلّفنا به بعض تلامذتنا، وهو كتاب تأسيسي في الأدعية، فإن تهيأ ذلك فهو، وإلا فلابد في نظري من إدخال تعديلات على المفاتيح [يقصد ـ حسب الظاهر ـ مفاتيح الجنان] الموجودة، وكانت الفكرة في الكتاب التأسيسي تقوم على أساس جمع ما صحّ سنده من الأدعية والزيارات، ويضاف إليه المشهور الصحيح المتن، وإن لم يكن صحيح السند، مع إجراء التهذيب بحذف بعض الجمل إذا اقتضى الأمر التهذيب والحذف» (انظر: أرشيف رسائل المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، رسالة خطية رقم: ٦٠).

وإذا أردنا تحليل هذا النصّ فهو يدلّنا:

**أولاً**: إن فكرة تعديل مفاتيح الجنان هي البديل الاضطراري الذي اختاره السيد الصدر، وإلا فأصل المشروع هو استبدال المفاتيح بكتاب آخر، وصفه الصدر بالتأسيسي، وهي عبارة دالّة على مشروع جذري كان منوياً، ومن ثم فلا يرى الصدر أن في استبدال المفاتيح أمراً محرّماً، لا من الناحية الفقهية كما هو واضح، ولا

من الناحية الميدانية والاجتماعية والعملية، فلا ينبغي التحسّس من أصل المشروع، فالمفاتيح ليس نصاً نهائياً وإنما هو محاولة طيبة قام بها العلامة القمي خدمةً لقيم السماء وتعاليم الإسلام فجزاه الله خير جزاء المحسنين، لكن لا ينبغي الوقوف عندها. سيما وأنّ في الكتاب نفسه في كثير من نسخه المطبوعة اليوم بعض المشاكل، كما في بعض هوامشه؛ حيث يستفاد ـ ولو في الفهم العام ـ تحريف القرآن.

كما لا يُقصد الطعن بالشيخ القمي الذي عرفناه محققاً ناقداً في مجال الحديث والتاريخ في مواضع أخرى، خاطياً في ذلك خُطى أستاذه المحدّث الشيخ حسين النوري (١٣٢٠هـ)، لكنّ القمي مجتهدٌ له آراؤه، ومن غير المعلوم أنّ ما صحّ سنده عنده معناه أنّه صحيح السند عند غيره، أو أنّه ملزم لغيره، فهذه اجتهادات لا تقف عند حدّ، ولعلّه يكتفي بوجود سند للرواية في مقابل كتاب «مفتاح الجنان» الذي أشار في مقدّمة «مفاتيح الجنان» إلى ورود بعض ما فيه مما ليس له سند أصلاً.

**ثانياً:** كان يرى السيد الصدر اضطراراً تعديل نسخة المفاتيح الموجودة، ونحن لا نوافقه ـ في نظرنا القاصر ـ على هذه الفكرة؛ لأن الدخول في تعديل الكتب الدينية والتراثية لمصالح ولو كانت هي مصلحة المسلمين العليا أمرٌ خطير للغاية، وباب إذا فُتح سوف يؤدّي إلى فوضى علمية وإلى أزمة في توثيق التراث، فقد نُقل أنّ السيد الصدر نفسه كان قد كلّف بعضَ طلابه بتحقيق كتاب المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين؛ لأنّ أهل السنّة كانوا غيّروا في الطبعة المتأخرة لبعض كتبهم الأصلية الحديثيّة التي استند إليها السيد شرف الدين، ولعلّه اعتبر ذلك خيانةً لمصالح مذهبية ضيقة، فكما هي خيانةٌ أن نخفي الواقع لمصالح مذهبية، كذلك الحال في إخفاء وقائع أو وثائق أو نصوص أو... لمصالح إسلامية عليا أو.. ولنسمّها ما شئنا، فإن ذلك لن يغيّر من واقع الحال شيئاً؛ لأننا حتى لو استفدنا منه لمرحلة الآن أو لاحقاً، إلا أنه سيترك تأثيراً سلبياً على المسار البعيد والطويل، ولو استخدم كلّ فريق هذه الطريقة لدخلنا في متاهة التلاعب بالتراث، وهو أمرٌ نتأكد أنّ السيد الصدر لم يكن يقصده في مشروعه هذا.

فالأفضل ـ من وجهة نظرنا ـ إذا كان لابدّ من مشروع كهذا، أن يكون تأسيسياً أو لا يكون من أصل؛ جمعاً بين الأهداف وتوفيقاً بين المقاصد.

**ثالثاً:** يقدّم السيد الصدر أولويّتين مترتّبتين في التعامل مع الكتاب التأسيسي: إحداهما الأخذ بما صحّ سنده من الأدعية والزيارة، وثانيهما الصحيح المتن مع كونه مشهوراً، ولست أريد هنا محاكمة رسالة شخصية على أنها بحث علمي، لكن لا بأس بقدرٍ من التحليل؛ كونها دالّة بنسبة جيدة، فالسيد الصدر قدّم الصحيح السند دون أن يشير إلى صحّة المتن فيه، وإنما أخذ صحّة المتن في حالة المشهور غير الصحيح السند، مع أنه قد يرى بعضهم أن فيما هو صحيح السند مخالفاً متناً للكتاب أو السنّة أو... فكان ينبغي أن يؤخذ التقييم ثنائياً، أي صحيح السند والمتن معاً، سيما وأنه في الأدعية والزيارات يوجد جُمل خبرية كثيرة، وليس فقط إنشائية، ونحن نعرف أنه كلّما زادت الجمل الخبرية انفتح مجال تقييم المتن بشكل أكبر؛ لأن الإنشاء يشمل ـ عادةً ـ التشريعَ الذي لا يُعرف ملاكه؛ فمجال نقد المتن فيه أقلّ نسبياً.

يُضاف إلى ذلك، أن إجراء الحذف والتهذيب للجمل التي في نصوص الأدعية والزيارات فيه مشكلة تقدّمت، إذا قصد السيد الشهيد خصوص المشهور الصحيح المتن، أما إذا كان هذا القيد شاملاً للصحيح السند أيضاً، فالمشكلة سوف تتضاعف حينئذٍ؛ لأنّ في ذلك ما قد يكون إيهاماً في نقل كلام المعصوم المعتبر.

إنّ أصل مشروع السيد الشهيد بالغ الأهمية، ينطلق من ضرورة ضبط الكتب الدينية التي تكون في متناول عامة الناس وفي بيوتهم وفي المساجد والحسينيات و... كونها تشكّل الوعي الديني عندهم، وإذا كان السيد الصدر قد انتبه لهذا الموضوع، ونوى مشروعاً من هذا النوع، فإنّ السيد محسن الأمين (١٩٥٢م) قَبْلَه قد حمل هذا الهمّ وخاض مشروعاً شبيهاً في كتابه (مفتاح الجنات)، الذي ركّز فيه على صحّة السند والمتن معاً، ومع عدم وجود سند صحيح كان مهتمّاً بالمتن وضبطه جداً، وقد اعتقد بأنّ هناك تحريفات وتصحيفات في أكثر كتب الأدعية، كما انتقد (مفاتيح الجنان) من وجهة نظر أخرى؛ حيث رأى أن بعض محتوياته لا يكاد ينفع الإنسان العربي، دون أن يدلّنا بوضوح على حجم هذه المواضع، وهل فعلاً تستحقّ الذكر أم لا؟ وقد أشار أيضاً إلى جهالة السند في روايات أخرى في المفاتيح (انظر: محسن الأمين، مفتاح الجنات ١: ١١، ٣١٢، ٣٢٢، ٣٣٣، و ٢: ٤٤٩)، ونضيف معه أن التتبع أكّد لنا أنّ النسخة المعرّبة لمفاتيح

الجنان فيها مشاكل أيضاً في التعريب، مما لا نخوض فيه فعلاً.

إنّ ما قام به السيد محسن الأمين في مجال الأدعية والزيارات من تقديم بدائل كان فعله أيضاً في مجال إصلاح حال السيرة الحسينية، حيث ألّف أكثر من كتاب بهذا الصدد، بدائل لقارئ العزاء والخطيب الحسيني كي يتمكّن من الاستمرار مستغنياً عن كتب أخرى ثمّة تساؤلات كثيرة حولها وعلامات استفهام.

وبكلمة موجزة وهامة: ليس المهم أن يجلس بعضنا ينتقد هذا الدعاء أو ذاك، أو هذه الزيارة أو تلك... فيُغرق الجوّ في مجرد النقد، بقدر ما المطلوب تخطّي هذه المرحلة لوضع كتاب جامع في الأدعية والزيارات، يتمّ نشره على نطاق واسع، مصفّى من الملاحظات النقدية على مختلف الصعد حسب الإمكان، ليكون مرجعاً للمسلم والشيعي في أعماله العبادية، مع تقدير جهود السابقين كلّهم واحترام خطواتهم.

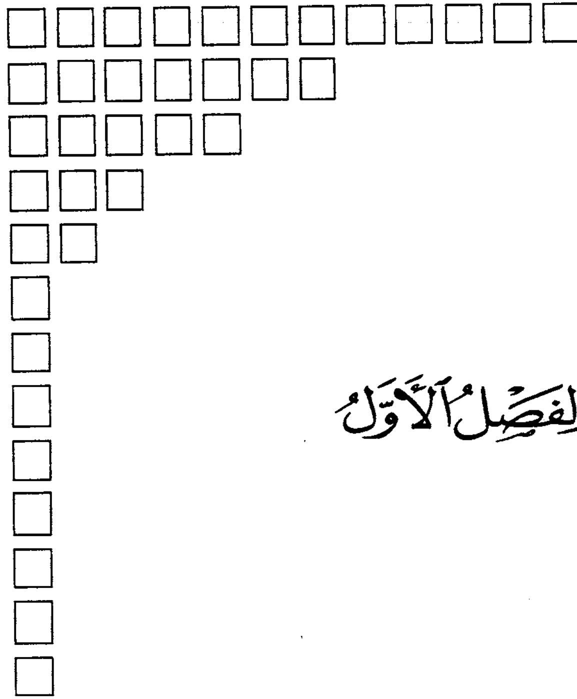
وأخيراً، وفي السياق عينه، وهو الذي نعتقد أن الصدر والأمين حملا همّه، من الضروري أن يُلتفت إلى مبدأ الوحدة الإسلامية ومصالح المسلمين العليا في هذا العصر، مع الانتباه ـ في الوقت عينه ـ إلى عدم إطلاق العنان لأنفسنا في التلاعب بالتراث أو تحوير الحقائق الإسلامية؛ فلا يصحّ أن نضع الأمّة الإسلامية وواقع المسلمين في أزمة لأجل رواية ضعيفة السند، ثمّ نبرّر فعلنا بالحفاظ على هويّة المذهب وحمايته من تهاوي أركانه وفرط عقد سبحته، بل ينبغي الالتفات إلى أنّ الواجب قد يصير حراماً بالعنوان الثانوي، فكيف بالمستحب؟! ألا يجب بناء توازن وسلّم أولويات؟ بل ألا يجب تنشيط فقه الأولويات أيضاً؟ ألا يجب حماية دم المسلمين من الفتنة؟ ألا يحتمل أحياناً أن بعض المستحبات قد تهدر دم مسلم بريء؟ فإذا كنّا نخاف على دين الناس، فحريّ بنا أن نخاف على نفوسهم وأعراضهم؛ فحرمة المسلم كحرمة الكعبة، كما جاء في بعض الروايات؟

إنّ على المدافعين عن مثل هذه الرواية أو تلك مما ثبت ضعفه وبان أنّه ليس له سوى بعض المصادر المتأخرة .. إنّ عليهم أن يعرفوا أنّ ما عندنا من كتاب ومن سنّة يكفيان لملئ نفوسنا إيماناً، وقلوبنا طمأنينة، وحياتنا نظاماً وانتظاماً.. ولم يغدُ الإسلام ولا التشيّع ـ والحمد لله ـ بحاجة في يوم من الأيام إلى مثل هذه الزيادات،

فهو غنيّ بما فيه الكفاية للنهوض بنا، إن شاء الله تعالى.

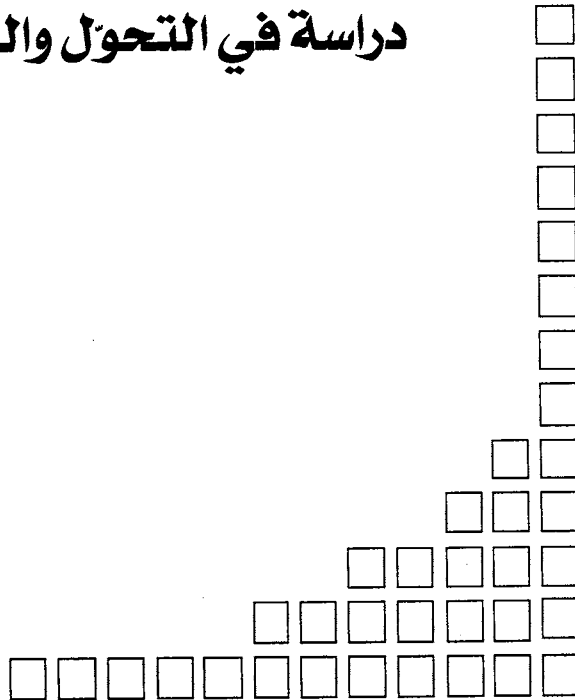
إننا من منطلق مشروع السيد الصدر وغيره، ومن منطلق الضرورة والحاجة والأمانة العلمية و... ندعوا ـ بوصفنا من آحاد المسلمين ـ ونرجوا من المرجعيات الدينية المنفتحة على قضايا العصر والأمّة والدين، رجاءً حاراً نابعاً من قلب متألّم، أن يشكّلوا لجنةً تحت إشرافهم، تقوم بمشروعٍ كهذا، كيفما ارتؤوا صيغته فيما يرونه مناسباً، ويدعموه ويروّجوا له؛ فليس المهم هو الإنتاج والمهارة فحسب، بل المهم هو التسويق والترويج، كما بات مسلّماً اليوم في إدارة الصراعات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية و... ونحن واثقون ـ إن شاء الله ـ من أنّ خطوةً كهذه ستشكّل عنصراً مساعداً لحماية شخصية الإنسان المسلم اليوم، ورفع مستوى وعيه وتضامنه مع أخيه، وتحصين الساحة الإسلامية، بدل خلط الأدعية بالطلاسم في بعض الكتب، وبالغرائب والعجائب في كتب أخرى، والله تعالى وحده نسأل تغيير حالنا إلى أحسن الحال، إنه عليٌّ قدير.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة : ١٨٦].



# الفصل الأول

# تاريخ الشعائر الحسينية
## دراسة في التحوّل والصيرورة



# تاريخ المأتم الحسيني
## من الشهادة وحتى العصر القاجاري

د. محمد صالح الجويني(*)

ترجمة: فرقد الجزائري

### تمهيد

تعدّ المآتم الحسينية اليوم من أعظم الشعائر الدينية في العالم، وقد أصبحت موضع اهتمام العلماء والمفكّرين، وأثارت تساؤلات عديدة لديهم حول حقيقتها، ومنشئها، وتاريخها، وضرورتها، والهدف من ورائها، والآثار التي تترتّب عليها. وفي هذا المقال، نسعى لتقديم مراجعة مختصرة حول المنشأ التاريخي للمآتم الحسينية.

ويمكننا مطالعة تاريخ المأتم الحسيني في مقاطع زمنية مختلفة:

١ـ منذ استشهاد الإمام الحسين‏، وحتى مقتل قاتليه.

٢ـ تأسيس الأئمة للمأتم الحسيني بوصفه شعيرةً دينية وذلك عبر توفير الأرضية المناسبة لسنّ المأتم من قبل الإمام زين العابدين‏، وبناء أركان المأتم في عهد الإمامين الباقر والصادق، واتساع دائرة المآتم في عهد الإمامين الكاظم والرضا.

٣ـ منذ تأسيس المأتم، حتى أخذه طابع شعيرة دينية رسمية.

٤ـ أخذ المأتم طابعاً رسمياً بظهور حكوماتٍ شيعية قوية في القرنين الرابع والخامس.

٥ـ فقدان الحكومات الشيعية القوية من القرن السادس وحتى العاشر.

٦ـ حكم الصفوية في القرنين العاشر والحادي عشر.

٧ـ منذ الصفوية وحتى اليوم.

ونراجع في هذا المقال تاريخ المأتم الحسيني حتى نهاية الحكم الصفوي، لكن

---

(*) باحث متخصّص في تاريخ الثورة الحسينية وفي تاريخ إيران.

وقبل مراجعة هذه المراحل، نذكّر بأنّ لواقعة استشهاد الإمام الحسينعليه السلام في سبيل الإسلام من الأثر والأهمية ما أبكى أولياء الله ورسله قبل وقوعها، وقد وردت روايات تتحدّث عن بكاء إبراهيم الخليل[١]، وعيسى وحوارييه[٢]، ومحمد المصطفىصلى الله عليه وآله[٣]، وعلي المرتضىعليه السلام[٤]، وفاطمة الزهراء[٥] على الإمام الحسينعليه السلام. لكن بما أنّنا نتناول المسار الطبيعي لإقامة المأتم الحسيني بوصفه ظاهرة تاريخية واجتماعية في مراجعتنا التاريخية هذه، نتطرّق إلى ما قام به أصحاب المآتم بعد استشهاد الإمام الحسينعليه السلام فقط.

## المرحلة الأولى: المأتم من الاستشهاد وحتى مقتل القاتلين

بناءً على التقاليد المتبعة في المجتمعات البشرية، تقيم عائلة القتيل المأتم عليه، ولم يكن أهل بيت الإمام الحسينعليه السلام استثناءً في ذلك، بل اتسعت دائرة مأتم الإمام الحسين لما له من صلة بالنبيصلى الله عليه وآله ومكانة اجتماعية، حتى أقام له الناس ـ وخاصّة الصحابة والتابعون ـ المآتم، وسمّي عام استشهاده «عام الحزن»[٦].

---

(١) الشيخ الصدوق، الخصال: ٥٨، ح٧٩، تحقيق: علي أكبر غفاري، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، ١٤١٠هـ، ط١؛ وله: عيون أخبار الرضاعليه السلام ١: ٢٠٩، ح١، تحقيق: السيد مهدي حسيني لاجوردي، طهران، منشورات جهان؛ والمجلسي، بحار الأنوار ٤٤: ٢٢٥، ح٦، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت، ١٤١٢هـ، ط١.

(٢) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: ٥٣٢، ح١، تحقيق: علي أكبر غفاري، قم، مؤسّسة نشر إسلامي، ١٤٠٥هـ، ط١؛ وله: الأمالي: ٦٩٤، ح٩٥١، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٠هـ، ط٥؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٥٢، ح٢.

(٣) ابن قولويه، كامل الزيارات: ١٤٦، ح١٧٢، تحقيق: عبد الحسين الأميني التبريزي، النجف الأشرف، مطبعة المرتضوية، ١٣٥٦هـ، ط١؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٦١، ح١٤.

(٤) الشريف الرضي، خصائص الأئمة: ٤٧، تحقيق: محمد هادي أميني، مشهد، آستان قدس رضوي؛ وكامل الزيارات: ٤٥٣، ح٦٨٥؛ وبحار الأنوار ١٠١: ١١٦، ح٤٤.

(٥) الطبري، دلائل الإمامة: ١٠٢، ح٣٠، تحقيق: مؤسسة بعثت، قم؛ وكمال الدين: ٢٨٢، ح٣٦؛ وبحار الأنوار ٤٣: ٢٤٩، ح٢٤؛ وكامل الزيارات: ١٤٤، ح١٧٠.

(٦) الخوارزمي، مقتل الحسينعليه السلام ٢: ٤٠، تحقيق: محمد السماوي، قم، مكتبة مفيد؛ والقرطبي، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٢: ٤٥٣، تحقيق: مجدي فتحي سيد، طنطا، دار

مثّلت هذه المآتم التي استمرت حتى مقتل قاتليه[١]، مآتم أهل بيته بصورة خاصة، ولم تأخذ طابع السنّة أو الشعيرة، لكن المهم في بحثنا هو الجهود التي بذلها الأئمة لجعل هذه المآتم شعائر دينية لكافة الناس، وهذا ما نتناوله في المقاطع التالية.

## المآتم المقامة في المرحلة الأولى

١ـ مأتم أهل بيت الحسين عليه السلام في ساحة القتال عند غروب العاشر من محرم، بعدما وجدوا الإمام وأصحابه مضرّجين بدمائهم[٢].

٢ـ بكاء أهل الكوفة عند رؤيتهم أهل بيت الإمام عليه السلام أسرى، وحين سماع خطبهم[٣].

---

الصحابة للتراث، ١٤١٥هـ، ط١.

(١) يجدر بنا التذكير بأنّ لدى العرب سنّةً، تقضي بعدم إقامة المأتم على المقتول من قبل أهله حتى يموت قاتله أو يثأرون له، لكي لا تموت روح الانتقام لديهم أو يضعف عزمهم على ذلك؛ فكانوا يظنّون أن رثاء القتيل والبكاء عليه يطفئ نار الغضب والانتقام، ويقول جواد علي في كتابه المفصّل في تاريخ العرب (ج٥، ص١٥٦): «وكانت العرب لا تندب قتلاها ولا تبكي عليها حتى يثأر بها، فإذا قتل قاتل القتيل، بكت عليه وناحت». والشاهد على ذلك «منع البكاء على القتلى من مشركي قريش في غزوة بدر»، لكن خالف أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وبنو هاشم سنّة العرب هذه وأقاموا المأتم في تلك الفترة، لكنّ امتناعهم عن الزينة، يدلّ على تأثرهم بسنّة العرب هذه في إحياء ذكرى القتلى مع تعديل عليها، وهو البكاء والرثاء، حيث قاموا به ولم يقم به العرب.

(٢) ابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ١٨٠، تحقيق: فارس تبريزيان، طهران، دار الأسوة، ١٤١٤هـ، ط١؛ وابن نما الحلي، مثير الأحزان ومنير سبل الأشجان: ٧٧، ٨٣، ٨٧، ٨٨، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي عجل الله فرجه، قم؛ وأمالي للصدوق: ٢٣٦؛ والفتال النيسابوري، روضة الواعظين: ٢٠٩، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٦هـ، ط١؛ ومقتل الحسين عليه السلام ٢: ٣٧، ٣٩؛ وتاريخ الطبري ٥: ٤٥٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار صادر؛ وابن كثير، البداية والنهاية ٨: ١٩٣، تحقيق ونشر: مكتبة المعارف، بيروت.

(٣) الطوسي، الأمالي: ٩١، ح ١٤٢، تحقيق: مؤسسة بعثت، قم، دار الثقافة، ١٤١٤هـ، ط١؛ والطبرسي، الاحتجاج على أهل اللجاج ٢: ١٠٤، ١٠٨، ١٠٩، ح١٧٠، تحقيق: إبراهيم بهادري ومحمد هادي به، طهران، دار الأسوة، ١٤١٣هـ، ط١؛ وابن طيفور، بلاغات النساء: ٣٩، قم، منشورات الشريف الرضي؛ والملهوف: ١٩٨؛ وابن طلحة الشافعي، مطالب السؤول في مناقب آل

٣ـ إقامة المأتم في الشام، عند وصول الأسرى من أهل بيت الإمام إلى مجلس يزيد وفي بيته[١].

٤ـ إقامة المأتم عند قبر الإمام حين عودة أهل بيته من الشام إلى المدينة مارّين بكربلاء[٢].

٥ـ إقامة المأتم في المدينة حين سماع أهلها بكاء أم سلمة[٣] على الحسين عليه السلام، والتي نُبأت بمقتله في المنام[٤].

٦ـ المآتم التي أقامتها أم سلمة[٥] وأهل المدينة بعد إعلان الحكومة نبأ استشهاد الإمام[٦].

٧ـ المآتم التي أقامها بنو هاشم[٧]، كالتي أقامها ابن عباس ومحمد بن

---

الرسول: ٧٦، النسخة الخطية، قم، مكتبة آية الله المرعشي.

(١) الاحتجاج ٢: ١٢٢؛ والملهوف: ٢١٣؛ ومثير الأحزان: ١٠٠؛ والبلاذري، أنساب الأشراف ٣: ٤١٧، تحقيق: سهيل زكّار ورياض زركلي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٧هـ، ط١؛ وتاريخ الطبري ٥: ٤٦٢، ٤٦٤؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ٥٧٧، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ، ط١؛ وأمالي الصدوق: ٢٣٠، ح٢٤٢؛ وروضة الواعظين: ٢١١؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٣، تحقيق: شعيب أرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ، ط١٠؛ وابن عساكر، تاريخ دمشق ٦٩: ١٧٧، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ، ط١؛ وابن سعد، الطبقات الكبرى ١: ٤٨٩، بيروت، دار صادر، ط٥.

(٢) الملهوف: ٢٢٥؛ وبحار الأنوار ٤٥: ١٤٦.

(٣) جاء في تاريخ اليعقوبي٢: ٢٤٥، أنّها بكت لاصطباغ التربة التي كانت لديها بلون الدم، وقد أعطاها الرسول صلى الله عليه وآله إياها، كعلامة على استشهاد الحسين عليه السلام في المستقبل.

(٤) المفيد، الأمالي: ٣١٩، ح٦، تحقيق: حسين استاد ولي وعلي أكبر غفاري، قم، مؤسسة نشر إسلامي، ١٤٠٤هـ، ط٢؛ وأمالي الطوسي: ٩٠، ح١٤٠؛ وبحار الأنوار ٤٥: ٢٣٠، ح١.

(٥) الشجري، الأمالي ١: ١٦٤، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٣هـ، ط٣؛ والقاضي النعمان، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار ٣: ١٧١، ح١٩١٩، تحقيق: السيد محمد حسين الجلالي، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٢هـ، ط١.

(٦) الملهوف: ٢٠٧؛ وأمالي المفيد: ٣١٩؛ وأمالي الطوسي: ٨٩.

(٧) المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ٢: ١٢٣، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت، قم، ١٤١٣هـ، ط١؛ والأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة ٢: ٢٨٠، تصحيح: السيد هاشم

الحنفية(١) وبنات عقيل(٢) ونساء بني هاشم(٣).

٨ـ المآتم التي أقامها أهل المدينة عند عودة أهل بيت الإمام إليها(٤).

٩ـ المآتم التي أقامتها نساء الإمام(٥).

١٠ـ المأتم الذي أقامته أمّ البنين، زوجة أمير المؤمنين عليه السلام، لأبنائها الشهداء في البقيع(٦).

١١ـ بكاء آل عبد المطلب ونواحهم يومياً في العام الذي استشهد فيه الإمام(٧)، وفي ذكرى استشهاده لثلاثة أعوام(٨)، ومشاركة بعض الصحابة والتابعين في تلك المجالس(٩).

---

رسولي المحلاتي، بيروت، دار الكتب، ١٤٠١هـ، ط١؛ وتاريخ الطبري ٥: ٤٦٥؛ والكامل في التاريخ ٢: ٥٧٩.

(١) الطبقات الكبرى ٧: ٤٩٣، ح٤٤٩، و٤٩٥، ح٤٥١؛ وتاريخ دمشق ٣٩: ٢١٤، و١٤: ٢٣٨.

(٢) الإرشاد ٢: ١٢٤؛ والملهوف: ٢٠٧؛ ومثير الأحزان: ٩٥؛ وتاريخ الطبري ٥: ٤٦٦؛ والمزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٦: ٤٢٩، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ، ط١؛ وتاريخ دمشق ٦٩: ١٧٨؛ والبداية والنهاية ٦: ١٩٧.

(٣) البرقي، المحاسن ٢: ١٩٥، ح١٥٦٤، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، قم، مجمع جهاني أهل بيت عليهم السلام، ١٤١٣هـ، ط١؛ وبحار الأنوار ٤٥: ١٨٨، ح٣٢.

(٤) الملهوف: ٢٢٦؛ وبحار الأنوار ٤٥: ١٤٨.

(٥) أبو الفرج الإصفهاني، الأغاني ١٦: ١٤٩، تحقيق: عبد علي مهنّا وسمير جابر، بيروت، دار الكتب العلمية؛ وتاريخ دمشق ٦٩: ١٢٠؛ والبداية والنهاية ٨: ٢١٠؛ وسبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص: ٢٦٥، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، طهران، مكتبة نينوى الحديثة؛ والكامل في التاريخ ٢: ٥٧٩؛ وأمالي الشجري ١: ١٧٥؛ وأبو الفرج الإصبهاني، مقاتل الطالبيين: ٩٠، تحقيق: السيد أحمد صقر، قم، منشورات الشريف الرضي، ١٤٠٠هـ، ط١؛ والكليني، الكافي ١: ٤٦٦، ح٩، تحقيق: علي أكبر غفاري، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٩هـ، ط٢؛ وبحار الأنوار ٤٥: ١٧٠، ح١٨.

(٦) مقاتل الطالبيين: ٩٠؛ وبحار الأنوار ٤٥: ٤٠.

(٧) القاضي النعمان، دعائم الإسلام ١: ٢٢٧، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، مصر، دار المعارف، ١٣٨٩هـ، ط٣؛ وبحار الأنوار ٨٢: ١٠٢، ح٤٨.

(٨) قد ورد في أمالي الشجري ١: ١٧٥، خمسة أعوام.

(٩) القاضي النعمان، كتاب المجالس والمسايرات: ١٠٣.

١٢ـ حداد أهل البيت حتى ورود نبأ موت ابن زياد[(١)].

١٣ـ ارتداء أهل البيت زيّ الحداد[(٢)].

١٤ـ بكاء بعض الصحابة والتابعين، الحسينَ، وحزنهم عليه[(٣)].

١٥ـ بكاء التوّابين ونواحهم على قبر الحسين في طريقهم إلى قتال أهل الشام[(٤)].

## المرحلة الثانية: سنّ المآتم شعيرةً دينية ( .... ق ٣ هـ )

### أ. الإعداد لسنّ شعيرة المأتم الحسيني

تقع المرحلة الثانية نفسها في ثلاث مراحل، أوّلها سنّ الشعيرة، فقد سكن الإمام السجادعليه السلام المدينة بعد استشهاد الإمام الحسين، وانتهز جميع الفرص لإحياء ذكرى واقعة كربلاء، فكان يبكي كلّما أراد شرب الماء[(٥)]، وكان بكاؤه على مرأى الناس ومسمعهم، حتى طلبوا منه الكفّ عن البكاء خوفاً على صحّته، لكنّه رأى من الصواب والمنطق ـ بل من الضرورة ـ البكاء على شهداء كربلاء؛ لعمق المصاب ولما لهم من شأن، واستمرّ في ذلك طيلة حياته، وحتى سنين بعد مقتل ابن زياد وسائر قتلة الحسين[(٦)]، كما كان يدعو الآخرين لبكاء الحسين، وعدّ ذلك سبيلاً لدخول الجنّة

---

(١) كامل الزيارات: ١٦٧، ح٢١٩؛ والطوسي، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ١: ٣٤١، ح٢٠٢، تحقيق: السيد مهدي رجائي، قم، مؤسسة آل البيتعليهم السلام، ١٤٠٤هـ، ط١؛ وذوب النضار: ١٤٤.

(٢) البرقي، المحاسن ٢: ١٩٥، ح١٥٦٤.

(٣) تذكرة الخواص: ٢٣٩؛ ومقاتل الطالبيين: ١١٠؛ وابن أعثم الكوفي، الفتوح ٥: ٢٦، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الأضواء، ١٤١١هـ، ط١؛ وأمالي الصدوق: ٢١٧، ح٢٣٩؛ وأنساب الأشراف ٣: ٣٧٧، ٤٢٥؛ والإرشاد ٢: ١١٤؛ وسير أعلام النبلاء ٣: ٣١٥؛ ولباب الأنساب ١: ٣٥٠؛ وتذكرة الخواص: ٢٦٨.

(٤) تاريخ الطبري ٥: ٥٨٩.

(٥) ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب ٤: ١٦٦، قم، المطبعة العلمية.

(٦) الخصال: ٥١٧، ح٤، و٢٧٢، ح١٥؛ وأمالي الصدوق: ٢٠٤، ح٢٢١؛ وكامل الزيارات: ١٦٨،

ونيل الأمان من الله سبحانه[1].

وبما أنّ الإمام السجاد استمرّ على هذا النهج إلى آخر حياته، وكان قد حظي في عقده الأخير (استشهد الإمام السجاد عام ٩٤هـ) بمكانة اجتماعية مرموقة، وأصبح محطاً للأنظار، يمكننا اعتبار هذه السنين من حياته الشريفة سنين الإعداد لسنّ شعيرة المأتم الحسيني[2].

## ب ـ عهد الإمامين الباقر والصادق، تشييد أركان المأتم الحسيني

### ١ ـ أيّام الإمام الباقر عليه السلام

حين بدأت إمامة الإمام الباقر عليه السلام، كان قد مرّ على واقعة كربلاء ثلاثة عقود، وظهر في الساحة جيلٌ جديد لم يذكر شيئاً عن واقعة كربلاء. كما حدثت ثورات ووقائع أخرى في هذه العقود، كثورة التوابين، وثورة الزبير، وثورة المختار، وثورة أهل المدينة، وواقعة الحرّة التي باءت جميعها بالفشل، ولم يتوان بنو أمية عن أيّ فعل شنيع في قمعها، حتى هتكت حرمة المسجد الحرام والمسجد النبوي، إلا أنّ تلك الحوادث المؤلمة ومقتل قتلة الحسين على يد المختار، لم تؤدّ إلى أن يترك الإمام

---

ح٢١٩، و٢١٣، ح٣٠٦؛ والملهوف: ٢٣٣، ٢٣٤؛ والشهيد الثاني، مسكن الفؤاد: ٩٢، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٢هـ، ط٢؛ والطوسي، تهذيب الأحكام ٢: ٣٩٩، بيروت، دار التعارف، ١٤٠١هـ، ط١؛ وتاريخ دمشق ١٤: ٣٨٦؛ وأبو نعيم الإصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٣: ١٣٨، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ، ط٢؛ والبداية والنهاية ٩: ١٠٧.

(١) الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ١٠٨، ح١، تحقيق: علي أكبر غفاري، طهران، مكتبة الصدوق؛ والقمي، تفسير القمي ٢: ٢٩١، تصحيح: السيد طيب الموسوي الجزائري، النجف، مطبعة النجف؛ وكامل الزيارات: ٢٠١، ح٢٨٥؛ والملهوف: ٨٦.

(٢) وصف الواعظي القزويني (١٠٩٩هـ) حال الإمام السجاد هذه، في الأبيات التالية:

نور عين العبّاد، الإمام السجّاد،

الذي يهب الشمس نورها كما تهب هي القمر نوره

لم يقرّ له قرار لذكر واقعة كربلاء، وقلبه المسبح في نوح دائم

انظر: ديوان الواعظي القزويني: ٤٩٩.

الباقر واقعة كربلاء يطويها النسيان، بل كأبيه، انتهز كلّ فرصة لإحياء ذكرى سيد الشهداءعليه السلام وواقعة كربلاء وما حلّ من مصيبة بالحسين، ويعني ذلك أنّه سعى لسنّ المأتم الحسيني شعيرةً دينية.

كان الناس قد تعرّفوا على آل عليعليه السلام في أيام الإمام الباقرعليه السلام، حيث أصبح ذا شأن ومكانة اجتماعية ومرجعية علمية لطلبة العلوم الدينية، واتسعت دائرة نفوذه وتأثيره مقارنةً بأبيهعليه السلام؛ لذا نراه يبذل جهداً أكبر في تدعيم شعيرة المأتم الحسيني لدى الشيعة؛ فكان يقيم المأتم في بيته[١]، وينقل عن شاهد الواقعة الإمام السجادعليه السلام ما لبكاء الحسين من فضلٍ وأجر[٢]، ويحثّ الشيعة لإقامة المآتم في بيوتهم، وقد لزم جانب الاحتياط في كلّ ذلك، كي لا يصطدم بالسلطة[٣].

ولم يكن من الممكن فعل أكثر من ذلك أيام الحكم الأموي، بسبب مضايقتهم للشيعة والعلويين، فطلب الإمام من الشيعة إقامة المأتم بقدر ما تسمح به ظروفهم، وقد سنّ قيام المآتم الحسينية في البيوت ـ ما كان باستطاعة الشيعة أكثر من ذلك ـ وتبيّنت آداب التعزية في هذه المجالس[٤]، كما تفيد رواية مالك الجهني، وحثّ الشعراء على رثاء الحسين[٥] كما هي رواية الكميت، وطلب ـ ولأول مرة ـ إعلان يوم عاشوراء عطلةً رسمية كيوم عزاء عام[٦]، والأهم من ذلك كلّه، تنبيه الشيعة على أنّ المأتم الحسيني يعينهم على دينهم في دنياهم، ويوفقهم لمجاورة النبيصلى الله عليه وآله في

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣: ٢٤٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٨٤هـ، ط٤؛ والخزاز القمي، كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ٢٤٨، تحقيق: السيد عبد اللطيف الحسيني كوه كمري، نشر بيدار، ١٤٠١هـ، ط١؛ وبحار الأنوار ٣٦: ٣٩٠، ح٢.

(٢) الخصال: ٥١٧، ح٤.

(٣) يستنتج ذلك من بيان الإمامعليه السلام: «يأمر من في داره ممن لا يتّقيه، بالبكاء عليه»، وهو حديث ورد في مصباح المتهجد، ونقله الطوسي عن أبي صالح بن عقبة، فانظر: الطوسي، مصباح المتهجد: ٧٧٢، تحقيق: علي أصغر مرواريد، بيروت، مؤسسة فقه الشيعة، ١٤١١هـ، ط١.

(٤) كامل الزيارات: ٣٢٦، ح٥٥٦؛ ومصباح المتهجد: ٧٧٣.

(٥) كفاية الأثر: ٢٤٨؛ وبحار الأنوار ٣٦: ٣٩١، ح٢.

(٦) كامل الزيارات: ٣٢٦، ح٥٥٦؛ ومصباح المتهجد: ٧٧٣؛ وبحار الأنوار ١٠١: ٢٩٠، ح١.

أخراهم[١].

## ٢ ـ أيّام الإمام الصادق عليه السلام

بدأت إمامة الإمام الصادق عليه السلام بعد نصف قرن من واقعة كربلاء، وقد ازداد الشيعة وعلماؤهم عدداً، فازداد اتصال الناس بالإمام. من ناحية أخرى، كان بنو أمية في أيام ضعفهم، حتى سقطوا، وتولّى العباسيون الحكم؛ لذلك حصل الإمام والشيعة على متّسع من الحرية، وتمكّن الإمام من تبيين أسس المأتم الحسيني وإطاره العام. وما وصلنا من كلام الصادق وأفعاله في هذا النطاق، يرسم هيكلية المأتم الحسيني، وهو المعيار المعتمد لإقامة هذه الشعيرة، إلى جانب ما قام به الإمامان: الكاظم والرضا من جهود في هذا المضمار.

وتشكّل الموارد التالية أهمّ ما أوصى به الإمام الصادق، لإحياء ذكرى الإمام الحسين: البكاء على الحسين، وحث الآخرين على البكاء عليه[٢]، وإقامة المآتم في أوقات مختلفة، وكلّما كانت الظروف ملائمة[٣]، واستذكار المصائب التي مرّت بالحسين، كما يفيد حديث مسمع كردين[٤]، واستذكار مصاب الحسين عند شرب الماء[٥]، وحث الشعراء على رثاء الحسين[٦]، ودعوة النعاة إلى رثاء الحسين في البيوت[٧]، وحث النعاة على الرثاء بصوت حزين، بحيث يثير شجون السامعين[٨]، وحث العائلة على المشاركة في المأتم[٩]، والبكاء والنواح على قبر الإمام، وتحسين

---

(١) الشجري، فضل زيارة الحسين عليه السلام: ٤٨، ح٢٥، قم، مكتبة آية الله المرعشي، ١٤٠٣هـ.

(٢) ثواب الأعمال: ١٠٩، ١١٠؛ وكامل الزيارات: ٢٠١، ح٢٨٦، و٢١٠، ح٣٠٠.

(٣) ثواب الأعمال: ١٠٩، ح٢؛ وكامل الزيارات: ٢١٠، ح٣٠١؛ ورجال الكشي ٢: ٥٧٤، ح٥٠٨؛ والأغاني ٧: ٢٦٠؛ والكافي ٨: ٢١٦، ح٢٦٣.

(٤) كامل الزيارات: ٢٠٣، ح٢٩١.

(٥) أمالي الصدوق: ٢٠٥، ح٢٢٣؛ والكافي: ٦: ٣٩١، ح٦؛ ومناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٦٦؛ والكفعمي، المصباح في الأدعية والصلوات والزيارات: ٩٦٧، قم، منشورات الشريف الرضي.

(٦) رجال الكشي ٢: ٥٧٤، ح٥٠٨؛ وثواب الأعمال: ١٠٩، ١١٠.

(٧) ثواب الأعمال: ١٠٩.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) الأغاني ٧: ٢٦٠؛ والكافي ٨: ٢١٦، ح٢٦٣.

عمل من يقوم بذلك، والدعاء له[١].

وقد أبدى الإمام الصادقعليه السلام اهتماماً بالغاً بإقامة المأتم يوم عاشوراء، وقد ورد عنه في هذا الخصوص الحث على زيارة قبر الحسين يوم عاشوراء[٢]، والتذكير بعظمة المصاب في يوم عاشوراء، وما لهذا اليوم من أهمية، وضرورة إحياء ذكراه[٣]، والامتناع عن الملذات فيه، والإمساك فيه عن الطعام والشراب حتى الغروب[٤]، وارتداء زيّ الحداد[٥]، وتصوير وإحياء واقعة كربلاء في الذاكرة[٦]، وإقامة المأتم في هذا اليوم، وإن كان الشخص بمفرده[٧].

**ج ـ مرحلة إكمال العمل على المأتم وتوسيعه في أيام الإمامين الكاظم والرضا**

في هذه المرحلة كان الشيعة قد عرفوا ضرورة إحياء ذكرى سيّد الشهداء، واستذكار مصيبته في كل زمان، وإقامة المأتم له، خاصة في يوم عاشوراء. وكانت الأرضية مهيأةً لاستكمال هذه الشعيرة واتساعها.

**١ ـ أيّام الإمام الكاظمعليه السلام.**

حثّ الإمام الكاظم كأبيه، النعاة والشعراء على رثاء الحسين[٨]، وسنّ المأتم

---

(١) كامل الزيارات: ٥٣٧، ح٨٢٩.

(٢) مصباح المتهجد: ٧٧١، ٧٧٢؛ وتهذيب الأحكام ٦: ٥١، ح١٢٠؛ والمفيد، المزار: ٥١، ح١، تحقيق: السيد محمد باقر الأبطحي، قم، مؤتمر ألفيّة الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ، ط١؛ وابن طاووس، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة في السنة ٣: ٦٤، تحقيق: جواد القيومي، قم، دفتر تبليغات إسلامي، ١٤١٤هـ، ط١؛ وبحار الأنوار ١٠١: ١٠٥، ح١١.

(٣) الصدوق، علل الشرائع ١: ٢٢٥، ح١، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٠٨هـ، ط١؛ ومصباح المتهجد: ٧٧٣؛ ومصباح الزائر: ٢٦٩.

(٤) المفيد، مسار الشيعة: ٤٣، المؤتمر العالمي للشيخ المفيد.

(٥) مصباح المتهجد: ٧٨٢؛ والمشهدي، المزار الكبير: ٤٧٣، ح٦، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، قم، قيوم، ١٤١٩هـ، ط١؛ والإقبال ٣: ٦٥؛ وبحار الأنوار ١٠١: ٣٠٣، ح٤.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٤٣٣.

في العشرة الأولى من المحرم، بالرثاء والتزام الحداد فيها[١]، كما علّم الشيعة آداب المأتم في يوم عاشوراء، أي أنّ عليهم الإعداد لهذا اليوم، والتحضير له قبل تسعة أيام، ليأتي المأتم في يوم عاشوراء بالشكل المطلوب.

وعلى الرغم من ذلك، لم يصلنا الكثير من الروايات بهذا الشأن، لعودة أيام الضيق والشدّة على الإمام والشيعة، حيث سجن فيها الإمام، لكنّ الظروف كانت مختلفةً عمّا سبق، فقد ظهر أعلام من الشيعة، لهم نفوذ في مناطق مختلفة، وأدّوا دوراً هاماً في إدارة المجتمع الشيعي عبر الاتصال بوكلاء الأئمة عليهم السلام، وبالطبع قاموا بأمور فيما يخصّ المأتم الحسيني، لكنّ التاريخ لم يحتفظ بها لنا، بسبب التكتم والتشتّت الذي كان يعيشه الشيعة آنذاك، وأهمّ شاهد على ذلك قصائد رثاء دعبل الخزاعي للإمام الحسين، التي اشتهرت بين الناس في أيام الإمام الرضا وبعد موت هارون الرشيد، مما يدلّ على وجود أرضية مناسبة لقبول تلك المراثي، وقد تهيأت هذه الظروف بفضل جهود الأئمة السابقين والآليات المتبعة بين الشيعة.

**٢ ـ أيّام الإمام الرضا عليه السلام**

يمكننا تصنيف جهود الإمام الرضا إلى قسمين:

**أ ـ السعي لإرساء تعاليم الأئمة من قبله:** فقد بيّن الإمامان الباقران أهمية إحياء ذكرى سيد الشهداء وتكريم الشعراء والنعاة الذين يرثون الحسين، وقد رأى الإمام الرضا عليه السلام ضرورة إرساء هذه التعاليم وجعلها شعيرةً ثابتة؛ ولذلك نرى اهتمامه البالغ بدعبل الخزاعي الذي رثى الإمام الحسين وأهل البيت في قصيدة طويلة، وقد بكى الإمام حين سماعه الأبيات المشيرة منها إلى واقعة كربلاء، وأثنى على دعبل وقدّم له الهدايا، تكريماً لعمله؛ وقراءة هذه القصيدة التي ترثي الحسين عليه السلام في مجلس عام وبحضور المأمون، الخليفة العباسي، شاهدٌ على أنّ الظروف كانت مهيأةً لنشر المأتم، بمعنى الرثاء والبكاء.

من ناحية أخرى، نجد الإمام الرضا يؤكّد ـ كالأئمة من قبله ـ على عظم المصاب الذي حلّ بالحسين يوم عاشوراء، ويحثّ الشيعة على التزام الحداد فيه[٢]،

(١) أمالي الصدوق: ١٩٠، ح١٩٩؛ والإقبال ٣: ٢٨.

(٢) علل الشرائع: ٢٢٧، ح٢؛ وعيون أخبار الرضا ١: ٢٩٨، ح٥٧؛ وأمالي الصدوق: ١٩١، ح٢٠١؛

وقد بيّنت الروايات زوايا أخرى من جهوده لإحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام، منها ذكر بكاء إبراهيم عليه السلام على مصاب سيد الشهداء، وأنّ «الذبح العظيم» في الآية: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠٧)، هو الحسين[١]، وبكاء الإمام الرضا حينما أهديت له تربة كربلاء[٢].

ب ـ **السعي لنشر المأتم وتوسعته:** وذلك عبر الحث على استذكار مصاب أهل البيت بشكل يبكي المرء ويبكي من حوله[٣]، والحث على ذكر مصاب الحسين، والبكاء عليه حين وقوع الحوادث المؤلمة، لعظمة المصاب يوم عاشوراء، وعظمة مكانة الشهداء فيه[٤].

لقد أدّت وصايا الإمام الرضا هذه إلى اتساع ذكر مصائب الحسين إلى المآتم الخاصة، حيث يقوم الخطباء والنعاة لدى الشيعة في المآتم المقامة للأموات بذكر مصيبة الحسين.

ومن بين الخطوات التي قام بها، كان التذكير بأهمية شهر محرم، حيث أبيحت فيه حرمتان من حرمات الله: حرمة الشهر، وحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله[٥]، وكذلك التأكيد

---

والإقبال ٣: ٨١؛ وروضة الواعظين: ١٨٧؛ ومناقب ابن شهر آشوب ٤: ٨٦؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٨٤، ح١٨.

(١) الخصال: ٥٨، ح٧٩؛ وعيون أخبار الرضا ١: ٢٠٩، ح١؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٢٥، ح٦.

(٢) كامل الزيارات: ٤٧٤، ح٧٢٣؛ وبحار الأنوار ١٠١: ١٣١، ح٥٦.

(٣) عيون أخبار الرضا ١: ٢٩٤، ح٤٨.

(٤) أمالي الصدوق: ١٩٠، ح١٩٩، و١٩٢، ح٢٠٢؛ والإقبال ٣: ٢٨، ٢٩؛ وروضة الواعظين: ١٨٧؛ ومناقب ابن شهر آشوب ٤: ٨٦؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٨٣، ح١٧، و٢٨٥، ح٢٣؛ وعيون أخبار الرضا ١: ٢٩٩، ح٥٨؛ ففي عيون أخبار الرضا، عن الريان بن شبيب، دخلت على الرضا عليه السلام في أول يوم من المحرم، فقال: ..يا ابن شبيب، إن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنّه ذبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما لهم في الأرض شبيهون، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله. ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره فلم يؤذن لهم، فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم، فيكونون من أنصاره وشعارهم: يا لثارات الحسين.

(٥) عيون أخبار الرضا ١: ٢٩٩، ح٥٨؛ وأمالي الصدوق: ١٩٢، ح٢٠٢؛ والإقبال ٣: ٢٩؛ وبحار

على نهج أبيه في الحداد، من اليوم الأول من محرم وحتى اليوم العاشر، فوسّع هذا الأمر بحدّ ذاته المأتم من يوم عاشوراء إلى عشرة أيام[١]، وقد أدّت هذه الجهود إلى مضاعفة الاهتمام بشهر محرم لدى الشيعة، وأسّست لثقافة الحداد في العشرة الأولى منه، وصون حرمة الشهر في القرون اللاحقة وحتى العصر الحاضر.

## اتضاح الصورة الكاملة للمأتم الحسيني مع نهاية عهد الإمامين: الكاظم والرضا

بيّن الأئمة من بعد الحسينعليه السلام وحتى الإمام الرضاعليه السلام الأمور التالية، في ما يخصّ المأتم الحسيني:

١ ـ البكاء على الحسين واستذكار مصائبه، وأنّ في ذلك نصرةً لدين الله[٢].

٢ ـ ضرورة استذكار مصاب الحسين بشكل منتظم ومستمر، ولو بشكل فردي، كما في حديث مسمع كردين[٣].

٣ ـ آداب ذكر الحسين[٤].

٤ ـ استذكار مصاب الحسين عند شرب الماء[٥].

٥ ـ البكاء على مصاب الحسين ولو بدمعة واحدة، وما لذلك من أهمية[٦].

٦ ـ حث الآخرين على البكاء على الحسين، والأجر الوافر الذي يترتب على ذلك[٧].

---

الأنوار ٤٤: ٢٨٥، ح٢٣.

(١) أمالي الصدوق: ١٩١، ح١٩٩؛ والإقبال ٣: ٢٨؛ وروضة الواعظين: ١٨٧؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٨٤، ح١٧.

(٢) فضل زيارة الحسين: ٤٧، ح٢٥.

(٣) كامل الزيارات: ٢٠٣، ح٢٩١.

(٤) الكافي ٤: ٥٧٥، ح٢.

(٥) المصدر نفسه ٦: ٣٩١، ح٦؛ وأمالي الصدوق: ٢٠٥، ح٢٢٣؛ وكامل الزيارات: ٢١٢، ح٣٠٤؛ وروضة الواعظين:١٨٩؛ وبحار الأنوار ٦٦: ٤٦٤، ح١٧.

(٦) أمالي المفيد: ٣٤١، ح٦؛ وأمالي الطوسي: ١١٧، ح١٨١؛ وثواب الأعمال: ١٠٩، ح١؛ وكامل الزيارات: ٢٠٢، ح٢٨٧.

(٧) ثواب الأعمال: ١٠٩، ح٣٠؛ وكامل الزيارات: ٢١٠، ح٣٠٠؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٨٩، ح٢٩.

٧ ـ أهمية «حالة البكاء» حين استذكار مصاب الحسين[(١)].

٨ ـ ضرورة التأثر بذكر المصاب طوال اليوم[(٢)].

٩ ـ الرثاء في قالب الأشعار، وجعل الآخرين يبكون[(٣)].

١٠ ـ إقامة مجالس ذكر الحسين ورثائه في البيوت.

١١ ـ آداب مجالس ذكر مصاب الحسين، وتعزية الحاضرين بعضهم بعضاً.

١٢ ـ الرثاء بصوت حزين.

١٣ ـ جواز الجزع على الحسين، وما لذلك من أجر.

١٤ ـ جواز اللطم على الوجه وشق الجيوب[(٤)]، وهما من مظاهر الجزع في المأتم الحسيني[(٥)].

١٥ ـ البكاء على الحسين حين نزول بلاء يستدعي البكاء[(٦)].

١٦ ـ زيارة قبر الحسين، ورثائه والبكاء عليه في الأوقات كافّة[(٧)].

## كيفية إحياء يوم عاشوراء في روايات أهل البيت

وردنا عن أئمة أهل البيت‰ ما يبيّن كيفية إحياء ذكرى عاشوراء، منها:

١ ـ الاهتمام بشهر محرم.

٢ ـ استقبال يوم عاشوراء من أول يوم من محرّم بالحزن والأسى.

---

(١) ثواب الأعمال: ١٠٩، ح٢؛ وكامل الزيارات: ٢٠٩، ح٢٩٨؛ وأمالي الصدوق: ٢٠٥، ح٢٢٢؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢.

(٢) كامل الزيارات: ٢١٤، ح٣٠٩؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٨٠، ح١١.

(٣) رجال الكشي ٢: ٥٧٤، ح٥٠٨؛ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢، ح١٦.

(٤) كان اللطم على الوجوه وشق الجيوب من تقاليد العزاء قديماً، ويقومون بها حديثاً في بعض المناطق، وتبيّن هذه الرواية الحكم الفقهي لهذا العمل، لكنها تعتبره جائزاً بل محبّباً في المأتم الحسيني.

(٥) تهذيب الأحكام ٨: ٣٢٥، ح١٢٠٧؛ وعوالي اللآلي ٣: ٤٠٩، ح١٥؛ وبحار الأنوار ٨٢: ١٠٦.

(٦) عيون أخبار الرضا ١: ٢٩٩، ح٥٨؛ وأمالي الصدوق: ١٩٢، ح٢٠٢.

(٧) كامل الزيارات: ٥٣٧، ح٨٢٩؛ وبحار الأنوار ١٠١: ٧٤، ح٢١.

٣ ـ ذروة الحزن والبكاء في يوم عاشوراء.

٤ ـ الاهتمام البالغ بهذا اليوم، فأعظم مصاب قد وقع فيه.

٥ ـ اعتباره يوم مصاب وحزن.

٦ ـ الحرص على زيارة قبر الحسين في هذا اليوم.

٧ ـ بدء هذا اليوم بالسلام على الإمام ولعن قاتليه وإهداء الصلاة له، ثمّ إقامة المأتم في البيت، والبكاء والنواح بشكل جماعي إن لم تتسنّ زيارة القبر[١].

٨ ـ التوقف عن العمل في هذا اليوم[٢].

٩ ـ إقامة مجالس العزاء في البيوت والبكاء فيها.

١٠ ـ استذكار مصاب الإمام الحسين، ولو على انفراد.

١١ ـ تخيّل الواقعة.

١٢ ـ ارتداء زيّ الحداد.

١٣ ـ الامتناع عن الملذات والأكل والشرب حتى الغروب.

## المرحلة الثالثة: ما بعد التأسيس وحتى أواسط القرن الرابع

ونعني ما بعد التأسيس لهذه الشعيرة، وحتى أواسط القرن الرابع حيث أخذت طابعاً رسمياً، فقد تقلّد الإمام الجوادعليه السلام الإمامة عام ٢٠٣هـ حيث لم يجتز بعدُ مرحلة الطفولة، وكانت الحكومة آنذاك تستخدم آلية المراقبة الدائمة للأئمة لمنع أيّ اتصال من قبل الشيعة بهم، وقد بدأت بذلك منذ دعوة المأمون الإمام الرضا إلى مرو. من ناحية أخرى، كان كلّ من الإمام الباقر والصادق والكاظم والرضا قد بذلوا ما بوسعهم من جهود، نظراً للفرص المتاحة لهم، وعرّفوا الشيعة بما لديهم. كما اختلفت أوضاع الشيعة ـ من حيث العدد والعدة ـ عن ذي قبل، فكان بإمكانهم تخطّي المرحلة، والاستمرار في إقامة المراسم والشعائر الدينية بإرشاد من العلماء الذين تلمّذوا على الأئمةعليهم السلام. وفي ظروف كهذه، حيث قلّ اتصال الناس بالإمام، وكثر

---

(١) مصباح المتهجد: ٧٨٢؛ والمزار الكبير: ٤٧٣، ح٦؛ والإقبال ٣: ٦٥؛ وبحار الأنوار ١٠١: ٣٠٣، ح٤.

(٢) كما سبق ذكره، الإمامان الباقر والرضا أيضاً أرادا ذلك.

رجوعهم إلى العلماء، من الطبيعي أن لا ينقل إلا القليل عن الأئمة، خاصّة فيما يخصّ المأتم الحسيني، فيبدو ذلك مستحيلاً في أيام المتوكل على سبيل المثال.

لكن على الرغم من ذلك، لم يتوقف الشيعة عن إقامة المأتم الحسيني في البيوت والمجالس الخاصّة، على الأقل كما كان يفعل الإمامان: الباقر والصادقعليهما السلام، وبعض الشيعة آنذاك، لكن لم يذكر المؤرّخون شيئاً من ذلك، لقيامهم بذلك في الخفاء وبعيداً عن أعين الحكومة وعمّالها.

وقد أعطى انتشار التشيّع على الصعيد المذهبي المتجلّي في الفرق الاثني عشرية، والزيدية، والإسماعيلية، وعلى صعيد حبّ أهل البيتعليهم السلام.. أعطى الشيعة قوّةً في المجتمع الإسلامي آنذاك، مما جعل بعضهم يعتقد أنّ الثورات الشيعية ستؤتي ثمارها؛ ولذلك قامت ثورات في مناطق مختلفة، وحتى السادة الحسنيون - من الزيدية - أقاموا حكومةً في طبرستان ونواحيها (عام ٢٥٠هـ أيام إمامة الحسن العسكريعليه السلام)، وذلك كلّه شاهد على انتشار التشيّع وقوته، وإن لم نجد ما يدل على قيام المآتم الحسينية أيام حكم العلويين في طبرستان. لكن يستبعد عدم قيام المآتم الحسينية في هذا المقطع، خاصّة في المناطق الشيعية البعيدة عن عاصمة الخلافة، كقم، والري، واليمن، ومناطق من شمال إفريقيا.

وقد ورد أنّ الخليفة العباسي المنتصر، دعا الناس لزيارة كربلاء كما كانت تقام في الماضي، وذلك في عام ٢٤٨هـ بعد موت أبيه[١]، كما أمر بإعادة بناء مزار الحسين[٢]، ومنع التعرّض للشيعة بالأذى[٣]، ولم يضيّق الخلفاء من بعده على زوّار الحسين كما فعل المتوكل، وإن لم تخلُ الحكومات المختلفة من مضايقات على الشيعة، كأيام حكم الحنابلة لبغداد، قبل استيلاء البويهيين على الحكم[٤]، لكنّ الشيعة تابعوا زيارة الحسين، خاصة أيام عاشوراء وعرفة ومنتصف شعبان.

وتدلّ النصوص الواردة عن عصر الغيبة الصغرى (٢٦٠ - ٣٢٩هـ) على إقامة

---

(١) الكامل في التاريخ ٤: ٣٥٥.

(٢) مروج الذهب ٤: ٥١؛ والكامل في التاريخ ٤: ٣٥٥.

(٣) مروج الذهب ٤: ١٣٥.

(٤) الكامل في التاريخ ٧: ١١٣.

المأتم في مزار الحسين، فقد تحدّث ابن الأثير عن بكاء الشيعة ونواحهم عند زيارة قبر الإمام الحسين فيما نقله من أحداث نهاية القرن الثالث (عام ٢٩٦هـ)، حيث رأى يمنياً شيعياً على تلك الحال[1]، وذكر القاضي أبو علي محسن بن علي التنوخي (٣٨٤هـ)، أنّ أحد النعاة واسمه «ابن أصدق» كان ينعى الحسين في أيام حكم الحنابلة ببغداد، ويقول الراوي: إنّه أراد تكليف ابن أصدق برثاء الحسين؛ فذهب للبحث عنه في مزاره ليلة النصف من شعبان ـ حيث يتوافد الشيعة للزيارة فيها ـ فوجده هناك، وعلى الرغم من خطورة ذلك، قضى تلك الليلة بقراءة المراثي، وأبكى الحاضرين[2]، وورد أنّ «بربهاري»[3]، زعيم حنابلة بغداد (٣٢٩هـ)، أمر بقتل ناعٍ يدعى «خلب»؛ لرثائه الحسين متخفياً في بيوت الشيعة، وذلك في نهاية الغيبة الصغرى[4]، ويقول ابن حجر، عند الحديث عن الشاعر الشيعي الناشئ الصغير، أبي الحسن الحلا علي بن عبد الله، المولود عام ٢٧١هـ: إنّ أشعاره كانت تقرأ في رثاء الحسين عام ٣٤٦هـ وقد بكى هو ومن حوله حتى الظهر ذلك اليوم[5].

ذلك كلّه يدلّ على أنّ الشيعة لم يكفّوا عن البكاء وإقامة المأتم الحسيني، وسعوا لإعلان ذلك ما سمحت لهم ظروفهم، ويؤيّد ذلك ما ورد عن إقامة أهل مصر المأتم عند قبور بنات الإمام الحسين، أم كلثوم ونفيسة، في يوم عاشوراء، أيام الحكّام السنّة: أخشيد وكافور (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ)، حيث أمر كافور جنوده بمراقبة الصحراء (طريق المعزين) لمنع الناس من الذهاب إلى تلك القبور[6].

لو لم يصبح المأتم الحسيني شعيرةً رسمية في بغداد ومصر، لما ذكر المؤرّخون شيئاً عن هذه المآتم؛ فحين قامت الحكومات الشيعية وتسلّمت مراكز

---

(١) المصدر نفسه ٥: ١٤.

(٢) التنوخي، نشوار المحاضرة ٢: ٢٣٠، تحقيق: عبود شالجي المحامي، بيروت، نشر دار صادر، ١٩٩٥م، ط٢؛ وابن النديم، بغية الطلب في تاريخ حلب ٦: ٢٦٥٤.

(٣) تجارب الأمم ١: ٣٢٢؛ والكامل في التاريخ ٨: ٣٠٧؛ ومعجم الأديان ٦: ٤٣٦.

(٤) نشوار المحاضرة ٢: ٢٣٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان ٤: ٢٣٨، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٦هـ، ط٢.

(٦) المقريزي، الخطط ٢: ٢٨٩، مكتبة إحياء العلوم.

القرار، اضطرّ المؤرخون لنقل أخبارهم، ومنها المأتم الحسيني، وتبعاً لذلك جاؤوا على ذكر المآتم الحسينية السابقة.

## المرحلة الرابعة: المأتم الحسيني والتقليد الرسمي، عهد الحكومات الشيعية (ق ٤ . ٥هـ)

أخذ المأتم الحسيني طابعاً رسمياً مع قيام الحكومات الشيعية في العالم الإسلامي؛ فقد حكم البويهيون في إيران[١] ، والفاطميون في شمال إفريقيا[٢]، وأخذا بالتوسع في مطلع القرن الرابع؛ فكان البويهيون يحكمون إيران عدا المناطق الشرقية، كما يحكمون وسط العراق في منتصف هذا القرن، وقد أحكم الفاطميون سلطتهم على الشمال الشرقي من أفريقيا ومصر والشام وفلسطين.

لقد أصبح المأتم الحسيني تقليداً رسمياً عام ٣٢٥هـ حيث أمر الحاكم البويهي، معز الدولة الديلمي، الناسَ بإقامة المآتم في الطرق[٣]، كما أصبحت إقامة المآتم رسميةً في مصر بعد عقد من الزمن أيام الدولة الفاطمية[٤]. كذلك كان لدى حكومات أخرى ميول شيعية، لكن لم يصلنا ما يدلّ على إقامتهم المآتم، لكن ذكر أبو ريحان البيروني (بعد٤٠٣هـ)[٥] وعبد الجبار المعتزلي[٦] إقامة المآتم الحسينية في

---

(١) منطقة ديلم في شمال إيران هي مسقط رأس حكام البويهية، وتعدّ هذه المنطقة وما جاورها . كطبرستان . من المناطق الشيعية منذ القدم، خاصة وأنّ العلويين حكموا فيها لفترة؛ لذلك يعرفون بالديلميين أيضاً، كما عرفوا بتشيّعهم.

(٢) الحكم الفاطمي في مصر: أثمرت جهود الدعاة الإسماعيليين عام ٢٩٦هـ، وأسّس عبيد الله المهدي الدولة الشيعية الإسماعيلية المعروفة بالفاطميين في المغرب، وقد أدّى عدم وجود حكومة قوية في مصر إلى استيلاء الدولة الفاطمية عليها عام ٣٦٢هـ، ونقل الفاطميون عاصمتهم إلى فسطاط مصر، وقد اتسعت هذه الدولة شيئاً فشيئاً، حتى احتلّت الشام والحجاز، استمرّ الحكم الفاطمي لأكثر من قرنين، وانتهى بموت العاضد آخر الحكّام الفاطميين، عام ٥٦٨هـ.

(٣) الكامل في التاريخ ٥: ٣٣١؛ وابن الجوزي، المنتظم ١٤: ١٥٠، بيروت، دار الكتب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م؛ ويوسف بن تغري البردي، النجوم الزاهرة ٣: ٣٣٤، المؤسسة المصرية العامة؛ والبداية والنهاية ١١: ٢٧٦.

(٤) الخطط المقريزية ٢: ٢٨٩.

(٥) الآثار الباقية: ٣٢٩، نقلاً عن موسوعة الإمام الحسين عليه السلام ٤: ٦٧٠.

(٦) تثبيت دلائل النبوة: ٤٤٣، نقلاً عن رسول جعفريان، تاريخ التشيّع في إيران ١: ٣١٩، قم،

كبرى مدن العالم الإسلامي، وذلك في أيام الدول الشيعية في القرن الرابع والخامس.

## المأتم الحسيني في بغداد

بعد أن أمر معز الدولة بإقامة المآتم العامة، أصبح ذلك شعيرةً وسنّة تقام سنوياً في يوم عاشوراء، حيث ينزل الشيعة إلى الطرقات يرثون الحسين عليه السلام ويبكونه[(١)]، الأمر الذي أزعج سنّة بغداد ـ سكّان عاصمة الخلافة ـ مما أدّى إلى حدوث اشتباكات بينهم وبين الشيعة[(٢)]، وقد زادوا من معارضتهم لذلك حين ضعفت الدولة البويهية، وزادت حدّة الاشتباكات في يوم عاشوراء، ولم تتمكّن الحكومة من إحلال الأمن والاستقرار؛ لذلك طلب بعض الوزراء البويهيين الذين حكموا بغداد في العقود الأخيرة من حكمهم، عدم إقامة المآتم، ومنعوها أعواماً أخرى؛ حفظاً للأمن وحقناً للدماء[(٣)]، وقد روت الكتب التاريخية ـ كالمنتظم لابن الجوزي (ج ١٥) ـ هذه الأحداث بالتفصيل. وعلى الرغم من كلّ هذه الصعوبات استمرت إقامة المآتم الحسينية في بغداد حتى نهاية حكم البويهيين عليها، ثمّ منعت جميع الشعائر الشيعية ـ لاسيما إقامة المآتم الحسينية ـ من قبل الدولة السنّية المتعصّبة للسلاجقة عام ٤٤٧هـ ومع ذلك، هناك روايات تدلّ على إقامة المأتم يوم عاشوراء عام ٤٥٨هـ بعد عقد من سقوط البويهيين، وما ذلك إلا شاهد على استمرار الشيعة في نهجهم، حيث كلّما أتيحت لهم الفرصة أقاموا المآتم علناً[(٤)].

يقول الشيخ المفيد ـ أحد كبار العلماء الشيعة في ذلك العهد والذي له دور كبير في تدوين المعتقدات الشيعية زمن الغيبة ـ عن عاشوراء: يتجدّد في هذا اليوم

---

انصاريان، ١٣٧٥ش/١٩٩٦م. وتدلّ المآتم التي كانت تقام لفاطمة الزهراء في هذه المناطق، على أولوية وجود مأتم للحسين، وبالشكل ذاته، أي النعي والنواح والبكاء والرثاء.

(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ١٤: ٢١٠؛ والبداية والنهاية ٨: ٢٢٠.

(٢) الكامل في التاريخ ٥: ٣٣٦؛ والبداية والنهاية ١١: ٢٨٦.

(٣) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ١٥: ٣٧.

(٤) المصدر نفسه ١٦: ٩٤؛ والبداية والنهاية ١٢: ١١٤.

حزن أهل بيت النبي وشيعتهم، وعلى الشيعة الامتناع عن الملذات فيه، كما أوصى بذلك أئمتهم، وأن يقيموا المآتم، ويأكلوا كما يأكل أهل العزاء[١].

## المآتم الحسينية في مصر

كما أسلفنا، كان شيعة مصر يقيمون المأتم يوم عاشوراء عند قبر بنات الأئمة: أم كلثوم ونفيسة، وذلك قبل حكم الفاطميين، وقد أصبحت هذه المراسم رسميةً بعد استيلاء الفاطميين على حكم مصر، وأقيمت بترتيبات حكومية خاصة[٢] كما ذكر المؤرخون[٣]، واستمرّ ذلك حتى سقوط الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ[٤]، وإن تخلّل ذلك في بعض الأعوام تعطيلٌ لظروف طارئة.

وبعد الإطاحة بالفاطميين، أخذت الدولة الأيوبية بزمام الأمور، وسعت إلى محو الثقافة الشيعية[٥]؛ لذا من غير المتوقع أن يُذكر شيء عن المآتم الحسينية في المصادر التاريخية لهذه الفترة، بيد أنّ الشيعة سعوا في مناطقهم ـ كالشام وحلب وشمال العراق ـ لإقامة شعائرهم علناً كلّما سمحت لهم الظروف بذلك، وعلى سبيل المثال، حين أرسل الحاكم الأيوبي جيوشه لقمع حاكم حلب، استنجد الأخير بالناس، فاشترط الشيعة حرّيتهم في إقامة شعائرهم مقابل معونته، ومنها رفع شعار «حي على خير العمل» في المسجد الجامع، وقد قبل الحاكم بذلك.

لقد منع الأيوبيون الشعائر الشيعية بعد أن استولوا على حكم مصر، ومن غير المتوقع استمرار المآتم الحسينية في مثل هذه الظروف، لكن تدلّ بعض القرائن على استمرار حبّ الناس وتعلّقهم بالحسين والسيدة نفيسة في مصر، ومن الممكن أن تكون المآتم قد استمرّت في السرّ والخفاء. يذكر ابن تيمية ـ وهو من مؤلّفي القرن الثامن ـ في كتابه رأس الحسين، الحوارات التي جرت بين المسلمين والمسيحيين،

(١) مسار الشيعة: ٤٣.

(٢) الخطط المقريزية ٢: ٢٩١؛ والنجوم الزاهرة ٥: ١٥٣.

(٣) الخطط المقريزية ٢: ٢٨٤، ٢٩٠، ٢٩١.

(٤) النجوم الزاهرة ٥: ٣٥٦.

(٥) الخطط المقريزية ٢: ٣٨٩.

ويقول: «كان بعض المسيحيين يقول للمسلمين: نحن متشابهان، لدينا سيّد وسيدة، ولديكم سيد وسيدة، لدينا عيسى ومريم، ولديكم حسين ونفيسة»[1]. ويدلّ قولهم هذا على أنّ المصريين كانوا يكنّون الاحترام والإجلال للحسين عليه السلام ونفيسة من ذرية الحسن عليه السلام، وكان المسيحيون على علم بذلك، حيث تحدّثوا عنه في حواراتهم مع المسلمين.

## المرحلة الخامسة: الشعائر الحسينية في ظل انعدام الدول الشيعية القويّة (ق٦ ـ ١٠)

### ١ ـ القرن السادس:

مع بداية القرن السادس، كانت الدولة السلجوقية تحكم كلاً من إيران والعراق، أما مصر فكانت تحكمها الدولة الإسماعيلية الشيعية. أما الدولة السلجوقية فقد قلّلت من حدّة مضايقاتها، فكسب الشيعة قدراً من الحرية لممارسة طقوسهم في إقامة المآتم الحسينية، وما وردنا عن إقامة المآتم الحسينية في هذا القرن يدلّ على أنّ هذه المآتم قد ترسّخت في معتقدات الشيعة شعيرةً دينية، ولم يتوان الشيعة عن أدائها ولو بالخفاء، إن لم تحالفهم الظروف.

وتذكر النصوص التاريخية بصراحة إقامة المآتم الحسينية في هذا القرن، كما تشير إلى الحرية المتاحة للشيعة في إقامة شعائرهم، مما يدلّ على إقامة المآتم الحسينية، ومن هذه الروايات:

١ـ رواية الرازي القزويني في كتاب النقض، حيث تشير إلى إقامة المآتم الحسينية من قبل الشيعة، كما يردّ الكاتب على الشبهات حول المأتم الحسيني، ويذكر إقامة المآتم من قبل أهل السنّة في مناطق مختلفة، منها المجالس التي كان يقيمها الواعظان: علي بن الحسين الغزنوي وقطب الدين مظفّر أمير العبادي، في بغداد. وجدير بالذكر أنّ الكاتب ألّف هذا الكتاب رداً على كاتب سنّي متعصب، وبما أنّ الكتاب يبيّن بوضوح حجم المآتم المقامة آنذاك، ارتأينا نقل نصوص منه، حيث

---

(١) ابن تيمية، رأس الحسين: ١٩٢، تحقيق: الدكتور سيد الجميلي.

قال: «قال: يبدي الشيعة في يوم عاشوراء الجزع والفزع، ويقيمون المأتم، ويذكرون مصائب الشهداء في كربلاء على المنابر، ويسردون في ذلك القصص، فيخلع علماؤهم عمائمهم، ويشقّ العوام جيوبهم، وتنتحب نساؤهم ويلطمن الخدود، وقد ذكر هذا الكلام على سبيل التقبيح، واعتبره اتهاماً وبدعة مرفوضة، وما ذلك إلا لبغضه لآل الرسولﷺ وعداوته لأولاد البتول؛ إذ يعلم العالمين أنّ عظماء أئمة الفريقين: الشافعية والحنفية، وعلماء سائر الفرق وفقهاءهم قد عملوا بهذه السنّة وتمسّكوا بها، وللشافعي الذي نسبت إليه الفرقة ـ بغض النظر عن مناقبه وآثاره ـ مراثي كثيرة في الحسين وشهداء كربلاء، منها قصيدة يقول فيها:

أبكي الحسين وأرثي [منه] جحجاحا ... من أهل بيت رسول الله

ويقول في قصيدة أخرى:

تأوّب همّي فالفؤاد كئيب ... وأرقّ نومي فالرّقاد عجيب

وجاء فيها بمعان لا يقدر سواه على الإتيان بها، ولا تحصى المراثي التي جاء بها هو وأبو حنيفة في شهداء كربلاء، إذاً لو كان هناك إشكال في الأمر، لوقع على أبي حنيفة والشافعي أولاً، ثمّ ورد علينا، وإذا تتبعنا الأمر وجدنا أن الخواجة بومنصور ماشاده ـ من عظماء المذهب السنّي في عهده ـ كان يحيي ذكرى هذا اليوم بالحزن والنواح والبكاء في إصفهان، ولم يستنكر ذلك أحد. وهل تعلم كيف كان يقيم الخواجة علي الغزنوي الحنفي المآتم في بغداد مدينة السلام ودار الخلافة؟ فقد كان يبالغ في لعن السفيانيين، وقد سئل يوماً: ما قولك في معاوية؟ قال بصوت عال: يسأل علياً عن معاوية! هل تعلم ما قول علي في معاوية؟ وقد سئل الأمير عبادي ـ من كبار العلماء في عهده ـ: ما قولك في معاوية؟ وذلك عند المقتفي لأمر الله في ليلة عاشوراء، فلم يجب حتى تكرّر عليه السؤال ثلاث مرات؛ فقال في المرة الثالثة: تسأل سؤالاً مبهماً! أي معاوية تقصد؟! هل ذاك الذي كسر أبوه سنّ المصطفى، ومزّقت أمّه كبد حمزة، وشهر السيف هو أكثر من عشرين مرّة في وجه علي، وقطع ابنه رأس الحسين؟! أيها المسلمون! ما قولكم في معاوية؟! فبدأ الناس بلعن معاوية في حضور الخليفة وعلماء الشافعية والحنفية.

كما كانت تقام المآتم الحسينية كل عام في يوم عاشوراء ببغداد، فيعلو فيها البكاء والنواح، وكان مجد الدين مذكر الهمداني يقيم المآتم الحسينية بهمدان في ذكرى عاشوراء على نحو أدهش أهلَ قم، على الرغم من سلطة المشبّهة عليها وحضور الجيش التركي فيها. وكان الخواجة إمام نجم أبو المعالي بن أبي القاسم البزاري يقيم المأتم الحسيني بنيسابور، على الرغم من كونه حنفيّ المذهب، فيقوم بالنواح والصراخ ونثر التراب على رأسه، ويعلم الجميع ما كان يفعل الشيخ أبو الفتوح نصرآبادي والخواجة محمود الحدادي الحنفي وآخرون في مساجد الريّ وخان كوشك بيوم عاشوراء، من إقامة المآتم الحسينية ولعن الظلمة. وكان الخواجة إمام شرف الأئمة أبو منصور الهسنجاني يروي واقعة عاشوراء كل عام على نحو لا يأتي بمثله أحد، وذلك في حضور أمراء الأتراك وقادتهم وكبار الحنفيين، ويحظى في ذلك بتأييدهم ودعمهم جميعاً.

وقد رأى الجميع كيف روى الخواجة إمام بومنصور حفده، من كبار أتباع الشافعي، الواقعة بيوم عاشوراء في جامع سرهنك حين حضوره في مدينة الري، حيث فضّل الحسين على عثمان، ووصف معاوية بالطاغوت، كما روى الواقعة القاضي الساوي الحنفي ـ من الوعاظ المشهورين ـ في جامع طغرل وبحضور عشرين ألف شخص، بنحو لم يأت بمثله أحد، حيث خلع عمامته وشقّ جيبه. ورأى الناس ما قام به الخواجة تاج شعري الحنفي النيسابوري في يوم عاشوراء بعد الصلاة بالجامع العتيق عام ٥٥٥هـ وذلك بإذن من القاضي وبحضور العظماء والأمراء، فلو كان في الأمر بدعة كما يقول الخواجة مجبّر الانتقالي، لم يأذن به أهل الفتيا ولم يسمح به أئمة المذاهب.

وإن لم يذهب الخواجة الانتقالي إلى مجالس الحنفيين والشيعة، فلابد أنّه ذهب إلى مجلس شهاب المشاط، الذي يبدأ كل عام بحلول محرم بمقتل عثمان وعلي وينتهي في يوم عاشوراء بمقتل الحسين. وقد قام بالنعي في المأتم عند حرم الأمراء قبل عامين على نحو شقّ الناس جيوبهم ونثروا التراب على رؤوسهم وخلع الرجال عمائمهم وعلا بكاؤهم ونواحهم.

فإذا كان العلماء والفقهاء يقومون بذلك من باب التقية وخوف السلطان

والأتراك، فذلك موافق لعمل الرافضة، وإن كانوا يفعلونه عن اعتقاد، ففي إيمان الخواجة خلل، وإلا كيف يقوم به الحنفية والشافعية والشيعة في بلد الخوارج والمشبّهة، وهم يرفضون ذلك؟ فالخواجة منكرٌ لهذه المذاهب الثلاث، فعليه الذهاب إلى لورستان أو خوزستان ....، حتى لا يسمع أو يرى ما يكرهه، وله من التعصّب ما ليس لأحد مثله؛ فما إقامة مأتم الحسين عليه السلام إلا اتّباعٌ لكلام الله، حيث قال: ﴿**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**﴾ (الشورى: (٢٣)، والسير على نهج المصطفى صلى الله عليه وآله، حيث قال: «من بكى على الحسين أو أبكى أو تباكى وجبت له الجنة»، وما ينكر ذلك إلا منافقٌ وضال ومن أصحاب البدع والخوارج ومبغضٌ لفاطمة وعليّ وأولادهما، والحمد لله، بل أكثرهم لا يعقلون»[(١)].

ويقول في موضع آخر: «وقد قال: الفضيحة السابعة والأربعون: ينثر الرافضة كل يوم عاشوراء التراب على رؤوسهم لما فعله آباؤهم من دعوة الحسين إلى الكوفة، ومن ثمّ قتله؛ فيسرد علماؤهم مقتل الحسين في ديرٍ ما، ويخلطون الكذب بالصدق، ويقومون ببعض المنكرات، وتنوح الناعيات، ويرثي العلماء، ويجتمع نساؤهم ورجالهم، ويزيّن الرجال النساء، ويخلع شيخ من علمائهم عمامته ويلعن نفسه.. أمّا ردّنا على هذا المعاند المكابر الناصبي، الذي أعلن عداوته لعلي والحسين، فهو أنّ إقامة المآتم الحسينية اتّباع لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث قال: «من بكى على الحسين أو أبكى وجبت له الجنة»، ليدخل فيها العلماء والمستمعون، ولا يختص الشيعة بذلك، فقد أقيمت المآتم الحسينية في بلاد الشافعية والحنفية، وأحيا ذكرى عاشوراء بالنواح والرثاء فحول العلماء، كمحمد منصور، وأمير عبادي، والخواجة علي الغزنوي، وصدر الخجندي، وأبي منصور ماشاده، ومجد الهمداني، والخواجة بو منصور الهسنجاني، والشيخ أبي الفضائل المشاط، وأبي منصور حفده، وقاضي ساوه، وسمعانيان، والخواجة أبي المعالي الجويني، والنزاري، والعلماء السابقون واللاحقون من الفريقين، وبكوا شهداء كربلاء، وذلك أظهر من الشمس»[(٢)].

---

(١) القزويني، النقض: ٣٧٠ ـ ٣٧٣، طهران، مجمع الآثار الوطنية، ١٣٥٨ش/١٩٧٩م.

(٢) المصدر نفسه: ٥٩٠ ـ ٥٩٢.

٢ـ تقرير الذهبي عن إقامة المأتم الحسيني ببغداد عام ٥٦١هـ[(١)].

٣ـ تصريح الذهبي بانتشار التشيّع عام ٥٩٠هـ وطلب الناس من رضي الدين الطالقاني القزويني لعن يزيد على المنبر يوم عاشوراء[(٢)]، وكان الخليفة العباسي آنذاك، الناصر لدين الله، أظهر ميلاً للتشيع، وكان يريد إعادة القدرة والعظمة للخلافة العباسية، لذلك أحسن إلى الشيعة الذين كانوا يتمتعون بقوّة ونفوذ في العراق.

٤. دعوة الناس سبط ابن الجوزي لرثاء الحسين، وقبوله بذلك، وبكاؤه ونواحه في عهد الملك ناصر[(٣)].

٥ـ شرط الشيعة إعلان الشعائر الشيعية حين استمدّهم حاكم حلب عام ٥٧٠هـ لمواجهة صلاح الدين[(٤)].

٦ـ يذكر ابن الجوزي في أحداث عام ٥٢٩هـ: ومنها زيارة مرقد الإمام علي عليه السلام وكربلاء من قبل جمع غفير، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «وظهر التشيع»، والذي يدلّ على حرية الشيعة في أداء طقوسهم بشكل علني[(٥)].

٧ـ ويذكر أيضاً زيارة الخليفة العباسي، المقتفي لأمر الله، لكربلاء عام ٥٥٣هـ ومساعدته العلويين الفقراء الساكنين قرب مرقد الإمام الحسين[(٦)].

٨ـ تقرير ابن حجر عن رثاء الواعظ البلخي (٥٩٦هـ) فاطمة الزهراء في النظامية ببغداد، وبكاء الشيعة الحاضرين لذلك، مما يتيح لنا الاستنتاج بأنه من الأولى أن تكون المآتم الحسينية معمولاً بها آنذاك[(٧)].

٩ـ نشأت دولة آل باوند بميول شيعية في طبرستان، واستمرّت حتى نهاية القرن السادس، وكتب في عهد سيد بهاء الدين حسن بن مهدي المامطيري رسالة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠: ٤١٦.

(٢) المصدر نفسه ٢١: ١٩٠ ـ ١٩٣؛ والبداية والنهاية ١٣: ١٣.

(٣) البداية والنهاية ١٣: ١٩٤.

(٤) المصدر نفسه ١٢: ٣٥٥.

(٥) المنتظم ١٨: ٣٠٢.

(٦) المصدر نفسه: ١٢٥.

(٧) لسان الميزان ٥: ٢١٧.

إلى حاكم الهند «شاه مهراج»، تبيّن اتساع التشيع في كل من العراق والشام والحجاز ومكة والمدينة ومدن خراسان وطبرستان[1].

لقد اهتمّ الشيعة بإقامة المآتم الحسينية حيثما تواجدوا، وإن لم يتمكّنوا من الإعلان أقاموها في بيوتهم سراً، خاصة في يوم عاشوراء.

**٢ ـ القرن السابع:**

تزامن القرن السابع مع ظهور دولة الخوارزمشاهيين في الشرق، وسقوط السلاجقة في بغداد، وانتعاش الخلافة العباسية مجدّداً. وما ورد من تقارير تاريخية عن هذا القرن، يبيّن استمرار المآتم الحسينية كما القرون السابقة، وتشير الشواهد إلى اتساعها أحياناً؛ فقد جاء في تقرير عن العقد الأول من هذا القرن، وقبل استيلاء المغول على بغداد، أنّ المآتم الحسينية كانت تقام في عاصمة الدولة العباسية، وكان المستعصم العباسي (بدأ حكمه عام ٦٤٠هـ) قد أمر محتسب بغداد ـ جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ـ عام ٦٤١هـ بمنع الناس عن قراءة المقتل يوم عاشوراء، لكنّه سمح لهم بقراءته عند مرقد الإمام الكاظم عليه السلام[2]، ومن المحتمل أن تكون هذه الطقوس قد سُنّت في عهد الناصر لدين الله الذي أظهر ميولاً إلى التشيّع، وأراد المستعصم الظفر برضا السنّة المتعصبين؛ فحدّ منها.

ولدينا خبر آخر عن ابن عديم، يقول فيه: إنّ شيعة المدينة كانوا يجتمعون في قبّة عباس في البقيع بيوم عاشوراء، ويقرؤون مقتل الحسين[3]، كما يشير جلال الدين الرومي ـ أحد شعراء القرن السابع الهجري ـ في أحد تشبيهاته في منظومته المثنوي المعنوي إلى مآتم علنية في حلب[4].

وأخيراً، يذكر السيد ابن طاووس ـ أحد علماء الشيعة البارزين ـ تخصيص

---

(١) تاريخ التشيع ٢: ٥١٩، نقلاً عن ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان: ١١٦ ـ ١١٨.

(٢) ابن الفوطي البغدادي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة: ٩٣، بيروت، دار الفكر الحديث، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٣) بغية الطلب ٢: ١٠٢١.

(٤) الرومي، المثنوي المعنوي: ٩٩٨.

العشرة الأولى من محرم للمآتم والمراثي، ويدافع عن هذه الفكرة[١]، كما يوصي بقراءة كتابه اللهوف في يوم عاشوراء[٢]، ويدلّ ذلك على وجود سنّة قراءة المقتل وإقامة المآتم في محرّم آنذاك، إذاً، لم يختصّ يوم عاشوراء بالمآتم، بل العشرة الأولى من محرم كلّها أيام عزاء وحداد.

والمستفاد من هذه الأخبار والروايات أنّ المآتم الحسينية أخذت بالتطوّر والاتساع ـ كمّاً وكيفاً ـ في القرن السابع، وذلك بناء على الخلفية الثقافية التي أنتجتها الأعوام السابقة وتعلّق الشيعة بالحسين عليه السلام؛ إذ لم تكن لدينا دول شيعية في القرنين الخامس والسادس، واستمرّت هذه الشعيرة بسبب تأصّلها بين الناس على الرغم من كلّ الظروف العصيبة التي واجهتها.

## النصف الثاني من القرن السابع وتسلّط المغول على إيران والعراق

حين اتجه جيش المغول ـ بقيادة هولاكو ـ نحو العراق، قام جمعٌ من الشخصيات العراقية بإرسال وفد إلى هولاكو طالبين منه الأمان وحقن الدماء، كإجراء احترازي يمنع الفتك بالناس وهدم المدن. وقد قبل هولاكو بعرضهم، وأرسل معهم حراساً لحمايتهم. وهكذا نجى شيعة جنوب بغداد من فتك المغول[٣]، من ناحية أخرى، حصل الشيعة على متّسع من الحرية لإقامة شعائرهم والتعبير عن معتقداتهم، وقد تشيّع أحد خلفاء هولاكو، وهو غازان خان، في العقود الأخيرة من هذا القرن، وقام بزيارات عديدة لكربلاء والنجف، وسعى في إعمار الحائر الحسيني، الأمر الذي مهّد لحرية الشيعة في أداء شعائرهم بشكل علني في مدن كالحلة وكربلاء والنجف، وإن لم يتوفر لدينا تقرير تاريخي عن ذلك.

### ٣ ـ القرن الثامن:

حكم البلاد في مطلع هذا القرن غازان خان الذي أصبح شيعياً، وبذل جهوداً في تبليغ التشيع ونشره، وتولّى الحكم بعده أخوه سلطان محمد خدابنده، الذي

---

(١) إقبال الأعمال ٣: ٩٠.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦.

(٣) الحوادث الجامعة: ١٥٩.

أصبح شيعياً بعد مدّة، وسعى في الترويج للتشيع وجعله مذهباً رسمياً للبلاد، وقد أعطت ميول الحكّام المغول للتشيع، وسعيهم في جعله مذهب البلاد الرسمي، أعطى الشيعة الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم، منها إقامة المآتم الحسينية. وقد حكمت السلالة الجلائرية العراق بعده، وهم أبناء أخته، وكانت لديهم ميول للتشيع أيضاً، ليستمرّ حكمهم حتى أوائل القرن التاسع (٨١٤هـ).

يذكر ابن بطوطة (٧٧٩هـ) في رحلته الحلّة والبحرين وقم وكاشان وساوة وطوس بوصفها مدناً شيعية[١]، ويقول ابن خلدون في المناطق التي سكنها الشيعة الاثنا عشرية: «وهذا المذهب في المدينة والكرخ والشام والحلّة والعراق»[٢].

وقد دفع انتشار التشيّع في خراسان، وخاصة في سبزوار وضواحيها، الخواجة علي المؤيد (٧٣٧هـ) ـ أحد أمراء السربدارية ـ لدعوة الشهيد الأول للسفر إلى خراسان وتعليمهم الفقه والعلوم، لكنّه ألّف كتابه اللمعة وأرسله إليهم.

ويوحي الردّ الذي كتبه ابن تيمية (٧٢٨هـ) على المآتم الحسينية[٣]، أنّ هذه المآتم والطقوس كانت منتشرةً آنذاك، ويشير إليه ابن كثير (٧٧٤هـ)[٤] أيضاً بقوله: «ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والفزع». كما يمكننا الاستنتاج من قيام دولة المرعشيين في طبرستان، المعروفة بميولها إلى الشيعة، توفّرَ الأجواء الملائمة لإقامة المآتم الحسينية في ذلك العهد، كما يدلّ الكم الكبير من الأشعار الذي جاء به الكاشفي (من وعّاظ القرن التاسع الهجري) في كتابه روضة الشهداء، على وجود كثير من الأشعار في رثاء الحسين عليه السلام وذكر مصائبه قبل هذه الفترة، وقد قام الكاشفي بجمعها في كتابه. ويقول سيف فرغاني، العارف الشيعي في هذا القرن، في مطلع قصيدة يرثي فيها الحسين:

يا قوم، ابكوا في هذا المصاب، ابكوا قتيل كربلاء[٥].

---

(١) سفر نامه ابن بطوطة [رحلة ابن بطوطة]: ١٨٧، بيروت، دار الفكر.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٤: ٣٠، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

(٣) ابن تيميّة، جامع المسائل، المجموعة الثالثة: ٩٣.

(٤) البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

(٥) ديوان سيف فرغاني، القصيدة: ٨٦؛ تاريخ ادبيات إيران [تاريخ الأدب الإيراني] ٣: ١٣٨.

## ٤ ـ القرن التاسع:

بدأ هذا القرن باعتداءات تيمورلنك، ولم يأمن العراق ولا الشام من سطوته، لكن بعد موته واعتلاء ابنه شاهرخ عرش السلطة، بدأ بإعمار ما هدّمه أبوه ونشر الثقافة في المناطق التي كان يحكمها، كما قامت زوجته ببناء جامع كوهرشاد، في جوار الروضة الرضوية في مشهد، وتوحي هذه الأجواء بوجود قدر من الحرية للشيعة في تلك الفترة لممارسة طقوسهم؛ فالعائلة المالكة تحترم إمامهم الثامن، وقد قامت ببناء مسجد عظيم قرب مرقده، لا يزال قائماً.

وما يؤيد إقامة المآتم في هذا القرن، وجود دولة «آق قويونلو» الشيعية في غرب إيران. أما الشاهد الآخر على ذلك، فهو سائح روسي اسمه «ني كي تين»، فقد زار مدينة الري عام ٨٨٠هـ وجاء على ذكر مواكب العزاء فيها(١)، كذلك كتب المقاتل التي ذكرها الكاشفي بوصفها مصادر لكتابه روضة الشهداء(٢)، من قبيل مصابيح القلوب للمولى حسن الشيعي السبزواري، ومقتل الشهداء لأبي المفاخر الرازي، والذي يحتوي أشعاراً بديعة تدلّ على وجود المقتل آنذاك؛ وقد قال في مقدّمة كتابه: «يحيي محبو أهل البيت ذكرى شهداء كربلاء مع حلول محرّم من كل عام، ويعزّون أولاد الرسول.. ويكرّرون قراءة المقتل المسرود في الكتب»(٣)، مما يؤكّد الشروع بالمآتم الحسينية مع بداية المحرم وقبل يوم عاشوراء، ورواج قراءة المقتل، كالذي ذكره السيد ابن طاووس عن القرن السابع(٤).

---

(١) بيتر تشلكوفسكي، تاريخ وجنبه ادبي تعزية: ١٥، ١٦، وقد قدّم المؤلف هذا الكتاب كرسالة دكتوراه إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طهران، عام ٤٧ ـ ١٣٤٦ش/١٩٦٧ ـ ١٩٦٨م.

(٢) يقول الشعراني، مصحّح هذا الكتاب في الصفحة السادسة منه: «يقال بأنّ الكاشفي ألّف كتاب روضة الشهداء عامين قبل وفاته»، وبما أنّه توفي عام٩١٠هـ، فيعود تأليف هذا الكتاب إلى عام ٩٠٨هـ، أي العقد الأول من القرن العاشر.

(٣) الملا حسين الكاشفي، روضة الشهداء: ١٢، طهران، كتاب فروشي إسلامية.

(٤) يقول رسول جعفريان في دراسته عن كتاب روضة الشهداء: «كانت المراسم تقام سنوياً في ماوراء النهر لإحياء ذكرى عاشوراء، وذلك قبل تأليف روضة الشهداء». ويقول في موضع آخر: «روضة الشهداء شاهد محكم على أنّ المآتم الحسينية كانت تقام سنوياً في عاشوراء وبحماس كبير في تلك الفترة.. ويدلّ محتوى الكتاب على وجود هذه المعتقدات. كما تؤكّد الأشعار

وفيما يخصّ الشيعة في الشرق، ليس لدينا ما يُطلعنا على تقاليد الشيعة في مدن العراق، كالحلة والكوفة وكربلاء وسائر مدنه الشيعية، لكن يوحي انتشار المذهب السنّي المعتدل المؤيّد للاعتقاد باثني عشر إماماً في البلاد الإسلامية، إقامة المآتم الحسينية في تلك المناطق أيضاً.

## المرحلة السادسة: المآتم في العصر الصفوي (ق ١٠ ـ ١١) بداية تحوّل جذري

ذكرنا أنّ كتاب روضة الشهداء قد أُلّف في القرن التاسع، وقد احتلّ مكان كتب المقتل الأخرى؛ لما تمتع به من سلاسة التعبير وجمال الأسلوب؛ وهذا يعني إذاً أنّه كانت تقام المآتم الحسينية في الكثير من المناطق الشيعية، وذلك بقراءة المقتل، لكن ومع اعتلاء الشاه إسماعيل الصفوي العرش عام ٩٠٧هـ في تبريز، أصبح التشيّع المذهبَ الرسمي، وهمّت السلطة بنشر شعائره وتقاليده، وقد نظم حسين فدائي النيسابوري كتاب روضة الشهداء في عهده، وجعل منه ملحمةً دينية قدّمها للملك[(١)].
وتشبه هذه الفترة ـ من حيث كثرة المآتم الحسينية وإقامتها علانيةً ـ فترة حكم البويهيين والفاطميين في القرنين الرابع والخامس، لكن خلافاً لتلك الدول، كانت المناطق التي تحكمها الصفوية شيعيّةً في غالبيتها.

أما عن المآتم في هذه الفترة، فلدينا أخبار كثيرة وردت عن السائحين الأوروبيين الذين ذكروا المآتم المقامة في ذلك العهد، وبما أنهم كانوا مكلّفين من قبل حكوماتهم بدراسة أوضاع إيران والحكومة الصفوية، أو إعداد تقارير حول بعض التفاصيل، فقد أولوا للمآتم الحسينية التي كانت من التقاليد العظيمة آنذاك اهتماماً كبيراً، فجاؤوا على ذكر تفاصيلها بدقة؛ لذلك تعدّ تقاريرهم من أهمّ المصادر

---

المنقولة في هذا الكتاب على وجود أدب عاشورائي في اللغة الفارسية. انظر: مجلة آئينه بجوهش، آب/ ١٩٩٥م، العدد ٣٣: ٣٦، ٣٧.

(١) أحمد منزوي، فهرست نسخه هاي خطي فارسي (منظومه ها) [فهرس النسخ الخطية الفارسية] ٤: ٢٩٣١؛ ويشير آغا بزرك الطهراني في كتابه الذريعة ٩: ١١٧٩، و١٩: ٢١٩، إلى منظومة فدائي المسمّاة سيف النبوة ومشهد الشهداء.

في هذا المجال، وسنستند إليها في ذكر المآتم العامّة التي كانت تقام في هذه الفترة.

أولى ملوك الصفوية المآتم الحسينية اهتماماً بالغاً، ولم يُغفلوها حتى حين انشغالهم بالحروب، إن صادفهم شهر محرم أو يوم عاشوراء؛ فقد أقام الشاه عباس المأتم الحسيني ليلة عاشوراء من عام ١٠١٣هـ وهو يضرب الطوق على قلعة إيروان، وقد قام الجيش بالصراخ والنحيب بحيث ظنّ أهل القلعة أنّهم هوجموا ليلاً؛ لذا بعثوا برسول وأعلنوا استسلامهم[(١)]، وفي طريقه لقتال جيش الأوزبك عام ١٠١١هـ أمر الشاه عباس بالتوقف يوم عاشوراء عند النهر، وأقام المأتم الحسيني هناك[(٢)]، وقد ورد عن قصيدة محتشم الكاشاني المعروفة، أنّ الملك طهماسب الصفوي دعاه إلى نظم الشعر في مدح الأئمة ورثائهم، حين جاءه بقصيدة في مدح ابنه[(٣)]، فقام بمدح الإمام علي عليه السلام، ونظم شعره المعروف «أي ملحمة هذه..» بعد ذلك، إثر رؤيا رآها في المنام.

وقد كان كتاب روضة الشهداء يُقرأ في البلاط الصفوي أيام محرّم وعاشوراء[(٤)]، وكان ملوكهم يشاركون الناس الحضور في المآتم العامة المقامة في ساحة المدينة مرتدين زيّ الحداد، فكانت مواكب العزاء تمرّ من أمامهم[(٥)]، ويقول أفندي ـ أحد مؤلّفي أواخر العهد الصفوي ـ عن المآتم الحسينية: «منذ سنين يقيم ملوك الصفوية المآتم الحسينية على هذا النحو في العشرة الأولى من محرّم، وخاصة في يوم عاشوراء، وذلك في كافة أنحاء إيران»[(٦)]، ويقول في موضع آخر: «اشتهرت هذه السيرة الحسنة بين الإماميّة لفترة مديدة، حتى أصبحت بمثابة شعار

---

(١) تاريخ عالم آراي عباسي ٢: ٦٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ٦٢٧.

(٣) تاريخ ادبيات إيران [تاريخ الأدب الإيراني] ٥: ٧٩٣، الفصل الثاني.

(٤) نصيري، دستور شهرياران: ٣٣.

(٥) تاريخ وجنبه ادبي تعزيه: ٢٤، نقلاً عن نيكولاس هميوس (عام ١٦٣٣م).

(٦) تحفه فيروزيه: ١٦٦، نقلاً عن صفويه در عرصه دين، فرهنك وسياست [الصفوية في ميادين الدين والثقافة والسياسة] ١: ٤٦٤.

للشيعة»[(١)].

ويتضح مدى تفاعل الإيرانيين وحماسهم في طقوس عاشوراء في العهد الصفوي من بيان المعترضين عليها. يذكر أفندي في التحفة الفيروزية أنهم يصفون التقاليد السائدة في محرم آنذاك بـ«الشرّ والانفعال الشيعي في قصّة التعازي في أيام عاشوراء»[(٢)].

ولا بأس هنا بذكر نصوص بعض تقارير السياح الأوروبيين في ما يخصّ هذه الطقوس، فيقول بيتر ودلاواله، الذي زار إيران عام ١٦١٨م/١٢٠٧هـ في رحلته: تبدأ العشرة الأولى من محرّم، والتي تسمى عاشوراء، بهذا اليوم (الأول من محرّم)، ويقيم الإيرانيون طوال هذه الفترة المآتم ومجالس العزاء، ويحيون ذكرى الحسين، ابن علي وفاطمة، وهي ابنة نبيّ الإسلام الوحيدة، ويرثون نهايته المحزنة، وهو المقدّس لدى جميع المسلمين، لكنه الإمام الحقّ لدى الشيعة، وينحدر الملك الفعلي من سلالته، وتقاليد العزاء تكون على النحو التالي: يظهر الجميع بمظهر الحزن والألم، مرتدين زيّ الحداد باللون الأسود، اللون الذي لم يستعمل في المناسبات الأخرى. ولا يحلق أحدٌ رأسه أو ذقنه ولا يستحمّ، ويجتنبون المعاصي والمنكرات، وحتى الملذات.. وتجول جماعة أخرى في الساحات والأزقة وبين بيوت الناس عراةً، إلّا من قطعة قماش سوداء تستر عوراتهم، طالين أجسادهم بمادّة سوداء، كالتي نستعملها لطلي غلاف السيوف أو المعادن الأخرى، ليعبّروا بذلك عن مدى حزنهم وألمهم لمصاب الحسين. وترافق هؤلاء مجموعة أخرى عراة، طالين أجسادهم باللون الأحمر، دلالةً على الدماء المسفوكة والأعمال الشنيعة يوم عاشوراء، وينشد جميعهم ألحاناً حزينة في ذكر الحسين والمصائب التي حلّت به، حاملين قطعتي خشب أو عظام بأيديهم، فيضربون إحداها بالأخرى؛ لتصدر أصواتاً حزينة. كما يقومون بحركةٍ تشبه الرقص تدلّ على حزنهم العميق، ويمدّون أوانيهم أمام الناس المحتشدين حولهم؛ فيتصدّق الناس عليهم بإلقاء النقود فيها، ويعتلي الخطيب المنبر

---

(١) المصدر نفسه: ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ١١٢.

وقت الظهر في وسط الساحة التي يحتشد الناس فيها، وغالباً ما يكون هذا الخطيب من سلالة محمد، ويسمّى في إيران سيداً، ويميّزه عن الآخرين عمامته الخضراء، يسمّى هؤلاء الأشخاص في تركيا أميراً، وفي مصر شريفاً، لكن خلافاً لتركيا ـ حيث يلبس أعقاب محمد العمامة الخضراء دوماً ـ لم أر أحداً واضعاً عمامةً بهذا اللون على رأسه إلا في هذه المراسم.

يشرف المنبر على جميع النساء والرجال الحاضرين، حيث يجلس بعضهم على الأرض ويجلس آخرون على كراسي صغيرة، فيعتلي الخطيب المنبر ويرثي الحسين، ويبيّن الحوادث التي أدّت إلى قتله، ويقوم ببعض الحركات أحياناً، ويبذل قصارى جهده ليبكي الحاضرين أكثر ما يمكن، وتقام هذه المجالس نهاراً في المساجد، وليلاً في الأماكن العامة أو في بعض البيوت التي تُعرف بأنوارها الكثيرة والأعلام السوداء ووشاح المآتم، وتقرأ المراثي بحماس أكبر، ويبكي المستمعون وينوحون بأصوات عالية، وتلطم النساء صدورهنّ، ويكرّر الجميع بحزن عميق المقطع الأخير من القصائد التي تقرأ، ويرددون: آه حسين ـ الملك حسين.

وحين يحلّ العاشر من محرم، أي يوم قتل الحسين ـ الذي يصادف هذا العام الثامن من كانون الثاني ـ تنطلق مواكب كبيرة من كلّ أنحاء إصفهان، كما وصفت ذلك سابقاً في يوم قتل علي، حاملين الأعلام والبيارق واضعين أصنافاً من الأسلحة وعدداً من العمائم على جيادهم، مصطحبين عدداً من الجمال تحمل كلّ منها صندوقاً فيه ثلاثة أو أربعة أطفال؛ للتذكير بأطفال الحسين الذين أسروا في ذلك اليوم، كما تحمل كلّ مجموعة تابوتاً ملفوفاً بمخمل أسود وعليه سيفٌ وعمامة خضراء عادة، وحول التابوت أصناف من الأسلحة ـ كما شرحت مسبقاً ـ على عدّة أطباق، تحمل فوق رؤوس عدد من الأفراد الذين يقفزون ويدورون على صوت الطبل والناي، فيدور الطبق معهم ويصنع منظراً جميلاً»[1].

السائح الآخر هو تاروينه، الذي زار إيران عام ١٦٦٧م، وقال في رحلته:

---

(١) سفرنامه بيترودلاواله [رحلة بيترودلاواله]: ١٢٢، الكتاب الرابع، ترجمة: شجاع الدين شفا، نشر علمي وفرهنكي، ١٣٧٠ش/١٩٩١م، ط٢.

لنتحدّث عن الطقوس الدينية العظيمة التي يقيمها الإيرانيون للحسن والحسين، أولاد علي، فثمان أو عشرة أيام قبل ذلك اليوم، أي «عاشوراء»، يقوم الشيعة المتعصّبون بطلي وجوههم وأبدانهم باللون الأسود، ويجولون في الطرق والأزقة عراةً، إلا من قطعة قماش صغيرة تغطّي عوراتهم، ضاربين قطعتي حجر ببعضهما، مظهرين بعض الحركات والإيماءات على وجوههم وأجسادهم، صارخين: حسن حسين، حسن حسين، ويكرّرون ذلك حتى تنقطع أنفاسهم، ويستمرّون في ذلك إلى غروب الشمس، فيقوم أناس مقدّسون بإطعامهم ليلاً في بيوتهم، ويبدأ الخطباء مع كلّ غروب من هذه الأيام بوعظ الناس وإعدادهم لليوم المنشود من أعلى المنابر المنصوبة في الساحات والطرق..

ويقول عن مراسم يوم عاشوراء: ..منذ فترة، أوكل الملك أمر إدارة هذه المراسم إلى بيكلي بيكي، الذي يحدّد مكان كل شخص وكل محلة، وترتيب سير موكب كل من المحلات الاثني عشرة، ومكانها.. بعد ذلك [بعد حمل رؤوس القتلى من الأوزبك، ومرور الأسرى العثمانيين] يبدأ بيكلي بيكي بإدخال المواكب، لكل موكب عريش يحمله ثمانية إلى عشرة أشخاص.. وكما أسلفت تقوم مجموعة من العراة بضرب الصخور ببعضها، قافزين في الهواء صارخين: حسن حسين، حسن حسين، إلى أن تنقطع أنفاسهم، وبعد أن طافوا بالساحة مرّتين أو ثلاثة يدخل موكب آخر على نفس النحو، وكلما دخل موكب جديد دخل الموكب السابق له في زاوية من الساحة، لكي لا يعترض سبيله، وقد يضعون في بعض الأحيان طفلاً نائماً في العريش وكأنه ميت، ويبكون وينوحون من حوله، تشبيهاً لطفلي الحسين اللذين قتلهما يزيد خليفة بغداد [يقصد بذلك الشام]، بعد مقتل الإمام.. ويضعون إلى جانب قاعة الملك أريكةً مفروشة بالسجاد، حيث تكون خمسة أو ستة أقدام أدنى من القاعة، كما يضعون على الأريكة كرسياً عليه غطاء أسود، يجلس عليه خطيب ومن حوله ستّة من الخطباء جالسين على السجاد. ويتحدّث الخطيب لنصف ساعة عن مقتل الحسن والحسين، وبمجرّد أن يُنهي حديثه، يعطيه الملك والخطباء الآخرون ثياباً، لكنّ ثوب الخطيب المتحدث يكون فاخراً أكثر، وبعد ارتداء الخطباء أثوابهم، يجلس الخطيب ثانيةً على الكرسي، ويدعو الله لإطالة عمر الملك وملكه ودوام

صحّته، وتبدأ هذه المراسم خمس ساعات قبل الظهر، وتستمر حتى الظهر، بعدها يذهب الملك إلى حريمه، ولا يبق أحدٌ من الناس أو المواكب في الساحة، ويجولون طيلة ذلك اليوم بالعريش في المدينة(١).

وقد زار سائحٌ آخر، اسمه كاري (جملي كاري) إيران عام ١١٠٥هـ في عهد الملك سليمان الصفوي، وقال عن هذه الطقوس: بدأت يوم الاثنين المصادف الثالث والعشرين من شهر آب، طقوسٌ في غاية الحزن بحلول الشهر [القمري] الجديد، ويقيم الإيرانيون هذه الطقوس كلّ عام لإحياء ذكرى إماميهما الحسن والحسين، ابني علي.. وتستمرّ هذه الطقوس لعشرة أيام، وتوضع طيلة هذه الفترة كراسي في الساحات والمعابر، يجلس عليها ـ بين حين وحين ـ خطيبٌ يتحدث عن مناقب القتلى والمصائب التي حلّت بهم، ويحضر جميع الناس للاستماع إلى المواعظ والمراثي، مرتدين ثياباً سوداء أو حمراء، معبّرين بذلك عن حدادهم(٢).

لكنّ حضور الشيعة تعدّى إيران ودولتها الشيعية بشكل ملحوظ، ليصل العراق والشام وحلب وحتى شرق الامبراطورية العثمانية، وكما يقول مارينو سانوتو، المؤرخ الإيطالي: إنّ الشيعة شكّلوا ثلاثة أرباع سكّان الأناضول بداية القرن العاشر للهجرة(٣)؛ فلابدّ أن تكون المآتم الحسينية منتشرةً هناك أيضاً، وقد عثر على تقرير في مستندات الدولة العثمانية يشير إلى إقامة المأتم الحسيني من قبل طائفة «بكتاش» يوم عاشوراء، على الرغم من تشدّد الدولة العثمانية في هذا المجال(٤)، ومن الطبيعي أن تكون المآتم الحسينية متّبعةً في مدن العراق كالحلة وكربلاء والنجف، حيث يذكر ابن طولون ـ أحد مؤرخي القرن العاشر ـ في حوادث الأعوام

---

(١) سفر نامه تاروينه، الكتاب الرابع، الفصل السابع: ٤١٢.

(٢) سفر نامه جملي كارري [رحلة جملي كارري]، القسم الثاني: ١٢٥، الفصل الأوّل، ترجمة: عباس النخجواني، نشر: دائرة الفن والثقافة في آذربايجان الشرقية.

(٣) بطروشفسكي، إسلام در إيران [الإسلام في إيران]: ٣٨٧؛ ومنوجهر بارسا دوست، شاه اسماعيل اول.

(٤) مجلة معارف، الدورة العاشرة، العدد الأول، آذار ـ حزيران ١٩٩٣م: ٦٢ ـ ١١٦.

٩٠٧هـ ـ ٩٢٤هـ[(١)]، المصادفة لحكم الملك إسماعيل الصفوي في إيران، أنّ الإيرانيين المقيمين في الشام (الأعاجم) أقاموا المآتم الحسينية يوم عاشوراء ويوم السابع من محرم، كما يذكر مواجهة أهل السنّة والحكومة لهم. ومن المحتمل أن لا يكون هؤلاء عجماً، لكن بما أنّ المآتم الحسينية كانت تقام في إيران، فقد تصوّر أنّ من أقاموا هذه الطقوس في دمشق إيرانيون.

وقد انتشرت وتنوّعت المآتم الحسينية من حيث سبل أدائها في هذه الفترة؛ لما تمتّعت به من دعم الدولة لها، بحيث تصوّر بعضٌ أنّ المآتم ظهرت في هذه الفترة، في حين كان قد مضى على ظهورها ثمانية قرون حين تأسّست الدولة الصفوية؛ فحين أصبح التشيّع مذهباً رسمياً لإيران، وانتشر في كافة أرجائها، ظهر مجتمعٌ شيعي متجانس ومتناغم، يؤدّي طقوسه من دون نقد من خارج المذهب، وهو الذي كان يؤديها سراً وعلانية أحياناً؛ لذا أبدع طرقاً جديدة في تأدية هذه الطقوس، حتى قال أفندي: «أضاف كلّ مجلس عزاء شيئاً على سابقه»، ولم يتمتّع جميعها برضا علماء الشيعة، كما عبّر هو عنها بـ«الأطوار الغريبة»، لكنّها لم تكن بشكل ينهى العلماء عنها[(٢)].

وقد أدّى تطور المآتم ـ من حيث الكمية والكيفية ـ إلى دخولها دائرة التقاليد الشعبية والوطنية، فأصبحت تقليداً دينياً ـ وطنياً، وانتقل هذا التقليد السائد بين الإيرانيين إلى الشيعة في المناطق الأخرى[(٣)] كالهند، وانتشر بالطابع الشعبي لتلك

---

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان ١: ٢٤٤، و٢: ٧٨، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

(٢) تحفه فيروزية: ١٦٦، نقلاً عن صفويه در عرصه دين، فرهنك وسياست ١: ٤٦٥.

(٣) من مصاديق هذا الادعاء ما نقله سفير الصفوية في الهند الصينية في رحلته «سفرنامه محمد ربيع بن محمد إبراهيم»، المعروفة بسفينة سليمان، فقد كانت لهذه الحكومة ـ التي تقع حالياً في أراضي تايلندا ـ علاقات طيبة بالدولة الصفوية، ولتأثير التجار الإيرانيين على حكومتها، كانت تستعين بإيران في صراعاتها الإقليمية. ويذكر السفير الذي تزامنت مهمّته مع حكم سليمان، في مذكراته المآتم الحسينية التي كانت تقام في عاشوراء، فيقول: بدأ محرم من عام ١٠٩٨هـ، وقد أمر الملك الذي تسلّم السلطة بمساعدة الإيرانيين ـ الذين كانوا يهمّون بإقامة مآتم الحسين عليه السلام، كما سنورد لاحقاً ـ أن يقيم أهل البلاط [الهند الصينية ودولة سيام]

المناطق، وانتقل مع الهنود المهاجرين إلى دول أخرى، كأندونيسيا وحتى أميركا.

ونأتي هنا على ذكر قائمة من التقاليد المتبعة في إقامة المآتم في هذه الفترة، انعكست في رحلاتها ومؤلّفاتها، وهي:

١ـ إضفاء طابع الحزن على المدن.

٢ـ اكتساء المساجد والحسينيات والطرق بالسواد مع بدء شهر محرم.

٣ـ ارتداء الناس الثياب السوداء، وعدم تهذيب مظهرهم، كعدم حلق الذقن أو ترتيب الشعر.. وكان بعض الناس يطلون جلودهم باللون الأسود ويجوبون الشوارع والأزقة.

٤ـ إقامة المآتم في البيوت والمساجد في العشرة الأولى من محرم.

٥ـ تجول مواكب العزاء في الطرق في العشرة الأولى من محرم، لاطمين صدورهم ضاربين أنفسهم بالسلاسل أو الحجارة أو أدوات حادة كالأمواس.

٦ـ رفع الأعلام السوداء على أبواب البيوت.

٧ـ رثاء الحسين والنواح والبكاء عليه في مجالس العزاء.

٨ـ إطعام المعزين عشاءً.

٩ـ اجتماع المواكب في مكان خارج المدينة.

١٠ـ تمثيل شخصيات واقعة كربلاء، كالحسين عليه السلام وأولاده وأهل بيته في الطرق، وسير هؤلاء الممثلين ملطّخين بالدماء صامتين. كما كانوا يضعون أطفالاً

---

المآتم كلّ سنة على طريقتهم، واستجابة لرأي المرحوم آغا محمد، أمر بكسر الأصنام في المعبد الذي يجاور بيته، وبنى مسجداً مكانه، وأمر بفرشه وتأثيثه وإنارته بالشموع والمصابيح وتوفير الشراب وكلّ ما يلزم، ودفع لذلك مبالغ نقدية كل عام. وقد بالغ هذا العام باهتمامه في الأمر؛ لذا أقام الإيرانيون [المقيمون في تلك البلاد] المآتم، وأمر خدمه بالحضور يومياً في المسجد، حيث يعتلي الخطيب المنبر ويلعن عبدة الأصنام والكافرين بصوت عال، وفي الأعوام الماضية، كان يركب الفيل واقفاً، ثم يجوب الطرق وفقاً لتقاليد قديمة، فيقرأ الناس الفاتحة لصحّة قدوة الدنيا والدين، ولي النعمة الحقيقي، ويطلب فناء أعداء أهل البيت، ويطلبون له الهداية والرشاد. فانظر: سفينه سليماني [سفينة سليمان]: ٧٤، ٧٥، تصحيح: الدكتور عباس فاروقي، طهران، جامعة طهران، ١٣٣٦ش/١٩٥٧م.

عراة على ظهور الجمال، تذكيراً بأطفال أهل البيت الذين أسروا في عاشوراء.

١١ـ حمل تابوت عليه سيف وعمامة وأسلحة أخرى، وقيادة جياد من دون فرسان، وعلى ظهورها أنواع من الأسلحة والعمائم؛ تذكيراً بالحسين وأنصاره الشهداء.

١٢ـ حمل هودجٍ فيه طفلان، يمثلان طفلي الحسين، وقيادة جمال تحمل الهوادج.

١٣ـ عرض جلد خروف مذبوحاً تواً على ظهر بعير تنبت السهام فيه.

١٤ـ تمثيل الرؤوس المقطوعة بالتماثيل أو بطرق فنية أخرى.

١٥ـ بكاء النساء ونواحهنّ في الطرق حين تفرّجهن على مواكب العزاء.

١٦ـ تجوّل مجموعة في الطرق، ضاربين الحجارة ببعضها؛ ليعلو من ذلك صوت حزين.

١٧ـ نثر التبن على رؤوس المعزّين.

١٨ـ حمل الرايات والأعلام والمشاعل والشموع أمام المواكب.

١٩ـ سير أشخاص إلى جانب تابوت الحسين عليه السلام، حاملين أطباقاً على رؤوسهم، عليها أنواع من السلاح، راقصين على صوت الطبل والناي.

٢٠ـ ارتداء الثياب الغامقة اللون، أو الحمراء في العشرة الأولى من محرم.

٢١ـ إرتداء ثياب خضراء فاخرة ومزركشة.

٢٢ـ قيادة بغل بسرج فاخر، وتزيين البغال بالرماح والأقواس والسيوف وأنواع السلاح.

٢٣ـ إطلاق اثنتي عشرة حمامة.

٢٤ـ سير ٧٢ شخصاً لابسين الدروع بين المعزين.

٢٥ـ الطواف بتماثيل خشبية لابن زياد وابن ملجم في الطرق، وحرقها في نهاية المراسم.

# تاريخ المآتم الحسينية في العصر القاجاري

د. محسن حسام ظاهري(*)
ترجمة: مشتاق الحلو

أولى ملوك القاجار اهتماماً منقطع النظير بالطقوس والتقاليد والشعائر الدينية، ويعتقد بعض الباحثين أنّ الهدف من وراء ذلك كان تشبيه أنفسهم بملوك الصفوية؛ لإغفال الناس وانتهاز الفرص. في المقابل يرى آخرون أنّهم كانوا يتمتّعون بدرجة من القدرة السياسية والنفوذ الاجتماعي لممارسة الحكم، مما يغنيهم عن مثل هذه الأعمال، وأنّ اهتمامهم بهذه الطقوس نابعٌ من صدق إيمانهم واعتقادهم وخلوص نيتهم[1]، لكن مما لا شكّ فيه، أنّ تديّن القاجار لم يتجاوز الظاهر، وكانت الأبعاد العلمية والمعرفية للدين في عزلة عن مسرح الحياة في تلك الفترة.

لقد أدّت المبالغة في هذا الأمر إلى تشويه صورة الدين وطقوسه، بحيث اعتبر بعض الباحثين ملوك القاجار على مذهبٍ غير مذهب عامّة الناس؛ إذ كانت عقائدهم متأثرةً بشكل كبير بالنزعات الصوفية التي كانت تروّج في البلاط من قبل الوزيرين المهمّين لهذه السلالة: الميرزا آغاسي والميرزا آغا خان النوري، ومن أهم الأمور التي مهّدت لظهور هذا المذهب المستقل، ابتعاد ملوك القاجار عن العلماء، خاصة بعد الملك فتح علي شاه، أي بعد أن نالوا السلطة، ولم يعودوا يحتاجون للعلماء لإضفاء الشرعية على حكمهم[2]، فتمادوا في ذلك، حتى قاموا بتحديد العلماء وعملوا بخلاف

---

(*) باحث متخصّص في الاجتماع الديني.

(١) صادق زيبا كلام، ما جكونه ما شديم؟ [كيف أصبحنا على ما نحن عليه؟]: ١١٣، (ريشه يابي علل عقب ماندكي إيرانيان)، طهران، روزنه، ١٣٨٢ش/٢٠٠٣م.

(٢) حامد الكار، دين ودولت در إيران (نقش علما در دوره قاجار) [الدين والدولة في إيران ـ دور العلماء في العصر القاجاري]: ٢٤٠، ترجمة: أبو القاسم سري، طهران، طوس،

رأيهم، ولم يخشوا أن يتهمهم أحدٌ بالخروج عن الدين[١]، وكمثال على ذلك، يمكننا ذكر تجاهلهم طلب جميع العلماء الحدّ من انتشار الصوفية والفرق القريبة منها في البلاد.

وبغض النظر عن دوافع القاجار من وراء الاهتمام بالمظاهر الدينية، سواء كانت عن إخلاص أو رياء، هناك نصوص كثيرة تذكر هذا الأمر، خاصة عن المتقدّمين منهم. أحد أهم هذه المظاهر، هو تقاليد إقامة المآتم على أهل البيت، فقد حظيت «التشابيه» باهتمام أكبر من بينها، وكان الترويج لها أكبر ممّا سواها.

## العزاء في عصر تأسيس الدولة القاجارية

ليس لدينا ما يؤكّد اهتمام آغا محمد خان ـ مؤسّس السلالة القاجارية ـ بإقامة العزاء، لكن نقل لنا التاريخ التزامه بالصلاة والصيام، وذهابه ماشياً على الأقدام لزيارة الإمام الرضا عليه السلام، ومخالفته شرب الخمر وتعاطي المخدرات، وصنعه ضريحاً مذهّباً للإمام علي عليه السلام، وأمور أخرى من هذا النوع[٢]، وقد شهدت فتوى الميرزا القمّي المشهورة بحلية إقامة التشابيه، رواجاً واسعاً لها في هذه الفترة، خاصة مع العلاقة الوثيقة التي كانت تربط الميرزا بالملك القاجاري، لكنها لم تشمل سائر العلماء واختصّ بها الميرزا فقط[٣]، وينقل التاريخ عن اهتمام الملك فتح علي شاه بالمظاهر الدينية، وخاصة إقامة المآتم، أكثر مما نقله عن آغا محمد خان؛ فمنذ اعتلائه العرش، اهتم بإعمار الأماكن الدينية وقبور الأئمة وأبنائهم وبناء المساجد والمدارس الدينية، كالمدرسة الفيضية في مدينة قم[٤]، وكان يقيم المأتم الحسيني في بعض ليالي الجمعة، خاصة في شهر رمضان المبارك، وأشهر محرم وصفر، وكان

---

١٣٦٩ش/١٩٩٠م.

(١) ما جكونه ما شديم؟: ١١٢.

(٢) دين ودولت در إيران: ٨١.

(٣) حسين آباديان، انديشه دينى وجنبش ضد رجى در إيران [الفكر الديني وحركة مناهضة رجي في إيران]: ٤٣، طهران، مؤسسة مطالعات التاريخ المعاصر لإيران، ١٣٧٦ش/١٩٩٧م.

(٤) دين ودولت در إيران: ٨٩.

يبكي فيها بشدة، وقد لقي المأتم الحسيني والتشبيه في عهده اهتماماً بالغاً، وأقيمت أول خيمة عزاء للحسين عليه السلام[١]، أما إدارة مراسم التشابيه فكانت تحت إشراف شخص الملك وبعض أفراد أسرته[٢].

وتشير التقارير ومدوّنات الرحّالة، أنّ هذا التظاهر بالتديّن لم يتوقف على شخص الملك، بل شاركه فيه سائر رجال البلاط وأفراد الأسرة المالكة أيضاً؛ حيث كانوا يتسابقون للتظاهر بالتديّن والاهتمام بهذه الطقوس؛ فقد جاء في تقرير جيمز موريه في أسلوب المأتم الحسيني الذي كان يقيمه الملك وأهل البلاط، ما يلي: لم ينقطع بكاء الوزير، أمين الدولة، يضع يده على وجهه ويبكي بصوت عال لشدّة الحزن والألم، ويئنّ محمد حسين خان المروي بين حين وآخر. وقد رأيت بعضهم يبكي حقيقةً، وقطرات الدمع تنهمر على خدّيه، لكن أحسّ بأنّ حزن أكثرهم إمّا تمثيل، وإمّا ناشئ عن القصّة التراجيدية التي يشاهدونها، وتثير الحزن لديهم. لا يكفّ الملك عن البكاء طيلة المراسم، ويضطر خدمه إلى التشبّه به، أمّا عامة الناس فيزيدون من حدّة اللطم حين المرور بالغرفة التي نجلس نحن فيها[٣].

وقد خلقت هذه الالتزامات وجهاً مقبولاً للملك لدى العلماء والمراجع آنذاك[٤]، ما أعانه كثيراً في حربه ضدّ الروس[٥]، فقد كتب جهانكير ميرزا في تقريره عن حرب إيران والروس، ما يلي: في محرّم سنة ١٢٤٢هـ حيث كانت إيران تخوض المرحلة الثانية من الحروب، نصبت خيم العزاء في معسكرات منطقة القوقاز، وأقيمت المآتم فيها. كان الجندي الإيراني يتحمّس للقتال والتضحية إثر استذكاره ملحمة كربلاء.

---

(١) علي رضا شجاعي زند، مشروعيت دين واقتدار سياسى در إيران: ١٩٢، طهران، تبيان، ١٣٧٦ش/١٩٩٧م.

(٢) لاله تقيان، درباره تعزيه وتئاتر در إيران [حول التعزية والمسرح في إيران]: ٤٩، طهران، مركز، ١٣٧٤ش/١٩٩٥م.

(٣) المصدر نفسه: ٥٦.

(٤) الحائري: ٣٥٦.

(٥) لطف الله آجداني، علما وانقلاب مشروطيت إيران [العلماء والثورة الدستورية في إيران]: ١٦، طهران، اختران، ١٣٨٣ش/٢٠٠٤م.

وما إن دخل شهر محرم، حتى نصبت خيم العزاء لإقامة المآتم على سيد الشهداء. وكان العلماء الأعلام والمجتهدون، كالملا محمد النراقي، والآخوند الملا محمد الدامغاني، يحرّضون الجيش على الجهاد، ويثيرون الحماس فيهم، بعد ذكر مصائب سيّد الشهداء. ومن ثمّ يمرّ جيش الإسلام في مجموعات من أمام عباس ميرزا، نائب السلطنة، ويبدي شوقه وحماسه للقتال.

## علاقة السلطان القاجاري بالفقهاء والمتصوّفة

بشكل عام، كانت العلاقة وثيقةً تربط الملك فتح علي ببعض العلماء، كالميرزا القمي، خلافاً لآغا محمد خان، بحيث كان الملك يطيع أوامرهم، ويتبعهم تماماً(١)، فقد جاء في قصة حاج بابا الإصفهاني، في وصف علاقة الملك فتح علي بعلماء الدين، ما يلي: كانت سياسة الملك حفظ العلاقة الحسنة بعلماء الدين؛ إذ علم بتأثيرهم على أفكار عامّة الناس، فكانوا التحدّي الوحيد أمام سلطة الملك المطلقة؛ لذلك كان الملك يجلّ أبا القاسم [الميرزا القمي، المجتهد الأكبر في إيران] بزيارته مشياً، وبالاستماع إليه والجلوس إلى جنبه. وهذا فخرٌ نادراً ما يحصل عليه أحد، كما كان الملك يتردّد راجلاً طيلة فترة تواجده في قم، ويولي الفقراء اهتماماً كبيراً(٢).

ظهر الملك محمد القاجاري بمظهر المتنسّكين وأخلاق المتصوفة، وقد يكون هذا الأمر ناتجاً عن تأثره بوزيره المتصوّف الميرزا آغاسي؛ إذ كان محلّ اهتمام الملك، بحيث أعطاه لقب «قطب عالم الشريعة والطريقة» وعدّ نفسه مريداً وتابعاً له. وقد أضعف ذلك ـ إلى جانب دفاع آغاسي الشديد عن المتصوفة ـ العلاقةَ بين الفقهاء والملك(٣)، لكن على الرغم من ذلك وبسبب اعتقاد الملك ووزيره شاعت المآتم الحسينية، خاصة التشابيه، وإقامة خيم العزاء في عهدهم. ويعدّ تطوّر تدوين

---

(١) انديشه دينى وجنبش ضد رجى در إيران: ٤١؛ وماشاء الله آجوداني، مشروطية إيراني: ٧٤، طهران، اختران، ١٣٨٣ش/٢٠٠٤م.

(٢) حاجى باباى اصفهانى، جيمز موريه: ٤٠٣، ترجمة: مهدي افشار، طهران: علمي، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م.

(٣) انديشه دينى وجنبش ضد رجى در إيران: ٤٥.

نصوص المسرحيات التي تروي واقعة كربلاء وتطوّر المواكب والمواعظ قبل المسرح، وتنافس أبناء العائلة المالكة والأعيان في إقامة خيم العزاء والمسرح.. من امتيازات هذا العهد(١).

يقول أحد السوّاح الروس، في تقريره عن شهر محرم في طهران، في أول عام من حكم الملك محمد: تقام طقوس محرّم في طهران بأبّهة وجلال، تنصب في الأيام الأولى من محرم خيم سوداء مرتفعة، في نقاط مختلفة من المدينة. يعتلي الخطباء المنبر داخل هذه الخيم، ويأتون على ذكر المصائب التي حلّت في هذه الأيام بصوت مرتفع، ويبدو الحزن على وجوه الناس، ويشرعون بالبكاء والنحيب، كما يجتمع في الليل كثير من المعزين مرّةً أخرى في هذه الخيم، ويوقدون المشاعل، ويبكون لساعتين أو ثلاث أو حتى طوال الليل، يلطمون ويصرخون «يا حسين». بل يشتدّ الحماس ببعضهم أحياناً حتى يجرح نفسه جروحاً عميقة بأدوات حادّة؛ ويتعالى الصراخ في شوارع طهران، بحيث يتصوّر الإنسان أنّ جيشاً هجم على المدينة، يقوم بذبح الناس(٢).

## الشعائر في عصر ناصر الدين القاجاري

يجب الاعتراف بأنّ الملك ناصر الدين كان أكثر ملوك القاجار اهتماماً بالشعائر المذهبية الشيعية؛ فمثلاً، كان يهتم كثيراً بالتشابيه، لا سيما تشابيه أمير المؤمنين عليه السلام، كما كان يتقيد بالصلاة، وينظم الشعر في مدح الأئمة، وقد اهتمّ بإعمار ضريح الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وزار العتبات المقدّسة عام ١٢٨٨هـ(٣)، ويقول السيد صالح الشهرستاني عن سفر الملك ناصر الدين إلى كربلاء: حين وقف الملك

---

(١) درباره تعزيه وتئاتر در إيران: ٤٩، ٥٠.

(٢) سفرنامه [رحلة] فيودور كوف: ٢٤١، ترجمة: اسكندر ذبيحان، طهران، فكر روز، ١٣٧٢ش/١٩٩٣م.

(٣) دين ودولت در إيران: ٢٤٠؛ ومحمد باقر مدرّسي بستان آبادي، شهر حسين يا جلوه كاه عشق [مدينة الحسين أو مظهر العشق]: ٤٠٨، قم، دار العلم، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م؛ وانديشه ديني وجنبش ضد رجى در إيران: ٤٧؛ محمد بن علي ناظم الإسلام الكرماني، تاريخ بيدارى إيرانيان: ١٠٠، طهران، أمير كبير، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م.

ناصر الدين إلى جانب ضريح الإمام الحسينعليه السلام يزوره، ألقى أحد الخطباء محاضرةً مؤثرة حول مصائب الحسين، وقال في حديثه: «نادى الإمام الحسينعليه السلام في أشدّ ساعات يوم عاشوراء: هل من ناصر ينصرني؟». ثمّ قال: «أتى ناصرك، وهو واقف في حضرتك لنصرتك»؛ فضجّ الناس بالبكاء، وكان الملك ناصر الدين أشدّهم بكاءً، حتى نزع التاج وألقاه أمام الضريح؛ لشدة تأثره بالموقف[١]. ولأوّل مرة، يصبح كل من يوم ميلاد الإمام عليعليه السلام والإمام المهدي من الأعياد الرسمية التي تحتفل بها الحكومة في ذلك العهد.

لكن لم تلق بعض نشاطات الملك ناصر الدين الدينية قبول العلماء، كنظم الشعر في مدح الأئمةعليهم السلام ونسبته إليه[٢]، ويشير البروفيسور حامد الغار إلى وجود فوارق بين نمط تديّن الملك فتح علي والملك ناصر الدين ـ بوصفهما المثالين البارزين للتديّن القاجاري ـ فيقول: وإن لم يخل تديّن الملك فتح علي من الشوائب السياسية، لكن يبدو أنّه عارٍ من الرياء. على الرغم من ذلك، لم يحظ تديّنه بالقبول من قبيل تديّن العلماء، ومن الطبيعي أن لا يحظى تدين الملك ناصر الدين الذي كان مصحوباً بالعمليات الاستعراضية، واختلف عن التديّن المقبول لدى عامة الناس بنفس الدرجة من الرضى، سعى الملك فتح علي بطاعته للعلماء أن يلبس رداء قداستهم، فيما سعى الملك ناصر الدين لتأسيس نمطه الخاص في التدين مستقلاً عن الآخرين[٣].

وأهم ما يميّز هذا العصر رواجُ المآتم الحسينية، وخاصة التشابيه والتمثيل، بشكل لا نظير له[٤]، ويشير عبد الله المستوفي إلى كثرة هذه المآتم، في تقريره عن الوضع العام في تلك الفترة، قائلاً: كان يقام في مدينة طهران ما بين مائتين إلى ثلاثمائة مأتم، خلال العشرة الأولى من محرم، سواء المجالس التي يقيمها الأشراف

---

(١) السيد صالح الشهرستاني، اشكواره كربلا، [تاريخ النياحة على الإمام الشهيد الحسين بن عليعليه السلام]: ٢٨٧، قم، قيام، ١٣٨٢ش/٢٠٠٣م.

(٢) دين ودولت در إيران: ٢٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٠.

(٤) مهدي أمين فروغي، هنر مرثيه خواني (فنّ الرثاء): ٦٩، طهران، نيستان، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م.

أو عامة الناس[(١)]، ومن الواضح أنّ هذا الأمر ما كان ليتحقق لولا مساعدة الحكومة، وأهم عمل قام به الملك ناصر الدين لدعم هذا الأمر هو بناء «خيمة عزاء الدولة»؛ فكانت فاخرةً لا نظير لها، وقد خطرت له هذه الفكرة بعد سفره إلى أوروبا، وقد كانت خيمة عزاء كبيرة موجودة في طهران منذ عام ١٨٤٩م، لكنها لم تحظ بقبول الملك؛ لذلك أمر ببناء خيمة عزاء جديدة على غرار «قاعة ألبرت هال الملكية» Royalbal Albert Hall في لندن، بعد سفره إلى بريطانيا عام ١٨٧٣م. كما أمر ببناء خيمة عزاء في ضواحي نياوران عام ١٨٥٦م/١٢٧٣هـ لكي يتمكّن من رؤية التشابيه في عاشوراء إن كان في عام من الأعوام خارج طهران[(٢)]، ويقول كارلا سرنا عن سبب بناء «خيمة عزاء الدولة»: قبل سفر الملك إلى أوروبا، كانت التشابيه تقام في القصر الملكي وتحت الخيمة. وفي محرم سنة ١٢١٨هـ/١٨٤٦م، سقطت إحدى الخيام إثر عاصفة شديدة، وأيّة حادثة سيئة في هذا الشهر، كانت تعدّ من علائم غضب الرب.. فبنى الملك ناصر الدين بعد عودته من أوروبا خيمةَ عزاء بأسلوب حديث إلى جانب القصر الملكي[(٣)].

جاء في تقرير جيمز ويلز، عن مقدمات إعداد مسرحية عن واقعة كربلاء، ويبدو أنّها كانت في خيمة عزاء الدولة: بعد أن تُعدّ جميع لوازم المسرح، يأمر من يسمّونه «نواب والا» بفتح الأبواب، وإدخال النساء.. وما إن تفتح الأبواب حتى تهرع النساء بالدخول، ويسعين للحصول على أفضل مكان للجلوس، فنساء الأشراف كنّ يبعثن بخادماتهنّ ومعهن ما يفترشنه؛ كي يهيئنّ لهنّ المكان في خيمة العزاء عند وصولهن، وكثيراً ما يحصل تدافع وشجار حين دخول النساء، لكنه لا يدوم طويلاً، حيث يُسكت الخدام المنظمون جميع الحضور بعصيّهم، ويصل عدد النساء إلى

(١) عبد الله المستوفي، شرح زندكانى من يا تاريخ اجتماعى وادارى دوران قاجاريه [قصة حياتي، أو التاريخ الاجتماعي والإداري للعصر القاجاري] ١: ٣٠١، طهران، كتاب فروشي زوار، ١٣٤٣ش/١٩٦٥م.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٤.

(٣) كارلا سرنا، مردم وديدنى هاى إيران (سفرنامه) [إيران، شعبها، وأماكنها السياحية]: ١٨٢، ترجمة: غلام رضا سميعي، طهران، نشر نو، ١٣٦٣ش/١٩٨٤م.

خمسة أو ستة آلاف. وبعد عدّة دقائق، يفتح الباب الثاني ويدخل الرجال بضجيجهم، ويصطفون في الجانب الأيمن من خيمة العزاء مقابلَ المنصّة، ثم يعلن صوتُ المدفع دخولَ الخطباء والنعاة إلى المجلس، فيعتلي أحدهم المنبر ويجلس عليه بوقار وأدب، ويجلس الآخرون إمّا على الدرجات السفلية للمنبر أو حوله، ثمّ ينصت الحضور للخطيب، فيبدأ بصوت معتدل قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم» وبعد الحمد والثناء لله تعالى، يقرأ موجزاً من المصائب التي حلّت بالإمام الحسين، وما إن يذكره بالاسم حتى تعلو أصوات الحضور بالبكاء والعويل، ويصرخ بعضهم: «يا حسين! تعتصر قلوبنا ألماً على مصابك» ثم يصرخ الخطيب بأعلى صوته: «حسن حسين ـ حسن حسين» ويلطم بقوّة على صدره العاري، فيقلّده الرجال من دون تأنٍّ، ويصرخون بصوتٍ واحد: «حسن حسين». ويؤدّي هذا الضجيج إلى انفعال المستمعين فيبكون بشدّة، وبعد بكاء طويل، ينزل الخطيب ويذهب لشأنه، ثم تدخل فرقة عزف الأمير «نواب بالا»..

وبعد الانتهاء من العزف، تدخل عدّة فرق بالترتيب التالي: الفرقة الأولى مجموعة من السقاة، يحمل كل واحد منهم قربةً على كتفه. يصرخ بعضهم ويقول ما يثير شجون الحضور، حين سير هؤلاء بين الحضور من الرجال والنساء، قائلاً: «إنّ الحسين مات من أجل قطرة ماء». ويقول الآخر: «يا حبيبي! يا حسين!». وبعد السقاة، تدخل فرقة الدراويش يضربون على ظهورهم وأكتافهم العارية بسلاسل من حديد ويردّدون: «حسن حسين». ثم يأتي دور مجموعة مختارة، نذرت سفك دمها في مأتم الحسين، وترتدي ثياباً بيضاء، كالشهداء الذين يلبسون الكفن في ساعة الحرب، ويضربون رؤوسهم وجباههم بالسيوف، فتسيل دماؤهم، وتثير أحاسيس خاصة حين تلوّث ثيابهم البيضاء، ويكثر بعض المتعصّبين من الضرب بالسيف على رأسه حتى يقع على الأرض مغشياً عليه من شدّة النـزف، فيثير بذلك حزن الحاضرين ويزيد بكاءهم، وبعد خروج هذه المجموعات، تدخل فرقة عزف نواب بالا، وتشرع بالعزف بقوة، ثم يدخل الممثلون إلى خيمة العزاء..[1].

(١) تشارلز جيمز ويلس، تاريخ اجتماعي إيران (در عهد قاجارية): ٢٦٧ ـ ٢٦٩، ترجمة: جمشيد دو دانكه ومهرداد نيكنام، طهران، نشر طلوع، ١٣٦٦ش/١٩٨٧م.

## الصراع في العهد الناصري بين المراثي والمسرح الحسيني

جاء في تقرير بنيامين عن التشابيه في العهد الناصري: تقام التشابيه في كافة أنحاء إيران بشكل مختصر أو مفصّل، وأهمّها ما يقيمه البلاط الملكي ويحضره الملك.. وتقام هذه التشابيه في خيمة عزاء الدولة، ولا يسمح عادةً للأجانب بحضورها(١)، ويقول يعقوب إدفارد بولاك، طبيب الملك ناصر الدين، عن رواج التشابيه في العهد الناصري: راجت التشابيه بشكل لا يمكن لأحد من الأعيان التغاضي عنه، على الرغم من تكاليفها الباهظة؛ إذ عليهم القيام بضيافة الحضور بالشراب طوال فترة المسرحيّة، وبعشاء ملكي بعد المسرح، أضف لذلك أجور الممثلين، وبما أن جميع الأعمال متوقفة طوال شهري محرم وصفر، والدخل معلّق، تؤدي إقامة هذه المراسم إلى تخريب بيوت كثيرة، ووقوع عوائل في الدَّين(٢)، وقد لعب تأسيس خيمة عزاء الدولة، مع ما كان يوليها الملك من اهتمام، دوراً مهماً في إشاعة التشابيه في ذلك الوقت، وأدى رواج هذا التقليد إلى انحسار الأنموذج القديم، أي مجالس النعي والرثاء، وتعدّدت الأسباب في تفوّق التشابيه على المآتم القديمة، لكن أهمّها طبيعة التشابيه المسرحية، التي جذبت الناس إليها وسايرت ذوقهم السطحي. وترجيح التشابيه على المجالس من قبل عامة الناس أدى ـ أيضاً ـ إلى تزلزل أركان المراثي، وضعف محتوى المآتم الحسينية؛ إذ طغى الإطار التمثيلي للتشابيه على محتواها وهو تبيين مصائب أهل البيت؛ وكانت هذه نتيجة طبيعية لحالة الرياء والمباهاة التي كانت طاغيةً على توجّه الملك والبلاط؛ فتهيأ مناخٌ مناسب لظهور رؤى سطحية ومادية وخرافية بمرور الأيام، خاصّة وأنّ هناك فارقاً جوهريّاً بين التشابيه والمراثي؛ وهو أنّ الغلبة في مجالس الرثاء للخطيب ومقاليد الأمور بيد العلماء؛ أمّا التشابيه فليس لهذا الفريق فيها موقعٌ أو دور بل الأمر بيد عامّة الناس؛ وهذا هو السرّ في مخالفة العلماء والمتديّنين لها، أو عدم اهتمامهم بها ولا دعمهم لها،

---

(١) يعقوب ادوارد بولاك، إيران وإيرانيان: ٢٨٦، ترجمة: كيكاوس جهانداري، طهران، خوارزمي، ١٣٦١ش/١٩٨٢م.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٦.

بل قد أعلنوا مخالفتهم لها كلّما وجدوا مجالاً لذلك، وقد نسب بعضهم مخالفة العلماء إلى حسدهم لممثلي المسرح؛ لتفوّقهم عليهم في التأثير على الناس[١].

انحصرت مخالفة العلماء والفقهاء ـ حسب الظاهر ـ بأمور كحرمة تشبيه المعصومين وحرمة تشبّه الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل، ويقول الدكتور ادوارد بولاك في رحلته: «لا يجيز المؤمنون المتعصّبون المسرح [التشابيه]، ويعدّونه اعتداءً على الأئمة، ومن أنماط الوثنية»[٢]، لكنّ هاجسهم الحقيقي كان مواجهة إشاعة الخرافات، وانحسار حضورهم الاجتماعي وصعود نجم الملك. وقد خالف هذه الطقوس، إضافةً للعلماء والمتدينين، بعض المصلحين داخل جهاز الحكم أيضاً، ويمكننا ذكر «أمير كبير» رئيس الوزراء القاجاري، مثالاً على ذلك؛ فقد سعى جاهداً للقضاء على التشابيه، وحث العلماء على دعمه وحصل على إجازة من إمام جمعة طهران آنذاك، لكن كان نفوذ هذه الطقوس في حياة الناس أقوى من أن تؤثر عليها جهود أمير كبير أو مخالفة العلماء؛ فأصبحت مجالس الرثاء والمآتم ـ التي كانت لا تزال طاقةً بيد العلماء لتحريك عواطف الناس الدينية ـ لا تحظى بالتوجه والاهتمام كالتشابيه[٣].

وتجدر الإشارة إلى أنّ موقف العلماء لم يكن موحّداً إزاء التشابيه؛ فلم يرفضها جميعهم. بل رجّح بعضهم ـ كالشيخ جعفر مجتهد الشوشتري ـ إجراء تعديلات مصداقية عليها، لما كانت تتمتع به هذه الطقوس من محبوبية لدى الحكومة، ويقول اعتماد السلطنة في كتاب المآثر والآثار حول التعديلات التي تصدّى لها: رأى في المنام ما يدلّ على كذب هذه القصة [عرس القاسم بن الحسن عليه السلام]؛ فكتب إلى الملك شارحاً له الأمر، وبعد المفاوضات، منع حفل عرس القاسم في التشابيه[٤]، وقد

---

(١) روح الله خالقي، سركذشت موسيقي إيران [تاريخ الموسيقى الإيرانية] ١: ٣٣٦، طهران، صفي عليشاه، ١٣٧٦ش/١٩٩٧م؛ ودين ودولت در إيران: ٢١٢؛ وتعزيه، نيايش ونمايش در إيران [التشابيه، المناجاة والتمثيل في إيران]: ١٩، إعداد: بيتر تشلوفسكي، ترجمة: داوود حاتمي، طهران، علمي فرهنكي، ١٣٦٧ش/١٩٨٨م؛ ومردم وديدني هاي إيران (سفرنامه): ٢٠٠.

(٢) إيران وإيرانيان: ٢٣٦.

(٣) دين ودولت در إيران: ٢١١، ٢١٢.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤٤.

أيّد بعض العلماء هذه الطقوس، أو أوحى بتأييده من خلال سكوته، كما عدل بعض المخالفين عن رأيهم بمرور الأيام، منهم المرجع الشيعي الكبير الميرزا محمد حسين النائيني؛ إذ أعلن في فتواه المشهورة المؤرّخة «٥ ربيع الأول، عام ١٣٤٥هـ» أنّه عدل عن رأيه في تقييد الحكم بجواز لبس ثياب الجنس الآخر؛ لذلك لا يرى إشكالاً في «التشبيه والتمثيل الرائج في المآتم الشيعية» وفي ما يلي نص فتواه حول إقامة المآتم:

## نص فتوى الميرزا النائيني في مظاهر العزاء الحسيني

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى البصرة وما والاها، بعد السلام على إخواننا الأماجد العظام، أهالي القطر البصري، ورحمة الله وبركاته.

قد تواردت علينا في (الكرّادة الشرقية)، برقيّاتكم وكتبكم المتضمّنة للسؤال عن حكم المواكب العزائية وما يتعلّق بها؛ إذ رجعنا بحمده سبحانه إلى النجف الأشرف سالمين، فها نحن نحرّر الجواب عن تلك السؤالات، ببيان مسائل:

**الأولى**: خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرق والشوارع مما لا شبهة في جوازه ورجحانه، وكونه من أظهر مصاديق ما يقام به عزاء المظلوم، وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب وبعيد. لكن اللازم تنزيه هذا الشعار العظيم عما لا يليق بعبادة مثله من غناء أو استعمال آلات اللهو، والتدافع في التقدّم والتأخر بين أهل محلّتين، ونحو ذلك. ولو اتفق شيء من ذلك، فذلك الحرام الواقع في البين هو المحرّم، ولا تسري حرمته إلى الموكب العزائي، ويكون كالنظر إلى الأجنبية حال الصلاة في عدم بطلانها.

**الثانية**: لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور حدّ الاحمرار والاسوداد، بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضاً على الأكتاف والظهور إلى الحدّ المذكور، بل وإن تأدى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى. وأما إخراج الدم من الناصية بالسيوف والقامات، فالأقوى جواز ما كان ضرره مأموناً، وكان من مجرّد إخراج الدم من الناصية بلا صدمة على عظمها، ولا يتعقّب عادةً بخروج ما يضرّ خروجه من الدم، ونحو ذلك، كما يعرفه المتدرّبون العارفون بكيفية

الضرب، ولو كان عند الضرب مأموناً ضرره بحسب العادة، ولكن اتفق خروج الدم قدر ما يضرّ خروجه، ثم يكون ذلك موجباً لحرمته، ويكون كمن توضأ أو اغتسل أو صام آمناً من ضرره، ثم تبيّن ضرره منه. لكن الأولى ـ بل الأحوط ـ أن لا يقتحمه غير العارفين المتدرّبين، ولا سيما الشبّان الذين لا يبالون بما يوردون على أنفسهم لعظم المصيبة وامتلاء قلوبهم من المحبّة الحسينية، ثبّتهم الله تعالى بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

**الثالثة**: الظاهر عدم الإشكال في جواز التشبيهات والتمثيلات التي جرت عادة الشيعة الإمامية باتخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون، وإن تضمّنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى؛ فإنّا وإن كنا مستشكلين سابقاً في جوازه وقيّدنا جواز التمثيل في الفتوى الصادرة منّا قبل أربع سنوات، لكنا لمّا راجعنا المسألة ثانياً اتضح عندنا أنّ المحرم من تشبيه الرجل بالمرأة هو ما كان خروجاً عن زيّ الرجال رأساً، وأخذاً بزيّ النساء، دونما إذا تلبّس بملابسها مقداراً من الزمان بلا تبديلٍ لزيّه، كما هو الحال في هذه التشبيهات. وقد استدركنا ذلك أخيراً في حواشينا على العروة الوثقى. نعم يلزم تنزيهها أيضاً عن المحرّمات الشرعية، وإن كانت على فرض وقوعها لا تسري حرمتها إلى التشبيه، كما تقدم.

**الرابعة**: الدمّام المستعمل في هذه المواكب مما لم يتحقّق لنا إلى الآن حقيقته؛ فإنْ كان مورد استعماله هو إقامة العزاء وعند طلب الاجتماع وتنبيه الراكب على الركوب وفي الهوسات العربية ونحو ذلك، ولا يستعمل فيما يطلب فيه اللهو والسرور، كما هو المعروف عندنا في النجف الأشرف، فالظاهر جوازه، والله العالم.

٥ ربيع الأول، سنة ١٣٤٥هـ

حرّره الأحقر محمد حسين الغروي النائيني[(١)]»

لم تنحصر إقامة التشابيه على أيام الحداد، بل كانت تقام تشابيه الفرح والسرور أيضاً في ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وآله، والأئمة الأطهار عليهم السلام[(٢)]، وقد شاعت

---

(١) علي رباني خلخالي، عزاداري از ديدگاه مرجعيت شيعه: ٤٦ ـ ٤٨، قم، مكتب الحسين، ١٤١٥هـ.

(٢) تعزيه، نمايش ونيايش در إيران: ١٩.

هذه الطقوس بين الناس ونفذت في أعماقهم إلى حدّ كانوا ينذرون إقامتها لقضاء حوائجهم(١)، أو يقيمونها تعبيراً عن شكرهم لعودتهم سالمين من السفر، أو استعادتهم صحّتهم، أو العودة من الزيارة، حتى ـ كما ينقل أحمد كسروي في تاريخ الحركة الدستورية الإيرانية ـ أقاموا تشابيه الفرح، كعرس القاسم، في أعراسهم(٢)؛ فكانت حاضرةً في حياتهم على مدار السنة.

## رواج التطبير في العهد الناصري القاجاري

ومما امتازت به طقوس المأتم في هذه الفترة، رواج التطبير والضرب بالموسى، وإن كانت هذه التقاليد رائجةً منذ سنين، لكنّها اتسعت وشاعت في هذه الفترة بشكل غير مسبوق. وهناك ثلاثة آراء حول جذور هذه التقاليد؛ فيرى جماعة ـ منهم الدكتور علي شريعتي ـ أنّها وما شابهها من تقاليد كتعليق الأقفال بالجسم، والضرب بالسلاسل، وحتى التشابيه، اقتبسها ملوك الصفوية من الطقوس المسيحية التي كانت تقام باسم «مصائب المسيح» في ذكرى استشهاده، فكانوا يمثلون المصائب والمحن التي حلّت به وبالحواريين في قالب مسرحيات، ولازالت هذه الطقوس تقام سنوياً في «اللورد»(٣)، ويعتقد آخرون بأنّ العرب أدخلوها على المآتم، فهي تشبه تقاليدهم من حيث شكلها وإطارها، فيما ترى جماعة ثالثة أنها انتقلت من أتراك آذربايجان إلى الفرس والعرب، لاسيما التطبير والضرب بالموسى. وعبد الله المستوفي من الجماعة الأخيرة حيث يرى أنّ المؤسس الأصلي هو الفاضل الدربندي.

يقول المستوفي عن رواج التطبير والضرب بالموسى في العهد الناصري: الضرب بالموسى من الأعمال التي أدخلها هذا الملا [الفاضل الدربندي] في طقوس عاشوراء، أو على الأقل روّج لها، وصوّر هذا الفعل الحرام موجباً للثواب، وتقبّل ذلك

---

(١) إيران وإيرانيان: ٢٣٦.

(٢) أحمد كسروي، تاريخ مشروطه إيران: ١١٠، طهران، مؤسسة انتشارات دانشكاه، ١٣٨٢ش/٢٠٠٣م.

(٣) علي شريعتي، تشيع علوي وتشيع صفوي (مجموعه آثار): ١٧٠، ١٧١، طهران، جابخش، ١٣٨٢ش/٢٠٠٣م.

الأتراك الجهلة، وأصبحت هذه المخالفة الصريحة للشرع من تقاليد المأتم الحسيني ومن الأعمال المثاب عليها. أما ردّات شاحسين [الملك حسين]، واحسين، واحيدر! صفدر! قبل التطبير، فردّات تركية، يعتقد بها الأتراك ويردّدونها، وإن شاركهم في ذلك بعض أهل العراق، فليسوا بالحسبان من حيث العدد(١).

ويروي بنيامين عن التطبير في العهد الناصري ما يلي: كنتُ مقيماً في طهران عام ١٨٨٤م، وكانت مجموعات تجوب الشوارع وتبدي انفعالات شديدة وغير مسبوقة.. وفي هذه الأثناء، ظهر جماعة يرتدون ثياباً بيضاء، وقامات (سيوف) في أيديهم؛ فإذا بهم يرفعونها بحماس ويضربون بها رؤوسهم، فتسيل الدماء من رؤوسهم ومن تحت القامات، وتصبغهم باللون الأحمر. ما أبشعه من منظر! لا يمكنني نسيانه أبداً. يغمى أحياناً على من يلطمون بحماس، أو ينزفون بشدة فيقعون أرضاً، وقد يموتون إن لم يسعفهم أحد(٢).

## وقوع الانقسام الشيعي في قضية التطبير وأمثاله

اختلف العلماء حول الضرب بالقامات والموسى، كما في التشابيه؛ فعدّ المدافعون ذلك شكلاً من انفعال محبّي أهل البيت حين سماعهم المصائب التي حلّت بهم، ويذكرون قصّة السيدة زينب حين رأت الرؤوس على الرماح، فضربت رأسها بالمحمل، وجرت دماؤها، ساعين بذلك لإضفاء الشرعية على هذا التقليد المبتدع، ناظمين في مضمونه أشعاراً. في المقابل، استند المخالفون إلى قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» وعدّوا ذلك بدعةً خطيرة لما تحمله من ضرر بالنفس. وقد ظهر هذا الاختلاف بين علماء الشيعة أيضاً؛ إذ ألّف السيد محسن الأمين العاملي كتاباً تحت عنوان: رسالة التنزيه في أعمال الشبيه حول حرمة هذا العمل، وكونه «مرضياً للشيطان». بعد فترة، أفتى السيد أبو الحسن الإصفهاني ـ أحد مراجع الشيعة ـ بحرمة التطبير وإيذاء النفس في المآتم الحسينية ليدعم بهذه الفتوى كتابَ محسن الأمين.

---

(١) شرح زندكاني من يا تاريخ اجتماعي واداري دوران قاجاريه: ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) إيران وإيرانيان: ٢٨٤.

في المقابل، أجاز الميرزا النائيني التطبير في الفقرة الثانية من فتواه المشهورة، كما كتب الميرزا هادي الخراساني الحائري رسالةً في تأييده عام ١٣٤٨هـ وذلك بعد ثلاث سنوات من فتوى النائيني، وأسماها «رسالة شريفة ومقالة منيفة في جواز التشابيه وضرب القامات والطبول في عزاء سيّد الشهداء»[١]، وفيما يلي نصّ فتوى السيد أبي الحسن الإصفهاني في حرمة التطبير: «إنّ استعمال السيوف والسلاسل والطبول والأبواق وما يجري اليوم في مواكب العزاء بيوم عاشوراء، إنما هو محرم وهو غير شرعي»[٢].

انتهت هذه الخلافات إلى ما انتهت إليه التشابيه؛ إذ حصل التطبير وما شابهه من تقاليد على إقبال عامة الناس، وأصبح جزءاً لا يتجزء من مظاهر التديّن المتعصّب؛ فلم تحقّق مخالفة العلماء أيّ نتائج، بل ظهرت جبهة بين الناس لمواجهة العلماء المخالفين، وضاقت بهم السبل، حتى أصبح الناس يقولون بعد شرب الماء في هذه المراسم: «إشرب الماء والعن الأمين [السيد محسن الأمين]»[٣]؛ فأصبحت فتوى الميرزا النائيني ذريعةً لعزل من خالف التطبير من العلماء.

وفيما يلي مقاطع من رسالة الميرزا هادي الحائري الخراساني في تأييد التطبير وسائر تقاليد المأتم: «... ولا أرى أخفّ كلم ولا أدق قلم على خلاف شيء من هذه الدعوة الإسلامية والتظاهر الديني [القامة وسائر طقوس العزاء التي أصبحت محلّ خلاف]، إلا نفثة من السموم الأموية، ونزعة مروانية شوّشت بعض الآراء الراكدة والأوهام الجامدة، والتشبّث بقاعدتي: حرمة اللهو ولا ضرر في المقام قصورُ نظر؛ حيث إنّ قصد التلهيّ إنما هو ملاك صدق اللهو في هذه الأمور المعتادة، وهو مفقود بالحسّ والعيان زيادةً على ما يقتضيه الأصل في فعل المسلم، فضلاً عن الغريق في بحر الوداد، الحريق بلهيب المصائب. والنظر إلى ما تواتر وثبت بالضرورة من أخبار الحث إلى الزيارة في تلك الأزمنة مع ما كانت عليه من شدّة

---

(١) عزاداري از ديدكاه مرجعيت شيعه: ١٠٣.

(٢) محمد صحتي سردرودي، تحريف شناسي عاشورا وتاريخ امام حسين عليه السلام: ٢١٤، طهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، شركة جاب ونشر بين الملل، ١٣٨٣ش/٢٠٠٤م.

(٣) بهروز رفيعي، تراجيدي كربلا: جامعه شناسي، فصلية حوزة ودانشكاه، ع٣٣: ١٩٥.

الخوف وأعظم الخطر ونهاية التقية، يهدم أساس هذه التسويلات، وتحمّل المشاق الدنيوية لنيل المثوبات الأخروية ضروريّ جميع الملّيين، وإنما تقصر عنها همم هذا العصر الجديد، القاصرة على الموادّ الطبيعية عن التوجه إلى الأسرار الغيبية، وإلا فالعياذ بالله، انجرّ إلى توهم الضرر في البكاء من خشية الله تعالى، وفي التعازي، وهو إنكار ضروريّ المذهب والملة الإسلامية»[١].

ينبغي الاعتراف بأنّه كانت بين العلماء والمراجع أيضاً جبهة مؤيّدين لهذه الطقوس أكثر عدداً وأثقل وزناً لدى الناس، وخير دليل على ذلك، القائمة الطويلة التي ذكرها مؤلّف كتاب: عزاداري از ديدكاه مرجعيت شيعة، والتي تضمّنت أسماء كثير من العلماء والمراجع تحت عنوان: «جماعة من أعاظم الفقهاء ومراجع تقليد الشيعة في العالم، وأصحاب الكلمة النافذة، الساعين في النهي عن المنكر، والمطاعين من قبل الشعب والحكومة، يعلمون ويرون ويسمعون بمواكب التشابيه وضرب السلاسل والقامات في مأتم الحسين المظلومعليه السلام، ولم يخالفوها، بل أقرّوها وأمضوا العمل بها، وحكموا بجوازها واستحبابها» وقد ذكر في هذه القائمة أسماء عظماء الشيعة، من السلف إلى المعاصرين، كالشيخ الحرّ العاملي، الشيخ مرتضى الأنصاري، الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، الشيخ جعفر الشوشتري، الحاج ملا علي الكني، الشيخ فضل الله النوري، الآخوند كاظم الخراساني، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي، وآخرين.

### الدربندي ودوره في إشاعة التطبير والخرافة

إذا وافقنا نصر الله المستوفي على دور الملا آغا ابن عابد الشيرواني، المعروف بالفاضل الدربندي وملا آغا دربندي، في إشاعة التطبير في تلك الفترة، فيجب الاعتراف بأنّه لم يكن الدور الوحيد له في المآتم آنذاك، ولعل كتابه: إكسير العبادات في أسرار الشهادات، لعب دوراً مهماً في ذلك؛ فهو ـ ككتاب روضة الشهداء للواعظ الكاشفي ـ كتاب مقتل وخاص ببيان مصائب سيد الشهداءعليه السلام وأنصاره، وقد ترك كلا الكتابين آثاراً متشابهة؛ إذ جاءا لسدّ نفس الثغرة وتلبية نفس الحاجة،

(١) عزاداري از ديدكاه مرجعيت شيعه: ١٠٤.

ولقيا استقبالاً واسعاً من قبل الناس، كل في فترة انتشاره ـ الأول في أيام تأسيس الحكم الصفوي، والآخر في قمّة ازدهار العهد القاجاري ـ كما حظيا بالتقدير عينه من قبل أهل الفنّ، بيد أنّ كتاب أسرار الشهادة كان تفوّق على الروضة في ترويج القصص الخرافية المجعولة حول واقعة كربلاء.

يقول مؤلّف ريحانة الأدب في تعريف الملا آغا الدربندي وكتاب أسرار الشهادة: «تضمّن الكتاب الغث والسمين، لما تمتّع به مؤلّفه من شغف وحب» وينقل عن صاحب أعيان الشيعة: «نقل الدربندي الكثير من القصص الواهية في مؤلّفاته، مما لا يصدقه العقل ولا شاهد من النقل عليه»[1]، وللمحدّث النوري في اللؤلؤ والمرجان نفس الرأي، وعلى الرغم من تأكيده على إخلاص الفاضل الدربندي ومدى حبّه لأهل البيت، ينقل قصّة تأليف أسرار الشهادة، كمطلع على الموضوع، قائلاً: «وفد يوماً سيّد خطيب عربي من الحلّة إلى كربلاء، وقدّم للشيخ عبد الحسين الطهراني مخطوطات قديمة، ورثها عن أبيه، بقلم أحد علماء جبل عامل، تتضمّن روايات عن حياة أهل البيت ومصائبهم. وبعد أن اطلع عليها الشيخ، وجد فيها كثيراً من الأكاذيب الواضحة والأخبار الواهية؛ لذلك نهى السيد العربي عن نقلها. لكن يبدو أنّها وقعت في يد الفاضل الدربندي، الذي كان يسكن العتبات العاليات آنذاك، وكان مشغولاً بتدوين أسرار الشهادة؛ فنقل تلك الروايات وأضاف إليها من عنده، وزاد على أخباره الواهية المجهولة، وفتح باب طعن مخالفيه والسخرية منهم والاستهزاء بهم على مصراعيه. ووصل به الأمر حيث عدّ جيش الكوفة ستمائة ألف راكب ومليوني راجل، وهيأ بذلك ميداناً وسيعاً للخطباء، لا يضيق بهم مهما صالوا وجالوا فيه، ومادة غزيرة لا ينتهي بها الافتراء على العظماء، وحجّتهم أنّ الفاضل الدربندي قال كذا»[2].

ويعتبر الشهيد مرتضى مطهري في الملحمة الحسينية أنّ عمل الملا آغا الدربندي في تأليف أسرار الشهادة، كان استخداماً لوسيلة غير مقدّسة لهدف

---

(١) محمد علي مدرّس، ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب أو الكنى والألقاب ٢: ٢١٧، تبريز، كتاب فروشي خيام.

(٢) حسين النوري الطبرسي، لؤلؤ ومرجان: ١٩٠، تصحيح وتحقيق: ع. م. ركني، قم، بيام مهدي عجل الله فرجه، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م.

مقدّس[١]، لكنّ نهاية إقبال الناس على الدربندي لم تكن لمصلحته، إذ اتخذت مواعظه على المنبر منحى آخر؛ فصار ينتقد أرباب السلطة لتصرفاتهم غير الأخلاقية. لذلك قرّر الملك إنهاء محاضراته بالاستعانة بإمام جمعته، فأبعده إلى كرمانشاه[٢]، وبحسب المجموع، كما كان للدربندي وكتبه دور في ترويج المآتم آنذاك، كذلك أثّر بشكل كبير في إدخال الروايات الكاذبة والخرافية وإشاعتها، وتسطيح مستوى هذه المآتم.

لم يكن الدربندي وكتابه العاملَ الوحيد في الجعل ودخول الأخبار الواهية عن واقعة كربلاء إلى المآتم والتي بلغت ذروتها آنذاك.. فإقبال الناس على قصصٍ كهذه أدّى إلى غلبة الطابع البطري على الطابع الديني في المآتم والتشابيه، مما هيأ أرضية خصبة لظهور أمثال هذا الكتاب. ويمكننا ذكر طوفان البكاء للميرزا إبراهيم الجوهري، ومحرق القلوب للملا مهدي النراقي كشواهد على كتب شاطرت روضة الشهداء وأسرار الشهادة في خلط الغث بالسمين والصدق بالكذب، ودعمت الطابع القصصي على حساب انحسار الطابع التاريخي المستند.

## حركة النقد الشيعية لتحريف واقعة كربلاء في العصر القاجاري

وقد اتخذ بعض العلماء موقفاً معارضاً لهذا التيار، وجابهوا تحريف واقعة كربلاء بكتب ورسائل نقدية. ومن أهم هذه الكتب، كتاب لؤلؤ ومرجان للميرزا حسين النوري الطبرسي المعروف بالمحدّث النوري، عام ١٣١٩هـ وكتاب أسرار المصائب ونكات النوائب في ذكر غرائب الأطايب من آل أبي طالب، لعلي بن محمد تقي القزويني النجفي عام ١٣٢٣هـ؛ ففي كلا الكتابين، بدأ المؤلفان ـ وهما من علماء النجف ـ بمباحث مفصّلة حول الكذب وقبحه وإثمه، ثم تناولا التحريفات والأكاذيب الرائجة آنذاك حول واقعة كربلاء، وتطرّقا إلى بعض المصاديق كنايةً؛ فانتقد مؤلف لؤلؤ ومرجان ما ورد في أسرار الشهادة واللهوف لابن طاووس، ومنتخب الطريحي، واعترض مؤلّف أسرار المصائب.. على كتاب محرق القلوب ومؤلّفه الملا النراقي،

(١) مرتضى مطهري، خدمات متقابل إيران وإسلام: ٩٠ ـ ٩٧، طهران، صدرا، ١٣٨٣ش/٢٠٠٤م.

(٢) دين ودولت در إيران: ٢٥٥.

ويعكس قول المحدث النوري المشهور في خاتمة كتاب لؤلؤ ومرجان، قوّةَ التحريف وسعة نطاقه: «جدير بنا اليوم أن نقيم مآتم، يبكي فيها الشيعة على مصائب الحسين الحديثة، المصائب التي أحلّها الخطباء الكذّابون به». ويشير القزويني النجفي في أسرار المصائب إلى إشاعة القصص المختلقة حول واقعة كربلاء في العهد القاجاري، ويقول: «أسمع وأرى هذه الأيام انتشار الأخبار المختلقة والروايات المجعولة، التي تأتي بالدمار على الدين وشريعة سيّد المرسلين، وبالذرائع لاستهزاء المخالفين، إنّ رواج هذه الأكاذيب أعظم مصاب لأهل البيت، وإن كانت تقرأ في المآتم ومجالس الرثاء، لكنّها ليست سوى بدعة في الدين، أتت في قالب مصائب الحسين عليه السلام، وهي مما يدمي قلبه، جاء بها بعض العوام؛ لأنهم استحسنوها ـ حسب عقيدتهم السخيفة ـ وأوردها بعض العلماء في مؤلّفاتهم غافلين، ولحقتها مفاسد عظيمة.. وحاصل الكلام: إنّه لا تجوز قراءة هذه الأكاذيب والقصص المختلقة الباطلة في المآتم ومن على المنابر ـ وهو مر متعارف اليوم ـ وينبغي أن لا تكتب أو تقرأ حتى بقصد تكذيبها؛ إذ يؤدي ذلك إلى مداولتها لفترة من الزمن، وقد تُكتب على أوراق ثم تسقط بيد الأجيال القادمة، فيعتمدون محتواها؛ لأنهم وجدوه على أوراق قديمة»[1].

ويصف المحدّث النوري في كتاب لؤلؤ ومرجان الرثاء الكاذب في العهد القاجاري، فيقول: «أما هذه الجماعة [خطباء الكذب والزور]، فكلّما اعتلوا المنبر، أتوا بخبر جديد، وزرعوا بذور الكذب في أيّ مجلس حضروه، وما إن يجدوا فتوراً في تفاعل المستمعين حتى يحيكوا خبراً جديداً، وإن جاؤوا بخبر صحيحٍ أتوا له من عندهم بفروع وحواشي كثيرة؛ لذلك لا تحصى الروايات التي ينقلونها في كتاب، ويعجز حتى الكرام الكاتبين عن إحصائها.. أما النتيجة البديهية لذلك، فإهانة المذهب والأمّة الجعفرية، وإعطاء الذريعة بيد المخالفين للسخرية والاستهزاء والطعن، وأن تقاس سائر أحاديث الإمامية ورواياتهم على هذه الأخبار الواهية والقصص الكاذبة،

---

(١) رسول جعفريان، تاريخ تشيّع درٌ إيران از آغاز تا قرن دهم هجري: ٨٧٨، قم، أنصاريان، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م.

حتى كتبوا أنّ الشيعة بيت الكذب، وإن أنكر أحد عليهم ذلك يكفيهم الإتيان بكتاب المقتل المعروف لإثبات صدق مدّعاهم»(١).

ويعاتب النوري في موضع آخر من الكتاب قائلاً: «إجمالاً، سكوت أصحاب النفوذ أدّى إلى جرأة هؤلاء القوم الظالمين [خطباء الكذب والزور] وعدم مبالاتهم؛ إذ يأتون بالأكاذيب الغريبة وبألحان مطربة، حتى في المراقد الشريفة، وخاصة مزار صاحب المأتم سيد الشهداء (أرواحنا وأرواح العالمين له الفداء) في مختلف الأوقات، لا سيما في الأسحار ـ وهي ساعات البكاء والاستغفار ـ فيظلمّ المقام الأنور، وتبتعد أفواج ملائكة الرحمة، ويلهى الناس عن العبادة والإنابة والتضرّع إلى الله، ويدخلون في زمرة «الصادّين عن سبيل الله» لكن لا يمنعهم أحدٌ عن ذلك، بل يتعجبون أحياناً لعدم استجابة الدعاء تحت تلك القبّة السامية، ولا يعلمون أنّه لم تبق هناك قبّةٌ ولا حرم ولا ملك ولا فيض، بل أصبح المكان ملعباً لفريق من الناس، ومكسباً لبعض آخر؛ من أموال الدنيا أحياناً، ومن الأمور الدينية أحياناً أخرى. وقد تسرّى فساد هذه الجماعة إلى الآخرين؛ إذ يعقد منذ فترة القصاصون حلقات الرواية والاحتيال في الصحن المقدّس، بتلفيق قصص طويلة، ويستمرّون في سرد الأكاذيب الواضحة ثلاث ساعات، ويجتمع حولهم جمع من الهمج الرعاع؛ لو أقيم هذا الاجتماع القذر الملعون من قبل الجبّار المنتقم (جلّ جلاله) في الصحراء بعيداً عن الحظر، لكان لزاماً على المسلمين تفريقه ومنعه. فكيف الحال، والمكان هو الصحن الشريف، الذي يرقد تحته آلاف من المؤمنين والأخيار، ومحلّ عبرة واتعاظ ودعاء وتلاوة القرآن، وفوقه معراج الملائكة ومختلفهم، ومن جاوره مشغولٌ بالبكاء والصلاة والاستغفار لزواره، وبالطبع ليس هؤلاء الزوار المشغولين بالمنكر القبيح، أو معينين عليه، أو يمرّون غير آبهين به، ولا ملتفتين لقبحه، ناهيك عن استنكاره أو منعه؛ فجدير بأهل العلم والبصيرة أن يقيموا مجالس لذكر مصائب سيد الشهداء الجديدة، ويحصوا الظلم الذي يلحق بالإمام ليلاً ونهاراً من زواره ومجاوريه وخدّامه وحملة علومه والعبّاد والمتنسّكين، ويعطوها لمؤمن مخلص؛ ليقرأها في مجالس المتقين والمتديّنين ذوي الغيرة، فيكتوون بنارها ويبكون لألم المصاب، ويدعون الله لتعجيل فرج ناشر العدل

(١) لؤلؤ ومرجان: ١٣٦، ٢١٦.

والأمان، وباسط الفضل والإحسان، وقامع الكفر والنفاق والعدوان»[١].

ثمّ يدعو العلماء لمواجهة المآتم التي ظلّلتها الأكاذيب والروايات الباطلة، ويخاطبهم معاتباً: «كان جديراً بالفقهاء الراسخين وحماة الدين المبين، صيانة حصن الأمة الأحمدية والطريقة العلوية بأفضل ممّا هو الحال عليه اليوم، وأن يبعدوه عن هذا الخزي والعار [مجالس الرثاء المنطوية على الكذب والخديعة]، ويطهّروا ساحة المذهب الجعفري الطاهرة من دنس هذه القاذورات، ويمنعوا نشر أمثال ذلك الكتاب [منتخب الطريحي] والنقل عنه ولا يدعوا الخطباء ـ الذين لا يميّزون بين الصحيح والسقيم ـ يستندون إليه؛ وإذا لم يستجيبوا، فلا يدعوهم إلى المجالس والمآتم، وإن دُعوا إلى مجلسٍ لا يحضروه، وإن حضروه غير عالمين بوجود أولئك، فليتركوا المجلس غير آبهين بأحد، لإعلاء كلمة الحق والنهي عن الفعل المنكر، وفي ذلك فائدة عظيمة في تنبيه هذه الجماعة والتزامهم بما أمروهم والعمل على أساس صحيح، لا أن يجلسوا ويستمعوا ويشجّعوا بقولهم: «أحسنت» و«طيب الله أنفاسكم» بعد فراغ الخطيب من الدعاء»[٢].

## مظاهر جديدة أخرى في العصر القاجاري: الرسومات والشموع و..

ظهرت في عهد الملك ناصر الدين تقاليد أخرى ـ غير التطبير ـ في طقوس المأتم الحسيني ومظاهر التديّن لدى عامة الناس، وغالباً ما كانت حديثةً وغير مسبوقة، ظهرت إمّا بأمر من الملك ـ الذي كان على دين غير دين العلماء ـ أو نمت في المناخ الذي أوجده هو نفسه، ومن جملة هذه التقاليد «الاعتقاد بالرسومات» و«واحد وأربعون منبراً»؛ فممّا امتازت به هذه الفترة، رواج رسومات تمثل أهل البيت وخاصة الإمام علي عليه السلام؛ وكما ينقل المؤرخون والرحّالة، كان أكثر الناس يحتفظون برسم للإمام علي عليه السلام في بيوتهم آنذاك. وبالطبع بقي وجه الإمام مظلّلاً في هذه الرسومات؛ إذ كانوا يعتقدون بأن لا رسام يمكنه رسم تلك الملامح، وانفرد الملك برسم كبير كامل لوجه الإمام عليه السلام، وكان يقيم احتفالات رسمية لتكريمه وإجلاله،

---

(١) المصدر نفسه: ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٩، ٢٢٠.

وقد حملت هذه المراسم طابع «العبادة» الأمر الذي واجه مخالفةً علنية من قبل العلماء، وإن لم تؤثر هذه المخالفة كثيراً على عامّة الناس.

يذكر إدوارد بولاك رواج تلك الرسومات في العهد الناصري، وردّة فعل العلماء حيال ذلك، فيقول: «يعتقد هؤلاء [الشيعة] بالرسوم والتصاوير، وتجد في كافة بيوت الفقراء رسماً يمثل الإمام علياًعليه السلام، نُحت على الخشب من دون دقّة أو مهارة؛ إذ يقولون: إنه كان في غاية الجمال واللطف، حيث لا يمكن لرسّام تصويره، ولذلك يبقى وجهه مظلّلاً، ويظنّ الملك بأنّ الرسم الحقيقي [النسخة الأصلية] للإمام عليعليه السلام مُلكه وحده. ويبدو أنه جُلب من الهند، ويحتفظ به في صندوق ذهبي مزخرف جميل، وحين يأتون به يقف جميع من في البلاط إعظاماً وإجلالاً له، وحتى شخص الملك يبالغ في إظهار الاحترام والتعظيم له. وقبل عدّة سنوات ابتكر نهجاً لتكريم رسم الإمام علي.. لكنّ مشاركة العلماء في هذه المجالس كانت بإكراهٍ شديد؛ لأنهم وجدوا في هذه المراسم نوعاً من عبادة الصورة، الأمر الذي يخالفه ـ بصراحة ـ نصّ القرآن الكريم»[(١)].

ويصف بنيامين إحدى هذه الرسوم في العهد الناصري، يقول: «كان إلى جانبي [في خيمة العزاء] رسمٌ كبير لنبيّ الإسلام، منصوباً على الحائط، صوّر هذا الرسم ملامح خيالية للنبي محمدصلى الله عليه وآله، ويظهر فيه النبي في أيام شبابه لابساً عمامةً خضراء على رأسه، وينظر إلى الأمام بوجهٍ بشوش»[(٢)].

التقليد الآخر كان تقليد «الأربعين [أو الواحد والأربعين] منبراً» ويعني ذلك أن ينذر الناس ـ لقضاء حوائجهم ـ الذهاب في ليلة عاشوراء إلى أربعين [أو واحد وأربعين] مأتماً أو خيمة عزاء، يرثى الحسين فيها، فيوقدون شمعةً في كلّ منها، وقد خصّص في خيم العزاء مكان لذلك ـ كماء السبيل ـ وبالطبع، كانت هذه التقاليد تمتزج في المناطق المختلفة بتقاليد سكّان تلك المناطق وطقوسهم، فتأخذ صوراً مختلفة[(٣)].

---

(١) إيران وإيرانيان: ٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٨.

(٣) السيد أحمد وكيليان، نذر ونياز در عاشوراي حسيني، مجموعة مقالات مؤتمر محرم وثقافة

ويبدو أنّ هذا التقليد لم يكن حكراً على طبقة معينة، بل كان متبعاً حتى من قبل أهل البلاط؛ فنجد اعتماد السلطنة يكتب في مذكّراته، تحت عنوان حوادث عام ١٣٠٠هـ: «ذهبت الليلة إلى أربعين مأتماً، التي أذهب إليها كلّ عام»[١].

وقد تعود جذور هذا التقليد إلى اعتقاد الإيرانيين قبل الإسلام بقداسة النور وكونه واسطةً بين الإنسان والربّ[٢].

يقول المستوفي عن هذا التقليد: «كنّا نرى جماعةً في ليلة عاشوراء، بعضهم حفاة، يحملون أكياساً أو صناديق مليئة بالشموع، فيذهبون لخيم العزاء والمآتم التي يرثى فيها الحسين نهاراً، ويؤدّون نذرهم في إيقاد واحد وأربعين شمعة في واحد وأربعين مأتماً.. كان أولئك الناس من كافّة الطبقات، حتى بعض الأثرياء كانوا يقومون بذلك التقليد ومعهم المصباح والخدم والفراش.. كان الفراش يحمل صندوق الشمع، وما إن يصلوا إلى المنبر حتى يوقد السيّد شمعةً، ويقبّل المنبر بإخلاص تام»[٣].

## الخطابة والمواعظ في العهد الناصري

وتبعاً لانتشار المآتم والتشابيه في العهد الناصري، لاقت الخطب والمواعظ رونقاً أيضاً، وظهر عدد كبير من الوعّاظ في كافة أنحاء البلاد، يعتلون المنابر ويلقون الخطب والمواعظ، من أبرزهم الملا آغا الدربندي الذي مرّ ذكره، وآخرون ملأ صيتُهم أرجاء إيران آنذاك، منهم: الحاج الميرزا أحمد الإصفهاني، والحاج الملا أحمد واعظ الخوانساري، والسيد إسماعيل البهبهاني ـ والد السيد عبد الله البهبهاني، أحد قادة الحركة الدستورية ـ والملا إسماعيل واعظ السبزواري، والشيخ جعفر الشوشتري، والسيد قاسم روضه خوان ـ المعروف ببحر العلوم ـ وقد لقّب الملك

---

الشعب الإيراني الثالث: ١٠٣، طهران، سازمان ميراث فرهنكي كشور، ١٣٨٣ش/٢٠٠٤م.

(١) اعتماد السلطنة، جهل ويك منبر رفتم وناخوش شدم، صحيفة همشهري، ٢٣/ ٦/ ٨٤ش(٢٠٠٥م)، نقلاً عن: روزنامه خاطرات اعتماد السلطنة: ٢٠٣.

(٢) شرح زندكاني من يا تاريخ اجتماعي واداري دوران قاجاريه ١: ٣٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣٠١، ٣٠٢.

ناصر الدين بعد وفاته ابنه، السيد علي أكبر روضه خوان، بـ «أشرف الواعظين»[١]، وعموماً، أهمّ ما امتاز به تقليد الخطابة والموعظة في هذه الفترة، وطيلة العهد القاجاري، هو تأليف الكتب والرسائل التي تتضمّن نصوص الخطابة والموعظة.

يصنّف البروفيسور السيد حسن الأمين هذه النصوص في ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** الكتب التي تضمّ مجموعة مختلفة من محاضرات خطيب معيّن في فترة محددة، كفوائد المشاهد ونتائج المقاصد، التي تتضمّن مجموعة محاضرات الشيخ جعفر الشوشتري في أيام الجمعة من شهري رمضان ومحرم، وقام بجمعها ونشرها أحدُ مستمعيه، وهو محمد بن علي أشرف الطالقاني.

**القسم الثاني:** الكتب التي دوّنت لتكون أنموذجاً للخطابة، أو مادة أوليّة لمجموعة محاضرات متشابهة، وكانت بمثابة كتب تعليمية للوعّاظ آنذاك، منها: عنوان الكلام للملا محمد باقر الفشاركي الإصفهاني، وأنيس العهد ومونس اللحد للملا صدر الدين القزويني، ومجالس الواعظين للسيد إسماعيل الحسيني الأردكاني، ومجالس نظامية للميرزا رفيع نظام العلماء التبريزي.

**القسم الثالث:** ما كان يكتبه الخطباء قبل المحاضرة أو بعدها، ومن ثم قاموا بطبعه ونشره، كمجالس المتقين التي تتضمّن خمسين خطبة، وقد ألّفها الملا محمد تقي البرغاني في عهد الملك محمد القاجاري[٢].

## انحسار المظاهر الحسينية في نهاية العهد القاجاري

وعلى الرغم من أنّ المآتم أخذت بالاتساع والانتشار في عهد الملك ناصر الدين، لكنّها انحسرت في نهاية هذا العصر، ويمكننا ذكر ثلاثة أسباب لذلك:

١ ـ رواج التشابيه واتّساعها من حيث الكيف والكم على حساب المآتم، في منافسة غير متكافئة؛ لدعم الملك والبلاط للتشابيه، ولما تمتّعت به من صفات جذبت إليها الجمهور.

٢ ـ ظهور الطابع الصوفي وميل الناس إليه، وانتشار الروايات الضعيفة

(١) هنر مرثيه خواني: ١٤١، ١٤٢.

(٢) نقل بإيجاز عن: هنر مرثيه خواني: ١٣٩.

والمختلقة في المآتم، مما أفقدها غناها ومحتواها القديم.

٣ ـ طغيان التغرّب، ومعارضة المثقفين للمآتم، وحملة التضعيف للعقائد، وفقدان الإحساس بالمسؤولية، الأمور التي وصلت ذروتها آنذاك[1].

بعد فترة وجيزة، سرى الانحسار إلى التشابيه أيضاً، وقد يكون السبب الرئيس في ذلك هو عدم حضور الدوافع الدينية والإخلاص في هذه المجالس، ولدى القائمين عليها والمشاركين فيها؛ فقد دخلتها النوازع والأهواء والمنافسات والتفاخر والرياء؛ حتى عبّر جان كالمار عن ذلك بقوله: «أصبحت المآتم مجالس أهل الدنيا»[2]، وبالطبع، اعترض بعض المصلحين ورجال الدين على تلك الحالة، كرسالة مسلك الإمام في سلامة الإسلام التي كتبها الشيخ أسد الله الممقاني[3]، لكنّ هذه الاعتراضات لم تثمر كسابقاتها. يقول الشيخ أسد الله الممقاني، معترضاً على وضعية المآتم في أيام الحركة الدستورية: «إنّ المآتم أولى الأمور وأفضل وسيلة لنشر الإسلام والطريقة الشيعية الحقّة.. بشرط أن يراعى فيها النظام والأصول الصحيحة. لكن للأسف، عبثوا بالأمر وبهذا المؤتمر الديني السنوي، حيث لا يمكن وصفه؛ فتجد أناساً لملئ فراغهم يدخلون هذا الشأن، فيما هم في جهل مطبق، فيسبّبون الوهن لهذا التقليد العظيم. وقد وصل الأمر إلى حدّ يضطرّ صاحب المجلس في المدن الكبيرة إلى دعوة عشرين أو خمسة وعشرين خطيباً. أمّا القرى والأرياف، فيهجم عليها عشرون أو ثلاثون من هؤلاء، من أول محرم إلى يوم عاشوراء، ويقوم الجدال والنزاع بينهم، فعلى المؤرخين تدوين عدّة وقائع كربلاء لكل عام، فالناس مساكين، وقعوا رهائن بأيدي هذا الصنف»[4].

بدأ مسلسل التقهقر هذا منذ نهاية عهد الملك مظفر الدين القاجاري، واشتدّ مع بدء الحركة الدستورية مطلع القرن العشرين، وإن أبدى الملك مظفر الدين ـ كأبيه ـ

---

(١) شرح زندكاني من يا تاريخ اجتماعي واداري در دوران قاجاريه ٣: ٤٦٠؛ ودرباره تعزيه وتئاتر در إيران: ٥٠؛ وانديشه ديني وجنبش ضد رجي در إيران: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) درباره تعزيه وتئاتر در إيران: ٥٠.

(٣) علما وانقلاب مشروطيت إيران: ٢٠٩.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠٩، ٢١٠.

تعلّقه بإقامة المآتم والتشابيه، ونقلوا كثيراً عن بكائه في مجالس الرثاء[(١)]. يقول المستوفي عن انحسار المآتم في مطلع الحركة الدستورية، وردّة فعل المتديّنين على ذلك: «منذ أن جعل الأثرياء المآتم أداة تفاخر ومباهاة، وحضرها المستمعون لقضاء الوقت، وترك الخطباء الجوانب الأخلاقية واعتمدوا الرياء.. احتلّت الألفاظ مكان المعنى وروح المآتم، وانتهج الناس نمط الملا آغا الدربندي، وأصبحت الرؤيا حقيقة والخيال واقعاً. ينقل الخطباء الأخبار الضعيفة ـ وذلك هيّن ـ ويُدخلون فيها صياغات وتعابير من عندهم، وينسبون أشنع الأكاذيب لأهل بيت النبي باسم «لسان الحال» لقد حاكوا ما خطر لهم لإنجاح منبرهم، وحث النساء على الصراخ والنواح. بدأ هذا الحال منذ نهاية عهد الملك ناصر الدين، واشتدّ يوماً بعد يوم، حتى وصل ذروته في عهد الملك مظفر الدين، فأضعف إيمانَ الناس واعتقادهم. وقد شرع بعض المتديّنين بانتقاد هذه الحالة، حيث وجدوها تخالف روح المأتم، وكان هدفهم الإصلاح، لكنّ جماعة ممّن لم يتجرؤوا على طعن المأتم إلى ذلك اليوم، انتهزوا ظهور هذه الانتقادات لزعزعة أساس المآتم. في خضم هذه المعركة، دخلت الحركة الدستورية المعترك.. فجعل السادة الذين لا علم لهم بالمعارف الإسلامية، رجالَ الدين وكلّ ما يرتبط بالدين هدفَ سهامهم، فحرّضوا الناس للخروج عن الدين قدر استطاعتهم»[(٢)].

ويقول في موضع آخر حول أفول المآتم والتشابيه أيام الحركة الدستورية: «تقلّص عدد المآتم ـ خاصة التشابيه ـ في الخمس عشرة أعوام الماضية التي انطلقت فيها الحركة الدستورية، وحتى المواكب قلّت بشكل ملحوظ؛ فلم تدع مشاكل الحياة الأخرى مجالاً لهذه المستحبات، وقد سرى ضعف الإيمان من الأثرياء إلى الطبقات الفقيرة، وانحصرت المواكب بليلة عاشوراء ويومه، والأربعين، والثامن والعشرين من صفر؛ وظهرت تقاليد جديدة في المآتم، حيث تتجوّل مجموعة تشبه أنصار الطف أو أعداءه مع المواكب. أما التقليد الآخر فهو إقامة «مأتم الليلة الأولى» حيث يزدحم عامة الناس ـ خاصّة النساء ـ للتفرج على هؤلاء، لما يذكّرهم بالتشابيه السابقة، ومن كان يريد إقامة المأتم لأهل البيت والبكاء عليهم حقيقةً، كان يشارك في مراسم مأتم

(١) تاريخ بيداري إيرانيان: ١٠٣.

(٢) شرح زندكاني من يا تاريخ اجتماعي واداري دوران قاجاريه ١: ٣١٦، ٣١٧.

الليلة الأولى»[(١)].

ظهرت في هذه الفترة أيضاً، ابتكارات وتقاليد جديدة في المأتم، من أهمها: الاحتفال بمولد الإمام الحسين عليه السلام[(٢)]، والآخر انتشار مراسم «مأتم الليلة الأولى» التي اعتبرها عبد الله المستوفي تقليداً تركيّاً «وفَدَ مع الملك مظفر الدين إلى طهران»[(٣)]. يقول المستوفي عن إقامة مراسم «مأتم الليلة الأولى» في طهران، في عهد الملك مظفر الدين: «تبدأ هذه المراسم بعد غروب الشمس من ليلة الحادي عشر من محرم، ويراعى في هذا المأتم ـ قدر المستطاع ـ البساطة وانعدام ظواهر التجمّل والتكلف، وحتى قلّة الأنوار، ولم يكن هناك خطيب أيضاً. تأتي المواكب من مختلف أحياء المدينة، ويدخلون إلى خيمة العزاء وهم يردّدون المراثي باللغة التركية، سواء كانوا أتراكاً أم فرساً، ما معناه: أيها الشيعة! جئنا إلى مأتم الليلة الأولى؛ لنعزّي زينب الحزينة.

لم تحمل هذه المواكب أعلاماً أو مصابيح أو مشاعل. يوقد بعض الناس شمعةً لكي لا يسقطوا في الطرق المظلمة المتعثرة، وتقرأ المراثي أيضاً من دون ضوضاء وصخب، إنّهم يجلسون أحياناً ويقرأون المقطع الأول من الرثاء، ثم يقومون ويقرأون المقطع الثاني وهم يمشون، وبهذه الطريقة ـ ما بين جالسين وماشين ـ يطوفون في المجلس ويخرجون، وبالطبع يفسح لهم المجال من قَبْل لذلك»[(٤)].

## آخر سلاطين القاجار وحالة العزاء الحسيني

كان الملك محمد علي يتشبّه بالمقدّسين، ويقيم خيمة عزاء في شهر محرم، ويدعو الخطباء أحياناً، ويقول كسروي عن تظاهر الملك محمد علي بالتدين، حين كان ولياً للعهد: علينا أن نضيف إلى مساوئه [الملك محمد علي] تظاهره بالتديّن؛ إذ كان يقيم كلّ سنة في العشرة الأولى من محرم خيمةَ عزاء، وينطلق ليلة عاشوراء

(١) المصدر نفسه: ٤٦٠.

(٢) تاريخ بيداري إيرانيان: ٥٥٩.

(٣) شرح زندكاني من يا تاريخ اجتماعي واداري دوران قاجاريه ٣: ٤٦٠.

(٤) المصدر نفسه: ٤٦٠، ٤٦١.

حافي القدمين في الطرق إلى أربعين مسجداً، ليوقد فيها الشمع [إشارة إلى تقليد الأربعين منبر]. أما في شهر رمضان، فكان يحضر في مسجد الحاج الشيخ محمد حسين في إحدى ليالي الإحياء الثلاث، ويأتمّ به. كما كان يطبع كتب الدعاء. وفي شهر محرّم من عام انطلاق الحركة الدستورية، عثر الشيخ محمد حسين على رواية جديدة (نسخة جديدة) من زيارة عاشوراء؛ فطبعها الملك محمد علي دون تأنٍّ في مطبعته الخاصة، ووزعها على الناس[١].

لكنّه ـ خلافاً لأسلافه من القاجار ـ كان مشهوراً بالفسق أيضاً، فقد نقلت إلى جانب روايات تديّنه قصصٌ عن فسقه. يقول ناظم الإسلام الكرماني عن أفعال الملك محمد علي المتناقضة: «كان يتظاهر بالتديّن، لكن لم يتقيّد بدينه، وكان يعتبر نفسه مسلماً، لكنّه قصف المسجد والمعبد بالمدفعية. كان يظهر الاعتقاد بالقرآن لكنه أحرق القرآن. كان يبدي الودّ للسادة، وفي الوقت عينه يقتلهم؛ فقد حكم بقتل السيد جمال الدين الإصفهاني، وهتك حرمة السيد عبد الله البهبهاني والسيد محمد الطباطبائي. كان يظهر الحبّ والوفاء لسيّد الشهداء الإمام الحسين (أرواحنا فداه)، ويشارك في مراسم التطبير في يوم عاشوراء، ويمسح وجهه بدم رأسه، ويوقد ليلة عاشوراء ألف شمعة وشمعة في غرفته، ويوقد أربعين شمعةً في أربعين مأتم، لكنه لم يراع حرمة شهر محرم؛ فأرسل في أيام عاشوراء برقيةً تأمر بالهجوم على تبريز وقتل أهلها ونهبهم، وهم يقيمون المآتم. كان يجري الدم من رأسه يوم عاشوراء فيُغمى عليه، وفي الليل يشرب من الخمر والمسكرات ما يفقده وعيه. كان يرغب بالغلمان المُرد رغبتَه بالحسناوات»[٢].

أمّا الملك أحمد ـ آخر ملوك القاجار ـ فكان بعيداً عن هذه الأمور، وقضى معظم أيام ملكه القصيرة في أوروبا.

## استخلاص واستنتاج

إجمالاً، لم تفقد المآتم في العهد القاجاري هيمنتها وتأثيرها في مختلف

(١) تاريخ مشروطه إيران: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) تاريخ بيداري إيرانيان: ٢٠١.

الحوادث السياسية والاجتماعية، على الرغم من كلّ التحوّلات التي شهدتها. ويقسّم السيد حسن الأمين العهد القاجاري إلى ثلاث فترات، من حيث التغيّرات التي طرأت على مجالس الوعظ والخطابة:

١ ـ تبدأ الفترة الأولى من قبل العهد القاجاري إلى نهاية حكم الملك فتح علي القاجاري، ولم تستخدم الخطابة آنذاك كما ينبغي كأداة دعائية أو أداة إرشاد ديني وثقافي، بل أقبل الناس في تلك الفترة على المراثي والتشابيه التي كانت تُقام في خيم العزاء والحسينيات.

٢ ـ ظهر في الفترة الثانية ـ أي من نهاية حكم الملك فتح علي إلى أوائل حكم الملك مظفر الدين ـ صنف جديد من المتعلّمين، باسم «الوعاظ» واحتلوا مرتبةً أعلى من النعاة وقراء المراثي؛ فشكّلت المواعظ الأخلاقية والدينية والقصص الهادفة والشروح اللطيفة محتوى الخطابة في تلك الفترة.

٣ ـ بدأت الفترة الثالثة مع ظهور توجهات السيّد جمال الدين الأسدآبادي [الأفغاني] المناهضة للاستبداد، وبلغت ذروتها مع الحركة الدستورية، وقد استخدم كثير من الخطباء المنبرَ لدعم حركة الشعب الإيراني التحرّرية، قبال السلطة القاجارية[1].

ويمكننا ذكر مصاديق تاريخية كثيرة لهذا التحوّل؛ فقد ظهرت هذه المجالس بمظهر الملجأ للمحتجّين، وأجبرت الحكومة على التراجع في أحداث عام ١٣٢٣هـ التي أثارها رئيس الجمارك، نوز البلجيكي ـ حيث انتشرت صورة له مرتدياً زيّ رجال الدين في حفلة تنكّرية، وأثارت حفيظة العلماء والناس ـ وفي معارضة معاهدة رويتر[2]، كذلك في مسار الحركة الدستورية، تحصّن دعاة الدستور في مسجد الملك، ثم في ساحة السفارة البريطانية، واستعانوا بخطيبٍ لرفع معنويات الناس وتحريك التعصّب الديني لديهم[3]، وقد استعان السيد محمد الطباطبائي بالسلاح نفسه في إحدى خطبه، وقارن بين استبداد القاجار واستبداد بني أمية الذين قتلوا الحسين عليه السلام[4].

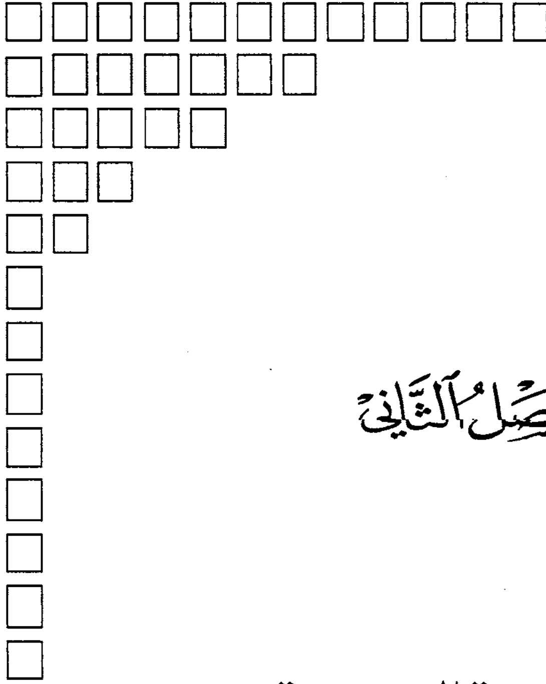
---

(١) هنر مرثيه خواني: ١٤٤.

(٢) تاريخ بيداري إيرانيان: ١٨٧؛ ودين ودولت در إيران: ٢٧١، ٢٧٢، ٣٥٧، ٣٥٨.

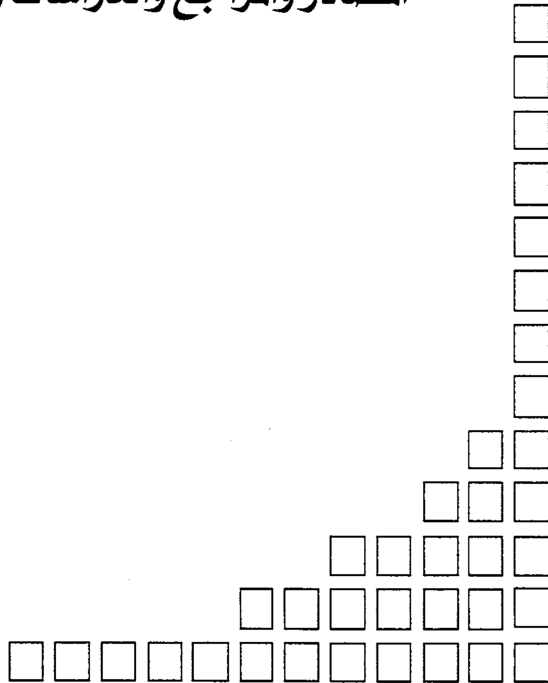
(٣) دين ودولت در إيران: ٢١٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٠.



# الفصل الثاني

## السيرة الحسينية
## المصادر والمراجع والدراسات والتحريفات



# السيرة الحسينية، المصادر والمراجع
## دراسة في المستندات التاريخية

الشيخ محمد سردرودي (*)

ترجمة: علي الوردي

### مدخل

قد يكون من المناسب في دراسة عاشوراء وقبل كل شيء القيام بجولة سريعة في مصادر ونصوص عاشوراء، لما تشتمل عليه مراجعة النصوص والمصادر من فائدة للباحثين في السيرة الحسينية، إذ من شأنها ـ أي عملية العودة إلى المصادر ـ الكشف عن الآراء المختلفة المطروحة في هذا المجال، من أجل ذلك لابد لنا ـ أولاً ـ من تقسيم المصادر وتصنيفها، فإنّ مصادر عاشوراء يمكن تقسيمها تقسيماً أولياً إلى قسمين: القسم الأول: المصادر المستقلة (التخصّصية)، والقسم الثاني: المصادر غير المستقلة (الشاملة).

وينقسم القسم الأول بدوره إلى قسمين مستقلين: المصادر التى تمّ نشرها، والمصادر التي لم تنشر بعدُ، فيما يختص القسم الثاني، أي المصادر الشاملة، بالمصادر التي تمّ نشرها فحسب.

ويتم الاعتماد في تصنيف هذا النوع من المصادر ـ مصادر القسم الثاني ـ على التصنيف التأريخي؛ وذلك من أجل ترتيب طبقات الرواة والمحدّثين، إضافةً لتحديد المرحلة التأريخية التي صنّف فيها كلّ مصدر من المصادر.

ومما يمكن إضافته إلى مصادر عاشوراء والاهتمام بدراسته ومراجعته، تلك

---

(*) باحث متخصّص في تاريخ الثورة الحسينية.

الكتب التي تضمّنت أقوال الإمام الحسين‏ع وكلماته.

وبالرغم من كون أغلب هذه الكتب قد صدر في ربع القرن الماضي، وأنّ مؤلّفيها من المعاصرين، وبذلك لا يمكن إدراجها ضمن المصادر والمراجع، إلا أن ذلك لم يُقصها ولم يُبعدها عن الانضواء تحت قائمة الكبار؛ لأن أهمية هذه الكتب تكمن في كون السيرة الحسينية مستقاةً ـ في أغلب الأحيان ـ من الروايات والأحاديث المنقولة والمنسوبة للإمام الحسين‏ع، وتعتمد عليها بشكل أساس، وهذه الركيزة هي التي تمنح هذا النوع من الكتب، هذا القدر من الأهمية.

## ١. المصادر المستقلّة:

### ١ . ١. المصادر غير المنشورة

في واقع الأمر لا يمكننا التنبؤ بعدد هذا النوع من المصادر؛ وذلك لعدم امتلاكنا المعلومات الكافية التي تفيد بقاءها أو تلفها، لكن غاية ما يمكننا استعراضه في هذه العُجالة هو فهرسة مجملة لمعظم هذه المصادر. وهذه الفهرسة تكشف عن مدى اهتمام العلماء والباحثين والكتّاب في صدر الإسلام بتدوين تأريخ عاشوراء، كما تدفع هذه الفهرسة بالمهتمّين بالتراث الإسلامي للبحث والتنقيب؛ بغية استخراج هذه المصادر والمخطوطات التي بقيت مخبّئةً لقرون طويلة بين ثنايا رفوف المكتبات العالمية، والعمل على تنقيحها ونشرها.

وفي هذا السياق، وضمن الفهرسة التي ننوي استعراضها هنا، نذكر بشكل تسلسلي: عنوان الكتاب واسم المؤلف وتأريخ وفاته، وذلك من أجل منح الكتاب جزءاً يسيراً من قيمته التأريخية:

١ـ «مقتل الحسين‏ع»، للأصبغ بن نباتة المجاشعي الحنظلي، وهو من خاصّة الإمام علي‏ع[١]، قيل: إنه توفي في سنة ٦٤ للهجرة، وقيل: بعد المائة.

ولا بد من التنويه هنا إلى أننا لا نريد أن ننسب رواية المقتل إلى الأصبغ بن نباتة، وإنما مرادنا أنّه ألف كتاباً مستقلاً تحت عنوان مقتل الحسين‏ع[٢]. غير أن

(١) الطوسي، الفهرست: ٣٧، ٣٨، الرقم ١٠٩.

(٢) التستري، قاموس الرجال ٢: ١٦٥.

هذا الكتاب ـ وللأسف الشديد ـ فُقد ولم يبق له أثر، إلا بعض الروايات المتناثرة في مطاوي بعض الكتب المتأخرة، مع ذلك يبقى الأصبغ بن نباتة ـ وكما هو معروف ـ أوّل من كتب مقتل الحسين عليه السلام، وكتابه أسبق المقاتل[1].

٢ـ «مقتل الحسين عليه السلام»، لأبي مخنف بن يحيى الغامدي (١٥٨هـ)، وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ومن أصحاب الحسن والحسين عليهما السلام، على ما ذهب إليه الرجالي الشيعي المعروف أبو عبد الله الكشي، وبحسب معظم الرجاليين الشيعة ـ إلا الكشي ـ لم يثبت دركه أمير المؤمنين عليه السلام، بل الظاهر خلافه، وعلى أية حال، فإن «مقتل الحسين» لأبي مخنف هو الآخر قد فُقد، ولم يُعثر على أثر له كما هي حال الكثير من التراث الشيعي.

وبعيداً عن صواب ما اشتهر بين الناس من المقاتل، ونسبتها العامة لأبي مخنف، ليست جميع هذه المقاتل المنسوبة إليه على نسق واحد، بل يمكن تقسيمها إلى مجموعتين:

**المجموعة الأولى**: كتب انتشرت في القرن الأخير بواسطة الجهلاء أو المنتفعين بغية جني الأرباح، ونسبت زوراً إلى أبي مخنف، ولا خلاف بين الأعلام والمحقّقين الشيعة في زيفها، وقد كتب المحدّث النوري بصراحة حول زيف هذه الكتب منذ انتشارها قائلاً: «من المؤسف أنّ أصل المقتل الذي لا إشكال في صحّته مفقودٌ ولا أثر له، والمقتل المتوفر حالياً والمنسوب له يشتمل على جملة من الموضوعات المخالفة لأصول المذهب، أقحمها الأعداء عن علم والأصحاب عن جهل؛ تحقيقاً لغايات فاسدة، ولهذا فهو ساقط عن الاعتبار ولا يمكن الاعتماد عليه، ولا يُطمئن إلى منفرداته»[2].

**المجموعة الثانية**: وهي الكتب التي جُمعت من ثنايا المصادر المتأخرة، وخصوصاً ما استخرج من تاريخ الطبري، وطبعت تحت عنوان «مقتل الحسين» و

---

(١) آغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢٢: ٢٤.

(٢) المحدث النوري، اللؤلؤ والمرجان: ١٥٠؛ وقد كان العاملون على كتاب تاريخ الإمام الحسين على علم بهذه الحقيقة، وصرّحوا بعدم وثاقة المقتل المنسوب لأبي مخنف في أكثر من مقام؛ فراجع: كتاب تاريخ الإمام الحسين ١: ٨٩٥، و٢: ٨٤٣، و٣: ٨١٧، و٤: ٨٩٢، و٥: ٨٨٣، و٩: ١٠٠٤.

«وقعة الطف»، ونُسب تأليفها لأبي مخنف. ومثل هذه الكتب إن كان له قيمة معرفية فإنما هي لأمرين: الأول المصادر التي جُمعت منها، والثاني مدى الدقة في جمع الروايات وسندها وتحقيقها وتصحيحها.

٣ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» على رواية عمار بن إسحاق الدهني (١٣٣هـ)، وقد أورد الطبري جميعَه أو معظمه في تأريخه، في حديثه عن وقائع سنة ٦١هـ[(١)].

٤ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لجابر بن يزيد الجعفي(١٢٨هـ)، وهو من أصحاب الإمام محمد الباقر عليه السلام والإمام جعفر الصادق عليه السلام[(٢)].

٥ ـ «المراثي» لجعفر بن عفان الطائي (١٥٠هـ)، وهو من أبرز شعراء ومادحي آل عليّ، وقد تشرّف بالدخول على الإمام الصادق عليه السلام فقرّبه وأدناه واستنشد شعره في رثاء الحسين عليه السلام. وقد ذكر ابن النديم أنه من شعراء الشيعة، وشعره مائتا ورقة[(٣)].

٦ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لهشام بن محمد بن سائب الكلبي (٢٠٦هـ)[(٤)].

٧ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي المدني البغدادي (١٣٠ ـ ٢٠٧هـ)، مؤلّف كتاب المغازي[(٥)].

٨ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لأبي عبيدة، معمّر بن مثنى التميمي (١١٠ ـ ٢١٠هـ)[(٦)].

٩ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لنصر بن مزاحم المنقري (٢١٢هـ)[(٧)].

١٠ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لأبي عبيد، القاسم بن سلام الهروي (٢٢٤هـ).

١١ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لأبي الحسن علي بن محمد المدائني (١٣٥ ـ

---

(١) محمد باقر المحمودي، عبرات المصطفين ١: ٦.

(٢) رجال النجاشي: ١٢٨.

(٣) فهرست ابن النديم: ٢٧٥.

(٤) آغا بزرك الطهراني، الذريعة ٢٢: ٢٨.

(٥) فهرست ابن النديم: ١٦٥.

(٦) رجال النجاشي: ٤٢٧، الرقم ١١٤٨؛ وفهرست الطوسي: ١٧١؛ وفهرست ابن النديم: ١٥٨.

(٧) المحقق الطباطبائي، أهل البيت في المكتبة العربية: ٥٣٥.

٢٢٥هـ)[١]، ويعرف الكتاب بعنوان آخر وهو «السيرة في مقتل الحسين عليه السلام»[٢].

١٢ ـ «مراثي الحسين عليه السلام» لأبي عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي[٣] (١٥٠ ـ ٢٣٠هـ)، وقد عثر الشيخ آغا بزرك الطهراني على نسخةٍ من هذا الكتاب في مكتبة دار الكتب المصرية، تمّ تحقيقها على يد محقّق إنجليزي، وقد تمّ طباعة الكتاب ونشره بعد حذف جزء منه[٤].

١٣ ـ «مقتل الحسين بن علي عليه السلام» لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الأحمري النهاوندي المولود في سنة ٢٦٩هـ[٥].

١٤ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لعبد الله بن أحمد بن أبي الدنيا الأموي (٢٨١هـ)، وهو من علماء أهل السنّة[٦].

١٥ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لأبي الفضل سلمة بن الخطاب البراوستاني الأزدورقاني، وهو فقيه الشيعة من أعلام القرن الثالث، وينسب إلى «براوستان» إحدى قرى مدينة قم الإيرانية، وقد ذكر الشيخ الطوسي وابن شهر آشوب[٧] كتابه تحت عنوان «مقتل الحسين عليه السلام»، وأورده أبو العباس النجاشي تحت عنوان «مولد الحسين بن علي عليه السلام ومقتله»[٨].

١٦ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي الكوفي (٢٨٣هـ)[٩].

١٧ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لأبي واضح أحمد بن إسحاق اليعقوبي، المؤلّف الشهير، صاحب تاريخ اليعقوبي والبلدان. قيل: إنه توفي سنة ٢٩٢[١٠]، وقيل:

---

(١) فهرست الطوسي: ٩٥، الرقم ٣٩٥.

(٢) ابن شهر آشوب، معالم العلماء: ٧٢، الرقم ٤٨٦.

(٣) الذريعة ٢٠: ٢٩٣.

(٤) أهل البيت في المكتبة العربية: ٤٦٣.

(٥) رجال النجاشي: ١٩، الرقم ٢١؛ وفهرست الطوسي: ٧، الرقم ٩.

(٦) فهرست الطوسي: ١٠٤، الرقم ٤٣٨؛ ومعالم العلماء: ٧٦، الرقم ٥٠٦.

(٧) فهرست الطوسي: ٧٩؛ ومعالم العلماء: ٥٧.

(٨) رجال النجاشي: ١٨٧.

(٩) المصدر نفسه: ١٧، الرقم ١٩؛ وفهرست الطوسي: ٤، الرقم ٧.

(١٠) الذريعة ٢٢: ٢٣.

٢٨٤[١].

١٨ ـ «مقتل الحسين‌عليه السلام» لأبي عبد الله محمد بن زكريا بن دينار الغلابي البصري (٢٩٨هـ)[٢].

١٩ ـ «مراثي الحسين‌عليه السلام» لابن حمّاد بن كليب مولى بني عامر. وقد شهد الدولتين: الأموية والعباسية[٣].

٢٠ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين‌عليه السلام» لأبي أحمد عبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي[٤]، ذكر له أبو العباس النجاشي كتاباً آخر تحت عنوان «كتاب ذكر الحسين‌عليه السلام»، وقد اعتبره بعض المحقّقين من جملة أصحاب الإمام محمد الباقرعليه السلام، وعدّه بعضهم من أصحاب الإمام الجوادعليه السلام، لكنه ليس صحيحاً، والصواب أن جدّه الأكبر، أي عيسى الجلودي، كان من أصحاب الإمام الجوادعليه السلام، وهذا يمنع كون أبي أحمد من أصحاب الإمام الجواد أيضاً، وإذا كان كذلك فكيف يصحّ أن يكون من أصحاب الإمام الباقرعليه السلام؟!! ويؤيّد ذلك أن وفاته كانت في النصف الأول من القرن الرابع بعد العام ٣٣٠هـ[٥].

٢١ ـ «مقتل الحسين بن علي‌عليه السلام» لأبي زيد عمارة بن زيد الخيواني الهمداني، من رواة القرن الثالث والرابع. لم يعرف عنه أنه: «كان مرافقاً لعبد الله بن محمد بن محفوظ البلوي الأنصاري» قبل أن يورد المسعودي (٣٤٦هـ) ذلك في مقدّمة كتابه: مروج الذهب[٦].

٢٢ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين‌عليهم السلام» لأبي جعفر محمد بن أحمد بن يحيى بن عمران الأشعري القمّي، وهو من فقهاء ومحدّثي القرن الرابع[٧].

---

(١) أهل البيت في المكتبة العربية: ٥٣٧.

(٢) رجال النجاشي: ٣٤٦؛ وفهرست ابن النديم: ١٧٩.

(٣) الذريعة ٢٠: ٢٩٣.

(٤) رجال النجاشي: ٢٤٢؛ والذريعة ٢٢: ٢٥.

(٥) التستري، قاموس الرجال ٦: ١٨٧ ـ ١٨٩.

(٦) المسعودي، مروج الذهب ١: ٢١.

(٧) رجال النجاشي: ٣٤٨، الرقم ٩٣٩.

٢٣ ـ «كتاب ما نزل من القرآن في الحسين بن علي عليه السلام»، لأبي جعفر أيضاً[١].

٢٤ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لأبي جعفر بن يحيى بن العطار القمي. كتب عنه الرجالي الشيعي الكبير ـ النجاشي ـ بأنه: «شيخ أصحابنا في زمانه، ثقةٌ، عينٌ، كثير الحديث»، ثم أورد كتبه مبتدءاً بكتاب «المقتل» الذي نحن بصدده[٢].

٢٥ ـ «كتاب المقتل» لأبي الحسن محمد بن إبراهيم بن يوسف الكاتب المعروف بأبي الحسن الشافعي، ولد سنة ٢٨١هـ[٣].

٢٦ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لعبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي (٢١٤ ـ ٣١٧هـ) والمعروف بالحافظ البغوي وابن بنت منيع[٤].

٢٧ ـ «مقتل الحسين بن علي عليه السلام» لأبي الحسين عمر بن الحسن بن علي بن مالك الشيباني (٢٥٩ ـ ٣٣٩هـ)[٥].

٢٨ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لأبي سعيد الحسين بن عثمان بن زياد التستري، ويعتبر ـ تاريخياً ـ متقدّماً على الشيخ الصدوق أو معاصراً له، ونقل عنه الشيخ الصدوق في المجلس الثلاثين من أماليه، والذي خصّه للحديث عن مقتل الحسين عليه السلام[٦].

٢٩ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لسليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠هـ)، وهو غير الكتاب المتداول حالياً والمعروف (بمقتل الحسين للحافظ الطبراني)، وإنما هو كتابٌ مفقود لم يسلم من الاندثار[٧]، وسنتعرّض له ـ للكتاب المفقود ـ بصورة وافية عند الحديث عن الكتب التي تمّ نشرها.

٣٠ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (٣٨١هـ)[٨]، وبالرغم من أنه قد أورد

(١) فهرست ابن النديم: ٤٠٦.
(٢) رجال النجاشي: ٣٥٣، الرقم ٩٤٦.
(٣) المصدر نفسه: ٣٧٢؛ وفهرست الطوسي: ١٣٣؛ وفهرست ابن النديم: ٣٩٣.
(٤) أهل البيت في المكتبة العربية: ٥٣٨، نقلاً عن كشف الظنون ٢: ١٧٩٤.
(٥) المصدر نفسه: ٥٣٩.
(٦) أمالي الصدوق: ٢١٥؛ والذريعة ٢٢: ٢٥.
(٧) أهل البيت في المكتبة العربية: ٥٣٩، ٥٤٠.
(٨) فهرست الطوسي: ١٥٦، الرقم ٦٩٥؛ ومعالم العلماء: ١١١، الرقم: ٧٦٤.

من هذا الكتاب نصوصاً في كتبه واستشهد بها[1]، إلا أن أصل الكتاب قد فُقِد ولم يصلنا، وقد جُمع (مقتل) الشيخ الصدوق وتمّ طبعه ونشره حديثاً، وسنتحدّث عنه أكثر في القسم اللاحق من هذه الدراسة.

٣١ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لمحمد بن علي بن فضل بن تمام بن سكين، وهو من ثقاة الشيعة ومحدّثيهم في القرن الرابع الهجري، وبحسب النجاشي فهو: «ثقة عين صحيح الاعتقاد وجيّد التصنيف»[2]، وهو من طبقة الشيخ الصدوق، وكان شديداً ودقيقاً في رواية «الشيخ»، أي «ابن الغضائري»[3].

٣٢ ـ «كتاب المراثي» لمحمد بن عمران المرزباني الخراساني (٣٨٥هـ)، وقد أشار المرزباني إلى كتابه المذكور في كتابه الآخر المعروف «بالموشح»، المطبوع في دار النهضة بمصر في الصفحة الخامسة.

٣٣ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» للسيد نجم الدين محمد بن أميركا بن أبي الفضل الجعفري القوسيني[4].

٣٤ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لأحمد بن عبد الله بن محمد البكري، المعروف بأبي الحسن البكري، وهو من علماء القرن الخامس، قيل: إن نسخةً من هذا الكتاب تمّ العثور عليها ضمن مجموعة من الكتب في مكتبة جامعة القرويين التابعة لمحافظة فاس بالمغرب العربي، وكان عنوان النسخة «حديث وفاة سيدنا الحسين»[5].

٣٥ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لمحمد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) المعروف بشيخ الطائفة والشيخ الطوسي، وعلى الرغم من إطلاق الشيخ عنوان «مقتل الحسين» على كتابه[6]، إلا أن ابن شهر آشوب أسماه «مختصر في مقتل

(١) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه ٢: ٥٩٨؛ وله أيضاً: الخصال، باب الاثنين: ٦٨، ذيل الحديث ١٠١.

(٢) رجال النجاشي: ٣٨٥.

(٣) الذريعة ٢٢: ٢٨.

(٤) فهرست منتجب الدين الرازي: ١٨٠.

(٥) أهل البيت في المكتبة العربية: ٥٤٨.

(٦) فهرست الطوسي: ١٦١.

الحسين عليه السلام»[١].

٣٦ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لمحمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (٥٨٨هـ)[٢].

٣٧ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لأبي القاسم محمود بن مبارك الواسطي (٥١٧ ـ ٥٩٢هـ)، وهو المعروف بالمجير ومجير الدين[٣].

٣٨ ـ «مقتل الشهيد الحسين عليه السلام» لعز الدين أبي محمد عبد الرزاق الجزري الرسعني (٦٦١هـ)، عرف كتابه لدى بعضهم بـ «مصرع الحسين»[٤].

٣٩ ـ «الدر النضيد في تعازي الإمام الشهيد» للسيد بهاء الدين علي بن غياث الدين عبد الكريم بن عبد الحميد الحسيني النيلي النجفي النسّابة، وهو من مشاهير علماء القرن الثامن، كما يعدّ من أبرز تلامذة فخر المحقّقين الحلي، وقد ألّف كتابه هذا في مقتل الحسين عليه السلام ومراثيه، ويشكل الكتاب مصدراً من المصادر التي اعتمدها ورجع إليها المجلسي في أغلب روايته للمقتل الحسيني[٥].

٤٠ ـ «مرثية الحسين عليه السلام» لجمال الدين الحسن بن المطهر الحلي، المعروف بالعلامة (٧٢٦هـ)، وقد عثر المحقق الشيعي الكبير آغا بزرك الطهراني على نسخةٍ من هذا الكتاب ضمن مجموعة من كتب تعود للميرزا محمد الطهراني في مدينة سامراء[٦].

٤١ ـ «مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لمحمد بن محمد بن مساعد بن العياش العاملي المعاصر للشهيد الثاني[٧].

٤٢ ـ «مقتل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما في كربلاء» لمحمود بن عثمان بن علي الحنفي الرومي البروسوي المعروف باللامعي (٨٧٨ ـ ٩٣٨هـ).

---

(١) معالم العلماء: ١١٥.

(٢) الذريعة ٢٢: ٢٢.

(٣) أهل البيت في المكتبة العربية: ٥٤٦.

(٤) المصدر نفسه: ٥٤٧.

(٥) الذريعة ٨: ٨٢؛ ومجلّة العالم الإسلامي (بالفارسية) ٤: ٦٨٠.

(٦) الذريعة ٢٠: ٣٠١.

(٧) المصدر نفسه ٢٢: ٢٨.

٤٣ ـ «هطل العين في مصرع الحسين» لشمس الدين محمد بن طولون (٩٥٣هـ)، وقد أشار نفسه إلى كتابه هذا في أحد مؤلفاته الأخرى وأرجع إليه[١]، وكتب ابن طولون كتاباً آخر تحت عنوان «قيد الشريد من أخبار يزيد»، ولحسن الحظ فقد سلم هذا الكتاب من الاندثار، وتمّ نشره مؤخراً ضمن سلسلة فصول كتاب تأريخ الإمام الحسين الكبير.

هذا، وهناك كتب أخرى ذكرها الآغا بزرك الطهراني تحت عنوان المزار، وهي:

٤٤ ـ «مزار أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لعبيد الله بن أبي زيد أحمد بن يعقوب بن نصر الأنباري (٣٥٦هـ).

٤٥ ـ «مزار أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لأبي عبد الله محمد بن عباس بن عيسى الغاضري.

٤٦ ـ «مزار أبي عبد الله الحسين عليه السلام» لأبي المفضل محمد بن عبد الله بن محمد الشيباني الكوفي المعاصر لأبي العباس النجاشي[٢].

## ١ . ٢ . المصادر المنشورة

قليلٌ هي المصادر التي تمّ نشرها، ونصفها استُقي من المصادر غير المستقلّة، ومن كتب السيرة الشاملة، وقد جُمعت وطبعت ثم تمّ نشرها، ونوردها هنا بحسب التسلسل التاريخي:

١ ـ «تسمية من قتل مع الحسين عليه السلام» للفضيل بن الزبير بن عمر بن درهم الكوفي الأسدي (١٢٢ ـ ١٤٨هـ)، من أصحاب الإمامين: الباقر والصادق، وقد حقّق الكتاب السيد محمد رضا الحسيني الجلالي، في مدينة قم، في مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ونشر ضمن مجلّة تراثنا، السنة الأولى، العدد الثاني، الصفحات: ١٢٣ ـ ١٦٠، خريف عام ١٤٠٦هـ

وحول الطريق إلى توثيق الفضيل بن الزبير نقول: بما أن معظم رواة كتابَي «كامل الزيارات» و«تفسير القمي» هم من الثقات، وبما أن الفضيل من ضمنهم وهو

---

(١) ابن طولون، الأئمة الإثنا عشر: ٧٢ (تحقيق صلاح الدين منجد).

(٢) الذريعة ٢٠: ٣٢١.

أحد الرواة المنقول عنهم في هذين الكتابين، فيصحّ القول بأن الفضيل (ثقة)، وبما أنه ثقة فإنّ كتابه الموسوم (تسمية من قتل مع الحسين عليه السلام) يكتسب الوثاقة، وبذلك يكون من الكتب المعتبرة سنداً.

٢ ـ «ترجمة الإمام الحسين ومقتله» من القسم غير المطبوع من كتاب الطبقات الكبير لابن سعد، تحقيق السيد عبد العزيز الطباطبائي اليزدي، الطبعة الأولى، قم، مؤسسة آل البيت، محرم ١٤١٥هـ ١٢١ صفحة: حجم وزيري.

ويعدّ محمد بن سعد بن منيع البصير (١٦٨ ـ ٢٣٠هـ) من علماء أهل السنّة، ويُعرف «بابن سعد» و «كاتب الواقدي»، وكتابه «الطبقات الكبير» من الكتب المشهورة والبارزة.

وفيما يتعلّق بوثاقة الكتاب ومدى اعتباره، فإن التعليقة التي أوردها المحقق الدقيق والعالم العارف، أي المرحوم الطباطبائي، التي شملت معظم أجزاء الكتاب من شأنها أن ترفع أي إبهام أو تحريف يمكن توجيهه للكتاب.

٣ ـ «الحسين والسنّة» من اختيار وتنظيم السيد عبد العزيز الطباطبائي اليزدي، مكتبة مدرسة جهل ستون، طهران، الطبعة الأولى، ١٣٥٦ش/١٩٧٧م، ١٤٨ صفحة، حجم وزيري.

وقد تمّ استخراج هذا الكتاب وجمعه من أصل ثلاثة مصادر لدى أهل السنّة وهي عبارة عن: «كتاب الفضائل» لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) وهو أحد أئمة المذاهب الأربعة لدى أهل السنّة ويُعرف بالإمام أحمد بن حنبل. و«أنساب الأشراف» لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (٢٧٩هـ). و«المعجم الكبير» لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (٣٦٠هـ)، والمشهور بالحافظ الطبراني.

وأهم ما يميّز هذه المجموعة الثلاثية، هو أخبارها ورواياتها التي رواها رواة ومحدّثو القرن الأول. والميزة الأخرى هي أنها حقّقت وصححت من قبل المحقق الشيعي المعاصر الكبير الأستاذ السيد عبد العزيز الطباطبائي.

٤ ـ «استشهاد الحسين» لمحمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق الدكتور السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ ٢٢٢ صفحة،

حجم وزيري. وقد استخرج هذا الكتاب من تاريخ الطبري، وتمّ نشره بعد أن ضمّت إليه رسالة (رأس الحسين) التي كتبها ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨هـ).

٥ ـ «ثورة الإمام الحسين» المأخوذ عن كتاب الفتوح، لابن الأعثم الكندي (٣١٤هـ)، ترجمه محمد بن أحمد المستوفى الهروي للفارسية في سنة ٥٩٦هـ وصحّحه غلام رضا الطباطبائي مجد، الطبعة الأولى، طهران، المؤسسة العلمية والثقافية للنشر (شركت انتشارات علمي وفرهنكي)، ١٣٧٣ش/١٩٩٤م، ١٠٩ صفحات، حجم وزيري.

وقد رتب المؤلّف فصول الكتاب الإحدى عشر من بداية الفاجعة، أي بدءاً بطلب يزيد البيعة من الإمام الحسين عليه السلام، وإنتهاءً بالوقائع التي أعقبت الاستشهاد. وبما أن الكاتب كان يتمتع ببعض الميول الشيعية فإنّه لم يقتصر في سرد روايات الكتاب على الروايات السنّية، بل أورد بعض الروايات الشيعية أيضاً، وهذا قد أكسب كتابه قيمةً أكبر مما عليه كتب المقاتل الأخرى، كالتي لابن سعد وابن عساكر والآخرين.

٦ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لسليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠هـ)، تحقيق محمد شجاع ضيف الله، دار الأوراد الكويتية، الطبعة الأولى، الكويت، ١٤١٢هـ ١٤٩ صفحة، حجم وزيري.

وهذا الكتاب يختلف عن كتاب المقتل المستقلّ الذي لم يُعثر على أصله لحدّ الآن، وقد تطرقنا له بالتفصيل في حديثنا المتقدّم عن المصادر التي لم تُنشر، وقد استخرج هذا المقتل ـ الذي نحن بصدده ـ المحققُ الطباطبائي من المجلد الثالث من كتاب المعجم الكبير للطبراني، ونشره ضمن كتاب «الحسين والسنّة»، ثمّ أعاد نشره محمد شجاع ضيف الله بصورةٍ مستقلّة.

٧ ـ «شرح الأخبار الجزء الثالث عشر في من قُتل مع الحسين من أهل بيته» للقاضي النعمان بن محمد بن منصور، صاحب الدعائم (٣٦٥هـ)، تحقيق السيد محمد الحسيني الجلالي، الطبعة الأولى، قم، ١٤٠٤هـ ١٤٧ صفحة، حجم وزيري. وهذا الكتاب هو الجزء الثالث عشر من الأجزاء الستة عشر لكتاب «شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار» الذي ألّفه القاضي النعمان تقيةً عندما عيّن قاضياً من قبل

الإسماعيلية.

٨ ـ «كامل الزيارات» لأبي القاسم جعفر بن محمد القمّي، المعروف بابن قولويه (٣٦٧هـ)، تصحيح العلامة عبد الحسين الأميني، الطبعة الأولى، النجف الأشرف، مطبعة المرتضوية، ١٣٥٦هـ ٣٣٧ صفحة، حجم رقعي. ولا خلاف بينهم في أن ابن قولويه وهو الشيخ الأقدم والفقيه الشيعي المقدّم أحد أجلاء الأصحاب ومن ثقاتهم. وكتابه هذا من أهم كتب الطائفة وأصولها المعتمد عليها في الحديث، وعبّر عنه تارة بـ «جامع الزيارات» وأخرى بـ «الزيارات». وعدّه كثيرٌ من علماء الطائفة بأنه من الكتب المعتمدة وحكموا بوثاقة جميع الرواة الذين وقعوا في إسناده[(١)].

إن الجزء الأعظم من هذا الكتاب الثمين ـ أي أكثر من ثمانين باباً ـ اختصّ بالإمام الحسين وبوقعة عاشوراء، وجاء على نحو نصوص روائية مسندة وزيارات معتبرة، وبذلك يكون حاجةً ماسّة لكل من يعمل على تدوين السيرة الحسينية والتحقيق فيها.

٩ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» برواية الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، تأليف وتحقيق وترجمة: محمد صحتي سردرودي، طهران، الطبعة الأولى، مؤسسة هستي نما للنشر، شتاء ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، عدد الصفحات ٣٦٧، حجم رقعي.

ويشتمل هذا المقتل على أكثر من مائتي حديث ورواية رويت جميعها عن طريق «رئيس المحدّثين» الشيخ الصدوق، وقد جمع معظمها من تصانيف الشيخ التي تمّ نشرها، والقسم المتبقي جُمع من مؤلّفات من روى عن الصدوق. ويقول المحقق حول الكتاب: إنني قد صرفت عاماً كاملاً في تحقيقه وتصحيحه وترجمته وتأليفه، والله وحده يعلم ما عانيته بغية إخراج الكتاب ونشره.

وعلى كل حال، فلهذا المقتل خصائص وميزات تفرده عن سائر المقاتل، وقد أشير إلى بعضها في المقدمة التي أوردت له، فيما فصّلها المؤلّف في مقال مستقل لا يسع المجال لسرده هنا[(٢)].

---

(١) ابن قولويه، كامل الزيارات، المقدمة: ٤؛ والخوئي، معجم رجال الحديث ١: ص، من المقدمة؛ والسبحاني، كليات في علم الرجال: ٢٩٩.

(٢) راجع: مجلّة علوم الحديث الفصلية [الصادرة باللغة الفارسية]، العدد ٣٠: ٢٧٧ ـ ٢٨٤.

١٠ ـ «فضل زيارة الحسين عليه السلام» لمحمد بن علي بن الحسن العلوي الشجري (٣٦٧ ـ ٤٤٥هـ)، تحقيق السيد أحمد الحسيني، مكتبة آية الله المرعشي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ عدد الصفحات: ١٢٢، قطع وزيري. يشتمل هذا الكتاب على تسعين روايةً في فضل زيارة الحسين وآثار تربته وثواب البكاء عليه، نقل أكثرها عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام.

١١ ـ «مقتل الحسين عليه السلام» لضياء الدين أبو المؤيد، موفق بن أحمد بن محمد المكي الحنفي (٤٨٤ ـ ٥٦٨هـ) والمشهور «بأخطب خوارزم» و«الخطيب الخوارزمي»، إشراف وتحقيق محمد السماوي، النجف الأشرف، مطبعة الزهراء، الطبعة الأولى، ١٣٦٧هـ في مجلّدين.

ويعدّ الخوارزمي في أصوله أشعرياً وفي فروعه حنفياً، لكن ذلك لم يمنعه من إظهار المودّة لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، يتجلّى ذلك بوضوح في كتابيه: «المناقب» و «المقتل»، لكنه أورد في مطاوي مقتله هذا العديد من الروايات التي تتعارض بل تتنافى كلّياً مع مذهب أهل البيت عليهم السلام، مثل الرواية التي أوردها في الفصل الخامس (ج١: ٨٦) والتي تفيد أن أبا بكر قد صلّى على الزهراء بعد وفاتها، كما أنه حضر تشييعها ومواراتها مع عمر وعلي وآخرين، أو الرواية التي أوردها في الفصل الحادي عشر (ج٢: ٣)، ضمّنها روايات أخرى موضوعة تحكي فضل يوم عاشوراء وآثار الصيام فيه، ويستمرّ في حديثه الموضوع هذا في (ج٢: ٤) معتبراً يوم عاشوراء عيداً مباركاً، بل يعادل سبعين عيداً، ويسوق روايةً يسندها للنبي صلى الله عليه وآله تأييداً لرأيه المزعوم. والأعجب من ذلك أنه اعتبر ولادة كلّ من السيدة الزهراء والحسن والحسين قد صادفت ـ أيضاً ـ في يوم عاشوراء!

١٢ ـ «ترجمة ريحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين عليه السلام من تأريخ مدينة دمشق» لأبي القاسم علي بن الحسن الشافعي الدمشقي، المعروف بابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧١هـ)، تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ في ٣٣٧ صفحة، من الحجم الرحلي.

لقد خصّص مؤلف تأريخ دمشق ما يقارب مجلداً كاملاً من تأريخه للإمام الحسين عليه السلام وليوم عاشوراء؛ فنقل في هذا السياق ٤٠١ رواية، وإذا حذفنا المكررات

والتي تتجاوز المائة والخمسين، يصبح لدينا ٢٥٠ رواية، ثلاثون منها تتعلّق بسنة ولادته وأيام حياته ويوم شهادته، بينما عشرون رواية تتعلّق بإخبار النبيﷺ والإمام عليعليه السلام عن مقتله، وما يقارب الخمسين رواية تحكي عجائب وغرائب ما وقع بعد مقتل الإمام الحسين، وأكثر من تسعين رواية اختصّت بذكر مناقبه وفضائله، وهي روايات رائعة تستحق الوقوف عندها. وعشرة روايات فقط هي التي تطرّقت لما حدث يوم عاشوراء، وتناولت كيفية الشهادة، والعنف والهمجية الذين ارتكبهما جيش عمر بن سعد.

والحاصل: إن ابن عساكر من خلال تصنيفه للروايات والترتيب الذي اتبعه في سرد الأحداث المتعلّقة بالإمام الحسين في تأريخه لمدينة دمشق، قد قام بثلاثة تحريفات يمكن اعتبارها من أعظم ما تمّ تحريفه في هذا المجال، وهي:

**أولاً:** اكتفى بإيراد عشرة روايات موجزة من بين الكثير من الأخبار التي تحكي بالتفصيل وحشية وهمجية ما ارتكبه جيش يزيد يوم عاشوراء، وذلك حرصاً منه على أن لا تقوم الأجيال القادمة بوضع يزيد وأعوانه تحت مقصلة التأريخ بعد محاكمتهم على ما قاموا به من جرائم وفظائع تقشعرّ لها الجلود وتتصدّع بها الجلمود؛ لأنّ في ذلك إهانةً مباشرة ليزيد، وغير مباشرة للخلفاء من قبله، وهذا ما لا يرتضيه ابن عساكر بأيّ وجه من الوجوه، ولذلك فقد اختار الطريق الأسلم، وهو أن يمرّ على كل هذه الأطلال والأشلاء بعشرة روايات تكاد لا تحكي شيء.

**ثانياً:** في مقابل الروايات العشرة، روى ابن عساكر عشرين رواية، أي ضعف العدد، تنصبّ جميعها على إخبار النبيﷺ والإمام عليعليه السلام بمقتل الحسين.. يا ترى ما الذي يبتغي من وراء ذلك؟ لقد كان يبتغي ترسيخ فكرة حتمية مقتل الحسين في أذهان قرّاء تأريخه، وذلك تسليماً لقضاء الله وقدره، فإن الله قد قدر للحسين وشاء أن يراه قتيلاً، وهذا ما أكّده رسول اللهﷺ والإمام عليعليه السلام في كثير من المواقف من خلال ما أخبرا به عن مقتله، فالتقصير لا يقع على عاتق يزيد وأبيه ولا على عاتق من سلّطهم على رقاب المسلمين، وإنما ذلك قضاءٌ من الله وقدر.

لقد كان من السهل على ابن عساكر تمرير مثل هذا التحريف وتكريسه لدى الرأي العام السنّي، خصوصاً وأنّ هذا الأخير يحمل معظم شرائحه عقيدة الجبر التي

تفيد أن الإنسان مجبورٌ على أفعاله وليس مختاراً فيها، ويزيد لا يخرج عن كونه إنساناً؛ فهو ـ من ثمّ ـ مجبور على أفعاله لا مختاراً، وهذا خير دليل على براءته من الجرم العظيم الذي اقترفه في قتل الحسين عليه السلام الذي كان مقتله ضرورةً وحتمية وقدراً لابد له من الوقوع.

**ثالثاً:** لقد أراد ابن عساكر من خلال إيراده خمسين رواية تتطرّق لعجائب وغرائب ما وقع بعد مقتل الحسين، أن يعطي صورةً ساذجة عن الشيعة وكونهم طائفة بُنيت أيديولوجياً على الخرافات، وبهذا الأسلوب المخادع، المقدّس في ظاهره، أراد أن يستهزئ بوقعة الطفّ وما جرى فيها.

وفي هذا السياق نذكر ـ بصورة إجمالية ـ المفاهيم العامّة للروايات التي ساقها ابن عساكر، وهي: ١ ـ بكت السماء حزناً على الحسين. ٢ ـ تغير الآفاق وسقوط التراب الأحمر. ٣ ـ ظهور الكواكب نهاراً. ٤ ـ لم يرفع حجر في ذلك اليوم إلا وظهر تحته دمٌ عبيط. ٥ ـ مكثت السماء سبعة أيام بلياليها كأنها علقة. ٦ ـ بقيت الشمس زماناً تطلع محمرّة على الحيطان والجدر بالغداة والعشي. ٧ ـ حدوث الحمرة في السماء كأنها الدم. ٨ ـ أصبحت الكواكب يضرب بعضها بعضاً. ٩ ـ إصابة من بشّر بمقتل الحسين بالعمى. ١٠ ـ أمطرت السماء دماً عبيطاً. ١١ ـ كانت حيطان دار الإمارة تسيل دماً. ١٢ ـ أصبحت حيطان بيت المقدس ملطّخة بالدماء. ١٣ ـ صيرورة الورس الذي نهبوه من معسكر الحسين رماداً، وما طبخوه من لحوم نياقِه ناراً وعدم تمكّنهم من أكلها.

ولم يتحدّث ابن عساكر بشيء عن فلسفة الثورة الحسينية والأهداف المقدّسة والعظيمة التي كان الإمام الحسين عليه السلام ينشدها و.. لكنه في الوقت ذاته أسرف في إيراد الغرائب والعجائب من الروايات التي يمتاز معظمها ببُعده عن الواقع وقربه من المستحيل..

لقد كان ابن عساكر في عقيدته أشعرياً، لكنه تطرّف في الذود عن الأشاعرة والجبرية والتعصّب لهم، ويؤكّد ذلك تأليفه لكتاب «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري». وفيما يتصل بالأجواء التي عاشها ابن عساكر والتي ربما يكون لها الأثر البالغ على تكوين شخصيته، فقد ولد في دمشق من أمٍّ

أموية، وبقي في دمشق ومات فيها أيضاً. وقد احتضنته السلطة الحاكمة المناهضة للشيعة والتشيع، ووفرت له كافّة المستلزمات، وفي ظلّها تمكّن من تأليف تأريخ دمشق[1].

ومع مثل هذه الظروف التي عاشها ابن عساكر، ليس لنا أن نستغرب ما حمله من تصوّر مغلوط تجاه عاشوراء؛ لأن الإنسان ـ وبعد كل شيء ـ هو ابن بيئته ويخضع للظروف المحيطة به ولا يخرج عنها إلا نادراً.

١٣ ـ «مثير الأحزان» لنجم الدين جعفر بن محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما الحلّي المعروف بابن نما (٥٦٧ ـ ٦٤٥هـ)، قم، مدرسة الإمام المهدي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ في ١٢٥ صفحة، حجم وزيري. وقد طبع منضماً مع كتاب التحصين لابن فهد الحلي، كما طبع في أغلب الأحيان مع الكتاب الآخر لابن نما «قرة العين في أخذ ثأر الحسين»، لكنه فُصل مؤخراً وطبع مستقلاً، في حين اتخذ كتاب قرّة العين عنواناً آخر وهو «ذوب النضار في شرح الثار».

وقد وقع الاختلاف في نسبة كتابي: «مثير الأحزان» و «ذوب النضار» لابن نما الحلي، هل هما لحفيد نجم الدين الحلي أم له شخصياً؟ والصحيح ـ على ما يبدو ـ أنّهما لنجم الدين الحلي ذاته لا لحفيده.

كما اختلف أيضاً في سنة وفاة المؤلّف، وما أوردناه سلفاً إنما نقلناه عن كتاب «مثير الأحزان» وعن مقدمة المصحّح لكتاب «الملهوف على قتلى الطفوف»، وهي تُظهر أن ابن نما كان متقدّماً على السيد ابن طاووس، وكتابه مثير الأحزان كُتب قبل كتاب اللهوف لابن طاووس. لكن ذلك كلّه لا يخرج عن دائرة الاحتمال، فيما يظلّ المجال للتنقيح والتفحص مفتوحاً، ولا يسعنا في هذه العجالة أن نفصّل ونخوض في البحث أكثر، لكن بالإجمال نقول: أغلب الظن أنّ وفاة مؤلّف مثير الأحزان كانت حوالي سنة ٦٨٠هـ.

١٤ ـ «درر السمط في خبر السبط» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبّار (٥٩٨ ـ ٦٥٨هـ)، تحقيق عز الدين عمر موسى، دار

(١) الموسوعة الإسلامية الكبرى، ج٤، مقالة ابن عساكر.

الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ في ١٤٩ صفحة، حجم رقعي.

ولابن الأبّار الأندلسي كتابٌ آخر تحت عنوان «معادن اللجين في مراثي الحسين» لكنه مفقود حالياً.

وابن الأبار هذا كان معاصراً لاسفناك الأندلسي، وقد شهد مصرع العديد من أساتذته الذين بذلوا مهجهم دفاعاً عن الدولة الإسلامية، وقد عاش حياةً بالغة الصعوبة مملوءةً بالحزن والألم، فقد شهدت الفترة التي عاشها ضعف الأندلس داخلياً وعدم قدرة أهله على الصمود في وجه الزحف النصراني القشتالي البرتغالي الأرغوني، وبذلك أصبح ابن الأبّار شاهداً على تهاوي معاقل الأندلس وحصونه، ثم مدنه وعواصم أقاليمه..

وفي مثل هذه الأجواء كتب ابن الأبار كتابيه مستخدماً أدب الرثاء والبكاء، ليسلّي بهما فؤاده الحزين ويملئ بهما روحه الكئيبة، فخرج الكتابان من صميم قلبه وما خرج من القلب وقع في القلب. وقد تميّز كتابه درر السمط في خبر السبط بشعر ونثر وبأسلوب غاية في الروعة والجمال.

ومع حرص مصحّح الكتاب، أي عز الدين عمر موسى، ومساعيه الحثيثة على إثبات تسنّن إبن الأبار وعدم تشيعه، إلا أن درر السمط بقي شاهداً بكافة سطوره سطراً سطراً على تشيّعه، ووهن ما ذهب إليه عمر موسى.

وحول آرائه في درر السمط، يعتقد ابن الأبار بأن تأريخ صدر الإسلام من حياة الرسول إلى مقتل الحسين ليس إلا صراعاً بين الهاشميين والأمويين[(١)]. وفي مكانٍ آخر يصف بصراحة بني أمية بأبناء الطلقاء، وقد تولّوا الأمر دون استحقاق، ولم يكن إسلامهم إلا عن خوف ورهبة من حدّة السيف، وقد كان بنو أمية يستحقون الموت لكنّ نبي الإسلامﷺ (جدّ الحسينعليه السلام) تجاوز وعفا عنهم، وقال لهم: أنتم الطلقاء[(٢)]. فكيف يا ترى تنتهي الخلافة لمثل هؤلاء؟!

يجيب ابن الأبار على هذا التساؤل بكل وضوح: ليسوا جديرين بالخلافة والإمامة بأيّ وجهٍ من الوجوه؛ فالإمامة لم تكن للئيم من سبط هند وابنها دون

(١) ابن الأبار، درر السمط: ٩٢، ٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ٦٦.

البتول ولا كرامة. ويصفهم في محلّ آخر بالفراعنة، وما موقف الحسين من يزيد إلا مواجهةً بين موسى وفرعون[١].

ويضيف ابن الأبار بعد سياقه للمقاطع التالية: «كانت بنو حرب فراعنة، فذهب ابن بنت الرسول ليخرجهم من العراق»[٢].

وهذه المقاطع التي أوردها في درر السمط، جزءٌ يسير من البدائع النثرية التي كتبت بمهارة عالية وذوق رفيع، فظهر درر السمط كتاباً قليل اللفظ كثير المعنى، يحتوي على درر ثمينة تستدعي التأمل والتفسير أملاً في حيازتها.

١٥ ـ «ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من كتاب بغية الطلب في تأريخ حلب» لكمال الدين عمر أحمد بن أبي جرادة الحلبي المعروف بابن عديم (٥٨٨ ـ ٦٦٠هـ)، تصحيح السيد عزيز الطباطبائي، تحقيق السيد محمد الطباطبائي، قم، مؤسسة دليل ما للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ٢٥٤ صفحة، حجم وزيري.

وهذا الكتاب ـ كما هو واضح ـ مأخوذ عن المصنّف الكبير لابن عديم، أي بغية الطلب في تأريخ حلب، وجمع ، صحّح وصدر بشكل مستقل، مشتملاً على ٢٤٨ خبراً في عاشوراء والإمام الحسين، وباب المقتل في هذا الكتاب أكبر وأوسع ممّا هو عليه في كتاب الأخبار الطوال. وقد صحّحه العالم الشيعي الكبير المرحوم المحقق الطباطبائي من النسخة الأصلية التي كتبها المؤلّف بيده، والتي عثر عليها في مكتبة سلطان أحمد الثالث في تركيا.

١٦ ـ «الملهوف على قتلى الطفوف» لرضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر، المعروف بالسيد ابن طاووس (٥٨٩ ـ ٦٦٤هـ)، تحقيق فارس حسون تبريزيان، قم، دار الأسوة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ٢٦٤ صفحة، قطع وزيري.

ويعتبر السيد ابن طاووس من أساطين المعرفة ومن أبرز العلماء الربّانيين الشيعة، ومصنّفاته القيّمة تشغل حيزاً مهماً في المكتبة الإسلامية، وتعدّ مرجعاً هاماً ومعتمداً للمحققين والباحثين والعلماء. وكتابه الموسوم بالملهوف على قتلى الطفوف من أبرز مصنّفاته، ويعدّ من الكتب القيمة والهامة، ويسمى غالباً «باللهوف على قتلى

(١) المصدر نفسه: ٩٤.

(٢) المصدر نفسه.

الطفوف». ولم يحظ كتاب آخر مثل ما حظي به هذا الأخير من إقبال المحققين والباحثين في مجال عاشوراء؛ فتُرجم للفارسية بأكثر من عشر ترجمات، وتتصدى لطباعته سنوياً عشرات من دور النشر؛ فهو بحقّ أروع كتاب تمّ تأليفه في هذا الحقل.

ولقد عثرتُ على أدلة وقرائن، تمكنني من القول: بأن السيد ابن طاووس إنما كتب كتابه اللهوف هذا ردّاً على كلام الشريف المرتضى الذي أورده في تنزيه الأنبياء وفي التلخيص أيضاً؛ فهذا ما يمكن ملاحظته في مطاوي كتاب اللهوف وكذلك من خلال آلية ترتيبه وتبويبه، وبصورة أجلى في مقدّمته التي تحدّث فيها عن الشريف المرتضى بعد أن اقترض من أبيات الأخير بيتين لغاية مزدوجة كان يبتغيها السيد ابن طاووس، وهي تقريظ ديباجة الكتاب وفي الوقت ذاته التعريض بكلام الشريف المرتضى؛ وذلك لأن مفهوم البيتين اللذين اختارهما ابن طاووس كان مناقضاً بشكل واضح لكلام الشريف المرتضى، الذي ذكره في ظروف خاصة[(١)].

١٧ ـ «استشهاد الحسين رضي الله عنه» للإمام الحافظ ابن كثير، ويليه «رأس الحسين» لشيخ الإسلام ابن تيمية، قدّم له محمد جميل غازي، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ ]تاريخ التقديم[، ١٩٠ صفحة، قطع وزيري.

لقد خُرِّج هذا الكتاب من تاريخ ابن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) المعروف بالبداية والنهاية. وكتاب «استشهاد الحسين» بضميمة «رسالة رأس الحسين» الذي نحن بصدده، مماثل لعنوان آخر استخرج من تاريخ الطبري، وكلا الكتابين، أي استشهاد الحسين من تأريخ ابن كثير واستشهاد الحسين من تأريخ الطبري، طُبعا ونشرا من قبل أهل السنّة.

والجدير بالاهتمام هنا هو انضمام «رسالة رأس الحسين» التي كتبها ابن تيمية لكتاب ابن كثير، ومعروف أن هذين من أشدّ الناس بغضاً للشيعة والتشيع، خلافاً للمؤرخ الشهير ابن جرير الطبري الذي تتنافى رواياته التي نقلها مع روايات

---

(١) وقد تحدّثنا بالتفصيل عن ذلك في محلّ آخر، راجع كتاب: صحتي سردرودي، الشهيد فاتح في مرآة الفكر، قم، دار معارف للنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨٢ش/٢٠٠٣م، (باللغة الفارسية). ويمكن مراجعة الأصل الذي تمّ نشره مرةً أخرى بعد تنقيحه وإعادة صياغته، في هذا الكتاب نفسه، الفصل الثالث: عاشوراء في مرآة الفكر والرأي.

ابن كثير وابن تيمية.

١٨ ـ «سيرتنا وسنّتنا سيرة نبينا صلى الله عليه وآله وسنّته» للعلامة الأميني صاحب كتاب الغدير، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ١٨٢ صفحة، قطع وزيري.

والكتاب مشحون بالمصادر المهمّة ويمتاز بقبوله لدى العامة، ويتمحور حول السبب في إقامة الشيعة لمآتم العزاء على سيد الشهداء عليه السلام ودأبهم بالتأبين له كل يوم، وزيارة قبره في كربلاء والتبرك بتربته.

١٩ ـ «عبرات المصطفين في مقتل الحسين عليه السلام المأخوذ من أقدم المصادر التأريخية الإسلامية» لمحمد باقر المحمودي، قم، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ المجلد الأول يحتوي على ٤٧٢ صفحة، والثاني ٣٩١ صفحة، حجم وزيري. واعتمد هذا الكتاب القيّم في محتوياته على أربعة مصادر تأريخية، وهي: ١ـ مقتل أبي مخنف الذي نقله هشام بن محمد الكلبي عن تاريخ الطبري تحت عنوان (الإمام الحسين عليه السلام في تاريخ الطبري). ٢ ـ أنساب الأشراف للبلاذري. ٣ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد. ٤ ـ الأخبار الطوال للدينوري.

وقد قام الأستاذ المحقق المحمودي بإيراد تعليقة مهمّة على معظم فقرات الكتاب ـ كتاب العبرات ـ مما جعل كل كلمة منه تحمل عطاءً جليلاً للباحثين.

٢٠ ـ «الإمام الحسين عليه السلام في أحاديث الفريقين من قبل الولادة إلى بعد الشهادة»، للسيد علي الموحد الأبطحي الإصفهاني، الناشر: المؤلف، الطبعة الأولى، قم ١٤١٤ ـ ١٤١٨هـ في أربعة مجلدات، ٤٤٠ + ٤٧٦ + ٥٢٨ صفحة، حجم وزيري. والمجلّد الثالث من هذا الكتاب لم يُنشر لحدّ الآن، وما نشر هو ثلاثة مجلدات، ضخّ المؤلف فيها أخباراً من مختلف المصادر، ونقل روايات تتصل بعلم الإمام الحسين ساعياً لإثبات حقيقة أن الإمام كان عالماً بما سيحصل قبل استشهاده. وهذا التكريس للأخبار والروايات حول الإمام الحسين، منح الكتاب إمكانية أن يكون ضمن قائمة مصادر عاشوراء.

وهنا نحاول استعراض عناوين أخرى يمكن اعتبارها ضمن مصادر عاشوراء أيضاً، وهي عبارة عن تحقيق أو تصحيح أو ترجمة للعناوين المتقدّمة التي

فرغنا عن ذكرها آنفاً:

١ ـ «الثورة الخالدة» (مقتل الحسين لأبي مخنف) ترجمه للفارسية وصحّحه حجة الله جودكي، مؤسسة التبيان الثقافية، طهران، الطبعة الأولى، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م، ٣٤ + ١٤٠ صفحة، قطع وزيري.

٢ ـ «ثورة سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام وثارات المختار على رواية الطبري وإنشاء أبي علي البلعمي»، تصحيح محمد سرور مولائي، مركز الدراسات الإنسانية والثقافية، طهران، الطبعة الثانية، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م، ٩٤ صفحة، قطع رقعي.

٣ ـ «الحسين عليه السلام سماته وسيرته» (ترجمه شارحه اعتماداً على ما أورده المحدّث المؤرخ الشامي ابن عساكر في كتابه الكبير: تاريخ دمشق) السيد محمد رضا الحسيني الجلالي، دار المعروف، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ]تاريخ المقدمة[، ٢٢٠ صفحة، قطع وزيري.

## ١ . ٣ . خطب الإمام الحسين عليه السلام في المصادر والمصنّفات

١ ـ أدب الحسين وحماسته، الكاتب غير معروف، إعداد أحمد صابري همداني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الثانية، ٢٣١ صفحة، قطع رقعي.

من بين ما يشتمل عليه هذا الكتاب خطب وأشعار ذات مستوى متدنٍّ أدبياً، ولا ترقى لتكون مما قاله أو نطق به الإمام، وأغلب الظنّ أنها قيلت من قبل الآخرين ونسبت إلى الإمام بعد حين.

٢ ـ بازتاب وحي (مهبط الوحي وإشراقاته): من كلام الإمام الحسين عليه السلام، تقديم آية الله مهدي الحائري الطهراني، تأليف مير سعيد حسينيان، طهران، دار الإمام المهدي للنشر، الطبعة الأولى، ١٣٧٩ش/٢٠٠٠م، ١٨٠ صفحة، قطع وزيري.

يمتاز هذا الكتاب بإعرابه الخطب والكلمات المنقولة عن الإمام الحسين عليه السلام بالإضافة إلى ترجمتها للغة الفارسية، ويشرع ـ بعد نقل مجموعة من الفضائل والزيارات ـ بجواب الإمام الحسين على كتاب معاوية، وينتهي بكلامه الذي نطق به آخر لحظات عمره الشريف. وقد ضمّ خطبتين للإمام السجاد عليه السلام وخطبةً واحدة للسيدة زينب، وخطبة واحدة أيضاً منسوبة لفاطمة الصغرى، ويختتم الكتاب مسيرته

بزيارة عاشوراء المعروفة.

وبهذا العرض للكتاب نستكشف أن الطابع التبليغي والشخصي يغلب عليه، ولا يرتقي ليكون ضمن قائمة الكتب المحقّقة والمكتوبة عن علم ودراية، فأحياناً نجده يقتصر في نقل الخبر على بحار الأنوار فقط، وأحياناً أخرى ينقل عن كتب غير معتبرة، ولا تشكل مصدراً روائياً كالدمعة الساكبة ومعالي السبطين.

٣ ـ «بلاغة الحسين عليه السلام» للسيد مصطفى آل اعتماد، ترجمه للفارسية علي الكاظمي، الطبعة الثانية، قم، دار اسماعيليان للنشر، ١٤٠٦هـ ٣٤٥ صفحة، قطع رقعي، بضميمة النص العربي. وقد أخذ هذا الكتاب ترتيب نهج البلاغة، فقسّم إلى ثلاثة أقسام: خطب الإمام الحسين عليه السلام ورسائله وكلماته القصار.

٤ ـ «مقتطفات من كلام الإمام الحسين عليه السلام» لمنصور كريميان، دار اشرفي للنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، طهران (بالفارسي). وقد اشتمل هذا الكتاب المفتقِد للإسناد على كلام وشعر منسوب للإمام الحسين، لكن لا يمكن الوثوق بهذه النسبة بأيّ حال، بالإضافة إلى ذلك، فقد ضمّ الكتاب كلام وخطب لأئمة آخرين كالإمام علي عليه السلام.

٥ ـ «رسالة سيّد الشهداء» للسيد علاء الدين العلوي الطالقاني، مطبعة الحيدري، [طهران]، الطبعة الأولى، ١٣٣٧ش/١٣٨٩هـ ١٥٢ صفحة، حجم رقعي. (بالفارسي). وقد قام المؤلف بجمع وترجمة وشرح كلام الإمام الحسين وفقاً لنسق تأريخي، بدءاً بخروجه من المدينة وانتهاءً بشهادته في كربلاء، وقد اعتمد في الحديث عن أحداث يوم عاشوراء على كلام الإمام الحسين.

٦ ـ «أربعون حديثاً من الإمام الحسين عليه السلام» لعلي صفائي الحائري (عين - صاد)، دار ليلة القدر للنشر، قم، الطبعة الأولى ١٣٨٠ش/٢٠٠١م، ٢٢٢ صفحة، حجم رقعي (بالفارسي). وقد اختار المؤلّف في هذا الكتاب أربعين حديثاً للإمام الحسين، فقام بشرح إجمالي لبعض مفرداتها، ثم تحدّث بشكل إجمالي أيضاً حول سند هذه الأحاديث، ثم انتقل إلى ترجمتها للغة الفارسية وشرحها شرحاً مفصلاً، وما يميّز هذا الكتاب هو الأسلوب الأدبي الرائع الذي يمتلكه الكاتب، فقد ألقى بظلاله على الكتاب؛ فنراه أحياناً يضيف نثراً وأحياناً يضخّ شعراً، وهذا الأسلوب في التعاطي مع الكتاب

جعله مفتقراً للجدّية وأقصاه عن الكتب العلمية بعض الشيء.

٧ ـ «خطب الإمام الحسين على طريق الشهادة»، للبيب بيضون، دمشق، مطبعة ابن زيدون، ]الطبعة الأولى[، ١٩٩٣م، ثلاثة أجزاء في مجلدين، ٤٠٩ صفحات، حجري.

وقد أورد المؤلف في هذا الكتاب كلام الإمام الحسين معتمداً في ترتيبه على المنازل التي نزل فيها الإمام أثناء سفره من المدينة إلى كربلاء، وفيما يتعلّق بالحديث عن الواقعة، فقد استند المؤلّف في إيراد خطب الإمام على ترتيب الأيام، لكنه أضاف إلى جانب كلام الإمام، كلام أصحابه وكلام أعدائه أيضاً، وفي خاتمة المطاف قام بسرد الأحداث التي أعقبت شهادة الإمام الحسين، مع أن ذلك لا يتلائم مع موضوع الكتاب ولا مع عنوانه.

٨ ـ «ديوان الحسين بن علي عليه السلام» جمعه ونظمه وشرحه محمد عبد الرحيم، مع مقدمة حامد الخفاف، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، دار المختار العربية، ١٤١٢هـ ٢٢٢ صفحة، قطع وزيري. وما يرد على هذا الديوان هو أنّ معظم الشعر الوارد فيه لغير الإمام الحسين، بل يصعب القطع بنسبة حتى واحد من الأبيات له.

٩ ـ «طريق الفلاح أو كلام الحسين عليه السلام» لأبي القاسم حالت، طهران، شركة كتب إيران المحدودة للطباعة والنشر، ١٣٥٠ش/١٩٧١م، ١٦٥ + ١٥ صفحة، قطع رقعي. وقد ضمّ هذا الكتاب ـ إلى جانب النص العربي ـ الترجمةَ الفارسية والإنجليزية، وقد جاءت الترجمة الفارسية على نحوين: رباعيات شعرية ونثر، وقد طبع الكتاب طبعة ثانية لكن تحت عنوان «الكلمات القصار للحسين بن علي عليه السلام» في سنة ١٣٦٢ش/١٩٨٣م، في ١٦٤ صفحة.

١٠ ـ «من كلام الحسين بن علي عليه السلام» لمهدي السهيلي، الطبعة الأولى، ١٣٣٥ش/١٩٥٦م، ١٤٥ صفحة، الطبعة الخامسة، مؤسسة اشرفي للنشر، ١٣٦١ش/١٩٨٢م، ٢٠٤ صفحات، حجم رقعي، (الترجمة الفارسية بضميمة النص العربي).

١١ ـ «كلام الحسين بن علي عليه السلام من المدينة إلى كربلاء»، بإشراف وتعليق محمد صادق النجمي، قم، بوستان كتاب، الطبعة التاسعة، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، ٣٩٢

صفحة، قطع وزيري.

يحاول المؤلّف القيام بجمع ما روي من كلام الإمام الحسين الذي قاله في آخر ستّ سنوات من عمره الشريف، لكن يا ترى إلى أي مدى كان موفّقاً في جمعه لسائر الكلام ومنعه لغيره؛ فهذا ما لا يطيقه هذا الموجز، لكن باختصار يجيب المؤلّف في مقدمته حول هذه النقطة قائلاً: «لو أطلقنا على هذا الكتاب عنوان: (مقتطفات من كلام الإمام) بدلاً عن (كلام الإمام) لكنا أقرب إلى الصواب».

وعلى أية حال، فبعد نقله للنصوص العربية قام المؤلف بترجمتها للفارسية وتقديم تفسير إجمالي لبعض مفرداتها، وقد ذيّل كل خطبة أو كلام للإمام بما حصل عليه واكتسبه من نتائج ومفاهيم، وقد أوجز في ذلك حيناً وأطنب حيناً آخر.

١٢ ـ «كلام سيد الشهداء عليه السلام» لجواد فاضل، طهران، دار علي اكبر علمي للنشر، ١٣٣٥ش/١٩٥٦م، في ١٥٤ صفحة، حجم رقعي. وقد قام المؤلف في هذا الكتاب بترجمة بعض خطب الإمام وكلماته بأسلوب أدبي رائع وشيّق.

١٣ ـ «كلام سيد الشهداء عليه السلام» لشمس الدين رشدية، طهران، ١١٣ صفحة، من الحجم الصغير.

١٤ ـ «كلام سيد الشهداء» الكلمات القصار، لمهدي الأنصار القمي، قم، مؤسسة إمام العصر للطباعة وللنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، ٢٨٤ صفحة، حجم رقعي. وقد اعتمد المؤلف في تأليفه هذا الكتاب أسلوب كتاب «غرر الحكم» للآمدي، فرتّبه وفقاً للحروف الأبجدية، لكنّه لم يتقيد بالمصادر المعتبرة وإنما استعان بالمعتبرة وغير المعتبرة على السواء.

١٥ ـ «لهيب النار أو مقاطع من كلام الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه» لحسن شمس الجيلاني، مطبعة مشعل آزادي، طهران، ١٣٥٣ش/١٩٧٤م، ١٥٣ صفحة، قطع وزيري ]بالفارسي[. في هذا الكتاب قام المؤلّف بنقل نصوص مطوّلة من خطب الإمام الحسين من كتاب تحف العقول، وترجمها إلى الفارسية، ثم شرح بعضاً من فقراتها بصورة مشتّتة لا على التعيين، وبذات الأسلوب نقل كلمات جملة من شهداء الطف كزهير بن القين والحرّ بن يزيد الرياحي، وسبّاق عاشوراء الشهيد قيس بن المسهّر الصيداوي.

١٦ ـ «صحيفة الحسين عليه السلام» لجواد القيومي الإصفهاني، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ش/١٩٩٦م، ٣٩٦ صفحة، قطع وزيري. يتكوّن هذا الكتاب من ٧٨ دعاءً يتبعها ٢٢ خطبة للإمام الحسين، ثم الخاتمة أربعون حديثاً جمعها المؤلف من مصادر مختلفة، وأدرج النصّ العربي في الجانب الأيمن والترجمة الفارسية في الجانب الأيسر من الكتاب.

١٧ ـ «الصحيفة الحسينية ومستدركاتها» للسيد محمد حسين الشهرستاني الحائري، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة، نشر مؤسّسة الحسين عليه السلام فرع مؤسّسة البعثة، طهران، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٧٩ صفحة، قطع وزيري. كانت معظم نسخ هذا الكتاب منشورة في إيران والهند عام ١٣٠٦هـ وكانت تحتوي ٢٢ دعاء، وقامت مؤسّسة البعثة مؤخراً بإضافة ٥٨ دعاء قصيراً له.

١٨ ـ «الصحيفة الحسينية» للسيد محمد حسين الحسيني المرعشي الحائري (الشهرستاني) ترجمه للفارسية سيد مهدي غضنفري الخوانساري تحت عنوان «الأنفاس القدسية» بقلم محمد باقر أشرف الكتابي، مؤسسة أشرفي للنشر، ١٣٩٣هـ ٢٦٤ صفحة، حجم رقعي.

وهذا الكتاب عبارة عن ترجمة للكتاب السابق الذي يحتوي على ٢٢ دعاء، لكنه أقصى الدعاء الأخير والملحقات الأخرى، واكتفى بترجمة ٢١ دعاء فحسب.

١٩ ـ «موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام» لجنة علم الحديث في مؤسّسة باقر العلوم للتحقيق، ترجمة علي مؤيدي، قم، دار معروف ومشرقين للنشر، الطبعة السادسة، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، ٩٥٩ صفحة، قطع وزيري ]بالفارسي[.

٢٠ ـ «موسوعة كلام الإمام الحسين عليه السلام» لمحمد دشتي، قم، مؤسسة أمير المؤمنين للبحث والتحقيق، الطبعة الأولى، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م، ٧٥١ صفحة، قطع وزيري. وهذه الموسوعة ليست سوى صورة أخرى للموسوعة السابقة طبعت طبعةً مستقلة دون أن تختلف عن سابقتها في المضمون.

٢١ ـ «كلمة الإمام الحسين عليه السلام» للسيد حسن الشيرازي، دار العلوم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ ٣٥٦ صفحة، قطع وزيري. جمع المؤلّف في هذا الكتاب كلام الإمام الحسين وقسّمه تقسيماً موضوعياً إلى العقائد والأخلاق والعبادات والأحكام

والمواعظ والأدعية والمجتمع والسياسة.

٢٢ ـ «لمعات الحسين عليه السلام» للسيد محمد الحسيني الطهراني، دار صدرا للنشر، طهران، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ٧٩ صفحة، قطع وزيري. اشتمل هذا الكتاب على عدّة خطب وكلمات للإمام الحسين إلى جانب ترجمتها للغة الفارسية، وتمحورت جميعها حول عاشوراء وما جرى في كربلاء.

٢٣ ـ «لمعة من بلاغة الحسين عليه السلام» تحتوي على خطبه ورسائله وقصار كلماته، تأليف السيد مصطفى الموسوي آل اعتماد، تحقيق وترجمة محمد حسن الموسوي مشكاة، قم، دار طيار للنشر، ١٤٢١هـ ٢٦٣ صفحة، قطع وزيري. وهذا الكتاب هو ذات الكتاب السابق لكن مع التحقيق، وقد أشرنا إليه في بداية هذه المقالة.

٢٤ ـ «منطق الحسين عليه السلام» لأبي الفضل زاهدي، مكتبة صحفي، قم، ١٣٤٨ش/١٩٦٩م، ٢٥٦ صفحة، حجم رقعي. وقد اشتمل هذا الكتاب هو الآخر على جملة من الأدعية والخطب والروايات وبعض الشعر المنسوب للإمام الحسين، نقلت جميعها من مصادر شتّى، معتبرة وغير معتبرة، ثم تمّت ترجمتها للغة الفارسية.

٢٥ ـ «منهاج البلاغة في خطب ورسائل وحكم الإمام الحسين عليه السلام» لكريم زريجي، دار نور الوحي للنشر، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ١٢٤ صفحة، حجم وزيري. تمّ تأليف هذا الكتاب على غرار كتاب نهج البلاغة؛ فجمعت فيه ١٨ خطبة و١٣ رسالة و٧٠ قولاً بين حكم وكلمات قصار، كما تمّ شرح بعض المفردات في حاشية الكتاب.

٢٦ ـ «موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام» إعداد لجنة علم الحديث في مؤسسة باقر العلوم، دار المعروف، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ٨٧٨ صفحة، قطع وزيري. وهي موسوعة كبيرة وواسعة تمّ إعدادها بأسلوب فريد أدى إلى قبولها لدى معظم القراء والباحثين، بحيث تمّ إعادة طباعتها في سنتها الأولى ثلاث مرات على التوالي، وها هي الطبعة الرابعة على باب النشر تنتظر مرور اللمسات الأخيرة بغية إخراجها بالصورة التي تليق بها.

إن موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام المشار إليها أعلاه تضم ٩٩٦ رواية و١٤٩ مقطعاً شعرياً منسوباً للإمام الحسين، خرجت في جزئين ضمن مجلّد واحد

كبير، والجزء الأول يشتمل على كلام الإمام والشعر المنسوب إليه تمّ ترتيبه وفقاً لتاريخ الصدور، ضمن أربعة فصول: الفصل الأول: كلام الإمام الحسينعليه السلام في عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله. الفصل الثاني: كلام الإمام في عهد الإمام عليعليه السلام. الفصل الثالث: كلام الإمام وشعره في عهد ولاية أخيه الإمام الحسنعليه السلام. الفصل الرابع: كلامه وشعره إبّان إمامته وحتى شهادته.

أما الجزء الثاني من الكتاب، فقد ضمّ كلام الإمام وشعره لكن وفقاً للترتيب الموضوعي، وهو يشتمل على كل كلام وشعر للإمام لم يتم التعرّف على زمن صدوره. وهذا الجزء تضمن خمسة فصول: ١ـ أصول العقائد ٢ ـ الأحكام الفقهية والعملية (من الطهارة إلى الديات) ٣ ـ الأخلاق وآداب المعاشرة ٤ ـ الأدعية المأثورة عنه ٥ ـ الشعر المنسوب إليه، وقد تمّ ترتيبه وفقاً لحروف القوافي حسب الحروف الأبجدية.

ولم تخلُ هذه الموسوعة من بعض المشاكل ونقاط الضعف، وأهمّها أنّ الإخوة العاملين في هذه الموسوعة الروائية لم يكتفوا بمصادر الدرجة الأولى والثانية، وإنما اعتمدوا على مصادر لا يعتدّ بها وغير معتبرة في بعض الأحيان كأسرار الشهادة للفاضل الدربندي ومعالي السبطين للحائري و.. مما أدى إلى دخول بعض الروايات المحرّفة والمختلقة، الأمر الذي يدعنا نقول وبكل صراحة: إن عُشر كتاب «موسوعة كلمات الإمام الحسينعليه السلام» لا يمكن الاعتماد عليه والوثوق به؛ لاشتماله على روايات مجعولة وخالية من السند.

طبعاً لابد من التنويه بالمساعي الحثيثة التي يبذلها الأخوة الأعزاء في مؤسّسة باقر العلوم في العمل على تهذيب الموسوعة وتنقيحها بغية إصدار الطبعة الرابعة خاليةً من الأخبار الموضوعة والمختلقة، بالإضافة إلى أنهم زادوا هذه الطبعة مجموعةً من الفهارس الحرفية والضرورية، والتي تحتاجها كل موسوعة بهذا الحجم، إذ خلوّ الموسوعات الكبيرة من الفهارس الحرفية يجعل من الصعب على القارئ التوصّل إلى مبتغاه منها؛ فتكون كالكنوز التي لا تنالها الأيدي.

٢٧ ـ موسوعة كلمات الإمام الحسينعليه السلام.

ويعدّ هذا التصنيف من أجود الموسوعات التي جمعت كلام الإمام الحسين،

وعلى الرغم من عدم شموليته للروايات كافة إلا أن الجهود المضنية التي بذلها العاملون عليه، والتي شملت تنقيح الروايات وتصحيحها جعلها إن لم تكن جامعة مانعة فهي على الأقل مانعة من ورود الروايات الموضوعة والمختلقة.

وقد تم ترتيب هذه الموسوعة ضمن ثلاث فصول مطوّلة:

أ. الفصل الأول يتمحور حول حياة الإمام الحسين ومناقبه وفضائله وسرد لأحداث ووقائع مناهضته لمعاوية ويزيد، وذكر شهادته مع أولاده وأصحابه، ويمثل هذا الفصل القسم الأعظم من الكتاب؛ إذ يشمل المجلّد الأول والثاني و٧٨ صفحة من المجلّد الثالث أيضاً، ويمكن اعتبار هذا الفصل «فصل المقتل».

ب. الفصل الثاني ويتمحور حول الروايات والأخبار المنقولة عن الإمام، والتي تدور حول التوحيد والإمامة وأحكام الدين والأخلاق والسنن، ويشغل هذا الفصل حيّزاً من الكتاب يمتدّ من الصفحة ٧٩ وحتى ٣١١ من المجلّد الثالث.

ج. الفصل الثالث، ويختصّ بذكر الرواة الذين نقلوا عن الإمام الحسين، بكافة أنواع النقل المرسل منه أو المتصل، وقد ذكرت أسماؤهم وفقاً للحروف الأبجدية، بالإضافة إلى موجز عن حياتهم وسيرتهم، وما قيل فيهم من المدح أو الذم أو القدح. وقد بدأ ذكر الرواة بإبراهيم بن سعيد وانتهى بيونس بن أبي إسحاق، وقد شغل هذا الفصل أي الثالث حيّزاً من الكتاب بلغ ما بين الصفحة ٣١٣ والصفحة ٤١٨ من المجلد الثالث.

وأما خاتمة الكتاب، فامتدّت ما بين الصفحة ٤١٩ والصفحة ٤٩٠، وقد اشتملت على مراثي شعراء القرن الرابع في حقّ سيد الشهداء..

٢٨ ـ «نهج شهادة الحسين عليه السلام» ترجمة وتدوين أحمد فرزانه، تنقيح وإسناد مرتضى الرضوي، الناشر مؤسّسة ثقافة أهل البيت، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ٥٠٣ صفحات، قطع وزيري. اعتمد مؤلفو هذا الكتاب على مصادر متأخرة وغير معتبرة كناسخ التواريخ و.. بل نقلوا عن كتب موضوعة كأسرار الشهادة للدربندي. واعتمدوا في كثير من الأحيان الوساطة في النقل، وهو ما من شأنه أن يعرّض الكتاب للضعف من حيث النقل والإسناد.

٢٩ ـ «الوثاقة الرسمية لثورة الإمام الحسين عليه السلام» لعبد الكريم الحسيني

القزويني، مكتبة الشهيد الصدر، الطبعة الثالثة، قم، ١٤٠٤هـ ٢٦٤ صفحة، حجم رقعي. صبّ مؤلف هذا الكتاب اهتمامه على الرسائل المتبادلة بين الإمام الحسين والآخرين ـ من المخالفين وعمّال يزيد ـ والتي دوّنت في الستة أشهر الأخيرة من حياته، وقد اعتبر الكاتب هذه الرسائل «وثائق وحجج رسمية دامغة» لها دورها في واقعة الطف، وقد استغلّها في تحليل الواقعة وتفسيرها.

## المصادر الشاملة

إن إعداد هذا النوع من المصادر عادةً ما يكون كبيراً؛ وذلك لأن وجود أيّ نص من النصوص القديمة ـ ولو كان في جملة قصيرة ـ في كتاب معتبر يمكنه أن يحوّل ذلك الكتاب مصدراً مهماً يرجع إليه في خصوص ما تحدّث عنه، بالرغم من إيجاز النص.

لكننا ـ مع ذلك ـ نضع ثلاثة معايير للمصادر التي سوف نذكرها، وهي:

**أولاً:** المصادر التي تناولت الإمام الحسين ووقعة الطف في حيّز لا يقلّ عن فصل كامل.

**ثانياً:** المصادر التي تناولته في حديث مطوّل.

**ثالثاً:** المصادر التي يحتلّ حديثها أهميةً قصوى اقتضت نقله.

وطبقاً لهذه المعايير؛ تكون المصادر على النحو التالي:

١ ـ مثالب العرب، لهشام الكلبي (٢٠٤هـ).

٢ ـ نسب قريش، لأبي عبد الله مصعب بن عبد الله الزبيري (٢٣٦هـ).

٣ ـ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة الدينوري (٢١٣ ـ ٢٧٦هـ).

٤ ـ أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى البلاذري (٢٧٩هـ).

٥ ـ بلاغات النساء، لابن طيفور (٢٠٤ ـ ٢٨٠هـ).

٦ ـ الأخبار الطوال، لأبي حنيفة الدينوري (٢٨٢هـ).

٧ ـ تاريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب، ابن واضح اليعقوبي (٢٩٢هـ).

٨ ـ تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ).

٩ ـ الذرية الطاهرة، لأبي بشير محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الرازي

الدولابي (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ).

١٠ ـ سرّ السلسلة العلوية، لأبي نصر البخارائي المولود سنة (٣٤١هـ).

١١ ـ مروج الذهب، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (٣٤٦هـ).

١٢ ـ إثبات الوصية، للمؤلّف نفسه.

١٣ ـ دلائل الإمامة، لأبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (بعد: ٣٥٠هـ).

١٤ ـ مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الإصفهاني (٢٨٤ ـ ٣٥٦هـ).

١٥ ـ الأمالي، للشيخ الصدوق (٣٠٥ ـ ٣٨١هـ).

١٦ ـ عيون أخبار الرضا، للمؤلّف نفسه.

١٧ ـ معاني الأخبار، له أيضاً.

١٨ ـ علل الشرايع، له أيضاً.

١٩ ـ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، للشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ).

٢٠ ـ تجارب الأمم، لأبي علي مسكويه الرازي (٣٢٠ ـ ٤٢١هـ).

٢١ ـ تيسير المطالب في أمالي الإمام أبي طالب، لأبي طالب الزيدي (٤٢٤هـ).

٢٢ ـ الإفادة في تاريخ الأئمة، للمؤلف نفسه.

٢٣ ـ الأمالي الخميسية، ليحيى بن حسين بن إسماعيل الشجري الجرجاني (٤٧٩هـ).

٢٤ ـ روضة الواعظين، لفتال النيشابوري (٥٠٨هـ).

٢٥ ـ إعلام الورى بأعلام الهدى، لأمين الإسلام أبي علي الطبرسي (٤٦٨ ـ ٥٤٨هـ).

٢٦ ـ الاحتجاج، لأبي منصور أحمد بن علي الطبرسي (٥٨٨هـ).

٢٧ ـ مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب المازندراني (٤٨٩ ـ ٥٨٨هـ).

٢٨ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي (٥٩٧هـ).

٢٩ ـ كتاب الرد على المتعصّب العنيد المانع من لعن يزيد، للمؤلّف نفسه.

٣٠ ـ الكامل في التاريخ، لابن أثير الجزري (٥٥٥ ـ ٦٣٠هـ).

٣١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، للمؤلف نفسه.

٣٢ ـ تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي (٥٨٢ ـ ٦٥٤هـ).

٣٣ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد (٦٥٦هـ).

٣٤ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن عديم (٥٨٨ ـ ٦٦٠هـ).

٣٥ ـ إقبال الأعمال، للسيد ابن طاووس (٥٨٩ ـ ٦٦٤هـ).

٣٦ ـ مصباح الزائر، للمؤلف نفسه.

٣٧ ـ كشف الغمّة في معرفة الأئمة، لأبي الحسن علي بن عيسى الأربلي (٦٩٣هـ).

٣٨ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمحبّ الدين الطبري (٦١٥ ـ ٦٩٤هـ).

٣٩ ـ فرائد السمطين، لإبراهيم بن محمد الحموي الخراساني (٧٣٠هـ).

٤٠ ـ تاريخ الإسلام، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ).

٤١ ـ سير أعلام النبلاء، للمؤلّف نفسه.

٤٢ ـ نظم درر السمطين، لجمال الدين محمد بن يوسف الزرندي الحنفي (٧٥٠هـ).

٤٣ ـ معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول والبتول، للمؤلّف نفسه.

٤٤ ـ كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، لتقي الدين المقريزي (٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ).

٤٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ).

٤٦ ـ الفصول المهمّة في معرفة أحوال الأئمة، لابن الصبّاغ المالكي (٨٥٥هـ).

٤٧ ـ جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب، لأبي البركات محمد بن أحمد الباعوني الشافعي (٨٧١هـ).

بالإضافة إلى هذه المصادر السبعة والأربعين، هناك عشرات الكتب الأخرى التي تحدّثت بشكل أو بآخر عن الإمام الحسين عليه السلام وعاشوراء، ككتاب سُليم بن قيس الهلالي، وعوالي اللئالي، وكتاب السرائر، والميزان، والصواعق المحرقة، وجمهرة أنساب العرب، والثاقب في المناقب، ومسند ابن حنبل، وفضائل الصحابة، والمجموعة النفيسة، ومقدمة وتاريخ ابن خلدون، ونهاية الإرب في فنون الأدب،

ونهاية التنويه في إزهاق التمويه والتنبيه، والاشراف، ومصباح الكفعمي، وشرح الأخبار، وجامع الأخبار، والوافي بالوفيات.

## موسوعة الإمام الحسين عليه السلام، الإنجاز الأضخم

تعدّ هذه الموسوعة أضخم مجموعة شاملة وجامعة لمصادر سيرة الإمام الحسين عليه السلام، فقد تمّ في هذا الإطار إدراج المصادر المستقلّة بأجمعها وإدراج خصوص ما يتعلّق بالإمام الحسين من المصادر غير المستقلّة، وقد بلغ حجم المشروع درجةً من الاتساع بحيث ضمّ ـ إضافة لما أوردناه من المصادر أعلاه[1] ـ عشرات الكتب والمصادر الأخرى، فنحن هنا استقصينا معظم مصادر السيرة الحسينية، لكن توقّفنا عند القرن التاسع للهجرة، بينما تجاوز الإخوة المؤلّفون لموسوعة الإمام الحسين هذا القرن، وضمّوا إلى الكتاب مصادر وكتباً متأخرة ومعاصرة أيضاً.

ومع وجود بعض الإشكاليات التي يمكن إيرادها على هذا الموسوعة، إلا أن الفوائد الجمّة التي تترتب عليها والتي سنذكرها لاحقاً من شأنها التغلّب على نقاط الضعف هذه، وفي هذا الصدد جاء في مقدمة الموسوعة: «لقد تمّ ترتيب نصوص هذا الكتاب ـ الموسوعة ـ وفقاً لمصادرها واستناداً لأسبقيّة المصادر على الأخرى. وجعلنا تقدّم المؤلفين، وليس تقدّم رواة الأحاديث، معياراً للتقديم والتأخير، فعلى سبيل المثال، يعتبر أبو حنيفة الدينوري وابن قتيبة الدينوري متقدّمان على الطبري، مع أنّ الأحاديث التي نقلاها خالية من الإسناد بينما تسند روايات الطبري إلى أبي مخنف الأزدي وهشام بن محمد الكلبي وأمثالهم.

(١) وقد ذكرنا في هذه الدراسة ١٤٢ مصدراً، ٤٦ منها لم يتمّ نشره، و٢٠ تمّ نشره ككتاب مستقل، و٤٧ تمّ نشره ككتاب غير مستقل، و٢٩ مصدراً منها مختصّ بكلام الإمام الحسين. والمصادر التي لم تذكر في موسوعة الإمام الحسين لحدّ الآن، تقتصر على مصادر القسم الأخير، أي المتعلّقة بكلام الإمام الحسين، وأغلب الظن أنهم سيدرجونها في موسوعة الإمام الحسين في المجلد المختص بكلامه. وإلا فقد تمّ ذكر كافّة المصادر سوى عنوانين أو ثلاثة كدرر السمط في خبر السبط، ومعارج الوصول إلى معرفة آل الرسول.

ومن ميزات الكتاب أن النصوص التأريخية لم تدمج فيه، ومعنى ذلك أن سائر النصوص المتشابهة تمّ تكرارها وذكرها مرةً ثانية، وهذا الأمر من شأنه تسليط الضوء على الفوارق الموجودة بين النصوص، وفي حال كان النص المتأخر مطابقاً للمتقدّم يتمّ إرجاع القارئ إلى النصّ المتقدم من خلال رموز معينة، تمّ إيضاحها في مقدمة الكتاب»[١].

«إن الهدف من هذا المشروع هو حصر كافة البحوث التي دوّنت حول عاشوراء ]والإمام الحسين عليه السلام بصورة عامة[ وذلك كي يتسنّى للباحثين والمحققين والخطباء والأدباء مراجعة المصادر والاستفادة منها»[٢].

«في هذا البحث المطوّل ـ مشروع موسوعة الإمام الحسين عليه السلام ـ لم نتعرّض إلى صحّة أو سقم الأخبار والروايات، وإنما اقتصرنا على ذكرها فقط، فهي بمثابة مواد أولية تُسعف الباحثين والقراء في مشاريعهم العلمية، كما توقفهم على التناقضات والاختلافات التي منيت بها النصوص»[٣].

ولا بد من القول بأن القائمين على هذا المشروع الواسع قد بذلوا جهداً كبيراً ومفيداً وفعالاً في الوقت نفسه، وقد تمكّنوا من طي معظم المسافة في هذا الدرب الطويل والوعر، ويبدو أن نصف المشروع قد ظهر إلى النور، فقد شاهدت ـ والكلام لصاحب الدراسة الحالية ـ ستّة مجلدات منه[٤].

وتظهر فائدة هذا المشروع إذا ما علمنا أن الباحث الذي يكون بصدد البحث حول عاشوراء، ومهما كان نشطاً وجاداً ودقيقاً، إلا أنه لن يتمكّن من الوقوف على جميع ما ورد في موسوعة الإمام الحسين حتى لو صرف في ذلك عمراً مديداً، في حين نجد أن الموسوعة قد وفّرت عليه الجهد من خلال جمع المصادر ضمن دائرة محدّدة، وتصنيفها تصنيفاً تاريخياً مما يسهّل عملية الرجوع إليها.

ولم يقتصر المؤلفون على إيراد كتب المقاتل والمراثي، وإنما عززوا

---

(١) تاريخ الإمام الحسين ١: ١، المقدمة.

(٢) المصدر نفسه: ٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٣.

(٤) وقد نشر مؤخراً المجلّد السابع منها.

الموسوعة بالكتب التاريخية والروائية والتفسيرية والرجالية، إضافةً إلى أنهم عملوا على إخراج النصوص التي تتصل بموضوع الموسوعة ومهما بلغ حجمها ـ حتى لو اقتصرت على سطر واحد ـ من كتب المجالس والأمالي والمعاجم، وأوردوها في المكان المناسب من موسوعة الإمام الحسين.

ومن المناسب هنا أن نذكر، إضافةً لما ذكرناه سابقاً، بعض المصادر التي شارك قسمٌ من نصوصها، ولم تشارك بأكملها، في تكوين موسوعة الإمام الحسين، وهي: السيرة النبوية، وأخبار الخلفاء، وكتاب الفخري في الآداب السلطانية، والأصيلي في أنساب الطالبيين، والعقد الفريد، والاستيعاب، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، وعمدة الطالب، ولباب الأنساب، وعيون الأخبار والمعارف، وروح المعاني في تفسير القرآن، ومقتل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والطرائف، وسعد السعود، والتبيين في أنساب القرشيين، والآثار الباقية، وكتاب النسب، ومنتهى المقال، وتفسير أبي الفتوح الرازي، ودلائل النبوة، وحلية الأولياء، ومسند أبي يعلى الموصلي، وصحيح البخاري، والتاريخ الكبير، والسنن الكبرى، والجامع الصحيح، والتفسير المنسوب للإمام العسكري، والمستدرك على الصحيحين، ووسائل الشيعة، وإثبات الهداة، ومستدرك الوسائل، والوافي، وبحار الأنوار، وتفسير الصافي، وتفسير نور الثقلين، وروضة الصفا، وحبيب السير، وتجّار السلف، وحياة الحيوان الكبرى، وعشرات الكتب الأخرى من هذا القبيل، حتى أنها شملت تاج العروس أيضاً[(١)].

ومن الكتب المتأخرة التي شاركت في موسوعة الإمام الحسين، نذكر: مع الحسين في نهضته، ومناهل الضرب، وأعيان الشيعة، ولواعج الأشجان، وأصدق الأخبار، ومقتل الحسين عليه السلام أو واقعة الطف لمحمد تقي بحر العلوم، والدمعة الساكبة، والكبريت الأحمر، والتوابون، والأنوار النعمانية، ومزارات أهل البيت، وحول البكاء على الإمام الحسين، وأسرار الشهادة، ومنتخب الطريحي، ومعالي السبطين، ووسيلة الدارين وإبصار العين، وناسخ التواريخ، ومدينة المعاجز، وأدب الحسين وحماسته، وجلاء العيون، وعين الحياة، وتسلية المجالس، والحسين في طريقه إلى

(١) راجع: تاريخ الإمام الحسين ٥: ٤٩، ٤٥٣، ٥٢٦.

الشهادة، ووسائل المظفري، ومثير الأحزان في أحوالات الأئمة الإثني عشر[1]، وكتباً عديدة أخرى في هذا المجال.

لكن الملاحظ أنّ هذه النصوص المتأخرة تفقد هيبتها إذا ما وضعت إلى جانب المصادر المتقدّمة، كما أنها تُظهر ضعف مؤلّفيها وعدم اهتمامهم بتنقيح النصوص المتقدّمة وتصحيحها، وإنما اكتفوا بالإضافة عليها، وقد يصل بهم الأمر أحياناً إلى اقتناص نصّ متقدم أو رواية قصيرة وتدوين كتاب كامل حولها. إنّ هذه الصورة تعكس بوضوح أهمية موسوعة الإمام الحسين عليه السلام وتجعلها كاشفةً لهذه الحقائق.

## أمثلة للمبالغات التاريخية في قصّة عاشوراء

ومن الجدير أن نسوق هنا بعض الأمثلة لتلك الكتب التي ألّفت على غرار ألف ليلة وليلة:

١ ـ أجمعت المصادر على أن عدد القتلى في جيش عمر بن سعد بلغ ٨٨ شخصاً، إلا الشيخ مهدي الحائري المازندراني (صاحب معالي السبطين)، فإنه بالغ في عدد القتلى حتى وصل إلى ١٥٠ ألف قتيل، من دون أن يسوق أدلّةً أو براهين لإثبات ذلك[2].

٢ ـ كما أنه رفع عدد شهداء عاشوراء ـ من الجانب الحسيني ـ من ٧٣ أو ١٠٧ ـ على أكثر الأقوال ـ إلى ٢٣٣ شهيداً[3].

٣ ـ كان عدد أصحاب الإمام الحسين حال نزوله كربلاء ٦٩ رجلاً، وقد ارتفع العدد بانضمام ٢٠ رجلاً من جيش عمر بن سعد؛ فبلغ المجموع ٨٩ رجلاً، لكن ما

---

(١) من المهم التنويه إلى أنه على الرغم من كثرة ما نقلوا عن هذا الكتاب (مثير الأحزان في أحوالات الأئمة الإثني عشر) في المجلّدات الأربعة الأولى من موسوعة الإمام الحسين، إلا أنهم لم يشيروا إلى هوية الكتاب ـ لا في ضمن النصوص؛ إذ ذكروا العنوان ناقصاً (مثير الأحزان) ولا في فهرست المصادر؛ إذ لم يشيروا إليه إطلاقاً ـ وقد أدى ذلك إلى الخلط ما بين هذا الكتاب الضعيف وغير المعتبر وبين الكتاب المتقدّم والمعتبر، أي مثير الأحزان لابن نجم الدين ابن نما الحلّي.

(٢) راجع تاريخ الإمام الحسين ٥: ١٣٦، ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ٦١، ٨٤.

نلاحظه أنّ العدد أخذ يتصاعد عبر التاريخ شيئاً فشيئاً حتى بلغ في كتابي: بحار الأنوار وعوالم العلوم، إلى ألف راكب ومائة راجل[١].

٤ ـ وكان للجروح التي أصيب بها الإمام الحسين نصيبٌ من مبالغة المؤرخين، فقد ازداد عددها من ٦٣ جرحاً إلى ١٢٠، ثم إلى ٣٢٠، وصولاً إلى ١٩٠٠ جرحاً، ثم ارتفع العدد بالغاً أربعة آلاف ومائة وثمانين (٤١٨٠) جرحاً[٢].

ولم تقتصر هذه المبالغات على الأعداد، وإنما شملت الوقائع التي شهدتها أرض الطف، فعلى سبيل المثال نشير إلى الأحداث التي سردتها كتب المقاتل في ما قام به حبيب بن مظاهر الأسدي[٣]، أو ما أقدم عليه أبو الفضل العباس، فبالغوا في ذلك وأطنبوا، حتى أنهم ألّفوا قصصاً وسردوا روايات ضخمة تعليقاً على جزء من رواية تحدّثت عن مشهد ما حدث في يوم عاشوراء. ولا يسعنا أن نأتي على ذكرها في هذه العجالة[٤].

## أضواء على موسوعة الإمام الحسين عليه السلام

«لقد تمّ تقسيم الموسوعة إلى ثلاثة محاور أساسية: المحور الأول: عرض تاريخي إلى جانب تحليل شامل للأسباب التي ساهمت في وقوع حادثة عاشوراء وما ترتّب عليها وما نتج عنها. وفي هذا المحور أيضاً نجد استعراضاً مفصّلاً لحياة الإمام الحسين والفترة التي عاشها في ظلّ حكومة معاوية، ثم هلاك الأخير وانتقال الخلافة إلى يزيد وامتناع الإمام عن البيعة له، ثم خروجه من المدينة والرحيل من مكة باتجاه كربلاء، وصولاً إلى حادثة عاشوراء ومقتل سادات الشهداء [شهداء بني هاشم] وعلى رأسهم سيد الشهداء، والحوادث التي أعقبت الواقعة ثم عودة أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة. وفي خاتمة المحور نجد فصلاً كاملاً تحت عنوان (جزاء قَتَلة الإمام الحسين عليه السلام وثارات المختار)»[٥].

---

(١) المصدر نفسه ٢: ٦١٧، و٣: ٢٤٢ ـ ٢٥٠، ٨٠٧ ـ ٨٠٩.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٦٣٩ ـ ٦٤٩.

(٣) المصدر نفسه ٢: ٧٥٤ ـ ٧٥٨.

(٤) المصدر نفسه، المجلد التاسع، بالإضافة إلى موارد كثيرة أخرى.

(٥) المصدر نفسه ١: ١٠، ١١.

لقد تمّ نشر معظم فقرات المحور الأول في خمسة مجلدات إلا جزء يسير لم يكتمل لحدّ الآن، وهو ما يتعلّق بحوادث الطريق بين الكوفة والشام وما وقع في مدينة دمشق ورجوع أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة[١]، بالإضافة إلى الملحق المختصّ بثورة المختار التي تذكر عادةً بدلاً عن سيرة الإمام السجاد عليه السلام الذي كان حاضراً بنفسه يوم عاشوراء، ثم تلحق بشكل غير موضوعي بسيرة الإمام الحسين.

«المحور الثاني: اختصّ بذكر أحوال أصحاب الحسين عليه السلام، وشمل أهل البيت والأصحاب والنساء اللائي حضرن يوم عاشوراء»[٢]. وما نشر من هذا المحور لحدّ هذه اللحظة هو ما يتعلّق بالشهداء من أولاد الإمام علي عليه السلام ومعظمه في الحديث عن أبي الفضل العباس (المجلد التاسع).

«المحور الثالث: ويختصّ بذكر حياة الإمام الحسين عليه السلام منذ الولادة وحتى يوم عاشوراء، كما يشتمل على ذكر فضائله ومناقبه وما نزل فيه من الآيات، وذُكر في حقّه من الأحاديث والروايات»[٣].

لقد بلغ النجاح الذي حقّقه العاملون على موسوعة الإمام الحسين حداً يبعث على الدهشة، وخصوصاً عندما يجد القارئ نفسه أمام هذا الكمّ الهائل من الروايات والآراء والأقوال المختلفة والمتضاربة وقد جمعها كتابٌ واحد، وكعينة على هذا التضارب ـ فيما بين الروايات ـ نعرض أنموذجين: الأول تحت عنوان «رأس الحسين عليه السلام أين دفن؟ وكيف دُفن؟ ومتى دُفن»[٤]، والثاني تحت عنوان «من سَلِمَ من مذبحة عاشوراء»[٥].

فمن الملاحظات التي يمكن إيرادها على المؤلفين ـ في هذا السياق ـ أنهم لم يبذلوا جهداً كافياً في دراسة المصادر والنصوص المتقدمة، سوى إشارات عابرة سجّلت في حقّ بعض المصادر، كالتي جاءت تحت عنوان «من أخطاء المقتل

(١) وقد تمّ تفصيل الكلام عن حوادث الطريق بين الكوفة والشام في المجلّد السادس الذي تمّ نشره مؤخراً.

(٢) تاريخ الإمام الحسين ١: ١٠، ١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه ٥: ٤٩٨ ـ ٥٨١.

(٥) المصدر نفسه: ٢٨٣ ـ ٢٩٩.

المنسوب إلى أبي مخنف»[(١)]، ولم يخل الكتاب من بعض الأخطاء التي عثرنا عليها ضمن قراءتنا والتي نشير إليها أدناه:

١ ـ تمّ نسبة كتاب «رياحين الشريعة» لرسولي محلاتي[(٢)]، في حين يعود الكتاب إلى ذبيح الله محلاتي، وهو ما ورد أيضاً في فهرس مصادر الكتاب.

٢ ـ نجد في النصّ المنقول عن كتاب «بطل العلقمي» جملة: «إذ الأخ لا يرث مع الإمام»[(٣)]، فيما الصحيح هو «مع الأم». ولا يخفى أن مثل هذه المشروع الضخم والصعب لا يقلّل من أهميته بعض الأخطاء اليسيرة كالتي ذكرت.

وجدير بموسوعة الإمام الحسين ما جاء في المقدّمة التي قدّمها للكتاب العلامة الجعفري، والتي نعرض جزءاً منها كحُسن ختام لهذه الدراسة: «لقد قام بالعمل على هذا المشروع نخبةٌ من العلماء المطلعين والعاشقين الأوفياء لقافلة سيد عشاق الحق والحقيقة (الإمام الحسين بن علي عليه السلام) وبذلوا في ذلك سنوات مديدة من حياتهم المباركة، ولا يسعني بكلمات موجزة أن أصف مشروعاً بهذا الحجم وبهذه الضخامة؛ فكل من حظي بمراقبة مراحل تطوّر هذه الموسوعة التي قلّ نظيرها وظروف نشأتها سوف يجد أنها إحدى المشاريع الإنسانية الضخمة والتي تعدّ مصداقاً للنفحات الإلهية التي تتجلّى في حياة العباد، فمن الضروري بمكان التعرف عليها والحرص على الاهتمام بها»[(٤)].

## دراسة في سند عاشوراء، الببلوغرافيا الوصفية

## تراث عاشوراء ومسألة التحريف، دراسة نقدية

دوّنت كتبٌ كثيرة حول حادثة عاشوراء وحياة الإمام الحسين، لكن جلّها إن لم يكن عديم الفائدة فهو بلا شك ضئيل ومتدنٍّ من حيث المستوى العلمي، ولكاتب

---

(١) المصدر نفسه ٢: ٢٣٢ ـ ٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه ٩: ٥٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨٣ (في الحاشية).

(٤) المصدر نفسه ١: ٢٤ (المقدمة). ولابد من التنويه إلى أن هوية موسوعة الإمام الحسين هي كالآتي: تأريخ الإمام الحسين عليه السلام = موسوعة الإمام الحسين عليه السلام: أكرم الموسوي،

هذه السطور مكتبة تحتوي على أكثر من خمسمائة كتاب دوّنت جميعها في هذا المضمار، ولم أقتصر على مطالعتها وإنما تمعّنت فيها واستخرجت عصارة ما يدور حوله كلّ كتاب، وبذلك استطعت أن أدوّن ملخصاً عن كلّ منها.

وقد حاولت أن أدرج جملة من النتائج التي توصّلت إليها بعد جهد جهيد بذلته في هذا الطريق الشاق، راجياً أن تنال بعض الاهتمام:

١ ـ إنّ محتويات الكتب غالباً ما تكون مكرّرةً، ونادراً ما نجد فيها كلاماً جديداً أو مفيداً.

٢ ـ كثيرٌ من الكتب عبارة عن محاضرات ألقيت من على المنبر تمّ جمعها لاحقاً وإخراجها على شكل كتب، وهذا ما نلاحظه عادةً في كتب المجالس والمقاتل.

٣ ـ العديد من الكتب كتبها الوعّاظ والخطباء بغية الاستعانة بها على المنبر أو حين المجلس؛ كي تسهل عليهم مهمّة الوعظ والخطابة، لكنّ الآخرين حاولوا طباعتها ونشرها بعد رحيل الواعظ والخطيب، كما حصل لكتابي: الفخري ومنتخب الطريحي.

٤ ـ لم تُعرض الكتب قبل نشرها على أهل الخبرة والفنّ للاستفادة من ملاحظاتهم، بل تمّ طبعها دون تنقيح.

٥ ـ معظمها طبع وهو يفتقد للجانب الفني.

٦ ـ لم تراع في تدوينها الضوابط العلمية والمنطقية.

٧ ـ كما افتقرت لأبسط ما يتطلّبه البحث العلمي.

٨ ـ دوّن بعضها بأسلوب معقّد وغامض بعيد عن السلاسة، كما في كتاب حياة الإمام الحسين عليه السلام لعماد زاده، والذي يتألّف من مجلدين.

٩ ـ كثيرٌ من هذه الكتب كتب باللغتين: العربية والفارسية معاً، ولا يمكن تصنيفها على الكتب الفارسية أو العربية.

١٠ ـ خلت معظم الكتب من الطابع العقلاني، وقلّما نجد كاتباً حاول دراسة عاشوراء وحياة الإمام الحسين دراسةً تحليلية ممنهجة.

١١ ـ العديد من هذه الكتب دوّن بقلم شباب لم يخوضوا تجربة التأليف ولم يبلغوا مستوى فكري وثقافي يمكّنهم من ذلك، وتتضح هذه الحقيقة عند المقارنة بين مؤلّفاتهم في عهد الشباب وما كتبوه في السنوات اللاحقة.

١٢ ـ العديد من المقاتل دوّن تحت غطاء مبدأ التسامح في أدلّة السنن، بعد أن توهّم مؤلفوها أنّ هذه القاعدة تبيح لهم كتابة ما يشتهون.

١٣ ـ ومنهم من انطلق في التدوين اعتماداً على القاعدة القائلة: الغايات تبرّر الوسائل، معتقداً أنّ تحقيق البكاء والإبكاء غايةٌ تتيح له ذكر ما يشاء. غافلاً عن إن للقاعدة حيّزاً تطبيقاً محدّداً وبُعداً تجسّده قاعدة: الضرورات تبيح المحظورات.

١٤ ـ تأثرت طائفة كبيرة من هذه الكتب بالزيدية تأثراً بالغاً، ويغلب على هذا النوع من الكتب طابع العنف ويكثر فيها الحديث عن الدم والسيف وما إلى ذلك. وتدور معظم محاورها حول عبارات مختلقة، مثل: كلّ يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء.

١٥ ـ تتميّز هذه الكتب بالغلوّ والتطرف إلى حدّ كبير، ففي جانب منها تلتهب المشاعر بالمدح والرثاء والحنين والتملّق، وفي الجانب الآخر تتعالى الصيحات باللعن والشتائم والويل والثبور، وهذه الظاهرة إنما تعكس تدنّي المستوى العلمي والأدبي لمثل هذه الكتب.

هذه الخمس عشرة ملاحظة قد تكون كافيةً لمن أراد مراجعة هذه المصادر وتقويمها، كما أنّ الوقوف عندها قد يساعد على كشف نقاط ضعف أخرى.

وقد جعلنا المعيار في تصنيف الكتب التي تتمحور حول عاشوراء والإمام الحسين.. مدى تأثيرها في الأوساط الفكرية، سواء كان التأثير إيجابياً أم سلبياً؛ ففي القسم الأول من الدراسة تناولنا الكتب التي لعبت دوراً حاسماً في تكريس التحريفات التي تعرّضت لها واقعة الطف، وجزء كبير من هذه الكتب أصبح مقبولاً وتحوّل إلى مصدر تاريخي فيما بعد، ولا يزال لحدّ الآن يكرّس التحريفات ويزيد من تركيزها لدى الأذهان.

وقد ارتأينا في القسم الثاني، استعراض جملة من الكتب التي تكشف الستار عن مواضع التحريف والتزييف، وكان الغرض من تأليفها مناوءة التحريفات التي ملأت ثنايا الكتب الأخرى؛ آملين أن يكون هذا الجهد المتواضع حافزاً لجهد موسوعي أكبر يزيل طبقة الغبار التي تراكمت بمرور الأيام على الوجه الناصع للثورة الحسينية الخالدة؛ فإنّ هذا النوع من المشاريع يمتاز بأهمية بالغة تتطلّب

السرعة في البدء بالعلاج للتوقّي ممّا لا يُرتجى.

## القسم الأول: الكتب المكرّسة للتحريف، نقد موروث التزييف

قبل الحديث عن هذا النوع من الكتب لابدّ لنا ـ في البدء ـ من الإجابة عمّا قد يطرحه بعضهم قائلاً: مع غضّ النظر عمّا تحويه هذه الكتب من تحريفات، إلا أن هناك العديد من الفوائد التي تشتمل عليها، فلا ضير بقرائتها ولو لمرّة واحدة.

وللإجابة عن ذلك نقول: إنّ جلّ اهتمامنا في هذه الدراسة ينصبّ على جانب التحريف الذي تضجّ به هذه الكتب، ولسنا بصدد الجوانب الأخرى، كما أننا لا نصادر القاعدة القائلة: إنّ إثبات شيء لا ينفي ما عداه، وعلينا أن نقرّ بأن الغاية الأساسية التي من أجلها دوّنت هذه الكتب هي تسليط الضوء على سيرة الإمام الحسين عليه السلام وواقعة الطف، أما ما تمخّض عنها لاحقاً فلم يكن متعمّداً في أغلب الأحيان، بل يعتبر أمراً ثانوياً.

### ١ ـ مقتل الإمام الحسين عليه السلام المنسوب لأبي مخنف

لم يصلنا ذات الكتاب الذي دوّنه أبو مخنف حول مقتل الإمام الحسين، وما تبقّى منه روي أكثره عن طريق الآخرين من غير الشيعة، وخصوصاً المؤرخ المعروف أبو جعفر الطبري، ولهذا الباقي أهميّة لا تخفى. أمّا ما أورده المجلسي في المجلد العاشر من بحار الأنوار، وطبع لاحقاً لمرّات عديدة وتحت عناوين شتى فلا يمكن الوثوق به والاعتماد عليه بأيّ حال من الأحوال، ويحتاج إلى مزيد من الفحص والتتبّع في السند.

ومن المؤسف حقاً أن نجده قد ترجم للفارسية وللغات أخرى تحت عنوان: مقتل الحسين عليه السلام أو التأريخ الشيعي الأول بعد واقعة عاشوراء وثورة المختار، مع أنّ كثيراً من محدّثي الشيعة ورواتهم قد أقرّوا بأنّ فيه بعض الموضوعات ولا يمكن الوثوق بمضامينه[١].

---

(١) النوري، اللؤلؤ والمرجان: ١٥٠؛ والقمي، نفس المهموم: ٨؛ وله أيضاً، هدية الأحباب: ٤٥؛ والطهراني، الذريعة ٢٢: ٢٧؛ والموسوعة الإسلامية الكبرى ٦: ٢١٩؛ والسيد علي مير شريفي، أبو مخنف وتاريخ المقتل المنسوب له، مجلة آينه پژوهش، السنة الأولى، العدد ٢: ٣١ ـ ٤٠؛ ومحمد اسفنדياري، مصادر

## ٢. كتاب نور العين، نماذج من التحريف

طُبع هذا الكتاب لأوّل مرة في مصر قبل مائتي عام، أي سنة ١٢٩٨هـ وعنوانه الكامل: نور العين في مشهد الحسين، وطبع لاحقاً أكثر من عشر طبعات في كلّ من مصر وبومباي وبغداد. ويُنسب الكتاب إلى إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران النيسابوري الاسفرائني (٤١٧ أو ٤١٨هـ)، الشافعي والأشعري المذهب، لكنّ المحقق المعاصر الكبير الأستاذ السيد عبد العزيز الطباطبائي اليزدي ينفي نفياً قاطعاً نسبة الكتاب إليه. ويكتب بهذا الصدد: «أغلب الظنّ أن هذا الكتاب من الموضوعات وقد نسب إلى الاسفرائني لاحقاً؛ وذلك لأن النص المذكور لا يساعد أن يكون من القرن الرابع»[1].

ويمكن أن نستخلص من هذا الرأي العلمي أمرين:

**الأوّل**: إنّ مؤلف الكتاب الموضوع لم يتمّ التعرّف عليه، ويصنّف ضمن المجهولين، كما أنّ الداعي لتدوين مثل هذا الكتاب، الذي دوّن بأسلوب قريب من الهزل، لا يزال غير معروف.

**الثاني**: إنّ تدوين الكتاب كان موافقاً لسنة طبعه عام ١٢٩٨هـ ولم تكن ثمّة فترة طويلة بين تدوينه وانتشاره، إذاً لا يمكن أن يكون له أيّ صلة بعصر الاسفرائني الذي عاش نهاية القرن الرابع ونيّف من مطلع الخامس، يؤيّد ذلك الهوّة الكبيرة بين نصّ الكتاب ونصوص القرن الرابع؛ إذاً، فلا يمكن ـ مع وجود هذا الضعف كلّه ـ الوثوق بمضامينه.

وقد أقرّ بذلك كل من كان له باع طويل في التدوين حول عاشوراء؛ فكتب فضل علي القزويني (١٢٩٠ ـ ١٣٦٧هـ) بهذا الصدد: «ومن نظر في مقتله المطبوع (نور العين) يعرف أن فيه أكاذيب وأموراً على خلاف ما أجمع عليه الفريقان، ولا يهمّنا نقل مجعولاته، ومن أراد فلينظر إلى مقتله؛ فإنّا لا نعتمد على ما تفرّد به»[2]،

---

السيرة الحسينية: ٧٠ ـ ٧٤؛ ورسول جعفريان، وقفة مع ثورة عاشوراء: ١٧ ـ ٢٠.

(١) الطباطبائي، أهل البيت في المكتبة العربية: ٦٥٥، الطبعة الأولى، قم، مؤسّسة آل البيت، ١٤١٧هـ؛ وقد كتب إسماعيل باشا: «أنها رسالة نسبت للإسفرائني»، راجع: المصدر نفسه: ٦٥٤، نقلاً عن هداية العارفين ١: ٨.

(٢) فضل علي القزويني، الإمام الحسين وأصحابه ١: ١٥٠.

كما وصفه الشهيد القاضي الطباطبائي بقوله: «من الكتب الضعيفة جداً والتي لا يعتمد عليها.. ومجعول وضعيف ومجهول المؤلف»[١]، وعبّر عنه في محلّ آخر قائلاً: «إن مقتل الاسفرائني يضجّ بالروايات المجعولة والقصص الزائفة»[٢]، وللشيخ عباس القمي كلام حول الكتاب نأتي على ذكره لاحقاً عند الحديث عن منتخب الطريحي.

والتحريفات التي أسّس لها، أو على الأقل، نقلها كتاب نور العين كثيرة، من ضمنها هذه الأربعة:

١ ـ عندما خرج الإمام الحسين من المدينة قاصداً مكة، عاد إلى المدينة قبل أن ينطلق إلى كربلاء ثم الكوفة!

٢ ـ تفرّق معظم أصحاب الحسين ليلة عاشوراء، فيما انضمّ قسمٌ منهم إلى جيش عمر بن سعد!

٣ ـ فرأت رأس أخيها فنطحت جبينها بمقدم المحمل حتى رأينا الدم يخرج من تحت قناعها وأومت إليه بحرقة!

٤ ـ لما رجعت نساء الحسين وعياله من الشام وبلغوا العراق قالوا للدليل: مرّ بنا على طريق كربلاء، فوصلوا إلى موضع المصرع، فوجدوا جابر بن عبد الله الأنصاري.. فوافوا في وقت واحد (يوم الأربعين) وتلاقوا بالبكاء والحزن واللطم، وأقاموا المآتم المقرحة للأكباد.

### ٣. روضة الشهداء، والتأسيس لمدرسة التحريف

هذا الكتاب من تأليف الملا حسين الواعظ الكاشفي (٩١٠هـ)، ولا شك أنّه من الكتب التي تضجّ بالتحريف والتزييف، وتأثير هذا الكتاب يفوق تأثير كثير من الكتب الأخرى التي اضطلعت بمهمّة التحريف ذاتها. وقد احتمل بعضهم أنه أوّل مقتل فارسي شاعت قراءته بين الفرس حتى عرف قارؤه بـ(الروضه خوان) ثم توسّع في هذا العنوان إلى هذا الزمان حتى يقال لكل قارئ: (روضة خوان)، وتكاد لا تخلو اليوم أيّ مكتبة من نسخة لهذا الكتاب أو أكثر، وهذا إنما يعكس مدى الانتشار

(١) السيد محمد علي القاضي الطباطبائي، دراسة الأربعين الأولى لسيّد الشهداء: ٦٠، ٢٢١، ٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ٦٤٠.

الواسع الذي ناله.

لكن في الوقت ذاته، انتقد هذا الكتاب كثيرٌ من الباحثين في السيرة الحسينية ونوّهوا إلى ضعفه، ولا تسمح لنا هذه العجالة بنقل أقوالهم جميعاً[١]، وللتعرف على الكتاب بصورة أكبر لابد من مطالعة محتوياته، التي سنقتصر هنا على نقل إحدى القصص التي تضمّنتها، وهي ما عرف بقصّة الجارية شيرين.

## أسطورة الجارية شيرين

اختلق صاحب روضة الشهداء قصّةً تبدو للرؤيا أقرب منها للرواية، والواقع أنّ هذه القصة تعكس مدى الخيال الواسع الذي كان يتمتع به الكاشفي، كما تكشف عن قدرةٍ كبيرة له في سرد القصص والأساطير، وقد حيكت هذه القصّة بمهارة عالية، وتشبه إلى حدّ كبير القصص التي يسردها اليوم أبرز القصّاصين والأدباء. وتكان تكون متكاملة من كافّة جوانبها، وهي جميلة بكلّ ما للكلمة من معنى.

تبدأ أحداث القصة من الجبل الشاهق الذي يقع أطراف مدينة حلب، والذي استقرّت عليه قرية عامرة بأهلها، يقال: إنها لا تزال على تلك الحال، ويتزعم ساكنيها رجلٌ يدعى عزيز بن هارون، وكان معظم أهل القرية ورجالاتها يدينون باليهودية ويمتهنون نسج الحرير، وقد اشتهر نسيجهم في كلّ من الحجاز والعراق والشام، وصادف في تلك الأيام أن يمرّ طريق أسارى كربلاء من جانب هذا الجبل، وعندما يصلوه ينزلون عند سفحه حيث المياه الوفيرة والمراتع التي تملأ أطراف المكان، كان لدى شهربانو ـ أمّ الإمام زين العابدين ـ جاريةً بغاية الجمال تدعى شيرين، وكانت بحقّ شيرينَ عصرها وليلى زمانها، كأنها العقيق الصافي تتدلّى من فوقها ضفائر تلتوي كالتواء الحبال.

عندما جنّ الليل، جاءت شيرين إلى شهربانو، فجلست عندها وبدأت تجهش بالبكاء مما جعلها تبكي هي الأخرى، وكان لشهربانو عندما جيء بها إلى المدينة مائة جارية، أعتقت خمسين منها عندما تشرّفت بالزواج من الإمام الحسين، وأعتقت

(١) عبد الله أفندي، رياض العلماء ٢: ١٩٠؛ والتبريزي، مرآة الكتب ٥: ٣٨٤؛ واسفندياري، مصادر السيرة الحسينية: ٨٨ ـ ٩٣؛ ورسول جعفريان، وقفة مع ثورة عاشوراء: ٣١٧ ـ ٣٥٩.

أربعين جاريةً عندما ولد الإمام زين العابدين، وبقي معها من الجواري عشرة فحسب. وكانت شيرين الأبرز من بين العشرة بحُسنها وجمالها.

وفي أحد الأيام، جاءت شيرين إلى بيت الإمام الحسين عليه السلام فوجدت الإمام جالساً وإلى جانبه زوجته شهربانو، فنظر الإمام عليه السلام إلى شيرين، وقال متلطّفاً: يا شهربانو! إن لشيرين وجهاً مشرقاً؛ فظنّت شهربانو أنّ للإمام رغبةً ما بشيرين. فقالت: يا ابن رسول الله! قد وهبتها لك، فعرف الإمام بما ساورها، فقال في الحال: وأنا قد أعتقتها، فنهضت شهربانو إلى صندوق ملابسها وأخرجت منه رداء ثميناً وألبسته شيرين. فقال لها الإمام الحسين عليه السلام: لقد رأيتك تعتقين جوارٍ كثيرة ولم أرك تُلبسين إحداهنّ كالذي تلبسينه شيرين. فقالت له شهربانو: سيدي! لقد كنّ عتيقاتي، وشيرين عتيقتك، ولعتيقتك فضلٌ على ما أعتقت؛ فدعى لها الإمام الحسين.

وقد لازمت شيرين شهربانو طيلة هذه السنوات إلى أن حلّ بهما المقام عند سفح هذا الجبل، وقد بكت شيرين عندما شاهدت السيدة شهربانو؛ إذ انتقلت بها الذكريات إلى الرداء المرصّع الذي ألبسته إياها بحضور الإمام الحسين؛ ثم طلبت من السيدة شهربانو السماح لها بالذهاب إلى القرية بغية بيع ما لديها من الزينة وابتياع بعض الألبسة التي ينسجها أهل القرية؛ فأجابتها شهربانو قائلةً: أنت حرّة، ولا حجر عليك، ولك أن تذهبي إلى حيث شئت! فقامت شيرين وانطلقت إلى أعلى الجبل حتى وقفت عند باب السور الذي يحيط بالقرية، وكان الليل قد ألقى بظلاله فوجدت الباب موصداً؛ فطرقت الباب، وكان خلفها يقف عزيز بن هارون؛ إذ شاهد رؤيا جعلته يأتي ليقف خلف الباب منتظراً؛ فصاح على الفور: شيرين! أهذا أنت؟ فأجابت: نعم؛ ففتح لها الباب وسلّم عليها ودعاها لدار الضيافة عنده، ورحّب بها ترحيباً بالغاً؛ فسألت شيرين عزيزاً أنّى له بمعرفة اسمها؟ فقال لها: بينما كنت نائماً رأيت موسى وهارون عليهما السلام وقد كشفا رأسيهما وأراقا مهجتيهما وراحا يئنّان أنين الحزين الولهان قد بدت عليهما بوادر المصاب، فأذهلني ذلك، فقمت وقلت لهما: يا سيدا بني إسرائيل! ويا مختارا الربّ الجليل! ما لي أراكما على هذه الحال؟ وكأنّ عزيزاً لكما قد فُقد؟ فأجاباني: ألم تعلم بأنّ سبط نبيّ آخر الزمان محمد المصطفى صلى الله عليه وآله قد قُتل مظلوماً وقد حملوا رأسه وسبوا عياله إلى الشام، وهم الليلة قد نزلوا عند سفح هذا الجبل.

فسألتهما: وهل تعرفان محمداً وتقرّان بنبوّته؟ فأجابا: وكيف لا نعرفه وهو النبيّ بالحق، ولقد عاهدنا الله سبحانه على الإيمان برسالته ونحن له مسلمون. وكل من حاد عنه فمصيره جهنم، ونحن معاشر الأنبياء براء منه. فقلت: دلّوني بآية ليطمئنّ قلبي ولأكون من الموقنين. قالا: قم واذهب إلى باب القلعة، فإنّ عتيقةً للحسين عليه السلام تدعى شيرين ستصل إلى هناك فافتح لها الباب واعتني بها، فإنها ستصبح زوجاً لك عن قريب، فأسلِم واذهب لزيارة الحسين عليه السلام وقف على رأسه وأقرءه منّا السلام، وستجده يردّ عليك. أفقت من النوم، واتجهت فوراً إلى باب القلعة ووجدتك تطرقينها، وهكذا عرفت اسمك، وبما أنهما أخبراني بأنك ستكونين زوجتي، فهل ترضين بذلك؟ فأجابته قائلةً: لا يكون إلا بعد إسلامك وموافقة السيدة شهربانو.

عادت شيرين إلى شهربانو وقصّت عليها ما جرى، فاندهشت السيدة وحكت هي الأخرى ما جرى لبنات الحسين وأخواته فانبهروا جميعاً.

وفي اليوم التالي، وعندما بدأت الشمس تظهر من خلف الجبل وأخذت أشعّتها تنير أرجاء القرية، بادر عزيز إلى إرشاء الشرطة بألف درهم كي يسمحوا له بالنزول عند قافلة السبايا وكان له ذلك؛ فأقبل حاملاً لكلّ علويةٍ رداءً ثميناً، وجاء إلى الإمام زين العابدين عليه السلام وأعطاه ألفي دينار، وأسلم على يديه، ثم اتجه إلى رأس الحسين عليه السلام ووقف عنده وقال: سيدي ومولاي! أبلغك السلام من موسى وهارون، فجاءه الردّ من رأس الحسين عليه السلام بصوتٍ خافت حزين: وعليهما السلام ورحمة الله وبركاته. فقال عزيز: سيدي! هل لك أن تأمرني بما لله فيه رضا. فأجابه الإمام: لقد قمت بما فيه الخير والصلاح، فبإسلامك قد أفرحت الله ورسوله، وبإحسانك لأهل بيتي قد أرضيت جدّي وأبي وأخي، وبإبلاغك إيّاي سلام النبيّين قد أرضيتني عنك. ويوم القيامة يحشرك الله مع أهل بيتي.

عندئذ قالت شهربانو لشيرين: إن شئت أن أرضى عنك فعليك الزواج من عزيز؛ فوافقت شيرين، وعقدوا لها القران، وكان ذلك سبباً في إسلام جميع من كان في القرية.

وقد ترجم الملا محمد الفضولي، الشاعر الآذربيجاني المشهور، هذه الأسطورة إلى اللغة التركية، ونظمها في أبيات شعرية، وقد طبعت مرّات عديدة[1]، كما نظمها غيره

---

(١) الملا محمد الفضولي، حديقة السعداء: ٥٣٦ ـ ٥٣٩، طبعة قم.

من الشعراء، وكل شاعر يزيد عليها شيئاً حتى أصبحت قصّةً طويلة يحتاج إلقائها في المجالس وقتاً طويلاً يزيد على الساعة والنصف، وقد انتشرت مؤخراً على أشرطة التسجيل التي يبلغ وقتها ساعة ونصف.

ومن الجدير أن نشير هنا إلى أنّ هذه الأسطورة القريبة من الإسرائيليّات، لا نجد لها أثراً في أيّ كتاب معتبر، أو له شيء من الاعتبار، وإنما هي من موضوعات كتاب روضة الشهداء، ولا داعي لأن نطيل الكلام حولها فضعفها واضح بأدنى تأمل، بل إن زواج الإمام الحسين من شهربانو هو بحدّ ذاته لم يثبت، وحتى الذين أرادوا إثباته بأيّ شكل من الأشكال، قد اتفقوا على أن شهربانو قد توفيت وهي في النفاس بعد ولادة الإمام زين العابدين، ولا يمكن بأيّ حال أن تكون قد بقيت على قيد الحياة إلى يوم عاشوراء، وحتى الذين أوردوا مثل هذه الأساطير في مؤلّفاتهم لم يدّعوا بقاءها على قيد الحياة إلى ما بعد عاشوراء، وإنما ذهب بعضهم إلى أنها صعدت على ظهر ذو الجناح فحلّق بها بعيداً عن كربلاء وحطّ فوق جبل في بلدة الري! وبعضٌ آخر ادّعى أنها أقدمت على الانتحار بعد أن ألقت بنفسها في نهر الفرات يوم عاشوراء! وأغلب الظنّ أنّ أعداء أهل البيت هم الذين اختلقوا مثل هذه الأساطير كي يحطّوا من منزلة عاشوراء.

من الواضح أنّ القصة التي تقدّمت تعطي انطباعاً لدى القارئ بأن الإمام الحسين عليه السلام كان يزاول حياةً ملكية ملؤها الرخاء، فالجواري التي تملكها إحدى زوجاته فقط بلغن مائة جارية، وقد مكثت خمسون جارية منهنّ في بيته حتى ولادة ابنه زين العابدين، الذي كان سبباً في عتق أربعين جارية، فيما بقي عشرة جوار لم يشملهنّ العتق بتاتاً! وهذه صورة لا تعكس سوى الحياة الرغيدة في أروقة القصور الفاخرة؛ فيا تُرى! كيف يمكن تصوّر مائة أو خمسين أو عشرة جوار يخدمن في بيت الإمام الحسين عليه السلام في الوقت الذي كان الفقراء في المدينة يتضوّرون جوعاً؟ وأنّى لشهربانو بكلّ هذه الجوار؟ إذاً، هناك العديد والعديد من التساؤلات الأخرى التي يمكن إثارتها حول هذه القصة، وبالطبع سوف لن نعثر على الإجابة لأيّ منها.

ويبدو أنّ صاحب القصّة قد شاهد التفاعل الكبير الذي يُبديه الناس مع الأساطير الغرامية، فبدأ يسرد روايته على غرار تلك الأساطير؛ أملاً منه أن تكتسب

ذات الصيت والتفاعل الذي نالته أسطورةٌ كأسطورة مجنون ليلى، وأسطورة فرهاد وشيرين وغيرها؛ حتى أنه استعار لقصّته أسماءً اشتهرت في الأساطير الأخرى، كاسم شيرين من أسطورة فرهاد وشيرين الإيرانية، واسم عزيز من قصة يوسف وزليخا الذي عرف فيها يوسف باسم عزيز مصر، ومن خلال تلفيق جملة من الأساطير تمكّن من إعداد: أسطورة شيرين جارية شهربانو.

## ٤ . منتخب الطريحي وكتاب الفخري، ظهور رواية موضوعة لحديث الكساء، وأسطورة عرس القاسم

يُنسب هذا الكتاب لفخر الدين الطريحي النجفي (٩٧٩ ـ ١٠٨٥هـ)، الذي دوّنه ليلبّي حاجة قرّاء التعزية بغية تمكينهم من إبكاء الحاضرين، ولا يمكن وصف منتخب الطريحي بكتاب سيرة ولا بالمقتل، كما لا يمكن اعتباره كتاباً روائياً، وإنما هو مجموعة نثرية وشعرية تكرّس الحزن والبكاء.

يظهر من محتوى الكتاب أنه عبارة عن مجموعة من المآتم كان يلقيها المؤلّف في ليالي عاشوراء، وقد جمعها لاحقاً وأخرجها على شكل كتاب، وقد واجه هذا الكتاب، الذي دوّن على هيئة الكشكول، الكثيرَ من النقود التي وجّهها له خيرة الباحثين والمحدّثين[(١)]، وذكروا بأنّه يشتمل على مجموعة من الموضوعات، كعرس القاسم بن الحسنعليه السلام وقضية دفن السيد عبد العظيم الحسني في بلدة الري وهو حيّ[(٢)]، ويكتب الميرزا محمد أرباب في هذا الصدد: «وفيه (منتخب الطريحي) مسامحات كثيرة لا تخفى على أولي العلم»[(٣)]، وفي موضع آخر يقول: «والرواية المنقولة فيه لا يُعتمد عليها»[(٤)]، ويكتب الميرزا في سياق آخر بعد إثباته تواتر حديث الكساء: «وبخصوص حديث الكساء المعروف في زماننا، فلم يرد في الكتب المعتبرة،

(١) الذريعة ٢٢: ٤٢٠؛ ومرآة الكتب ٤: ١٠١، الطبعة الحجرية؛ وعباس القمّي، منتهى الآمال ١: ٧٥٣ ـ ٧٥٤.

(٢) المحدّث النوري، اللؤلؤ والمرجان: ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣) الميرزا محمد أرباب، الأربعين الحسينية: ٩.

(٤) المصدر نفسه: ٦٤.

وهو من متفرّدات منتخب الشيخ الطريحي، ونصّه لا يخلو من إشكال، ولا يخفى على أهل العلم ما عليها متفرّدات المنتخب»[١].

مع ذلك كلّه؛ فالطلب على منتخب الطريحي كبيرٌ، وقد اعتمد عليه كثيرٌ من كتّاب السيرة في تصانيفهم حول عاشوراء والإمام الحسين، وقد دعت شهرته إلى عدم التروّي عند النقل عنه، الأمر الذي أدّى إلى تكريس التحريف والتزييف، وقد غفل جُلّ كتّاب السيرة عن أنّ المنتخب هو المصدر للعديد من المختلقات، أو على الأقل فإنّ انتشاره الواسع أدّى إلى تفشيها بشكل كبير.

ولتسليط الضوء على هذه النقطة، نشير إلى جملة من التحريفات التي تضمّنها المنتخب:

١ ـ جملة: «هل من ناصر ينصر الذريّة الأطهار؟»[٢]؛ فقد نسب الطريحي هذه العبارة للإمام الحسين عليه السلام مرّات عديدة[٣]، لكننا ـ ورغم المحاولات الكثيرة ـ لم نعثر على مصدر معتبر يوثق مثل هذه العبارة، ولا نستبعد كون عبارة «هل من ناصر ينصرني؟» كانت في يومٍ ما شعاراً لبعض الثوار، ولم تكن لها صلة بحادثة الطف[٤].

٢ ـ جملة: «تألّف جيش ابن سعد من سبعين ألف راكب»![٥].

٣ ـ خبر الجمال[٦].

٤ ـ قصة الطفلة ذات الثلاث سنوات في خرابة الشام[٧].

٥ ـ أسطورة عرس القاسم[٨].

---

(١) المصدر نفسه: ٢٤٣.

(٢) الطريحي، المنتخب: ٣٨٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢، ٢٠٠ ـ ٢٦٣.

(٤) راجع: صحّتي سردرودي، مراجعة مجموعة من الأخبار المشهورة حول عاشوراء، مجلة علوم حديث، العدد ٢٦: ١٢٠ ـ ١٣٩، ٢٠٠٢م.

(٥) المنتخب: ٣٧، ٢٨٠.

(٦) المصدر نفسه: ٣٧٢ ـ ٣٧٥.

(٧) المصدر نفسه: ١٤٠.

(٨) المصدر نفسه: ٣٧٢ ـ ٣٧٥؛ وراجع أيضاً: السيد علي مير شريفي، فريادي به بلنداي تاريخ

٦ ـ جملة «اسقوني شربةً من الماء»[١]، وقد نسب فخر الدين الطريحي هذه العبارة للإمام الحسين، وهي تتلاءم إلى حدّ بعيد مع الشريحة التي تقرأ كلّ الوقائع والأحداث في الحزن والبكاء، والتحقيق أن العبارة مختلقة ولا سند لها، والموقف الذليل الذي تعكسه هذه العبارة لا يتلاءم ـ بأيّ حال من الأحوال ـ مع الروح الحسينية التي عرف بها سيّد أباة الضيم، وإمام العزّة، أبو الأحرار[٢].

٧ ـ جملة: «جعل الحسين يقاتلهم حتى قتل ما يزيد على عشرة آلاف فارس، ولا يبين النقص فيهم لكثرتهم»[٣].

٨ ـ خبر مسلم الجصّاص، الذي روى عن زينب عليها السلام أنها نطحت جبينها بمقدم المحمل في الكوفة و.. والنصّ الذي ذكره الطريحي كما يلي: فرأت رأس أخيها؛ فنطحت جبينها بمقدم المحمل حتى رأينا الدم يخرج من تحت قناعها، وأومت إليه بحرقة، وجعلت تقول:

يا هلالا لما استتمّ كمالاً ... غاله خسفه فأبدى غروباً[٤]

وقد نقل المحدّث القمي هذا الخبر في أحد مؤلّفاته من دون مراجعة السند[٥]، لكنه استدرك في موضع آخر بعد أن تناول الخبر بالدراسة وكتب قائلاً: «لا يوجد ذكر المحمل إلا في خبر مسلم الجصاص، وهذا الخبر وإن نقله العلامة المجلسي، لكن مستنده هو كتاب منتخب الطريحي وكتاب نور العين، ولا يخفى على أهل الخبرة والفنّ في علم الحديث، حال الكتابين المذكورين، ونستبعد القول بأنّ زينب نطحت جبينها بمقدم المحمل حتى سال الدم وإنشادها تلك الأبيات؛ فإنها أجلّ من ذلك وهي

---

(نداء عبر التاريخ): ١٩٩ ـ ٢١٤، مقالة: أسطورة عرس القاسم، طهران، دار الثقافة الإسلامية للنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م.

(١) المنتخب: ٤٥١.

(٢) راجع: مراجعة مجموعة من الأخبار المشهورة حول عاشوراء، مجلة علوم حديث، العدد ٢٦: ١٢٠ ـ ١٣٩.

(٣) المنتخب: ٤٦٣.

(٤) المصدر نفسه: ٤٧٨.

(٥) القمي، نفس المهموم: ٣٩٩ ـ ٤٠١.

عقيلة الهاشميين، عالمة غير معلّمة، رضيعة ثدي النبوة، وذات مقام شامخ في الرضا والتسليم»[(١)].

وأخيراً، لابد من التنويه إلى أنّ الطريحي النجفي قد اعتمد كذلك على روضة الشهداء للملا الكاشفي ونقل عنه في منتخبه[(٢)].

## ٥ . تظلّم الزهراء من إهراق دماء آل العباء، وأسطورة رجوع السبايا إلى كربلاء في الأربعين و..

الكتاب للملا رضا القزويني (١١٣٤هـ)، وقد عرف القزويني بكتابه هذا، ولم يُعثر على مؤلَّف له سواه، وقد وصفت كتب التراجم الملا رضا بالخطيب مقتصرين على ذكر كتابه هذا فحسب.

دوّن هذا الكتاب على غرار الملهوف أو اللهوف للسيد ابن طاووس، وقد يصحّ أن نطلق عليه شرح اللهوف؛ وبالإضافة إلى اللهوف نقل المؤلف عن بحار الأنوار ومنتخب الطريحي، كما يصرّح هو في خاتمة الكتاب: «هذا ما اتفق تخريجه من أخبار تُلائم شرح اللهوف، وقد كنت فيما مضى، جمعت منها نبذاً وألّفت على شاكلتها طرفاً، إلى أن وقع في يدي نسختا البحار ومنتخب المراثي، فالتقطت فرائدهما وجمعت فوائدهما»[(٣)].

وعلى الرغم من كثرة ما نقل عن البحار، حتى أنه عبّر عن كتابه في المقدّمة بأنه «بحيرة من بحار الأنوار»[(٤)]، إلا أنّ الدور الأبرز بعد اللهوف كان لمتبنّيات الطريحي، التي جاءت في منتخبه ومقتله ـ والمقتل غير المنتخب وهو من المخطوطات ـ[(٥)] وقد تحدّث الواعظ الخياباني عن هذا الكتاب بالتفصيل في كتاب وقائع الأيام[(٦)]، منوّهاً إلى أنّ ناسخي الكتب قد تصرّفوا في الكتاب وزادوا عليه، ولا

(١) منتهى الآمال ١: ٧٥٣ ـ ٧٥٤.

(٢) الواعظ الخياباني، وقائع الأيام في تتمّة محرم الحرام: ٢٥٣.

(٣) رضي القزويني، تظلّم الزهراء: ٥٤٧.

(٤) المصدر نفسه: ١٨.

(٥) الذريعة ٢٢: ٢٧.

(٦) وقائع الأيام في تتمّة محرم الحرام ٢: ١١٢ ـ ١٢١.

تخفى أهميّة هذا التقييم من الواعظ الخياباني، خصوصاً لمن عمل على تصحيح الكتاب كالسيد مهدي الرجائي المحترم. لكنّ ما يؤسف له حقاً أن ملاحظات الواعظ لم يؤخذ بها ولم نشاهد أثرها على الطبعات الجديدة للكتاب[١]، وقد وجّه الواعظ الخياباني نقداً لاذعاً لمؤلّف تظلّم الزهراء بسبب نقله أخباراً لا صحّة لها، كما استعرض جملة من الموضوعات التي أوردها، ثم كتب يقول: «وقد أورد عن لسان الحال صفحةً كاملة من الحجم الوزيري، ما يخالف الأخبار ولا يتفق مع لسان المقال. ولا نعلم ما هي الضرورة التي دعته لإيراد مثل هذه التفاصيل الخاوية مضموناً وسنداً؟ وإنه لخطأ كبير ومسامحة عظيمة وقع فيها صاحب تظلّم الزهراء، ومما يؤسف له حقاً أن يصدر مثل هذا الأمر عن مثل هذه الشخصية»[٢].

ولتسليط الضوء على إخفاقات كتاب تظلّم الزهراء، ننقل جملةً من الأخبار المزيّفة التي أوردها:

١ ـ قصّة صاحب ذخائر الأفهام (ص ٧٠ ـ ٧٤). ٢ ـ تأويل آية كهيعص (ص ١١٥). ٣ ـ تحريف رواية استشهاد عبد الله بن عمير واختلاق شهيد يحمل اسم وهب بن عبد الله بن حباب الكلبي! (ص ٢٢٨). ٤ ـ جملة «اسقوني شربةً من الماء». (ص ٢٥٠، ٢٥٩). ٥ ـ المجاملة بين الإمام الحسين وفرسه على الماء عند نزوله الفرات، والتي انتهت بعدم حصول أيّ منهما عليه (ص ٢٥٢). ٦ ـ قتل الإمام الحسين ـ على ما نقل ـ ما يزيد على عشرة آلاف فارس، ولا يبين النقص فيهم لكثرتهم (ص ٢٥٢)، والغريب أنّ المؤلف يستعين بمنتخب الطريحي لتأييد هذه المختلقات التي استعرضنا جملةً منها قبل قليل! ٧ ـ استعراض الواقعة بشكل مهين وإيراد فقرات رثائية تضجّ بالمبالغة والعنف (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٩). ٨ ـ رأينا دموع الخيل تنحدر على حوافرها.. (ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢). ٩ ـ خبر فضّة والأسد في كربلاء (ص ٢٧٣). ١٠ ـ رواية طرماح بن عدي (ص ٢٧٤). ١١ ـ قصّة فاطمة الصغرى (ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤). ١٢ ـ خبر مسلم الجصّاص (ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠). ١٣ ـ رواية رؤيا سكينة (ص ٣٣١ ـ ٣٣٤). ١٤ ـ رجوع أهل البيت من الشام إلى كربلاء (ص ٣٤٦).

---

(١) تظلّم الزهراء: ٧٠ ـ ٧٤، ٢٦٤ ـ ٢٦٩.

(٢) وقائع الأيام في تتمّة محرم الحرام: ١١٩.

### ٦ ـ أسرار الشهادة، قمّة التزييف والتحريف

هذا الكتاب هو الآخر لم يسلم من جملة النقاط التي أثرناها في مقدّمة الدراسة، سوى النقطة العاشرة والحادية عشر. وباختصار، فإنّ مواضع الضعف في هذا الكتاب بلغت حداً عجزنا عن إحصائها، فهو كما يقول المثل: «كثرة الأموات حالت دون تكفينهم».

مؤلّف الكتاب هو الفاضل الدربندي (١٢٨٦هـ) الذي اشتهر بولعه بإقامة المآتم، وإفراطه في إحياء مراسم ذكرى عاشوراء. ويظهر ذلك بأدنى تأمل في كتابه، كما يصرّح هو في المقدمة: «إنّ الدنيا وما خلق، لأجل إقامة عزاء الحسين عليه السلام فيها»[١]، ويكتب بصدد شرح هذه العبارة: «إن الله عز وجل خلق هذه الخيمة المرتفعة والسقف المحفوظ ـ أي السماوات المرفوعة والأرضين المدحوّة ـ دار الأحزان وبيت الأشجان لأجل [سيد] شباب الجنان، وبعبارة أخرى دار التعزية الحسينية قبل أن يولد وبعد أن يولد إلى يوم القيامة، ثم إنّ كل ما ترى من خلق الرحمن فقد خلقه أهلاً وأسباباً وأموراً متعلّقةً بإقامة العزاء في هذه الدار الحسينية المبنية من خيمة محفوظة وبسيطة مبسوطة، ولعمري أيها الموالون إنّ هذا المطلب الأنيق الدقيق كان من مركوزات قلبي ولكن جرأتي وجسارتي كانت قاصرة في إظهاره»![٢].

وتتجلّى ذهنية صاحب أسرار الشهادة من خلال هذه العبارة؛ فهو بكلّ بساطة يرى أنّه ما خلقت السماوات السبع والأرضين السبع وما فيهنّ وما بينهن إلا لإقامة العزاء الحسيني، وما الحياة الدنيا إلا «دار الأحزان وبيت الأشجان ودار التعزية ودار الحسينية»، ومن هذا المنطلق اندفع لتدوين كتابه أسرار الشهادة الذي وظفه للعزاء وألهمه الحزن والبكاء. وهذا هو حال الإنسان، فإنه إن عشق شيئاً غفل عما سواه، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من عشق شيئاً أعشى بصره وأمرض قلبه»[٣]. ويمكن لأيّ قارئ يمتلك شيئاً من المعرفة اكتشاف مستوى هذا الكتاب؛ وذلك لكثرة

---

(١) الفاضل الدربندي، أسرار الشهادة: ٥.

(٢) المصدر نفسه: ١١٥.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة: ١٠٩، تصحيح: صبحي الصالح.

ما يحتوي من أخبار متناقضة وكلام لا يقبله أيّ عقل سليم.

وللاقتراب أكثر من الصورة التي عليها الكتاب، نستعرض جملةً من آراء العلماء الذين كتبوا حوله، فقد كتب المحدّث النوري (١٢٥٤ ـ ١٣٢٠هـ) الذي كان معاصراً لمؤلّف كتاب أسرار الشهادة: «إن كان الهدف من وراء جمع هذا الزخم الكبير من الروايات الضعيفة وبثه في كتاب هو إبراز حجم التتبّع، وإعطاء صورة جديدة للسيرة، والتفوّق على المقاتل السابقة، فإنّ ذلك لن يحقق لنا سوى مسناة[١] جديدة تضاف لقائمة المختلقات التي ابتلي بها هذا المذهب. والنتيجة الواضحة لمثل هذه المؤلّفات توجيه الإهانة الكبرى للمذهب والطائفة الجعفرية وجعلهما عرضةً لسخرية المخالفين وإعطائهم ذريعةً للتشكيك في كافّة منقولات الإمامية، بعد قياسها على هذه المجموعة من الأخبار المهينة والقصص الكاذبة. وقد وصل الأمر إلى مستوى أدّى بالمخالفين لوصف الطائفة الشيعة بأنها بيت الكذب، ومن أنكر فليراجع كتاب أسرار الشهادة»[٢].

وفي موضع آخر يكشف المحدّث النوري بعض الخفايا عن كتاب أسرار الشهادة، فيقول: «لا زلت أذكر عندما كنت في كربلاء المقدسة أحضر درس العلامة الشيخ عبد الحسين الطهراني الذي لا يوازيه في العلم والفضيلة أحد، لا زلت أذكر أنه قدم من الحلة سيّدٌ عربي يمتهن الخطابة ـ وكان والده من مشاهير الطائفة ـ وقد ورث عنه بعض المؤلفات، فجاء بها إلى سماحة الشيخ لغرض استبيان مدى وثاقتها. وقد فقد جزءاً من أول الكتاب ويسيراً من آخره، لكن لم يغب اسم المؤلف بعد أن أدرج أسفل إحدى الصفحات أنّ مؤلف هذا الكتاب هو فلان من علماء جبل عامل ومن تلامذة المحقق صاحب المعالم. وقد تمّ التعرف على المؤلف؛ لأن اسمه ورد في التراجم، لكن ما لم تذكره التراجم هو تأليفه كتاب المقتل. وقد عُزز هذا الرأي بعد الاطلاع على جملة من فقرات هذه المجموعة التي احتوت كماً هائلاً من الأكاذيب والأخبار الواهية، التي لا يمكن ـ بأيّ حال من الأحوال ـ أن تكون قد جمعت على يد عالم، وبذلك نهى الشيخ عن نشرها. ولم تمرّ الأيام حتى علم المرحوم الفاضل

---

(١) المسناة أو المثناة: من كتب اليهود.

(٢) اللؤلؤ والمرجان: ١٨٥.

الدربندي بأمرها وكان مشغولاً حينها بتأليف كتابه «أسرار الشهادة»؛ فأخذها من السيد وملأ ثنايا كتابه برواياتها الضعيفة مما زاد في عدد الروايات الموضوعة التي احتوى عليها الكتاب، وبذلك جعل الطائفة الشيعية عرضةً لطعون المخالفين وسخريتهم، وقد وصل به الأمر إلى أن يقدّم إحصائيةً عن جيش الكوفة بلغت ستمائة ألف راكب ومليون راجل! وقد أتاح بذلك مساحةً واسعة للخطباء ليذكروا على المنابر ما يشاؤون من الإحصائيات من دون خوف أو وجل، وينسبوا كلّ ذلك وبكل ثقة للفاضل الدربندي!

والفاضل الدربندي من العلماء الأفاضل، معروفٌ بخلوصه وصفاء نفسه، لكنّ كتابه لا يمكن الاعتماد عليه، وقد واجه انتقادات الكثير من المحدّثين والأعلام، ولا ينقل عنه إلا الضعيف أو قليل الخبرة. والجدير بالذكر أن الفاضل نفسه قد أقرّ بضعف الروايات التي نقلها من تلك الأجزاء ـ التي كانت مع السيد العربي ـ وورود الكذب والوضع فيها، لكنّه التمس لنفسه العذر، إلا أن عذره ـ وكما يقال ـ [أقبح من الذنب]؛ لأنه شريك في إفشاء هذا النوع من الروايات. ومما يثير الدهشة أن المرحوم قد نقل لي شفهياً أنّ العالم الفلاني قد نقل روايةً مفادها أن يوم عاشوراء قد بلغ ٧٠ ساعة، وقد استغربت في حينه مما جاء على لسان العالم. لكن وبعد مدّة من التأمل حول واقعة عاشوراء بان لي صحّة ما نقله العالم وأيقنت بأن الحوادث الذي وقعت ما كان لها أن تقع إلا في وقت يقارب هذا (أي السبعون ساعة)! وكان ذلك مجمل ما نقل لي ولا أذكر النصّ بالضبط بسبب طول الفترة الزمنية التي تفصلني عن الحديث معه، وما ورد في كتاب «أسرار الشهادة» من آراء، يعزز ذلك ويعكس الانطباع الذي كان يحمله بوضوح»[(١)].

وفي تذييله لكتاب «إكسير العبادات في أسرار الشهادات»، وهو الاسم الآخر لكتاب «أسرار الشهادة»؛ يكتب المحدّث الشيعي الكبير الشيخ آغا بزرك الطهراني ما نصّه: «ويقال له: أسرار الشهادة، وترجم هو نفسه من مقام وحدة الحسين عليه السلام إلى آخر الكتاب بالفارسية. ويقال له: «سعادت ناصري»؛ لأنه ترجمه باسم

---

(١) المصدر نفسه: ١٦١ ـ ١٦٠.

السلطان ناصر الدين شاه. وهو أيضاً مطبوع كما يأتي. ومن شدّة خلوصه وصفاء نفسه نقل في هذا الكتاب أموراً لا توجد في الكتب المعتبرة، وإنما أخذها عن بعض المجاميع المجهولة اتكالاً على قاعدة التسامح في أدلّة السنن، مع أنه لا يصدق البلوغ عنه بمجرد الوجادة بخطّ مجهول»[(١)].

وبهذا الصدد أيضاً، يكتب آية الله السيد أحمد الحسيني الخوانساري المعروف بالصفائي ما نصّه: «وهذا الكتاب معروف مشهور بين الطائفة الحقّة وأهالي المنبر والمرثية، إلا أن فيه الغث والسمين بما لا يخفى على نقّاد فنّ الحديث»[(٢)]، والشهيد مطهري تناول ـ هو الآخر ـ كتاب «أسرار الشهادة» بالنقد واعتبره كتاباً موضوعاً لا سند له، ولا يمكن الوثوق بمضامينه. وقد تحدّث عنه بكلام طويل عقيب حديثه عن كتاب روضة الشهداء، ربما يكون من المناسب نقل بعض فقراته هنا: «ظهر المرحوم الملا الدربندي قبل ما يقارب الستين أو السبعين عاماً، وجمع كافّة موضوعات كتاب روضة الشهداء بالإضافة إلى أمور أخرى في كتاب أطلق عليه: أسرار الشهادة. وفي الحقيقة إن مضامين هذا الكتاب تدفع المرء ليبكي على واقع الإسلام»[(٣)].

واستعرض مطهري آراء المحدّث النوري في هذا الصدد، وقد ساق ضمن حديثه الرواية التي نقلناها قبل قليل عن المحدّث النوري، كما وجّه كثيراً من الطعون إلى كتاب أسرار الشهادة وفي أكثر من موضع، منوّهاً إلى ضعف كافّة الأخبار الواردة فيه، ولا يسع المجال لنقل سائر كلامه في هذه العجالة، لكن نرجع من شاء الاطلاع على المزيد من آراء الشهيد مطهري في هذا المضمار إلى كتاب الملحمة الحسينية المكوّن من ثلاثة مجلدات[(٤)].

ولم يكن النوري ومطهري الوحيدين اللذين انتقدا كتاب أسرار الشهادة، وإنما هذا هو حال سائر من تعرّض له من العلماء؛ فقد أبدى الكثير منهم دهشته من

---

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢: ٢٧٩.

(٢) السيد أحمد الصفائي الخونساري، كشف الأستار ٣: ٤٥٨، قم، مؤسّسة آل البيت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

(٣) مرتضى مطهّري، الملحمة الحسينية ١: ٥٥.

(٤) المصدر نفسه ١: ٢٩، ٤٤، و٣: ٢٦٢.

مضامينه وانتقدوا مؤلّفه بنحو أو بآخر[(١)].

### ٧ ـ الدمعة الساكبة ، والمصادر التحريفية

وهو من تأليفات محمد باقر البهبهاني (١٢٨٥هـ)، وهو موسوعة تاريخية تتكوّن من عدّة مجلدات، تتضمّن تاريخ أئمة أهل البيت عليهم السلام مع التوسّع في مقتل الإمام الحسين في مجلّدين.

يعدّ مؤلّف هذه الموسوعة من طلبة الفاضل الدربندي ومريديه، ويكثر النقل عنه بقوله: (قال الفاضل). ومن أهمّ المصادر التي اعتمدت عليها الموسوعة هي: منتخب الطريحي، وبحار الأنوار، والعوالم، وتظلّم الزهراء، ومسند البتول، وتذكار الحزين، والتفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام، وجامع الأخبار، ونور العين، ومهيج الأحزان، ومعدن البكاء أو المصائب، والمقتل المنسوب لأبي مخنف. وقد امتاز كتابا: المنتخب ومقتل الطريحي من بين هذه المجموعة بكثرة ما نقل عنهما.

نقل الواعظ الخياباني عن كتاب دار الإسلام للشيخ محمود العراقي رأيه في كتاب الدمعة الساكبة ومؤلّفه؛ إذ يقول: «وكان متعارفاً في تلك الفترة وفي ذلك البلد (النجف) أن يُمسك الواعظ بأحد كتب المقتل المكتوبة باللغة الفارسية كروضة الشهداء ومحرق القلوب وغيرها ويتلو من خلاله، فكان ـ مؤلّف الدمعة الساكبة ـ قارئاً للمصيبة، يمتاز بخلوص نيته مما يؤثر في الحضور أشدّ التأثير، لكنه لم يكن يجيد العربية؛ لعدم معرفته بها»[(٢)].

### ٨ ـ ناسخ التواريخ، وأكذوبة المجاملة بين الحسين وفرسه على الفرات و..

يعتبر مؤلّف ناسخ التواريخ أحد أشهر كتّاب السلطة في العصر القاجاري،

(١) لمزيد من الاطلاع راجع: محمد اسفنديارى، مصادر السيرة الحسينية: ١٠٧ ـ ١١٤ (فارسي)؛ ويبدو أنه تمّ الخلط في سيرة الواعظ الخياباني بينه وبين الملا ميرزا الشيرواني، فاعتُبرا شخصاً واحداً. راجع أيضاً: محمد التنكابني، قصص العلماء: ١٠٧؛ وله أيضاً: تذكرة العلماء: ١٤١ ـ ١٤٤.

(٢) وقائع الأيام في تتمّة محرم الحرام: ٢٥.

ويعدّ كتابه هذا من أوسع الكتب التي تمّ تصنيفها في مجال التاريخ، وقد خصّص للإمام الحسين وواقعة عاشوراء أربعة أجزاء ضمن مجلّدين، وقد أقرّ محمد تقي سبهر بضعف كتابه في أحد المواضع عندما قال: «وقد آليت على نفسي من اليوم الأول أن أتصرّف في كلّ خبر ورواية أعثر عليها، بحيث أستوعب في كتابي سائر الأحاديث والروايات مما يكون القارئ في غنى عن مراجعة باقي المصادر، وهذا الأمر جعلني لا أستثني أيّ خبر أو قصة وردت في أيّ كتاب من كتب المحدّثين والمؤرخين، فإذا ما عثرت عليها فسوف لن أتردّد في نقلها»[١].

ثم يذكر جملةً من مصادر السيرة الحسينية التي اعتمدها، وأبرز هذه المصادر: بحار الأنوار، وعوالم العلوم، والمقتل (الموضوع) المنسوب لأبي مخنف، وزبدة الفكرة للمنصوري، وروضة الشهادة للكاشفي.

ونكتشف ـ بالعودة إلى محتوى الكتاب ـ أنّ جلّ اعتماد المؤلّف وتركيزه، كان على بحار الأنوار، والعوالم، وروضة الشهداء، وروضة الأحباب، ومنتخب الطريحي[٢]، وهذا الأمر أدّى إلى سراية المختلقات والموضوعات التي احتوتها هذه المجموعة من المصادر إلى كتابه.

ومن جملة هذه الموضوعات:

١ ـ تأويل كهيعص (١: ٢٨٠).

٢ ـ وهب بن عبد الله بدلاً من عبد الله بن عمير الكلبي (٢: ٢٦٩).

٣ ـ هلال بن نافع وتحوّله من الأشقياء إلى الشهداء، تحت عنوان: شهادة هلال بن نافع! (٢: ٢٧٧).

٤ ـ استشهاد الطرماح بن عدي (٢: ٣١١). وقد غفل عن حقيقة أن الطرماح بن عدي لم يكن من شهداء كربلاء بتاتاً، وكلّ ما في الأمر أنه التقى بالإمام الحسين في الطريق وافترق عنه بعد ذلك، وقد سمع بشهادة الإمام الحسين قبل وصوله إلى كربلاء[٣].

---

(١) محمد تقي سبهر، ناسخ التواريخ في أحوال سيّد الشهداء ١: ٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه ٢: ٣٥٨، ٣٦٥ و...

(٣) راجع: محمد تقي التستري، قاموس الرجال ٥: ٥٥٩ ـ ٥٦٢.

٥ ـ المجاملة التي حصلت بين الإمام الحسين وفرسه عند نزوله الفرات..! (٢: ٣٧٩).

٦ ـ عبارة اسقوني شربة من الماء (٢: ٣٦٥).

٧ ـ الحديث الذي دار بين سيد الشهداء والشمر اللعين (٢: ٣٩٠).

٨ ـ رؤية الطرماح النبيّ صلى الله عليه وآله في الطف (٣: ١٥).

٩ ـ حديث مسلم الجصاص (٣: ٥٢).

١٠ ـ قصّة فاطمة الصغرى (٣: ٨٥).

١١ ـ وصول أهل البيت إلى كربلاء يوم الأربعين، وتبرير ذلك أنّ السبايا عندما سيقوا من الكوفة إلى الشام مرّوا بكربلاء وكان ذلك يوم الأربعين! (٣: ١٠٠، ١٧٥).

١٢ ـ خبر رؤيا سكينة (٣: ١٦٨). ١٣ ـ خبر الجمال (٤: ١٩).

ولا تنتهي سلسلة الموضوعات عند هذا الحدّ، وإنما يوجد الكثير من التحريفات التي يضجّ بها الكتاب، لكننا نكتفي هنا بهذا القدر.

## ٩ ـ معالي السبطين، وأسطورة الشهيد المختلق المسمّى وهب و..

هذا الكتاب من تأليف الشيخ مهدي الحائري المازندراني (المولود سنة ١٣٠٠هـ)، وهو الكتاب الثالث له بعد كتابي: الكوكب الدرّي، وشجرة طوبى، وقد أشار لهما في مقدّمة كتابه الحالي الذي حمل عنوان: معالي السبطين في أحوال الحسين والحسين عليهما السلام.

صدر كتابه هذا في مجلّد كبير ضمّ جزئين، خصّ ٣٩ صفحة من الجزء الأول للإمام الحسن المجتبى عليه السلام، ورتبه في ١٢ مجلساً، وفي ختام كلّ مجلس كلمة للإمام الحسن عليه السلام، يليها ذكر مصاب الإمام الحسين عليه السلام أو ما يسمى بـ(الكوريز).

وبإنتهاء الصفحة ٣٩، ينهي المؤلف حديثه عن السيرة الحسنية ويبدأ بالسيرة الحسينية وواقعة عاشوراء، وإيراد مجموعة من المآتم، بدأ بالصفحة ٤٠ ليستوعب ما تبقى من الجزء الأول ويشمل بعده الجزء الثاني بأجمعه.

وقد كان لمعالي السبطين نصيبٌ من المختلقات التي ضجّت بها الكتب السابقة، بل إنها نمت وتكاثرت في هذا الكتاب، ولم يقتصر المؤلّف على بث الموضوعات وإنما زاد عليها عشرات الروايات المختلقة الجديدة؛ مما كرّس طائفةً

من التحريفات لم تعهدها الكتب التي سبقت معالي السبطين. والغريب في الأمر أن المؤلّف وجد نفسه مستغنياً عن مصادر منقولاته، ولم يكن يرى أنه بحاجة لها، سوى بعض التنويهات اليسيرة، فقد نقل العديد من الصفحات مكتفياً بقوله: «في الخبر» أو «قالوا» أو «وفي بعض الكتب»، وفي الحالات التي أرجع فيها إلى المصادر لم تكن تلك المصادر مما يُعتمد عليه؛ فقد اعتمد ـ بشكل رئيس ـ على أسرار الشهادة للدربندي ومنتخب الطريحي وبحار الأنوار، وأما باقي مصادره فلم تكن أفضل حالاً من سابقاتها، وربما كانت أقلّ اعتباراً، كروضة الشهداء للكاشفي ونور العين ومعدن البكاء وتظلّم الزهراء وإيقاد القلوب الذي نقل بواسطته عن نور العين، ومنتخب التواريخ، وكامل التواريخ، وكشكول البحراني، وروضة الصفاء، ورياض الشهادة، ومدينة المعاجز، والعوالم، والمقتل المنسوب لأبي مخنف، وناسخ التواريخ، وأنوار الهداية، والتبر المذاب، ومهيج الأحزان، كما اعتمد في بعض الأحيان على كلّ من المناقب، والإرشاد، والأمالي، وعدة الشهور، والكبريت الأحمر، والخصائص الحسينية، ونفس المهموم، وسفينة البحار.

وبهذا الصدد قد يكون من المناسب هنا أن ننقل كلاماً للشهيد القاضي الطباطبائي حول معالي السبطين يقول فيه: «ولا يمكن ـ بأيّ حال من الأحوال ـ الوثوق بمنقولات معالي السبطين، إلا في حال ذكر فيها المصادر التي نقل عنها. ولا يمكن تصنيفه ضمن المصادر المعتبرة ومن ثمّ لا يمكن النقل عنه. وقد كان لي صلة بمؤلّفه المرحوم الحاج الشيخ مهدي المازندراني ﷺ وكنّا نتواصل فيما بيننا، وقد جمع في كتابه الغث والسمين مما يحتم على القارئ الوقوف عنده والفصل بين صحيحه وسقيمه»[(١)].

ولإعطاء صورة أكثر وضوحاً عن كتاب «معالي السبطين» وما يشتمل عليه من الأخبار الموضوعة والأحاديث الضعيفة، نسوق جملةً منها فيما يلي:

١ ـ خروج الإمام الحسين من المدينة في موكب عظيم على هيئة الملوك تحفّ به الخدم والحشم. وقد نقل هذا الخبر بقوله: «أقول: وقد وجدت في بعض الكتب» (١: ١٣٤). ٢ ـ تفرّق أصحاب الحسين ليلة عاشوراء، نقلاً عن كتاب نور العين الذي ينقل

---

(١) دراسة الأربعين الأولى لسيّد الشهداء: ٣٨٢.

بدوره عن إيقاد القلوب (١: ٢٠٨ ـ ٢٠٩). ٣ ـ الشهيد المختلق المسمى وهب بن عبد الله بن حباب الكلبي (١: ٢٣٧). ٤ ـ أسطورة لجوء الحسين إلى أبي الفضل يوم عاشوراء، نقلاً عن منتخب التواريخ الذي يسند الخبر إلى رؤيا الشيخ كاظم الأزري (١: ٢٦٩). ٥ ـ أسطورة عرس القاسم (١: ٢٧٩). ٦ ـ جملة: «اسقوني شربةً من الماء»، نقلاً عن منتخب الطريحي (٢: ٧). ٧ ـ نسبة الجهل إلى الإمام السجاد في خبر موضوع مفاده: أن الإمام جعل يسأل عن كلّ واحد من عمومته والحسين عليه السلام يقول له: قتل، فقال: وأين أخي علي وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وزهير بن القين؟ قال له: يا بُني! إعلم أنه ليس في الخيام رجل إلا أنا وأنت، وأما هؤلاء الذين تسأل عنهم فكلّهم صرعى على الثرى (٢: ١١ ـ ١٢)، وقد نقل هذا الخبر عن الدمعة الساكبة.

## القسم الثاني: الكتب المتصدّية للتحريف، جهود جبّارة في الإصلاح الديني

قد يبدو ـ للوهلة الأولى ـ أنّ وصف هذا النوع من الكتب بالمتصدّية للتحريف ينطوي على شيء من المبالغة، لكنّ مطالعتنا لهذه الكتب ـ والتي سنتحدث عنها لاحقاً ـ تبدّد هذه الرؤية؛ إذ سنجد أن مؤلّفيها قد جاهدوا جهاداً عظيماً؛ بغية التصدّي لهذا الكمّ الهائل من الأكاذيب المقدّسة.

ولا نبالغ إذا وصفنا الوقوف بوجه طبقة الجهال المحفوفين بهالة القداسة والمبتلين بالجهل المركب بأنه نوع من الجهاد مع النفس أو ما يعبّر عنه بالجهاد الأكبر، وهو نوع من السباحة عكس التيار الهائج المليء بالأمواج العاتية. وقليلٌ من العلماء من حاول اقتحام هذا التيار والتصدّي له، فالكتب في هذا المجال نادرة جداً بحيث يكون من الصعب العثور على ثلاثة أو أربعة كتب دوّنت لغرض مناهضة التحريف، في حين نجد من الكتب المليئة بالتزييف ـ من المجموعة التي تقدّمت ـ المئات، بناءً على ذلك؛ يمكن اعتبار هذه الطائفة من الكتب المتصدّية للتحريف، سفنَ النجاة الوحيدة التي بين أيدينا، فلابدّ من الاهتمام بها ونشرها مرّات عديدة، ومن الضروري جداً العمل على مشاريع علمية إصلاحية وعدم الاكتفاء بهذه المجموعة

النادرة؛ لأنّ حجم الدمار الذي خلّفته الكتب المكرّسة للتحريف لا يزال هائلاً، ويتطلّب عملاً دؤوباً، آملين أن نشهد في المستقبل القريب ظهور العديد من المشاريع العلمية والبحثية المناهضة للتحريف والتزييف الذي تعرّضت له السيرة الحسينية وواقعة عاشوراء بالتحديد.

وفي هذا السياق، نستعرض كتب المجموعة النادرة المتصدّية للتحريف بحسب تاريخ تدوينها:

## ١ . اللؤلؤ والمرجان، تجربة المحدّث النوري الإصلاحية

عنوانه الكامل: «اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر»، وهو خاتمة مؤلّفات حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (١٢٥٤ ـ ١٣٢٠هـ)، الذي دوّنه سنة ١٣١٩هـ[١]، وقد لقّب المؤلف بخاتم المحدّثين؛ نظراً لتأليفه آخر موسوعة روائية شيعية، أي مستدرك وسائل الشيعة، ويُعرف في أغلب الأحيان بالميرزا النوري أو الحاج النوري، وفي عصرنا الحاضر بالمحدّث النوري.

لم تمنع الميرزا النوري كثرةُ أشغاله في العلوم المختلفة كعلم الحديث والرجال والتصانيف و.. عن إعداد جيل من أبرز الطلبة الذين تحوّلوا فيما بعد إلى علماء تركوا بصماتهم على المدرسة الشيعية، من بينهم المحدّث الشيخ عباس القمي صاحب مفاتيح الجنان، والآغا بزرك الطهراني صاحب الذريعة وطبقات الشيعة؛ فقد بقي هذان العالمان برفقته إلى آخر عمره، ولم يغفل القمّي عن ذكر أستاذه في كلّ تصنيف أو تأليف، وهذا هو حال الآغا بزرك الطهراني الذي لم يفتأ يُثني عليه في كلّ مناسبة ومقام. وكانا يكنّان له فائق الاحترام ويفتخران بالتلمّذ على يديه، وهو ما

---

(١) أعيدت طباعة اللؤلؤ والمرجان أكثر من عشر مرات في كلّ من إيران والهند، وترجم للأوردية على يد سعيد حيدر زيدي عام ١٤١٨هـ، ونشر تحت عنوان: آداب أهل منبر، في ٣٥٠ صفحة. راجع في هذا الشأن: السيد علي شرف الدين الموسوي، معجم كتب ومؤلّفي حياة وثورة الإمام الحسين: ٤٦؛ كما ترجم اللؤلؤ والمرجان للغة العربية بواسطة إبراهيم بدوي، تحت عنوان: اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر لحسين بن محمد تقي النوري الطبرسي، الطبعة الأولى، دار البلاغة، بيروت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، في ٢٩٣ صفحة.

بدى بوضوح في سائر تصانيفهما، ويكفي المحدث النوري توفيقاً تربيته لمثل هؤلاء الطلاب، الذين أشرنا لأنموذجين منهما قبل قليل.

وقد أجمع القاصي والداني والعدوّ والصديق على وثاقته وصدقه وخلوص نيته، وكان له ـ إضافةً لما يوليه من اهتمام خاص بالإمام الحسين عليه السلام ـ مجلسٌ يعقده في داره كلّ أسبوع، يحضره طائفة من العلماء والكتّاب والوعاظ وغيرهم، يتناولون فيه جملة من القضايا الإسلامية وبالتحديد السيرة الحسينية، ثم ينهون الحديث بالتطرّق لمصيبة الإمام والبكاء عليه، وقد ساهم المحدّث النوري مساهمةً فعّالة في إحياء مراسم المشي على الأقدام التي كانت تنطلق من النجف باتجاه كربلاء، والتي لفّها النسيان في تلك الفترة، وقد كانت وفاته وهو في طريقه إلى كربلاء.

وبالطبع ليس الهدف هنا تناول سيرة المحدّث النوري؛ فذلك يبحث في محلّه[1]، إنما المراد التنويه إلى أنّه وبعد أكثر من نصف قرن قضاه بالدراسة والبحث والتنقيب توصّل إلى أنّ البكاء يجب أن لا يكون على مصائب عاشوراء وإنما على التحريفات التي ابتليت بها السيرة الحسينية والتي حملت في طيّاتها الكثير من الإهانة والذلّة والخضوع، وراح جهّال الشيعة يلوكونها بألسنتهم وكأنها من ثوابت السيرة؛ مما يحتّم علينا التصدي لها قبل فوات الأوان، فإنّ هذه التحريفات سريعة النموّ وكلّ يوم يمرّ، يختلق المحرفون تحريفاً جديداً يضاف لقائمة الأساطير التي ابتليت بها السيرة.

وللأسف، فإنّ المرض الذي نبّه عليه المحدّث النوري قبل أكثر من قرن لم يلتفت له إلا القليل من الباحثين، وأقلّ منهم من ساعد على العلاج وعمل في سبيل التخلّص منه.

وهكذا، فبعد عمر مديد من الغوص في بحار الكتب والرجال، استطاع النوري إخراج هذا الدر الثمين الذي زيّنه بالصدق والإخلاص، وأطلق عليه اسم اللؤلؤ والمرجان.

---

(١) راجع: صحّتي سردرودي، المحدّث النوري خبر من نور، الطبعة الأولى، طهران، مؤسّسة التبليغ الإسلامي، ١٣٧٢ش/١٩٩٣م.

يعقد كاتب اللؤلؤ والمرجان أوّل فصلين من الكتاب للحديث عن عنصرين أساسيين يعدّهما بمثابة الشروط التي يجب توفرها في كل باحث حول عاشوراء، هما: الإخلاص، والصدق. وقد أفرد فصلاً كاملاً للحديث عن كلّ من هذين العنصرين.

ولنبدأ بالمقدمة، فقد تحدّث فيها عن ثواب البكاء والإبكاء في المآتم التي تعقد على سيّد الشهداء، كما تطرّق فيها لتاريخ التعزية، وما المراد منها، وقد امتاز تعريفه للتعزية بأنه غدا فيما بعد تعريفاً مشوباً بشيء من الهزل[1].

يلي المقدمة، الفصل الأول ـ فصل الإخلاص ـ الذي تحدّث فيه عن آثار الرياء السلبية، مستعيناً بمجموعة من الآيات والروايات لبيان المخاطر التي تنشأ بسبب الرياء في المآتم والمجالس الحسينية، وقد عدّ الأمور التالية من جملة تلك المخاطر: ١ ـ الحرمان من الثواب الإلهي. ٢ ـ الابتلاء بالنفاق. ٣ ـ الوقوع في الشرك الخفي، الذي يشمل كلاً من حبّ الذات (النرجسية) وحبّ الظهور والصنمية. ٤ ـ بيع الدين بالدنيا. ٥ ـ الابتلاء بالازدواجية على مستوى السلوك والمنطق.

إلى جانب ذلك، تطرّق النوري إلى مظاهر سلبية أخرى كالارتزاق بالدين، والإجبار على إعداد الخطباء وحرمة الكسب في العبادات، وتصدّى بشدّة لكل الخطباء المرائين والمتظاهرين بالدين، وفي ختام الفصل وتحت عنوان «تنبيهات»، يطرح النوري تساؤلاً يلخّص فيه ما دار في ثنايا الفصل، وهو: هل يجوز الرياء في العزاء على سيّد الشهداء؟! ثمّ يجيب عن ذلك من خلال التصدّي لما اشتهر من استحباب التباكي، الذي استخدمه بعضهم غطاءً لإباحة الرياء، ذاكراً بعض الآيات والروايات؛ ليعطي من خلالها البُعد الصحيح لمفهوم التباكي ويزيل كافة التفاسير السلبية لهذا المفهوم (٣٤ ـ ٣٩). أما التنبيه الثاني، فيشير فيه إلى حرمة الكذب في المجالس الحسينية، والثالث لمهمّة الخطباء المعاصرين في الثناء على شعراء المنبر والخطباء ممّن سلف، أمثال كميت الأسدي ودعبل الخزاعي.

وبهذه التنبيهات يختتم الفصل الأول، ويعقد الفصل الثاني الذي يضمّ ثلاثة أرباع محتويات الكتاب؛ للحديث عن الشرط الثاني، أي الصدق. وقد قسّمه إلى خمسة مقامات ومجموعة تنبيهات وخاتمة.

يسوق النوري في المقام الأول مجموعةً من الآيات والروايات؛ ليؤكّد من

---

(١) انظر: اللؤلؤ والمرجان: ٩، يقول: علم يبحث فيه عن عوارض أجساد الشهداء وما يتعلّق بها.

خلالها على مدى الأهمية التي يوليها الدّين للصدق، مشدّداً على الالتزام به، خصوصاً للخطباء والشعراء الحسينيين.

أما المقام الثاني، فيتمحور حول ذمّ الكذب وجملة ما يترتب عليه من المفاسد الدنيوية والأخروية، ولبيان ذلك يورد المصنّف عشرة أدلّة يثبت من خلالها كون الكذب أشدّ حرمةً من تعاطي الخمر، ثم يذكر أربعين مفسدةً من مفاسد الكذب متكئاً على عشرات الأدلّة القرآنية والروائية.

وفي المقام الثالث، يتحدّث عن الكذب أيضاً لكن هذه المرّة على الله ورسوله والأئمة الأطهار، ويعدّه أكبر الكبائر والذنب الأعظم، ثمّ يتمحور المقام الرابع حول أقسام الكذب وأنواعه والحكم الشرعي والوضعي لكلّ من هذه الأنواع، وقد ضمّ إليها بحوثاً جانبية أخرى كالكذب الحلال والتورية ولسان الحال، وما إلى ذلك. والمحصّلة أن اختلاق الأحاديث والروايات يعدّ من الكذب المحرّم الذي لا يمكن تجويزه بأيّ حال من الأحوال.

أما المقام الخامس، فتطرّق فيه لمراتب الصدق والصادقين، واعتبر أن صدق الحديث من أدنى هذه المراتب، ذاكراً في النهاية جملةً من التنبيهات:

١ ـ ضرورة الفحص الدقيق عند النقل عن الثقة.

٢ ـ وثاقة المؤلّف لا تشكّل معياراً لوثاقة الكتاب.

٣ ـ تشبيه بعض الأكاذيب التي يلقيها الخطباء بمسناة اليهود.

٤ ـ أسباب الكذب والتحريف في واقعة عاشوراء.

ويختتم المحدّث النوري كتابه بالإجابة عن سؤال يطرحه بعضهم وهو: ما موقفنا تجاه ما يطرحه الخطباء من الكذب في المجالس الحسينية؟ ثمّ يجيب ببعض الآيات والروايات التي توصي باجتنابهم والابتعاد عنهم، مثل: ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾ (الحج: ٣٠)، و ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾ (النساء: ٨٦)، وقد كشف المحدث النوري الستار عن جملة من الأخبار الموضوعة والروايات المختلقة التي كثيراً ما راجت قراءتها في مجالس العزاء، ومنها:

## نماذج خطيرة من الروايات المختلقة التي فضحها المحدّث النوري

١ ـ قصّة ليلى أمّ علي الأكبر، التي نسبوا زوراً للإمام الحسين أنه قال لها ـ

عن لسان رسول الله ـ «إن دعاء الأمّ في حق ولدها مستجاب»، حيث رأى المحدّث النوري أنّ القصة من أولها إلى آخرها كذب (ص٩٠). وهل من العجيب العثور على والدة لا تدعو لولدها؟!

٢ ـ الخبر الموضوع الذي يصف الحسين عليه السلام مخاطباً لأخته زينب ـ وهو ملقى على الرمضاء ـ فرمقها بطرفه فقال لها: «أخيّة ارجعي إلى الخيمة فقد كسرت قلبي وزدت كربي..» (ص٩٠).

٣ ـ جعل الحسين عليه السلام يقاتلهم حتى قتل ما يزيد على عشرة آلاف فارس (ص٩٠).

٤ ـ التذييل المزيّف الذي ألحق ـ زوراً ـ بزيارة وارث، ولا يخفى أنها من الزيارات المأثورة والمعتبرة، لكن بدءاً من «السلام على أبيضكم وأسودكم..» إلى النهاية، يُعتبر من موضوعات العامّة التي لا تشكل بدعةً وكذباً على المعصوم فحسب وإنما تتضمّن أكاذيب واضحة ملموسة (ص٩٧ ـ ٩٨).

٥ ـ كتاب «مفتاح الجنان» الذي جمعه بعض العامّة (ص٩٨).

٦ ـ كما ذكر من السبب الذي توخّوه لبعد قبر الحرّ بن يزيد الرياحي عن قبر الحسين، ذلك كلّه يدخل ضمن دائرة الموضوعات والتحريفات (ص٩٩ ـ ١٠٠).

٧ ـ حدّدوا مكاناً في المسجد، وقالوا بأن المختار دفن فيه، ونقلوا عن العلماء تأييدهم له، وهذا كلّه كذبٌ وافتراء (ص١٠٠).

٨ ـ مجموعة خرافات ألبسوها ثوب الدين، بل هي من جملة البدع التي ابتدعوها لاحقاً كغسل أويس القرني، وحساء (شوربة) أبو الدرداء.. (ص١٠١).

٩ ـ لم يثبت ـ لحدّ الآن ـ حُسن حال هاني بن عروة ولم يتأكّد العلماء من وثاقته (ص١٠٢).

١٠ ـ وصول السبايا يوم الأربعين إلى كربلاء عند عودتهم إلى الشام ومرورهم بالعراق على نحو ما ذكره السيّد ابن طاووس في اللهوف؛ إذ هو منافٍ لكثير من الأمور والأخبار، ومخالف لأقوال جلّ العلماء الأخيار (ص١٤٥)، وقد تحدّث النوري عن هذا الموضوع بالتفصيل ونفاه نفياً قاطعاً متكئاً على جملة من الأدلّة والقرائن التاريخية (ص١٤٣ ـ ١٥٥)، من جملتها أنّ الناقل لهذه القصّة مجهول الحال.

ويعدّ كتاب اللهوف من أوائل مصنّفات السيد ابن طاووس التي دوّنها في

مقتبل العمر (ص١٤٤)؛ فلم يخلُ من نقاط ضعف كالتي مرّت بنا قبل قليل، لكنه التفت فيما بعد إلى مساوئ النقل عن المجاهيل؛ فنوّه في كتابه اللاحق إقبال الأعمال[1] عند ذكره فضل زيارة الحسين‌عليه السلام يوم العشرين من صفر قائلاً: «ووجدت في المصباح أنّ حرم الحسين‌عليه السلام وصلوا المدينة مع مولانا علي بن الحسين‌عليه السلام يوم العشرين من صفر وفي غير المصباح أنهم وصلوا كربلاء أيضاً في عودهم من الشام يوم العشرين من صفر، وكلاهما مستبعد..» (ص١٤٥).

١١ ـ لم يكن عطية الكوفي يوماً من الأيام مولىً لجابر بن عبد الله الأنصاري، وإنما هو محدّث وتابعي (ص١٥٥)، ويضيف المحدث النوري: «إنّ جزم الخطباء بوقوع هذه الحادثة ـ وجود جابر بن عبد الله ومولاه عطية الكوفي يوم الأربعين في كربلاء ـ ينبأ عن جهل كبير وجرأة بالغة، وليتهم اكتفوا بما ورد في اللهوف ومقتل أبي مخنف ولم يبذروا هذه البذرة التي نمت وتفرّعت وأثمرت أنواعاً مختلفة من الكذب، مما دعاهم للكذب على حجة الله البالغة، الإمام السجاد‌عليه السلام في قصّة لقائه بجابر بن عبد الله الأنصاري، بعد أن جعلوا من عطية الكوفي المحدّث والتابعي الكبير غلاماً مملوكاً لجابر بن عبد الله» (ص١٥٥).

١٢ ـ قصّة هاشم المرقال ـ شهيد صفين ـ التي نقلها الملا مهدي النراقي في كتابه محرق القلوب، «الذي اشتمل على أخبار موضوعة كثيرة يقف الباحث متحيّراً من صدورها عن مثل هذا العالم» (ص١٥٦ ـ ١٥٧)، «ولا شك لدينا بكذب ما ورد في محرق القلوب وقبله في روضة الكاشفي» (ص١٥٧).

١٣ ـ الفضل بن علي، الشقيق المختلق للإمام الحسين والذي أضيف ـ زوراً ـ لقائمة شهداء كربلاء (ص١٥٧).

١٤ ـ الخطأ في تفسير لفظ المولى «بالغلام» في عبارة: وجاء عابس بن شبيب الشاكري ومعه شوذب مولى شاكر(ص١٥٨).

١٥ ـ نقد الفاضل الدربندي والتصدّي لكتابه أسرار الشهادة «الذي يعدّ ـ بحسب المحدّثين وأصحاب السِّيَر ـ من الكتب الموضوعة التي لا يمكن الوثوق

---

(١) ابن طاووس، إقبال الأعمال ٣: ١٠٠ ـ ١٠١.

بمضامينها، والنقل عنه يسيء لحال الناقل»(ص١٦١).

١٦ ـ القصّة التي تروي خروج الإمام الحسين من المدينة في موكب عظيم على هيئة الملوك يحفّ به الخدم والحشم «وكل سطر من أسطر هذه الرواية يضمّ أكاذيب متعدّدة» (ص١٦٨).

١٧ ـ الخبر الحاكي أنّ الأنصار قطعوا عهداً على أنفسهم عندما وقف حبيب بن مظاهر الأسدي ليلة عاشوراء وهم حوله كالحلقة، قائلاً لهم ومؤكّداً عليهم: فإذا صار الصباح فأول من يبرز إلى القتال أنتم، نحن نقدمهم للقتال ولا نرى هاشمياً مضرّجاً بدمه وفينا عرق يضرب.. «وهذه من القصص التي برع صاحبها في تدوين الأساطير»(ص١٧٠).

١٨ ـ نسبة الجهل إلى الإمام السجاد في خبر موضوع مفاده: أنّه جعل يسأل عن كلّ واحد من عمومته والحسينعليه السلام يقول له: قتل، فقال: وأين أخي علي وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وزهير بن القين؟ قال له: يا بُني! اعلم أنه ليس في الخيام رجل إلا أنا وأنت، وأما هؤلاء الذين تسأل عنهم فكلّهم صرعى على الثرى! (ص١٧٠).

١٩ ـ الخبر العجيب الذي يفيد أن الحسينعليه السلام عندما بقي وحيداً وعزم على الخروج إلى الميدان ولم يكن قد بقي أحدٌ من أهل بيته يعينه على ركوب الفرس، ممّا دعا زينب لتقوم بهذه المهمة، أي تعينه على امتطاء جواده! «وكلّما ازدادت المنابر تشعّبت القصّة وتطوّر الحديث الذي دار بين زينب وأخيها، ثم تحول فحوى هذا الحديث إلى أبيات من الشعر ـ باللغتين العربية والفارسية ـ تزيّن المنابر وتركّز المصيبة لدى نفوس الحاضرين. والواقع إنّ هذه الرواية تدعو للبكاء لكن لا على المصيبة المزيّفة التي تضمّنتها وإنما على الكذب والافتراء الصريح على الإمامعليه السلام، كما تدعو للبكاء على حال ذوي الشأن وعدم تصدّيهم لمثل هذه الأساطير، وذلك إما لجهلهم أو عدم اهتمامهم أو لضعفهم عن مواجهة الراوي الكاذب الذي تجرّأ على الله الجبار. والذي أورد خبراً لم نجد له أثراً في المقاتل المعتمدة..» (ص١٧٠).

٢٠ ـ فرس الحسين وقد وصفوه بأنّه من جياد خيل رسول اللهصلى الله عليه وآله و«لقب بالمرتجز وعرف على ألسنة العوام بذي الجناح» (ص١٧٠).

٢١ ـ ومن جملة الأكاذيب تلك العبارة الحزينة التي نسبت إلى زينب عند وقوفها على جسد أخيها قائلةً له: «أأنت أخي؟! أأنت رجاءنا؟! أأنت..» (ص١٧١).

٢٢ ـ الخبر الأليم الذي ينقل عن الإمام السجاد عليه السلام أنه سقط مغشياً عليه في يومٍ واحد مرّتين، وذلك من كثرة البكاء «ولو كان هذا الخبر صحيحاً لكان ملائماً لمجالس العزاء إلى حدّ كبير» (ص١٧٢).

٢٣ ـ الرواية الموضوعة التي نقلوها عن لسان هشام بن الحكم ليجرّوا الإمام الصادق عليه السلام إلى التكايا والحسينيات ويحطّوا من شأنه ويضعوه على عتبات الأبواب عند «مستودع الأحذية»، ويصوّرونه خرقةً بالية ملقاة على الأرض(ص١٧٢).

٢٤ ـ قصّة زعفر الجنّي وأسطورة عرس القاسم (ص١٨٣، ١٨٤).

٢٥ ـ المبالغة الكبيرة في عدد جيش يزيد (ص١٨٤، ١٨٥).

٢٦ ـ الأبيات التي نعى بها أبو الحسن التهامي ـ الشاعر الذي عاش بين القرن الرابع والخامس ـ ابنه الذي توفى في مقتبل العمر، وهي قوله:

يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذا تكون كواكب الأسحار

«وهم على المنابر ينسبونها للإمام الحسين عليه السلام مباشرةً ـ لا بلسان حاله ـ وذلك عندما وقف على جسد ابنه عليّ الأكبر بعد مقتله، وقد شاهدتُ ذلك مراراً في المؤلّفات التي صدرت مؤخراً» (ص١٩١).

٢٧ ـ قصّة مشاركة أبي الفضل العباس في صفين؛ فهي غير صحيحة من الأساس(ص١٩١).

٢٨ ـ وأخيراً قصّة جلب العباس الماء للحسين عندما كان صغيراً(ص١٩١).

وقد نقل المحدث النوري في ثنايا كتابه مجموعةً من القصص المفيدة، امتاز بعضها بشيء من الفكاهة، لكن لا يسع المقام ذكرها، وقد ذكر الشهيد مطهري بعضها في محاضراته التي نشرت لاحقاً في كتابه: الملحمة الحسينية.

## جهود مميّزة في تحقيق كتاب اللؤلؤ والمرجان

وقد حظي كتاب اللؤلؤ والمرجان بالدراسة والتحقيق من قبل مصطفى درايتي الذي بذل مجهوداً كبيراً في إيراد كل ما هو مفيد من تعليقات وحواشي لو طبعت

بشكل مستقلّ لكوّنت كتاباً بحدّ ذاته، وقد أطلق على الكتاب الذي حمل تعليقته اسم: «اللؤلؤ والمرجان: إطلالة على ما وقع من تحريف في تراث عاشوراء»، وكتب مقدّمةً تحدّث فيها بشكل مفصّل عن مقامي الأئمة: الثبوتي والإثباتي، وأوضح الفرق بينهما. ثم شرع بدراسة فقرات الكتاب والتعليق عليها.

ولإبراز شيء من جهده، نورد بعض الفقرات التي عمل عليها:

١ ـ قصّة اللصّ الذي عتق من النار وأصبح من أصحاب الجنة بسبب التراب الذي وطأته أقدام زائري كربلاء (ص٧٩ ـ ٨٠).

٢ ـ القصّة التي تروى عن زينب أنّها قالت لأخيها: مهلاً مهلاً، لتقبّله في نحره عند آخر وداع بينهما(ص١٥٤).

٣ ـ قصّة بنت الإمام الحسينعليه السلام التي تذكّرت ـ عند فراق أبيها ـ عطفه على بنت مسلم بن عقيل عندما أصبحت يتيمة(ص١٥٥).

٤ ـ حول لسان الحال (ص١٩٩ـ ٢٠٠).

٥ ـ «إنّ رواية فاطمة الصغرى في المدينة، لا يمكن التسليم بصحّتها وتفتقد للمصدر الموثوق» (ص١٩٩).

٦ ـ حول جدوى نقل الحوادث المشكوك بصحّتها، مع استعراض رأي العلامة الشعراني في هذا الخصوص، والذي ينطوي على قيمة علمية جمّة (ص٢١٢ ـ ٢١٤).

٧ ـ دراسة تتناول كتاب محرق القلوب، المقتبس من روضة الشهداء للكاشفي (ص٢٢ ـ ٤٤).

٨ ـ أسطورة شدّ وثاق قدم الإمام السجاد أسفل بطن الدابّة كيلا يسقط، والتي نقلها الفاضل الدربندي في أسرار الشهادة، وواضحٌ للجميع حال هذا الكتاب (ص٢٦٥).

٩ ـ دراسة نقدية لكتاب الملحمة الحسينية إلى جانب دعم موقف كتاب اللؤلؤ والمرجان(ص٢٦٦).

١٠ ـ حول ظاهرة اعتماد الخطباء وروّاد المنبر على الرؤى والأحلام بدلاً من التاريخ والروايات (ص٢٧٢).

١١ ـ دراسة حول الحسين بن حمدان الجنبلاني الذي يصفه العلامة الحلّي بقوله: «كان فاسد المذهب، كذاباً، صاحب مقالة، ملعون لا يلتفت إليه» (ص٢٨٣، نقلاً

عن خلاصة الرجال: ٢١٧)، ووصفه في موضع آخر: «وهذا الرجل مطعون فيه عند أصحابنا جداً، ووصفوه بالكذب وفساد المذهب» (ص٢٨٣، نقلاً عن رياض العلماء ٢: ٥١). ومع هذه الأوصاف كلّها «إلا أنّ بعض القصص المروية والحوادث المنقولة عن عاشوراء والتي راج اليوم تداولها على المنابر نقلت بطريق هذا الرجل، ولم يمتنع الخطباء من ذكرها» (ص٢٨٥).

١٢ ـ ما هو الموقف تجاه هذا الكمّ الهائل من التحريفات؟ (ص٢٩٤ ـ ٢٩٦).

١٣ ـ تنبيهات مهمة «بهدف الارتقاء بمستوى المنبر ومجالس التعزية» (ص٢٠٤ ـ ٣٠٧).

١٤ ـ دور الجمهور ـ أولاً ـ في الترويج للتحريفات، وفي تشجيع الخطباء الذين يكثرون من تناقلها ثانياً.

وفي خاتمة المقدّمة التي ضمّنها الكتاب، يثني السيّد درايتي على المحدّث النوري وكتابه اللؤلؤ والمرجان، قائلاً: «إذا شهدنا في المستقبل أعمالاً على غرار اللؤلؤ والمرجان فسوف نستعيد أملنا في قطع دابر الأكاذيب، أمّا إذا استمرّ الوضع على هذه الحال وكان العلماء يعارضونه في السرّ ولا ينهون عنه في العلن، فستشهد السنوات المقبلة تنامياً في القصص المختلقة مما يزيد في تصدّع المذهب، وإحراج موقفنا تجاه أهل البيت»[١].

لقد حظي كتاب اللؤلؤ والمرجان في أوّل صدوره بإطراء العديد من العلماء والباحثين؛ ففي وقائع الأيام في تاريخ الأعلام، يكتب الواعظ الخياباني (١٢٨٢ ـ ١٣٦٧) يقول: «فإنك إن اطّلعت على كتاب اللؤلؤ والمرجان، تأليف العلامة النوري ـ قدس الله نفسه وشكر مساعيه الجميلة ـ فلا تستغرب تصدّيه للخطباء ولا تبتئس من ذلك، فإنّي ـ الأحقر ـ قد قرأته من البداية إلى النهاية وتمعّنت في محتوياته فلم أجده يتعرّض للخطباء الموضوعيين والصادقين .. لقد كان سماحته وحيد دهره وفريد عصره ومجلسيّ زمانه، بذل قصارى جهده في ترويج الشرع المبين وتهذيب معالم شريعة سيّد المرسلين، والتأليف والتصنيف والبحث في آثار العلماء الماضين،

(١) نافذة على تزييف موروث عاشوراء (اللؤلؤ والمرجان): ٣٠، الطبعة الأولى، دار الأستاذ أحمد مطهري للنشر، قم، ١٣٧٠ش/١٩٩١م.

وتحصيل كتب ورسائل المتقدّمين والمتأخرين.. إنّ طول باعه وكثرة اطّلاعه ومزيد بصيرته وخبرته في سائر المطالب، أظهر من الشمس وأبين من الأمس. وتشهد مؤلّفاته لذلك وتنادي به بأعلى صوتها، فمثله يجلّ عن المهاترات الشخصية والضغائن النفسية، وإنما هدفه الوحيد هو التصدّي للخطباء الكاذبين والوضّاعين.. وليس من الإنصاف عدّه ـ كتاب اللؤلؤ والمرجان ـ من الكتب التقليدية والبسيطة، فإنك لن تجد في خزينة أيّ ملك كمثل هذا من اللؤلؤ والمرجان؛ فعليك بتكرار قراءته والتمعّن في مطالبه والغوص في أعماق بحاره، فإنّ مثل هذه المعلومات والتحقيقات والبحوث لا تصدر عن أيّ شخص؛ فمعرفة الكتب والتصانيف أمثال: اللهوف والمنتخب ومقتل أبي مخنف وأسرار الشهادة والمخزنْ والمحرق وغيرها، وتقييمها والتعرّف على صحيحها وسقيمها.. ليس بالأمر الهيّن، وإنما يتطلّب عمراً مديداً واطّلاعاً فريداً؛ ولذلك ليس بمقدور أيّ شخص أن يعترض علينا إذا ما اهتممنا بالكتاب واحتفينا به»[١].

ويستمرّ الملا علي الخياباني في دفاعه عن المحدّث النوري وثنائه على كتابه اللؤلؤ والمرجان، ثم يروي لنا شيئاً من تاريخ الكتاب الذي ترك بصماته على المجتمع الذي كان معاصراً له، وقد أثار صدوره وانتشاره في طهران وتبريز جدلاً كبيراً بين العلماء من جهة والعامّة من جهة أخرى، حتى وصل الأمر إلى نشوب نزاعات ومعارك محلّية عنيفة[٢].

وممّن مدح كتاب اللؤلؤ والمرجان وأثنى عليه بما لم يثن عليه أحدٌ من قبله هو الشهيد مطهري، فقد وصفه بأنّه: «كتابٌ فريد من نوعه» و «قد لا نجد في العالم كتاباً يضاهيه، فقد امتاز مؤلّفه بعمقٍ لا مثيل له!»[٣]، وقال في موضع آخر: «إنّ كتاب اللؤلؤ والمرجان تأليف المرحوم الحاج النوري، يمثل أداءً للمهمّة المقدسة التي ألقيت على عاتق المؤلّف، فقد أصبح مصداقاً حقيقياً للحديث القائل: إذا ظهرت البدع فليُظهر العالم علمه»[٤].

---

(١) وقائع الأيام: ٢٧٢ ـ ٢٧٣، مجلّد شعبان.

(٢) المصدر نفسه: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٣) مرتضى مطهّري، الأعمال الكاملة ١٧: ٧١.

(٤) المصدر نفسه: ١٣١.

وقد كتب أحد أبرز الباحثين والمفكّرين المعاصرين حول اللؤلؤ والمرجان: «إنّه أوّل كتاب من نوعه يعنى بتهذيب المنبر، وقد دوّن على غرار كتاب «التنزيه في أعمال الشبيه» للسيّد محسن الأمين، أي كما أنّ الأخير كرّس جهده في كتاب التنزيه لمناهضة الخرافات وتطهير المراسم الحسينية منها، فكذلك فعل الحاج النوري في اللؤلؤ والمرجان. ويكمن الفرق بين الاثنين أولاً: في تقدّم اللؤلؤ والمرجان وريادته في مناهضة الخرافات. وثانياً: في أنّه نال قبول العلماء والباحثين، في حين لم تحظ رسالة التنزيه بذلك، وإنما جوبهت بالعديد من النقود التي وجّهت إليها من قبل العلماء والباحثين»[1].

وأفضل موضع يمكننا فيه ملاحظة البصمات التي تركها كتاب اللؤلؤ والمرجان، هو تصانيف تلامذة الميرزا النوري، من الذين تلمّذوا على يديه أو كان النوري شيخَهم في الرواية، كالمحدّث الشيخ عباس القمّي، ومحمد تقي أرباب، والسيد محسن الأمين، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء؛ فقد سار هؤلاء الأفاضل على نهج أستاذهم، فكان لكلّ منهم دوراً بارزاً في مناهضة الخرافات التي ابتُليت بها السيرة الحسينية.

وامتازت أعمال السيد محسن الأمين والمحدّث القمي بتفصيلها واستقلاليّتها في الصدور، في حين تناثرت بحوث محمد تقي أرباب ـ صاحب كتاب الأربعينية الحسينية ـ وكاشف الغطاء بين تصانيفهما الكثيرة.

### ٢ ـ ثورة التنزيه، خطوة السيد محسن الأمين

اشتهر السيد محسن الأمين العاملي بمصنّفه الكبير أعيان الشيعة، وقد دوّن عدّة مؤلّفات حول السيرة الحسينية وواقعة عاشوراء، نذكرها بالترتيب: لواعج الأشجان (١٣٢٩هـ)، والدرّ النضيد في مراثي السبط الشهيد (١٣٣١هـ)، وأصدق الأخبار في قصّة الأخذ بالثار (١٣٣١هـ)، والمجالس السنيّة في خمسة مجلدات (١٣٤٠ ـ ١٣٤٥هـ)[2]، وإقناع اللائم على إقامة المآتم (١٣٤٤هـ)، والتنزيه لأعمال

---

(١) اسفنදياري، مصادر السيرة الحسينية: ١٣٥، ١٥٥.

(٢) ترجم المجلّد الأول من هذا الكتاب إلى الفارسية بواسطة محمد رضا جباران تحت عنوان:

الشبيه (١٣٤٦هـ). وقد جدّدت طباعة هذه المصنّفات مرّات عديدة، ونشرت مع تعاليق وشروح مجموعة من العلماء. وكان خاتمها كتاب التنزيه الذي تضمّن عصارة أفكار السيد الأمين وآراءه. ومن الضروري لمن أراد قراءة التراث الأميني أن يكون هذا الكتاب بين يديه؛ ليقارن بينه وبين ما سبقه، وليقف على أحدث آرائه ونظريّاته.

طبعاً، لا يعني ذلك أنّ الكتب المتقدّمة على كتاب التنزيه، مفتقرةٌ للجانب العلمي والبحثي، أو أنّها دوّنت كما تدوّن سائر المقاتل دون دقّة وتمحيص؛ فالأمين كان صاحب مشروع إصلاحي كبير كرّس من خلاله قلمه لمحاربة البدع والضلالات بغية تنزيه السيرة الحسينية وتراث عاشوراء منها، وقد أقرّ هو بذلك عندما وصف إحدى تصانيفه قائلاً: «والمجالس السنيّة إنما ألّفناها لتهذيب قراءة التعزية وإصلاحها من العيوب الشائنة والمحرّمات الموبقة من الكذب وغيره، وانتقاء الأحاديث الصحيحة الجامعة لكلّ فائدة»[(١)]، وقال في موضع آخر واصفاً أسلوبه في التأليف: «إننا نسعى جهدنا ونصرف نفيس أوقاتنا وعزيز أموالنا في تأليف الكتب وطبعها ونشرها.. قصداً لتهذيب الأحاديث التي تُقرأ في إقامة العزاء من كلّ كذبٍ وعيب وشين؛ ليكون الذاكرون من الخطباء الذين تستجلب قراءتهم الأنظار و.. مفخراً للشيعة، لا عاراً عليهم ولتكون قراءتهم عبادةً خالصة من شوب الكذب الموجب لانقلابها معصيةً»[(٢)].

لم يغفل السيد محسن الأمين عن تحريفات واقعة عاشوراء، وهذا ما يتّضح بجلاء من خلال تصانيفه، وكلامه المتقدّم يعكس حجم الألم الذي كان يعانيه من هذه «المحرّمات الموبقة» و «الذنوب الكبيرة»؛ فكان همّه الوحيد تطهير الشعائر الحسينية منها وتنبيه الآخرين على التبعات المترتبة عليها، كما يصرّح بذلك في مقدّمة كتابه الموسوم بالمجالس السنيّة، فيكتب تحت عنوان مقدمة مهمّة: «هذا، ولكنّ كثيراً من الذاكرين لمصابهم قد اختلقوا أحاديث في المصائب وغيرها لم يذكرها مؤرخٌ ولا مؤلّف، ومسخوا بعض الأحاديث الصحيحة وزادوا ونقصوا فيها لما يرونه من

شرح وصال.

(١) محسن الأمين العاملي، ثورة التنزيه: ٣٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠ ـ ٣١.

تأثيرها في نفوس المستمعين الجاهلين بصحّة الأخبار وسقمها، حتى حفظت على الألسن وأودعت في المجاميع واشتهرت بين الناس، ولا رادع وهي من الأكاذيب التي تغضبهم عليهم السلام وتفتح باب القدح للقادح؛ فإنّهم لا يرضون بالكذب الذي لا يرضي الله ورسوله صلى الله عليه وآله، وقد قالوا لشيعتهم: كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا، وقد اكتسبوا هم ومن قبلها منهم وأقرّهم عليها الاسم المبين فإنّ الله لا يطاع من حيث يعصى ولا يتقبل الله إلا من المتقين. والكذب من كبائر الذنوب الموبقة، لاسيما إن كان على النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين»[1].

وقد عرف هذا الكتاب برسالة التنزيه أو التنزيه لأعمال الشبيه، وقد نشر مؤخّراً بضميمة عدّة مقالات، وقد اعتمدنا النسخة الأخيرة في دراستنا الحالية. والمقالات المرفقة هي:

١ ـ حركات الإصلاح عند المسلمين الشيعة ـ بمثابة مقدمة الكتاب ـ لمحمد قاسم الحسيني النجفي.

٢ ـ مواقف من الرسالة، للمؤلّف نفسه.

٣ ـ سيد العلويين والأمويين، لجعفر الخليلي.

٤ ـ ارتفع إلى مصافّ أكابر الرجال، لحكمت هاشم، عميد جامعة دمشق.

٥ ـ الالتزام في فكر الإمامين: الشيخ محمد عبده والسيد محسن الأمين، لمحمد سعيد الرحيل.

٦ ـ لو كان في الإسلام من مثله عدد الأنامل.. لوجيه بيضون.

٧ ـ زعيمٌ من زعماء الروحانية في هذا الشرق، نقلاً عن مجلّة العرفان.

لكنّ أهم ما يميز كتاب اللؤلؤ والمرجان عن رسالة التنزيه هو أنّ الأول تمخّض لمناوءة الأخبار الموضوعة والتعازي الكاذبة، أي إنّ دائرة الكتاب الأول لم تخرج عن الاهتمام بالجانب الكلامي والخطابي، في حين تناول الكتاب الثاني ـ إضافةً لجانب السلوك والأداء، أي كلّ ما يتصل بآداب المنبر وسلوك الخطيب ـ دراسةً للأحاديث الموضوعة منوّهاً في نصف صفحة[2] إلى البدع والتحريفات المتفشية في

---

(١) محسن الأمين العاملي، المجالس السنيّة ١: ٦ ـ ٧.

(٢) ثورة التنزيه: ٣٢.

المآتم الحسينية.

## نماذج من جهود كشف التزوير في تجربة الأمين

ومن جملة المختلقات التي أشار إليها الكتاب:

١ ـ نسبوا للإمام الحسين زوراً أنه قال ـ عندما سئل عن سبب خروجه من الخيمة ليلة عاشوراء ـ: «خرجت أتفقد هذه التلاع مخافة أن تكون مظناً لهجوم الخيل على مخيمنا يوم يحملون وتحملون». ثم يتساءل السيد محسن الأمين: «لو لم يكن هذا الخبر مختلقاً لأرشدونا إلى المصدر الذي ورد فيه، ولنبؤونا عن الرواية التي نقلته، سواء كانت صحيحة السند أم ضعيفة». ومن الملفت أن الخطباء نقلوا هذا الخبر الموضوع عن هلال أو هلال بن نافع، الذي عدّوه من خاصّة أصحاب الحسين عليه السلام، وغفلوا أو نسوا ـ وكما يقال: بأنّ حبل الكذب قصير ـ أنّ الذي كان في جيش الحسين عليه السلام هو نافع بن هلال وليس هلال بن نافع، فإنّ الأخير كان أحد أفراد جيش عمر بن سعد[1].

٢ ـ ومن الموضوعات التي ذكروها، كلام الشمر الذي وجّهه للإمام الحسين عليه السلام قائلاً له: «بعدك حياً يا ابن الخارجي!».

٣ ـ «إنّ البرد لا يزلزل الجبل الأصم ولفحة الهجير لا تجفّف البحر الخضم».

٤ـ «أيّ جرح تشدّه لك زينب».

٥ ـ «مجيء زين العابدين ـ من الكوفة إلى كربلاء ـ لدفن جسد أبيه مع قبيلة بني أسد».

٦ ـ الحوار الذي دار بين زينب وأخيها العباس، بعد أن عرض الشمر الأمان عليه وعلى أخوته.

٧ ـ قصّة درّة الصدف.

٨ ـ قصّة الطيور التي لطّخت أجنحتها بدماء الإمام الحسين عليه السلام وطارت إلى المدينة لتخبر فاطمة الصغرى بمقتل أبيها.

وبعد أن يستعرض الأمين هذه الطائفة من الأخبار الموضوعة يكتب قائلاً: «أو

---

(١) البهبهاني، الدمعة الساكبة ٤: ٣٧٢.

غير هذه من الأحاديث الكثيرة التي تقرأ على المنابر وهي من الكذب الصراح»[١].

لقد لعب نشر رسالة التنزيه في كلّ من العراق وإيران ولبنان دوراً بارزاً في تحفيز العلماء والباحثين والكتّاب لإعادة النظر في السيرة الحسينية وتراث عاشوراء بالتحديد، لكنّ ذلك لم يخلُ من ردّ فعل ومن ضجّة واضطرابات قام بها الخطباء والمنبريّون، بحيث انقسم الناس إلى فريقين، أطلق عليهما اسم «الأموي» وهو الذي يشايع الأمين، و«العلوي»[٢] وهو الذي يحمل لواء المعارضة[٣].

والملفت أنّ هذه الأحداث سرت لتشمل زعماء الدين أيضاً، فكان للدعوة أنصارها، كالشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، من علماء جبل عامل، والسيد أبو الحسن الإصفهاني، المرجع المطلق في ذلك الوقت، وجعفر الخليلي، الكاتب النجفي المشهور، والشيخ مهدي القزويني، المقيم في مدينة البصرة، والسيد هبة الدين الشهرستاني، المقيم في بغداد، والسيد محسن وكتابه. فقد أيّد هؤلاء وكتبوا

---

(١) ثورة التنزيه: ٣٢.

(٢) المصدر نفسه، مقالة: سيّد العلويين والأمويين: ٥٧ ـ ٦٥؛ ومحسن الأمين، إقناع اللائم: ٣٣، نقلاً عن: «السيد الأمين سيرته».

(٣) وقد وصف لنا مقطع من ترجمة السيد الأمين الأحداثَ التي رافقت ظهور رسالة التنزيه بقوله: «وألّف رسالةً سمّاها التنزيه لأعمال الشبيه، فقوبل بهجمة شرسة واحتجاجات صارخة، وانقسم الناس في النجف وغيرها ـ بمن فيهم زعماء الدين ـ إلى فريقين، أطلق عليهما اسم «الأموي» وهو الذي يشايع الأمين و«العلوي» وهو الذي يحمل لواء المعارضة، وكثرت الاعتداءات على الأشخاص، واستغلّها المغرضون للإطاحة بخصومهم، كما هو المألوف في مثل تلك الحال، وصدرت في الردّ عليه عدّة كتب، وهُجي بقصائد، أذكر مطلع إحداها:

يا راكباً إما مررت بجلّق ... فابصق بوجه أمينها المتزندق

وقد اشتهر ببيتين آخرين لم يسمّ قائلهما، وكان المشهور أنهما قيلا في الأمين أيضاً، وإن قال فريق بأنهما قيلا في السيد محسن أبي طبيخ، وهما:

ذرية الزهراء إن عددت ... يوماً ليطري الناس فيها الثنا

فلا تعدّو محسناً منهم ... لأنها قد أسقطت محسنا

(المترجم، نقلاً عن كتاب القاديانية لسليمان ظاهر العاملي: ٦٥)

وردّوا على الخصوم، حتى بلغ الأمر أن أصدر السيد أبو الحسن الإصفهاني فتوى بتحريم بعض الأعمال الضالّة التي كانت تمارس في أيام عاشوراء.

وكما كان للدعوة أنصارٌ، كان لها خصوم أيضاً، أبرزهم: السيد عبد الحسين شرف الدين، والشيخ عبد الله السبيتي، والشيخ مرتضى آل ياسين[١]، ولم يكن الأمر في إيران والهند بأفضل حالاً من العراق ولبنان، فقد شهدا تدوين ونظم عشرات الكتب والمقالات وأبيات الشعر في الردّ على رسالة التنزيه، وقد قام جلال آل أحمد في إيران بترجمتها ـ ويبدو أنها كانت أولى محاولاته في التأليف والترجمة ـ تحت عنوان «عزاداري هاي نا مشروع»، لكنّها قوبلت بالردّ السريع من قبل الخطباء والتجار[٢]، فتمّ جمعها من المكتبات وإحراقها[٣]، ومنذ ذلك الحين إلى قرابة عام ١٣٧١ش/١٩٩٢م، تمّ طبعها مجدّداً برعاية السيد (قاسم يا حسيني) في محافظة بوشهر، في مطبعة شروه، لكنّها واجهت ذات المصير السابق، فلم تلحظ النور سوى سويعات، اختفت بعدها إلى الأبد.

## ٣ . الملحمة الحسينية، مواجهة الشيخ مرتضى مطهري

نشر هذا الكتاب ـ لأوّل مرة ـ عام ١٣٦٠ش/١٩٨١م، برعاية محمد حسين حقّ جو، والذي أطلق عليه عنوان: (ثورة الشيخ مطهري ضدّ موروث عاشوراء المزيف). والكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات للأستاذ مطهري تمّ تسجيلها على خمسة أشرطة صوتية. ثم تطوّر هذا الإصدار بعد أن أضيفت إليه سلسلة محاضرات أخرى ومجموعة مقالات حول الإمام الحسين وواقعة عاشوراء، كان الشهيد مطهّري قد دوّنها بصورة متفرقة، فصدر في حلّته الجديدة ضمن ثلاثة مجلدات حاملاً عنوان: الملحمة الحسينية، وقد شهد هذه المرّة إقبالاً منقطع النظير؛ فجدّدت طبعاته حتى تجاوزت الإحدى وأربعين. وقد تضمن المجلّد السابع عشر من المجموعة الكاملة

---

(١) إقناع اللائم: ٣٣.

(٢) لا يخفى أهميّة دور التجّار في الحياة السياسية والاجتماعية الإيرانية، فقد كانوا محوريين في كافّة التحولات التي شهدها تاريخ إيران المعاصر (المترجم).

(٣) مصادر السيرة الحسينية: ١٥٥ ـ ١٥٦، نقلاً عن (يك جاه ودو جاله) لجلال آل أحمد.

لأعمال الشهيد مطهري هذا الكتاب، الأمر الذي ساعد على تكرار طبعاته مرّات عديدة. ونحن نرجع القارئ الكريم في دراستنا هذه حول الملحمة الحسينية إلى الأعمال الكاملة للشهيد مطهري، بوصفها المصدر والمنبع.

تأثر مطهّري بالميرزا النوري في بحوثه حول موروث عاشوراء تأثراً بالغاً، فقد أثنى عليه في مواطن كثيرة من ملحمته، بحيث يمكننا القول: إنّ الملحمة الحسينية تشكّل شرحاً تفصيلياً لكتاب اللؤلؤ والمرجان. يكتب مطهري واصفاً اللؤلؤ والمرجان: «إنّه كتاب لا مثيل له، يعكس المستوى العلمي الكبير الذي كان مؤلّفه المرحوم يتمتع به، وقد صنّف الكتاب ضمن محورين: الإخلاص والصدق، وقد أبدع في كليهما» (الأعمال الكاملة ١٧: ٥٩١). ويكتب في موضع آخر: «إنّ كتاب اللؤلؤ والمرجان للحاجّ النوري تعبيرٌ عن امتثال لمهمّة كانت ملقاة على عاتقه وقد أدّاها بأتمّ صورة ممكنة، ونحن اليوم ندين بالنتائج العلمية والتاريخية التي حصلنا عليها، إلى ذلك الرجل العظيم» ( الأعمال الكاملة ١٧: ٦١٣).

لو كُتب للشهيد مطهري الحياة والاهتمام بأعماله شخصياً وإعادة صياغة محاضراته بنفسه، لكانت الحال أفضل بكثير مما هي عليه الآن، لكنّ ذلك لا يقلّل من أهميّة التصانيف التي نُشرت له، خصوصاً في مجال السيرة الحسينية وموروث عاشوراء، فإن مؤلّفاته تشكّل منعطفاً حقيقياً ومناراً لكلّ باحث وكاتب، وإليكم جملة من البحوث التي طرحت في الملحمة الحسينية، كمثال على جهود مطهري في التصدّي للتزييف الذي لحق بتاريخ عاشوراء وموروثها:

١ ـ تحريف هدف الإمام الحسين وغايته (١٧: ٣٢). ٢ ـ مفهوم التحريف وأنواعه (١٧: ٦٥ ـ ٦٨). ٣ ـ التحريف من حيث الموضوع (١٧: ٦٩). ٤ ـ مهمّتان على عاتق الجماهير (١٧: ٧٢). ٥ ـ نماذج من التحريفات التي لحقت بأحداث الواقعة (١٧: ٧٤). ٦ ـ أسباب التحريف (١٧: ٨٤ ـ ٩٧). ٧ ـ التحريفات المعنوية لحادثة كربلاء (١٧: ١٠٢ ـ ١١٠). ٨ ـ مسؤوليّتنا في مواجهة التحريفات (١٧: ١١٧). ٩ ـ كلّكم مسؤول، الراعي والرعية (١٧: ١٢٠). ١٠ ـ مخاطر التحريف (١٧: ١٢٣). ١١ ـ التحريف الخاصّ بنا نحن الإيرانيين (١٧: ١٢٤). ١٢ ـ المهمّة الملقاة على عاتق العلماء (١٧: ١٢٨). ١٣ ـ نقطتا ضعف في الناس لدى حضورهم مجالس العزاء (١٧: ١٢٨). ١٤ ـ جرح

الراوي (١٧: ١٣١). ١٥ ـ هل حمل الإمام الحسين مهمّة محدّدة؟ (١٧: ٤٧٢). ١٦ ـ شخصيّتان في واقعة كربلاء (١٧: ٤٨١). ١٧ ـ شبهات حول النهضة الحسينية (١٧: ٥٨١ ـ ٥٤١). ١٨ ـ كلمات حول تحريفات عاشوراء (١٧: ٥٨١ ـ ٦٢٠). ١٩ ـ الفكر المسيحي ودوره في حادثة كربلاء (١٧: ٦٦٤).

إلى جانب ذلك نسرد جملةً من الأخبار الموضوعة والمزيّفة التي ذكرها مطهّري في ملحمته:

١ ـ اسقوني شربةً من الماء.. (١٧: ٤٩).

٢ ـ جلب العباس الماء للحسين عندما كان صغيراً (١٧: ٧٤).

٣ ـ الموكب الملكي العظيم لزعيم الحجاز أثناء خروجه من المدينة (١٧: ٧٥).

٤ ـ قصّة ليلى أمّ علي الأكبر التي لم تكن حاضرةً في كربلاء على الإطلاق (١٧: ٧٥ ـ ٧٦).

٥ ـ أسطورة عرس القاسم التي لم ترد في أيّ كتاب تاريخي معتبر (١٧: ٧٧، ٥٨٩).

٦ ـ أكذوبة تواجد هاشم المرقال في كربلاء (١٧: ٧٨).

٧ ـ يوم الأربعين الذي شهد مرور عيال الحسين بكربلاء؛ فإنّ طريق الشام لا يمرّ عبر كربلاء مطلقاً، وإنما يفترق في نفس الشام ويتجه صوب المدينة (١٧: ٧٩، ٥٨٦).

٨ ـ الأسطورة المختلَقة التي حيكت حول الإمام زين العابدين عليه السلام والتي تروى على المنابر، وفائدتها الوحيدة نسبة الجهل للإمام السجاد، وهي ليست سوى أكذوبة رخيصة (١٧: ٩٧).

٩ ـ أسطورة تفرّق أصحاب الحسين ليلة العاشر من المحرم، وهذه الرواية لا يدعمها أيّ سند تأريخي، وإنما هي هفوة من هفوات صاحب كتاب الناسخ (١٧: ٢٥٦).

١٠ ـ خبر فضة والأسد في كربلاء (١٧: ٥٨٥).

١١ ـ خبر فاطمة الصغرى (١٧: ٥٨٦).

١٢ ـ قصّة البنت اليهودية التي كانت مصابةً بالشلل وشفيت بواسطة قطرة من دم أبي عبد الله الحسين التي لمست جسمها بواسطة الطير (١٧: ٥٨٦).

ومن بين المقالات التي دوّنها الشهيد مطهري، وبلغ مجموعها سبعة مجلدات،

هناك العديد منها يصبّ في سياق الملحمة الحسينية، مثل:

١ ـ مفهوم التحريف من خلال الرجوع لكتاب الأخبار الدخيلة للعلامة الشيخ محمد تقي التستري (٢: ٧٧). ٢ ـ تحريف المفهوم (٢: ٨٢ ـ ٧٧). ٣ ـ الحسين وارث آدم (٢: ٢٢١ ـ ٢١٨). ٤ ـ الخطابة والمنبر (٣: ٣٥٨ ـ ٣٢٤). ٥ ـ رجال الدين (٤: ٥٦١ ـ ٥٥١).

## ٤ . كتاب: مع الشهيد مطهري في ملحمته الحسينية، تجربة الشيخ صالحي نجف آبادي

هذا العنوان اختاره الأستاذ الشيخ نعمة الله صالحي نجف آبادي (٢٠٠٦م) لكتابه الذي جاء في البداية رداً على الانتقادات التي وجّهها مطهري لكتاب نجف آبادي المعروف بالشهيد الخالد (شهيد جاويد)، والذي نال شهرةً كبيرة، ثم تطوّر الكتاب ليشكّل ـ في المقابل ـ رداً على آراء مطهري والتعازي التي كان يقرؤها في ذيل كلّ كلمة أو خطاب كان يلقيه بين الحين والآخر.

اشتمل هذا الكتاب على أربعة أقسام: الأول تضمّن ١٢ أنموذجاً مختاراً من آراء الشهيد مطهري تحت عنوان: الآراء المتقدّمة للشهيد مطهري، فيما تضمّن الثاني سبعة نماذج اعتبرها المؤلّف من جملة التناقضات، وأورد في القسم الثالث تسعة مصاديق أطلق عليها: الأخطاء التاريخية، وفي القسم الرابع أشار إلى عشرة من الوقائع المزيّفة التي نقلها الشهيد مطهري واعتبر نقله لها قد حصل نتيجة اعتماده على المصادر الضعيفة. وأنهى نجف آبادي كتابه بخاتمة اشتملت على أربعة أقسام، أطلق عليها عنوان: رسالة الكتاب، وتمحّضت الرسالة الأولى والثانية للحديث عن كتابه الشهيد الخالد والردّ على منتقديه، في حين كانت الرسالة الثالثة تنوّه بـ «أنّ الاعتماد على الذاكرة منشأ كثير من الأخطاء التاريخية»، كما أنّ «الحدس، هو الآخر يعدّ عاملاً مهماً في بلورة تاريخ مزيّف بعيد عن الصحة»، يضاف لهما «العشق، الذي كثيراً ما يساهم باختلاق الأساطير التاريخية»، فيما تمحورت الرسالة الرابعة والأخيرة حول خبر فضة والأسد في كربلاء، ومواطن الضعف في هذا الخبر، وأخيراً حديث مفصّل عن ثقافة الأسطورة وتعزيزها اجتماعياً.

لقد ساهم هذا الكتاب مساهمة فعّالة في تهذيب الموروث الحسيني وتنقيته مما علق به طيلة السنوات المنصرمة، وتمكّن من رفع جزء مهمّ من الستار المزيّف الذي تراكم بمرور الزمان وحجب الوجه الناصع لسيرة سيد الشهداء عليه السلام.

## نماذج نقدية: رمي الأسرى أنفسهم على الشهداء من على ظهر الدواب و ..

لقد كان من جملة ما بحثه الكتاب بالتفصيل، شخصية الحسين بن حمدان الجنبلاني، الذي يعدّ من أبرز الوضاعين وممن كثر كذبه على الإمام الحسين وسيرته يوم عاشوراء (ص٢٩٥ ـ ٣١٧). كما تضمّن بحوثاً مهمة أخرى من بينها:

١ ـ تجاوز عدد شهداء كربلاء الاثنين وسبعين شخصاً (ص٢٥٧).

٢ ـ طلب الأسرى المرور على أجساد الشهداء، أمرٌ لا سند له، وقد ورد في كتاب أسرار الشهادة، الذي كثر فيه الكذب والوضع (ص٣٤٤).

٣ ـ خبر توثيق قدم الإمام السجّاد أسفل بطن الدابة، لا سند له ولم يرد في المصادر المعتبرة، وقد ورد في كتاب أسرار الشهادة الموسوم بكثرة الكذب (ص٣٤٧).

٤ ـ لقد تضمّن كتاب ناسخ التواريخ، الصحيحَ والسقيم والغث والسمين؛ فلا يمكن الاعتماد عليه مصدراً من مصادر التاريخ المعتبرة، وخصوصاً في المواضع التي أغفل فيها ذكر المصادر (ص٣٤٧).

٥ ـ إنّ الخبر الذي نقلوه عن قيام الأسرى برمي أنفسهم على أجساد الشهداء من على ظهر الدواب، يدخل ضمن دائرة الشائعات وليس له حظ من الصواب (ص٣٤٨).

٦ ـ خبر تصدّق أهل الكوفة على أسرى أهل البيت، هو الآخر يفتقد إلى السند المعتبر، وقد ورد في مقتل أبي مخنف المزيّف، وفي كتاب نور العين الذي هو أقرب للأسطورة منه للواقع، وأخيراً في منتخب الطريحي الذي لا يمكن الوثوق بمضامينه (ص٣٦٢).

٧ ـ ومن الأخبار الموضوعة ما ينقل عن فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) أنها أنّت من داخل الكفن ثم ضمّت الحسنين عليهما السلام إلى صدرها (ص٣٧٩).

## ٥ . بحوث متفرقة وأخرى بقيت طي الكتمان

ظهرت بعد المحدّث النوري وكتابه اللؤلؤ والمرجان بحوثٌ ودراسات عديدة تعرّضت لموروث عاشوراء وما لحق به من وضع واختلاق وتدليس. وكان من بينها منظومة تركي الشيرازي المعنونة بـ «السفرة في ذمّ الرياء»، والتي لم تخلُ من الطابع التهكّمي. ومقالات آغا خان الكرماني التي ناقشت الموروث من خارج دائرته[1]، في حين ضرب المحدّث النوري في الصميم، وعلى أثره جاءت بحوث الشيخ عباس القمّي تبعاً لأستاذه، لكنّها تميزت عن سواها بعمقها ودقتها.

### ٥ . ١ . بدءاً بنفس المهموم وانتهاء بمنتهى الآمال، تجربة الشيخ عباس القمّي

يعدّ المحدث القمّي من أبرز الباحثين في مجال السيرة والتاريخ، وبالتحديد السيرة الحسينية؛ فقد تمكّن من طيّ مرحلة طويلة وشاقة من البحث والتنقيب في موروث عاشوراء بدءاً بكتابه نفس المهموم وانتهاء بمنتهى الآمال. ومن خلال هذه الرحلة العلمية الممتدّة عبر عقود من الزمن، والتي رافقها ـ إلى جانب الدقّة في التمحيص والبحث ـ حالةٌ من التقوى والورع لا نظير لهما، توصّل إلى نتائج وحقائق كثيرة ومهمّة ساهمت بشكل كبير في كشف الكثير من التزييف والتدليس الذي تعرّض له موروث عاشوراء، لكن بما أن القمّي اشتهر بكتابه الأول ـ نفس المهموم ـ فقد غطّى هذا الكتاب على باقي أعماله العلمية، وبذلك أغفلت ولم يتمّ الاهتمام بها بالشكل المطلوب.

وللتعرّف أكثر على مسيرته العلمية والبحثية في مجال السيرة الحسينية وواقعة عاشوراء، يلزمنا الوقوف عند مصنّفاته التي دوّنها في هذا المجال؛ فمن خلال استقراء مؤلّفات القمي في مجال السيرة الحسينية اكتشفنا أنها مرّت بثلاث مراحل: الأولى: نفس المهموم، تمّ تصنيفه بتاريخ ١٣٣٥هـ الثانية: نفثة المصدور، بتاريخ

---

(١) راجع: عبد الحسين زرين كوب، النقد الأدبي ٢: ٦٣٣، مطبعة امير كبير، الطبعة الثالثة، ١٣٦١ش/١٩٨٢م.

١٣٤٢هـ الثالثة: منتهى الآمال، بتاريخ ١٣٥٠هـ

وعلى الرغم من تفوّق كتاب نفس المهموم على سواه من المصنّفات التاريخية، إلا أنه إذا ما قورن بمصنفات القمي اللاحقة فسيكون أدنى منها من حيث الدقة والإتقان؛ ذلك أنه اعتمد فيه على بحار الأنوار الذي نقل بدوره ـ في بعض أخباره ـ عن مصادر لا اعتبار لها. مع ذلك تكرّرت مع مصنّفه الثاني (نفثة المصدور) الظاهرة عينها، إلا أنّ اختصار الكتاب حال دون نقل الكثير من روايات المجلسي التي وردت في نفس المهموم.

أما منتهى الآمال، فقد تخلّص نهائياً من روايات بحار الأنوار سوى عدد ضئيل لا يمكنه التأثير على اعتبار الكتاب، لكن في المقابل حرص القمي على الاهتمام بكلّ ما جاء في اللؤلؤ والمرجان، وبالغ في دراسة مضامينه بحيث رفض ما تردّد المحدث النوري في صحّته، ولم يكتف القمّي في منتهاه باللؤلؤ والمرجان، بل اعتمد طريقين آخرين لينأى بكتابه عن التحريف: أحدهما: أنّه استبعد عنه كل رواية ضعيفة السند أو الدلالة[1]. وثانيهما: محاولته عند سرده أحداث السيرة الحسينية وواقعة عاشوراء الوقوف عند كل موضع يراه تعرّض للتحريف أو التزييف؛ ليبحثه بحثاً وافياً وينزهه عن كل ما لصق به من شوائب تمثلت بروايات موضوعة ومختلقة.

وبالعودة إلى نفثة المصدور الذي دوّنه تتميماً لنفس المهموم، اختتمه بالحديث عن الخطباء وروّاد المنبر، راجياً منهم مراعاة عشرين وصيّة ليكونوا بذلك من الدعاة إلى الله وممّن يقيم شعائره لهداية الناس، فمن جملة هذه الوصايا:

١ ـ الإخلاص والابتعاد عن الرياء وحبّ الظهور. ٢ ـ الصدق وترك الكذب تحت غطاء لسان الحال. ٣ ـ عدم ترويج الباطل، ومدح الفاسق والفاجر. ٤ ـ عدم إعانة الظالمين، واللجوء إليهم. ٥ ـ التخلّي عن قراءة التعازي المهينة[2].

أما في منتهى الآمال، فيمكن ملاحظة بحوث كثيرة تتصدّى للتحريف والتزييف، نحاول نقلها أو ملخص عنها بنصّ عبارة المحدّث القمي:

١ ـ «يكون قد مضى على عمر بن سعد من كربلاء خمساً وعشرين سنة.. وما

---

(١) انظر: منتهى الآمال ١: ٢١٦، طبعة دار النشر العلمية الإسلامية، ١٣٣١ش/١٩٥٢م.

(٢) نفس المهموم: ٦٨١ ـ ٦٩٢.

جرى على ألسنة العامّة من أن عمر بن سعد كان يوم عاشوراء شيخاً كبيراً لا مأخذ له، والله العالم» (ص٢١٥، الحاشية).

٢ ـ يقول القمّي بعد نقله لأحداث استشهاد طفلَي مسلم بن عقيل: «إنّي استبعد استشهاد هذين الغلامين بهذه الكيفية وهذا التفصيل..» (ص٢٣٣).

٣ ـ «في المصباح للكفعمي أنه قالت سكينة: لما قتل الحسين عليه السلام اعتنقته فأغمي عليّ فسمعته يقول:

شيعتي ما إن شربتم ري عذب فاذكروني     أو سمعتم بغريب أو شهيد

والظاهر أنّ بقية الأبيات التي يقرؤها أصحاب العزاء لم ترد على لسان الإمام وإنما هي من نظم الشعراء» (ص٢٤٥، الحاشية).

٤ ـ يكتب حول نافع بن هلال: «يمضي في بعض الكتب هلال بن نافع، والمظنون سقوط اسم نافع من أوله، وسبب ذلك تكرار اسم نافع» (ص٢٦٥).

٥ـ «هل كانت أمّه ـ أم علي الأكبر ـ حاضرةً في كربلاء أو لا؟ الظاهر عدم حضورها هناك، ولم أجد في الكتب المعتبرة شيئاً» (ص٢٧٢).

٦ ـ «وأما ما اشتهر من أنّ الحسين عليه السلام جاء إلى أمّ علي الأكبر بعد ذهابه إلى الميدان، وقال لها: قومي وادعي لولدك فإنّي سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن دعاء الأم مستجاب في حقّ ولدها، فإنه كذب محض من أوله إلى آخره كما قاله شيخنا (النوري)» (ص٢٧٢).

٧ ـ «ولا يخفى عليكم عدم صحّة قصّة عرس القاسم» (ص٢٧٥).

٨ ـ «يقول المؤلّف: لم ينقل أحدٌ من أرباب المقاتل المعتبرة شيئاً عن أحوال أهل البيت عليهم السلام في يوم عاشوراء بعد مقتل الحسين عليه السلام وليلة الحادي عشر، حتى نوردها هنا» (ص٢٩١).

٩ ـ ونستبعد القول بأنّ زينب نطحت جبينها بمقدم المحمل حتى سال الدم، وإنشادها تلك الأبيات: (يا هلالاً لما استتمّ كمالاً)؛ فإنها أجلّ من ذلك وهي عقيلة الهاشميين، عالمة غير معلّمة، رضيعة ثدي النبوة وذات مقام شامخ في الرضا والتسليم» (ص٢٩٦)، ويمكن ملاحظة رأي المحدّث القمي في هذا الشأن بصورة أوضح في مراجعته لكتاب منتخب الطريحي.

١٠ ـ تحليل إجمالي للمقتل الموضوع والمنسوب لأبي مخنف (ص٣٠٣، الحاشية).

١١ ـ «ما ورد في نفس المهموم من قوله: كأنه يضحك ظاهراً، واصفاً رأس العباس، إنما هو من سهو القلم» (ص٣٠٨).

١٢ ـ «يقول الفقير: إنّ خبر كنيسة حافر والحكاية المنقولة عن كامل البهائي، كلاهما مستبعدان ولا يمكنني الوثوق بهما» (ص٣١٦).

١٣ ـ «اشتهر بين علماء الطائفة أنّ الإمام زين العابدين نقله (رأس الحسين) إلى كربلاء يوم الأربعين، وهذا القول مستبعد جداً نظراً للأخبار التي بين أيدينا..»، وبعد أن ينقل المحدّث القمي هذا الكلام عن المجلسي يقول: «يقول الفقير: إنّ هذه الرواية ـ وكما سوف يأتي ـ تؤيد ما ورد من قول يزيد لعلي بن الحسين عليه السلام: إنّك سوف لن ترى رأس أبيك أبداً» (ص٣١٨).

١٤ ـ «من البعيد جداً تواجد أهل البيت في كربلاء في اليوم العشرين من شهر صفر، أي يوم الأربعين، وقد استبعد السيد علي بن طاووس الذي اشتهر نقله لهذا الخبر في اللهوف، هذا الأمر أيضاً في الإقبال، مضافاً إلى عدم التلويح والإشارة إلى هذا الأمر من العلماء وأهل السير والتاريخ والمقاتل، بل يظهر من سياق كلامهم إنكار هذا الأمر..» (ص٣٢٠)[1].

١٥ ـ في الخاتمة، يورد القمي بحوثاً قيّمة حول ذمّ الرياء والكذب والغناء، ويستعرض بإيجاز ملامح من كتاب اللؤلؤ والمرجان تكريماً لأستاذه وإجلالاً له. وجديرٌ بسائر الخطباء وروّاد المنبر مراجعة هذه الخاتمة التي تتضمّن فوائد جمّة لا غنى لأحد عنها (ص٣٣٥ ـ ٣٤٤).

الأمر الآخر الذي نودّ لفت الأنظار إليه هنا هو أنّ دراسة واقعة عاشوراء وتدوين مقتل الحسين، إذا تمّ بالاعتماد على مضامين كتاب منتهى الآمال فسيكون من أفضل المقاتل وأدقّها من حيث السند والاعتبار، ويتأكّد هذا الأمر إذا ما علمنا أنّ

(١) راجع في هذا الشأن وما سبقه (١٣): نصّ منتهى الآمال، الذي أجمل الكلام في الأول وفصّل في الثاني: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

منتهى الآمال قد تمّ تأليفه باللغة الفارسية.

## ٥ . ٢ . الإمام الحسين وأصحابه، دراسة فضل علي القزويني

درس فضل علي القزويني (١٢٩٠ ـ ١٣٦٧هـ)، في كلّ من قزوين وإصفهان وطهران والنجف، وحصل على إجازة الاجتهاد من الآخوند الخراساني وأصبح فيما بعد من وكلائه والمقرّبين منه، وكان؟ من أصحاب السلوك والعرفان، ومن الملازمين للعارف الكبير الشيخ حسين علي النخودي المشهدي، وقد اشتغل بالتدريس في كلّ من مشهد وكربلاء المقدّسة، وله عدّة مصنفات لم ينشر منها سوى الكتاب الذي نحن بصدده.

امتاز القزويني في هذا الكتاب بالبحث والمناقشة والتدقيق في جزئيات وحتى ألفاظ الوقائع والأحداث التي نقلها، بحيث يبدو وكأنّه من جملة المصنّفات المتخصّصة التي دوّنت في الفقه والأصول، وباختصار، فإنّ الدقة والتمحيص ومجمل الجهود التي بذلها المؤلّف في تدوينه جعلته من الكتب التي قلّ نظيرها، والحديث عن تفاصيل هذا الكتاب يستدعي وقفةً لا تسعها هذه العجالة، وربما حالفنا الحظّ في تدوين مقالة مستقلّة حوله إذا ما تمّ صدور أجزائه كافّة في المستقبل؛ إذ لم يصدر ـ لحدّ الآن ـ سوى الجزء الأول من مجموع أجزائه الثلاثة، وهذا الجزء تمحور حول مقتل الإمام الحسين، فيما دار الجزءان الآخران حول أصحابه وذويه، رجالاً ونساء، شهداء وغيرهم.

تضمّن الجزء الأول آراءً وأفكاراً مهمّة بإمكانها أن تساهم بشكل كبير في تهذيب موروث عاشوراء وتنقية السيرة الحسينية من الشوائب؛ فكلّ فصل من فصول الكتاب يحوي نقاطاً وملاحظات قيّمة نورد طائفةً منها على وجه الاختصار، ونرجئ تناولها بالتفصيل إلى موضع آخر إذا ما حالفنا التوفيق في إيراد تعليقة على الكتاب.

١ ـ عبارة «ثم ليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي» التي جاءت في ذيل الخطبة المشهورة التي ألقاها الإمام الحسين ليلة العاشر من المحرّم، لم ترد في رواية الإمام السجاد ولا الإمام العسكري، وإنما وردت في رواية الضحاك المشرقي فحسب، كما أنّ كتب المقاتل لم تنقلها سوى عن الضحاك، ومن المعلوم «أنه لا يمكن

الاعتماد على منقولات الضحّاك» (ص٣٦).

٢ ـ «وكم فرق بين القول بأنّ الله شاء قتلك، أو شاء الله أن تكون قتيلاً، وبين شاء الله أن يراك قتيلاً» (ص٨٠).

٣ ـ دراسة تناولت شخصيات عمر بن علي الأصغر وعمر بن علي الأكبر، والأخطاء التي نتجت من الخلط بينهما (ص١٠٨ ـ ١٠٩).

٤ ـ بعد دراسة مفصّلة لما نُسب للإمام الحسين من قوله: «لله درّ ابن عباس فيما أشار عليّ به» يكتب القزويني: «وبالجملة فالمظنون بل المقطوع أنّ هذه الكلمة ـ وهي قول: لله درّ ابن عباس وأشباهها ـ لم تصدر من الحسين عليه السلام في وقعة الطف، وإنما أسندوها إليه لأغراض لا تخفى على المتأمل» (ص١٢٥ ـ ١٢٧).

٥ ـ دراسة مفصّلة لكلام الشيخ محمد الخضري حول ثورة الحسين (ص١٣١ ـ ١٤٥).

٦ ـ يكتب القزويني حول ما ينقل عن الإمام الحسين من أنه قصد العودة إلى المدينة بعد سماعه مقتل مسلم بن عقيل؛ فمنعه من ذلك أولاد مسلم: «وهذا غلط فاحش وخلاف ما عليه أصحابنا رضوان الله تعالى عليهم، بل قد مرّ في رواية أبي مخنف عن عبد الله بن سليم المذري بن المشمعل أنهما قالا: فنظر إلينا الحسين فقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء. قالا: فعلمنا أنه قد عزم على المسير» (ص١٧٥).

٧ ـ الخبر الذي ورد في المقتل المنسوب إلى أبي مخنف، من أنّ الإمام الحسين عندما وصل كربلاء توقّف جواده ولم يتحرّك؛ فاستبدله بآخر ولم يتحرّك، وهكذا إلى سبعة أو ثمانية جياد فلم يتحرّك أي منها.. إلى آخر الخبر، يقول: «وهذا ما لم تورده أيٌّ من كتب السير أو المقاتل المعتبرة، وتفرّد بنقله المقتل الموضوع والمنسوب لأبي مخنف والطريحي في منتخبه، بالإضافة إلى طائفة من المعاصرين ممّن أخذ عن المنتخب». والغريب في الأمر أنّ لسان المؤرّخين ـ صاحب ناسخ التواريخ ـ نقل هذا الخبر عن مقتل أبي مخنف تاركاً الكمّ الهائل من المصادر التي كانت بحوزته، ومما زاد الأمر غرابةً أنه ادّعى أنّ الراوي هو يحيى بن لوط، فيما هو لوط بن يحيى (ص١٩٧).

٨ ـ المقترحات الثلاثة التي نسبوها للإمام الحسين زوراً، والتي اتفق المعاصرون على بطلانها (ص٢٣٥).

٩ ـ لم يكن الجيش الذي واجه الإمام الحسين في كربلاء مقتصراً على أهل الكوفة، وإنما التحق به من الشام عشرة أو أربعة آلاف مقاتل ـ على اختلاف الأخبار ـ «فمن أنكر وجود جنود من الشام فهو من عدم علمه بالتاريخ» (ص٢٥٣ ـ ٢٥٤).

١٠ ـ ويكتب القزويني حول قصّة الجمال: «وفيها غرائب تركناها لعدم مستند صحيح لها ومنافاتها لأخبار كثيرة» (ص٣٦٤).

١١ ـ خبر فضة والأسد في كربلاء (ص٣٦٩ ـ ٣٧٠).

هذا، وقد اشتمل الكتاب ـ إلى جانب ما ذكرنا ـ على إثارات وبحوث ذات قيمة علمية جمّة، يمكن للقارئ مراجعتها عبر الصفحات التالية: ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣ ـ ١٠٥، ١١٠، ١٢٧ ـ ١٣١، ١٤٥ ـ ١٤٦، ١٥٠، ٢٤٣ ـ ٢٤٩، ٢٩٨ ـ ٣٠٣، ٣١٧، ٣١٥، ٣٢٣ ـ ٣٢٧، ٣٧٦ ـ ٣٧٧، ٣٩٥. وللوقوف على رأي المؤلف فيما يخصّ جرح وتعديل ابن عباس، يمكن مراجعة الصفحات: ١٢١، ١٢٨ ـ ١٣٠، و..

لقد نجح المؤلّف نجاحاً غير قليل فيما طمح إليه في هذا الكتاب، فقد كان همّه التأليف من دون الاعتماد على المصادر الضعيفة، كما أكّد على ذلك في أكثر من موضع (ص٢٥٥، ٢٦٣)، لكن مع ذلك كلّه، يبقى هناك فقرات تحتاج إلى مزيد من المراجعة والتمحيص (ص٩٦، ١٥٣، ٣٠٤)، كما في قصّة شجرة جنار العجيبة[1] (ص٤٠٣ ـ ٤٠٧). ومما يستدعي الوقوف عنده أيضاً ما أشار إليه محقّق الكتاب السيد أحمد الحسيني في التعليقة التي أوردها عليه بقوله: يبدو أنّ المترجمين قد أخفقوا في ترجمة عبارة: «ثم أخذ السهم فأخرجه من ورائه»، فاشتهر في التعازي على أنّ سهماً ذي ثلاث شعب أصاب صدر الإمام الحسين عليه السلام ونبت بقلبه، فأخرجه الإمام من خلف رأسه، ونظراً لكون السهم مثلثاً يبدو أنّ الأمر كما أشار إليه المؤلف «بعيد جداً، لا يمكن تصوّره فكيف بوقوعه» (ص٣٠٧)؛ فالصواب في تفسير هذا الخبر هو أن الضمير في «من ورائه» أو حتى في «ظهره» يعود إلى السهم نفسه، وليس إلى الإمام الحسين، وبذلك يصبح مفهوم العبارة: إنّ الإمام الحسين أمسك السهم من الخلف

---

(١) وهي شجرة يقال: إنها كانت يخرج منها الدم في يوم عاشوراء من كل سنة، وهي بمشهد الإمام زادة (مرقد أحد أبناء الأئمة) في زرآباد على ثمانية فراسخ من قزوين (المترجم، نقلا عن الذريعة للطهراني ٥: ٣٠٧).

وأخرجه.

ومثل هذا الإخفاق، وقع أيضاً في ترجمة خبر استشهاد القاسم بن الحسن، وإلى ذلك أشار أحد الكتّاب: «ومما اشتهر على الألسن أنه بعدما سقط القاسم وطأته الخيل حتى مات، في حين أنّ قاتله، أي عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي، هو من وطأته الخيل. فمن فرط جهلهم أخفقوا في إرجاع الضمير إلى صاحبه»[(١)]، وقد عالج العلامة السيد محسن الأمين الأمر بإظهاره صاحب الضمير فنقل الحدث بقوله: «فوطئت الخيل عمراً حتى مات وانجلت الغبرة..»[(٢)].

## ٥ . ٣ . شمس الشهادة، مطالعة لأعمال مؤتمر عاشوراء الأوّل

حمل هذا الكتاب عنواناً ثانياً هو: مجموعة مقالات مختارة من المؤتمر الأول الذي عقد لدراسة أبعاد السيرة الحسينية ومصادرها وما تعرّضت له من تحريف. وقد اشتمل ـ وكما هو واضح من العنوان ـ على مجموعة مقالات تبحث التزييف في موروث عاشوراء، وهي كما يلي:

١ ـ مدرسة الشام التاريخية ودورها في تحريف الثورة الحسينية، لأصغر قائدان.

٢ ـ المدرسة الإسلامية الإيرانية ودورها في تحريف الثورة الحسينية، لنوروز أكبري زادكان.

٣ ـ العقل، أداة فاعلة في ردع التحريف ونشر معالم الثورة الحسينية، لمحمد منصور نجاد.

٤ ـ ظاهرة تزييف موروث عاشوراء من زاوية إنسانية، لعباس ايزدبناه.

٥ ـ أسباب تعرّض تاريخ الثورة الحسينية للتحريف، لمهدي رفيعي.

٦ ـ الأبعاد العسكرية لحادثة عاشوراء بين الواقع والتزييف، لإبراهيم مشفقي فر.

٧ ـ مثال على التحريف، دراسة لأحداث رجوع نساء الحسين عليه السلام وعياله من الشام إلى كربلاء في العشرين من صفر سنة ٦١ للهجرة، لعبد الرحيم قنوات.

٨ ـ الملحمة الحسينية في الأدب الفارسي وجملة من الإخفاقات، لمحمد دانشكر.

٩ ـ أبو مخنف، أشهر مؤرّخ لأحداث عاشوراء، للسيد علي مير شريفي.

---

(١) السيد علي أكبر البرقعي القمي، كانون إحساسات (محور العواطف): ١٥٩.

(٢) المجالس السنيّة ١: ١٠٩؛ وله أيضاً: لواعج الأشجان: ١٧٦.

١٠ ـ أبو مخنف الأزدي وحادثة عاشوراء بالاعتماد على المقتل المنسوب له، لعبد الله رجائي.

## ٥ . ٤ . ظاهرة التحريف في موروث عاشوراء في ضوء الإمامة، مشروع داوود إلهامي لنقد التحريف الباطني

يعدّ هذا المصنّف آخر عمل يقدّمه الأستاذ داوود إلهامي (١٣١٦ ـ ١٣٧٩ش/٢٠٠٠م)، يبحث فيه ظاهرة التحريف الباطني للدراسات التي تتناول حادثة عاشوراء، تاركاً التحريف الظاهري الناتج عن ضعف المصدر والسند والمضمون، إلى دراسات أخرى مهتمّة بهذا الشأن.

ويستعين المؤلّف في دراسته لأحداث عاشوراء بالمنهج التاريخي والاجتماعي، مضيفاً لهما الرؤية المسيحية والاتجاه الصوفي والعرفاني، كما يشرك النظرة الفقهية، ويخرج بعد ذلك بنتيجة يعبّر عنها قائلاً: «إنّ الأساليب المذكورة ليست كافيةً لدراسة حادثة عاشوراء وتقييم أخبارها، والأسلوب البديل الذي بإمكانه أن يكون مؤثراً في هذا المجال هو الاستعانة بخصائص الأئمة» (ص٧٨). وبعبارة أخرى: «كلّ خبر يروي هذه الحادثة إذا لم يكن موافقاً لخصائص المعصومين ومقامهم فبالإمكان عدّه من جملة التحريفات».

والذي يبدو من تركيز المؤلّف على أسلوب خصائص الأئمة لتقييم الأخبار هو اعتماده المنهج الكلامي التقليدي، وقد تأثر في ذلك بدراسة السيد ايزدبناه الذي تقدّم الحديث عنه في إطار ذكرنا للمقالات والدراسات المنتشرة في كتاب شمس الشهادة، وقد حملت الدراسة عنوان: ظاهرة تزييف موروث عاشوراء من زاوية إنسانية.

ويثني إلهامي في كتابه على آراء الشهيد مطهري والعلامة الطباطبائي وبحوثهما حول حادثة عاشوراء، ويشيد بهما بصورة كبيرة، فيما يرى أنّ سواهما ممّن كتب في هذا المجال قد ابتلي بالتحريف بشكل أو بآخر، لكنه مع ذلك يخالف الشهيد مطهري الذي يجلّ آراء عمان الساماني وصفي علي شاه العرفانية[1]، ويرى أنّ آراءهما حول حادثة عاشوراء ـ المتمخضة عن العقيدة الصوفية والعرفانية ـ أدت إلى ظهور نوع جديد من التحريف، بل أسوأ أنواع التحريف.

ويقتفي إلهامي أثر مطهّري في جعل العزة والإباء معياراً قيمياً لموروث

(١) مطهّري، الأعمال الكاملة ١٧: ٣٨١ ـ ٣٨٢.

عاشوراء، ويكتب بهذا الصدد في خاتمة بحوثه: «بعد كلّ ما تقدّم، يمكننا الخروج بنتيجة مهمة للغاية وهي أنّ العزة والإباء في واقعة كربلاء هي المعيار الأهم الذي يجب أن تقيّم في ضوئه كافّة الأخبار والمقاتل؛ ليعرف صحّتها من سقمها، وطبقاً لهذا الأصل فإنّ أيّ خبر أو رواية أو مقتل أو قصيدة أو شعر يفهم منه الذلّة والوهن وتوسّل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وعياله بالعدو، فهو كذب وتحريف وتزييف لا يمكن قبوله» (ص١٥٠).

هذا، وهناك مصنّفات عديدة تمّ مراجعتها وإعدادها لهذه الدراسة، لكننا نعرض عن ذكرها خوفاً من الإطالة والتكرار، ونكتفي بذكر هويّة كل منها:

١ ـ أضواء على ثورة الإمام الحسين، للسيد محمد الصدر، قم، مطبعة الشريف الرضي، الطبعة الأولى، ١٣١٨هـ ٢٣٧ صفحة، حجم: وزيري.

٢ ـ أبداً حسين أو شرعية الخروج على حكم الجور، شريف راشد الصدفي، بيروت، دار الهادي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٤٥٥ صفحة، حجم: وزيري.

٣ ـ دراسة تاريخية نقدية لأدب عاشوراء، للسيد عبد الحميد ضيائي، طهران، دار نقد فرهنك للنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، ١٧١ صفحة، حجم: رقعي.

٤ ـ دراسة تفصيلية لثورة عاشوراء: الشبهات والتزييف، مجموعة من الباحثين في حقل التاريخ، قم، مركز دراسات وبحوث الحوزة العلمية، الطبعة الأولى، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، ١٣٠ صفحة، حجم: رقعي.

ومن الكتب إلى المقالات؛ فقد تصدّرت مقالة الأستاذ مقصود فراستخواه مجموعة المقالات المدوّنة حول حادثة عاشوراء، وقد جاءت تحت عنوان: «حادثة عاشوراء تجربة سلوك اجتماعي في المجتمع الديني»، وهي جديرة بالمراجعة؛ لاشتمالها على ملاحظات قيّمة في مجال تحريف السيرة الحسينية، ولكونها تعيد قراءة الموروث لتقدّم عرضاً جديداً ومختلفاً لحادثة الطف[1].

---

(١) مقصود فراستخواه، دين وجامعه (الدين والمجتمع): ٥٥٧ ـ ٥٩٩، طهران، مؤسّسة سهامي للنشر، الطبعة الأولى، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م.

# تـاريخيـة تـدويـن المقتـل الحسيـنـي
## من التدوين إلى العاطفة إلى التوثيق

أ. محمد جواد صاحبي(*)
ترجمة: محمد عبد الرزاق

### تمهيد

تعدّ عملية تدوين سيرة شهداء كربلاء ورواياتها مَفْصلاً مهمّاً من مفاصل التاريخ، وقد اصطلح عليه بـ (المقتل)، وكان الناجون من الحادثة أوائل رواته، ثم يأتي بالدرجة الثانية بعض الجند في جيش يزيد، وقد أثبت أغلب ما ورد عن الرواة في كتب المقاتل، وهي عديدة يأتي في مقدّمتها مقتل أبي مخنف، والخوارزمي، وابن أعثم الكوفي.

سنعرض في المقال الحالي ـ بعد التعريف بأوائل كتّاب المقاتل وطرقهم التوثيقية ـ إلى ذكر كتّاب المقاتل اللاحقين ممّن ظهر في نصوصه الإحساس والعاطفة، وكيف أنّ هذه الظاهرة ظلّت مرافقةً لمشاريع تدوين المقاتل في أكثر الأحيان، لتستفحل أكثر في القرن الثالث عشر الهجري وما أعقبه، وستكون خاتمة البحث في الصراع بين التدوين والتحريف في التاريخ، وما حصل فيهما من تداخل على أرض الواقع.

### كربلاء، أفجع حوادث التاريخ

تعتز الأمم والشعوب الواعية بعظمائها وعلمائها الأفذاذ، فتشيد لهم الأضرحة وتقام التماثيل ويُحتفل بذكراهم، وهذا نابعٌ من رغبة البشر الجامحة إلى تعظيم

(*) باحث معروف، متخصّص في دراسة تاريخ الحضارات، والرئيس الثقافي لوزراء الثقافة والإرشاد الإسلامي في مدينة قم.

وتمجيد الأفاضل منهم. إنّ تعظيم المعالي فطرةٌ كمالية لدى الإنسان تدعوه لاحترام الرموز العظيمة وتكريمها. وتأسيساً على ذلك، من الطبيعي أن تفخر الأقوام برموزها وترفع من مكانتها، وهو أمرٌ قد نراه متجلّياً عند أصحاب الحضارات والآداب فيخلّدون تاريخهم الفذ بنصوصهم وآثارهم، لكنّ الأمر يختلف بالنسبة لوقعة الطفّ الأليمة؛ نظراً لطبيعة عناصرها والأجواء المحيطة بها، فهي ليست معركةً حماسية أو تراجيديا مأساوية، وإنما هي حادثة نادرة لم يحصل مثلها قبلُ ولا بعد.

ليس جزافاً أن ننفي تسجيل التاريخ لما يشابه عاشوراء؛ ففي ركبها ثلّة من خيرة المسلمين يتقدّمهم سبط الرسولﷺ مع أحفاده وحلائله بعزيمةٍ قلّ نظيرها، فقد يمّموا تلك الأرض استجابةً للدعاوى المتكرّرة من قبل أهلها، فما كان منهم إلا النكث والخيانة، وحاصرهم الجيش في الصحراء، مسجلاً أبشع جريمةٍ تاريخية قُتل فيها الآباء والأبناء والأطفال والنساء بشفاه عطشى وبطون غرثى، ولم يقف الأمر عند القتل بل تعدّاه إلى قطع الرؤوس ووطء الأجساد بحوافر الخيل، وقد بلغت الفظاعة مبلغاً انعكس حتى على مرتكبي الجريمة أنفسهم؛ فعاش كثير منهم تحت وطأة الضمير وعذاباته، كما يروى عن شبث بن ربعي في أيام مصعب بن الزبير(١).

وقد منعت قسوة الفجائع بعض المؤرخين من تدوينها(٢)؛ ولهذا تعدّ عملية توثيق حادثة كربلاء حالةً مغايرة لسائر حوادث التاريخ، اصطلح على توثيقها بـ (المقتل)، وكان لوصايا أهل البيتعليهم السلام وتوجيهاتهم في خصوص كربلاء ونشر تعاليمها الدور الأهم في روايتها تاريخياً.

ومن بين الروايات المتعلّقة بكربلاء نصوص متواترة جلية أكيدة الدلالة يتصل سندها بالمعصومينعليهم السلام، فعلاوة على قيمتها متناً، فإنّ وجود الإمام السجادعليه السلام في سندها هو بمثابة زيادة توثيق، بوصفه شاهد عيان على تفاصيل الحادثة من البداية وحتى النهاية.

## الناجون من المعركة، رواتها الأوائل

كان الإمام السجادعليه السلام حاضراً منذ بداية المشروع الحسيني، وهو حينها في

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٣٢، بيروت، دار التراث العربي، ١٣٨٧هـ.

(٢) راجع: التاريخ الفخري: ١٥٥؛ وتجارب السلف: ٦٧.

الثالثة والعشرين من العمر، فبات مرافقاً لوالده حتى استشهاده، ليقع بعدها في أسر الأعداء، وعلى عاتقه تقع قيادة النهضة الحسينية. ومع أنّ كتب التاريخ لم تروِ لنا شيئاً عن حضوره في الطريق من المدينة إلى كربلاء، إلا أنّ في روايات كربلاء تفاصيل هامّة عنه، ليلة عاشوراء وما أعقبها من أحداث، كما كان من بين الحاضرين في الواقعة ابنه الباقر عليه السلام، وله من العمر ثلاث أو أربع سنوات.

أما أبناء الإمام الحسن عليه السلام، فقد حضر بعضهم في ركب الحسين واستشهد، ووقع الناجون منهم في أسر الأعداء كعمرو بن الحسن المذكور في كتب التاريخ[١]، وكذلك الحسن المثنى صهر الحسين[٢]، وكان شاهداً على الحادثة برمّتها، وذهب للبراز كسائر بني هاشم ووقى الإمام عليه السلام بجسده وقاتل حتى قَتَل منهم سبعة عشر رجلاً، وقد أثقلته الجراحات والنبال فسقط بين القتلى مرهقاً وظنّهُ العدو ميتاً[٣]، ولما جاؤوا لحزّ الرؤوس عن الأجساد وجدوه حياً، وكان أسماء بن خارجة ـ خاله ـ حاضراً آنذاك؛ فطلب منهم أن يهبوا له ابن أخته، ويترك لابن زياد ـ إذا لقيه ـ القرار في مصيره، وفعلاً ذهب به إلى الكوفة، وسمع عبيد الله بالخبر ورأى من المصلحة بمكان أن يهبه لأسماء؛ لأنه كان من أعيان الكوفة ورئيس قبيلة فزارة، فقال: هبوا لأبي إحسان ابن أخته. وبعد معالجة جراحاته أرسله أسماء إلى المدينة. وقد علّق بعض المؤرّخين في هامش هذه الرواية ـ موضحاً علاقة القرابة بين الحسن المثنى وأسماء بن خارجة ـ بأنّ أم الحسن المثنى كانت من قبيلة أسماء، ووفقاً لتقاليد العرب في ذلك يكون خالاً له[٤].

أما عائلة الحسين عليه السلام، فقد شهد رجالها ونساؤها فاجعة عاشوراء وما أعقبها كأخواته وأزواجه وأبنائه، وأقرباء بعض الشهداء ممّن وقع في الأسر، وإضافةً إلى بعض أفراد عائلة الحسين وما تبقى من عوائل الشهداء، هناك جملة من المقاتلين

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٥٣، ٣٥٩.

(٢) المفيد، الإرشاد: ١٩٦، بيروت، مؤسّسة الأعلمي.

(٣) ابن طاووس، اللهوف: ١٩١، المطبعة الحيدرية، ١٣٦٩هـ.

(٤) راجع: السيد علي رضا واسعي، نكاهي نو به جريان عاشوراء: ٢٠١، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٣٨٤ش/٢٠٠٥م.

نجوا أيضاً من القتل لأسباب ذكرتها كتب السير والتاريخ، وهم:

١ ـ غلام عبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري الخزرجي، وإن لم تتوفر معلومات عنه بعيد الواقعة وما آل إليه مصيره، إلا أنّ أرباب الرواية ذكروا أنه كان حاضراً في كربلاء بصحبة مولاه عبد الرحمن، وقد روى بدوره جوانب من عاشوراء[١].

٢ ـ عقبة بن سمعان، وكان مرافقاً للحسين عليه السلام منذ بداية المشوار حتى وقع في أسر ابن زياد يوم عاشوراء[٢]، ولهذا تسنّى له أن يروي عدّة روايات هامة ودقيقة عن حركة الحسين واستشهاده.

٣ ـ وهناك (الطرماح) ممّن يعدّ في الناجين من أصحاب الحسين، وله مجموعة روايات عن الحادثة.

٤ ـ ابن ثمامة الأسدي، وكان في جيش الحسين وقد جاءت قبيلته لتخليصه من الأسر؛ فاصطحبوه معهم إلى الكوفة[٣].

٥ ـ الضحاك بن عبد الله المشرقي الهمداني، وكان قد التحق بركب الحسين في وسط الطريق، وعمل بما عاهد الحسين عليه، فقاتل جيش يزيد حتى اللحظة الأخيرة قبل أن يجد لنفسه مهرباً من المعركة، وعاش بعد الحادثة مدّة طويلة روى خلالها مشاهده عن كربلاء، وعنه روى أبو مخنف ـ حسب الطبري ـ مجموعةً من الروايات.

يضاف لهؤلاء، رواةٌ آخرون من الجانب الآخر، أمثال حميد بن مسلم، شبث بن ربعي وغيرهما ممن أنّبه عذاب الضمير وعاش ندماً على خطيئته، أو من أولئك الذين دفعهم الطمع وكسب الجاه إلى رواية بعض الأحداث.

## رادة تدوين المقتل الحسيني

لحسن الحظ، دوّنت جلّ تلك الروايات في قرنها الأول، ووصلنا كمٌّ كبير منها

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٢١.

(٢) المصدر نفسه: ٣١٣.

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٧.

عن طريق أبي مخنف. ومن المناسب بمكان أن نقدّم نبذةً عن شخصية أبي مخنف الذي يتصدّر مقتله قائمة أترابه من المقاتل.

إنّه أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي (١٥٧هـ)، من أصحاب بعض الأئمة كالصادق عليه السلام[١]، وله روايات عنه أيضاً[٢]، كان والده من أصحاب الإمام علي، وجدّه مخنف بن سليم (سليمة) الأزدي من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله والإمام علي، وكان عاملاً لعليّ على إصفهان وهمدان إبان خلافته[٣]، أما في معركة الجمل فقد كان مخنف حامل لواء قبيلته الأزد حتى استشهد[٤] هو واثنين من أخوته[٥].

يعدّ أبو مخنف من ثقات المحدّثين حتى قال عنه ابن النديم: «أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره»[٦]، وقد فقدت كتبه ـ وأغلبها في الإمام علي ومقتل الحسين ـ إلا أنّ رواياته في الحسين وعاشوراء قد شقّت طريقها إلى بطون الكتب التاريخية؛ فروى لنا الطبري في تاريخه قسماً كبيراً منها مع ذكر أسانيدها كاملةً وتناقلها عنه سائر المؤرخين. ومن الممكن تحصيل جلّ هذه الروايات في مؤلّفات أبي الفرج الإصفهاني، والشيخ المفيد، ومسكويه الرازي، وأبي حنيفة الدينوري، والبلاذري، وابن كثير، على أنّ هذه الكتب لم تذكر مصدرها في النقل، إلا أنّ وحدة النصوص بينها تدلّنا ـ بطبيعة الحال ـ على رجوعها إما إلى تاريخ الطبري أو مقتل أبي مخنف.

ومهما كان الأمر، يبقى الموضوع الأهم في روايات أبي مخنف هو اتصالها بشاهد العيان بواسطة أو واسطتين فقط؛ حيث دوّن مقتله بعد أقلّ من ستين أو سبعين عاماً على الحادثة، حيث لم تزل كربلاء حديث الناس في المجالس والأسواق،

---

(١) الطوسي، الفهرست: ١٥٥، النجف، المطبعة الحيدرية.

(٢) رجال النجاشي، تحقيق محمد هادي اليوسفي الغروي، قم،

(٣) منشورات داوري.

(٤) نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، القاهرة، المؤسّسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، ١٣٨٢هـ.

(٥) تاريخ الطبري ١٣: ٣٦.

(٦) ابن النديم، الفهرست: ١٥٨.

وهنا تكمن ميزة هذا الكتاب؛ إذ نادراً ما يحصل لمصدر تاريخي بهذا القِدَم أن يحظى بهذا التوثيق المباشر والسريع لاسيما في تلك الحقب.

ويقال: إنّ لأصبغ بن نباتة ـ وهو من أصحاب الإمام علي ـ كتاباً مماثلاً في مقتل الحسين، إلا أنّ الكتاب مفقودٌ تماماً ولم يحدّثنا أو يرو عنه أحدٌ من المؤرّخين، وهكذا بالنسبة لمقتل الحسين المنسوب لهشام الكلبي ـ أحد أصحاب الإمام الصادق ـ باستثناء جزء من رواياته التي تناقلها بعض المؤرّخين اللاحقين. ومن جملة المعاصرين للأئمة أيضاً يوجد هناك مقتل آخر لجابر الجعفي (١٢٨هـ)، لكن لم يصلنا منه سوى الاسم والعنوان. وهذه الوفرة في العناوين ومؤلّفيها إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على اهتمام أئمة أهل البيت البالغ بقضية الحسين، والتأكيد على نشر مبادئها وحرصهم وسائر الصحابة والتابعين ورواة المسلمين ومحدّثيهم على توثيق الحادثة والحفاظ على حقائقها.

نعم، كانت في مقابل هذه المساعي الحميدة لصيانة تاريخ الحسين ورسالته محاولات خبيثة يمارسها الأمويون وسائر سلاطين الجور لتحريف خطّ عاشوراء ودسّ السمّ بين طياتها لمحو حقيقتها الخالدة عن صفحات التاريخ؛ ولهذا السبب فقدت المكتبة التاريخية العديد من الرسائل والمدوّنات في القرون الأولى، على أنّ ما وصلنا من أحاديث وروايات في هذا المجال ليس قاصراً عن المطلوب، بل كفيلٌ بغرض التوثيق في أسانيدها ومتونها.

وإلى جانب هذه النصوص التاريخية الموثقة، توجد مصادر تنقل بعض الروايات دون ذكر الأسانيد، واللافت للنظر هو اتحادها مع تلك النصوص في الأسلوب والمضمون، وأحياناً تجد فيها زيادة في سرد بعض الوقائع الأخرى ممّا لم يرد ذكره في القسم الأول؛ وهذا ما يقوّي ظنّنا باتحادهما في المصدر الأول، كما يشاهد ذلك في روايات أمالي الصدوق (٣٨١هـ)(١)، وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي الشاعر والمؤرّخ الشيعي (٣٢٤هـ)(٢)، وهناك من يذكر في آثار الصدوق كتاباً باسم مقتل الحسين، إلا أنّه لا وجود مستقلّ له حالياً، ولا يُستبعد أن تكون تلك الأمالي

---

(١) الصدوق، الأمالي، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٦٣ش/١٩٨٤م، المجلس: ٣٠، ٣١.

(٢) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، الفصل السادس، بيروت، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٥هـ.

التي دوّنها طلابُه تعبيراً عن قسم من الكتاب المفقود.

مع ذلك كلّه، ثمّة مؤرخون آخرون رووا في كربلاء وحركة الحسين دون ذكر الأسانيد، ورواياتهم لا تتعارض في محتواها مع النصوص الموثقة، أمثال ما جاء في تاريخ اليعقوبي في مطلع القرن الثالث ومروج الذهب للمسعودي (٣٤٥هـ).

## امتزاج تدوين المقاتل بالعاطفة، بداية الانحراف في القرن العاشر الهجري

في القرن السادس الهجري، كتب الخوارزمي أبو المؤيد (٥٦٨هـ) مقتله في الحسين مستفيداً من كتب السير والتاريخ، وقد وصلنا الكتاب دون اختلاف في نُسَخه، ولا يزال الباحثون والخطباء يفيدون منه، وغالباً ما يَنسب الخوارزمي رواياته إلى ذويها، وأحياناً إلى أبي مخنف وأبن أعثم الكوفي، من هنا يُعتبر مقتله من المصادر الموثقة في هذا الباب، والتي حظيت باهتمام علماء الشيعة والسنّة على حدّ سواء. وفي الفترة ذاتها، أثبت أبو جعفر رشيد الدين محمد بن شهر آشوب (٥٥٨هـ) في كتابه (مناقب آل أبي طالب) مقتلاً للحسين على هامش سيرته، وكتابه هو الآخر من موثقات العلماء والمؤرّخين.

في القرن اللاحق، جاء عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس المعروف بالسيد ابن طاووس (٦٦٤هـ) وضمّن كتابه (مصباح الزائر وجناح المسافر) في الأدعية والزيارات، مقتلاً لسيّد الشهداء، كي يتسنّى لزائر الحرم الحسيني التزوّد من بركاته بذكر مصابه عليه السلام، وأطلق عليه اسم (اللهوف على قتلى الطفوف) وفي بعض النسخ (الملهوف). وقد التزم ابن طاووس فيه مراعاة الإيجاز؛ فأورد بعض الروايات دون ذكر أسانيدها كاملةً وأحياناً يرسلها إلى ابن أعثم الكوفي، الأمر الذي يؤكّد لنا رجوع الكاتب في أغلب رواياته إلى كتاب الفتوح لابن أعثم، وإن اشتمل أحياناً على روايات مشهورة.

وكانت خاتمة هذا النوع من المقاتل الروائية كتاب (مثير الأحزان) لنجم الدين جعفر بن محمد بن جعفر بن هبة الدين ابن نما الحلي (٨٤١هـ)، ثم هجرت هذه الطريقة لعدّة قرون، وفي القرن العاشر ظهر نمطٌ جديد من المقاتل أقحمت في

نصوصها بعض الأهواء والميول والأهداف السياسية مع إشراك خاصّ للعاطفة والأحاسيس الدينية؛ فاستُبدلت الروايات التاريخية بالمقاتل السردية، ولعلّ الريادة في هذا المجال تعود لكتاب (روضة الشهداء) للملا حسين واعظ الكاشفي (٩١٠هـ). وقد تباينت أقوال أرباب السير في حقيقة مذهب هذا الرجل وانتمائه، فبعضٌ قال: هو من الشافعية، وآخر من الحنفية، بينما ذهب آخرون إلى تشيّعه.

تطرّق الكتاب في بعض جوانبه إلى ذكر مواضيع مستحدثة من ابتكارات المؤلّف، ومع أنّه يرجع أحياناً لبعض المصادر، من قبيل كنز الغرائب والشواهد، إلا أنّ بعض رواياته مما لا نظير له في الكتب والمصادر المتقدّمة. أما الكتاب ـ ومنه اشتقّ مصطلح الروضة على مجالس العزاء الحسيني ـ فقد حظي بشهرة وانتشار واسعين؛ نظراً للغتهِ المباشرة وسلاسة أسلوبه، فتلقفه الخطباء والنعاة، وإليه تعزى بعض الأساطير والخرافات المقحمة في نصوص عاشوراء، فشقّت طريقها إلى بعض كتب الرواية والتاريخ واعتمدتها بعض المراجع المتأخرة أيضاً.

أما القرن الحادي عشر ـ العصر الصفوي ـ فقد كان هناك مصدران تحدّثا عن مقتل الحسين: أحدهما مقتل العوالم لعبد الله البحراني الإصفهاني، والآخر ما جاء ضمن موسوعة كتاب بحار الأنوار للمجلسي، وجاءت نصوصهما على غرار الأسلوب السابق، فأسندت بعض الروايات لمصادرها القديمة، وترك بعضها الآخر دون إسناد. ويستشهد المجلسي أكثر من مرّة بكتاب مقتل الحسين لمحمد بن أبي طالب بروايات شاذة، ولم يرد اسم الكتاب في المصادر المتقدّمة.

ونطالع في عهد القاجاريين اسم الملا آغا الشيرواني المعروف بالفاضل الدربندي (١٢٨٦هـ)، وهو من تلامذة شريف العلماء المازندراني، حيث كان له كتاب ذكر فيه أخبار مقتل الحسين عنوانه (إكسير العبادات في أسرار الشهادات)، وقد نهج فيه الدربندي أسلوباً مؤثراً في تحريك العاطفة واستمالة الأحاسيس بغية إبكاء القارئ على مصاب الحسين، وهو السبّاق في هذا المجال، على أنّ الكتاب لا يخلو من هزالة في بعض جوانبه[(١)].

---

(١) للاطلاع على سيرته راجع: الميرزا محمد التنكابني، قصص العلماء: ١٠٨، المنشورات الإسلامية؛ وشرح حال رجال بامداد ايران: ٢٩٦.

ولمحمد تقي سبهر الكاشاني أيضاً مشاركة في هذا المجال عندما أفرد جزءاً من كتاب (ناسخ التواريخ) للحديث فيه عن وقائع حركة عاشوراء ومقتل سيّد الشهداء، إلا أنّه لم يُشر في غضون ذلك لمصدر نقله؛ ولعلّ هذا هو السبب في تحريم السيد جمال الدين الأفغاني لقراءة الكتاب واعتبار مطالعته مضيعةً للوقت لا غير[١].

## عودة طابع التوثيق إلى المقاتل، نهضة القرن الثالث عشر الهجري

في القرن الثالث عشر الهجري، جاء دور فرهاد بن عباس الميرزا حفيد الملك القاجاري فتح علي شاه، وكان من تلامذة الميرزا عيسى قائم مقام فراهاني (الصدر الأعظم)، فكتب بين الأعوام ١٣٠٣ ـ ١٣٠٤هـ كتاباً بعنوان (القمقام الزخار والصمصام البتار)، معلّلاً مبادرته هذه بظهور الخلاف في الروايات وامتزاجها بتعليقات الرواة والشعراء والخطباء في مواضيع عاشوراء؛ وكان يرى في قوّة انتشارها ما لا يمكن تمييزه إلا على العالم الخبير، ولهذا صار بصدد إصدار كتاب منقّح خالٍ من الحشو، يتناول حياة الحسين من الولادة وحتى الشهادة.

وقد حصل معه ذات مرّة ـ وهو عائد من الحج سنة ١٢٩٣هـ في سفينته بين قبرص والرود ـ أن هاج البحر بطوفانه، فتوسّل فرهاد بالإمام الحسين ليخلّصه من سطوة البحر المحدق في ضحاياه، ونذر لقاء تحقّق دعائه إكمال كتاب المقتل، فألقى في البحر قبضةً من تراب الحسين، فهدأت سورة البحر وعاد إلى موطنه سالماً، إلا أنّ مشاغله عاقت مرّةً أخرى دون الوفاء بالنذر حتى عام ١٣٠٣هـ وفيه بدأ بالتأليف، يقول في هذا الخصوص: علم الله أنّي لم أدّخر جهداً في تنقيح النصوص والأخبار وفقاً لما جاء في كتب الفرق الإسلامية من أحاديث صحيحة وتواريخ موثقة، على قلّة بضاعتي وقصور طاقتي، وقد أثبتُّ ما تعاور على نقله المحدّثون والرواة منذ القرن الأول الهجري وما تلاه[٢].

---

(١) السيد جمال الدين الحسيني، بايه كذار نهضتهاي اسلامي، صدر واقعي، طهران شركة النشر، ١٣٤٨ش/١٩٦٩م.

(٢) فرهاد ميرزا، القمقام الزخار والصمصام البتار ١: ٨، طهران، المنشورات الإسلامية،

في القرن الرابع عشر، كتب الشيخ المحدّث عباس القمي كتابه (نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم) بالأسلوب نفسه وللغاية ذاتها، وجاء الكتاب أكثر دقّةً وتنقيحاً من سابقه. أما في القرن الخامس عشر فقد حظيت قضية الحسين باهتمام واسع؛ لظهور الحركات السياسيّة ـ الاجتماعية على الساحة الإسلامية، فبات من الضروري التحقيق في أخبار عاشوراء ومقتل الحسين؛ فصدر العديد من المؤلّفات بأساليب التحقيق المنهجي الحديث وبلغة معاصرة وأدبيات حيّة بما يفي ـ إلى حدّ ما ـ بتطلّعات المرحلة.

## الصدام بين التدوين والتحريف

إلى جانب تلك المساعي الحثيثة كلّها في اكتمال صورة المقاتل المدوّنة ظلّت حركة التحريف محدقةً بالتاريخ؛ فما أكثر ما حبّر ونشر محرّفاً لا غاية منه إلا الطعن في صميم المذهب وكتم الحقائق، وعلى الرغم من تشكيك بعض المؤرّخين والمحققين في روايات كربلاء واقتصار قبولهم على أصل الواقعة ومقتل الحسين فقط، إلا أنّ الواقع يؤيّد أن هذه الحادثة من أبرز ما نقله لنا التاريخ موثقاً؛ لأنّ غالبية مصادرها وصلتنا بأيادي أمينة، كما أنّها بقيت على وتيرة واحدة لسبعة قرون من الزمن دون أن يبرز فيها تناقض أو تعارض جوهري، وإن وجد في أخبارها ما لا يتوافق مع العقل والتجربة فإنه نابعٌ من الفنون الأدبية ومبالغاتها المنطبعة بطابع العاطفة.

لقد أدّى هذا التداخل بين الخرافات والحقائق التاريخية إلى ظهور اتجاهين في البحث التاريخي حول عاشوراء: الأول ارتأى التشكيك حتى في مسلّمات التاريخ، والثاني رأى الإصلاح في سبل البحث التاريخي لتمييز الغث من السمين، وإن كان البيهقي على حقّ عندما قال: «إذا تداخل الصدق بالكذب والغث بالسمين والصواب بالخطأ عسُر التمييز»[1]، وما زال صاحب هذه السطور يبحث منذ عقدين في المجال ذاته، فبالإضافة للمقالات المنشورة قدّمنا كتابين: مقتل الشمس، والتفسير القاني

١٣٦٣ش/١٩٨٤م، مقدّمة المؤلف.

(١) تاريخ البيهقي: ١٦.

لتاريخ الحسين، ولعلّ ما يميزهما هو سعي الكاتب إلى تنقيح وإجلاء غبار السنين عن سيماء عاشوراء بمعالجة الروايات وإثبات الصحيح منها، وتنبع مشقة هذا العمل من كثرة الروايات وتداخل نصوصها وتشابه أسماء رواتها، والجهد المبذول في تحليل نصوصها الممتزجة بين الحقيقة والمجاز، وغلبة المبالغة والاستعارات والكنايات في مداليلها بالإضافة إلى تأثير عنصر العاطفة، خصوصاً ما بدأ يضاف إلى الروايات بعنوان لسان الحال، الأمر الذي زاد من الهوّة بين الواقع والخيال، ذلك كلّه ولّد لنا نصوصاً لا تنسجم مع العقل والعلم.

ولا ننسى وجود جهود محمودة في هذا الباب للعديد من الباحثين والمؤرّخين جديرةٌ بالثناء والاستحسان.

# حادثة عاشوراء في الدراسات الغربية

## مدخل لرصد مساهمات الفكر الغربي

أ.عبدالحسين حاجي أبو الحسين ومحمّد نوري(*)

ترجمة: منال باقر

### المقدمة

اعتنى كثيرٌ من المفكّرين والباحثين الغربيّين بالواقعة الأليمة يوم عاشوراء، حادثة استشهاد الإمام الحسين بن عليعليه السلام (٤ ـ ٦١هـ)، وعندما ننظر إلى دراساتهم حول هذا الموضوع ـ بغضّ النظر عن دوافعهم النفسيّة والفكريّة ـ نرى تمحورها حول بعض المفاهيم والنقاط، مثل ظلم الإمام الحسين وعائلته، ووقوع مثل هذه الحادثة القبيحة على يد نظام سياسي يحمل اسم الإسلام يستخدم هذا السبيل في مواجهة المعارضين السياسيين والفكريين له، وسلوك الإمام عليعليه السلام وأعماله وتكتيكاته بوصفه زعيم المعارضين للنظام الحاكم، وحركات المعارضة في الدولة الإسلاميّة.

وتتمركز دراسات الباحثين الغربيّين في خمسة محاور، كما أظهر المفكّرون الغربيّون رؤى جديدة حول كربلاء وعبرها خلال العقود الثلاثة الأخيرة؛ وذلك بسبب ظهور الثورات وكثرتها في العالم الإسلامي وإعادة بناء الأفكار النهضويّة على أساس ثورة الطف. وقد قدّم الباحثون المسلمون ـ وبشكل عام ـ قراءات جديدة حول ظاهرة عاشوراء؛ وهو ما عزاه الغربيّون إلى ظهور الأصوليّة الإسلاميّة في العالم، كما أنّ علم الاجتماع اعتبر أنّ الشيعة شكّلوا أرضيّة مساعدة على نشر هذا

---

(*) أما حاجي فهو باحث في الدراسات الغربية، وأما محمد نوري فهو باحث في الحوزة والجامعة، ومشرف وكاتب في العديد من الموسوعات الإسلامية.

اللون من التفكير(١).

سنسعى في هذه المقالة إلى التعريف بالمصادر المنشورة في الغرب من قبل المفكّرين الغربيّين، دون أن نتعرّض إلى نتاجات الباحثين الشرقيّين غير المسلمين أو حتّى مستشرقي الشرق(٢)، كما سنركّز على المصادر الأساسيّة المهمّة في هذا المجال، فلن نتناول تلك المقالات الصُحفيّة والركيكة، كما سنبيّن الهدف من وراء تلك الكتابات بحيث تكون مرجعاً في هذا السياق، كما نطلّ على تلك التي اتخذها الباحثون أساساً في دراساتهم.

إذن، سنعرّف هذه المقالات بالترتيب وفق تاريخ نشرها، حيث نتعرّض أوّلاً إلى نبذة مختصرة حول الكاتب ونذكر نتاجاته المهمّة، ومن ثمّ نبيّن أعماله في دراسة قضية عاشوراء.

ولا يفترض أن ننتظر هنا في هذه المقالة عرضاً لسيرة حياة أولئك الباحثين بشكل كامل ومفصّل، كما لن نقوم بنقد الدراسات العاشورائيّة الغربيّة، لذا سيتخذ البحث طابعاً توصيفيّاً خالصاً(٣).

## الترجمات وتصحيح الكتب

اطّلع المستشرقون على تراث المسلمين العلمي في مجال الدراسات العاشورائيّة أوّلاً عن طريق ترجمة الدراسة نفسها، أو من خلال تصحيح الترجمة،

---

(١) من بين الأبحاث التي كتبت حول محرّم وعاشوراء وكربلاء والإمام الحسين، يمكن الإشارة إلى الموارد التالية:

Michael Fischer, Iran From Religious Dispute to Revolution, Cambridge, Mass, ١٩٨٠.

Vernon Schubel, Religious Performance in Contemporary Islam, Columbia, ١٩٩٣.

(٢) من باب المثال، نشر سليمان كتاني كتاباً جميلاً يحمل اسم «الحسين في حلّة البرفير» الذي طبع للمرّة الأخيرة في بيروت، دار المرتضى، ١٩٩٣م. وقام برويز لولاور بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفارسيّة، وطبع بهذه المشخّصات: امام حسين عليه السلام در جامه ارغواني، قم، نصر، ١٣٧٨ش/١٩٩٨م.

(٣) نشرت الكثير من النقود على أعمال المستشرقين، وللمراجعة يمكن الاطلاع على: فؤاد كاظم المقدادي، الإسلام وشبهات المستشرقين، قم، المجمع العالمي لأهل البيت، ١٤١٦هـ.

واستناداً إلى تقرير فؤاد سزكين، نرى أن هاينرش فرديناند وستنفلد[١] ترجم كتاب مقتل الحسين بن علي لأبي مخنف إلى اللغة الألمانيّة[٢]، ويشير فاليبري عند الحديث عن مصادر مقالة (دائرة معارف الإسلام) أنّه تمّ ترجمة كتاب ابن طاووس إلى اللغة الألمانية.

Der Tod Des Husein Ben Ali Lnd Die Rache, Ein Arabischen His Torischer Roman, Aus Dem.

وقد نشر وستنفلد هذه الترجمة في غنتغن عام ١٨٨٣م، في الجزء الثلاثين (Abh. G. Gott)[٣].

وإذا جمعنا بين تقريري سزكين وفاليبري، نرى أن وستنفلد قد ترجم كتاباً أو أقساماً من كتابي أبي مخنف وابن طاووس. ومع الأخذ بعين الاعتبار الحجم الكبير لهذين الكتابين، يجب أن تؤخذ هذه التقارير بعين الشك والترديد؛ لأنّنا لم نستحضر أصل الترجمة للحكم عليها. وغير هذين الكتابين ـ اللذين نملك اطلاعاً عنهما ـ انتشر الكثير من سجلّ التصحيح والترجمة للمستشرقين في المصادر العامّة للتاريخ الإسلامي.

من هنا، نجد أنّ الكثير من المصادر التاريخيّة التي تشمل أحداث كربلاء وعاشوراء كان قد ترجم على أيديهم؛ وعبر ذلك اطّلع الغرب على الدراسات الإسلاميّة العاشورائية وتعرّفوا عليها، وفي هذا السياق، نذكر بعض الأمثلة[٤]:

١ ـ شكّلت الترجمة الإنجليزيّة لكتاب الشيخ المفيد «الإرشاد» منطلقاً للمطالعة، ومصدراً لدراسات المستشرقين حول كربلاء والإمام الحسين عليه السلام[٥]، فمن باب

---

(١) Heinrich Ferdinand Wustenfeld ١٨٠٨ – ١٨٩٩.

(٢) فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، التدوين التاريخي: ١٢٩.

(٣) El, CD-Rom, Biblugraphy of Eassys of Hussein Bn Ali . وانظر أيضاً: دائرة المعارف الإسلاميّة، طبع الشارقة، ١٢: ٣٨٧٨.

(٤) لمزيد من الاطلاع الجامع انظر: كتابشناسي تاريخ اسلام، لمحمد نوري وقاسم خانجاني؛ Index Islamicus.

(٥) Mufid, Mohammad, Kitab AL-Irshad, trans. I. K. A. Howard, Elmhurst, N, Y, ١٩٨١.

المثال تدين مقالة (Husagn Ibn Ali) في «دائرة معارف العالم الإسلامي الجديد» بالكثير لهذا الكتاب[١].

٢ ـ ترجم هافارد القسم الذي يتحدّث عن خلافة يزيد بن معاوية من كتاب تاريخ الطبري إلى اللغة الإنجليزيّة[٢]، والذي شكّل مصدراً مهمّاً للباحثين الغربيين ودراساتهم فيما بعد[٣].

٣ ـ كان قد نُشر متن تاريخ الطبري للمرّة الأولى بين عامي ١٨٧٩ و١٨٩٨م في ليدن بجهود دخويه[٤] ومساعدة بارث، نولدكه، ولوت، ملروغويدي. كما نشر دخويه مجموعة من موضوعات تاريخ الطبري التي تدور أحداثها بين عامي ٦٥ و٩٩هـ كما وتشمل واقعة كربلاء أيضاً[٥].

٤ ـ يعتبر نصّ كتاب: أنساب الأشراف للبلاذري (٢٧٩هـ) من النصوص الأصلية والقديمة في التاريخ الإسلامي؛ حيث قام عدد من المستشرقين بتصحيحها وطبعها. وفي هذا السياق، طبع مادلونغ الجزء الذي يدور موضوعه حول علي بن أبي طالب وأولاده عليهم السلام[٦].

٥ ـ شكّل كتاب مسكويه الرازي: «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» (... ـ ٤٢١هـ) محطّ اهتمام المستشرقين، حيث قام المستشرق الإنجليزي هنري فردريك آمدروز[٧] بتصحيحه ونشره، وساعده مارغوليوت[٨] (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م) في كثير من

---

(١) The oxford Encyclopedia of the Moderns Islamic World, Vol. ٢, P. ١٥٠ – ١٥١..

(٢) Tabari, Mohammad ibn jarir, The History of Al – tabari, Vol. ١٩, The Caliphate of Yazid b Muawiyah, trans. I. K. A. Howard, Al bany, N. Y. ١٩٩٠..

(٣) Oemiw, Vol. ٢, P. ١٥٠ - ١٥١.

(٤) M. J. De Goege..

(٥) Sommano degli Annali de at – T er Gli anni delloeg, Roma, ١٩٢٥..

(٦) لمزيد من الاطلاع على هذه الطبعة، راجع: محمد نوري وقاسم خانجاني، مأخذ شناسي تاريخ اسلام.

(٧) H. F. Amedroz..

(٨) D. S. Margoliuth.

الأجزاء، وقد تمّت بعد مدّة ترجمة خلاصة هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزيّة[١].

٦ ـ وثمّة الكثير من المخطوطات القديمة التي إمّا اهتمّ بها المستشرقون أو ترجموها، وهي: الفتوح لابن الأعثم الكوفي، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والمختصر في أخبار البشر لابن أبي الفداء، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي. والجدير بالذكر، قيام الباحثين الغربيّين بنشر الكثير من المصادر التاريخيّة القديمة للمسلمين، والتي لا يسعنا ذكرها لكثرتها[٢].

## الدراسات الاستشراقية التحليليّة لظاهرة عاشوراء

ظلّت دراسات الغربيّين حول عاشوراء في قالب الدراسات الكلاسيكيّة والعلميّة إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. ولم تكن هذه الدراسات مستقلّةً، بل جاءت في ثنايا كتب متعدّدة. وقد كانت امتازت أيضاً بمنهجها التاريخي وارتكازها على المصادر التاريخيّة.

أمّا في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد شهدنا تحوّلاً تدريجيّاً في الدراسات الغربيّة لعاشوراء، ويتمثل:

**أوّلاً:** جاءت هذه الكتب والمقالات مستقلّةً.

**ثانياً:** ظهر فيها تنوّع موضوعي ومنهجي، فلم يكتف الباحثون بالمنهج التاريخي والتوصيفي، بل سعوا إلى اكتشاف أسباب الحوادث وفق علمي الاجتماع والسياسة، مثل الدراسات التي قاموا بها في مجال الآداب والتقاليد الاجتماعيّة، ومثل التعزية؛ حيث قاموا بممارسة تحليل سيسيولوجي ونفسي لعاداتها وتقاليدها، متعرّضين أيضاً للاختلافات الموجودة بين المذاهب الإسلاميّة.

ونحاول هنا استعراض دراسات الباحثين طبقاً للتقدّم الزمني لها، ونعرض منجزاتهم الجديدة والمستقلّة.

---

(١) انظر أيضاً: ٦٢ . ٦٣.

(٢) انظر: محمد نوري وقاسم خانجاني، مأخذ شناسي تاريخ اسلام؛ ومحمد باقر حماده، رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب؛ Jean Sauvaget, Introduction of the History of the Muslim, U. S. A. lniversitu of Colifornia Press, ١٩٦٥.

**١ . هانريش فردیناند وستنفلد (١٨٠٨ . ١٨٩٩م)**

مستشرق ألماني ومتخصّص في التاريخ الإسلامي والأدب العربي[(١)]. أنهى دراساته العلميّة في جامعات هانفر وبرلين، كان أوّل باحث عرفه الغرب في كتابة المقاتل من خلال نشره لمقالة مقتل الحسين لأبي مخنف[(٢)].

وثمّة دراسة أخرى له، كان قد ترجمها إلى اللغة الألمانيّة، وقد أسلفنا الحديث عنها[(٣)].

**٢ . أوغست مولر[(٤)] (١٨٤٨ . ١٨٩٢م)**

وهو ابن الشاعر الألماني الكبير ويلهم مولر، وخرّيج جامعات ليبزيك وفيين في اللغات الشرقيّة، كتب الكثير من الكتب والمقالات المختلفة في مجال التاريخ الإسلامي. ويُعدّ كتاب (الإسلام في الشرق والغرب) واحداً من أهم مؤلّفاته، فهو في الواقع عبارة عن تتمّة لعمل نولدكه، ويدور قسم كبير من هذا الكتاب حول الحسين بن علي عليه السلام، كما يعتبر هذا الكتاب من الناحية الزمنيّة من أقدم الأبحاث والدراسات التي طرحت حادثة الطف[(٥)].

**٣ . جوليوس ولهزن[(٦)] (١٨٤٤ . ١٩١٨م)**

من المستشرقين الألمان المشهورين الذين تخرّجوا من جامعة غتنغن[(٧)] في

---

(١) للاطلاع على سيرته الذاتيّة وعلى مؤلّفاته انظر: سحاب، فرهنك خاور شناسان: ٣٣٣؛ ويوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة ٢: ١٩١٧ . ١٩١٨.

(٢) مشخصات هذه المقالة: " Der Tod des Huseins Lnd dire Rache". AGGW, ١٨٨٣, S, IV – VI.

(٣) فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، التدوين التاريخي: ١٢٨.

(٤) Aug. Muller.

(٥) العنوان الأصلي لهذه الدراسة "Islam in Morgen Lind Abend lan"، حيث كانت الطبعة الأخيرة لها في برلين عام ١٩٨٥م. أما قصّة الحسين بن علي فجاءت في الجزء الأوّل من هذه الطبعة.

(٦) Julius Welhausen.

(٧) Gottingen.

قسم اللغات الشرقيّة. كان ولهزن على اتصال دائم بالتاريخ الإسلامي؛ فترجم قسماً من كتاب (المغازي) إلى اللغة الألمانيّة، وقد نشرت الترجمة في برلين عام ١٨٨٢م. وألّف كتاباً آخر وهو المقدّمة في التاريخ الإسلامي[١]، ثمّ قام بتصحيح كتاب تاريخ الطبري عام ١٨٨٧م، أمّا فيما يتعلّق بدراستيه حول الحسين بن علي عليه السلام وحادثة كربلاء؛ فهما:

أ ـ معارضة الأحزاب السياسيّة والدينيّة في التاريخ الإسلامي، نُشر عام ١٩٠١م[٢].

ب ـ الدولة العربيّة من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأمويّة وسقوطها[٣]، وقد نشر في برلين عام ١٩٠٢م.

سعى ولهزن إلى تفسير دور الحسين بن علي في عهد الخلافة الأمويّة وفق الرؤية التاريخيّة والكلاميّة والعلم اجتماعيّة.

وقد ترجم غراهام[٤] هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزيّة، ونُشر تحت عنوان «مملكة العرب وسقوطها»[٥]، كما ترجم هذا الكتاب مرّتين إلى اللغة العربيّة، فكانت الترجمة الأولى لـ «يوسف العش» الذي نقله من اللغة الإنجليزيّة ونُشر في دمشق عام ١٩٥٦. فيما كانت الترجمة الثانية لـ «محمد عبدالهادي أبو ريده» عن النصّين: الألماني والإنجليزي، ونشر في القاهرة عام ١٩٥٧م.

يتحدّث كتاب «معارضة الأحزاب السياسيّة والدينيّة في الإسلام» بشكل مفصّل حول الخلافات بين الشيعة والخوارج على موضوع الخلافة، ويتضمّن حوالي أربعين صفحة عن الحسين بن علي عليه السلام[٦].

---

(١) Zur altesten Geschichte DesIslams, Berlin, ١٨٩٩.

(٢) Die Religious – Politischen Oppositions Partein Imalten Islam, In Abhhandlungen. Der Kgl. Berlin, ١٩٠١..

(٣) Das arabisch Reich lnd Sein Stas, Belin, ١٩٠٢..

(٤) Graham Weir..

(٥) Arab Kingdom and its fall.

(٦) ترجم هذه الدراسة محمود رضا افتخاري إلى اللغة الفارسيّة ونشرت تحت عنوان: تاريخ

قضى ولهزن عمره في مطالعة الدراسات التي تتعلّق بالتاريخ الإسلامي بشكل عام وتاريخ العرب بشكل خاص، وبالأخص تلك التي تتحدّث عن تاريخ الصدر الاسلامي، وقد شكّلت مؤلّفاته ـ خاصّة تلك التي تتحدّث عن الحسين بن علي ـ مصدراً للكثير من الدراسات والأعمال التي جاءت بعده[١].

**٤ ـ هنري لامانس[٢] (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧م)**

وهو من أصل فرنسي، لكنّه وُلد في بلجيكا، وقد لحق عام (١٨٧٨م) بسلك الرهبنة، وتخرّج من جامعة القدّيس يوسف (سان جوزيف) في بيروت في قسم الأدب العربي. لديه العديد من المقالات والكتب حول التاريخ الإسلامي. ألّف كتابه الأوّل الذي يدور حول الحسين بن علي، وهو «فاطمة وأبناء محمدﷺ[٣]»، وقد نُشر في روما عام (١٩١٢م)[٤].

بعد ذلك، قرّر أن يدخل مع فريق مؤلّفي «دائرة المعارف الإسلاميّة ليدن» حيث كتب مقالة «الحسين بن علي» واعتمد فيها على كتاب «فاطمة وأبناء محمدﷺ[٥]».

وقد ترجم إبراهيم زكي خورشيد هذه المقالة إلى اللغة العربيّة، وبدوره قام أحمد محمد شاكر بكتابة نقديات على موضوعاتها التي جاءت على شكل هوامش في المقالة نفسها. وتمّ حذف مقالة لامانس من الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلاميّة حيث حلّت مقالة فيسا فاليري مكانها[٦]، ويمكن القول بأن عمل فاليري ـ الذي نُشر مقالةً طويلة في دائرة المعارف تلك ـ كان أهم وآخر دراسة غربية حول الحسين بن

---

سياسي صدر اسلام: شيعه وخوارج، طهران، دفتر نشر معارف اسلامي، ١٣٧٥ش/١٩٩٦م.

(١) لمعرفة سيرة حياته الذاتيّة وآرائه وما جاء عليه من نقود، انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون: ٧٢٤ ـ ٧٢٥؛ ومقدمة محمود افتخار زاده على كتاب تاريخ سياسي صدر اسلام.

(٢) Henry Lammens.

(٣) Fatima et Les Filles de Mahomet.

(٤) نجيب العقيقي، المستشرقون ٣: ١٠٦٨.

(٥) دائرة المعارف الإسلاميّة ٧: ٤٢٩.

(٦) L. veccia Vaglieri.

علي[١].

كما كتب لامانس كتاباً كبيراً حول يزيد بن معاوية، حمل عنوان «خلافة يزيد الأوّل»[٢]، وقد نشرته دار النشر الكاثوليكيّة عام ١٩٢٢م[٣]. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الكتاب تضمّن حوالي خمسين صفحة عن الحسين بن علي، ويبدو كأنه نشر قسماً أو خلاصة له في مجلة MFO (مجلد ٥، ١٩١١: ٨٠ ـ ١٢٩).

كما قام بنشر كتاب آخر ـ قبل الكتابين السالف ذكرهما ـ وهو «حكومة الخليفة الأموي معاوية» في باريس عام ١٩٠٦[٤]، في ٤٤٨ صفحة، وتضمّن كلاماً حول شخصية الإمام الحسين وثورته.

وتعتبر مؤلّفات لامانس من أهم الدراسات التي تحدّثت عن الإمام الحسين في أوروبا أوائل القرن العشرين، حيث اعتمد الكثير من الباحثين عليها فيما بعد.

**٥ . دوايت دونالسون[٥]**

مستشرق بريطاني، لديه الكثير من الدراسات حول الشيعة. نشر كتاب عقيدة الشيعة في الإمامة عام ١٩٣١م. بعد ذلك، نشر كتاب المذهب الشيعي عام ١٩٣٣م[٦]، والذي يحوي قسماً عن الإمامة والحسين بن علي.

**٦ . ساندرو بوساني[٧] (..... ١٩٢١م)**

من المستشرقين الإيطاليين البارزين[٨]، لديه الكثير من المؤلّفات التي تحدّثت

---

(١) وردت مقالة El تحت عنوان "Husayn B Ali"، أمّا الترجمة العربية لها لإبراهيم زكي خورشيد، فقد وردت في دائرة المعارف، الشارقة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨م، ج١٢: ٣٨٤٩ ـ ٣٨٧٩.

(٢) Le Califat de Yazid Ler.

(٣) دائرة المعارف الإسلاميّة ٢٢: ٣٨٧٩، طبع في الشارقة، نشر في بيروت، ١٩١١م.

(٤) Etudes Sur Regne de Moawia Ler.

(٥) Dwight M. Donaldson.

(٦) The Shi ite Religion a History of Islam in Persia and Irak, London, ١٩٩٣..

(٧) Alessandro Bausani.

(٨) للمزيد من الاطلاع على سيرته الذاتيّة وعلى خدماته، انظر: نصر الله ينك بين، فرهنك

عن تاريخ الإسلام وتاريخ إيران بعد الإسلام. يُعدّ كتابه «الأديان الإيرانية»[١] من جملة الأعمال المهمّة؛ حيث قدّم تاريخ ظهور المذهب الشيعي وتحوّله في إيران، إضافة إلى معتقدات سكّان هذه البلاد. وتضمّن هذا الكتاب قسماً مهمّاً عن الإمام الحسين وعاشوراء وكربلاء.

### ٧. فيسا فاليري[٢]

من المستشرقين الإيطاليين، وأستاذ جامعة نوبل[٣] في إيطاليا في قسم تاريخ الإسلام. عُرف في الدول الإسلاميّة بشكل أساسي عبر كتاب «تاريخ اسلام كمبردج». كتب في الجزء الأول منه عن خلافة الأمويّين، وكتب كل من مونتغمري واط، وسورول، الأقسام الأخرى له. أمّا في القسم الثاني منه، فتعرّض فيسا إلى واقعة كربلاء وعاشوراء. ويعدّ كتاب «تاريخ اسلام كمبردج»[٤] من المصادر التحليليّة والنصوص الدراسيّة في الجامعات الغربيّة، كما أنّ مؤلّفات فيسا انتشرت بشكل واسع جداً وكان لها تأثير فاعل.

وهناك عمل آخر لفاليري، وهو عبارة عن مقالة طويلة في دائرة المعارف الإسلاميّة في ليدن، تحمل عنوان «الحسين بن علي». ويمكن القول: إنّ هذه المقالة تمثل آخر دراسة مهمّة في الفكر الغربي حول عاشوراء.

أمّا الدراسات الغربيّة الجديدة والمهمّة، فهي:

---

جامع خاورشناسان مشهور ١: ١٥٢ ـ ١٥٨؛ ومجلة راهنماى كتاب، العدد ٦، ١٣٤٢، ص: ٥٠٤، ٥١٤، ٦٤٧ ـ ٦٦٠.

(١) The Persia Religiosa, Milan, ١٩٥٩, ٥٤٢٤٥٣p. , Italic.

(٢) L. Veccia Vaglieri.

(٣) Naples.

(٤) دوّن هذا الكتاب أوّلاً بعنوانه الإنجليزي The Cambrindge History of Islam في جزئين، ثم في طبعته الثانية دُوّن في أربعة أجزاء من قبل مجموعة من المؤلّفين، وقام بتصحيحه كلّ من السادة: حولت، ولمبتون، ولويس، ونشر كذلك: London and New York, Combridge University Press, ١٩٢٠, other Press ١٩٧٧؛ وقد قام أحمد آرام بترجمته إلى اللغة الفارسية في جزءين، ونشر تحت عنوان: تاريخ اسلام بزوهش دانشكاه كمبريج، طهران، أمير كبير، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م.

١ ـ كتاب «كربلاء الأرض المقدّسة عند شيعة أمريكا الشماليّة» لمؤلّفه شوبل، نُشر عام ١٩٩٦م[١]. وثمّة كتاب آخر قبله، وهو «المراسم الدينيّة في الإسلام المعاصر»[٢]، والذي وصف عادات الشيعة وتقاليدهم، خاصّة مراسم عاشوراء في آسيا الجنوبيّة.

٢ ـ دراسة «مراسم عاشوراء عند المسلمين من أهل السنّة» لمؤلّفها فير، وقد نُشرت عام ١٩٩٥م[٣].

٣ ـ ثلاث مقالات وهي: «الحسين بن علي» و«عاشوراء» و«كربلاء»[٤]، من بين المقالات التي تضمّنتها دائرة المعارف الإسلامية في ليدن.

٤ ـ كتاب التعزية الذي يعرض المشهد الدراماتيكي في أرض كربلاء[٥]، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات لمؤلّفين غربيّين وإيرانيين، نشره بيتر شكلوفسكي، وقد قام داوود حاتمي بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفارسيّة، فحمل العنوان التالي: «تعزيه هنر بومي بيشروايران»[٦].

٥ ـ «حصان كربلاء»، وهي دراسة لديفيد بيناولت، وهي من مجموعة الدراسات الأخيرة في هذا المجال[٧].

٦ ـ الدراسات الثلاث: «محرم» و«كربلاء» و«عاشوراء»[٨]، أعدّها اسبوزتيف،

---

(١) Vernon Schubel, Berkeley, Karbala as Sacred Space among North Amerìean, Shicia, Lnivesity of Caligornia, Press, ١٩٩٥..

(٢) Religious Performance in Contemporary Islam: Shi'I Devotional Ritual in South Asia.

(٣) Louis Fier, The Celebration of Ashura in Suni Islam, ١٩٩٥, Columbia, S. C., ١٩٩٣..

(٤) Hosin B Ali by L. Veccia Vaglieri and ashura and Karbary by Ernest Honigmann in Encyclopedia of Islam, Laiden, Brill, ١٩٦٠ – ١٩٩٥..

(٥) Peter Chelkowski, Taziyeh: Ritual and Dramain Iran, New York, ١٩٧٩..

(٦) مشخصات كتابشناختي، طهران، علمي فرهنك، ١٣٦٧ش/١٩٨٨م.

(٧) Horse of karbala: Muslim devotional Life in India, David Pinault, New York, ٢٠٠٠, Xii٤ ٢٥٧p..

(٨) Ashura by Peter Chelkowski and Karbala By Abdulaiziz Sachedin and Mahmoud

المشرف على دائرة المعارف الإسلامية العالمية المعاصرة، وقد قدّمت كلٌّ منها حادثة عاشوراء واعتقاد المسلمين فيها وفق رؤية جديدة للعالم الإسلامي، ممّا يدلّ على مدى اهتمام الغربيّين بدراسة أحداث عاشوراء.

٧ ـ كتاب «المناسبات الإسلاميّة في محرم وعاشوراء» لغرونبوم، الذي قدّم فيه عاشوراء ومحرّم بوصفهما من شعائر الدين الإسلامي وتقاليده[١].

٨ ـ كتاب «التعزية: الشعائر والمعتقدات العامّة في إيران»[٢] للمؤلّف ريغيف، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التحليليّة والعلميّة التي تتحدّث عن العزاء.

٩ ـ كتاب لكل من روزي وبُمباسي حول التعزية والمشهد الدراماتيكي المذهبي في الأدب الإيراني، حيث قام المؤلّفان بتحليل الأبعاد المختلفة للمشهد العاشورائي[٣].

١٠ ـ كتاب «الحسين في الفكر المسيحي» للمؤلّف انطوان باران، الذي شكّل مادةً جديدة أظهر فيه المؤلّف الجانب الإنساني للحسين بن علي، مقدّماً تحليلاً للقيم التي استشهد من أجلها. وقد برز في الكتاب مدى تأثّر الكاتب بسلوك الحسين، مؤكّداً على أوجه الشبه بين كل من المسيح والحسين بن علي، واللذين انتهت حياتهما بالشهادة[٤].

١١ ـ كتاب «الإمام الحسين وإيران» الذي دوّنه كورت فريشلر من خلال تحقيقه حول الإمام الحسين ومدى انعكاس سيرته وشهادته وتعاليمه على الفكر

---

M. Ayoub and Taziyah by Peter Chelkowski and in The Oxford Encycbopedia of ..the Modern Islamic, World. Ed, John L Esposito, New, ١٩٩٥

(١) Muhammadan Festivals, G, E, von Grunebaum, London, ١٩٥٨..

(٢) Taziyah: Ritual and Popular Belifs in Iran, Ed. Milla Cozart Riggio, Hartfrd, Conn, ١٩٨٨..

(٣) Elenco di drami Religious Persiani, Ettore Rossi and Alessio Bomdaci, Vatican, ١٩٦١..

(٤) طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى عام ١٩٧٨م، أما الطبعة الثانية والتي قدّمها أسعد علي والسيد محمد بحر العلوم، فنشرت كذلك: الكويت، ١٩٨٠م/ ١٤٠٠هـ؛ أفست، الطبعة الثانية، قم، ١٤٠٤هـ.

الإيراني. قام ذبيح الله منصوري بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية، لكنّنا لم نحصل على النصّ الأصلي، ولم يذكر منصوري شيئاً عن مشخصات النص الإنجليزي[١].

١٢ ـ مقالة «اللطم وضرب الجنازير عند الشيعة في محرم» لمؤلّفها آيند فرنر، والتي نشرت في مجلّة الإسلام. وهي في الواقع عبارة عن مقالة نقديّة لهذه العادات والتقاليد القديمة[٢].

١٣ ـ أمّا الدراسة الأخيرة والتي كان لا بدّ من الحصول عليها، فهي لـ «ويلغرد مادلونغ»[٣]، وتتحدّث عن الخلافة الإسلاميّة في الصدر الإسلامي، وفي قسم منها حديث عن الحسين بن علي[٤].

وفي الختام، تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الدراسة عبارة عن انتقاء لنخبة من الدراسات العديدة حول عاشوراء في الغرب، آملين أن تنتشر جميع الأبحاث الغربيّة في هذا المجال؛ حتّى تتطوّر وتنمو وتعتلي[٥].

---

(١) الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ؛ الطبعة الثانية، طهران، جاويدان، ١٣٥٥ش/١٩٧٦م.

(٢) The Flagellations: Muharam and The Shiite Lama", Werner Inde, Der Islam, V. ٥٥., No. ١, March ١٩٧٨.

(٣) Wilferd Madelung.

(٤) The Succession to Muhammad: a stubby of the early caliphate.

(٥) مشهد، بنياد بزوهش هاى اسلامي، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م.

# التحريف في السيرة الحسينية

## دراسة في المظاهر والأشكال

الشيخ محمد صحتي سردرودي(*)

ترجمة: حيدر حب الله

### المدخل

في مجال دراسة الظاهرة العاشورائية، ثمة تساؤلات كثيرة تواجهنا، يمكن أن يكون بعضها استفهامات أساسية ومدخلية، وأحد هذه التساؤلات المفتاحية والمفيدة هو السؤال التالي: لماذا وكيف وما هي الأسباب والعوامل التي بعثت على تحريف تاريخ عاشوراء والسيرة الحسينية؟ نحاول هنا ـ بإعادة قراءة تاريخ عاشوراء وثقافتها ـ الإجابة عن هذا السؤال؛ لكي نرتّب بشكل متسلسل ونكتشف هذه العوامل التي ساعدت على تحريف هذه السيرة، وذلك بعد أكثر من عشر سنوات من جهدي المتواصل في هذا البحث، على أمل كشف سبل نفوذ التحريفات والمجالات التي تضرّرت منها، وهو عمل مضافاً إلى إرشاده لنا إلى مدى عمق التحريفات التي حصلت، يساعدنا جيداً للحدّ منها والحيلولة دون حصول محتمل لها، مما يجعل دراستنا هذه على درجة من الأهمية.

هناك عوامل عديدة كانت باعثةً على حصول تحريفات في السيرة الحسينية وهي عوامل، إن لم نقل بأنّ جميعها ما يزال فعّالاً في عصرنا، فلا أقلّ من أن أغلبها كذلك، وأهمّها العوامل التالية:

### ١. الرواة الأمويّون ومؤرخو السلطة

لا شك أن بني أمية كانوا بحاجةٍ في قتلهم الإمام الحسين عليه السلام، سيما بهذه

---

(*) باحث متخصص في دراسة المصادر التاريخية، وفي تاريخ الإمام الحسين عليه السلام.

الطريقة المذهلة، إلى تغطية إعلامية وترويج واسع النطاق، وهو أمرٌ لم يكن ليحصل سوى بممارسة تزوير لحقائق الواقع واختلاق أمواج من الأخبار والأحاديث المصطنعة، من هنا كان الرواة المرتبطون بالسلطة ومؤرخوها الأداةَ الوحيدة القادرة على جعل الأخبار واختلاق الأحاديث التي تحقّق رغبات السلطة والخلفاء.

وكما تمكّنوا سابقاً من تنحية الإمامة جانباً وعزلها لصالح الخلافة في سقيفة بني ساعدة، سعوا هنا أيضاً للدفاع عن الإسلام عينه، إسلام الخلافة؛ ذلك أن استمرار قافلة الخلافة في السير لم يكونوا يرونه ممكناً سوى مع يزيد بن معاوية.

ومن حيث المبدأ، كان ما تربّوا عليه في مدرسة الخلافة يملي عليهم أنّ الدفاع عن يزيد وظيفةٌ دينية، لا يجوز التخلّف عنها؛ فكانوا مستعدّين للدعاية له وتطهيره من أيّ جرم أو جناية؛ للإقدام على أيّ عمل يحقّق ذلك، حتى لو احتوى تحويراً للحقائق واختلاقاً للأحاديث والأخبار! لقد كانوا يعتقدون أنّ يزيد بن معاوية «أمير المؤمنين»، ومن «أولي الأمر»؛ فتكون إطاعته واجبةً أكثر من وجوب أيّ شيء آخر، وباعتقادٍ من هذا النوع صاروا لا يرون للإمام الحسين عليه السلام ودمه أيّ حرمة، وهذا الاعتقاد استمرّ حاضراً بعد ذلك مع الخلفاء الأمويين والعباسيين وأمثالهم؛ ذلك أنّ الأصل في إسلام الخلافة هو الخلافة نفسها، ومن ثم فأيّ أمرٍ أو عمل آخر يفترض وزنه بالخلافة نفسها؛ على هذا الأساس الخاطئ نجد استمرار ظاهرة التحريف في قضية عاشوراء لقرون متمادية، فأنصار إسلام الخلافة وورّاثه ظلّوا متابعين لهذا الخطّ جيلاً بعد جيل، يدافعون عن أسلافهم، كما أن السلفيين منهم والفرقة الوهابية ورغم علمها ببعض التحريفات إلا أنّها ظلّت مصرّةً عليها، فتابعوا طريق أسلافهم المنحرف والمعوجّ، وسعوا قدر جهدهم لبث هذه الأخبار والأحاديث التي صنعها واختلقها أعداء أهل البيت عليهم السلام وقتلة الإمام الحسين عليه السلام، مع نشرها وتوزيعها على نطاق واسع؛ وفي هذا المجال.

وهناك كلام للإمام محمد الباقر عليه السلام يدلّل فيه بوضوح على عمق الفاجعة التي حصلت فيقول: «... ما لقينا من ظلم قريش إيّانا، وتظاهرهم علينا، وما لقي شيعتنا ومحبّونا من الناس! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبض وقد أخبر أنّا أولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه، واحتجّت على الأنصار

بحقّنا وحجّتنا، ثم تداولتها قريش، واحد بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنُكثت بيعتنا، وذهبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كئود، حتى قتل؛ فبويع الحسنُ ابنه وعوهد، ثم غدر به، وأسلم، ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجرٍ في جنبه، ونُهبت عسكره، وعولجت خلاخيل أمّهات أولاده، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته، وهم قليلُ حقٍّ قليل، ثم بايع الحسينعليه السلام من أهل العراق عشرون ألفاً، ثم غدروا به، وخرجوا عليه، وبيعته في أعناقهم، وقتلوه، ثم لم نزل ـ أهل البيت ـ نُستذلّ ونستخام، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون والجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله ولم نفعله؛ ليبغّضونا إلى الناس، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسعليه السلام، فقتلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يُذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد، إلى زمان عبيدالله بن زياد قاتل الحسينعليه السلام، ثم جاء الحجّاج فقتلهم كلّ قتلة، وأخذهم بكلّ ظنّة وتهمة، حتى إن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحبّ إليه من أن يقال: شيعة علي، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير ـ ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً ـ يحدّث أحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منه، ولا كانت ولا وقعت، وهو يحسب أنّها حقّ؛ لكثرة من قد رواها ممّن لم يُعرف بكذبٍ ولا بقلّة ورع»[1].

وقد خصّص ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه الذي كتبه على نهج البلاغة فصلين اثنين للحديث حول هذا الموضوع، وهو ما يمكنه أن يضيء أمام الباحثين، ويكون مفتاحاً لمن يدرس ظاهرة التحريف في قضية عاشوراء[2].

**وخلاصة القول:** إن زعماء إسلام الخلافة بذلوا قصارى جهدهم عبر

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١١: ٤٣؛ وهاشم معروف الحسني، الموضوعات في الآثار والأخبار (المترجم إلى الفارسية بعنوان أخبار وآثار ساختكي): ١٤٥، ١٤٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٤: ٥٦ ـ ٧٣.

استخدام القهر والتزوير والظلم لتضييق الخناق على إسلام الإمامة، حتى لم يكد يتجرأ أحد على ذكر اسم عليّ وآل علي، بل قد كانوا مضطرّين أحياناً للحديث عن هذا البيت بالرمز والكناية، فكانوا يطلقون على عليّ عليه السلام اسم: أبو زينب[١].

ولم يقتصر هذا الوضع المؤسف على زمان معاوية والعصر الأموي، بل امتدّ إلى العصر العباسي، وربما كان هناك أسوأ، إلى أن وصل الحال لمحاولة تخريب قبر الإمام الحسين عليه السلام سبع عشرة مرة، بأمرٍ من المتوكّل العباسي أو تسوية القبر بالأرض[٢]، ومن الواضح أن المسألة لا تنتهي عند تخريب قبر سيّد الشهداء، بل كانوا يسعون لإبادة أو تحريف كل شيء ـ مهما كان صغيراً ـ يمكن أن يشكّل ذكرى في القلوب له؛ ذلك أن اسمه وقضيّته ستشكّل باعثاً على خلق روح الحماس والثورة والعزّة في قلوب المعذبين وعروقهم، وتبعث فيهم روح الغيرة والشهامة، ورفض الذلّ و.. وهذه هي أخطر الأشياء على الحكّام والسلاطين مما يخشونه أشدّ الخشية؛ لأنّه يبعث على فنائهم وتلاشيهم، وهم لكي يحولوا دونه مستعدّون لارتكاب أيّ جريمة، حتى لو كانت تخريب مقام الحسين عليه السلام وتحريف تاريخ عاشوراء.

وإذا ما رأينا على امتداد التاريخ مواجهة تمام الزعماء للثقافة العاشورائية، فالسبب هو ما ذكرناه، حتى أنّ ذاك الشاعر المسيحي الذي تذوّق طعم الظلم المرّ في اعتداءات الصهيونية العالمية على بلده المظلوم لبنان يفهم ذلك جيداً حين يقول:

كلّما يذكر الحسين شهيداً ... موكب الدهر يُنبت الأحرارا
فينادون دولة الظلم حيدي ... قد نقلنا عن الحسين الشعارا
فليمت كل ظالم مستبدّ ... وإذا لم يمت قتيلاً توارا[٣]

---

(١) المصدر نفسه ٤: ٧٣؛ وقد استمرّت هذه الحالة الخانقة سنين طويلة، حتى أنها شملت الأئمة المعصومين عليهم السلام، بحيث نجدهم أنفسهم يعبّرون عن الإمام الحسين بالرمز والكتابة، فيستخدمون ألقاباً عامة في حقه مثل: المظلوم، انظر: المحدّث النوري، مستدرك الوسائل ١٠: ٢٥٣.

(٢) المحدّث القمي، تتمّة المنتهى: ٢٤١.

(٣) بولس سلامة، عيد الغدير: ٢٨١ ـ ٢٨٢.

## الأناشيد العاشورائية في محيط القمع والإرهاب

من شدّة عظم عاشوراء أنها تكسر القلوب وتجرحها، فتجلس الجروح على القلوب حتى إذا ما صارت هناك فرصة خرجت إلى اللسان.. وهذا ما حصل بالضبط، فرغم ظواهر القمع والاختناق إلا أنّ مظاهر الألم كانت تخرج على الألسنة شعرَ عاشوراء ونثرها، وكأن الناس وجدت نشيد قلبها بنشيد عاشوراء، فلم ترض بكمّ هذه الأناشيد المنبعثة من القلب؛ ولذلك وجدنا الشعر الشعبي والأناشيد العذبة موزّعةً في كلّ مكان حول هذا الموضوع.

سابقاً، وحيث كان الظرف حسّاساً يُخشى معه من الخطر، كانت هذه الأشعار تنسب الى عناصر غيبية، وفي الأكثر إلى طائفة الجنّ و.. وهو ما حضر تلقائياً عند الناس بوصفه مَخلَصاً من هذا الوضع؛ للتنفيس عن الاحتقان، إلى جانب أنّه عبر هذه الطريقة كان الشاعر أو الشعراء يحمون أنفسهم من مؤامرات بني أمية، كانت هذه الطريقة تتجاوز القبيلة أو القوم ليحظي الشاعر بقبول عام؛ لأن هذا الشاعر أو ذاك لن يكون منتمياً الى قبيلة خاصة حتى يفقد شعره أثره عند القبائل الأخرى، بل ستساهم مختلف القبائل في الدعاية له والترويج[١].

وفي بعض الأحيان، يتّبع الشعراء الكبار الذين يتمتعون بأدب أكبر وفنّ، سبلاً أدبية تبعث على الإعجاب وعلى ثناء العدو والصديق، مثل تلك الأشعار التي أنشدها شاعر العرب الكبير أبو تمام الطائي (١٨٨ ـ ٢٣١هـ)، فقد نظم قصيدةً في مدح رجل يدعى محمد بن حميد الطائي، إلا أن الأمر لم يكن في الحقيقة كذلك[٢]، فقد نظمها بشكل يمكن معه القول: إنّها لا تُنظم إلا في حق الإمام الحسين عليه السلام، فهي لا تناسب سوى حاله وأجواءه، إلا أن الشاعر كان مجبوراً ـ لخوفه ـ من أن يسمّي ممدوحَه

---

(١) أكثر هذه الأشعار التي أنشدت في القرن الهجري الأول مذكورة في المجلد الرابع والخمسين من دائرة المعارف الحسينية، وقد عنونت بـ «ديوان الهاتف»، وهي مطبوعة منشورة؛ انظر: فرهاد ميرزا، قمقام زخّار: ٥٠٩ ـ ٥٣١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٩.

باسم آخر، وعلى أية حال فهذه المرثية مشهورة جداً، ولعلّه يمكن اعتبارها ـ من نواحي عدة ـ أجلّ أشعار أبي تمّام[١].

لكن، وكما يقول الحسين عليه السلام: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم»[٢]، ظهر في التاريخ شعراء باركوا ليزيد بن معاوية قتلَ الحسين بن علي، فمدحوه على هذه الجناية العظيمة، ولكي نذكر مثالاً على ذلك نسمّي الأخطل، وهو شاعر ذائع الصيت في الوسط العربي، ويُعرف بالأخطل الكبير[٣].

## ٢. التحريف التبريري، محاولة لتطهير الخليفة، تجربة ابن خلدون

ولكي نقدّم مثالاً، نذكر ما وفّره لنا ابن خلدون في تاريخه من رواية حول عاشوراء، فقد طفحت روايته لهذا الحدث التاريخي بالتحريف، لقد كان يعدّ حتى معاوية من الخلفاء الراشدين، وقد بذل قصارى جهده للدفاع عنه[٤]، وقد أطلق على من اعتبر معاوية «كسرى» العرب، وسمّوه بالملك، اسمَ «أهل الأهواء»؛ ولدفع هذا الأمر عن معاوية كان مستعداً لتشبيهه بسليمان بن داوود[٥].

وكلّما ذكر ابن خلدون معاويةَ سعى جهده لتبرءته من الأخطاء والجرائم، وقد كان يختم كلامه حول بني أمية بالدعاء التالي: «والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم»[٦].

يتفق المؤرّخون الإسلاميّون كافّة على أن البيعة التي أخذها معاوية لابنه يزيد كانت بالتهديد والترغيب الكبيرين، وقد استطاع معاوية أن ينجح فيها بعد عشرين عاماً من ممارسة ألوان القهر والقوّة والتزوير والترغيب، وهو أمرٌ ليس فقط يخالف

---

(١) دائرة المعارف بزرك إسلامي ٥: ٢٧٤.

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام ١: ٢٣٧..

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٧: ١١٨؛ ودائرة المعارف الحسينية: ديوان القرن الأول.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢: ٦٢١ ـ ٦٢٢؛ ومقدّمة ابن خلدون: ٢٠٥ ـ ٢١٦.

(٥) تاريخ ابن خلدون ٢: ٦٢١؛ ومقدّمة ابن خلدون: ٢٠٦.

(٦) إدريس الحسيني، الخلافة المغتصبة، أزمة تاريخ أم أزمة مؤرّخ: ١٨٢؛ ومقدّمة ابن خلدون: ٢١٢.

الإسلام وسيرة النبي صلى الله عليه وآله بشكل واضح، بل يعارض سيرة الخلفاء السابقين، فيُحسب بدعةً تقع لأوّل مرّة في تاريخ الخلافة، ومع ذلك كلّه، يسعى ابن خلدون ـ بأيّ شكلٍ من الأشكال ـ لتصوير هذه الجريمة الكبيرة من معاوية والتي أدّت فيما بعد إلى سلسلة جرائم، كانت منها واقعتا: كربلاء والحرّة، على أنها تحتوي على مصلحة اجتماعية وعامة للناس، من هنا يحكم على ذلك بالقول: «والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحلّ والعقد عليه..»[1].

وبعد عدّة صفحات، يبذل فيها قصارى جهده في مدح بني أمية، وتصويب فعل معاوية مع يزيد، وتوقفه وتحفّظه حول فسق يزيد وفجوره العلني، وهو الأمر الذي لا يمكن إنكاره، ولكي يتحرّر من أيّ محذور في هذا المضمار، يقول: «.. ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته، فإياك أن تظنّ بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد؛ فإنه أعدل من ذلك وأفضل، بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه، وهو أقلّ من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة، ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلفت الصحابة حينئذٍ في شأنه، فمنهم من رأي الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك، كما فعل الحسين وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك، ومنهم من أباه؛ مما فيه من إثارة الفتنة، وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به؛ لأن شوكة يزيد يومئذٍ هي عصابة بني أمية و..».

لقد طرق ابن خلدون ـ بغية الدفاع عن الخلفاء لا سيما معاوية ويزيد ـ كلّ باب؛ حتى ابتلى هو نفسه بتناقض عجيب في أقواله؛ فقد اعتبر أن يزيداً وأنصاره كانوا مجتهدين في الدين، وأنّ قتلهم للحسين عليه السلام كان اهتماماً منهم بأمور الدين، دون أن يرضى في الوقت عينه بكلام ابن العربي حين قال: «قتل الحسين بشرع جدّه»[2].

يكتب ابن خلدون يقول: «.. فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد، ولا ليزيد، بل هي من فعلاته المؤكّدة لفسقه»[3]. ثم يضيف: «والحسين فيها شهيد مثاب، وهو على حقّ

(١) تاريخ ابن خلدون ١: ٢٢١؛ ومقدّمة ابن خلدون: ٢١٠.

(٢) هذا ما ذكره القاضي أبوبكر بن العربي في كتابه «العواصم».

(٣) مقدّمة ابن خلدون: ٢١٦.

واجتهاد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حقّ أيضاً واجتهاد، وقد غلط القاضي أبوبكر بن العربي المالكي في هذا؛ فقال ـ في كتابه الذي سمّاه بالعواصم والقواصم ـ ما معناه: إن الحسين قتل بشرع جدّه..»[1].

لقد وقع ابن خلدون هنا في تحريفات عديدة واشتباهات هي:

١ـ لقد تورّط في التناقض البيّن، ففي السطر الأول كان جهاد الإمام الحسين وجناية يزيد غير جائزين، لكنه في الفصل الثاني اعتبرهما اجتهاداً بحق!

٢ـ التناقض الآخر أنه اعتبر يزيداً والحسين عليه السلام معاً على حقّ، فعجباً ممّا يفعله التعصّب! فإذا كان الظالم والمظلوم والقاتل والمقتول كلاهما على حقّ، فلا معنى ـ بعد ذلك ـ للحقّ والباطل؛ فكيف يمكن أن يكون المقتول شهيداً على حقّ فيما القاتل لهذا الشهيد على حقّ أيضاً؟!

٣ـ ومن التحريفات الأخرى التي ارتكبها ابن خلدون في كلامه الآنف الذكر، اعتباره يزيداً والصحابة الذين كانوا معه على حقّ وأنهم عملوا وفق اجتهادهم، فأيّ صحابة هؤلاء؟ أفهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مع يزيد وأيّدوه فيما فعله من قتل الحسين عليه السلام؟ أبداً، إنّ هذا كذب آخر نسجه ابن خلدون أيضاً. لماذا يحاول ابن خلدون تحوير الحقائق؟ ولماذا يتجاهل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين كانوا مع الحسين وأنصاره واستشهدوا معه حتى آخر لحظة[2]، دون أن يكتفي بذلك بل يجعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ كذباً ـ في صفّ يزيد وموافقيه؟!

والجدير ذكره أنّ قتل الحقيقة التاريخية لا يقتصر على كتابات ابن خلدون، فثمّة مؤرّخون آخرون كالطبري، وابن الأثير، وابن كثير، لم يكونوا أقلّ منه، إلا أنهم كانوا أمهر منه، فلم يجاهروا أو يصرّحوا أو يتجرّؤا مثلَه، فبالمقدار الذي استطاعوه حاولوا تضليل الآخرين وجذبهم إلى ما يكتبونه، تماماً كما نشاهد اليوم! حيث نرى حتى على مستوى الكتّاب الشيعة الذين يريدون الكتابة حول عاشوراء، نراهم

---

(١) المصدر نفسه؛ وهذا الكتاب طبع في الجزائر باسم «العواصم من القواصم»، لكن ابن خلدون يطلق عليه الاسم المذكور أعلاه.

(٢) أكثر من خمسين شهيداً من شهداء كربلاء كانوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تحدّثنا عنهم في «سيماي كربلا، حريم حريّت».

يركّزون أكثر على تاريخ الطبري وكامل ابن الأثير.

والعجيب أنّ علماءنا في مجال استنباط الأحكام العملية ومعرفة الروايات الفقهية يلاحظون قاعدة: «خذ ما خالف العامّة»، أما على صعيد تاريخ حياة الإمام الحسين وملحمة عاشوراء فهم ينسون هذه القاعدة تماماً! وكأنّ أهمية معرفة الإمام والإمامة، وهما من أصول المذهب، أقلّ من أهمية الأحكام الفرعية والأعمال الفردية!

من البديهي أن ننظر بعين الريبة والشك إلى ما كتبه المخالفون، لا سيما في موضوع حسّاس مثل عاشوراء، وفقط من باب التأييد أو «إقرار العقلاء على أنفسهم جائز» يمكن الرجوع إلى مصادرهم، وإلا كيف يمكن الركون إلى كتابات أعداء الشيعة ومحاربيهم في هذا المجال؟!

## ٣. صناعة الأساطير في مقابل عاشوراء

لقد قام بنو أمية ـ تبعاً لمعاوية، وهو المحرّف الكبير للتاريخ ـ بتحريف جزئيات عاشوراء؛ فمعاوية يرسل رسالةً إلى تمام المدن والأمصار الإسلامية يطلب فيها من عمّاله اختلاق فضيلة أو فضائل لكلّ معارض لعليّ، أفضل أو مثل فضائله؛ بهدف مواجهة فضائل عليعليه السلام التي نقلت عن رسول اللهصلى الله عليه وآله، وذلك لكي يُنقص من مكانته وهيبته، وقد حاك مؤامرات عديدة في هذا المجال، ففتح بيت المال لصنّاع الفضائل، وقال بصراحة: «والله لأستميلنّ بالأموال ثقات عليٍّ، ولأقسمنّ فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرتَه»[1].

وكما شهد عصر معاوية اختلاق الفضائل مقابل كلّ فضيلة لعليّعليه السلام بأمرٍ من معاوية نفسه، واصل أنصار معاوية بعده خلق الفضائل مقابل الفضائل، وحتى مقابل مصائب عاشوراء، ففي مقابل مصيبةٍ تقول: لقد منع الماء عن سيّد الشهداء وأبناء رسول اللهصلى الله عليه وآله، وأنهم جميعاً استشهدوا عطاشى وقتّلوا ظلماً وعدواناً، رفعوا قميص عثمان عَلَماً ليؤكّدوا أنه قتل مظلوماً، وأنه عندما حوصر منزله لم يسمحوا بإدخال الماء إلى المنزل.

---

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ٤٣٦؛ وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٨: ٧٧.

عنهم في «سيماي كربلا، حريم حريّت».

وفي مقابل الفضيلة التي تقول: إن رأس الحسين عليه السلام تكلّم وهو على الرمح، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ (الكهف: ٩)[١]، اخترعوا أسطورةً ملفتة، يقول عنها بعض الباحثين: «وجاء في تاريخ الخطيب وغيره عن إبراهيم بن إسماعيل بن خلف، أنّ أحمد بن نصر الخزاعي لما قُتل في المحنة التي وقعت بين المعتزلة والمحدّثين وصلب رأسه، كان رأسه يقرأ ـ وهو على الخشبة ـ : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[٢]، كما جاء عن أحمد بن كامل القاضي، نقلاً عن والده، أنه قال: «وكّل برأس أحمد من يحفظه بعد أن نصب برأس الجسر، فقال الموكّل به: إنه كان يراه بالليل يستدير إلى القبلة بوجهه، فيقرأ سورة «يس» بلسان طلق فصيح».

وبلا شك، إنّ هذه الأسطورة قد وضعها الحنابلة في مقابل الرواية التي رواها الشيعة وغيرهم عن رأس شهيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام، وجاء فيها: إنه كان يقرأ وهو على رأس الرمح: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾[٣].

## ٤. إظهار المظلومية الزائدة عن الحدّ

لم يكن أمام أنصار أهل البيت عليهم السلام في الكثير من العصور سوى مزج صوت العدالة ومظلومية عليّ وآله بالحزن والبكاء، موصلين ذلك إلى أسماع الخلق؛ ليؤكّدوا فضائل المعصومين بذلك، وليحاربوا ويشوّهوا أعداء آل محمد بسلاح البكاء حيث لم يمكن استخدام أيّ سلاح آخر.

لقد كان سلاح البكاء حكايةً عن الظلم، بل مواجهة للظالم، حيث كان يتسنّى استخدامه بسهولة لذمّ الحكام الجائرين، وكان استخدام هذا السلاح عاماً، حتى صار مضرباً للمثل، حيث صار الناس يشبّهون الرقّة ببكاء الشيعة، جاء: «أرقّ من دمعة

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد ٢: ١١٧؛ وأبو جعفر الطبري، دلائل الإمامة: ٧٨؛ كما نقل تلاوة القرآن السيوطي في الخصائص الكبرى ٢: ١٢٧.

(٢) هاشم معروف الحسني، الموضوعات في الآثار والأخبار: ٣١٢.

(٣) المصدر نفسه.

شيعية تبكي علي بن أبي طالب»[١].

والسبب الذي يقف خلف عدم اهتمام علماء الشيعة في الماضي بالتحريفات التي طالت عاشوراء وجزئيات حياة الإمام الحسينعليه السلام، مما يُسرَد في مجالس العزاء والمناسبات العاشورائية، وعدم منعهم الناس من نقل مثل هذه الأخبار.. هو هذا الأمر بالذات، إذ إن الظروف الصعبة التي كانوا يعايشونها جعلتهم قلقين من نسيان عاشوراء نفسها وتلاشيها من وعي الناس، كما حصل في غدير خم؛ حيث طمرت هذه الحادثة عواملُ النسيان في بعض الأزمنة بفعل أيادي بني أمية؛ لذا خافوا من الشيء نفسه في عاشوراء.

## ٥. مقولة التسامح في أدلّة السنن وفعل التحريف في السيرة

يمكن أن يكون لقاعدة التسامح في أدلّة السنن نشاطٌ على صعيد علم الفقه، إنّ هذه القاعدة تقول: إذا فهمنا من خبرٍ ضعيف لا يحتوي على تمام شرائط الحجية، ثواباً على عملٍ ما، ولم يكن لدينا دليل آخر، أي نحن وهذا الخبر فقط، أمكننا ـ في هذه الحالة ـ العمل بهذا الخبر ونحصل على الثواب منه، رغم أنّ هذا الخبر ضعيف وقد يكون مجعولاً موضوعاً، لم يصدر مثله عن أيّ معصوم أصلاً.

وقد استنتج بعضهم تعميم القاعدة ليس إلى ذكر الثواب في الخبر فقط، بل إلى بيان استحباب شيء حتى دون ذكر ثوابٍ له، فيما رفض آخرون ذلك. وعلى أية حال، لا ينبغي أن ننسى أنّ هذه القاعدة تجري فقط في الفروع العملية، ولا تجري في الفروع ولا الأصول الفكرية أو العقائدية، كما أنها لا تجري في تمام الأعمال الفرعية والفردية، بل تختصّ بدائرة السُنن، أي تلك الأعمال الحسنة، وليس كلّها أيضاً بل خصوص الحسن المقبول الذي ما يزال البحث قائماً حول استحبابه، بل لابدّ أن يمضي العقل حُسن هذا الفعل حتى ندّعي استحبابه أو ترتب الثواب عليه بقاعدة التسامح.

وهنا، لابدّ أن نرى هل يمكن تنشيط هذه القاعدة في المجال الفكري العقيدي

---

(١) نعمان القاضي، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي: ٣٧٣؛ نقلاً عن ميداني، مجمع الأمثال ١: ١٧٩.

بحيث يمكننا في ضوئها الاستناد إلى خبر ضعيف للاعتقاد بأنّ هذا العمل يوجب رضا المعصوم الذي نسب إليه هذا الخبر الضعيف؟

من الواضح أنه لم يفهم أيّ فقيهٍ أو متفقّه استنتاجاً من هذا النوع من قاعدة التسامح، إلا أن المؤسف أن بعضهم يجري هذه القاعدة في كل شيء كأنها الوحي المنزل، حتى في موضوع حسّاس مثل عاشوراء الحسين، وهي أكبر المعالم الثقافية الشيعية، كما أن الآخرين يعرفون الشيعة أكثر ما يعرفونهم عبرها ويقيّمونهم في ضوئها، وكلّ باحث من خارج دائرة التشيّع يريد تقويم الثقافة الشيعية فإنه يركز نظره ـ في المرحلة الأولى ـ على مسألة عاشوراء، والآن لننظر: إذا كان الشيعة يقومون بأيّ عمل ـ معقول وغير معقول ـ باسم عاشوراء، ألن يؤدّي ذلك إلى الاستهزاء بعاشوراء وبالشيعة؟!

والأكثر إيلاماً في الموضوع، أنّهم قد يجرون قاعدة التسامح حتى في مجال الفكر والعقيدة! وهنا لابدّ من القول: إنّ هذا لن يعود فكراً حينئذٍ، بل سيكون فاجعةً، فكيف يمكن أن نستسيغ تسامحاً من هذا النوع في دراسة القضيّة العاشورائية؟ فهل يمكن دون معرفة الإمام الحسين عليه السلام أن ندرك جوهر عاشوراء؟ وأليست معرفة هذا الإمام ـ وكلّ إمام ـ من أصول المذهب الشيعي؟! لنرى كيف اختلفت السبل، فأين التسامح في الأعمال الفرعية الفردية من التسامح في أصول المذهب؟! علينا أن لا نتعجّب، فقد رأينا ـ مراراً ـ في حياتنا من يجيبون عن الإشكالات الموجّهة إليهم حول ما يكتبونه عن عاشوراء وحياة الحسين عليه السلام، بالتمسّك بقاعدة التسامح، وكلّما واجهوا اعتراضاً: كيف تقولون في الفروع الفقهية بالاحتياط، وفي باب التعارض بمبدأ «خذ ما خالف العامّة»، أما حينما يصل الموضوع إلى الإمام الحسين عليه السلام وعاشوراء، تسلكون سبيل التساهل والتسامح؟! وهناك تعتمدون حتى الرؤى والمنامات، ويبدأ الحديث عن السُنن والتسامح بها.

يمكن اليوم ملاحظة مَدَيات حضور قاعدة التسامح في أكثر الكتب التي نشرت حول عاشوراء، وهناك نرى اعتماداً ـ قبل كلّ شيء ـ على الطبري وابن الأثير! بل نرى أن بعضهم يجعل محور بحثه قائماً على نتاجات هذين الشخصين إلى جانب ابن خلدون، فيما ينظر إلى النتاج الشيعي في هذا المجال، مثل «الإرشاد» للشيخ

المفيد، و «اللهوف» للسيد ابن طاووس، بوصفه من الدرجة الثانية، غفلةً عن أن الطبري وابن خلدون لو شكّكنا في كونهما مغرضين، فلا شك في كونهما مخالفين لا ينتميان للمذهب الشيعي!

وللعلامة المامقاني في ردّ نظرية جريان قاعدة التسامح في مجال القصص التاريخية والمواعظ الأخلاقية، كلام هام ومتقن يقول فيه: «.. لا يسوغ نسبة الخبر إلى المعصومعليه السلام من دون طريق معتبر، وورود الإذن بالمسامحة في أدلّة السنن عن النبي المختارصلى الله عليه وآله والأئمة الأطهارعليهم السلام ممنوع؛ والأخبار التي استدلّ بها قاصرة عن إفادة المطلوب، وإن وافقه في الاستدلال به الأكثر، إلا أنهم ـ عند التأمل والتحقيق ـ اشتبهوا في فهم معناها، كما أوضحناه في محلّه»[1].

## ٦ . تحريف عاشوراء تحت شعار: الغاية تبرّر الوسيلة

يعدّ هذا المبدأ الميكيافيلي المخرّب أخطر عوامل التحريف وأكثرها مدعاةً للأسف، يقول الميكيافيليون: لكي نصل إلى الهدف يمكننا استخدام أي وسيلة، حتى لو اضطررنا لتحريف الحقائق وتحوير الواقع، فصحّة الهدف كافية، حيث المهم نتيجة العمل فحسب!

إن الأخبار الموضوعة الجعلية، وعدد القصص والحكايات الخيالية المنسوجة أكبر مما يتصوّر، فسماع بعض الاعترافات من الوضّاع أنفسهم وصنّاع الأساطير كافٍ للتدليل على عمق الفاجعة، يقول هاشم معروف الحسني: «وجاء عن بعضهم أنه كان يقول: إذا استحسنّا أمراً جعلنا حديثاً، وإذا اتهمهم أحدٌ بالكذب على الرسول، ولم يستطيعوا التخلّص منه التجأوا إلى أسلوب آخر، وقالوا: نحن نكذب له، لا عليه؛ لنرقّق قلوب العامّة»[2].

أحد الذين اعترفوا بوضع الأحاديث ودسّها، شخصٌ يُدعى «القاضي أبو عصمت المروزي»، وكان صاحب فنون عديدة، وحيث كان له دراية بكل علم من العلوم وكان جمع بين التفسير والحديث والتاريخ والفقه و.. كان يطلقون عليه:

---

(١) المامقاني، مقباس الهداية في علم الدراية ١: ١٩٦.

(٢) هاشم معروف الحسني، الموضوعات في الآثار والأخبار: ١٩٨.

«الجامع»، وخلاصة القول: كان جامعاً للأعمال والفنون، ومعروفاً بأنه «جمع كلّ شيء إلا الصدق»[(١)]، وكانوا سألوه عن أنه من أين أتى بكلّ هذه الرواية التي تتحدّث عن فضيلة قراءة كلّ سورة من القرآن؟ فأجاب: «إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن محمد بن إسحاق؛ فوضعت هذا الحديث حسبةً»[(٢)].

والأسوأ من ذلك كلّه، أن بعضاً ممّن كانوا يضعون الأحاديث ويختلقونها كانوا يرون ذلك مستحسناً وجائزاً شرعاً، فيدخلون عملهم هذا في سياق الأحاديث التي ترغّب الناس بالأعمال الحسنة! وكلّما كانا يواجهون اعتراضاً عن سبب عدّهم هذا الذنب الكبير جائزاً، مع نهي النبي عنه، يقولون: «إنما قال: من كذب عليّ ونحن نكذب له، ونقوّي شرعه، ونسأل الله السلامة من الخذلان»[(٣)].

وبطلان هذه المغالطة واضحٌ لا يحتاج لبيان، فهو عذرٌ أقبح من الذنب، إنه خطأ آخر ارتكبوه في ممارسة تحريف معنوي لكلام الرسولﷺ. وإذا ما ألقينا نظرةً على كُتب «المقاتل والمجالس» سنرى سيلاً من التحريفات التي شيدت على أساس هذا المبنى، أي «الوسيلة فداءٌ للهدف»، حتى أنّ بعضهم وفي مقدّمات مقاتلهم يصرّحون بهذا الأمر، فيحسمون الأمر منذ البداية، وكما يقول الشاعر:

لأنّ البنّاء وضع اللبنة الأولى معوجّةً من الأول؛
سيظلّ الحائط مائلاً حتى الثريّا.

ولكي نقدّم مثالاً على ذلك، نستشهد بمقدّمة كتاب «محرق القلوب»، حيث يكتب صاحبه هناك، وهو الملا مهدي النراقي: «إن نقل الأخبار الضعيفة وغير المعتبرة في حكايات النبي والوقائع التي جرت مع أهل البيت جائز، وكلما دلّ خبرٌ ضعيف على أن البكاء على الإمام الحسين له كذا وكذا ثواب، وسمعه شخصٌ ما، وبكى بنيّة الوصول إلى هذا الثواب ونيله، فسيكرمه الله به.. من هنا ذكرنا في هذا الكتاب الأخبار الضعيفة إلى جانب الصحيحة»[(٤)].

---

(١) المامقاني، مقباس الهداية في علم الدراية ١: ٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠١، ٤١٠ ـ ٤١٢.

(٣) المصدر نفسه: ٤١٥.

(٤) الملا مهدي النراقي، محرق القلوب: ٢، ٣، نسخة خطيّة موجودة في مكتبة آية الله المرعشي

ويتحدّث المحدّث النوري عن كاتب هذا المقتل، بكلام مفيد، حيث يقول: «إنّ الناقل المتديّن الصالح لا ينبغي له أن يقنع بمجرّد رؤية خبر وحكاية في كتاب، تُنسب إلى عالمٍ، فما أكثر ما يكون هذا العالم قد صنّف هذا الكتاب في أوائل عمره، ولم يبلغ بعدُ مقام تمييز الصحيح من السقيم، والثقة من غيره.. من هنا، نجد في هذه الكتب أخباراً موهونة، ولا أصل لها ولا مأخذ، وتخالف روايات الثقات، بل نجد أخباراً كاذبة باليقين، مثل كتاب محرق القلوب، من تأليف العالم الجليل الآغا الآخوند الملا مهدي النراقي، وهو من أعيان علماء الدهر و.. فضلاً عن أن كبراء الدين ورجالاته العظماء قد اعترفوا له بعلوّ المقام في العلم والفضل، ومؤلّفاته الرشيقة في الفقه وغيره مثل «اللوامع» و «مشكلات العلوم» و.. تمثل شاهداً صادقاً ووافياً على إثبات ذلك، لكن مع ذلك نجد في هذا الكتاب مطالب منكرة يتعجّب الناظر البصير من كتابة مثل هذا العالم لمثل هذه المطالب»[1].

ثم يستعرض النوري عدّة قصص أسطورية ـ كمثال ـ من كتاب «محرق القلوب» ويمارس نقداً لها، ويتحدّث عن وجود نظائر كثيرة لها فيه، وذلك كلّه نابع من ذاك المبدأ القائل: «الغايات تبرّر الوسائل»، والذي أشار له النراقي في مقدّمة الكتاب، غافلاً عن أنّ الكذب من كبائر الذنوب، وأن الأصل المسلّم يقضي: «لا يُطاع الله من حيث يُعصى».

## ٧ . صناعة الأساطير وهواية محرّ في السيرة الحسينية

صناعة الأسطورة وتأليف القصص من دوافع التحريف الأخرى؛ فالإنسان يملك حسّ طلب الكمال والبحث عنه وعن البطولة والشهامة، من هنا يسعى ـ من حيث لا يشعر ـ لإرضاء هذا الحسّ الغريزي والفطري عبر صنع الأساطير واختلاق الخرافات الواهمة، وصناعة الأساطير يعود تاريخها إلى زمن سحيق في حياة الإنسان، يمتدّ بامتداد التاريخ، بل ما قبله، وما زلنا نجده حاضراً حتى اليوم في الأمم المتعاقبة والأجيال المتلاحقة، وبين عامة الناس، فالشيء الذي يلقى رواجاً وجاذبيّة

---

النجفي، بالرقم المسلسل: ١٠٠٦٩ (مع تلخيص).

(١) المحدث النوري، اللؤلؤ والمرجان: ١٥٦.

هو هذه الأساطير، ولا يمكننا هنا التغاضي عن حقيقةٍ مُرّة، وهي أن أكثر الناس لا يعيشون حياتهم بجدّية، بل يحيونها وسط حجم كبير من الرؤى والأحلام الطويلة، ولهذا نجدهم ميّالين للأساطير والخرافات، يستذوقون من سماعها لذةً وسعادة، حيث يتصوّرون أن ما يحلمون به سيتبلور في قالب هذه الأساطير والموهومات.

من هنا، تتضاعف الأساطير بشكل مستمرّ في حياة الإنسان، وفي كلّ لحظة تضاف أسطورة إليها، وليس هذا أمراً خاصاً بثقافةٍ واحدة أو بعض الثقافات، بل يمكن مشاهدة هيمنة الأساطير على تمام الثقافات الإنسانية، و«ثقافة عاشوراء»، كما أنّها ليست استثناءً على هذا الصعيد، كذلك كانت مسرحاً لمختلف أنواع الأساطير والخرافات وما تزال، بسبب كونها ثقافةً شعبية واسعة، وفي هذا يقول الشهيد مرتضى مطهري: «إنّ قسماً من التحريفات التي وقعت حول حادثة عاشوراء يعود إلى حسّ صناعة الأسطورة، يقول الأوروبيون: إن المبالغات والإغراق في الأمور كثيرة في تاريخ المشرق، وهذا صحيح؛ يكتب الملا الدربندي في «أسرار الشهادات» فيقول: إن فرسان جيش عمر بن سعد كانوا ستمائة ألف شخص، والرجّالة فيهم كانوا مليوناً، أي أنّ المجموع كان مليوناً وستمائة ألف شخص، وكل أهل الكوفة! كم كانت الكوفة كبيرة آنذاك؟ لقد كانت مدينة حديثة الظهور لم يمض على ولادتها أكثر من خمس وثلاثين عاماً؛ ذلك أنّها بُنيت في عصر عمر بن الخطاب، فقد كان هو من أصدر الأوامر ببنائها، وذلك بهدف تمركز جيوش الإسلام بالقرب من إيران، وإيجاد مركز لهم، ففي ذلك الوقت لا يُعلم هل وصل عدد سكّان الكوفة إلى مائة ألف شخص أم لم يبلغ بعدُ؟ إنه لا ينسجم والعقل القولُ بأنه اجتمع مليون وستمائة ألف شخص عسكري، وأنّ الحسين بن علي عليه السلام قد قتل منهم ثلاثمائة ألف شخص، إنّ هذه القضية ساقطة عن الاعتبار بالكلية وإطلاقاً»[١].

كما يذكر الأستاذ مطهري مثالاً آخر ملفتاً عن حياة أبي الفضل، فواحدة من موارد حسّ عبادة الأبطال وخلق الأساطير حولهم مختزنة ـ أساساً ـ في بطولة قمر بني هاشم المنير أبي الفضل العباس، وهو ما لا ينكر، وفي أنه «عبدالله الصالح، والشهيد الممتاز، ومن يغبطه تمام الشهداء يوم القيامة، والمستعجل إلى الشهادة،

---

(١) مرتضى مطهري، حماسه حسيني (الملحمة الحسينية) ١: ٤٤ ـ ٤٥.

وقمة الفداء والإيثار، وأب الفضيلة، وأقرب أنصار الحسينعليه السلام إليه، وقمر بني هاشم المنير»[١].

لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه: ما المُلزم لقول هذه الأساطير التي لا تنسجم مع العقل والتاريخ؟ وما هي الضرورة التي تفرض نقل قصص لا أساس لها بل هي غير معقولة؛ فنفتح بذلك أفواه الأعداء بالسخرية والاستهزاء؟ إن الشهيد مطهري - مع مدحه لدقّة الشيخ النوري - ينقل مثالاً آخر عنه فيقول: يقول الحاج النوري - هذا الرجل الكبير - في كتابه اللؤلؤ والمرجان، وهو بصدد نقد اختلاق مثل هذا النوع من الأساطير: لقد كتبوا لإثبات شجاعة أبي الفضل أنه في حرب صفين - ولا يُعلم أساساً هل شارك في هذه الحرب أم لا؟ وحتى لو شارك فلا يزيد عمره آنذاك عن الخمس عشرة سنة - رمى بشخصٍ في الهواء، ثم رمى بالآخر، وهكذا إلى ثمانين رجلاً، ولما رمى الرجل الثمانين لم يكن الرجل الأول قد سقط على الأرض بعدُ، وبعد وصول الأول قطعه نصفين، وهكذا الثاني إلى الشخص الأخير»[٢].

إنّ صنّاع الأساطير قد يبلغون حداً في الإفراط يحطّمون فيه حدود العقيدة، وكمثال على ذلك ما يقولونه من أن الإمام الحسينعليه السلام قد احتمى يوم عاشوراء بأخيه أبي الفضل العباس[٣]، أو أنّ الإمام السجاد كان سيموت لو لم تكن السيدة زينب موجودة، وكم هي النصائح التي ينقلونها عن السيدة زينب مما وجّهته إلى الإمام زين العابدين !

لقد كان دور صنع الأساطير في تحريف عاشوراء كبيراً وملفتاً، حتى قيل: «إن الدواعي لجعل الحديث في الأحكام قليلة جداً، وكثيراً ما يكون في أصول العقائد، وأكثر منه في الفضائل والمناقب والأذكار»[٤].

---

(١) هذه الأوصاف مذكورة في مصادر معتبرة، راجع: الصدوق، الخصال: ٦٨؛ والشوشتري، قاموس الرجال ٦: ٢٩؛ والمفيد، الإرشاد ٢: ٩٠، ٩٥، ١٠٩؛ وابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف (اللهوف): ١٥١؛ وابن شهر آشوب، المناقب ٤: ١٠٨؛ والسماوي، إبصار العين: ٢٧؛ والمجلسي، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٨.

(٢) مطهري، حماسه حسيني ١: ٤٤، ٤٥.

(٣) سمعت هذا شخصياً من عدد من مدّاحي أهل البيتعليهم السلام مراراً.

(٤) المامقاني، مقباس الهداية ٦: ٣٨.

## ٨ ـ عندما تكون المجالس الحسينية لإبكاء الناس فقط!!

يتوهّم بعضٌ أن عاشوراء والثورة الحسينية تختصر في البكاء والعويل، إنهم يرون أن الأصل الأصيل في الموضوع ليس سوى البكاء والنحيب، وأنّ أيّ شيء آخر لابد أن يُقاس على هذا الأصل وفقط! فكلّ خبر أو حديث صحيح مهما كانت درجة اعتباره وصحّته لا قيمة له عندهم ما لم يوجب إبكاء السامعين، فبعض قراء العزاء والمدّاحين يعيشون دوماً هذا المفهوم، أي أنهم يذهبون ناحية كتب التاريخ والمقاتل ليضعوا يدهم على أكثر ما فيها إحراقاً للقلوب وإدراراً للدمعة من قصص وحكايات، وإذا ما حصلوا على ما هو أعمّ من الصحيح وغيره، أضافوا عليه ما يلزم حتى يخرجوه عن حالته الأولى ليكون نافعاً، فقد يصنعون من جملةٍ لا تزيد على نصف السطر قصةً طويلة، ومن رواية قصيرة يؤلّفون عشرات الروايات الأدبية، الأمر المثير فعلاً للتعجّب!

ومن المناسب هنا التعرّض ـ ولو العابر ـ لمسألة البكاء، فلا شك في استحباب البكاء على الإمام الحسينعليه السلام، والروايات الداعية له على نوعين؛ فبعضها يتحدّث بشكل مطلق مثل: «من بكا على الحسينعليه السلام وجبت له الجنّة»[(١)]، وبعضها الآخر مقيّد مثل: «من بكى على الحسينعليه السلام عارفاً بحقّه وجبت له الجنّة»[(٢)]، ومن الواضح أنه لا يمكن العمل بالمطلق على إطلاقه مع وجود المقيّد، ومن ثم يلزم إجراء القيد الوارد في الروايات المقيّدة على الروايات المطلقة، فنقيّدها به؛ لا سيما وأن قيد «عارفاً بحقه» قد جاء في موارد أخرى ـ سيما زيارة الإمام الحسينعليه السلام ـ في عشرات الأحاديث[(٣)].

وحتى لو لم يكن هذا القيد «عارفاً بحقه» موجوداً في متن الأخبار لم يكن يمكننا القول: أيّ شخص يبكي على الحسينعليه السلام في أيّ حال وفي مطلق الظروف

---

(١) أكثر هذه الروايات الواردة بهذا المضمون موجودة في اللؤلؤ والمرجان: ٤ ـ ٨.

(٢) راجع: المجلسي، بحار الأنوار ١٠٠: ٢٩٣؛ والشجري، فضل زيارة عاشوراء: ٦٥، ٧٢، ٧٥، ٧٨.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار ١٠٠: ١٨٤، ٢٥٧، ٢٩٣، ٣٠٦، ٣٣٧، ٣٤١، ٣٤٢، وج ١٠١: ١٩ ـ ٤٢، ٢١٣، ٢٦٧، ٣٥٠ و..؛ وابن طاووس، مصباح الزائر: ٢٦١؛ والمحدث النوري، مستدرك الوسائل ١٠: ٢٣٣، ٢٥٠ ـ ٢٩٨؛ والصدوق، ثواب الأعمال: ٣١٧ ـ ٣١٩.

يدخل الجنّة حتماً، ولو لم يكن يعرف الإمام الحسين نفسه، ولا معترفاً بحقّه، وبعبارة أخرى: إن القيد المذكور، إضافةً إلى وجود دليل نقلي عليه، له أيضاً دليل عقلي؛ فليس عقلانياً القول بأن أيّ إنسان ولو كان غريباً عن الإمام الحسين يستحق الجنة لزوماً لمجرّد بكائه عليه! وهذا المبدأ الرئيس لا يصحّ التغافل عنه، وهو أن قيمة كلّ عمل تتحدّد بمعرفة فاعله وعلمه، فالمعرفة في القاموس الديني أصلٌ أول وأساس، تماماً كما يقول الإمام علي عليه السلام: «أول الدين معرفته»[1]، أو كما يقول في خطابه لكميل بن زياد: «ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة»[2].

المسألة الأخرى الحائزة هنا على بالغ الأهمية، ما جاء في مفاهيم مفتاحية راقية في بعض الروايات، والتي نشير ـ من باب المثال ـ إلى حديثين منها هنا:

١ـ يقول الإمام الصادق عليه السلام للفضيل بن يسار ـ أحد تلامذته ـ : «تجلسون وتتحدّثون؟» قال: نعم، جعلت فداك، قال: «إن تلك المجالس أحبّها، فأحيوا أمرنا، فرحم الله من أحيا أمرنا، يا فضيل! من ذكرنا ـ أو ذُكرنا عنده ـ فخرج من عينه مثل جناح الذباب، غفر الله له ذنوبه، ولو كانت أكثر من زبد البحر»[3].

٢ـ عن الإمام الرضا عليه السلام يقول: «من يذكر مصائبنا فبكى وأبكى، لم تبك عينه يوم تبكى العيون، ومن جلس مجلساً يحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»[4].

والشيء الذي تؤكّد عليه هذه الأحاديث هو أن إحياء الولاية وإبقاء حقّ أهل البيت عليهم السلام حياً هو الهدف الرئيس من تشكيل المجالس والمحافل الحسينية، وفي النتيجة فالبكاء المطلوب والمستحبّ هو الذي يقع في طريق إحياء الولاية وحفظ حقوق أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

(٢) الحكيمي، الحياة ١: ٢٥، نقلاً عن ابن شعبة في تحف العقول.

(٣) الحميري، قرب الإسناد: ٣٦، ح ١١٧؛ والصدوق، ثواب الأعمال: ١٠١.

(٤) دانشيار شوشتري، حول البكاء على الإمام الحسين عليه السلام: ١١١، نقلاً عن الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا، والطوسي في الأمالي؛ والأعرجي الفحام، أحسن الجزاء في إقامة العزاء على سيّد الشهداء ١: ١٥٢ ـ ١٥٦، نقلاً عن الصدوق في الخصال.

## تحريف مفهوم التباكي ومصيبة تجويز الرياء في العزاء الحسيني

منَ الكلمات الغريبة العجيبة التي قيلت حول العزاء الحسيني، ما جاء في تحريف معنى «التباكي»؛ فقد قيل: «إن لفظ التباكي فيه إشارة إلى أنّ ترتب الثواب الأخروي ليس موقوفاً على البكاء الحقيقي، بل مجرّد قصد البكاء وإظهار النفس بصورة الباكي يجعله مستحقاً للثواب، ففي تمام العبادات تطلب حقائقها، أما في العزاء الحسيني فالدائرة وسيعة، ولعلّه من هذا المنطلق أجاز المرحوم الشيخ جعفر صاحب الخصائص الحسينية ـ طاب ثراه ـ الرياء في العزاء على الحسين عليه السلام»[1].

نعم، إنّ تصديق هذا الأمر صعبٌ وعسير؛ إذ يمكن أن نصدّق أن مثل هذا الكلام يصدر من عوام الناس، إلا أنّ صدوره من كاتب لا يرى قوله الغريب العجيب هذا صحيحاً فحسب، بل يرى أنّ الشيخ جعفر الشوشتري (التستري) يوافقه فيه، فيستند إلى فتواه ليثبت تحريفاته، ظانّاً أن حكمة التباكي في الحديث يمكنها أن تكون مستنداً لجواز الرياء في العزاء على الإمام الحسين عليه السلام.. إنّ هذا هو الغريب العجيب!

وإذا كانت للشيخ جعفر فتوى عجيبة من هذا النوع، فلا شك في أنه قالها من على المنبر وعند قراءته للعزاء، بحيث كان في حالةٍ عاطفية ودهشة روحية من العشق والعاطفة حلّت محلّ العقل والشرع، مما دفعه لقول ذلك، وإلا فلو كان في حالته العادية لما أعطى فتوى من هذا النوع، ولا شك في أنه لا يقصد بالرياء معناه المصطلح، بل المعنى اللغوي للكلمة، أي إظهار العمل أمام الآخرين، وهذا الاحتمال أكثر صحةً وأقرب إلى الشخصية العلمية التي كان يتمتع بها الشوشتري.

مع كلّ هذه الآيات المحكمة في القرآن المجيد، ومع هذه الروايات الصحيحة والمعتبرة جميعها، والداعية إلى الإخلاص والمقبّحة للرياء وإظهار الذات، كيف يمكن التحدّث بكلام سخيفٍ كهذا، وتجويز الرياء، وهو الشرك الخفي في الثقافة الإسلامية؟!

### التفسير الصحيح للتباكي

إنّ عدد الروايات التي جاء فيها تعبير «تباكي» قليلةٌ جداً[2]، وقد جاء في

---

(١) نخجواني، محمد علي، دعات الحسينية: ٤، ٥، طبعة بومباي، ١٣٣٠هـ.

(٢) نقل إحدى هذه الروايات ابن طاووس بعبارة: «روي عن آل الرسول»، مما يجعلها مرسلةً

إحداها: «من بكى أو أبكى، وأظنّه قال: أو تباكي»[1]، وحتى لو صدر هذا الكلام فعلاً عن المعصوم، فلا يمكن تفسيره كما يريده المحرّفون؛ ذلك أنّ في تفسيره وجوهاً أربعة يمكن تصوّرها هي:

**١. التظاهر بالبكاء والحزن**

لكن لا بمعنى الرياء، بل بمعنى نية التقرّب إلى الله وخالصاً لوجهه، بأن يبدي نفسه مغموماً حزيناً، وهذا المعنى ـ مع الأخذ بالاعتبار زمان صدور الحديث، وهو زمان دولة بني أمية ـ أصحّ المعاني على ما يبدو، ذلك أن بني أمية كانوا يتخذون ـ سنوياً ـ من العاشر من المحرّم عيداً، وكان أنصارهم يتظاهرون في ذلك اليوم بالسرور والسعادة والفرح[2]، فأراد الإمام عليه السلام بهذا الكلام أن يدعو الشيعة لإظهار الغمّ والحزن في هذا اليوم؛ كي يواسوا بقلوبهم أحباء أهل البيت ويُبدوا تنفّرهم من آل يزيد.

**٢. التكلّف في استدرار الدمعة**

قد لا يتمكّن الإنسان في المرحلة الأولى ـ الأسباب ـ من أن ينجز عملاً ما، لكن حيث كان قاصداً له يريده فإنه يُبدي من نفسه ميلاً إليه بأيّ شكل ممكن، وما أكثر ما يستتبع هذا التكلّف حصول تحوّل داخلي فيظهر إلى الخارج، ذلك أن الإناء بما فيه ينضح، والملفت أن هذا التكلّف والتشبّه يعطي ثمرةً في نهاية المطاف فيغدو الحال طبيعياً.

ولكي نقدّم مثالاً، نفرض أن شخصاً لا يقدر ـ بدواً ـ على البكاء خوفاً من الله على أثر قساوة قلبه أو لأيّ سببٍ آخر، أو أن ينوح على ذكر مظلومية أهل البيت عليهم السلام فيبكي، إلا أنه حيث كان يريد ذلك من أعماق قلبه، وكان يتمنّى أن تكون لديه حالة البكّائين، فهو يحاول التشبّه بهم فيتكلّف فعلَ ما يفعلون، وإذ به يتأثر بذلك وتظهر

---

وضعيفة السند. راجع: المجلسي، بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٨، نقلاً عن اللهوف، كما جاءت الرواية الأخرى منقولةً عن مجاهيل في سندها، فانظر: المصدر نفسه: ٢٨٢.

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٩، نقلاً عن كامل الزيارات وثواب الأعمال.

(٢) يلاحظ في هذا المجال كتاب السيد جعفر مرتضى القيّم، وهو «المواسم والمراسم»: ٨٢ ـ ٨٥.

آثار الغم والهم على وجهه، حتى يزول غبار القساوة عن صفحة قلبه، فينهمر الدمع منه، وهو الأمر الذي نطلبه وننشده.

**وخلاصة القول:** إنّ التباكي يؤخذ هنا من باب أنه مقدّمة للبكاء، أي مقدّمة طبيعية عادية، فيكون مطلوباً ومستحباً، وعندما تكون مقدّمة طبيعية فلا تشوبها شائبة الرياء والسمعة، غايته أنّ هذه المقدّمة (التباكي) قد تنجرّ إلى تلك النتيجة (البكاء)، وقد لا تؤدي إليها، كما لو كانت قساوة القلب حائلاً شديداً، أو أنّ فرصة الحصول على نتيجة هذه المقدّمة كانت قصيرةً، أو أنه عندما همّ بالوصول إلى النتيجة حصل أمرٌ آخر، بحيث أعجزه ذلك عن عبور مرحلة التباكي إلى مرحلة البكاء.

وعليه، فالأحاديث هنا تفيد أن الإنسان يحصل على الأجر والثواب على تباكيه حتى لو لم يصل إلى مرحلة البكاء، وهذا ما لا ينحصر بالبكاء، بل يستوعب بعض العبادات الأخرى أيضاً، مثل «التحلّم» للوصول إلى الحلم، و «التزهّد» لبلوغ الزهد، وهو ما وقع موقع المدح والحث في كلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام[1].

**٣. حبّ البكاء والميل إليه**

ويعني ذلك إذا لم يبك الإنسان، لكن كان لديه ميلٌ إلى البكاء ورغبةٌ قلبية به على مصائب أهل البيت عليهم السلام فإن هذا الأمر مستحب ومطلوب، وهذا هو معنى التباكي الوارد في كلام المعصومين؛ فيكون بين البكاء والتباكي عمومٌ وخصوص مطلق، بمعنى أنّ كل بكاء هو تباكٍ حتماً، وبعض التباكي فقط فيه بكاء، وقد قلنا في التفسير الثاني: إنّ التباكي مقدّمة للبكاء، إلا أنه هنا مصاحبٌ له، ذلك أن من لا يريد فعلاً لا يقوم به، سيما إذا ما ارتبط هذا الفعل بالقلب والتأثر القلبي، بل قد يكون ذلك ضرورياً وقهرياً أيضاً، بمعنى أنه مادام لا يوجد ميل ولا إرادة لفعل الشيء فإن هذا الشيء لن يتحقق في الخارج، تماماً كما جاء في الحديث المنقول عن الإمام علي عليه السلام؛ حيث يقول: «من لم يتحلّم لم يحلم»[2]، ونحن نقول: من لم يتباك لم يبك، وكل من

(١) بل جاء في صريح رواية عن الإمام علي عليه السلام: «التزهّد يؤدي إلى الزهد»، راجع: الآمدي، غرر الحكم ١: ٢٩١.

(٢) المحدث النوري، اللؤلؤ والمرجان: ٣٦، نقلاً عن غرر الحكم

يتباكى فمعناه أنه يريد أن يبك، وهذه الإرادة ليست مستحبّةً فحسب، بل ضرورية وقهرية أيضاً، فلا وجه لشوبها بالرياء؛ إذ قهرية شيء لا تنسجم مع التصنّع فيه، بل تضادّه.

**٤. التعاون على البكاء والعزاء**

أي أن لا يُخفي المعزّون تأثرهم وبكاءهم، بل يظهروه ويبدوه لبعضهم كي يحثوا بعضهم على البكاء، فمن لم يقدر على البكاء مع الباكين فلا أقلّ له من مشاركتهم بالنواح والأنين.

وللمحدث النوري هنا كلام لا يمكن أن يشكّل المعنى الصحيح للتباكي؛ إنه يقول: «لا يخفى أن لكلمة «التباكي» الشريفة ـ مثل ما كان على وزنها من التعاون ـ معنى لطيفاً آخر لعله هو المراد، وهو أن يبكي المؤمنون بعضهم بعضاً بسلوكهم وعملهم، مثل الإخوة والأخوات الذين يفقدون أماً عزيزةً وحنونة، فيلتقون حول بعضهم ويتذكّرون تلك العزيزة، محاسنها وخصالها المرضية، إحسانها وعملها الصالح، شدّة مصائبها وبلائها، وكلّ واحدٍ منهم يذكر للآخرين ما يأتي على باله وخاطره عنها فيبكون وينوحون. والمؤيد لهذا الاحتمال ما جاء في آداب يوم عاشوراء، من الخبر الشريف في زيارة عاشوراء المعروفة، فقد ورد أن الصادق عليه السلام أمر بالندب والنواح والبكاء على الحسين وأمر أهل بيته بإقامة العزاء له»[1].

وبعد استنتاجه لهذا المعنى اللطيف، يضيف النوري: «وعلى أية حال، فلا وجود في التباكي الممدوح والمحبوب ـ وهو من الطاعات والعبادات ـ لشائبةٍ من الرياء، وهو من أقسام الشرك الخفي، سبحان الله! لقد تحمّل الإمام الحسين عليه السلام كلّ هذه المصائب كي يُحكم أساس التوحيد ويرفع كلمة الحق، ويوثق أسس الدين المبين، ويحفظه من بدع الملحدين، مع ذلك كيف يحتمل ذي شعور أن تجوز أعظم المعاصي وأكبر الموبقات، وهو الشرك، وهو أكبر الذنوب الموجبة لخلود النار؟! ولعلّ سبب هذا التوهم الفاسد والخيال الشيطاني وهو عدم التأمل في الرياء وقبحه،

(١) المحدث النوري، اللؤلؤ والمرجان: ٣٨.

أو أنهم يريدون بهذا التحريف وهذه المؤامرة تغطية رغبتهم بالذهب والفضة، وقبائح هذا الحرص والطمع»[(١)].

## ٩. القياس على الذات واختراع مقولة لسان الحال

القياس على الذات من عوامل التحريف وأسبابه؛ ذلك أن أكثر الكتب الشعرية يلاحظ فيها أن ناظم الشعر والمقطوعة الأدبية يستخدم لسان حال الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأنصاره فينظم عملَه الأدبي على هذا الأساس، فيما ينظم لسان حاله هو لا لسان حال الإمام عليه السلام، وهو ما ينتج عنه في النهاية مجموعة من الأعمال والسلوكيات التي تبدي ذاته وأمثاله، لا أهل البيت الأطهار!

ونصوص «الحال» هذه وجدت لنفسها من كتب الشعر والنظم سبيلاً إلى كتب المقاتل والمجالس، فاتخذت صبغةً رسمية، واشتهرت بوصفها حديثاً أو روايةً تاريخية، لتغدو مقبولةً لدى الخاصّ والعام.

ومن الواضح، أنه لا يمكن ـ تحت ذريعة لسان الحال ـ نشر شعرٍ يتضمّن ذلّةً لأهل البيت عليهم السلام تحت شعار مدحهم ومراثيهم، فلسان حال الإمام الحسين إذا لم يطابق لسانَ مقاله فلا أقلّ يفترض به أن لا يخالفه، وأكثر أنواع قراءة المقاتل والمراثي والقصائد ونقل الحكايا المذلّة تخالف بوضوح الروح الحسينية الكبيرة والهدف العاشورائي السامي، وسبب ذلك أنّ القرّاء يقيسونه عليه السلام على أنفسهم، ولا يوجد من يقول لهم:

لا تقس عمل الأطهار علي نفسك
وإن كان في كتابة كلمةِ «شير» «شير»[(٢)].

يقول الإمام علي عليه السلام: «لا يقاس بآل محمد عليهم السلام من هذه الأمّة أحد، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة..»[(٣)].

---

(١) المصدر نفسه: ٣٨ ـ ٣٩ (مع تصرّف)، والجديد ذكره أن الجملة الأخيرة من هذا النص تعريضٌ بأولئك الذين يرتزقون باسم الحسين وعاشوراء، فيجعلون الدين دكّاناً لدنياهم، وهو

(٢) شير في اللغة الفارسية لها عدّة معاني، منها الأسد، ومنها الحليب (المترجم).

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٢؛ وانظر: محمد تقي جعفري، ترجمة وتفسير نهج البلاغة ٢: ٢٣٤.

## ١٠. التحريف وإسقاط الصورة المَلَكية والسلطانية على أهل البيت عليهم السلام

من البعيد جداً في عصر الخلفاء أن يتوهم شخص من أنصار الأئمة المعصومين عليهم السلام أن يقارنهم برجال السلطة وقادة الدولة، لا أقلّ من أننا لم نجد هذا الأمر في أي رواية أو خبر، إلا أن كتب العزاء والمقاتل والنياحة والمجالس في العصرين: الصفوي والقاجاري وغيرهما قد مُلئت بتشبيه الأئمة بالسلاطين، وأولادهم بأولياء عهد السلاطين ومن يخلفهم من أبنائهم، فثمة تراكيب ومفردات كثيرة ظهرت مثل «ملك الدين»، «وولاية عهد الإمام علي عليه السلام» و «ملك يثرب»، و «ملك خراسان»، و «ملك المظلومين» و «الملك حسين»، و «الأكبر والقاسم أولاد الملك» وعشرات التشبيهات والتراكيب الأخرى، والتي تحكي جميعها عن التحريف الذي طرأ، حتى أنّ قرّاء العزاء وكتّاب المقاتل والمجالس يمارسون في سردهم لوقائع عاشوراء وقراءتهم لمقتل الإمام الحسين عليه السلام مثل هذه المقاربات التي تشمئز منها القلوب وتنفر، حيث يصوّر رجال الله ملوكاً، ثم يتحوّل هذا الوهم الخاطئ إلى جواب يُفرض على ثقافة عاشوراء، وترتفع حصيلة المعاصي في هذا المجال فيظهر الغلو في عمل المدّاحين، والتملّق في كتابة المقاتل وقراءة العزاء، فمؤلّف كتاب «معالم السبطين» يصوّر خروج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة وكأنه موكب ملكي يصيح بالهيبة والسلطنة، وكذا الحال في مؤلّف كتاب «روضة الشهداء»؛ حيث يضع في أسطورة «شيرين شهربانو» أهل بيت العصمة والنبوة والعدالة في موضع حريم الملوك الصفويين!

في هذه التحريفات، نرى وضع شيء مكان شيء، فيتغيّر موضع المضاف والمضاف إليه، النكرة والمعرفة، المعروف والمنكر، المظلوم والظالم، فالدين يتحوّل إلى دنيا، والديانة إلى دولة، والهداية إلى سلطة، والعقل والتفكير إلى قدرة وسياسة، وفي نهاية المطاف يصير الله الرحمن سبحانه فرعوناً، وفي كلمة واحدة يغدو الملكوت برهوتاً، ولابد أن يقال هنا: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١)، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، و ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل: ٦٠)، وهنا يسأل: «أين التراب وربّ الأرباب»، ويُضم الصوت إلى صوت يوسف عليه السلام حين يقول: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩).

## ١١. هيمنة العوام على المجالس الحسينية، ومنطق اللعب بالمريدين

لا ينبغي تخطّي حقيقة مرّة، وهي أن الكثير من «تحريفات عاشوراء» إنما نتجت وتنتج عن نزعةٍ عوامية متأثرة بعوام الناس يعيشها بعض القراء المذهبيين، وقد يبلغ هذا الوضع الفاجعة حداً من الفساد أن نرى أن هؤلاء يفكّرون قبل كلّ شيء بما يريده العوام، وأيّ قصّة أو أسطورة تُسعدهم ويرتاحون لنقلها؛ لذا نراهم يعيشون دائماً في هذه الدائرة الضيقة المظلمة، وهي أن يأخذوا من الأفواه، ويعطوا أسماع الناس، فيظلّون دوماً في تكرارية هذا الدور والتسلسل، دون أن يتعبوا أو يملّوا، وما أكثر الكتب التي أُلّفت في المقاتل والمجالس على هذا النحو، وليس لها من مستند ومدرك لما تقوله غير لسان الواعظين وأسماع السامعين، فبدايةً قالوا ما قالوه بلا تفكير، ثم وعلى المنوال ذاته كتبوا قولهم بعد أن رأوا أن ما قالوه قد لاقى استحسان طبع عوام الناس.

مع الأسف الشديد، إنهم يجرّون ثقافة الناس إلى الفساد والهلاك بصنع هذه التحريفات والانشغال بهذه الأساطير والخرافات، حتى أنهم يفسّرون التباكي ـ خطأً ـ بالرياء والتزوير، فيجوّزونهما للناس، وهم ـ من حيث لا يشعرون ـ يشعلون النار في دنياهم وآخرتهم..

نعم، هناك عوامل أخرى دخيلة في تحريف عاشوراء، ويحتمل أن أثرها التخريبي ليس أقلّ مما ذكرناه، مثل الارتزاق عن طريق الدين والمذهب، والاستبداد الديني والمذهبي، والتأثر بالسياسة، وممارسة التعصبات الفرقية وعصبية الجماعات، بهويّةٍ كان ذلك كلّه أو بدونها، فهذا موضوع آخر، وممارسة التقية والخوف من أيّ شيء، ومع الأسف قلّما نجد في مجال التبليغ الديني من يضع هذه الآية شعاراً لعمله: **﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾** (الشورى: ٢٣)، وكذلك آية التبليغ الديني المحكمة؛ حيث تقول: **﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾** (الأحزاب: ٣٩).

## مشهورات عاشورائية لا أصل لها

### من لسان الحال إلى لسان المقال

ينسب كتّاب المقاتل وقراء العزاء الكثير من الكلمات والنصوص ـ نثراً أو شعراً ـ إلى الإمام الحسينعليه السلام، وهي كلمات لا أساس لها ولا مدرك يُعثر عليه إطلاقاً، وبعض هذه الكلمات رغم كونه مجهولاً إلا أنه مشهور جداً ومتداول أيضاً، وحيث حظي بالقبول العام ظنّ بعض الباحثين المعروفين والكتاب المعاصرين أنّ هذه الكلمات مسلّمة الصدور، ودون تأمل وتحقيق أوردوها في مصنّفاتهم بوصفها كلاماً للإمام الحسين.

واليوم نجد الكثيرين من الكتّاب والمؤلّفين المبلّغين، كما المبلّغين المؤلفين، يوردون هذه الكلمات على لسان الإمام الحسينعليه السلام، وينشرونها بأعدادٍ كبيرة من النسخ، غافلين عن أنّ الإمام الحسين لم يقل ذلك إطلاقاً، فهذه الكلمات المنسوبة مصداقٌ بارز للمثل المعروف: «ربّ مشهورٍ لا أصل له».

من المرسوم في أوساط كتّاب المقاتل وقرّاء العزاء ومؤلّفي المجالس والواعظين ومنذ قديم الأيام، أن يتحدّثوا بقصص وكلمات عن الإمام الحسين وعاشوراء في مجالس العزاء لعموم الناس، ثم بعد ذلك يوردون ما قالوه في كتبهم، وهم يذكرون هذه المجالس لإبكاء الناس فيتردّدون في البداية، لكن عندما يجدون تفاعل الناس بالبكاء معهم يزول هذا التردّد من نفوسهم؛ فيصدّقون أن الإمام الحسين قال هذا الكلام أو ذاك، أو أنّ هذه الحوادث قد وقعت.

وعلى هذا الأساس، تظهر الكثير من الكلمات طبقاً للسان الحال، لتُسطر ـ بعد ذلك ـ في كتب المقاتل والمجالس، وهذه النصوص المصطنعة نفسها تتحوّل ـ بمرور الزمان وبالتكرار والإعادة المتواصلة، وبصيرورتها مشهورة ـ إلى نصوص قولٍ بدلاً عن نصوص حال. لقد قيلت هذه الكلمات أو الأشعار ـ بدايةً ـ على أساس تصوّر أن الإمام الحسينعليه السلام قد قالها في هذا الظرف[1]، لكنّ هذه المقولات تتحوّل ـ

---

(١) إن مصطلح «لسان الحال» المتداول اليوم في أوساط قرّاء العزاء والمدّاحين يحكي عن هذه الظاهرة عينها.

بمرور الزمان ـ من حوادث وأقوال حالٍ إلى حوادث وأقوال واقعية، وبعد أن تحظى بشهرة واعتراف عامَّين تدرج بوصفها من نصوصه عليه السلام فيتصوّر أنها أحاديث أو روايات.

إنّ هذا النوع من الأحاديث ـ لا سيما الأشعار منه ـ مما ينسب إلى الإمام الحسين عليه السلام كثيرٌ، فهناك العشرات بل المئات من أبيات الشعر لا نجدها سوى في كتاب «أدب الحسين وحماسته» المجهول المؤلّف[1]، إننا نحاول هنا الإشارة فقط إلى بعض هذه الكلمات المشهورة والمعروفة جداً، ويتصوّرها بعض الكتّاب والمؤلّفين من كلمات الإمام الحسين عليه السلام.

## ١. «إنّ الحياة عقيدة وجهاد»

تُعرف هذه الجملة بوصفها من كلمات الإمام الحسين عليه السلام في أوساط العام والخاص، وفقط أهل البحث والتحقيق هم من يعرفون العكس تماماً، يرى الأستاذ مطهري أنّ هذه الجملة لا سند لها ولا مدرك، كما أنها لا يمكن أن تكون ـ من ناحية المفهوم والمحتوى ـ صحيحة[2]، ويكتب المغفور له العلامة محمد تقي جعفري في شرحه لنهج البلاغة يقول: .. أقدس الدماء التي أريقت، دماء المدافعين عن الإيمان بحقائق «الحياة المعقولة»، حيث يقال:

قف دونَ رأيك في الحياةِ مجاهداً ... إنّ الحياة عقيدةٌ وجهاد[3]

ويفهم من كلام الأستاذ جعفري أن هذه الكلمات مصرعٌ من بيت شعر، لا حديث أو رواية.

ومنذ سنوات عدّة قرّرت كلية باقر العلوم في مدينة قم في إيران، جمعَ كلمات

---

(١) لقد نشر هذا الكتاب من جانب «انتشارات إسلامي» التابعة لجماعة المدرّسين في الحوزة العلمية في قم! وقد جدّد طبعه مرات عديدة! كما يصدق قولنا أعلاه على كتاب «ديوان الإمام الحسين» المنشور أيضاً، والغريب أنّ هذين الكتابين ليسا خافيين على باحث المعارف الإسلامية.

(٢) مطهري، مرتضى، إنسان كامل: ١٣٠ ـ ١٣١، ٢٤٠ ـ ٢٤٤.

(٣) محمد تقي جعفري، ترجمة وتفسير نهج البلاغة ٨: ١١٨، الطبعة الأولى، ١٣٦٠ش/١٩٨١م.

الإمام الحسين عليه السلام من الكتب المعتبرة أو شبه المعتبرة، وهو قرار في محلّه يستحقّ المدح والتقدير، وبعد سنوات من العمل الدؤوب، خرجت إلى النور «موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام»، وصدرت الطبعة الأولى عام ١٣٧٣ش/١٩٩٤م، وعندما كانت الموسوعة تطوي مراحلها الأخيرة، جرى حديثٌ مع السيد محمود الشريفي الذي كان مسؤولاً عن قسم الحديث في الكليّة، وكانت الموسوعة تحت إشرافه، وكان التساؤل: هل لهذه الكلمات «إنّ الحياة عقيدة وجهاد» سندٌ ومدرك؟ هل عُثر لها على مستند؟ أجاب السيد الشريفي: إننا لم نجد ذلك في أيّ مكان، ولا في أيّ مصدر أو كتاب، وكأن هذه الكلمات لا يصحّ القول عنها بأنها أحاديث. فسئل: هل وجدتم «إنّ الحياة عقيدة وجهاد» في موضع ما؟ فأجيب: يفهم من شرح نهج البلاغة للعلامة الجعفري أنّ هذا الكلام لابدّ أن يكون شعراً، وقد أورد السيد الشريفي هذه الكلمات الشعرية مع كلام الأستاذ جعفري في مقدّمة الموسوعة.

إلا أنه مع ذلك، ثمة شك في أن تكون هذه الجملة قد أدرجت في مصدرٍ ما؛ ذلك أن عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود، وأخيراً استطاع أحد الباحثين المعاصرين، بنشره مقالةً في هذا المجال، كشف هذا اللغز لنا، وأثبت أنّ هذه الجملة ليست روايةً ولا حديثاً، وأنها لم تنقل عن الإمام الحسين عليه السلام، وإنما قالها أحد الشعراء المصريين المعاصرين، وهو أحمد شوقي[1].

وتغدو القضية أكثر سوءاً عندما يروّج هذا الشعر أو الأشعار في الصحف والمجلات والنشريات، وعلى المنابر الدينية وفي المساجد، بوصفها أحاديث أو

---

(١) چكيده مقالات كنكره بين المللي امام خمينى وفرهنك عاشورا: ١٥٢، الطبعة الأولى، لكنني لم أجد في أشعار أحمد شوقي (١٣٥١هـ) هذه الجملة، رغم أن معناها ومضمونها موجودٌ في ثنايا كلماته، وهذا الأمر ما يزال بحاجة إلى دراسة أكثر، وهو أنّ هذا الشعر مع شعر قادم «كل يوم عاشوراء..» ينتميان إلى مناخ شعري وشاعري واحد، والذي يبدو أن ناظمهما رجل واحد، أو رجلين من جماعة واحدة وأيديولوجيا مشتركة، وعلى أية حال، لا ينبغي الغفلة عن أن العقيدة بما هي عقيدة ليست مطلوبةً، كما أنها ليست مرفوضة بنحو مطلق، وإن الذين قبلوا هذا الشعر «إن الحياة عقيدة وجهاد» ونشروه، لهم عقائد وأفكار مختلفة، رغم أن أكثرهم متّحدون في الرأي، إزاء محبّة الإمام الحسين وتكريمه، واختلاف الرأي لا يفسد في الودّ قضيّةً.

روايات، سيما مع وجود قيد «إنما»، وبعد عبارة صريحة مثل: «قال أبو عبد الله الحسين»، والمراد من العقيدة ليس الدين والمذهب بصورته السياسية النازلة، أي الأيديولوجيا، كما أنّ مرادهم من الجهاد ليس الجدّ والجهد والسعي، أو الاجتهاد لكسب الكمال والتعالي، وإنما القتال والمقاتلة والحرب والجدال والقتل، سيما أحياناً مع تركيبات غريبة عجيبة مثل: «العمليات الانتحارية الاستشهادية» أو «كسر العدو»، بما يرجع إلى التفسير السياسي.

كيف يمكن أن تكون الحياة مختصرةً في هاتين الكلمتين، أي العقيدة والقتال؟ فإذا كنّا مضطرّين لاختصارها في كلمتين ـ ولسنا كذلك ـ كان بإمكاننا استخدام مفردات أكثر دقة واستحكاماً مثل: الإيمان، والعشق، والفكر، والعقل، والمحبة، والكمال، والجمال الإلهي ـ الإنساني، والتعالي، والرقي، ومع النظر إلى أنموذج الحياة الإنسانية ـ عليعليه السلام ـ نقول: «إن الحياة عدالة وجود، فأعدلوا وأنفقوا تسودوا»، ومع النظر إلى السبط الأكبر الإمام الحسنعليه السلام يمكن القول: «إن الحياة كانت في الحياة لا في اغتيال الخصم والممات»، ولا يجدر نسيان كلمات سفير الحسينعليه السلام مسلم بن عقيل، فيما رواه عن رسول اللهصلى الله عليه وآله من قوله: «إنّ الإيمان قيد الفتك»[1].

## ٢ . إن كان دين محمدصلى الله عليه وآله لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني

لقد شغلت هذه الجملة تفكيري منذ سنوات، وفتشت عنها في كل موضعٍ احتملته، فلم أجد مدركاً لها، لم نترك أحداً إلا وسألناه عنها فلم يذكر أنه رآها في موضع أو مصدر، بل إما يُبدون عدم اطلاعهم على الموضوع أو يُرجعون إلى كتاب ألّف خلال العقود الثلاثة الأخيرة.

وبعد المراجعة والفحص، وجدت أنّ كل من سطر هذه الجملة لم يذكر لها مدركاً أو مصدراً، وإنما قالها اعتماداً على شهرتها وذيوعها، فأدرجها في كتابه بوصفها من كلمات الإمام الحسين! وبعض الكتّاب ـ وهم من أهل البحث والتحقيق والدقة ـ عندما كانوا يذكرون هذه الجملة أو بعض العبارات، كانوا يُبدون شكّهم وترددهم فيها[2].

---

(١) عابدين، محمد علي، مبعوث الحسين: ١٥٠، نقلاً عن الفتوح.

(٢) راجع: الحكيمي، محمد رضا، إمام در عينيت جامعة: ٩٥، الطبعة السابعة، دفتر نشر فرهنك

وفي نهاية المطاف، كنت أبحث عن شعراء كربلاء؛ لإكمال الفصل الخاصّ بهم في كتاب «سيماي كربلاء حريم حرّيت» ووصلت إلى شاعر يسمّى الشيخ محسن أبو الحبّ الحويزي، وكان من شعراء كربلاء وخطبائها، كان يعيش بين عامي ١٢٣٥ ـ ١٣٠٥هـ وهناك فهمت أنّ هذه الجملة التي نتحدّث عنها إنما هي بيتٌ من قصيدة شعرية له[1]، وكتبنا هناك: «الشيخ محسن الهريزي الحائري» المعروف بـ «أبو الحب الحويزي»، من الخطباء الحسينيين المعروفين، ومن شعراء الشيعة، له ديوان شعر باسم «الحائريات»، ويكفي في لطف كلامه ونجاح هذا الشاعر بيتٌ من قصيدته الرائعة، الذي أخذ شهرةً عجيبة، بحيث صار ينقل في كلّ مكان وفي أكثر الكتابات باسم الإمام الحسينعليه السلام وبوصفه حديثاً وروايةً عنه، أي أنه لسان حال أبي الأحرار الذي يقوم مقام لسان مقاله، وذلك حين قال: وثمة أمران آخران يتعلّقان بأشعار أبي الحب الحويزي العاشورائية:

أ ـ إن له شعراً آخر معروفاً جداً ومتداولاً، وينسب أحياناً إلى حفيده، وهو ابن ابنه الذي كان شاعراً ومن الخطباء والشعراء الكربلائيين والعاشورائيين، وقد وضع شعر الجدّ في ديوان أشعار حفيده[2]، ومنشأ هذا الاشتباه إنما جاء من حيث إن اسمهما متحد، وهو «محسن»، كما أنهما معاً مشهوران بالأشعار العاشورائية، كما أنها مشتركان في الكنية والنسبة، أي «أبو الحب الحويزي»، ومشتركان نوعاً ما في الأرقام على مستوى تاريخهما؛ ذلك أن تاريخ ولادة الحفيد مطابق لتاريخ وفاة الجدّ، وهو (١٣٠٥هـ)، والشعر الذي نتحدّث عنه هو:

الله أكبر ماذا الحادث الجللُ ... فقد تزلزل مسهل الأرض والجبلُ
ما هذه الزفرات الصاعدات أسى ... كأنّها شعل يرى بها شعلُ
كأنّ نفحة صدر الحشر قد فجئت ... فالناس سكرى ولا سكر ولا ثمل
وإن عاشورا لو عمّ الهلال به ... كأنما هو من شؤم به زحلُ

ب ـ هذا الشعر لأبي الحبّ الحويزي الذي انتخبنا منه بعض الأبيات فقط،

---

إسلامي، ١٣٦٧ش/١٩٨٨م.

(١) سلمان هادي طعمة، تراث كربلاء: ٥٣.

(٢) ديوان أبي الحب: ١٦١، قم، انتشارات الرضي، الطبعة الأولى، ١٣٧١ش/١٩٩٢م.

يكتب عادةً باسم السيد بحر العلوم، وهو مشهور في إيران - في كل مكان - باسمه، كما أنهم يقرؤونه عن لسانه، ولعلّ هذا الاشتباه ناشئ عن أن أحد أحفاد[1] السيد بحر العلوم كان اقتبس بعض أبيات شعر أبي الحب، وجعلها تضميناً في بداية خماسيّته المعروفة، والفاضل البسطامي - وهو الذي كتب شرحين على المقاطع الاثني عشر للسيد بحر العلوم باسم: «لؤلؤ البحرين» و «سفينة النجاة در (في) شرح قصيدة سيّد السادات» - لم يلتفت إلى هذا التضمين؛ فذكر تمام الأشعار باسم السيد بحر العلوم ونشرها كذلك، فتابعه الآخرون، واشتهر الأمر على هذه الحال.

وعلي أية حال، فهذه الأشعار التي نتحدّث عنها موجودة - منذ قديم الأيام - فوق رأس الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء باسم الشيخ أبي الحبّ الحويزي، فلا يمكن أن تكون للسيد بحر العلوم؛ ذلك أنها تتناغم مع سبك الأشعار الأخرى لأبي الحب، كما لا يمكن أن تكون لأبي الحبّ الحفيد؛ ذلك أنها كان موجودةً فوق الرأس في كربلاء قبل ولادته[2].

## ٣. اسقوني شربةً من الماء

كنا سابقاً ننزعج جداً عندما نسمع هذه الجمل على لسان قراء العزاء المستعدّين لقراءة أيّ عزاء لا أساس له لأجل إبكاء الناس، وكنا نقول في أنفسنا: كيف يمكن للإمام الحسين عليه السلام، وهو أبو الأحرار وسيّدهم، أن يتلفظ بكلمات ذليلة مثل هذه أمام عدوّه، فينطق بلسان الالتماس ذليلاً حقيراً، ويترجى أولئك المنحطّين العازمين على قتله أن يسقوه جرعةَ ماء بحقّ جده رسو ل الله صلى الله عليه وآله!

إنّ الشهيد عزيزٌ، شعارُه «هيهات منا الذلّة»[3]، وقوله: «موتٌ في عزّ، خيرٌ من

---

(١) وهو السيد حسين الطباطبائي (١٣٠٦هـ)، ولا يجدر الغفلة عن أن الأشعار المذكورة أعلاه - ممّن كانت - فهي تعريب وترجمة للمقاطع الاثني عشر المعروفة جداً لمحتشم الكاشاني (الشاعر المعروف)، والتي مطلعها المشهور بالفارسية:

باز اين چه شورش است كه در خلق عالم است    باز اين چه نوحه وچه عزا وچه ماتم است

(٢) صحتي سردرودي، سيماي كربلا، حريم حرّيت: ٢١٧.

باز اين چه شورش است كه در خلق عالم است    باز اين چه نوحه وچه عزا وچه ماتم است

(٣) ابن نما، مثير الأحزان: ٢٨؛ والطبرسي، الاحتجاج ٢: ٩٩.

حياة في ذلّ»[(١)]، وكان يقول:

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول[(٢)] النار

فكيف يمكن أن ينسجم هذا الإباء ورفض الذلّ وقوّة القلب وصلابة الموقف أمام العدو مع طلب الماء بهذا الشكل؟ والأكثر إثارةً للعجب ما ذكره بعضهم في تبرير مضمون هذه الرواية الموضوعة من أنّ الإمامعليه السلام كان يريد بهذا الكلام إتمام الحجّة عليهم، لكننا لا نعرف أين تكمن الحجّة والبرهان في هذه الجملة؟!

من حيث الأساس، إنما يُلجأ إلى التأويل والتبرير عندما يكون للرواية سند، أما عندما تفتقد أيّ مدرك أو مستند ويكون محتواها ومضمونها موهنين مذلّين فلا معنى بعد ذلك للتأويل. إنّ هذه الجملة لم ترد في أيّ كتاب معتبر أو شبه معتبر، وإنما وجدناها في بعض الكتب القليلة التي لا تزيد عن أصابع اليد والمليئة بتحريفات عاشوراء والطافحة بالكذب والاختلاق، فهذا النصّ نفسه شاهدٌ على جعله، وجاعلوه عرضوا القضية على الشكل التالي: «.. ثم إن الحسينعليه السلام أقبل على عمر بن سعد، وقال له: أخيّرك في ثلاث خصال، قال: وما هي؟ قال: تتركني حتى أرجع إلى المدينة إلى حرم جدّي رسول الله. قال: مالي إلى ذلك سبيل. قال: اسقوني شربةً من الماء فقد نشفت كبدي من الظمأ. فقال: ولا إلى الثانية سبيل. قال: وإن كان لابد من قتلي فليبرز إليّ رجلٌ بعد رجل، فقال: ذلك لك، فحمل على القوم..»[(٣)].

والإنصاف أن أفضل دليل على جعل هذا الحديث هو هذا النصّ، فهو يصيح بمائة لسان على وضعه واختلاقه؛ إذ يشبه الأخبار التي اختلقها بنو أمية، ليعكس لنا تحريفاً آخر.

إضافةً إلى ذلك، ثمة دافع آخر لاختلاق هذا الخبر، وهو توفير الظروف قدر الإمكان لإبكاء الناس، ذلك أن أكثر قرّاء العزاء والمداحين يتتبّعون على الدوام أخباراً من هذا النوع، كي يدرّوا دمعة الناس بأيّ شكل من الأشكال، حتى لو أدّى ذلك إلى

---

(١) ابن شهرآشوب، المناقب ٤: ٦٨.

(٢) ابن طاووس، الملهوف: ١٧٠؛ والديلمي، أعلام الدين: ٢٩٨.

(٣) الطريحي، المنتخب: ٤٣٩؛ والدربندي، أسرار الشهادة: ٤٠٩؛ وأشرف الواعظين، جواهر الكلام في سوانح الأيام ١: ٣٨٢.

توهين الساحة المقدّسة للإمام سيد الشهداء؛ ولهذا نرى أنّ هذا الخبر لم يظهر إلا في الكتب التي تهيمن عليها مسألة إبكاء السامعين، وفي مثل هذه الكتب (المتأخرة) التي تدور على الإبكاء نجد الكثير من الأخبار الموضوعة والمذلّة، فقد جاء في خبرٍ آخر فيها: «بينما الحسينعليه السلام واقف في ميدان الحرب يوم الطف، وهو يستعطف القوم شربة ماء، وهو ينادي: هل من راحم يرحم آل الرسول المختار؟ هل من ناصر ينصر الذريّة الأطهار؟ هل من مجير لأبناء البتول؟ هل من ذابّ يذبّ عن حرم الرسول؟ إذ أتى الشمر اللعين إليه حتى صار بالقرب منه ونادى: أين أنت يا حسين؟ فقال: ها أنا ذا. فقال: أتطلب منّا شربةً من الماء، هذا مطلب محال»[١].

وعقب هذا الخبر جاءت أمور أخرى نعتذر عن نقلها، فهذا يكفي؛ إذ نقول ـ كما في القول الفارسي المعروف ـ : لقد وصل القلم إلى هنا وانكسر رأسه، وعلى أية حال فقد كانت للأستاذ مرتضى مطهري هنا كلمات مفيدة جداً؛ حيث يقول: «لقد كان عطش الإمام الحسينعليه السلام كثيراً إلى حدّ أنه عندما كان ينظر إلى السماء لم يكن يرى ما فوق رأسه جيداً، إنها ليست مزحة، إلا أنني كلّما بحثت في المقاتل ـ بالقدر الذي استطعت ـ لأجد هذه الجملة المعروفة لهعليه السلام: اسقوني شربةً من الماء، لم أجدها أبداً، لم يكن الحسينعليه السلام شخصاً يطلب من أولئك القوم مثل ذلك، نعم هناك موضع واحد عندما كان يهمّ بالحملة على الأعداء ذكر فيه أنه كان يطلب الماء، والقرائن تشير أن المقصود بذلك توجّهه نحو شريعة الفرات (بحثاً عن الماء يأخذه من الشريعة)، لا طلبه من الناس هناك»[٢].

## أسفٌ على قليل من التفكير!

نواجه وسط التحريفات التي طالت قضية عاشوراء ما يهزّ الإنسان ويعدّ مهيناً للغاية، بل يمكن القول: إن قدراً بسيطاً من التفكير في هذه المضامين لم يمارسه كتّاب هذه التحريفات وناشروها؛ فقد كتب بعضهم يقول: عندما جلس الشمر على صدر الإمام الحسينعليه السلام مريداً قطع رأسه عن بدنه، قال لهعليه السلام:

---

(١) الطريحي، المنتخب: ٣٧٩.

(٢) مطهري، حماسه حسيني ٢: ٢١٨.

أيا شمر خاف الله واحفظ قرابتي    من الجدّ منسوباً إلى القائم المهدي
أيـا شمــر تـقـتـلني وحـيدرة أبي    وجـدّي رسـول الله أكـرم مهـتـدي
وفاطمة أمـي والزكيّ ابن والدي    وعمّي هو الطيار في جنّة الخلدي

إن الشاعر، والأفضل أن نقول: جاعل هذه الأشعار، بعد ذكره في شعره ـ عقب ذلك ـ حرم الحسينعليه السلام، كزينب وأم كلثوم وسكينة ورقيّة، يتجه في حديثه إلى الإمام زين العابدينعليه السلام ويذكر بكل جسارةٍ ووقاحة على لسان الإمام الحسينعليه السلام شعراً للشمر بن ذي الجوشن يقول فيه:

أيا شمر ارحم ذا العـليل وبعده    حريماً بلا كفل يلي أمرهم بعدي[(1)]

ففي هذا البيت ارتكب الشاعر عدداً من الإهانات بحقّ سيد الشهداءعليه السلام هي:

١ـ مع وجود الإمام السجاد، اعتبر الشاعر أن عائلة الإمام الحسينعليه السلام وحرمه لا كفيل ولا راعي لهم.

٢ـ لقد أطلق ـ على لسان الإمام الحسينعليه السلام ـ على الإمام السجاد لقب «العليل والمريض»[(2)].

٣ـ إن الإمام السجاد وأهل بيت الحسين قد أودعهم الحسينعليه السلام عند الشمر!

## ٤ . هل من ناصر ينصرني؟

يشتهر جداً نسبة هذه الجملة إلى الإمام الحسين، ولا مدرك ولا مستند لها، ومعنى هذه الجملة أنّ قراء العزاء ولكي يدّروا دمعة الناس اختلقوا هذا النصّ على لسان الحسين، إلا أننا لم نجد نصاً مثله ولا قريباً منه في المصادر المعتمدة المعترف بها[(3)]، فاستناداً إلى الكتب والمصنّفات والدراسات التي قام بها المتأخرون لا يمكننا نسبة هذا الشعار، بوصفه روايةً أو حديثاً، إلى الحسين.

---

(١) الدربندي، أسرار الشهادة: ٤٢٦؛ وأدب الحسين وحماسته: ٤٦.

(٢) ولعلّه ليس من البعيد أن يكون سبب شهرة الإمام السجاد بالإمام العليل هو هذا الشعر المصطنع المنسوب إلى الإمام الحسين.

(٣) محدثي، جواد، فرهنك عاشوراء: ٤٧٠ ـ ٤٧٢.

## ٥ . عاشوراء وتفسير«كهيعص»

هذه الكلمة من الحروف المقطّعة في القرآن الكريم، وهي الآية التالية للبسملة في سورة مريم، وقد ذكروا لتأويلها وتفسيرها روايةً، نجد لها حضوراً حتى في الكتب القديمة جداً [١]، وتقول: «.. فأخبرني يا ابن رسول الله عن تأويل «كهيعص» قال: هذه الحروف من أنباء الغيب، أطلع الله عليها عبدَه زكريا، ثم قصّها على محمدﷺ، وذلك أن زكريا سأل ربّه أن يعلمه الأسماء الخمسة، فأهبط عليه جبرئيل فعلّمه إيّاها، فكان زكريا إذا ذكر محمداً وعلياً وفاطمة والحسن سري عنه همّه، وانجلى كربه، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة، ووقعت عليه البهرة، فقال ذات يوم: يا إلهي! ما بالي إذ ذكرت أربعاً منهم تسلّيت بأسمائهم من همومي، وإذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه الله تعالى عن قصّته، وقال: كهيعص، فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد، وهو ظالم الحسينعليه السلام، والعين عطشه، والصاد صبره، فلما سمع ذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام و..» [٢].

إلا أن المحقق الناقد الشيخ محمد تقي التستري (الشوشتري)، المعروف بكتابه الكبير في علم الرجال «قاموس الرجال»، يتعرّض لهذا الحديث في كتابٍ آخر قيّم له هو «الأخبار الدخيلة»، فيخصّص في هذا الكتاب قسماً تحت عنوان «الباب الثاني في الأحاديث الموضوعة»، ويجعل أوّل هذه الأحاديث هذه الرواية الطويلة التي اقتطعنا قسماً منها هنا والموجودة في كتاب كمال الدين للصدوق، ويخوض التستري بحثاً مفصّلاً في نقد هذه الرواية وردّها، مخصّصاً تسعة صفحات من كتابه (٩٦ ـ ١٠٤) لها.

وعندما يتحدّث عن المقطع الذي يفسّر «كهيعص»، يعرض ستة أحاديث أخرى، ويتفق أنها جميعاً مروية في كتب الصدوق، تحكي أن هذه الآية من الأسماء المقطعة الإلهية، ومن جملة هذه الأحاديث هذه الرواية عن كتاب «وقعة صفين» جاء

(١) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: ٤٥٤ ـ ٤٦٥، الطبعة الثانية، دار الكتب الإسلامية، ١٣٩٥هـ، وهو خبر طويل، اقتطعنا منه ما يرتبط بعاشوراء.

(٢) المصدر نفسه: ٤٦١.

فيها: «ما كان عليعليه السلام في قتال قط إلا نادى: يا كهيعص»[١].

ويكتب باحثٌ آخر (وهو السيد هاشم معروف الحسني) حول الموضوع عينه فيقول: «.. إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه الرواية من الغرائب التي يجب الوقوف عندها وإن كان ما نقلناه منها ليس بأقلّ غرابة مما أجملنا ذكره.. وأما التفسير الذي اشتملت عليه الرواية لكهيعص، فتنافيه الأخبار الكثيرة التي وردت في تفسير هذه الحروف، فقد جاء في بعضها أن المراد في هذه الكلمة أن الله هو الكافي الهادي الوالي العالم الصادق في وعده»[٢].

وبعد ذكره العديد من الروايات في تفسير ﴿كهيعص﴾، وكلّها روايات معارضة للرواية المذكورة هنا، يقول: «هذا كلّه، بالإضافة إلى أن سند الرواية قد اشتمل على بعض الأشخاص المتهمين بالكذب في الحديث، منهم محمد بن بحر الشيباني، فقد جاء عنه أنه من القائلين بالتفويض ومن المغالين، وممّن يعتمد على الضعفاء..» [٣].

ويقول الأستاذ علي أكبر الغفاري، مصحّح كتاب «كمال الدين»، في ذيل الرواية التي نتحدّث عنها: «رجال السند بعضهم مجهول الحال وبعضهم مهمل، والمتن متضمّن لغرائب بعيدٌ صدورها عن المعصومعليه السلام، ويشتمل على أحكام تخالف ما صحّ عنهمعليهم السلام، مضافاً إلى أنّ الواسطة بين الصدوق وسعد بن عبدالله في جميع كتبه واحدة، أبوه، أو محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، كما هو المحقق عند من تتبّع كتبه ومشيخته، وهنا بين المؤلف وسعد خمس وسائط، وقد رواه الطبري في الدلائل بثلاث وسائط هم غير ما هنا»[٤].

وقد سجّل الأستاذ الغفاري في عدة مواضع أخرى ملاحظاته على هذه الرواية[٥]، من جملتها قوله: قال في هامش البحار الطبع الحروفي كذا: «فيه غرابة..»[١]،

---

(١) التستري، الأخبار الدخيلة ١: ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) هاشم معروف الحسني، الموضوعات في الآثار والأخبار: ٢٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٩.

(٤) الصدوق، كمال الدين: ٤٥٤، الهامش.

(٥) المصدر نفسه: ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٥.

ذاكراً جملة إيرادات في هامش البحار هنا.

وإضافةً إلى هذه الإشكالات الواردة كلّها، هناك إشكالٌ آخر في متن الحديث، لم يذكره العلماء، وهو تحريف كبير اشتمله هذا الخبر، ويتعلّق بتفسير حرف «الهاء» من حروف ﴿كهيعص﴾ فهو يقول: إنّ الهاء هلاك العترة، ومن الواضح جداً أنّ صنّاع هذا الحديث يريدون تسمية شهادة عترة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبناء علي عليه السلام، خصوصاً شهادة الإمام الحسين عليه السلام، حيث الحديث في عاشوراء والحسين وأصحابه.. يريدون تسمية ذلك كلّه هلاكاً، ولا شك في أن تسمية الشهادة هلاكاً، سيما شهادة شهداء كربلاء وسيد الشهداء عليه السلام، تحريفٌ كبير وغير شريف.

## تحريف في متن إحدى الروايات

كتبوا أن رجلاً من قبيلة بني تميم، يدعى عبدالله بن حوزة، ركب يوم عاشوراء على فرسه متجهاً بسرعة إلى عسكر الإمام الحسين عليه السلام، فناداه أنصار الإمام عليه السلام بأنّ أمك ستجلس في عزائك! فإلى ما أنت مسرع؟ فأجاب: إني أقدم على ربّ رحيم وشفيع مطاع، فسأل الإمام الحسين عليه السلام أصحابه عنه، فقالوا: ابن حوزة، فدعا الله عليه أن يلقيه في النار، فغضب من دعاء الإمام الحسين عليه، فسقط من على فرسه، فعلقت رجله اليسرى بركاب الفرس، فيما ظلّت رجله اليمنى في الهواء، وسحبه الفرس، في هذا الوقت، صار مسلم بن عوسجة قريباً منه، فقطع رجله اليمنى بالسيف، وبينما كان فرسه يذهب به يمنةً ويُسرى، ارتطم رأسه شديداً بالأحجار والأشجار حتى تحطّم، ثم مات، فأرسل الله روحه بسرعةٍ إلى جهنم[٢].

إلا أنه وبمراجعة المصادر والنصوص الأخرى، يُعلم أن تحريفاً قد وقع في هذا الخبر، وأنّ جملة: إني أقدم على ربّ رحيم وشفيع مطاع، هي للإمام الحسين، إلا أن النسّاخ نسبوها ـ اشتباهاً ـ أو غيرهم إلى عبدالله بن حوزة؛ ذلك أنه لا يوجد أيّ تناسب بين هذا الرجل الجسور الضال وتلك الظروف المحيطة وهذه الجملة، والصحيح هو ما ذكرته بعض المصادر الأخرى للقصّة على الشكل التالي: «.. تقدّم

---

(١) المصدر نفسه: ٤٥٧، الهامش.

(٢) انظر: الشيخ المفيد، الإرشاد ٢: ١٠٢.

رجل من القوم، يقال له: ابن حوزة، فقال: أيّكم حسين؟ فسكت الحسين عليه السلام، فقالها ثانية، فسكت، حتى إذا كانت الثالثة، قال عليه السلام: قولوا له: نعم، هذا حسين فما حاجتك؟ قال: يا حسين! أبشر بالنار، قال: كذبت، بل أقدم على ربّ غفورٍ وشفيع مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة..»[١].

وبقية الخبر مذكور بقليل من التفاوت كما مرّ، ومن ملاحظة المصادر المختلفة يُعلم ـ إضافةً إلى التحريف المذكور ـ حصول تحريفات أخرى حوله، لا سيما فيما يخصّ أسماء الأشخاص، وقد بحث العلامة التستري في هذا المجال وحول الأسماء وأسماء عدّة شهداء آخرين من شهداء كربلاء، وكشف الستار عن بعض التصحيفات والتحريفات التي حصلت[٢].

## وقفة مع تصحيف في زيارة عاشوراء

ثمّة في متن زيارة عاشوراء فقرة تُقرأ كما يلي: «اللهم العن العصابة التي جاهدت الحسين..»[٣]، ومن الواضح أن تحريفاً ما قد حصل في هذه الفقرة، وأن الشكل الصحيح لها، إحدى صيغتين:

١ـ «اللهم العن العصابة التي حاربت الحسين عليه السلام»[٤].

٢ـ «اللهم العن العصابة التي جاحدت[٥] الحسين عليه السلام»[٦].

ذلك أنه من المحتمل أن يكون راوي زيارة عاشوراء أو غيره قد وقعوا في اشتباه عند سماعهم أو كتابتهم واستنساخهم لها، فسمعوا أو كتبوا خطأً عبارة

(١) المحقق التستري، الأخبار الدخيلة ٣: ١٩١ ـ ١٩٢، الباب الأول في الفصل التاسع، نقلاً عن تاريخ الطبري وابن نما الحلّي، مثير الأحزان؛ وموسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٤٣٦، نقلاً عن تاريخ الطبري ٣: ٣٢٢؛ والكامل في التاريخ ٢: ٥٦٤، مع اختلاف بسيط في العبارات الأخرى، لا سيما في اسم ذلك الرجل المدعو: عبدالله بن حوزة.

(٢) التستري، الأخبار الدخيلة: ١٩٠ ـ ٢٠٢.

(٣) المحدّث القمي، مفاتيح الجنان: ٨١٠، زيارة عاشوراء.

(٤) ابن قولويه، كامل الزيارات: ١٧٦، الباب ٧١؛ والتستري، الأخبار الدخيلة ٤: ٢٥٤.

(٥) جحد: أنكر، كذّب، وجاحدت: أنكرت، وعاندت، وكذّبت.

(٦) التستري، الأخبار الدخيلة ٣: ٣١٨.

«جاحدت» على نحو «جاهدت».

إلا أنّ الاحتمال الأكبر الأقرب إلى الواقع، هو الصورة الأولى، أي «حاربت»، وهي التي جاءت في «كامل الزيارات»، وهذا الكتاب الشريف، من تأليفات الفقيه والمحدّث الجليل القدر أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه (٣٦٧هـ)، وإضافةً إلى كونه كتاباً معتبراً جداً ومستنداً أيضاً، وقد اهتمّ به علماء الشيعة اهتماماً خاصاً، فهو أقدم الكتب التي ذكرت متن زيارة عاشوراء، ومؤلّفه أقرب من جميع المؤلفين الذين كتبوا «جاهدت» إلى عصر النص؛ ذلك أنه وسط المصادر القديمة ليس هناك سوى كتاب مصباح المتهجّد للشيخ الطوسي (٤٦٠هـ) ذكر كلمة «جاهدت» وقد أخذها القمي وغيره في المفاتيح و.. عن مصباح الشيخ، إلا أنه ـ وكما مرّ ـ فإن ابن قولويه أسبق بقرنٍ من الشيخ الطوسي، وقد ذكر العبارة الصحيحة، ألا وهي «حاربت».

كما أنّ التركيز على مدلول كلتا الكلمتين: حاربت، جاهدت، يفضي إلى الاقتناع بصواب «حاربت»، وأنّ «جاهدت» لا يمكن أن تكون صحيحةً بأيّ وجه؛ ذلك أن جرائم أعداء الحسين عليه السلام وجناياتهم لا يمكن أن تسمّى جهاداً، فإذا راجعنا معاجم ألفاظ القرآن الكريم والصحيفة السجادية ونهج البلاغة، والمصادر المعتبرة، مثل الكتب الأربعة، نجد أنّ كلمة «جهاد» و «مجاهد» وسائر المشتقات كانت تستعمل ـ دائماً ـ في مضمون ذي طابع مقدّس، وكان توظيفها دوماً في الحروب الإيجابية، وهذه الكلمة ـ بما تحمله من مضمون مقدّس في النصوص الدينية ـ لا يمكن بأيّ حال أن تطلق على أعداء سيد الشهداء عليه السلام وقاتليه؛ فلا شك في أن جنايتهم كانت محاربةً، وأنّ مجرمي عاشوراء كانوا محاربين لله ورسوله ولسيد الشهداء عليه السلام، كما أن التدقيق في متن زيارة عاشوراء يعطي هذه النتيجة ـ أي حاربت ـ حيث يوجد فيها: «إني سلمٌ لمن سالمكم وحربٌ لمن حاربكم».

كما أننا نجد تعبير المحاربة أيضاً في إحدى الزيارات المروية عن الإمام الصادق عليه السلام في يوم عاشوراء، فبعد ذكره عليه السلام مقدّمات لزيارة الإمام الحسين في عاشوراء، لا سيما بيانه للصلاة الخاصّة، يقول: تتوقف في مصلاك وتقول سبعين مرّة: «اللهم عذّب الذين حاربوا رسلك وشاقّوك، وعبدوا غيرك و..»[1].

(١) ابن طاووس، إقبال الأعمال ٣: ٦٧.

## ٦. كل يوم عاشوراء وكلّ أرض كربلاء

ينقل بعضهم هذه الجملة ـ دون مستند ـ عن لسان الإمام الصادقعليه السلام[(١)]، ولم نستطع العثور على مدرك لهذا الحديث المشهور جداً، بل وجدنا عدداً من الروايات والأحاديث الواردة في النصوص المسندة المعتبرة تعارض هذا المفهوم معارضةً واضحة؛ ونستعرض هنا بعض العيّنات من هذه الروايات:

١ـ الصدوق، بإسناده عن مشايخه، عن الصادقعليه السلام، عن أبيه الإمام محمد الباقرعليه السلام، عن جدّه الإمام زين العابدينعليه السلام، عن الإمام الحسن المجتبىعليه السلام في تنبّئه بشهاده أخيه الإمام الحسينعليه السلام أنه قال: «لا يوم كيومك يا أبا عبدالله»[(٢)].

٢ـ الصدوق في حديثٍ آخر، بسنده إلى الإمام السجادعليه السلام أنه قال: «لا يوم كيوم الحسينعليه السلام»[(٣)].

٣ـ العلامة الحلّي ـ نقلاً عن أحمد بن يحيى البلاذري (٢٧٩هـ) صاحب كتاب «أنساب الأشراف» ـ عن عبدالله بن عمر أنه قال: «لا يوم كيوم قتل الحسين»[(٤)]. ومع هذا كلّه، لا ينقضي العجب بنسبة تلك الجملة الموضوعة (كل يوم عاشوراء وكلّ أرض كربلاء) إلى الإمام الصادقعليه السلام بلا دليل ولا مستند، وذكرها على الملأ والعموم في وسائل الاتصال العامة وفي الاحتفالات الدينية، والترويج لها ونشرها، بل إن بعضهم يذكر بقدرٍ من التفصيل الزائد حين يقول: «كل يوم عاشورا، كل أرض كربلاء، كل شهر محرم، وكل فصل عزاء»[(٥)]، غفلةً عن أن هذا الكلام لا أساس له ولا مستند، حتى على نحو الحديث المرسل أو المقطوع أو الضعيف الهزيل، والذي يبدو أنّ هذه الجملة إنما هي شعار أو شعر من شاعر ينتمي إلى حزبٍ ينادي بالحرب.

---

(١) عزيزي، عباس، بيام عاشورا: ٢٨، عن الصادق عليه السلام دون مأخذ ومستند؛ وراجع: جواد محدّثي، فرهنك عاشوراء: ٣٧١.

(٢) الصدوق، الأمالي: ١٧٧؛ وإضافةً إليه نقل هذا الحديث علماء شيعة آخرون، فراجع: ابن نما الحلّي، مثير الأحزان: ٢٣؛ وابن طاووس، الملهوف على قتلى الطفوف: ٩٩.

(٣) الصدوق، الأمالي: ٥٤٧.

(٤) العلامة الحلي، نهج الحق وكشف الصدق: ٣٥٦.

(٥) وعلى هذا المنوال، لابد من القول أيضاً: وكل قتل شهادة، وكل إمامٍ حسين!

إنّ معنى هذا الشعار ومضمونه ينسجم مع فرقة الزيدية أو الكيسانية أو الإسماعيلية، أكثر من انسجامه مع مذهب العدل العلوي، أو مع التشيّع الحسني والحسيني والسجادي الأخضر، إننا نرى أنّ هذه الجملة لا تنسجم مع الشيعة الإثني عشرية والمذهب الجعفري، فرئيس مذهبنا وهو الإمام الصادق عليه السلام - كوالده الباقر عليه السلام - من أهم معالمه وميزاته البحث والدرس، بل إن الإمامة في المذهب الجعفري والإمامي تعني الهداية أكثر، والإمام يُعرف أكثر ما يُعرف بالعلم والمعرفة، على خلاف الفرقة الزيدية التي يتميّز الإمام فيها بالدم والسيف، فهم يعتقدون أن الشرط الأول والامتياز الأهم في الإمامة والإمام هو الثورة المسلّحة، وقيام الإمام بالسيف؛ ولهذا بدا لنا أن الجملة التي نتحدّث حولها منبثقة من التفكير الزيدي.

أما تفسير هذه الجملة بتواصل الخصام والتعارض بين الحقّ والباطل، فهو مغالطة ليس إلا؛ إذ حقّ المواجهة مع الباطل أن تكون دوماً بالعلم والمعرفة، والحقّ ينتصر دائماً بصراحة العلم وصدق المنطق، وهو ما يُرى بوضوح في السيرة الخضراء الناصعة لرادة الهدى والهداة الصادقين.

# التصنيف الشمولي في السيرة الحسينية

## قراءة في كتاب «مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة»

**الشيخ محمد صحتي** (*)

**ترجمة: محمد عبدالرزاق**

### تمهيد

عندما نراجع حياة الإمام الحسينعليه السلام نجدها تتكوّن من ثمانية وخمسين عاماً يختمها نهار يومٍ بُعيد سويعات من المقاومة والدفاع عن النفس، وتكاد حياتهعليه السلام تتلخص في النقاط التالية:

١ ـ ثماني سنوات في حجر الرسول صلى الله عليه وآله بالمدينة المنورة.

٢ ـ ثلاثون عاماً عاشها مع أبيهعليه السلام في المدينة والكوفة.

٣ ـ عشر سنوات مع أخيه الحسنعليه السلام في المدينة.

٤ ـ ما يقارب العشر سنوات عقب استشهاد الإمام الحسنعليه السلام، تسلّم خلالها إمامة الأمّة؛ حيث كان حينها ـ ولتسع سنين ونصف السنة ـ داخل المدينة المنورة.

٥ ـ الستة أشهر الأخيرة من مسيرته، قضى أربعةً منها في مكة المكرمة بجوار بيت الله، والشهران المتبقيان تصرّما بين المدينة ومكّة والقسم الأعظم منها كان في مسير مكة والكوفة وكربلاء، ثم توقف في كربلاء ثمانية أيام ليستشهد بعدها ظهيرة عاشوراء سنة ٦١هـ.

تأسيساً على ذلك، يكون الإمام الحسينعليه السلام قضى مجمل عمره الشريف في أجواء عبادية معنوية بين مدينة يثرب ومكّة المكرمة (حجَّ واعتمر لأكثر من عشر مرات مشياً على الأقدام من المدينة إلى مكة)، يُستثنى من ذلك أواخر أيام حياته

(*) باحث في مجال المصادر التاريخية الإسلامية.

خارج المدينة ومن ثم خارج مكة، ذلك الخروج الذي لم يكن عن رغبته واختياره، بل تماشياً مع الظروف القاهرة، ولو أنّ حكّام الجور في زمانه تركوه وشأنه لما تخلّى عن مجاورة المدينة ومكة المكرمة، مدينتي العبادة والروحانية، ولولا هذا الحكم الجائر لما رجّحَ عملاً على عمل العبادة والطاعة لمولاه، فهو ـ قبل كلّ شيء ـ رجلُ التقوى والعبادة؛ فأبرز ما يميّزه هو الزهد والعبادة، حالُه في ذلك حال جده ﷺ وأبيه عليه السلام وأخيه الحسن عليه السلام.

## أين الدراسات الحسينية عن الحسين ما قبل عاشوراء؟!

إلاّ أنّ الغريب في نتاجات الكتّاب والباحثين في حياة الإمام الحسين، تركيزها ـ وبشكل كبير ـ على الستة أشهر الأخيرة من عمرٍ ناهز الثمانية والخمسين عاماً، متجاهلين تماماً مائة وخمسة وعشرين يوماً قضاها عليه السلام بمكة مجاوراً للكعبة الشريفة، فقد صَبَّ الباحثون جُلّ اهتمامهم على شهرين من حياته بين صحاري مكّة والكوفة وكربلاء، ليختزلوا من بعد ذلك القصّة في سبعة أو ثمانية أيام بكربلاء، قادَه إليها الإجبار والاضطرار، وفي المحصلة هم لا يعرفون الإمام إلا من خلال يومٍ واحد نابَ عن ثمانية وخمسين عاماً هو يوم عاشوراء، يوم الموت، يوم الفاجعة، وما أكثر تهويلهم لهذا اليوم المغمور بالظلمة والبؤس، محاولين بذلك إنارة تلك الظلمة وإشاعة لياليها الحالكة ليقرأوا على الناس: «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء» كأنّه كلام الوحي المنزل.

ربما تلخّص هذه الأفكار القائمة والانتقائية مرادنا من قصّة الحسين: ١ ـ ليقصد عامة الناس الحسين طلباً للشفاعة وغفران الذنوب. ٢ ـ ليقتصر عمل رواة المقتل والخطباء على إبكاء الناس والتباكي من حولهم. ٣ ـ ليكون الحسين رمزاً لبعض الفرق المتطرّفة، كالزيدية والإسماعيلية والسربدارية والقزلباش(١)، وهذا ما يسعى إليه أتباعهم اليوم. ٤ ـ لتتخذ بعض الأحزاب السياسية والأجنحة العسكرية

---

(١) سربداران أو (رؤوس على المشانق): أسرة من سبزوار حكمت في القرن الثامن الهجري أوّلها خواجة عبدالرزاق وآخرها خواجة علي. والقزلباش: جماعة من جيش الشاه إسماعيل الصفوي، وتطلق على الصفوية من أتباع الشاه إسماعيل عموماً وعلى مذهبهم أيضاً، وتعني أصحاب الرؤوس الحمراء؛ لأنهم كانوا يضعون على رؤوسهم قلانس حمراء [المترجم].

فيها ـ ابتداء من المختار الثقفي والتوابين وحتى التكتلات المعاصرة ـ من الإمام الحسين وقضيته دافعاً لتحفيز أفرادها على القتل والاقتتال. ٥ ـ لتتخذه بعض الجهات التابعة للسلاطين أداةً لتخدير تابعيهم. ٦ ـ أما أصحاب المصائب والوفيات فغايتهم من تلك المواضيع لا تتجاوز مجالس تأبين الموتى ووضع التمائم على قبورهم.

نعم، هذا هو الجانب السلبي والمشرئب في العتمة، وإن كان هناك جانب إيجابي ـ حتى من ضمن النقاط الست الآنفة الذكر ـ يتمثل في بعض المذاهب والمدارس الفكرية، وغيرها من القادة والزعماء الحقيقيين ممّن كان يقرأ في الحسين وقضيته مفاهيم الإباء والحرية والعبادة والزهد والتقوى، ويرون فيه وفي عاشورائه سبيلاً للخلاص من الذلّ والضيم والخنوع والاستبداد بشتى أشكاله، وإن كان ذلك على حساب الشهادة والتضحية بالدماء، وما أكثر من يقرأ الحسين في مفردات الحرية والشهادة والتضحية هذه الأيام وفقاً لتلك الرؤية.

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام ـ بحق ـ مصداقاً لما عُرف به من نعوت، أمثال «سيد الشهداء» و«أبو الأحرار» و«رمز الحرية» و«إمام الأخيار» و«سيد أباة الضيم» و«كاشف المبطلين» و«محارب المستبدّين بالدين»، وقد كتب في ذلك مئات الكتب والرسائل لا يسع المقال تكرارها، إنما نلخّص القول في كلمتين هما: الجهاد والشهادة.

بينما تبقى متضائلة نسبة أولئك الذين يريدون في الحسين عليه السلام تحقيق الحياة وتنمية أبعادها، الأمر الذي تسبّب في إقصاء ثمانية وخمسين عاماً من حياة الإمام عليه السلام، فاقتصر التركيز على يوم واحد منها، هو يوم عاشوراء (يوم الموت والشهادة)، وكانت ولا تزال الكتب المؤلّفة في الإمام الحسين عليه السلام تحمل عناوينها التقليدية من قبيل: مصرع الحسين، ومراثي الحسين، وأكثرها حضوراً مقتل الحسين، حتى إنك لو أطلقت كلمة المقتل لانصرفت لمقتل الحسين مباشرةً دون الحاجة لقرينةٍ تذكر، وتكاد أهمية كتابة المقتل في الموسوعات الشيعية لا تقلّ عن أهمية قراءة المجالس الحسينية وكتابة مراثيها، وهو موضوع متشعب الأطراف له أبعاده الخاصة، ولا بد من تسمية كتب من هذا القبيل بـ «المقتل» أو «الشهادة» إذا ما أردنا تحسين مسمّاها، وذلك نظراً لتركيز مؤلّفيها على أحاديث القتل والمقتول، وسرد

جملة من الفجائع والجرائم الحاصلة يوم عاشوراء.

أما ما صدر من كتب ـ على قلّتها ـ خلال القرن المنصرم تحت عناوين «حياة الإمام الحسين» وما شابه ذلك، فإنها لم تقع على مسمّاها، وخلافاً له كان مدار حديثها حول استشهاد الإمام وتداعياته بالدرجة الأولى؛ فهي وإن كانت بظاهرها تبدأ من موضوع ولادته عليه السلام، إلاّ أن حديثها سرعان ما يتّجه نحو قضية مقتله؛ بحيث إنّ أول ما يطالعك فيها هو الإخبار عن مقتله على لسان الأنبياء ـ من آدم إلى الخاتم ـ فهو سابق حتى لولادته، فبكته الأنبياء معلنةً بذلك مظلوميّته الكبرى.

**ومجمل القول**: إن غالبية من كَتَب في الحسين ومقتله لم تتجاوز خطواتهم حدود الكوفة وكربلاء، ولم يخرجوا في قراءاتهم لسيّد الشهداء عن دائرة مأساوية عاشوراء الضيّقة، إلاّ أنه صدر هذه الأيام كتاب في ستة أجزاء تناولت صفحاته حركة الحسين من المدينة وحتى العودة إليها، مستوفياً ـ إلى حد كبير ـ مقدمات ونتائج فاجعة عاشوراء. ومقالنا الحالي هو قراءة في هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة».

## التعريف الإجمالي بكتاب «مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة»

صدرت أجزاء الكتاب الستة حسب الترتيب التالي:

**الجزء الاول**: الإمام الحسين في المدينة المنورة ورحلته منها إلى مكة المكرمة، تأليف علي الشاوي في (٤٩٩) صفحة.

**الجزء الثاني**: الإمام الحسين في مكة المكرّمة، تأليف نجم الدين الطبسي، ٤٧٩ صفحة.

**الجزء الثالث**: وقائع الطريق من مكة إلى كربلاء، تأليف محمد جواد الطبسي، ٣٤٣ صفحة[١].

**الجزء الرابع**: الإمام الحسين في كربلاء، تأليف عزت الله مولائي ومحمد جعفر الطبسي، ٥٤٥ صفحة.

---

(١) وقد صدرت الأجزاء الثالثة الأولى بالفارسية بترجمة عبدالحسين بينش.

**الجزء الخامس:** وقائع الطريق من كربلاء إلى الشام، تأليف محمد جعفر الطبسي، (٢٦١) صفحة.

**الجزء السادس:** الركب الحسيني في الشام ومنها إلى المدينة المنورة، تأليف محمد أمين الأمين، (٥٢٠) صفحة.

لقد اهتمّت مواضيع هذا الكتاب بالعشر سنين الأخيرة من حياة الإمام الحسين عليه السلام، أي مدة إمامته من عام ٥٠ هجري وحتى سنة ٦١ هجرية، أما الجزءان الأخيران فقد دار الحديث فيهما حول أسرة الإمام في الكوفة والشام والمدينة.

## أهم ميّزات الكتاب

هنا أود الإشارة لأهمّ ما تفرّد به كتاب «مع الركب الحسيني»:

١ ـ صدر الكتاب تحت إشراف مركز دراسات حرس الثورة الإسلامية ومن الطبيعي أن تخرج أفكار الكتاب عن سياسة المركز ومؤسّسته.

٢ ـ تناول المؤلفون آراء وكلمات الإمام الخميني والشهيد مطهري في عاشوراء والإمام الحسين عليه السلام، ومنها انطلقوا في قراءاتهم.

٣ ـ وصف الكتاب فاجعة كربلاء بـ «الثورة» والإمام الحسين بـ «الشهيد المنتصر».

٤ ـ أقحم بحث «علم الإمام» في صلب فلسفة عاشوراء، كشرط أساسي في فهم هدف الحسين فهماً صحيحاً.

٥ ـ يقترن نقل بعض الروايات والأحاديث بذكر أسس علم الدراية والحديث، وهو لا يخلو من الفائدة.

٦ ـ علاوة على كتب التاريخ والحديث والمقاتل هناك مراجعات أيضاً للكتب الفقهية، من قبيل ذكر رأي صاحب الجواهر في عاشوراء وعلم الإمام، ورأي المحقق الثاني في جامع المقاصد (١: ٢٦ ـ ٢٥).

٧ ـ اهتمّ الكتاب بشكل واضح بدور سبايا عاشوراء الرسالي، وذلك من خلال تأليف جزئين في هذا الموضوع هما : الخامس والسادس.

## مع الركب الحسيني، عرض وتحليل

كتبت صفحات الكتاب تحت إشراف الأستاذ علي الشاوي، الذي بدأ مقدّمته للكتاب بهذا التساؤل: هل من جديد في ثورة الإمام الحسين؟ بعبارة أخرى: هل ثمة حاجة لتأليف هذا الكتاب؟ ثم يسترسل الشاوي في طرح تساؤلاته البنّاءة حتى يقول: «إن ما يمكن أن أطمئن إليه هو أنّ هذا الكتاب جاء بشيء جديد، وأنه ليس محاولة مكرّرة في المكتبة الحسينية.. وأنّ ثمّ حاجة إليه. (١: ٣٤).

**الجزء الأول: الإمام الحسين في المدينة المنورة**

يتصدّر هذا الجزء ـ وقبل الولوج في صلب موضوعه ـ مقالان: الأول عنوانه «حركة النفاق... قراءة في الهوية والنتائج» تناول تحكّم المنافقين بأمور المسلمين بعد وفاة الرسولﷺ، مع الإشارة لمواضيع «حزب السلطة» «حزب بني أمية» و«منافقي أهل الكتب» و«منافقي المدينة» و«السقيفة وتداعياتها» و«خلافة عمر بن الخطاب» حتى «وصول معاوية السلطة».

أما في المقال الثاني، فكان الحديث حول منطق الحسين ومنهجيته كـ «شهيد منتصر» وما إلى ذلك من بحوث حول آفاق النهضة الحسينية، والتفكيك بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي والبحث في موضوع عصر الظهور.

بعد ذلك، يطالعنا الفصل الأول بعنوانه «الإمام الحسين بعد أخيه الإمام الحسن»، هكذا تتعاقب فصول الكتاب بشيء من السنخية لما اعتادت عليه كتب التاريخ والمقاتل مع وقفات تحليلية للوقائع حتى دخولهعليه السلام إلى مكة المكرمة.

**الجزء الثاني: الإمام الحسين في مكة المكرمة**

يستعرض هذا الجزء من الكتاب تفاصيل ما جرى مع الإمام ومرافقيه من حوادث ووقائع طيلة أربعة أشهر هي مدة إقامته في مكة، وقد وضع المؤلف كتابه في ثلاثة أقسام، بعد مقدمة في طبيعة قبائل مكة. وذلك حسب الترتيب التالي:

**الفصل الأول:** نشاط الإمام في مكة، من قبيل إرسال السفراء، وبعث الرسائل وإلقاء بعض الخطب على الناس، وفي خاتمة الفصل هناك إجابات على أربعة أسئلة:

١ ـ لماذا أصرّ الإمام على ترك مكة أيام الحج؟ ٢ ـ هل بدّل الإمام إحرامه من عمرة التمتع إلى العمرة المفردة؟ ٣ ـ هل خرج الإمام من مكة سراً؟ ٤ ـ لماذا اصطحب الإمامُ النساءَ والصبية معه؟

**الفصل الثاني**: يتناول بالشرح والتفصيل التخطيطات الأموية خلال مدّة إقامة الحسين في مكة ـ سواء كان ذلك في مكة أو المدينة والكوفة والبصرة ـ مع الإشارة لحادثة استشهاد عبدالله بن يقطر الحميري، واعتقال ميثم التمّار وهاني بن عروة.

**الفصل الثالث**: ذكرت فيه مواقف المسلمين لا سيما العبادلة الأربعة ومحمد بن الحنفية، محاوِلَةً في الردّ على جملة من التساؤلات، منها: ١ ـ لماذا لم يلتحق عبدالله بن عباس بركب الحسين؟ ٢ ـ ما السبب في تخلّف محمد بن الحنفية عن ركب أخيه؟

٣ ـ ماذا كان موقف ابن عمه وزوج أخته عبدالله بن جعفر؟ ٤ ـ ماذا قال عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر وجابر الأنصاري وأبو سعيد الخدري وغيرهم في قرار الإمام الحسين عليه السلام؟

**الجزء الثالث: وقائع الطريق من مكة إلى كربلاء**

يقع هذا الجزء في ثلاثة فصول، جاء في الأول منها ذكر علل اختيار الإمام للعراق وتوجّهه نحو الكوفة، وتمحور الحديث في الفصل الثاني حول مسلم بن عقيل، ومن كان على خطّ الحركة الحسينية في الكوفة، أما الفصل الثالث فقد تناول قصص التحاق بعض أصحاب الحسين بركبه خلال الطريق، مع ذكر ١٧ موضعاً مرَّ بها الإمام في هذه الرحلة. وقبل الختام ورد ذكر أحوال «طائفة أخرى من أصحاب الإمام ممّن التحق به خلال الطريق»، ويظهرأنّ ما ورد من أسماء هنا لم تكن دقيقةً من قبيل الإسم الموضوع (وهب بن وهب) زعماً بأنه من جملة شهداء عاشوراء (٣: ٢٩٣ ـ ٢٩١).

**الجزء الرابع: الإمام الحسين في كربلاء**

يشرح هذا الجزء تفاصيل ما دار مع الحسين وركبه منذ وصولهم كربلاء وحتى ظهيرة عاشوراء، وإذا استثنينا الضعف الموجود في هذا الجزء وغيره من

ناحية المراوحة بين الروايات المعتبرة وغير المعتبرة، فإنّ هذا الجزء لا يخلو من الفائدة الحتمية، كتقديمه إحصائية بثمانية وثلاثين رجلاً التحقوا بركب الإمام أثناء تواجده بكربلاء، أو «استعراضه لشهداء عاشوراء من خلال النصوص الروائية»، والأهم من ذلك ذكر خمسة عشر وصفاً ولقباً لهم، مع إيراد أوصاف وألقاب الجانب الآخر من جيش الأمويين، وهو ما يربو على الثلاثين لقباً.

لقد استعرض هذا الجزء ـ مضافاً للأرقام والإحصائيات والعناصر المكوّنة لجيش الأمويين ـ بعض الأسئلة المحورية، منها: ١ ـ هل اشترك أهل الشام في واقعة الطف؟ ٢ ـ هل التحق ثلاثون رجلاً بالإمام يوم عاشوراء؟ ٣ ـ كيف كانت صلاة الإمام ظهر عاشوراء؟ ٤ ـ هل كان لعليّ الأكبر ذرية؟ ٥ ـ هل قتل عمر في واقعة كربلاء؟ ٦ ـ من هو «العباس الأصغر» وابن مَنْ؟ ٧ ـ ما نوع أسطورة فضّة والأسد؟

**الجزء الخامس: وقائع الطريق من كربلاء إلى الشام**

يقع هذا الجزء في قسمين، جاء الأول منهما متمّماً للجزء السابق (الرابع) (١٧ ـ ٨٠)، ويسرد الثاني ما حلّ بأهل بيت الحسين وذوي الشهداء بعد الفاجعة وحتى دخولهم الكوفة ومنها إلى الشام (٨١ ـ ٢٠٨).

وقد غلب على هذا الجزء الاستشهاد بالروايات الضعيفة وغير المعتبرة أكثر من غيره، وفضلاً عن إثبات روايات البحار أو معالي السبطين وغيرهما، هناك أيضاً استشهاد بنصوص بعض الكتب الضعيفة من قبيل أسرار الشهادة، نور العين في مشهد الحسين، ومنتخب الطريحي! ومجمل القول: إن الكتاب ملآن بالروايات الموضوعة والمحرّفة، وكأنّه كُتب لعامة الناس، أو ليُقرأ على المنابر فيكون الخطباء أكثر تأثيراً في الحاضرين وإبكائهم.

مع هذا كله، لا يخلو الكتاب من فوائد عقلية ونقلية، لاسيما في بعض النقل عن علماء الرجال أو الفقهاء ومناقشة آرائهم، والمؤسف هنا إهمال الكتاب آراء المحقّق التستري (الشوشتري) ـ صاحب قاموس الرجال ـ الأمر الذي أخلّ بجودة المضمون ودقة البحث، فليس صواباً أنْ ينقل عن (تنقيح المقال) دون مراجعة قاموس الرجال في نقد وتصحيح التنقيح.

**الجزء السادس: الركب الحسيني في الشام، ومنه إلى المدينة المنورة**

يستعرض الجزء الأخير من كتاب (مع الركب الحسيني) الوقائع التاريخية لذوي الشهداء، والأهم من ذلك موضوع حملة الرسالة الحسينية ودورهم في الشام، ومنها إلى المدينة المنورة، والكتاب في صورته الإجمالية متسلسل ومنسجم، مع دقة وإتقان في البحث والدراسة، باستثناء بعض جوانبه التي لم تخلُ من التمحّل والتكلّف، من قبيل ما ورد عن أخبار الطفلة المعروفة والمنسوبة للإمام الحسين (رقية)، أو ما يخصّ موضوع عودة أهل بيت الحسين من الشام إلى كربلاء مرةً أخرى.

ويتصدّر هذا الجزء مدخل في التعريف بيزيد والآراء في سلوكه وشخصيته، وفي ذلك استقراء واسع ودقيق ينمّ عن متابعة وتحقيق فاحص يصعب تحصيله في كتاب آخر.

على أية حال، فالمؤاخذات على هذا الجزء وسابقه عديدة يُجزي عن ذكرها ما أثبتّه في كتابي: دراسة في تحريف عاشوراء وتاريخ الإمام الحسين (تحريف شناسي عاشورا وتاريخ إمام حسين)، إلى غير ذلك من المقالات المطوّلة، فلا أرى ضرورة للتكرار في هذه العجالة، وكما يقال: «العاقل تكفيه الإشارة»[1].

---

(١) راجع: مجلة آينة پژوهش، آذر واسفند ١٣٨١هـ ش، العدد الخاص بالإمام الحسين. المقالات «بازخواني فرهنك عاشوراء» و «كتابشناسي توصيفي - انتقادي پيرامون تحريف هاى عاشوراء» أيضاً: مجلة علوم حديث، شتاء ١٣٨١هـ ش، العدد ٢٦، مقال «بازخواني چند» مقالة مجزّأة «عوامل وانكَيزه هاى تحريف در تاريخ عاشوراء». وقد جمعت عناوين هذه المقالات في الكتاب المذكور.

# الفَصْلُ الثَّالِثُ

## المآتم الحسينية بين البدعة والشرعية

# العزاء، سنّة دينية أم فعل اجتماعي!

السيد حسن إسلامي (*)

ترجمة: حيدر حب الله

## مدخل لإثارة الموضوع

يمكن ـ من جهةٍ من الجهات ـ اعتبار تاريخ الفكر الشيعي في القرن الأخير جهداً يعمل على إعادة بناء المفاهيم الشيعية وإعادة شرح وتفسير المعتقدات والتعاليم الإماميّة بلغة عصرية معاصرة، وقد شمل هذا الجهد الكبير مساحات فكرية مختلفة، فمن المسائل الفقهية الحقوقية إلى القضايا الكلامية، ومن موضوعات التاريخ إلى الشؤون الثقافية، وتعدّ بعض النتاجات التي قدّمها أكبر وأقوى مفكري الشيعة في العقود الأخيرة، مثل كاشف الغطاء، وشرف الدين، والبلاغي، والعلامة الطباطبائي، والمطهري، وشريعتي (الأب والابن)، مساجلات محكمة تهدف الدفاعَ عن التعاليم الشيعية، أو محاولات لاستبعاد سوء الفهم السائد في هذا المجال.

ولكي نقدّم مثالاً على هذه النتاجات، يمكن ذكر كتاب «النص والاجتهاد» لعبد الحسين شرف الدين، و «الشيعة في الإسلام» للطباطبائي، و«نظام حقوق المرأة في الإسلام» للمطهري، فبعض هذه الأعمال يحوي إطلالةً على الماضي ويسعى لإعادة قراءة الملفات الجديدة بعين عصرية، مثل مجادلات شرف الدين مع شيخ الأزهر، أما بعضها الآخر فيستهدف تقديم صورة مقبولة ومرضية لبعض الأحكام التقليدية في الفقه الشيعي، مثل كتاب «نظام حقوق المرأة في الإسلام» أو «مسألة الحجاب» للمطهري، وبعضها يحمل صبغةً فقهية فيما بعضها الآخر تطفو عليه الصبغة

(*) باحث في الفكر الديني، متخصّص في مباحث الاستنساخ، وأحد نقاد المدرسة التفكيكية في إيران.

الفلسفية والكلامية، إلا أنه وفي هذا الوسط كانت ـ وما تزال ـ هناك مسألتان تقعان في قلب هذه الجهود وهما: فلسفة الثورة الحسينية، والاعتراف بالعزاء ومراسمه.

إنّ هاتين المسألتين مرتبطتان ببعضهما البعض، كما تختلفان اختلافاً جذرياً عن سائر القضايا الأخرى، فهنا لا يوجد النقض والإبرام الموجودان في القضايا الكلامية أو الفقهية، كي يتسنّى عبر العينية النسبية أن نسير مع خطّ استدلالي معها والوصول عبر ذلك إلى نتيجة، أيّ نتيجةٍ كانت، وهنا تكون الكلمة لأقوى العواطف، وأولئك الذين ولجوا هذا البحث، تعلّقوا بموضوعهم بشدّة، وأبدوه جلياً.

من حيث الأساس، إن تصوّر المذهب الشيعي دون الأخذ بعين الاعتبار قيام سيّد الشهداء وما يتعلّق بذلك، غير ممكن، فالشيعي من أيّ نوعٍ كان، وإلى أي ميول فقهية وغير فقهية انتمى، يجعل ـ في نهاية المطاف ـ ثورة عاشوراء جزءاً من أسس أفكاره وعقائده الدينية، ولا يمكنه التفكير خارجها، فيما قد يتسنّى لأكثر الشيعة أن لا يملكوا صورةً واضحة عن عقائدهم، بل قد لا يمكنهم ممارسة التأمل فيها، ولو بقدرٍ ضئيل، فهذه المسألة تعدّ جزءاً من أساسيات معتقداتهم وكل واحدٍ منهم له تصوّره عنها طبقاً لحالته وطاقته.

إنّ هذه الخصوصية هي التي جعلت موضوع الثورة الحسينية منفصلاً عن سائر الموضوعات الفكرية الأخرى، فسائر المسائل لها جانب مدرسي في الغالب، تطرح وتتداول في أوساط خاصّة، أما مسألة الثورة الحسينية وتقديرها وتعظيمها فهي أمر خارج عن مجالات البحث العلمي، لتتحوّل إلى قضية عامة ويومية وعصرية. إن نظرةً إلى الكتب التي صنّفت حول الثورة الحسينية تدلّل على هذا الأمر بوضوح؛ حيث نجد بين الكتّاب الذين ساهموا في التدوين حول هذه الثورة تنوّعاً ملفتاً؛ فهم بين فقيه ومؤرّخ، ومفسّر وحقوقي، وعلى سبيل المثال، ومع عدم حسبان أهميّة المؤلفين أو ترتيبهم وتصنيفهم، نجد أنّ كل واحد منهم ينتمي إلى دائرة فكرية مختلفة، ولديه اختصاصات متنوّعة، مثل: محمّد تقي شريعتي، وإبراهيم آيتي، ولطف الله الصافي، ومرتضى مطهري، وعلي شريعتي، وفضل الله الكمباني، وحسن الصدر، ونعمة الله صالحي، والسيد حسن الشيرازي، وهاشم رسول محلاتي، ومحمد حسين فضل الله.

إنّ هذا الأمر، قد يكون بركةً وخيراً من جهة؛ ذلك أنه يحوّل الأمر إلى همّ

شيعي وقضية شيعية عامة، إلا أنه ـ من جهة ثانية ـ يفتح المجال لممارسة تضليل للعوام محتمل؛ ولذلك نجد أن كل من اشتغل بهذا البحث وقدّم رؤيةً مختلفة ـ ولو قليلاً ـ عما هو رائج وتقليدي، وعن الصورة الأرثوذوكسية للثورة الحسينية.. اتّهم تلقائياً بالتأثر بالوهابية، وأنه صنيعة الاستعمار، وعدوّ التشيع، وفي النهاية، صعوبة إجراء دراسات ممنهجة وعلمية في هذا المجال من جانب الباحثين عن الحقيقة.

### ١ ـ معضلة «الشهيد الخالد»

إن المساجلات التي وقعت في العقود الثلاثة الأخيرة حول فلسفة قيام سيّد الشهداء تعدّ شاهداً واضحاً على ما نقول، ففي مقابل النظرية المهيمنة التي ترى أن الإمام الحسين عليه السلام إنما ثار لكي يستشهد عالماً بنهايته ونهاية أهل بيته.. نشر صالحي نجف آبادي، وهو من فضلاء الحوزة العلمية في مدينة قم، نتيجةَ بحثه وتتبعه لسبع سنوات في كتاب حمل عنوان «الشهيد الخالد، الحسين بن علي عليه السلام»، وذلك في أواخر عام ١٣٤٩هـ.ش/١٩٧٠م مقدّماً فيه تفسيراً آخر عن علّة الثورة الحسينية، وقد حذّر في مطلع كتابه قرّاءَه من ممارسة أي أحكام مسبقة، وذلك في مدخل حمل عنوان «العقدة المحلولة» مشيراً إلى أنه عقب ذلك توصّل إلى تفسير جديد لهذه الحركة التاريخية العظيمة والمقدّسة، إنه يقول: «مضت سنوات أسمعهم يقولون: لقد خرج الحسين كي يسيل دمه وتسبى نساؤه، وكنت دوماً ارتعش من هذا الكلام، وانزعج منه، وأقول في نفسي: لماذا يقوم إمامٌ يجب أن تغلي الدماء المقدّسة الحارة في عروقه، ويمنح المجتمع الإنساني حرارةً ودفئاً، ويتحرك، وينير، ويكون دعماً للإسلام والمسلمين.. لماذا يسفك بيده دمه الطاهر الحارّ على التراب، ويحرم العالم الإسلامي من مثل هذا القائد العظيم؟!»[(١)].

وقد عمد صالحي نجف آبادي في مقدّمة الكتاب إلى تشريح النظريات المختلفة التي تتحدّث عن ثورة الإمام الحسين، وقد كانت هناك نظريّتان إفراطيتان هما: النظرية التي طرحها بعض أهل السنّة، وادعى على أساسها أن ثورة الحسين لم تكن ثورةً محكمة ومدروسة، وأن الإمام الحسين عليه السلام قد أخطأ في حساباته، وتقابل هذه النظرية نظريةٌ أخرى طرحها جمعٌ من الكتّاب الشيعة وأبانوا عن معالمها، وهي

---

(١) شهيد جاويد، حسين بن علي عليه السلام: ٨.

تقوم على مبدأ يقول: إن قيام الحسين عليه السلام لم يكن تابعاً لمحاسبات ودراسات سائدة ومتعارفة وعقلانية، وإنما تصدّى لذلك اتباعاً لأمرٍ إلهي، وليس لأحد في هذا المجال النقاش والسؤال.

ويستنتج صالحي نجف آبادي من ذلك، فيقول: «طبقاً لهذا المنطق، كانت للحسين عليه السلام أوامر إلهية أن يقتل نفسه، فيصل بذلك إلى نيل الثواب العظيم، وليس لأحد الحقّ في أن يقوم بأيّ دراسات أو حوارات حول هذا الموضوع»[١].

ولكي يؤيّد هذا الأمر نقل نجف آبادي عن السيّد ابن طاووس قوله: «وإنما التعبّد به (أي القتل) من أبلغ درجات السعادة»[٢].

إلا أنّ أياً من هذين التفسيرين ـ سيما الثاني ـ لم يحظ بقبول صالحي نجف آبادي، وقد سعى عبر هذا الكتاب مفصّلاً وعبر تحليل النصوص التاريخية والخدش في بعض المفروضات المسبقة، لكي يقدّم نظريةً بديلة في هذا المضمار. وقد توصّل ـ عبر سلسلة من المقدمات التي طرحها ـ إلى أنه قد توفرت بعد وفاة معاوية، فرصة ومناخ ملائمان لتشكيل حكومة إسلامية «وهنا أحسّ الإمام عليه السلام بالمسؤولية أكثر، ورأى واجباً عليه أن يُقدم على ذلك بهدف إحياء الإسلام ويُغيّر ـ عبر إقامة دولة قويّة ـ الوضعَ القائم، فيحرّر الإسلام والمسلمين من قبضة الاستبداد الأسود»[٣].

وقد طبع هذا الكتاب مع تقريظين لعالمين دينيّين بارزين، دافعا عن محتواه دفاعاً شديداً، وإن تراجع أحدهما ـ حسب الظاهر ـ عن تقريظه فيما بعد.

إنّ هذا التفسير ـ وبعيداً عن النتائج السياسية له والمسؤوليات التي ألقيت على عاتق أنصار الحسين ـ يتعارض بشكل رئيس مع التفسير التقليدي السائد في الأوساط الشيعية، لسببين:

**أحدهما:** لاجرم أنّ هذا التفسير يضطرّ الباحث لملامسة مسألة كلامية، فمن وجهة نظر الشيعة، للإمام علمٌ لدنّي، وهو يعرف عبر هذا العلم غير الكسبي المستقبلَ كما يعرف الماضي، ونتيجة ذلك فإذا ادّعينا أن الإمام الحسين كان يقصد بحركته إقامة دولة دينية، فإنّ هذا يستبطن أنه لم يكن على علم بنتائج تلك الحركة وما

---

(١) المصدر نفسه: ١٠.

(٢) المصدر نفسه (الهامش).

(٣) المصدر نفسه: ٤٣.

ينتظره فيها، وهذا ما يؤدّي إلى نفي علم الإمام.

**ثانيهما:** إنّ هناك روايات متعدّدة في هذا المجال تحتوي على مضمون رئيس لها، وهي تقضي بأنّه كان من المقرّر أن يستشهد الحسين عليه السلام في كربلاء، والمؤيد لهذه الروايات، ما قاله النبي صلى الله عليه وآله للإمام الحسين في الرؤيا: «إن الله شاء أن يراك قتيلاً».

## ردود الأفعال على كتاب «الشهيد الخالد»

لهذا السبب، أدّى هذا الكتاب - وبسرعة - إلى ظهور ردود أفعال ما تزال متواصلة إلى عصرنا الحاضر، فمعارضو هذه النظرية، اتجهوا تارةً إلى النصوص التاريخيّة للكشف عن نقصٍ أو عيب فيها، فيما اتجهوا تارةً أخرى إلى مسألة علم الإمام، وثالثة إلى إبداء تناقض داخلي في النظرية نفسها.

لقد ألّف آية الله الصافي الكلـ ايكاني في ردّ كتاب «الشهيد الخالد» كتاباً حمل عنوان «حسين عليه السلام شهيد آكاه وره ر نجات بخش إسلام» يحوي على ما يقرب من خمسمائة صفحة، وادّعى فيه أن «أساس كتاب الشهيد الخالد باطل»[(١)]، وبعد استعراضه الروايات ذات الصلة توصّل إلى نتيجة تقول: «إنّ صريح الأخبار على أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن في مخطّطه الثورة لإقامة دولة إسلامية، وإنما كان هدفه الثورة والشهادة، وقد كان عالماً بهذا الأمر»[(٢)]، ومن وجهة نظره «إنّ البحث في مساجلات حول كتاب الشهيد الخالد مما لا يؤدي سوى إلى إلقاء الحطب على النار؛ فما هي فائدة ونتيجته؟ وما هو الداء الذي تعالجه؟»[(٣)]، لكن مع ذلك، يرى أن هناك مبررات لذلك وهي: «أن موضوع سيّد الشهداء عليه السلام فيه علاقة عشق ومحبّة عند الجميع، وإن ثورته تقع محلّ اهتمام عامة الشيعة على مدار العام، ومن ثم لا يمكن لأي شخص أن يظل ساكتاً محايداً أمام هذا الكتاب (الشهيد الخالد) ويلتزم الصمت وعدم الكلام»[(٤)].

---

(١) حسين عليه السلام شهيد آگاه ورهبر نجات بخش إسلام: ٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ٨٠ - ٨١.

(٣) المصدر نفسه، مقدّمة الكتاب «مع القارئ»، بدون رقم صفحة.

(٤) المصدر نفسه.

بدوره كتب علي بناه الاشتهاري في ردّ الشهيد الخالد كتاباً أسماه «هفت ساله جرا صدا در آورد»، في أكثر من أربعمائة صفحة على أساس «أنه لو أن مؤلّف كتاب الشهيد الخالد، وبدل أن يصرف من عمره الشريف سبعة أعوام، صرف سبع ساعات، بل سبع دقائق بالتأمل والتفكير فيما يكتبه.. لم يؤدّ نشره للكتاب لهذا التنفّر العام عند العلماء»[1]، وعلى حدّ قول الاشتهاردي: إن هدفه من كتابه ليس إثبات علم الإمام بالغيب وما اتصل بذلك وإنما: «لفت النظر إلى أن استنتاجات صاحب كتاب الشهيد الخالد، إضافةً إلى أنها لم تكن صحيحةً، كانت تحوي أخطاءً فادحة أيضاً»[2]، مثل: «المذمّات التي لم يكن لها أساس، والتوهينات غير المناسبة، ومدح الأعداء مدحاً مخالفاً للواقع، واختلاق الأعذار التي لا موقع لها لقاتلي مظلوم كربلاء، وممارسة الخيانة في نقل الأحاديث والتواريخ، وذكر جملة من الأمور التي تقع على خلاف صريح مذهب الشيعة»[3].

بدوره، حاول السيد محمد مهدي المرتضوي كشف التناقضات الداخلية لكتاب الشهيد الخالد؛ من هنا صنّف كتاباً أسماه «جواب أو أز كتاب أو يا شبهات شهيد جاويد در موضوع قيام حسين بن علىعليه السلام/جوابه على كتابه أو شبهات الشهيد الخالد في موضوع ثورة الحسين بن عليعليه السلام»، وذلك في ٢٨٤ صفحة. هذا الكتاب إضافةً إلى محتواه ولحن كلامه، ثمة تعريضان واضحان فيه بكتاب الشهيد الخالد؛ فقد كتب صالحي نجف آبادي على كتابه عبارة: «بحث عميق»، وفي مقابله وللإجابة عنه، كتب مرتضوي جملةً مقابلة على كتابه هي: «بحث أكثر عمقاً»، كما أن صالحي نجف آبادي دعم كتابه بتقريظين ممتازين، وفي مقابله عقد مرتضوي تحت عنوان «حول التقريظ» كلاماً قال فيه: «كان بإمكاننا أن نأخذ حول هذا الكتاب تقاريظ من بعض المراجع الكبار الشيعة، إلا أننا لم نفعل ذلك، ستقول: لماذا؟ والجواب هو: المهم أن يحكي العطر عن نفسه لا أن يتكلّم عنه العطار»[4]. إنه يعتبر أن التقريظ يغدو ذا معنى عندما يكون الكتاب تقريراً لدروس الأستاذ من قبل التلميذ؛ فيكتب

(١) كتاب هفت ساله چرا صدا در آورد؟: ٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) جواب أو أز كتاب أو يا شبهات شهيد جاويد در موضوع قيام حسين به عليعليه السلام: ٦.

الأستاذ تقريظاً ليشهد على صحّة المضمون، ويؤيد ما يذكره التلميذ في الكتاب و «في غير هذه الحالة، يمثل التقريظ علامةً على عدم الرغبة في الكتاب، تماماً مثل شخص لا يقدر على فعل عملٍ ما، فإذا أراد فعل شيء، احتاج إلى وسيط وشفيع.. وتماماً مثل الأعمى الذي لا يتمكّن من السير إلا بالعصا، وعليه، فالتقريظ يعني: الشفاعة.. والعصا، بالنسبة لكتابٍ غير مطلوب»[١].

لقد لعن مرتضوي القرّاء العجولين لكتابه؛ فقال: «فليبتعد عن رحمة الله من يحكم على هذا الكتاب قبل أن ينهيه مطالعةً وقراءة»[٢].

بدوره ألّف محمد علي الأنصاري كتاب «دفاع عن الحسين الشهيد في الرد على كتاب الشهيد الخالد» (دفاع از حسين شهيد ردّ بر كتاب شهيد جاويد)، فيما يقرب من خمسمائة صفحة، ولهذا الكتاب مقدّمة في أكثر من مائة صفحة، وفيها دراسة للأرضية والخلفية التي جاءت بكتاب الشهيد الخالد ودوافع قراءته[٣]، وعلى حدّ قول الكاتب، فإن ناشر الكتاب بث خبراً وبياناً قبل نشره ينبئ فيه عن قرب صدور الكتاب، ويذكر في البيان ـ عبر عشر نقاط ـ المحتوى الإجمالي العام له، إلا أن «هذه النقاط العشر تتناقض مع ما جاء في الكتب الشيعية حول ثورة الحسين عليه السلام مقابل الظلم والجور» وفي النهاية: «أدّى ذلك إلى ظهور موجات من الغليان والرفض وعدم الرضا في المحافل الدينية والعلمائية، وفي مجالس الخطباء العظام»[٤].

ويقول الكاتب: إن ثلاثةً من مراجع التقليد، قرؤوا كتاب الشهيد الخالد وأوصوا الكاتب بعدم نشره، إلا أن «نار الباطن وعقيدة القلب»[٥] طغت على توجيهاتهم، فنشر الكتاب غير مبالٍ، ويذكر الكاتب «نعم، بالنسبة إلى شخص معتقد بأفكار النواصب ومناهض للأفكار الشيعية، يقدّم نفسه في كتابه كرئيس محكمة يجلس خلف طاولة الحكم، ويحاكم ابن النبي وابن فاطمة الطاهرة بكل قسوةٍ وعنف وصلافة، ويسجّل

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، صفحة عنوان الكتاب.

(٣) حول الخطأ الديني وعدم الإنتاجية العلمية لدوافع القراءة راجع: أخلاق نقد: ٤٥ ـ ٤٨.

(٤) دفاع از حسين شهيد ردّ بر كتاب شهيد جاويد: ٣، ويحتمل أن هذا الكتاب نشر عام ١٣٥٠هـ.ش (١٩٧١م) من قبل (كتاب فروش إسلامية).

(٥) المصدر نفسه: ٧.

مئات الإشكالات عليه.. بالنسبة لهذا الإنسان، أيّ خوف أو وجلٍ عنده أن يتغاضى عن مصالح علماء الإسلام، ويرفضها، إنّ من يتعامل مع الحسين المظلوم بهذه الطريقة ويتهم العلماء الكبار ورؤساء المذهب، مثل العلامة المجلسي والسيّد ابن طاووس، بالسطحية والسذاجة وعدم التقوى والإيمان بالقيامة، من الواضح كم يقيم للعلماء الحاليين من وزن ومن احترامٍ وتقدير»[١].

بعد ذلك، يعمد المؤلّف إلى دراسة مقولات صالحي نجف آبادي، فينقلها ويمارس نقداً لها؛ وذلك «كي يعرفه الناس ويطلعون على أفكاره، ولا يظنّوا أننا ـ والعياذ بالله ـ نذكر ما نذكر عن أغراض شخصية أو أمور أخرى»[٢].

على خطّ آخر، تصدّى ثلاثة من فضلاء الحوزة العلمية في مدينة قم، وهم السادة: محمد حسين أشعري، وحسين كرمي، وحسن آل طه، لتأليف كتاب نقدي آخر، تحت عنوان «دراسة مختصرة حول الثورة المقدّسة للشهيد الخالد الحسين بن علي عليه السلام»، وذلك في ١٢٠ صفحة، وقد أدرجت مع هذه الدراسة النقدية مقالةٌ للعلامة الطباطبائي حول علم الإمام عليه السلام، وقصّتها في الحقيقة أنّ شخصاً يدعى الحاج الميرزا عباس الأنصاري الإصفهاني من تجار (بازار إصفهان)، وجّه سؤالاً حول علم الإمام المعصوم طالباً الجواب من العلامة الطباطبائي، وقد كتب العلامة جواباً عن السؤال في حوالى أربع صفحات، وقد أدرج السؤال والجواب ملحقَين في هذا الكتاب.

ولم يكن هدف المؤلّفين الثلاثة من الكتاب، بيان أخطاء «الشهيد الخالد»، وإنما ـ كما يقولون ـ : «إثبات أن الإمام عليه السلام مطّلع في هذا السفر، وأنه تحرّك من المدينة إلى مكّة، ثم من مكة إلى العراق، وهو عالم بتمام هذه الأمور، ومنطلق من المصالح الاجتماعية»[٣].

وهناك آخرون أيضاً تصدّوا للكتابة رداً على صالحي نجف آبادي، ومن ذلك كتاب (برتو حقيقت/شعاع الحقيقة) للسيد محمد النوري الموسوي، وكتاب (حسين وبذيرش دعوت/الحسين وقبول الدعوة)، لمحمد تقي صديقين، و (راه سوّم در موضوع قيام مقدّس شهيد جاويد حسين بن علي/ الطريق الثالث في موضوع الثورة

(١) المصدر نفسه: ٧ ـ ٨.

(٢) المصدر نفسه: ٨.

(٣) سركذشت كتاب شهيد جاويد به ضميمه رساله در علم إمام از علامة طباطبائي: ٢٨٢.

المقدّسة للشهيد الخالد الحسين بن علي)، لعلي الكاظمي، و (مقصد الحسين) لآية الله الميرزا أبو الفضل الزاهدي القمي، و (سالار شهيدان حسين بن علي/سيد الشهداء الحسين بن علي)، للسيد أحمد الفهري، و (باسداران وحي/حرّاس الوحي)، لشهاب الدين إشراقي، وآية الله محمد فاضل اللنكراني، وآية الله رضا أستادي، إلى غيرها من الكتب والرسائل التي ذكر أنها بلغت تسعة عشر[١].

## إقحام المرجعيات الدينية في أزمة «الشهيد الخالد»

ولم يقف الأمر عند حدود المساجلات الكتابية، بل بُذلت جهودٌ لزجّ مراجع التقليد آنذاك في الموضوع، بغية الحكم بضلال هذا الكتاب؛ فقد أرسل جماعة من المحصّلين، رسالةً إلى آية الله المشكيني، سألوه فيها: «هل أن تمام ما جاء في كتاب الشهيد الخالد الذي كتبتَ تقريظاً له، مما تصدّقونه وتأخذون به؟»[٢]، فأجاب المشكيني بأن كتابة التقريظ لا تعني في الغالب سوى الإشارة إلى حُسن اختيار الموضوع، وجودة الكتابة والبيان و.. «ليس مستلزماً أبداً تصديق الكتاب في تمام مطالبه»[٣]، ثم أكّد المشكيني أنّ ما جاء في الكتاب مجرّد إظهار نظر وعرض فرضية.

أما آية الله رفيعي القزويني، فقد أجاب عن سؤال وجّهه إليه جماعة من أهل المنبر (الحسيني)، بالقول: «إن العبد الحقير (يقصد نفسه) قد طالع الكتاب بدقّة، وقد كانت هناك مسامحتان في موضعين»[٤]، هذان الموضوع هما: ما يرجع إلى علم الإمام، وما يتصل بعدم التمييز بين الإرادة التشريعية والتكوينية[٥].

من جهةٍ أخرى، اعتبر آية الله محمد تقي البروجردي أنّ هذا الكتاب: «مضرّ بالعالَم الشيعي، ومضلّ، ومشتمل على نسبة أشياء غير صحيحة ولا لائقة»[٦].

---

(١) المصدر نفسه: ١٨١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٥) المصدر نفسه: ١٨٩.

(٦) يك بررسي مختصر در پيرامون قيام مقدّس شهيد جاويد حسين بن علي عليه السلام از نظر روايات: ٤.

بدوره آية الله السيد محمد رضا الكلبايكاني، كتب جواباً عاماً على استفتاء وجّه إليه، لكن حيث أعيد استفتاؤه مرّةً أخرى، كتب: «إن حكم كتب الضلال معلوم، لا تطالعوا هذا الكتاب»[١]، وعلى المنوال عينه آية الله المرعشي النجفي، حيث انتقد بعض مصادر كتاب الشهيد الخالد، مثل الطبري، وابن سعد، والزبير بن بكار، مستنتجاً: «كلّ إنسان، وكلّ كاتب، يعتذر أو يعتمد على أشخاص من هذا النوع يبتعد بذلك عن جادة الصواب (...)[٢]، ويكون كتابه على خلاف الأصول الاعتقادية لأهل التشيّع، وعلى الإخوة في الدين أن يتكرّموا بعدم مراجعة مثل هذه الكتابات»[٣].

## موقف مدرسة علي شريعتي من أزمة «الشهيد الخالد»

لكنّ صالحي نجف آبادي لم يسكت، فانبرى للدفاع عن نظرياته وأفكاره، فمارس نقداً لخصومه ومنافسيه، فألّف كتاب «عصا موسى»، وشيئاً فشيئاً خرجت القضية عن إطار المباحثات العلمية، لتنجرّ ـ بشكل غالب ـ إلى موقف سياسي، فالدكتور علي شريعتي ـ بوصفه مراقباً من خارج الحوزة العلمية ـ كتب حول هذا الكتاب يقول: «في أحد الكتب المنشورة مؤخراً، والتي غدت مشهورةً جداً، وحمل عليها الكثيرون، حتى أنّ قيمة هذا الكتاب صارت ـ بشكل أكبر ـ نتاجاً لتلك الحملات عليه، وإنني بدوري أعرب عن اعتقادي بأنه الكتاب الوحيد الذي رأيته ـ من بين كمٍّ متراكم من الكتب التي ألّفها الفضلاء ـ كتاباً تحقيقياً بحثياً علمياً، لقد ذكر تمام الوثائق والمستندات، الموافقة والمخالفة، ثم قام بتحليلها وتفكيكها ونقدها، حتى أنه قام وبكل جرأة وقحة بدراسة شواهد الإثبات والنفي، وأقصد بالجرأة الوقحة تقديم نظر علمي جديد (وشجاع)، وحصوله على مطالعة واسعة للأمر، وكثرة مصادره، بكلمة واحدة: إنه جهد بحثي علمي، إن هذا التقييم الذي أقدّم لهذا الكتاب ولمؤلّفه رغم أنني لا أعرفه، إنما هو لشخص عرفته رجل علم وتحقيق جادّين، وممارسة تحليل وابتكار واستقلال فكري، إنّه من الأقلام القيّمة في محيطٍ من الغوغاء، وتضليل

---

(١) المصدر نفسه: ١٩٠.

(٢) هذه العلامة (...) موجودة في النص الأصلي.

(٣) المصدر نفسه: ١٩٢.

العوام، والتقليد، وتكرار المكرّرات، إلا أنني ـ مع ذلك ـ أختلف معه من وجهة نظر علمية، ومع الأسف فاختلافي معه اختلافٌ جذري..»[(١)].

ثم عمد الدكتور شريعتي لنقد نظرية صالحي نجف آبادي من زاوية أخرى، مؤكداً على نظرية قيام الحسين لأجل الشهادة بوصفها الوسيلة الوحيدة لحفظ الدين، وقد تعرّضت هذه النظرية لنقد أنصار صالحي نجف آبادي، فكتبوا كراساً تحت عنوان «بيرامون نظر دكتر على شريعتي دانشمند مجاهد درباره كتاب شهيد جاويد/حول رأي الدكتور علي شريعتي، العالم المجاهد، فيما يتعلّق بكتاب الشهيد الخالد»؛ وقد جاء في هذا الكرّاس: «حيث إنّ رأي الدكتور علي شريعتي حول ثورة الإمام الحسين عليه السلام يتلخّص في قصد الشهادة، لا إسقاط حكومة يزيد وتشكيل دولة إسلامية.. فإننا نقوم هنا بممارسة نقد وتفكيك وتحليل لكلمات المعلّم الكبير الدكتور شريعتي»[(٢)].

## إنفجار الموقف وتدخل السافاك الإيراني في قضية «الشهيد الخالد»

وشيئاً فشيئاً، امتدّت القضية إلى سائر المحافظات الإيرانية، حتى وصل الحديث إلى لُبس الأكفان ضدّ كتاب الشهيد الخالد[(٣)]، وقد امتدّ الأمر إلى أن بلغ حدّاً يقال فيه: إن مؤسسة الأمن والمخابرات الإيرانية لنظام الشاه ساهمت في ترويج القضية، واستفادت منها بقوّة، وقد ادّعى ذلك كلٌّ من الموافقين للكتاب والمعارضين له، كلٌّ جعل القضية تهمةً لخصمه؛ فقد قال صالحي نجف آبادي: «لقد هيّجوا أفكار الناس بأسلوب غير إنساني، وخلقوا مناخاً متشنّجاً وجواً صاخباً، وكمثال على هذا الفريق، مؤلّف كتاب «هفت ساله..»، ومؤلّف كتاب «دفاع از حسين» فقد ساهم هذان الشخصان أكثر من غيرهما في خلق جوّ من الفتنة، وصيّروا الجوّ الديني موبوءاً مسموماً، ولا ننسى أنّ الأيادي الخفية كانت تعمل هنا أيضاً، وكانت تغذّي الخلاف

---

(١) الشهادة: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) بيرامون نظر دكتر علي شريعتي دانشمند مجاهد درباره كتاب شهيد جاويد: ٤.

(٣) الشيخ رسول جعفريان، جريان ها وسازمان هاي مذهبي ـ سياسي إيران سال هاي ١٣٢٠ـ ١٣٥٧: ٣٧٥.

والفرقة»[١].

وكتب في الهامش يقول: «إن الوثائق الواصلة إلينا تشير إلى أن معركة الشهيد الخالد، ظهرت على يد (السافاك) لتضعيف جبهة الإمام الخميني، وهذه الوثائق سوف تُنشر»[٢].

كما أنّ المعارضين لهذا الكتاب ادّعوا في المقابل الأمرَ عينه، مستندين إلى وثائق السافاك، حيث كتبوا: «..بتاريخ ١٣٥٠/٩/٣٠هـ ـش/١٩٧١م، واعتماداً على أوامر السافاك، تمّت طباعة ونشر عشرين ألف نسخة من كتاب الشهيد الخالد، بهدف إيجاد الفرقة»[٣]

والظاهر أن للسافاك يداً في طباعة الكتاب ونشره، وكذلك طبع الردود عليه ونشرها[٤]، ويضع الشيخ الأستادي يده على نقطة هامة هنا ناقلاً مثل هذه الوثائق ومسألة سوء الاستفادة من الجهتين، فيقول: «تتخذ كل مسألة علمية لوناً سياسياً، فتغدو ضحيةً لمثل هذا اللون من المشكلات وعدم الإنصاف وقول خلاف الواقع»[٥].

## أين كان موقف مرتضى مطهري من الأزمة ؟

أما الشهيد مرتضى مطهري، الذي كانت تجمعه علاقة رفقة وصداقة بمؤلّف كتاب الشهيد الخالد، فلم يوافقه في تحليلاته واستنتاجاته حول أحداث الثورة الحسينية، وقد نقل له ـ شفاهاً ـ هذا الرأي[٦]، فمن وجهة نظره يكمن الإشكال الحقيقي في كتاب الشهيد الخالد في تحليل دور أهل الكوفة، حيث أعطاهم حساباً أكبر من الحجم الطبيعي، وكأنه إذا لم تكن هناك دعوة منهم للحسين لم تكن هناك ثورة حسينية، مع أن خطب الحسين عليه السلام التي خطبها بعد يأسه من دعم أهل الكوفة

(١) المصدر نفسه: ٧٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سركذشت كتاب شهيد جاويد: ٧٠.

(٤) هفت هزار روز تاريخ إيران ١: ٤٢٩، ٥٥١؛ نقلاً عن جريان ها وسازمان هاى مذهبى ـ سياسي ايران: ٢٧٢.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) حماسه حسيني ١: ٢٧٣.

كانت أكثر هيجاناً وحماسة، ويعتمد المطهّري - في النهاية - على عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تحليل الحدث، ويرى أن «الإمام الحسين كان مناهضاً للدولة الفاسدة في زمانه، فهو ثائر، وثوري»(١).

ومع ذلك، لم يكتب مطهري نقداً مستقلاً على الشهيد الخالد، وإنما جاءت انتقاداته وردوده في مطاوي محاضراته، وأحياناً في بعض مذكّراته التي كتبها، وعندما نشر فيما بعد كتاب «الملحمة الحسينية» وأدرجت انتقادات الأستاذ مطهري فيه، عمد صاحب كتاب الشهيد الخالد للردّ على أفكار المطهري عبر حواراته التي أجريت معه، وقد أدى ذلك باللجنة المشرفة على نشر أعمال الأستاذ الشهيد مطهري للقيام بنشر انتقادات المطهري في كتاب واحد مجموعةً، وأصدرتها في كراس في ٩٤ صفحة من القطع الجيبي، وفي مقدّمة هذا الكتيّب جاء أن انتقادات الأستاذ مطهري أغضبت مؤلّف «الشهيد الخالد» وهيّجت شياطين استهدفت ضرب الشهيد مطهري والإمام الخميني، ومنذ صدور كتاب «الملحمة الحسينية» هيّجت هذا العجوز الساذج (صالحي نجف آبادي) لإجراء حوارات في الصحف وكتابة مطالب ما(٢).

وفي نهاية المطاف، عمدت هذه اللجنة - لتجلية الأفكار العامّة - إلى نشر نظرية الأستاذ مطهري بشكل مستقل، إلا أن هذه الخطوة يبدو لنا أنها لم تقع مؤثرةً، بل دفعت صالحي نجف آبادي لنشر كتاب «نكاه به حماسه حسيني استاد مطهري/نظرة في الملحمة الحسينية للأستاذ المطهري» في ٤٦٠ صفحة، جعله على أربعة أقسام وخاتمة، ومن وجهة نظره: لقد بحث في «الاستنتاجات الأوّلية»، و «التناقضات»، و«الاشتباهات التاريخية» و«الاعتماد على المصادر غير المعتبرة» التي وقع فيها المطهري.

وفي عام ١٣٨٠ش/٢٠٠١م نشر صالحي نجف آبادي كتاب «عصاى موسى يا درمان بيمارى غلو/عصا موسى أو معالجة مرض الغلو»، ناقداً مخالفي نظريته، وفي هذا الكتاب المؤلّف من ٢٣٨ صفحة استعرض بالنقد والتحليل آراء: رفيعي قزويني، والعلامة الطباطبائي، وزاهدي القمي، ومحمد فاضل، وشهاب إشراقي، والسيد أحمد الفهري الزنجاني، والسيد محمد مهدي المرتضوي، ورضا أستادي،

---

(١) المصدر نفسه ٢: ٢٧٨.

(٢) نقدهاى استاد مطهري بر كتاب شهيد جاويد: ٦.

وصافي الكلبايكاني.

وفي مقدّمة هذا الكتاب، يشير المؤلف إلى أنّ أصل هذا الكتاب كان قد كتب ونشر في أوائل السبعينيات في القرن العشرين، باسم مستعار وهو «عبدالله المظلوم»، إلا أنّ عناصر السافاك «أخذت المادة المطبوعة من المطبعة مستخدمةً الأسلحة»[1].

والذي يبدو أنّ هذا الموضوع واصل تداعياته، ولم يقفل هذا الملفّ بعدُ، فآية الله رضا استادي ـ وهو ممّن كتب قسماً من الرد على الشهيد الخالد في ١٠٧ صفحات في العقد السابع من القرن العشرين[2][3] ـ كتب تقريراً مفصّلاً عن تاريخ الكتاب وأحداثه في ٦٠٨ صفحات، وذلك في كتاب «كزارش كتاب شهيد جاويد»، وقد ذكر فيه مقاطع من كتب مختلفة، يمكن الرجوع إليها لمزيد من التفصيل.

وقد تعرّض هذا الكتاب نفسه لنقد صالحي نجف آبادي، فقد سجّل سبع نقاط ضعف عليه في مقالةٍ من ثماني صفحات، حملت عنوان: «نقدي كم بر كتابي بر حجم/نقدٌ قليل على كتاب حجيم»، ومما نقده عليه صالحي نجف آبادي كيفية استناده إلى موقف الإمام الخميني حول فلسفة قيام سيد الشهداء[4].

## هل تدخّل الإمام الخميني في معركة «الشهيد الخالد»؟

والجديد ذكره أن الشيخ أستادي في كتابه هذا خصّص فصلاً لرأي الإمام الخميني حول فلسفة الثورة الحسينية، وسعى جاهداً كي يؤكّد أنّ رأيه معارض لكتاب الشهيد الخالد، إلا أن صالحي نجف آبادي، قدّم تفسيراً آخر لنظرية الإمام الخميني مستنداً لكلامٍ له يعود لعام ١٣٥٠ش/١٩٧١م[5].

لم يدخل الإمام الخميني في هذا النـزاع أبداً، فقد كان معارضاً لهذه القضية

---

(١) عصاى موسى يا درمان بيمارى غلو: ١٦.

(٢) عصاى موسى يا درمان بيمارى غلو: ١٦.

(٣) سركذشت كتاب شهيد جاويد: ٢٨٤، وصفحات أخرى جرى الأخذ منها هنا.

(٤) نقدي كم حجم بر كتابي پرحجم، في «قضاوت زن در فقه إسلامي» مع عدة مقالات أخرى: ٣٠٢.

(٥) حول نظرية الإمام الخميني هنا، راجع: عاشورا در فقه: ٨١ وما بعد.

كلّها وما ترتّب عليها من أحداث، وقد أبدى موقفه هذا في مناسبات مختلفة، وكمثال على ذلك ما جاء في رسالته إلى ابنه السيد أحمد، حيث قال: «لا تحاول الدخول في اختلافات المشايخ وأهل المنبر حول هذا الكتاب أو حول أي موضوع آخر»[١]. كما كتب رسالةً إلى آية الله محمد اليزدي، جاء فيها: «ما أوجب أسفي مؤخراً هو تلك الخلافات التي لا أعرف بأيّ يدٍ وقعت في الحوزة العلمية في قم وبين أهل المنبر، بل المحراب، كما وقعت على المنوال عينه بين أهل العلم وأهل المنبر في طهران أيضاً.. اليوم حيث تتعرّض أصول الأحكام لتلاعب الأجانب وعملائهم، يؤسفني جداً بدل أن نرى وحدة الكلمة، أن نرى هذا الشكل من الفرقة والتوهين المتبادل، والتكفير كذلك، وهو ما يكشف عن عدم وصول المجتمع إلى مرحلة الرشد»[٢].

إن الإمام الخميني كان يرى أنه لم يكن في هذا الوضع كلّه سوى صرف الطاقات الشيعية وهدرها في الفراغ، إنه يقول: «أيّ خطّة حبكوها لكتاب الشهيد الخالد؟ تلك الاختلافات الداخلية، بين أهل المنبر وأهل المحراب وأصحاب الأسواق وأهل.. واحدٌ يشدّ لهذا الطرف والآخر لتلك الناحية.. لقد صرفت الطاقات جميعاً على كتاب الشهيد الخالد»[٣]. ويشير الخميني إلى هذه المسألة في موضعٍ آخر، كما يلي: «فهذه مدينة قم صرفت تمام وقتها على كتاب الشهيد الخالد حتى أفرغته»[٤]. وبجمع كلماته يظهر أنه‏ﷺ كان يرى أنّ ما يحدث هو لعبة لا يربح فيها إلا نظام الشاه، وأنها أوجبت إتلاف الوقت، وهدر طاقة الشعب الإيراني[٥].

والشيء الجدير بالنظر في هذه الردود والردود المقابلة استخدام الطرفين في حقّ بعضهما صفاتٍ من نوع: الغضب، والانفعال، وعدم التحلّي بالروح العلمية، فنرى في مكان أنّ انتقادات الأستاذ مطهري «أغضبت» صالحي نجف آبادي[٦]، فيما نرى في المقابل صالحي نجف آبادي نفسه في كتاب «نقد كتاب سركذشت شهيد جاويد»[٧]

(١) صحيفه إمام ٣: ١٨.
(٢) المصدر نفسه ٢: ٣٤١.
(٣) المصدر نفسه ٤: ٢٣٦.
(٤) المصدر نفسه ٨: ٥٣٣.
(٥) كمثال انظر: صحيفه إمام ٧: ٤٠٩؛ و٨: ٤٦٠.
(٦) نقدهاى استاد مطهري بركتاب شهيد جاويد: ٥.
(٧) لقد أثبت أن اسم هذا الكتاب هو شرح قصّة ومسيرة كتاب الشهيد الخالد.

يقول: «إن جناب (الشيخ) أستادي قد بات غاضباً من كتاب الشهيد الخالد»[1].

كانت هذه أكثر الأوصاف والكلمات أدباً فيما نسبوه لبعضهم البعض، ولا نشير هنا إلى التعابير القاسية وغير الأخلاقية التي تلاحظ في هذه الكتب والكتابات.

## تحليل مقتضب لقصّة «الشهيد الخالد»

والذي يمكننا استنتاجه من هذه الجولة المفصّلة نسبياً حول تاريخ كتاب الشهيد الخالد، نقاط عديدة أبرزها:

**أولاً:** حتى الآن لم تنظّم أدبيات النقد عندنا بعدُ، فبدل ممارسة نقد علمي لنتاجات المفكّرين، سرعان ما تأخذ القضية لنفسها لوناً آخر، ثم تسير في مسار مختلف.

**ثانياً:** لا وجه يبرّر في مثل هذا المباحثات العلمية بين أصحاب الرأي في الوسط الشيعي ـ وهم جميعاً عشاق علي والحسين ـ الانجرار نحو التكفير والتفسيق وقراءة الدوافع والنوايا، ولسنا بحاجة أيضاً إلى استفتاءات شرعية حول إتلاف مثل هذه الكتب.

**ثالثاً:** إنّ الحقيقة تبدو من بين هذه المناقشات العلمية والمساجلات التي يخوضها أهل العلم، ولابدّ لنا هنا من اتّباع عين تلك السنّة التي سار عليها السلف الصالح[2]. إنّ هذه المصاعب في تحليل فلسفة الثورة الحسينية تتبدّى أكثر فأكثر، وتقف مانعاً عن ممارسة أبحاث علمية أو السعي لتحرّي الحقيقة؛ ولهذا السبب، يرجّح الكثيرون أن لا نخوض في هذه المباحث من رأس، كما يفضلون الحياد والتنحّي بدل خوض عباب المحيطات وكسب المنافع[3].

إنّ هذا المناخ غير العلمي هو كما قالوا: «مع الأسف، سعي جماعة في العقود

---

(١) «نقدى كم حجم بركتابي پرحجم» في «قضاوت زن در فقه إسلامي» مع مقالات أخرى: ٢٩٥.

(٢) راجع في هذا الأمر: موانع نظري توليد علم در حوزهاي علميه، مجموعة مقالات: در آمدي بر آزاد انديش ونظريه پردازي در علوم ديني: ٤٠٠.

(٣) في البحر منافع لا تُحصى، وإذا أردت السلامة فتنحّ جانباً، وانظر: كلستان سعدي الشيرازي: ٧١.

الأخيرة كي تنظر إلى واقعة كربلاء نظرةً أكثر واقعية، وقد اتهموا أنهم لم يتمكّنوا من النظر للمشهد بعين شيعية؛ لهذا اتّهموا بفساد العقيدة»[(١)]

## ٢. مسألة العزاء والمراسم الحسينية

إن البحث حول مسألة التعزية والعزاء، إن لم نقل: إنه أصعب وأعقد من البحث عن فلسفة الثورة الحسينية؛ فلا أقلّ من أنه يوازيه في الصعوبة والتعقيد، فهذان البحثان يشبهان بعضهما من عدّة جهات، كما يختلفان عن بعضهما في جهات أخرى، فعنصر الشبه الرئيس بينهما أنهما وجهان لعملة واحدة، فأيّ فلسفة للثورة الحسينية نتبنّاها أو أيّ تفسير لها نرتئيه، لابد أن يضيء تلقائياً على مسألة العزاء الحسيني، لنحصل على تفسيرٍ لها ينسجم مع تلك النظرية، لكن مع ذلك تمتاز هذه المسألة هنا عن المسألة السابقة بعض الامتياز؛ ففي البحث السابق ثمّة طابع مدرسي، كما أن المنشغلين به مضطرّون للرجوع إلى المصادر التاريخية وتقديم منهج لدراسة الموضوع كي يتسنّى لهم الخروج باستنتاج في تحليل الثورة الحسينية يقبل التبرير و.. أما مسألة العزاء هنا فتخرج عن الطابع النخبوي لتغدو أكثر عموميةً، ولتلتقي مع مصالح عدد أكبر من الناس، وفي نهاية المطاف، سيؤدي ذلك إلى مضاعفة الحساسية تجاهها مما يجعل إثارة القضايا الجادّة فيها أكثر صعوبةً وعُسراً.

ولهذا السبب، كانت هناك مخاطر خاصّة للخوض في هذه القضية، لكن مع ذلك نجد ـ من جانب آخر ـ أن مسألة فلسفة الثورة الحسينية تتموضع في اتجاهات محدودة واضحة، بحيث يمكننا فيها الحديث عن معسكرين متمايزين واضحين، أما في مسألتنا هنا فيغلب عليها مساهمة طيف واسع، يصعب معه الحديث ببساطة عن اتجاهين أو نمطين أو نظريّتين.

وفيما نجد في المسألة السابقة ـ وبسبب الطابع العلمي والنظري فيها ـ حضوراً للمفكّرين وأهل القلم والرأي، نرى أن مسألة العزاء ـ وبسبب البُعد العملي فيها ـ تجد لها حضوراً عند المفكّرين وأصحاب الفتوى أيضاً، وكل فريق يحاول

---

(١) حسين بن علي عليه السلام قدّيس، قهرمان أخلاقي، عاشورا دركذار به عصر سكولار، مجموعة مقالات: ٢٢٨.

توظيف الاستفتاءات لصالحه؛ كي يحصل على فتاوى تدعمه.

وعلى المنوال عينه، نرى أنّ المسألة السابقة قد شهدت ركوداً بسيطاً في السنوات الأخيرة الماضية أو أنها دخلت في سياق أكثر علميةً وأكاديمية، حتى وجدنا في هذا المجال دراسات متعدّدة، وبعضها يقرأ الموضوع من زاوية علم اجتماعية وأمثالها، أما مسألة العزاء فقد غدت أكثر جديّة، تثير قلق المعنيين ومحبّي أهل البيت عليهم السلام.

وجوهر هذه المسألة هنا: هل أن العزاء ـ كما بات سائداً ورائجاً اليوم في أوساط الشيعة ـ مقبول ومرضي من الناحية الشرعية أم لا؟

## أنواع الجهود في دراسة قضية العزاء

لقد كتبت ـ في القرن الأخير ـ نتاجات متعدّدة، تهدف للجواب عن هذا السؤال؛ فقد سعى بعضهم لإثبات شرعية هذه العادات، فيما جهد بعضٌ آخر لكشف مفاسد هذه الطرق أو نقدها، وقد كانت هذه الجهود متمركزةً على مستويين:

**الأول**: سعى جماعة لإعطاء العزاء وجهاً مقبولاً وشرعياً أمام الموقف غير الشيعي، لا سيما أمام المفكّرين الدينيين الجُدد عند أهل السنّة، أو حتى الوهابيين.

**الثاني**: وسعت جماعة أخرى لتناول هذه القضية في الداخل الشيعي.

كما أن النتاجات التي انبثقت عن هاتين الجهتين كانت فيها بعض الاختلافات الجوهرية أيضاً، ففي أعمال الفريق الأول كان التركيز على شرعية أصل مثل هذه الأعمال، وقد تبلور البحث حول بعض المراسم العزائية التي اعتبروها شرعيةً وحاولوا الدفاع عنها، أما أعمال الفريق الثاني، فقد سعى جماعة لشرح آفات وسلبيات هذا العمل في مقابل دفاع مستميت من طرف جماعة أخرى عن مطلق أنواع العزاء والتعزية، وفي الحقيقة فإنّ الجميع في المستويين معاً كانوا يبحثون عن جواب للسؤالين التاليين: هل العزاء مشروع؟ وأيّ من الأعمال التي تقام باسم العزاء مشروعة؟

## تجربة عبد الحسين شرف الدين في دراسة شرعية العزاء الحسيني

سعى الفريق الأول كي يثبت أن مراسم العزاء ليست بدعةً، وذلك في مقابل

من اعتبر أن مجموعة الأعمال الخاصّة التي يمارسها الشيعة في أيّام خاصة باسم أئمة الشيعة ويطلق عليها اسم العزاء.. بدعةٌ، ومن أبرز الأسماء على هذا الصعيد كان العلامة السيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي (١٨٧٣ ـ ١٩٥٧م)، وهو من الرادة الأوائل السابقين للحوار بين الشيعة والسنّة، لقد عمل شرف الدين ـ وهو من علماء لبنان وخرّيجي النجف الأشرف ـ على مواجهة من جعل أصل ظاهرة العزاء على سيّد الشهداء وسائر المعصومين بدعةً غير مشروعة، فألّف عملاً لم يكتمل وإنما بقيت مقدّمته وفصلٌ من المجلّد الأول منه، لقد كان هدفه من تأليف كتاب «المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة» تدوين تقرير صحيح عن وقائع عاشوراء وسائر المناسبات الدينية، لكنه قبل الورود في أصل البحث كتب مقدّمةً مفصّلة ما تزال موجودة، تحمل عنوان «مقدّمة المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة».

ويعود تأليف هذا الأثر إلى عام ١٩١٤م، ويشكّل أنموذجاً دقيقاً وممنهجاً من النوع الأول من النتاجات، ففي هذه الرسالة مارس شرف الدين بحثاً دقيقاً كفقيهٍ من الفقهاء، مستنداً إلى المصادر الشيعية والسنّية، وبعيداً عن المساجلات والصخب غير العلمي، فجعل بحثه في خمسة مطالب وفصلين.

في البداية، حاول شرف الدين تأسيس الأصل، فذكر أن الأصل العملي يقتضي الجواز والإباحة، أي إباحة البكاء على الموتى وإنشاد الأشعار في رثائهم، وتعداد حسناتهم، والتذكير بمصيبتهم، والإنفاق باسمهم في سبيل الخير، وعقد مجالس العزاء لهم، وليس فقط لا يوجد أيّ دليل على خلاف الأصل المذكور، بل إنّ السيرة القطعية والأدلّة اللفظية قائمة على الجواز، بل يستفاد من بعض الموارد الاستحباب أيضاً[(١)].

بعد ذلك، يذكر شرف الدين خمسة مطالب بالترتيب التالي:

**المطلب الأول:** حول البكاء، وقد ذكر فيه عدة روايات تتحدّث عن بكاء النبي الأكرم في بعض المواضع، من بينها عند رؤيته جسد حمزة الشهيد[(٢)]، وهذه الروايات تحكي عن جواز أصل البكاء على الميّت.

---

(١) مقدمة المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣.

**المطلب الثاني:** في باب رثاء الميت، وقد ذكر فيه شرف الدين عدداً من القصص والروايات التي تدلّل على أنه بعد وفاة النبي الأكرمﷺ رثاه عددٌ من الصحابة منهم: صفيّة عمّة النبي، حيث أنشدت أشعاراً في رثائه[١].

**المطلب الثالث:** وكان في بيان أحاديث مشتملة على مناقب الميّت ومصائبه، وقد اعتمد فيه المؤلف على التاريخ، فنقل عدّة موارد من النقل يزور فيها أقرباء الميت مزاره وقبره، كما يتناقلون ذكراه ويعدّدون حسناته ومناقبه، مبدين الحزن على فقدانه[٢].

**المطلب الرابع:** وهو بابٌ في الجلوس للعزاء على الموتى، وفيه نقلَ المصنّف عن صحيح البخاري أنه بعد شهادة زيد بن الحارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رواحة في معركة مؤتة جلس النبيﷺ في المسجد وهو مغموم باديةٌ عليه آثار الهمّ على فقدهم[٣].

**المطلب الخامس:** وسعى فيه شرف الدين إلى إثبات أن الإنفاق من جانب الميّت وباسمه، في سبيل الخير وطرقه، جائز؛ وإضافةً إلى الأدلّة العامة هنا كاستحباب مطلق أنواع الإنفاق، فإن سلوك النبيﷺ كان يؤيّد ذلك، ثم ينقل شرف الدين هنا عن صحيحي: البخاري ومسلم، أن رسول اللهﷺ كان يذبح شاةً أحياناً بعد وفاة خديجة، ويقطعها قطعةً قطعة، ثم يتصدّق بها باسم خديجة[٤].

وبعد هذه المقدّمات العامة، يبذل شرف الدين جهداً للاستدلال على شرعية العزاء على الإمام الحسينعليه السلام ويؤكد بأن من يقف على ما تقدّم يستنتج أنه لا يوجد مبرّر للإنكار على الشيعة فيما يفعلونه من المجالس الخاصة بسيد الشهداء، مع الالتفات إلى أنّ ما يقومون به لا يخرج عن هذه الخمسة[٥].

وبعد إثباته الشرعية العامة لهذه الأعمال الخمسة: البكاء على الميت، رثاء الميت، ذكر محاسنه وذكره بالخير، الجلوس للعزاء عليه، والإنفاق باسمه.. يستنتج

---

(١) المصدر نفسه: ٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ٤٥.

(٤) المصدر نفسه: ٥١.

(٥) المصدر نفسه: ٥٥.

أنه لا يوجد في العزاء على سيّد الشهداء سوى هذه الأعمال الخمسة المباحة والمشروعة، ويفصّل في هذا الفصل هذا الموضوع، ويستعرض أدلّته واحداً بعد الآخر، ثم يقول: «فهل بعد هذا كلّه تقول: إنّ البكاء على مصائب أهل البيت بدعة؟»[(١)].

في الفصل اللاحق، وعلى المنوال والمنطق عينه، يسعى شرف الدين لإثبات شرعية العزاء لسائر المعصومين.. إنّ هذا العمل رغم قصره يشكل أنموذجاً دالاً على المنهج والتحليل الدقيق للمسألة، والتفكيك الممتاز لموضوع النـزاع ومادّة الاختلاف، فشرف الدين هنا كانت لديه أهداف تتمركز في إثبات شرعية أصل العزاء ونفي وصف البدعة عنه، والمنهج الذي استخدمه قائمٌ على معايير أصول الفقه ومناهج التحليل الفقهي، فيواصل بحثه فيتحدّث ـ بعد ذلك ـ عن حدود العزاء فيعيّنها بالأعمال الخمسة السابقة، وهو منهج لا نراه في الأعمال التي اتخذت طابع النوع الثاني.

## تجربة الشيخ علي البحراني الستري في الدفاع عن العزاء الحسيني

الكتاب الثاني الذي يتمحور حول النقطة عينها هو كتاب (قامعة أهل الباطل بدفع شبهات المجادل في جواز البكاء والرثاء على سيدنا ومولانا الإمام الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) من تأليفات الشيخ علي بن محمد بن عبدالله البحراني الستري (١٣١٩هـ) الذي كان يسكن في مسقط.

إنّ لحن هذا الكتاب وأسلوبه يكشف عنه عنوانُه واسمه.. قاس شديد، وفي بعض المواضع جارح، إنه يكتب في مقدّمة كتابه أنّ أحد أصدقائه أرسل إليه كتاباً من الهند من مؤلّفات شيخٍ حنفي ونقشبندي اسمه الشيخ نور الدين محمد بن عبدالصمد، وكانت له أسئلةٌ صحيحة وغير صحيحة فيه، ويدور بعضها حول العزاء على سيّد الشهداء وبيان حرمة ذلك، وقد طلب الصديق من المؤلّف الناقد أن يرفع هذه الشبهات، ورغم أن البحراني يدّعي أنّه لا يستهدف الدخول في مجادلةٍ وسجال مع أهل المذاهب والمعاندين والنواصب، إلا أنه مضطرّ للجواب عن هذه الشبهات.

لقد سعى البحراني في كتابه كي يُثبت شرعية البكاء على الإمام الحسين،

---

(١) المصدر نفسه: ٧٨.

وإنشاد الشعر في رثاء أهل البيت، وقد أجاب أيضاً عن بعض دعاوي الشيخ الحنفي مما هو خارج عن بحثنا هنا، والشيء الملفت هنا أنّ المؤلف لم ير أنّ دائرة الرخصة تتعدّى البكاء وما أسلفناه سابقاً عند شرف الدين، حيث يرى غيرها محرّماً، مما يجعله يوافق الشيخ الحنفي فيها، ففي أوّل الكتاب يشير إلى حرمة صناعة نعش وتابوت وشبيه للحسين عليه السلام، ويرى أن الكاتب الحنفي شرع في تحريم التابوت وإقامة الشبيه وهو ما يقوم به الجهال المدّعون للتشيّع وأتباع أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وما اعتادوا عليه واستحسنوه، ولا شك في أن هذين العملين محرّمان عندنا، وأنهما من البدع الشنيعة عند أفاضل الإمامية والصالحين الورعين؛ إذ لم يرد أمرٌ بهما في الشرع، فيكونان من الملاهي واعتبارهما عبادة يجعلهما ـ كصلاة الضحى ـ بدعة..[(١)].

ويضيف: إنّ هناك أفعالاً قبيحةً أخرى من استخدام آلات اللهو واللعب وخروج النساء كاشفات الرؤوس واختلاطهنّ بالرجال من غير المحارم، وقيام الرجال بأدوار النساء في التعزية، وسائر الأمور التي ذكرها أو لم يذكرها (الحنفي)، كلّها أفعال محرّمة، وحرمة بعضها مستندةٌ إلى النص، فيما تستند حرمة بعضها الآخر إلى العمومات والظواهر[(٢)].

ويواصل البحراني طعنه بأن خروج النساء في مثل هذه المراسم ليس بأشنع ولا بأقبح من خروج أمّ المؤمنين لمحاربة أمير المؤمنين، شانّاً في الجانب الآخر هجوماً عنيفاً على غلاة الشيعة، مصرّحاً بأنهم عند الشيعة كفارٌ قذرون ومشركون أنجاس، وأنّ عليهم لعنة الله والملائكة والناس، فلا هم من الشيعة ولا الشيعة منهم[(٣)].

وإذا كان في أعمال علماء الشيعة التي تنتمي إلى هذا النوع الأول اتفاق في وجهات النظر، فإنّ الأمر لم يكن كذلك في النوع الثاني، فهناك ربما وصل الحال أحياناً إلى إفتاء فريق بحرمة شيء فيما يرى فريقٌ آخر وجوبَه الكفائي، وهذه الفتاوى المتعارضة لوّثت المناخ العام بدل أن تكون مفتاحَ حلولٍ له، وهنا ـ على خلاف الإجماع المقابل لأهل السنّة والقاضي بأصل شرعية العزاء ـ نشاهد انفتاحاً

(١) قامعة أهل الباطل: ١٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٣١.

لجبهة داخلية تجعل الوصول إلى الحقيقة أمراً عسيراً.

القضية الرئيسة هنا أنه مع الاعتراف بمبدأ شرعية العزاء، أيّ عملٍ يشكّل مصداقاً لهذا المفهوم؟ وهل أن دائرة العزاء وسيعةٌ بحيث تستوعب مختلف الأشكال أم أنها تضمّ في داخلها شكلاً خاصاً محدّداً؟

لقد دخلت إلى العزاء، سيما في القرن الأخير، مظاهر كثيرة وأعمال عديدة تعنونت باسمه وصارت تدريجياً من مراسم العزاء الحسيني، وهذا ما جعل هذا الملفّ أكثر جدّيةً، وكمثال على ذلك ظهور أشكال للتعزية، والتمثيل، واللطم، وثقب البدن، ولفّ الجسد بالقفل، وحمل العلم، وضرب الزناجير.. في الأوساط الشيعية، وقد كانت هذه المسائل عينها هي التي جرّت لتناول هذا الموضوع وشرعية هذه التصرّفات.

## محسن الأمين وتجربة إصلاح العزاء الحسيني

تعدّ التعزية من المراسم السائدة في الوسط الشيعي، والتي انتقلت عبر إيران إلى كلّ من العراق ولبنان، واتخذت إقبالاً وقبولاً واسعاً لها؛ ففي القرن الأخير اتسع نطاق هذه المظاهر العزائية وأساليب عرض مصائب أهل البيت في إيران والعراق وتركيا العثمانية، ولبنان، وسوريا، لتتخذ شرعيّتها من سكوت الكثير من العلماء الشيعة، بل إفتاء بعضهم بالجواز.

أحد العلماء الكبار في جبل عامل، وهو العلامة السيد محسن الأمين، كتب رسالةً في عدم شرعية هذه الأعمال، وهو ما شكّل بداية مرحلة من النقاشات الكتبية، لهذا لابد من الحديث عن هذه الرسالة وما استتبعته.

يعدّ السيد محسن الأمين (١٨٦٧ ـ ١٩٥٢م) من رادة الإصلاح في الفكر الشيعي في الحقبة المعاصرة، ويصنّف كتابه المعروف «أعيان الشيعة» من الأعمال الرائعة في التعريف بكبار الشيعة وعلمائهم، لقد درس الأمين في النجف، وعندما عاد إلى جبل عامل التفت إلى ظاهرة رواج الخرافات الكثيرة والأخطاء الموجودة في نقل تاريخ عاشوراء وإحياء ذكرى شهداء الطفّ؛ من هنا عقد العزم وشمّر لإصلاح هذه الأمور، وفي هذا الخط ترك لنا الأمين ثلاثة كتب صنّفها؛ لتكون خليفةً وتحلّ محل كتب المقاتل السائدة التي كان يعتبرها مليئةً طافحة بالكذب والتحريف.

أوّل أعماله في هذا المضمار كان كتابه «لواعج الأشجان في مقتل الإمام

الحسين»، والذي نشره عام ١٩١١م، وسعى فيه للاعتماد على المصادر التاريخية المعتبرة، مقدّماً تقريراً واضحاً وفي الوقت عينه موجزاً ومكثفاً عن واقعة كربلاء، من خلال مقدّمة، وثلاثة مقاصد، وخاتمة[1]. وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه استطاع أن يتحوّل إلى بديل مناسب لكتب المقاتل التي كانت بيد شيعة لبنان، وعدّت من الناحية التاريخية ضعيفةً، مليئة بالحوادث الكاذبة.

بعد هذا الكتاب، صنّف الأمين كتاب «أصدق الأخبار في قصّة الأخذ بالثار» والذي نشر بعد كتابه الأول بعامٍ واحد، شارحاً فيه تاريخ حركة التوابين.

أما الكتاب الثالث، فاشتمل على أشعار في رثاء سيّد الشهداء، وقد نشره الأمين في العام نفسه تحت عنوان «الدرّ النضيد في مراثي السبط الشهيد»، وبعد سنوات طبعت هذه الكتب الثلاثة في مجلّد واحد صدر عن دار العرفان، لتكتب عنه مجلّة العرفان بأنه لا يمكن لأيّ شيعي أن يستغني عن هذا الكتاب[2]، وبعد سنوات عدّة شرع الأمين في تأليف كتابٍ من خمسة مجلّدات تحت عنوان «المجالس السنيّة في مصائب ومناقب العترة النبوية»، مشيراً في مقدّمته في المجلّد الأول إلى شرعية العزاء وصوابه، وفي الوقت عينه غامزاً من قناة قرّاء العزاء الذين يجعلون الأحاديث والروايات، ناقداً اللطم والتطبير (ضرب الرؤوس بالسيوف)، معتبراً ذلك خلاف الشرع وحراماً[3].

إلا أنه وقبل أن ينشر المجلّد الخامس من هذا الكتاب صنّف الأمين كتاباً مستقلاً آخر تحت عنوان «إقناع اللائم على إقامة المآتم»، مستعرضاً فيه بحثاً مركزاً مفصّلاً لما أوجزه في مقدّمة المجالس السنيّة، وقد بيّن في مقدمة هذا الكتاب أنّ هدفه إقامة الأدلّة العقلية والنقلية على حُسن العزاء على سيّد الشهداء، كي يكون مصنّفه هذا مقدمةً أو تكملة لكتاب المجالس السنيّة[4].

---

(١) محسن الأمين، لواعج الأشجان في مقتل الإمام الحسين: ٣.

(٢) صابرينا ميرفان، حركة الإصلاح الشيعي، علماء جبل عامل وأدباؤه من نهاية الدولة العثمانية إلى بداية استقلال لبنان: ٣٠١، ويعدّ هذا الكتاب من أكثر الكتب جديةً في مجاله، وقد نشرت شهرية «كتاب دين» في عددها لشهر بهمن من عام ١٣٨٤ش/٢٠٠٥م، قراءةً فيه وتقريراً للسيد مصطفى المطبعجي، كما أنّني أشكره أيضاً على كونه وفّر لي هذا الكتاب للاطلاع عليه.

(٣) محسن الأمين، المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة الطاهرة: ٧٥١.

(٤) محسن الأمين، إقناع اللائم على إقامة المآتم: ٢.

بدايةً، يحدّد الأمين في هذا الكتاب مقصوده من إقامة العزاء أو المأتم، فمن وجهة نظره: العزاء عبارة عن البكاء على شهادة الإمام الحسينعليه السلام، وإظهار الأسى والغم، وإنشاد الأشعار وقراءتها في الرثاء، وسرد قصّة شهادته، وبيان أخلاقه الكريمة ومناقبه الرفيعة، وإطعام الطعام وإهداء ثوابه إلى الإمام، وإقامة المجالس الشبيهة بمجالس العزاء على الأموات[1]، نعم إنّ القيام بهذه الأعمال مشروطٌ بشرطٍ أساسي وهو أن لا يشتمل أيّ واحد منها على عمل محرّم، وإلا فلا نراه ـ نحن الشيعة ـ عملاً شيعياً، ولا يصحّ أن ينسب إلى الشيعة[2].

يقوم هذا الكتاب على منهاجية مقدّمة «المجالس الفاخرة» لشرف الدين، غير أنّه أكثر تفصيلاً منه، ويحوي على ٢٢٢ صفحة، فبعد بحثه التفصيلي، يعمد الأمين في الفصل الثامن لجمع المباحث السابقة، ويجيب عن بعض الإشكالات، فأحد الإشكالات القديمة في مجالس العزاء والتي طرحها أهل السنّة هو القول بكون هذه الأعمال بدعة؛ إلا أنّ السيد الأمين يستنتج ـ بعد مروره على الأدلّة المختلفة ـ ما يلي: «وأما توهم بعضهم أنّ ذلك بدعة، فقد عرفت من مجموع ما تقدّم أنه لا يشتمل إلا على السنن والمستحبات أو المباحات على الأقل، ولا مساس له بالبدعة التي هي إدخال ما ليس من الدين في الدين، أمثال ضرب الدفوف، والتغنّي، والرقص ونحو ذلك بعنوان ذكر الله تعالى وعبادته»[3].

والملفت في هذا الكتاب أنّه بعد تعداده الأعمال التي تُقام باسم العزاء، وهي تلك الأعمال الخمسة التي كان قد ذكرها شرف الدين في كتابه: البكاء على الموتى، ورثاء الميّت، وذكره بالخير، والجلوس للعزاء عليه، وإنفاق المال في وجوه البرّ له.. يصرّح محسن الأمين بانحصار العزاء بهذه العناصر الخمسة، فهو يقول: «إذا عرفت هذا، فاعلم أنّ المآتم التي تقام على الحسينعليه السلام لا تعدو هذه الأمور الخمسة المتقدّمة في الفصول الخمسة، وقد دلّت الأدلّة السابقة على جوازها ورجحانها..» [4].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٠.

(٤) المصدر نفسه: ١٧٤.

إننا نتذكّر في آلية الاستدلال في هذا الكتاب وفي بعض فصوله منهجَ السيد شرف الدين، فإضافةً إلى شرعية العزاء، يرى الأمين أنّ لهذه المجالس فوائد متعدّدة أخرى، من هنا يذكر تسع عشرة فائدة ويعدّدها، مثل الإحساس بآلام الرسول وأهل بيته ومواساتهم، ومعونة الحقّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعرّف على أرفع الفضائل، وحفظ واقعة كربلاء في التاريخ، والحيلولة دون نسيانها، وذمّ الظلم والجور، وتربية حسّ الترحّم لدى الأفراد، كذلك حسّ الاعتماد على النفس والسعي لتعاليها، وتأسيس مدرسة عامّة يشارك فيها الجميع، فيتعرّفون على التاريخ والأخلاق والتفسير والأحكام.. إنّها بذلك تتحوّل إلى منبر عام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقوية روح التعاون والتعاضد بين الشيعة.

ويرى الأمين أنّ مراسم العزاء يمكنها ـ بشكل جيّد ـ أن تلعب دور مؤتمر سنوي ديني ودنيوي، يجتمع فيه المسلمون كافّة، ويتبادلون فيه الرأي والفكرة ويطرحون فيه ـ بأقل كلفة ومؤونة ـ قضاياهم لمعالجتها ودراستها، كما أنّ هذه المناسبات والمراسم توجب استفادة الناس من مراكز التعليم الديني وحُسن استخدامها لوقتها بدل قضاء الوقت في المقاهي ببطالة ودون عمل(١).

لقد دوّن كتاب المجالس السنيّة لهذا الهدف كي يحلّ مكان كتب المقاتل غير الصحيحة وتلك المحرّفة، فيُعتمد في المجالس الحسينية العزائية، لقد كان سماع الأمين ومطالعته للأكاذيب والأخطاء في هذا المجال باعثاً مرغباً له على تدوين هذا الكتاب، إنه ينقل في خواطره أنه شهد في مدينة الكاظمين مجلس عزاء خُلط فيه الغث بالسمين والصحيح بالباطل، حتى أنّ الكلمات والمفردات العربية لا تُنطق فيه على وجه صحيح، وقد سأل أحدَ العلماء الجالسين إلى جانبه: بالله عليك، هل يوجد في كلمات هذا الرجل شيء من صواب؟ فأجابه ذلك العالم بالنفي، فردّ الأمين عليه: لماذا إذاً لا تُبدون منعاً عن مثل هذه الأعمال؟ فأجاب الآخر: لا يمكننا(٢).

## عاصفة كتاب التنزيه لأعمال الشبيه

إلا أنّ محسن الأمين لم يكن ذاك الذي يستسلم بسهولة للواقع القائم، لهذا

---

(١) المصدر نفسه: ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) حركة الإصلاح الشيعي: ٣٠٢.

عمد إلى تدوين هذا الكتاب وترويجه، ولم تتوقّف حركته الإصلاحية عند هذا الحدّ، بل عمد إلى تحريم كلّ أشكال التعزية والتشابيه التي كان يختلف معها اختلافاً جذرياً، مستثنياً الأعمال الخمسة السابقة، وذلك عندما سنحت له الفرصة. والذي يبدو أنه عام ١٩٢٤م، وفي إحدى مناسبات أعمال الشبيه، وقع نزاع أدّى إلى مقتل شخصين، وقد استفاد الأمين من هذه الفرصة فأصدر حكماً بتحريم أعمال الشبيه وسائر الأعمال الأخرى، مثل ضرب الجسد، بل عمل على منعها ميدانيّاً، مستفيداً من قوّة الدولة وجنودها لوضع حدّ لهذا الأمر.

ومجمل القصّة أنّ رجلين من أهل السنّة كانا في حالة سكر وثمالة، جاءا لمشاهدة مظاهر العزاء بالقرب من مرقد السيدة زينب، وقد عدّ هذا الأمر نوعاً من التوهين؛ الأمر الذي انجرّ إلى تصادم، وقد ضمّن محسن الأمين في فتواه: أن عمل الشبيه تواكبه أعمال محرّمة، ولا يكون إحياء وتقدير ذكرى شهادة الإمام الحسين عليه السلام بالقيام بمثل هذه الأعمال؛ فقد ثار لإحياء دين جدّه واستشهد لذلك، وقد توقفت هذه المراسم في دمشق طالما ظلّ السيد الأمين حياً[(١)]، بعد ذلك بمدة قصيرة انشغلت الصحف والنشريات البيروتية بتحليل آراء الأمين، الأمر الذي ساعد على نشر فكرته أكثر فأكثر.

وفي عام ١٩٢٦م (١٣٤٥هـ) أصدر ـ في البصرة ـ عالمٌ اسمه السيد مهدي بن صالح القزويني (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩م) فتوى حرّم فيها أعمال الشبيه وضرب الصدور، وقد نشر القزويني مقالةً في صحيفة الأوقات العراقية ذكر فيها أنّ بعض الأعمال التي تُقام باسم العزاء إنما هي أعمال بدعة ووحشية[(٢)]، وبعد مدّة مديدة جدّد القزويني خطوته هذه بنشر مقالة حملت عنوان «صولة الحقّ على جولة الباطل في موكب التعزية»، مؤكّداً فيها على موقفه السابق القائل بحرمة أعمال الشبيه المصاحبة بجملة محرمات أخرى[(٣)]، وقد تعرّضت هذه المقالة للنقد، فردّ عليها شخص باسم: الشيخ عبد الكاظم بن محمود الغباني (مولود عام ١٣٠٧هـ) عبر

---

(١) المصدر نفسه: ٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٥.

(٣) المصدر نفسه.

تأليف كتاب أطلق عليه: «البراهين القائمات» وقد نشر الكتاب بتقريظ في أوّله للعلامة محمد حسين كاشف الغطاء، وذلك عام ١٣٤٥هـ وقد أكد فيه رجحان العزاء ومطلوبية أعمال الشبيه[(١)].

اتهم القزويني بالتعاون مع الحزب الأموي[(٢)]، ورغم أن الاثنين كانا مشتركَين في الموقف، إلا أنه لا يبدو أنهما كانا كذلك في مسائل أخرى، أو أنهما نسّقا سوياً في هذه المسألة بعينها، مع ذلك فقد عدّ هذان الموقفان من مدينتين مختلفتين مؤامرةً؛ لذا هبّ المدافعون عن أعمال الشبيه وما شاكلها والقائلون بإباحتها بل استحبابها.. هبّوا للمنافحة الشديدة بجهود ضخمة عن مواقفهم ليعلنوا رفضهم لمواقف الرجلين؛ فالشيخ عبد الحسين صادق العاملي ألّف كتاباً أسماه «سيماء الصلحاء في إثبات جواز إقامة العزاء لسيّد الشهداء»[(٣)]، وانتقد فيه ـ دون أن يسمّي ـ كلاً من الأمين والقزويني، وقد سطر في نهاية الكتاب أنّ العلماء الكبار عند الأمّة لم يخالفوا في الشعائر الحسينية، إلا رجلان أحدهما من جبل عامل والآخر من البصرة[(٤)].

وقد أدّت هذه المسألة إلى صدور فتاوى متعدّدة، ووضعت العلماء الشيعة في مواجهة بعضهم بعضاً، وقد انتشرت في هذا الوقت فتوى الميرزا حسين النائيني وآخرين ممّن سنعرض للحديث عنهم، وقد جرّت الفتاوى الصادرة بإباحة مراسم العزاء ومنها التطبير (ضرب الرؤوس بالسيوف) إلى نشر كتب عدّة أخرى ناقدة لكلّ من الأمين والقزويني، وهذه بعض هذه الكتب التي نشرت آنذاك: كلمة حول التذكار الحسيني، لمحمد جواد الحجامي النجفي، وقد أجاز في هذا الكتاب أنواع المراسم العزائية[(٥)]، وكذلك نصرة المظلوم، لإبراهيم حسن آل مظفر النجفي، وقد أكّد فيه على حلّية الاستفادة من المسرحيات وأعمال الشبيه، حاملاً بشدّة على المجدّدين

---

(١) الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢٦: ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) وهذا تعريض بالسيد محسن الأمين الذي كان ساكناً في دمشق.

(٣) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٢: ٢٩٢.

(٤) حركة الإصلاح الشيعي: ٣٠٦.

(٥) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٨: ١٢٤.

المتسنّنين (أي المتأثرين بأهل السنّة) من الذين لا يجيزون سوى المسرحيات اللادينية المعدّة للتسلية[١]، وأيضاً النظرة الدامعة للشيخ مرتضى آل ياسين الكاظمي، فهو كسابقيه أباح مثل هذه الأعمال [٢].

في هذه الأثناء، اشتدّت الحملات التي تعرّض لها السيد محسن الأمين في جبل عامل، وهو يسكن هناك في قريته «شقراء» في جنوب لبنان، وعلى حدّ قول جعفر الخليلي، فقد انبرى لمخالفته عبد الحسين صادق في النبطية وعبد الحسين شرف الدين في مدينة صور[٣]، وهو ما دفعه إلى تأليف كتابه المعروف في هذا المجال، والذي حمل عنوان «التنزيه لأعمال الشبيه»[٤]؛ لقد كانت هذه الرسالة مختصرةً جداً

(١) المصدر نفسه ٢٤: ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه ٢٤: ١٩٦.

(٣) حركة الإصلاح الشيعي: ٣٠٨.

(٤) الجدير ذكره أنّ هذه الرسالة ترجمت إلى الفارسية من جانب جلال آل أحمد، تحت عنوان «عزاداري هاى نا مشروع/ألوان العزاء غير الشرعية»، ونشرت في ست عشرة صفحة عام ١٣٢٢ش/١٩٤٣م، وقد بيعت تمام نسخ هذه الترجمة والتي كانت أوّل الأعمال التأليفية (أعمال القلم) لآل أحمد، خلال يومين، وقد كان جلال آل أحمد في غاية السرور لذلك؛ إلا أنه عُلم بعد ذلك بأنّ التجار المتديّنين قد اشتروا هذه النسخ بأجمعها وأحرقوها (انظر: يك جاه ودو جاله ومثلاً شرح أحوالات، جلال آل أحمد، طهران، رواق، ص ٤٨)، وقد أعيد نشر هذه الترجمة مرةً أخرى مع مقدّمة، بجهود «قاسم ياحسيني»، مضافاً إليها بعض محاضرات الدكتور علي شريعتي في حسينية الإرشاد حول السيد محسن الأمين، بمناسبة حضور ولده السيد حسن الأمين، وذلك في ٥٢ صفحة، عام ١٣٧١ش/١٩٩٢م، لكن في هذه الترجمة نقصان: أحدهما إنها ليست ترجمةً لكامل رسالة السيد محسن الأمين فبعض المقاطع غير مترجمة، وثانيهما حصول أخطاء في الترجمة في بعض المواضع فلم تنقل المفاهيم بشكل دقيق، وعلى سبيل المثال جاء في أحد المواضع أنّ أحد العلماء المسيحيين قال عند سماعه خطبةً من خطب نهج البلاغة، على لسان خطيب يذكر هذه الخطبة مع ألحان وغناء (انظر: عزاداري هاي نامشروع: ٤٥)، والحال أن أصل الرسالة لا حديث فيه عن الغناء، ففي النص الأصلي يسجل محسن الأمين ملاحظات على أمّية بعض قراء العزاء وعدم قدرتهم على التلفظ الصحيح للكلمات، ولا رعاية إعرابها، وهو ما يسمّى باللحن في الكلام، وعندما يؤكّد الأمين على هذا الأمر يشير إلى أنه ربّى الخطباء في منطقته على أن يقرؤا حتى الخطب الطويلة

تقارب العشرين صفحةً فقط، وقد كتبت عام ١٩٢٧م، إلا أنها لم تُنشر حتى نهايات العام ١٩٢٨م، وسبب هذا التأخير يمكن أن يكمن في تردّد المؤلّف في النتائج التي يمكن أن تتركها أو خوف الناشر من ردود الأفعال عليها، وقد رحّبت مجلّة العرفان بنشر هذه الرسالة على صفحاتها، وكتبت تصفها بأنها ردّ محكم ضدّ البدع التي نشرها بعض العلماء في النبطية وجبع في لبنان، ما أوجب الاستهزاء بالشيعة، وهي ـ أي الرسالة ـ مستندة إلى الأدلّة المحكمة الدينية والعقلية[1].

لقد عدّ السيد محسن الأمين في هذه الرسالة عدّة منكرات راجت في شعائر عاشوراء، وبعضها ـ عنده ـ من الذنوب الكبيرة، وهي:

١ـ الكذب ونقل الروايات التي لا أساس لها من الصحة عن أهل البيت عليهم السلام.

٢ـ تعذيب النفس وإلحاق الضرر والأذى بها، على أثر جرح الرأس بالسيوف والخناجر.

٣ـ استخدام آلات اللهو، ومن جملتها الصنوج والدمام.

٤ـ تشبّه الرجال بالنساء أثناء إقامة المسرحيات.

٥ـ عرض النساء العاريات الرؤوس على الهوادج في مسرحيات بوصفهنّ بنات رسول الله صلى الله عليه وآله.

٦ـ أصوات النساء في محضر الرجال والذي إذا لم يكن حراماً فهو لا يتناسب مع الآداب والمروءة، ولابدّ من تطهير العزاء منها.

٧ـ إطلاق الأصوات المنكرة التي تقشعرّ منها الأبدان.

٨ـ وكل ما يوجب الهتك والسمعة السيئة، وهو ما لا يقبل الحصر[2].

ويرى محسن الأمين أنّ إدخال هذه الأمور في مراسم العزاء الحسيني هو من

---

والبليغة لأمير المؤمنين دون غلط أو لحن، وأنّ ذلك السامع المسيحي لم يتعجّب من مضمون الخطبة الطويلة، بل من صحّة قراءتها، لهذا جاء في النص الأصلي: «وإنما عجبت من عدم لحن هذا القارئ فيما قرأه على طوله» (انظر: رسالة التنزيه: ٣١).

(١) المصدر نفسه: ٣٠٩.

(٢) محمد قاسم الحسيني النجفي، ثورة التنزيه، رسالة التنزيه تليها مواقف منها وآراء في السيد محسن الأمين: ٢٢ ـ ٢٣.

تسويلات الشيطان، ومن المنكرات التي تُغضب الله ورسوله والإمام الحسين نفسه، فقد قام لإحياء دين جدّه، واستشهد لإزالة المنكرات، فكيف نرضيه بارتكاب مثل هذه الأعمال، سيما مع جعلها عنواناً للطاعة والعبادة؟!»[١].

لقد اهتمّ الأمين في هذه الرسالة بردّ دعاوى كتابٍ كان نشر دفاعاً عن ألوان العزاء السائدة ونقداً لأنظار محسن الأمين، ودون أن يأتي على ذكر اسم الكتاب أو اسم صاحبه يسجّل عليه ملاحظات عدّة ويواصل نقده حتى النهاية، بل إنه تعرّض في هذه الرسالة حتى للإشكالات الإملائية والنحوية والتأليفية في الكتاب، وعلى سبيل المثال، يحاول الأمين عند كل خطأ إملائي أو صرفي أن يضع إلى جانبه عبارة: (كذا) ليحدّده بها، مثل ما جاء في كلمات ذلك الناقد في كتابه: «أولاً الغير مشروع في الإسلام..» حيث أورد الأمين على هذه العبارة بالقول: «فيه أوّلاً: إنّ قوله: الغير مشروع، لحنٌ غير مسموع تكرّر وقوعه منه، كما نبّهنا عليه؛ إذ لا يجوز دخول (ال) على المضاف إلا إذا أدخلت على المضاف إليه كالجعد الشعر. وثانياً: إنه ذكر أولاً ولم يذكر ثانياً»[٢].

ومن هذه الإشكالات تظهر القوّة الأدبية عند السيد محسن الأمين، كما يظهر ضعف قلم مؤلّف «سيماء الصلحاء»[٣].

وإذا تخطّينا هذا النوع من الإشكالات، نلاحظ أنّ السيد محسن الأمين يقف مع كلّ دعاوى الكتاب واحدةً واحدة لنقلها ونقدها، فيستفيد من كلّ الموارد التي فيها عبارات تسامحيّة غير دقيقة، وكمثال على ذلك من استدلالات الكتاب ما جاء في الدفاع عن ضرب الرؤوس بالسيوف حيث يقول: أين هو الإشكال في هذا العمل؟ هل لبس الأكفان فيه إشكال؟ إنّ هذا العمل جائز شرعاً وعقلاً، بل إننا ـ إضافةً لذلك ـ نشاهد ما يشبهه في الحج، إنه عمل يوجب تذكرتنا بالآخرة وهو أساس الاستعداد للموت، أفهل في جرح الرأس إشكال؟ إنّ هذا العمل سنّة دينية أيضاً، بل إنّ فيه نوعاً

(١) المصدر نفسه: ٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٦.

(٣) إنّ هذه الدقائق المفيدة في معرفة سبك التدوين، وكذلك نقد السيد محسن الأمين غير بادية ومدلولة في الترجمة الفارسية.

من الفصد والحجامة، وعليه، يكون مشمولاً لأحد الأحكام التكليفية الخمسة، وهي: الوجوب، الاستحباب، الإباحة، الكراهة، والحرمة، والحجامة مباحة في الأصل، بل إنّ أنواعه الراجحة تعدّ مستحبةً، فيما أنواعه المرجوحة تعدّ مكروهةً، وما يحفظ منها السلامة يكون واجباً، فلماذا لا يكون التطبير - مع ما فيه من المنافع الدنيوية والأخروية - مباحاً[١].

وقد أجاب السيد محسن الأمين عن هذا الاستدلال بدقّة وبتفصيل، فالحجامة - بدايةً - غير جائزة في الأصل ولا مباحة؛ لأنها توجب الإضرار بالبدن، ولا تغدو مباحةً إلا على أثر الاضطرار، كما أنّ المرجوح - ثانياً - ليس من الضروري أن يكون مكروهاً بل إنه يشمل الحرام أيضاً، تماماً كالراجح حيث لا يختصّ بالمستحب بل يستوعب الواجب، كما أنّ دعوى أن كلّ ما يحفظ البدن وسلامته واجبٌ ليس بقاعدة كلية وعامة وليست واجبةً على الدوام، وإنما يجب لو خيف على النفس، وإلا كانت مستحبةً، وفي هذه الصورة إذا اعتبرنا التطبير نوعاً من الحجامة فلا يكون واجباً إلا إذا قال الطبيب الخبير للمطبّر بأنّ في رأسه مرضاً مهلكاً وإذا لم تطبّر فستكون حياتك في خطر، كما لا يكون مستحباً إلا إذا - مثلاً - كانت في الإنسان حرارة شديدة ورخّص الطبيب الحاذق بضرب الرأس بالسيف أو الموسى، وإذا لم تكن هناك منافع في البَيْن وكان الفعل لا يُلحق إلا ضرراً تعيّن أن يصير حراماً، وذلك عندما لا يكون في رؤوس المطبّرين أي مرض ولا حرارة ولا حمّى يشفي منها التطبير، وحيث كان هذا الفعل حراماً فلا يمكنه أن يكون مقرّباً إلى الله وموجباً لثوابه، بل سيكون ناتجه عقاب الله وغضبه وغضب رسوله والإمام الحسين الذي قُتل في سبيل إحياء شريعة جدّه[٢].

---

(١) راجع: ثورة التنـزيه: ٣٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣ - ٣٤؛ إنّ هذه السلسلة الاستدلالية غير موجودة في ترجمة جلال آل أحمد للكتاب إلى اللغة الفارسية، بل قد ترجم هذا الموضوع هنا على الشكل التالي: «بعضهم ولكي يجعل ضرب الزناجير واللطم مستحباً يمثل - دون أدنى فكر وتعقل - بالفصد والحجامة، ويقول: حيث كانت الحجامة - وهي نوعٌ من تعذيب البدن - جائزةً بل مستحبة، فاللطم والأعمال الأخرى التي تلحق التعذيب بالبدن ستكون مستحبةً.. هل هناك طبيب يجوّز الزناجير واللطم

وقد كان السيد محسن الأمين قال قبل ذلك بلزوم تجنيب المنابر نقلَ القصص الكاذبة والروايات غير الصحيحة، وقد رأى ناقده ـ راداً عليه ـ أنّ الكثير من العلماء الكبار قد عملوا بالأحاديث الضعيفة في الأمور المستحبّة، ومن الواضح أنّ الروايات التي تُنقل في التعزية من نوع الرخص والجائز الذي لا يصل إلى حدّ الإلزام، وليست من العزائم الواجبة، وكما يحبّ الله تعالى أن يُعمل بعزائمه كذلك يحبّ أنّ يُعمل برخصه أيضاً[1].

وقد ردّ السيد الأمين على هذا الاستدلال بردّ شديد قاطع، ووضع يده على مواضع أبدى فيها عدم دقّة الكاتب وخلطه للمسائل، حيث كتب يقول: «إنّا نسأله: ما ربط عمل العلماء بالخبر الضعيف في السنن بأخبار التعزية التي هي أمور تاريخية لا أحكام شرعية؟ وما ربط الخبر الضعيف بالمقام؟»[2].

ثم ينتقده بأنّ الرخصة والعزيمة مفهومان ناظران للشؤون الفردية، لا الأمور التاريخية، يضاف إلى ذلك أنّ كلام السيد محسن الأمين لم يقم على عدم نقل الأخبار الضعيفة وإنما كان يقول بضرورة الابتعاد عن الأخبار الكاذبة التي لا أساس لها، وفرقٌ كبير بين المقولتين[3].

ويستدلّ عبد الحسين صادق بسكوت المجتهدين الكبار عن هذه المراسم حيث إن معنى ذلك اعتبارهم لها من باب تعظيم الشعائر الدينية، وأنّ ذلك أمرٌ

---

المحرّمين في الدين ويعطي ذلك وصفةً للصلاح ورفع المرض؟!» آه من هؤلاء الجهلة والتعساء، لنفرض أنّ الأطباء رخّصوا في هذا العمل القبيح، إلا أن هؤلاء الأشاوس الغليظين الذين يضربون رؤوسهم ويضربون أجسادهم بالزناجير.. أي مرضٍ عندهم حتى يقدموا على هذا العمل للشفاء منه؟ وأيّ وضعٍ لديهم حتى يكون علاجهم ومداواتهم في ذلك؟ (ص ٤٦ ـ ٤٧)، في هذه الترجمة تلاشت حالة الاستدلال الموجودة في النص الأصلي، بل إنّ المترجم تحدّث عن الزناجير وضرب الصدور و.. وما شابه ذلك، وهو ما لا إشارة له في المصدر الأصلي إطلاقاً.

(١) ثورة التنزيه: ٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) راجع حول الأكاذيب الدينية ومسألة التسامح في أدلّة السنن التي استند إليها ناقدو السيد محسن الأمين: دروغ براى مصالح ديني در دروغ مصلحت آميز، بحث در مفهوم وكستره آن: ٣٣١ ـ ٣٦٣.

مستحب[١]، فيما يجيب محسن الأمين بأنه إذا كان العلماء لديهم مثل هذا الاعتقاد واقعاً كان يُفترض بهم أن يشاركوا في هذه المراسم بأنفسهم ويكونوا السبّاقين لها وأن: «يدقّوا الطبول ويضربوا بالصنوج وينفخوا في الأبواق، ويخرجوا حاسرين لابسي الأكفان، ضاربين رؤوسهم وجباههم بالسيوف أمام الناس؛ لتقتدي بهم كما اقتضت بهم في نصب مجالس العزاء وغيرها؛ فهم أحقّ الناس بتعظيم شعائر الدين لو كان هذا منها، وإذا لم يفعل الجميع ذلك، فعلى الأقل واحدٌ أو اثنان أو ثلاثة من العلماء مع أنّهم يعدّون بالألوف»[٢].

وعندها يقول: إنّ هذا العمل لم يكن له سابق عهد في بلاد جبل عامل، ولم يُخبر أحدٌ أنّ شخصاً كان يُقدم على مثل هذه الأعمال، ففي الأزمنة السالفة وحتى في العصر البويهي الذي كان يتمتع الشيعة فيه بحرية كاملة، وفي زمان الشيخ المفيد والشريفين: المرتضى والرضي، حيث كانت أسواق بغداد تقفل في يوم عاشوراء وتقام مراسم العزاء.. حتى في ذلك العصر لم ينقل أنّ أحداً أقدم على ممارسة التطبير وضرب الرؤوس[٣].

أما ناقد محسن الأمين فكتب أنّ أكثر العلماء المتأخرين من أمثال الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والميرزا القمي في جامع الشتات، والشيخ مرتضى الأنصاري في رسالة سرور العباد، والشيخ زين العابدين الحائري في ذخيرة المعاد، والشيخ خضر شلال في كتاب [أبواب] الجنان، والميرزا حسين النائيني في جواب استفتاءٍ من أهل البصرة، والعلماء المعاصرين كافة.. كلّهم أباحوا التطبير وما كان من قبيله، إلا أنّ العلامة الأمين ردّ هذه النسب؛ فلم يأت كاشف الغطاء في كلامه على التطبير، كما أنّ ما نسب إلى الميرزا القمي غير صحيح، فما جاء في كتابه إنما هو ناظر إلى مسألة التعزية، ولا إشارة فيه إطلاقاً إلى الطبول والتطبير.. [٤].

ويختم الأمين رسالته بلغةٍ حادّة قاسية فيقول: إن فاجعة كربلاء وقعت على

---

(١) ثورة التنزيه: ٤١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٤٢ ـ ٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ٤٣.

رأس جدّنا «وليست الثكلى كالمستأجرة»[١]، والمرور على هذه الرسالة يدلّل على أنّ المؤلف قد استخدم المنهج البرهاني ـ الجدلي في نقد خصمه، لهذا وجدناه اعتمد أحياناً على بعض الاستدلالات الضعيفة، وقد يُصادر على المطلوب أحياناً، الأمر الذي استفاد منه نقّاده.

## رسالة التنزيه وموجات النقد والنقد المضاد

لقد شهدت هذه الرسالة أصداء واسعة وقاسية وحادّة وسريعة، فخلال أشهر عدّة على صدور هذا الكتاب ألّفت في العراق العديد من الكتب في نقده، فقد كتب الشيخ عبد الحسين الحلي كتابه: «النقد النزيه لرسالة التنزيه في أعمال الشبيه»، وذلك عام ١٣٤٧هـ في مجلّدين، ناقداً على الأمين، ومسجلاً أدلّةً مفصّلة ضدّه[٢].

لقد استخدم محسن الأمين تعابير حادّة ضدّ مؤلف كتاب «سيماء الصلحاء» وأضاف أنه لم يكن بصدد الردّ عليه، إلا أنه غضب، و «من استغضب فلم يغضب فهو حمار»، وقد انتقد الحلّي هذا الكلام بالقول: هذا الكلام إلى أيّ آية قرآنية أو سنّة يستند؟ إننا وجدنا في كتاب الله ما يليق أن يكون هو المستند، مثل: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا**﴾ (النور: ٢٣)، و ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ (آل عمران: ١٣٤)، كما أنّ هناك روايات دالّة على حُسن العفو وجزالة الصفح[٣]، بعد ذلك يؤكّد

---

(١) حركة الإصلاح الشيعي: ٣١١؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ كلاً من السيد محسن الأمين ومهدي القزويني كانا من السادة الأشراف، فيما كان عبد الحسين صادق من غير السادة، من هنا ينتهي نسب الرجلين للإمام الحسين عليه السلام، ليس هذا فقط، بل أراد محسن الأمين بكلامه هذا أن يستفيد من المثل كي يقول: إنّ من قتل هو جدنا، فلماذا تجعل نفسك قابلةً تدّعي أنها أكثر حناناً من الأم؟! فالثكلى هي المرأة المفجوعة، والمستأجرة هي تلك التي تُستأجر كي تنوح، ومهما فعلت ونجحت في أداء دورها فلا يمكنها أن تكون كالثكلى.

(٢) وقد صُحّح هذا الكتاب ونشر فيما بعد تحت عنوان: «الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي» للشيخ عبد الحسين الحلي، نزار الحائري، دمشق، مكتبة الطف، ١٩٩٥م.

(٣) الملفت أنّ هذا القسم وغيره مما نقله عن الأمين في كتاب «النقد النزيه» لم نجده في رسالة التنزيه الموجودة في «ثورة التنزيه»، والذي يبدو أنّ الكتاب أخضع لتصحيح وتعديل ثقافي فحذفت منه العبارات النابية، وقد جرت مقارنة العديد من المواضع بين رسالة التنزيه وبين ما

الحلّي على أنه لا يريد إهانة السيد محسن الأمين ولا تضعيفه، مسجلاً نقداً دقيقاً على ادّعاءاته في رسالة التنزيه.

وقد سعى الحلّي ـ معتمداً على الكتب المعروفة في المجال الفقهي، وهو ما يدلّ على حضور ذهنه ودقته وطول باعه في هذا المجال ـ لقراءة الأمر قراءةً فقهية؛ كي يؤكّد أنّ التطبير ـ وخلافاً لرأي محسن الأمين ـ مشروع ومباح، بل حتى مستحب، وهذا أنموذج من أدلّته ضدّ السيد محسن الأمين؛ فقد كتب العلامة الأمين أنّ ثمة أموراً دخلت مراسم العزاء يحرّم المسلمون أكثرها بالإجماع[1]، إلا أنّ الحلي يجيبه بأنّ أعمالاً مثل اللطم على الصدور و.. مما عدّده الأمين وقعت موقع البحث والنظر لسنوات عدّة، وما تزال شرعيّتها محلّ تساؤل، لهذا تعدّ في النتيجة من المسائل النظرية، فهل يمكن له (للأمين) أن يدلّنا أيّ واحدةٍ من هذه الأشياء أجمع المسلمون على تحريمها؟ وإذا كان الأمر كذلك كان على كل إنسان الرجوع إلى مرجعه الذي يقلّده[2].

حول التطبير، استدلّ السيد الأمين بأنّ هذا العمل حرامٌ لما فيه من الضرر الذي يلحق الإنسان، وحرمته تكون من العقل والنقل، أما الشيخ الحلي فأجاب بالتفريق بين إلحاق الضرر بالنفس وتعريضها للمصاعب والمشاق[3]؛ فليس في ضرب الرؤوس بالسيوف ضررٌ معتدّ به عند الناس[4]، رغم أنه من الممكن أن تكون فيه مشقة أو صعوبة، ومع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الكثير من العبادات والمستحبات فيها مشقة وتعب فلا يمكن الحكم بحرمتها لذلك، وإذا كان في التطبير في موضعٍ ما

---

نقله عنها الحلي في «النقد النزيه»، ومع الأسف وجدنا هذا الاستنتاج أكثر صحّةً وجدية، كذلك الحال في الكلمات الأخيرة في الرسالة أي «ليست الثكلى كالمستأجرة»، وغيرها من العبارات الرئيسة التي أشار إليها الآخرون ومن بينهم الحلّي، وربما انتقدوها أحياناً، فهل جرت تعديلات وتصحيحات حقيقيّة على نصّ الرسالة بعد وفاة المؤلّف وأعيد إنتاجها من جديد؟ فإذا كان الأمر كذلك فالأسف هو المناسب هنا.

(١) «فأدخلوا فيها أموراً أجمع المسلمون على تحريم أكثرها». أنظر: ثورة التنزيه: ٢١.

(٢) الشعائر الحسينية: ١٦ ـ ١٧.

(٣) المصدر نفسه: ٥٦.

(٤) المصدر نفسه: ٧٤.

ضرر فيمكن في ذلك المورد بخصوصه الحكمُ بالحرمة، لا التحريم بشكل مطلق[١].

بل إنّ بعض العلماء عدّ بعض الأعمال العبادية المضرّة صحيحةً، وعليه، فحتى مع فرض أنّ اللطم والتطبير مضرّان إلا أنه لا يمكن ـ لمجرّد هذا الضرر ـ الحكم بحرمتهما وعدم صحّتهما[٢].

وخلاصة القول: كل من يعتقد أنّ قيامه بعملٍ ما يلحق ضرراً نفسياً ـ أي على نفسه ـ فيه يكون هذا العمل حراماً عليه، فلا ينبغي أن يُقدم عليه، إلا أنه لا يُظن أنّ أحداً من هؤلاء المطبّرين يخشى ضرراً من هذا النوع ثم يُقدم عليه، وإذا كان هذا العمل بالنسبة إليه حراماً فليس من الضروري أن يكون حراماً على غيره[٣].

وحول استخدام أدوات الموسيقى في مراسم العزاء، أجاب الحلّي على نقد الأمين الذي كان قال فيه: «الطبل والزمر والدمّام والصنوج النحاسية وغير ذلك الثابت تحريمها في الشرع»[٤]، أجاب بأنّه على أيٍّ من هذه الآلات الثلاث يصحّ إطلاق عنوان آلات اللهو؟ فما ربط البوق بـ مزمار؟ ما هو الهدف من إقحام كلمة الزمر هنا غير الإيقاع في الخطأ؟ إنّ الزمر في حالته المصدرية لا يعني سوى الغناء، لا النفخ، فأين النفخ في البوق من الغناء مع المزمار؟[٥].

وهنا نجد الحلّي ينتقد ـ باحترام ودقة ـ السيدَ الأمين بأنه وقع في خطأ لمّا جعل البوق المستخدم في العزاء مع المزمار الوارد في الروايات واحداً، فالنفخ بالبوق مختلف عن الغناء مع المزمار، الذي هو من نوع الناي[٦]. وهنا يضيف الشيخ الحلّي إشكاله في مصداق آخر كان عدّده السيد الأمين، ألا وهو الصنوج، فهل للنحاسية تأثير على التحريم في الصنج بحيث لو كان حديداً لما كان حراماً؟ إنّ هذا الإشكال

---

(١) المصدر نفسه: ٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٨٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٤٧.

(٤) المصدر نفسه: ١٤٩؛ وهذه الجملة موجودة في رسالة التنـزيه، إلا أن فقرة: «الثابت تحريمها في الشرع» غير موجودة، فانظر الرسالة: ٢٢.

(٥) الشعائر الحسينية: ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٦) ما لم يكن عندك قدر من الوعي والفطنة، فسوف يلحقك عار الخمر والزمر، كما قال الشاعر الرومي في المثنوي المعنوي، الكتاب السادس: ١٨.

واردٌ في الطبل أيضاً، فلماذا لا يلتفت السيد الأمين إلى الطبل المستفاد منه في الحملات والقوافل، والذي على جوازه اتفاقٌ في الرأي؟ هل تعبير «الثابت تحريمها» ناظرٌ لعنوان آلات اللهو أم للموارد الثلاثة التي عدّدها السيد نفسه؟ فليس من المناسب للفقيه أن يدخل مسألةً، فيأخذ بالنظر ـ ومن دون تحقيق ـ إلى جانب واحد منها[١]؛ من هنا يرى الحلّي نفسه مضطراً للحديث عن التمييز بين «طبل العزاء» و «طبل اللهو»، كي يؤكّد أنّ حكم السيد الأمين بحرمة الطبل السائد في العزاء الحسيني حكمٌ غير مقبول[٢]. ولكي يُعلم أنّ طبل العزاء ليس واحداً منها، عمد الشيخ الحلّي إلى استقصاء أسماء آلات اللهو الموسيقية، موضحاً بشكل جيّد معلومات جيدة عنها من ناحية اللفظ، والمقدار والحجم، والشكل، والجنس، والصورة، والأداء، مع ذكر حكمها الشرعي، كالدفّ، والبربط، والطنبور، والمعازف، والمِزْهَر[٣]، ثم يجرّ البحث إلى البوق كي يؤكّد اختلافه عن المزمار، موضحاً في نهاية المطاف أنّ الصنوج التي تستخدم في العزاء الحسيني لا إشكال شرعيّ فيها، وما ادّعاه السيد الأمين في أمرها غير مقبول[٤].

لقد كان الأمين ادّعى أن تشبّه الرجال بالنساء في العروض والمسرحيات العاشورائية أحد ألوان المحرّم في مراسم العزاء، إلا أن الحلّي أجاب عنه بأنّ حرمة التشبّه الواردة في الشرع لا تعني مطلق أنواع التشبّه من الطرفين، وإنما أن يترك الرجل زيَّ الرجال ويسلك سلوك النساء وتصرّفاتهنّ، أو تتعامل المرأة بطبع رجولي وتبتعد عن طريقة تعاطي النساء، أما أن يرتدي شخصٌ لفترةٍ محدّدة لباس الجنس الآخر فلا دليل على حرمته، وقد اعتقد الحلي أن ادّعاء حرمة ذلك شرعاً خيانةٌ للشرع نفسه[٥]، ثم يذكر أنه وخلال الخمسين عاماً الماضية التي راج فيها أسلوب التشبيه لم يَرَ هو نفسه أيّ امرأة ترتدي لباس الرجال وأيّ رجل يرتدي لباس النساء[٦].

---

(١) الشعائر الحسينية: ١٥٠.
(٢) المصدر نفسه: ١٥١ ـ ١٥٧.
(٣) المصدر نفسه: ١٥٩ ـ ١٦٢.
(٤) المصدر نفسه: ١٧٠.
(٥) المصدر نفسه: ١٧٩.
(٦) المصدر نفسه: ١٨٠.

النقد الآخر كان حول قضية صوت المرأة؛ حيث ذهب الأمين إلى أنّ أصوات النساء في حضور الرجال الأجانب محرّمة؛ لأنّ أصواتهنّ عورة[١]، وهذا ما أثار تعجّب الحلي، حيث رأى أنّه لا يعلم ولا حتى المنجّم يدري في أيّ كتاب أو سنّة كان صوت المرأة عورةً حتى نتصدّى للحديث عن معنى هذا النصّ؟ والذي يبدو من الكاتب ـ أي الأمين ـ أنّه عثر على حديثٍ أو على معقد إجماع أو قاعدة مستندة إلى الأخبار في هذا المجال، وإلا فما هو الوجه في تحريم صوت المرأة؟![٢].

كان كتاب الحلّي أنموذجاً لنقدٍ منهجيّ لفقيهٍ مدافع عن أشكال العزاء وأنواعها، من بينها التطبير، كُتب للردّ على محسن الأمين، وهو كتاب مفيد في فهم هذا النوع من القضايا وتقييم المنهج الفقهي فيها أخذاً أو ردّاً لمقولة التطبير.

على خط آخر، كتب ـ ثم نشر ـ السيد علي تقي النقوي النصيرآبادي كتاباً أسماه «إقامة العاثر في إقامة الشعائر»[٣]، كما كتب الشيخ عبد الله سبيتي العاملي «رنّة الأسى في تعظيم شعائر العزا»[٤]، وقد استند إلى فتاوى المجتهدين المعاصرين له لكي يجيب بأسلوب جاف وجارح على دعاوى السيد محسن الأمين واحدةً تلو الأخرى، مسجلاً عدة ملاحظات نقدية عليه، من بينها أن الأمين أهمل أموراً أكثر أهميةً من مراسم العزاء، كالجمعيات المسيحية التبشيرية والتوقف عن ممارسة وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٥].

كما ساهم شخصان من آل المظفّر في الموضوع، هما الشيخ محمد حسين آل المظفر في كتاب «الشعائر الحسينية»[٦]، والشيخ عبد المهدي المظفر في كتاب «إرشاد الأمة للتمسّك بالأئمة»[٧]، كما كان لعبد المهدي كتاب آخر في هذا المجال حمل عنوان «السياسة الدينية لدفع الشبهات على المظاهرات الحسينية» كان نشره

(١) جملة: «لأنّ صوتها عورة» جاءت في رسالة التنزيه، ولم ترد في «ثورة التنزيه».

(٢) الشعائر الحسينية: ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٣) معجم المطبوعات النجفية منذ دخول الطباعة إلى النجف وحتى الآن: ٨٨.

(٤) الذريعة ١١: ٢٥٤.

(٥) حركة الإصلاح الشيعي: ٣١٢.

(٦) الذريعة ١٤: ١٩١.

(٧) المصدر نفسه ١: ٥١٢.

في النجف[(١)]، كما كان هناك طالبٌ عاملي (لبناني) آخر كان يدرس في العراق، وهو محمد علي شرف الدين، نشر كتاباً أسماه «راية الحسين»، ناقداً فيه آراء السيد محسن الأمين: لماذا حرّم الأمين الشعائر الحسينية؟![(٢)].

على خط آخر في هذا الخضم، ألّف محمد كنجي المناصر للسيد محسن الأمين كتاباً أسماه: «كشف التمويه عن رسالة التنـزيه»[(٣)] ونشره في مدينة النجف، رابطاً بين قضية الأمين وقضية سابقة كان طرحها العالم الشيعي المصلح هبة الدين الشهرستاني، وتتعلّق بنقل أجساد الموتى إلى النجف[(٤)]، وإلى جانب تركيزه على المكانة العلمية والسجل العملي للأمين، نقل كنجي فتاوى العلماء السابقين التي تصوّب حكم الأمين[(٥)]. كما صدر في دمشق عام ١٣٤٧هـ كتاب آخر يدافع عن السيد محسن الأمين، كتبه الشيخ علي الجمّال تحت اسم: «دفع التمويه عن رسالة التنـزيه في أعمال الشبيه»[(٦)]، لكن نظراً لعدم شهرة المؤلف ومحلّ النشر لم يتم تداول هذا الكتاب كثيراً[(٧)].

ولم تقف هذه المساجلات الكتابية عند تأليف الكتب والمصنفات، بل تعدّتها إلى مجال النشريات، فكتبت مقالات بهذا الصدد، إلا أنّ أهم نشرية كانت فعالةً بهذا الخصوص، وكان رئيس تحريرها بنفسه من مناصري حركة الإصلاح، كانت مجلّة العرفان، فقد كان أحمد عارف الزين، مدير هذه المجلّة، في الخط نفسه الذي كان فيه الأمين معلناً مناصرته له جهاداً، إلا أنه مع ذلك فتح صفحات مجلّته للطرفين معاً، واستقبل مقالاتهما في هذا الخصوص، وهنا وصلت مقالة من جعفر نقدي ـ أحد المجتهدين ـ إلى المجلّة، حملت عنوان «المنابر الحسينية»، وقد نشرت المقالة التي لم تردّ بشكل مباشر على دعاوى السيد الأمين، بل استبدلت ذلك بالردّ على جهل بعض

---

(١) حركة الإصلاح الشيعي: ٣١٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) معجم المطبوعات النجفية: ٢٨٤.
(٤) حركة الإصلاح الشيعي: ٣١٢.
(٥) المصدر نفسه: ٣١١.
(٦) الذريعة ٨: ٢٢٨.
(٧) حركة الإصلاح الشيعي: ٣١٣.

الوعاظ وأهل المنبر، وهنا أرسل مهدي الحجار، وهو من أنصار السيّد أبي الحسن الإصفهاني، الذي كان مقيماً في البصرة، أرسل قصيدةً في الدفاع عن الأمين، ونُشرت في مجلّة العرفان[(١)]، وفي الوقت عينه طبعت في مجلّة العرفان ـ وقبل ذلك في إحدى المجلات المصرية ـ فتوى العالم الإيراني محمد تقي الإصفهاني، وفي هذه الفتوى ودون إشارة إلى السيد محسن الأمين، انتقد الإصفهاني ألوان العزاء السائدة، وأعمالاً مثل ضرب الذات وجلدها واصفاً إياها بالأعمال الوحشية، حاكماً بحرمة أعمال مثل التشبيه وأمثاله[(٢)].

## وصول التصادم إلى الجماهير

وتعدّى الأمر حدود الأبحاث العلمية والكتابية ليصل إلى الأسواق والشوارع، ولتبلغه عامة الناس، وتدريجياً اشتدّ الأمر، وخرج عن أيدي الطلاب وفضلاء النجف ولبنان، ليصل حدّ التجريح والتهديد وإرسال الرسائل الخالية من التوقيعات و.. فسكّان منطقة النبطية في لبنان انقسموا إلى فريقين: فريق مدافع عن السيد محسن الأمين وآخر مخالف له، أجادوا (!!) في إقامة مراسم العزاء والأعمال التي حرّمها الأمين.. وشيئاً فشيئاً بعد ذلك استبدل الشعار المعروف «لعن الله من ظلمك يا أبا عبد الله» ليحلّ مكانه بيتٌ من الشعر للشيخ عبد الحسين صادق صاحب كتاب سيماء الصلحاء في نقد كتاب التنـزيه وهو:

لعن الله أناساً حرّموا نَدْبَ الحسين[(٣)]

لقد كان الشعر حربةً جيدة لضرب الخصم، فحفظه عند الناس أسهل من الاستدلالات الصعبة أو الروايات، وفي النهاية، أنشد عبد الحسين صادق ـ الخصم القديم لمحسن الأمين ـ أبياتاً تعليمية من الشعر وأشاعها في أوساط عامة الناس:

ترى إقامة العزاء بدعةً جديدة يأبى الهدى تجديدها
أما درت أنّ النبي سنّها لعمّه مستحسناً فريدها

---

(١) المصدر نفسه: ٣١٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣)وقد أصدر أنصار محسن الأمين مطلعاً آخر في الجواب، جاء فيه (ثورة التنـزيه: ٥٣):

ألا ترى به صحاح جمّة لا يجهل ابن سنّه ورودها

وفي أشعار أخرى يقارن عبد الحسين الخطوات التي أقدم عليها الأمين بتلك التي أقدم عليها الوهابيون في مراقد البقيع، بل يراه أسوأ منهم:

فما المعوّل النجدي أدهى مصيبةً من القلم الجاري بمنع المآتم
كلا ذين هدّام لما شاد أحمد ولكن يراع المنع أكبرها دم

وحتى عندما زوّج عبد الحسين صادق ابنته، استفاد من هذه الفرصة وأنشد قصيدةً قدّمها لصهره، معرّضاً بنظر محسن الأمين، بالقول:

فارشف من شفتيه اللما وأحظى من تفاهة الوجنتين
تجدني إذن تاركاً مذهبي كمن سنّ تحريم ندب حسيني

وقد قيل: إنه بعد مرور قرابة القرن على هذه الأحداث ما تزال هذه الأشعار دائرةً على ألسن بعض شيعة جبل عامل[1]، وهذا النوع من المواجهة كان رائجاً في العراق أيضاً، فقد أهان أحد المنبريين المشهورين وقراء العزاء المقتدرين النافذين، وهو صالح علي، من على المنبر السيدَ محسن الأمين والسيد أبا الحسن الإصفهاني، فأنشد يقول:

يا راكباً أما مررت بجلّق فابصق بوجه أمينها المتزندق[2]

وشبّه السيد محسن الأمين أحياناً بغاصب الخلافة الذي أمر بقتل الإمامعليه السلام، وبمخالف التشيّع أحياناً أخرى، وبالقائل بحرمة العزاء على أهل البيتعليهم السلام ثالثة، وربما لقّب بسيّد الأمويين[3]، كما أن السقائين كانوا يدورون في الشوارع وينادون: «لعن الله حرملة! بل لعن الله الأمين»[4].

إنه لمن غرائب الدهر أن يُتهم شخصٌ ـ كذباً ـ بتحريم العزاء وهو الذي وقف في مقابل أهل السنّة والوهابيين يدافع عن مشروعية العزاء في كتبه التي كتبها، وقدّم كتاب المجالس السنيّة لتصفية كتب العزاء والمقاتل من الأخبار الكاذبة، وأن يصبح

(١) وقد المصدر نفسه.
(٢) نفسه: ٣١٩؛ وجلّق في جنوب دمشق، والأمين كان من سكّان دمشق.
(٣) انظر في ذلك: سيد العلويين وسيد الأمويين، في ثورة التنـزيه: ٥٧.
(٤) حركة الإصلاح الشيعي: ٣١٩.

عرضةً للهجوم الشامل والواسع في المجتمعات الدينية في العراق ولبنان؛ فكتُبه شاهدٌ على حسن نيّته وصدقه وصحّة ما أقدم عليه، فلم يكن سوى بصدد تصفية المآتم الحسينية وتنقيتها من الأكاذيب والتحريفات والأعمال التي كان يراها ـ مع كثير ممّن قبله ـ من البدع.

إنّ صعوبة عمل محسن الأمين كانت أنه كان مضطراً في وقتٍ واحد أن يحارب على جهتين؛ ففي الوقت الذي كان فيه مخالفاً للبدع الرائجة في العزاء، كان مدافعاً عن العزاء أمام النقّاد من أهل السنّة، فقد كتب ـ على سبيل المثال ـ كتاب «كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب» في نقد آراء الوهابية ودفع شبهاتهم، والدفاع عن شرعية بعض المراسم الدينية التي صنّفها الوهابيون شركاً[١]، وكذلك صنّف كتاب «الحصون المنيعة في الردّ على صاحب المنار» منتقداً محمد رشيد رضا الذي انتقد بدوره الشيعة[٢]، مع ذلك فقد اتهم بالزندقة وفساد العقيدة وانعدام التديّن، وكان يُلعن على الملأ العام وتكال ألوان الفحش في حقّه، وقد ساهم الكثيرون بسكوتهم في إشاعة هذا الجوّ، والأكثر عجباً أنّ هذه التجربة ما زالت تتكرّر مراراً، ويتهم الأشخاص الأكثر تحرّقاً على الدين بأنهم لا دين لهم.

مع ذلك كلّه، فالمناقشات التي حصلت لم تسفر في نهاية المطاف إلى اتفاق على أنواع العزاء المجاز، وكان يُرى أنّ هذه القضية في يد أصحاب الفتوى الذين يفصلون فيها ويوضحون وظيفة عامّة الشيعة بشأنها.

## فتاوى المظاهر العزائية، المشكلات والمآزق

رغم ما يبدو من أنّ فتاوى مراجع التقليد هي التي تحدّد في نهاية المطاف وبشكل حاسم وظيفة المكلّف كما تحدّد شرعية الفعل وعدمها، إلا أنّ الأمر لم يكن كذلك من الناحية العمليّة؛ فالفتاوى المختلفة زادت المسألة صعوبةً وتعقيداً، فحيث كانت أنواع العزاء المختلف حولها ظاهرةً جديدة، لم يمضِ زمنٌ طويل على نفوذها

(١) الذريعة ١٨: ٩.

(٢) حركة الإصلاح الشيعي: ٣٢٠.

في البلدان التي يقطنها الشيعة، كانت الفتاوى المتصلة بها جديدةً أيضاً، ومع ذلك كانت لهذه الفتاوى مشاكلها الخاصّة.

**المشكلة الأولى** أنّ الكثير من هذه الفتاوى كانت خطّيةً لم ينلها العموم من الناس ولم يصلوا إليها، وهذا ما أدى في نهاية الأمر إلى ادّعاء بعض الأفراد وجود فتوى لديهم لا اطلاع للآخرين عليها، فينسبونها إلى هذا العالم أو ذاك ممّا لا يجعل هناك إمكانيةً للتثبت من صحّة هذا الادعاء وسقمه، وقد أدّى ذلك إلى أن ينسب الموافقون والمخالفون لبعض أنواع العزاء فتوى تنسجم معهم إلى أحد المراجع، كما رأينا في مضمون فتاوى بعض المراجع الكبار، مثل الميرزا القمي، والشيخ الأنصاري، كيف كانت موافقةً ومخالفة لرأي السيد محسن الأمين، وهذا الاختلاف كان بارزاً واضحاً فيما يتعلّق بفتوى السيد أبي الحسن الإصفهاني، فقد أصدر ـ مقارناً لنشاطات الأمين الإصلاحية ـ فتوى حول العزاء فهمها بعضهم نصرةً للأمين، فيما فهمها بعضٌ آخر إضراراً به وتأييداً للعزاء، فقد كتب حسن المظفر في كتابه «نصرة المظلوم» أنّ السيد أبا الحسن الإصفهاني أصدر فتوى أباح فيها مختلف ما يتعلّق بالشعائر[1]، أما صاحب كتاب «إقالة العاثر» فنفى نسبة التحريم إلى الإصفهاني، ذاكراً أن بعض الكتّاب نسب إليه التحليل[2]، وهو ما يدلّل على أنه لم يرَه، وقد كان رباني خلخالي واحداً من الذين حكموا بإباحة التطبير وسائر الأعمال المماثلة له[3].

على خطّ آخر، كان لمعارضي التطبير وجهة نظر أخرى، فعلى حدّ قول جعفر الخليلي: إنّ الإصفهاني أصدر فتوى مضمونها: «إنّ استعمال السيوف والسلاسل والطبول والأبواق، وما يجري اليوم أمثاله في مواكب العزاء بيوم عاشوراء إنما هو محرّم وهو غير شرعي»[4]. ولم تقتصر هذه المشكلة على السيد أبي الحسن الإصفهاني، بل واجهت آخرين مثل الشيخ مرتضى الأنصاري أيضاً.

---

(١) المصدر نفسه: ٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عزاداري از ديدكاه مرجعيت شيعه: ٩٦.

(٤) ثورة التنزيه: ٥٩؛ ودائرة المعارف تشيّع ٢: ٥٣١.

**المشكلة الأخرى** التي طاولت الفتاوى، كانت انعدام وجود سوابق لها، فأحد التفسيرات المعقولة المناسبة لنسبة فتاوى متعدّدة ومتضادّة إلى بعض المراجع هو ما قيل من أنهم أصدروا فتوى في مجال معيّن، ثم ونتيجة مرور الزمان أو تغيّر وجهة نظرهم أصدروا فتوى أخرى، وعلى سبيل المثال تجربة السيد أبي الحسن الإصفهاني الذي أصدر فتوى موافقة للعزاء أيام أحداث البصرة، إلا أنه وعقب نشر رسالة السيد محسن الأمين أصدر فتوى بالتحريم(١)، إنّ مثل هذا التفسير رغم أنه يبدو منطقياً إلا أنه بحاجة إلى شواهد حاسمة لظروف وخلفيّات هذه الفتاوى، وهو ما يبدو صعباً سيما فيما يتعلّق بفتاوى القرن الماضي.

**المعضلة الثالثة** التي واجهتها الفتاوى كانت التعقيد والإبهام الداخلي والقيود والاستثناءات التي اشتملتها بعض هذه الفتاوى، فإنّ هذه الأمور هيأت مناخاً مناسباً لظهور تفسيرات متعارضة لها، وهذه المعضلة نجدها جيّداً في فتوى كاشف الغطاء؛ ففي جوابه على طلب شيعة أهل البصرة منه إصدار فتوى حول العزاء، أجابهم بأنّ إقامة مراسم العزاء لتعظيم الشعائر الجعفرية مباح، وإذا لم يكن مستحباً فليس حراماً، إلا أنه لابد من الاجتناب عن استخدام الأدوات الموسيقية فيها حتى لا يكون ذلك سبباً للنقد على الشيعة، والذي يبدو أنّ هذه الفتوى لم تحلّ العُقد الموجودة فيها؛ لذا كرّر أهل البصرة طلبهم بإصدار فتوى أكثر وضوحاً، فكانت الفتوى الثانية التي حكمت بالإباحة، مضيفةً إليها نصيحتين إلى أهل البصرة هما: تصفية هيئات العزاء من كلّ ما يلحق الضرر بعظمتها والابتعاد عن المنازعات التي تُضعف الشيعة، إلا أنّ هذه الفتوى الثانية لم تكن مقنعةً أيضاً؛ لأنّ مسألة العزاء نفسها كانت أحد الأسباب التي قسمت شيعة البصرة وشيعة لبنان والعراق إلى فريقين؛ من هنا عاود المستفتون توجيه السؤال للمرّة الثالثة، فكانت الفتوى الثالثة المفصّلة المرفقة بالأدلّة، إلا أن النتيجة كانت كسابقاتها(٢)، لم تُضف على حيرة الناس إلا الحيرة(٣).

**الأزمة الرابعة** التي رافقت هذه الفتاوى، لم تكن فيها نفسها، وإنما في طريقة

---

(١) حركة الإصلاح الشيعي: ٣٠٧.

(٢) وقد جاءت هذه الفتوى في كتاب: الآيات البيّنات في قمع البدع والضلالات، لمحمد حسين آل كاشف الغطاء، النجف، علوية، ١٣٤٥هـ؛ ومعجم المطبوعات النجفية: ١٠٢ ـ ١٠٣؛ والذريعة ١: ٤٦.

(٣) حركة الإصلاح الشيعي: ٣٠٧.

تجميعها، فهذا الأمر أحدث اصطفافات حادّة وضاعف من الانشقاقات بدل أن يحلّها، إنّ المجموعات التي هيّئت في هذا المجال لم تكن - في العمدة - بقصد التحقيق أو ممارسة عمل علمي مدرسي، وإنما لإرشاد الناس ودفعهم لتبنّي موقف، وفي نهاية الأمر كان يُسعى أن تكون الفتاوى المجموعة ذات موقف واحد، فبرؤية إحدى هذه المجموعات يغدو القارئ جاهلاً بواقع الأمر وما يخطّط خلف السُتر؛ حيث يتصوّر أنّ المسألة وكأنها إجماعية وأنه لا يوجد أيّ رأي مخالف فيها، ولكي نطلّ على نماذج من هذه المجموعات، نذكر أربعاً منها ونعرّفها ونمرّ عليها سريعاً:

## نماذج من المجموعات الفتوائية حول العزاء الحسيني

**المجموعة الأولى**: وهي مجموعة مختصرة باسم «فتاوى العلماء الأعلام في تشجيع الشعائر الحسينية»[1]، وقد أكّد جامع هذه المجموعة أن الفتاوى التي من هذا القبيل أكثر ممّا هو موجود في هذا الكتاب، كما ذكر ستاً وعشرين فتوى موافقة لأنواع العزاء، وبعض هذه الفتاوى مفصّل وبعضها مختصر موجز، وأصحاب الفتاوى في هذه المجموعة هم على الترتيب: محمد حسين النائيني، السيد عبد الهادي الشيرازي، السيد محسن الحكيم، السيد أبو القاسم الخوئي، السيد محمود الشاهرودي، الشيخ محمد حسن المظفر، السيد حسين الحمامي، الشيخ محمد حسين آل كشف الغطاء، الشيخ كاظم الشيرازي، السيد جمال الدين الكلبايكاني، السيد علي مدد الموسوي القايني، السيد محمد الشيرازي، السيد عبد الله الشيرازي، السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، السيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي، السيد علي الطباطبائي التبريزي، الشيخ عبد الرسول آل صاحب الجواهر، الشيخ محمد رضا الطبسي، محمد علي سيبويه الحائري، السيد مرتضى الفيروزآبادي، والسيد علي الحسيني الفاني. وقد نقلت أحياناً عن واحدٍ منهم فتوَيان، كما أنّ هذه الشخصيات لم تكن من طبقة علمية واحدة.

**المجموعة الثانية**: كتاب «عزاداري از ديدكاه مرجعيت شيعه/العزاء من وجهة نظر المرجعية الشيعية»[2]، والتي أعدّها علي رباني خلخالي، وقد ترجمت إلى

(١) هذا الكرّاس من الحجم الجيبي، وفي ٤٠ صفحة، وليست فيه مشخصات واضحة.
(٢) وهو في ١٢٨ صفحة، مرفقاً بصور خطّية للفتاوى.

اللغة الفارسية هنا كلّ الفتاوى التي كانت موجودةً في كتاب «فتاوى العلماء» المتقدّم، رغم أن أخطاء وقعت في ذلك، فجاء من حيث المجموع غير مناسب، وإضافةً إلى ذلك رأينا في هذا الكتاب فتاوى لكلّ من: محمد باقر الآشتياني، السيد أحمد الخوانساري، السيد محمد صادق الروحاني، ويحيى النوري. كما أن معدّ الكتاب ذكر أسماء ١٥٠ عالماً موافقاً للعزاء دون أن يذكر نصّ فتاواهم وإنما أرجع في ذلك إلى كتاب «المواكب الحسينية»، وبعض هذه الأسماء التي ذكرها مكرّر، أما غير المكرّر منها فالمعروف منها: الآخوند الخراساني، الشيخ مرتضى الأنصاري، الشيخ محمد جواد البلاغي، الميرزا حسين النوري، الشيخ عبد الكريم الحائري، ومحمد حسن النجفي صاحب الجواهر.

وهاتان المجموعتان تتجهان ضمن خطّ واحد يقضي بوحدة نظر علماء الشيعة في تجويز العزاء، على خلاف المجموعات الآتية.

**المجموعة الثالثة**: وتقوم هذه المجموعة على تحريم التطبير، وتُطلّنا على الوجه الآخر للعملة النقدية، وفي هذه المجموعة جاءت بيانات عدّة للإمام الخميني وسماحة نائب الإمام آية الله العظمى الخامنئي، والأعضاء المحترمين في جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية في مدينة قم، حول التطبير في عاشوراء[(١)].

وتحتوي هذه المجموعة قسمين:

القسم الأول: وجاء فيه بعضٌ من الكلمة المعروفة لآية الله الخامنئي حول التطبير، وهي الكلمة التي أدّت إلى تحريم هذا الفعل ومنعه [في إيران]، كما جاء فيه أيضاً فصلٌ قصير تحت عنوان: «تبعات بهداشتي ورواني قمه زنى/الآثار الصحّية والنفسية للتطبير»، وكذلك قسمٌ من أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين، والذي هو في الحقيقة عين رسالة التنزيه في أعمال الشبيه، وأيضاً جواب آية الله الخامنئي على رسالة السيد المروّج، إمام جمعة أردبيل حول تبعية أهالي أردبيل لذلك.

القسم الثاني: وجاء فيه استفتاءٌ للإمام الخميني، وخمسة استفتاءات للسيد علي الخامنئي، بعد ذلك أورد رسالةً من فضلاء حوزة مدينة قم إلى أعضاء جماعة المدرّسين حول ما أعلن بالنسبة إلى أنواع العزاء، وأعمال من نوع: التطبير، وضع

---

(١) وهذه المجموعة طبعتها إدارة الإرشاد الإسلامي، قم، في ٥٢ صفحة، بلا تاريخ.

الأقفال على الأبدان، جرح وإدماء الرأس والوجه، جرح الصدر وخدشه للذهاب إلى الزيارة وأمثال ذلك[١].

ومع الإشارة في هذه الرسالة إلى النتائج المترتبة على هذه الأعمال في العصر الراهن ما يفرض في النهاية تنحيتها جانباً، جاء أيضاً أنّ طلب السيد الخامنئي ترك هذه الأعمال مؤخراً جاء بعد أن استشار أعضاء جماعة المدرّسين في قم وأخذ وجهات نظرهم.

وفي جواب هذه الرسالة، جاء ذكر ٢٥ فتوى وجواب قصير لكلّ من السادة: علي أحمدي ميانجي، ورضا أستادي، ومحمد المؤمن، وإبراهيم الأميني، وعبد الله جوادي آملي، ومحسن الخرازي، وأحمد جنتي، ومحسن حرم بناهي، ومهدي الحسيني الروحاني، ومحمد علي شرعي، وحسين راستي الكاشاني، وجعفر كريمي، ومرتضى مقتدائي، وأبو القاسم خزعلي، ومحمد محمدي الجيلاني، وعلي أكبر المسعودي الخميني، وعلي المشكيني، وأحمد آذري القمي، وحسين مظاهري، ومحمد اليزدي، ومسلم ملكوتي، وحسن الطهراني، وعباس محفوظي، ومحمد أبطحي، وأبو الفضل الموسوي التبريزي.

**المجموعة الرابعة:** وهي «كلمات وبيانات قائد الثورة الإسلامية واستفتاءات لآيات الله حول العزاء العاشورائي» وتقع في ٧١ صفحة؛ وتحتوي هذه المجموعة على فتاوى من ذكرناهم آنفاً في المجموعة السابقة، إضافةً إلى فتوى مكتب آية الله الأراكي القاضية بحرمة هذا العمل[٢]، وإضافةً إلى ذلك ليس فيها سوى بعض البيانات.

## مقارنات بين الفتاوى العزائية

وتشبه هذه المجموعة سابقتها من جهتين:

الأولى: وجود مجموعة فتاوى منسجمة مع بعضها في خط واحد، إلى حدّ وكأنه لا خلاف في الحكم بالحرمة.

الثانية: في المجموعة الأولى هناك فتوى محورية مركزية، وسائر الفتاوى

---

(١) المصدر نفسه: ٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ٣٧.

إنما جاءت لتأييد تلك الفتوى، وهذه المجموعة أيضاً كذلك؛ فهناك كانت الفتوى التاريخية والمفصلية لآية الله النائيني التي صدرت جواباً لأهل البصرة عام ١٣٤٥هـ وفيها أعلن إباحة مختلف أنواع العزاء بما فيها التطبير؛ وأغلب الفتاوى اللاحقة إنما جاءت تأييداً لهذه الفتوى، وقد اكتفى بعض الفقهاء في فتواهم بالقول: إنّ ما قاله شيخنا النائيني ـ أعلى الله مقامه ـ صحيح شرعاً أو مطابق لرأينا[1]، وفي هذه المجموعة الأخيرة كانت الفتوى المركزيّة عبارة عن خطاب آية الله الخامنئي عام ١٣٧٣ش/١٩٩٤م، فيما جاءت سائر الفتاوى الموجودة الأخيرة عقب طلب الاطلاع من أعضاء جامعة المدرّسين في حوزة قم، وكانت في العمدة تأييداً لمحتوى خطاب الخامنئي، وأغلب المفتين ذكروا مضمون هذه الجملة: «إطاعة أحكام الوليّ الفقيه واجبة»[2].

وإذا تخطّينا هذين التشابهين الأساسيين، وجدنا أنّ بين المجموعتين اختلافاً حاداً في الرأي ووجهات النظر وشكل الاستدلال، كما أنّ المفردات التي استخدمها الطرفان تنبؤ عن مناخين متمايزين؛ وعليه فالرجوع إلى الفتاوى ليس حلاً للمشكلة، ففي مقابل مثل السيد محسن الأمين الذي يحرّم الصنوج والدمّام، نجد المامقاني يميل إلى الوجوب الكفائي لمثل هذه الشعائر، حتى أنّه يؤيد إشعال النيران والدخول فيها ممّا يقوم به بعض شيعة الهند[3]. إنّ صعوبة هذا الانشقاق في الرأي تكمن في عدم إمكانية إحالة كلّ مكلّف إلى مرجعه، فمثل هذه الموضوعات لم يعد يمكن النظر إليه بوصفه مسائل فرعية وفردية، فدورها الاجتماعي يمنع عن هذا التعاطي معها.

إنّ محتوى هذه الفتاوى وبنائها الداخلي مختلفٌ أيضاً، فبعضها مختصر موجز مغلق ومجمل وبعضها الآخر مبسوط ومفصّل ودقيق، بعضها يبيح أصل العزاء وتعظيم الشعائر الحسينية، بل يراها مستحبّةً وينأى بنفسه عن تعيين مصاديقها، فيما بعضها الآخر ـ مثل فتوى النائيني ـ يبيّن مختلف أنواع العزاء السائدة والمتداولة، نعم، بعضها فني فقهيّ دقيق وبعضها الآخر مجرّد إرجاع لغوي

---

(١) فتاوى العلماء الأعلام: ١٠ ـ ١٤.

(٢) بيانات حضرت إمام خميني..: ٢٩.

(٣) فتاوى العلماء الأعلام: ١٥.

دون دخول في أيّ شأن فقهي، على سبيل المثال وجّه إلى آية الله السيد أحمد الخوانساري سؤال: «ما هو نظر جنابكم في إقامة الشعائر الحسينية وفتوى آية الله النائيني؟!»، فكان الجواب: «إنّ موضوع إقامة الشعائر الحسينية أوضح من النهار، وكالشمس الساطعة في وسط السماء، ولا حاجة فيه إلى الكتابة»[1]، فإنّ هذا الجواب ـ على رغم الجمال الأدبي الذي فيه ـ لا يبيّن حكماً فقهياً، بل يمتنع عن إبداء رأي، وكأنه لا جواب عن هذا السؤال، ذلك أنه لا مناقشات في الموضوع، وإنما الدعوى على الحكم.

وفي مقابل هذه الفتوى كانت فتوى الميرزا النائيني؛ حيث فصّلت في مواضع الخلاف، وجعلت البحث في نقاط أربع، معيّنةً حكم كل منها، وهذا نصّ الفتوى: «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى البصرة وما والاها، بعد السلام على إخواننا الأماجد العظام، أهالي القطر البصري، ورحمة الله وبركاته. قد تواردت علينا في (الكرّادة الشرقية)، برقيّاتكم وكتبكم المتضمّنة للسؤال عن حكم المواكب العزائية وما يتعلّق بها؛ إذ رجعنا بحمده سبحانه إلى النجف الأشرف سالمين، فها نحن نحرّر الجواب عن تلك السؤالات، ببيان مسائل:

**الأولى**: خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرق والشوارع مما لا شبهة في جوازه ورجحانه، وكونه من أظهر مصاديق ما يقام به عزاء المظلوم، وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب وبعيد. لكن اللازم تنزيه هذا الشعار العظيم عما لا يليق بعبادة مثله من غناء أو استعمال آلات اللهو، والتدافع في التقدّم والتأخر بين أهل محلّتين، ونحو ذلك. ولو اتفق شيء من ذلك، فذلك الحرام الواقع في البين هو المحرّم، ولا تسري حرمته إلى الموكب العزائي، ويكون كالنظر إلى الأجنبية حال الصلاة في عدم بطلانها.

**الثانية**: لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور حدّ الاحمرار والاسوداد، بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضاً على الأكتاف والظهور إلى الحدّ المذكور، بل وإن تأدى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى. وأما إخراج الدم من الناصية بالسيوف والقامات، فالأقوى جواز ما كان ضرره مأموناً،

---

(١) عزاداري از ديدكاه مرجعيت شيعه: ٧١ ـ ٧٢.

وكان من مجرّد إخراج الدم من الناصية بلا صدمة على عظمها، ولا يتعقّب عادةً بخروج ما يضرّ خروجه من الدم، ونحو ذلك، كما يعرفه المتدرّبون العارفون بكيفية الضرب، ولو كان عند الضرب مأموناً ضرره بحسب العادة، ولكن اتفق خروج الدم قدر ما يضرّ خروجه، ثم يكون ذلك موجباً لحرمته، ويكون كمن توضأ أو اغتسل أو صام آمناً من ضرره، ثم تبيّن ضرره منه. لكن الأولى ـ بل الأحوط ـ أن لا يقتحمه غير العارفين المتدرّبين، ولا سيما الشبّان الذين لا يبالون بما يوردون على أنفسهم لعظم المصيبة وامتلاء قلوبهم من المحبّة الحسينية، ثبّتهم الله تعالى بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

**الثالثة**: الظاهر عدم الإشكال في جواز التشبيهات والتمثيلات التي جرت عادة الشيعة الإمامية باتخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون، وإن تضمّنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى؛ فإنّا وإن كنا مستشكلين سابقاً في جوازه وقيّدنا جواز التمثيل في الفتوى الصادرة منّا قبل أربع سنوات، لكنا لمّا راجعنا المسألة ثانياً اتضح عندنا أنّ المحرم من تشبيه الرجل بالمرأة هو ما كان خروجاً عن زيّ الرجال رأساً، وأخذاً بزيّ النساء، دونما إذا تلبّس بملابسها مقداراً من الزمان بلا تبديلٍ لزيّه، كما هو الحال في هذه التشبيهات. وقد استدركنا ذلك أخيراً في حواشينا على العروة الوثقى. نعم يلزم تنزيهها أيضاً عن المحرّمات الشرعية، وإن كانت على فرض وقوعها لا تسري حرمتها إلى التشبيه، كما تقدم.

**الرابعة**: الدمّام المستعمل في هذه المواكب مما لم يتحقّق لنا إلى الآن حقيقته؛ فإن كان مورد استعماله هو إقامة العزاء وعند طلب الاجتماع وتنبيه الراكب على الركوب وفي الهوسات العربية(١) ونحو ذلك، ولا يستعمل فيما يطلب فيه اللهو والسرور، كما هو المعروف عندنا في النجف الأشرف، فالظاهر جوازه، والله العالم.

٥ ربيع الأول، سنة ١٣٤٥هـ

حرّره الأحقر محمد حسين الغروي النائيني»(٢).

وعلى هذا الأساس، غدت هذه الفتوى محلّ تأييد الكثير من العلماء فيما بعد، فقد أوضحت المسؤولية إزاء كلّ نوع من أنواع العزاء التي كانت سائدةً آنذاك،

---

(١) الهوسات العربيّة: نوع من القفز الذي قد يحصل في العزاء وقد يحصل في الأفراح.

(٢) فتاوى العلماء الأعلام: ٦ ـ ٧.

لتحكم في النهاية بإباحتها، من هنا وقعت على طرف النقيض تماماً من آراء مثل السيد محسن الأمين.

وهنا إذا نظرنا بشكل كمي وكيفي إلى هاتين الفتويين، يبدو لنا أنّ الاعتبار العلمي للفتاوى المجيزة وقيمتها ووزنها وحجمها وشكل الاستدلال فيها والأهمّ الشخصيات التي أصدرتها كان أكبر منه في فتاوى التحريم، فإذا ما غضضنا الطرف عن بعض فتاوى التحريم فإن أغلب علماء الشيعة إما قائلون هنا بالجواز أو أنهم يفضّلون السكوت مما يجعلهم يمضون الجواز من الناحية العملية، وفقط في السنوات الأخيرة ظهر رأي التحريم وبدأ بالتبلور، انطلاقاً من قضايا خارجية، وأبعاد سياسية واجتماعية في المسألة، وفي الوقت عينه نجد بعض الفتاوى التي بدت محتاطةً جداً وقلّلت من استخدام المصطلحات الفقهية والفتوائية، مثل جواب الاستفتاء حول التطبير الذي ذكره آية الله جواد التبريزي، حيث قال: «إنّ العزاء على خامس آل العبا من أهم الشعائر الدينية ورمز بقاء التشيّع، إلا أنه يلزم على المعزين الأعزاء الاجتناب عن كلّ ما يوجب وهن المذهب واستغلال أعداء الإسلام وأهل البيت استغلالاً سيئاً»[١].

وفي حالة كون هذا النص عين الفتوى لا يبدو أنّ بإمكان المقلّدين الاستفادة منه؛ ذلك أن القضية الأساس تكمن في أن التطبير موهنٌ أم لا؟ فهناك من يرى أنّ هذا العمل يوجب وهن الشيعة ويعدّ أداةً للدعاية ضدّهم، فيما يرى فريق آخر مدافع عن التطبير أنه وسيلةٌ لعزّة الشيعة وأنه يمرّغ وجوه أعداء التشيّع، وهنا ينبغي على المقلّد أن يمارس بنفسه اجتهاداً أو يبقى حيراناً.

وفي نهاية الأمر، لا يمكن ـ بمعونة هذه الفتاوى المتعارضة ـ أن يتضح الموقف إزاء العزاء وأنواعه بشكل عام وكلّي، من هنا كان من اللازم بدل التوجّه ناحية الفتاوى، الاهتمام بالأسس والمنطلقات ودوافع الاستدلال عند الطرفين، ومحاولة حلّ

(١) الاستفتاءات: ٣٣٠، نقلاً عن مجموعة أسئلة طلاب الجامعات: أسئلة وأجوبة مختارة خاصة بمحرم، لمجموعة من المؤلّفين، قم، نشر معارف، ١٣٨٤ش/٢٠٠٥م.

المسألة على مستوى أعمق، والنظر إلى وجهة نظر الطرفين معاً ومطالعتها كذلك.

## حركة المصنفات الفكرية المتأخرة حول العزاء

إنّ الكتب التي صنّفت في هذا المضمار عديدة كما أنها لم تتناول الموضوع بمستوى واحد، فبعضها تناوله بقراءة فقهية؛ وبعضها الآخر استخدم منهجاً إقناعياً وترويجياً، وكمثال على ذلك كتاب «الشعائر الحسينية المنصوصة» للسيد محمد الترحيني العاملي، والذي سعى ـ اعتماداً على النصوص الروائية ـ لدراسة الموارد الخاصّة التي أشير إليها في الروايات وجرى تأييدها، معتبراً أنها حلال اعتماداً على ذلك، ففي هذا الكتاب عدّ كلاً من البكاء على الإمام الحسين عليه السلام، والتظاهر بالبكاء، والجزع، ولعن قاتلي الإمام الحسين بعد شرب الماء، الزيارة وإنشاد الشعر في رثائه.. من الشعائر الحسينية، لهذا بحثها ودرسها ثم أثبتها وجوّزها.

الكتاب الآخر للشيخ محمد سند، وهو «الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد»، فقد تابع هذا الكتاب منهج سابقه مختلفاً عنه اختلافاً طفيفاً في الطابع الإقناعي، وفي مواضع الاستدلال الأصولي، إنّ كاتب هذا الكتاب الذي يعدّ مجموعةً من محاضراته، وبعد بحثه في تنوّع الشعائر وطرح الإشكالات وردّها فيما يعود إلى الشعائر الحسينية، يستحضر عدداً من الروايات التي تؤيد هذه الشعائر، والأعمال التي يعتبرها صاحب الكتاب من الشعائر الحسينية عبارة عن: البكاء على الإمام الحسين عليه السلام، ورثائه، وإقامة المجالس ولبس السواد في مأتمه، والجدير بالذكر أنه أرفق بهذا الكتاب فتاوى الميرزا النائيني وموافقيه في أنواع المراسم العزائية، ومن بينها التطبير وضرب الرؤوس.

الكتاب الثالث هو «الدعوة الحسينية إلى مواهب الله السنية»، لمحمد باقر البهاري الهمداني، وبنيته مثل سابقيه، مع اختلاف في أنّ الكاتب حاول نقل الأحاديث والمستندات الروائية من مصادر أهل السنّة، مؤكّداً على أنّ البكاء على سيّد الشهداء ـ حتى من وجهة نظرهم ـ جائزٌ ومشروع.

أما كتاب «البكاء على سيّد الشهداء» لمرتضى آل سليس، فهو من الكتب التي

اختصّت بإثبات شرعية البكاء على شهداء كربلاء، أما رسالة «إرشاد العباد إلى استحباب لبس السواد على سيد الشهداء والأئمة الأمجاد» التي كتبها السيد جعفر الطباطبائي الحائري، فقد تابعت هذا الطريق كي تبرهن على أنّ لبس السواد ـ وهو المكروه في الأصل ـ يغدو مباحاً بل مستحباً في عزاء الأئمة عليهم السلام. كما أن كتاب «سنّت عزاداري ومنقبت خواني در تاريخ شيعة اماميه/ العزاء وقراءة المناقب في تاريخ الشيعة الإمامية»، حاول بدوره قراءة البكاء على الحسين ورثائه قراءةً تاريخية منذ البداية، كي يؤكّد أنّ هذا العمل لم يكن جديداً مستحدثاً.

وفي هذه الكتب كان الحديث عن القضايا الإشكالية ـ مثل التطبير ـ مغيّباً، فيما تركّز حول إثبات موضوعات باتت مسلّمةً اليوم بين الشيعة.

ومن الكتب المعدودة التي تناولت بصراحة وتفصيل المناسك السائدة اليوم في العزاء مدافعةً عنها، يمكن ذكر كتاب «الشعائر الحسينية»، المكتوب بكربلاء، والذي تعود مقدّمته إلى عام ١٣٨٤هـ أي قبل أربعين سنةً، يقوم المؤلّف السيد حسن الشيرازي ـ عبر عدّة فصول ـ بالدفاع عن الشعائر الحسينية، وهي: البكاء، التظاهر بالبكاء، إقامة المأتم، لبس السواد، شقّ الجيوب، اللطم على الصدور، ضرب الجسد بالسلاسل والجنازير، التشابيه والمسرحيات، والتطبير.. وهو يرى جواز هذه الأعمال برمّتها مثبتاً ذلك، ويعدّ هذا الكتاب ـ من حيث التبويب والتنظيم والأدلّة والدفاع عن هذه الأعمال وأمثالها ـ قليل النظير، وقلّما يمكن العثور على عمل وتصنيف يحظى بهذا المستوى والانسجام.

إنّ الذي يبدو لنا أنه وبدل البحث الكلّي في مسألة العزاء، والذي أخذ نطاقاً واسعاً اليوم وشمل أعمالاً كثيرة من إقامة المجالس العادية وحتى التطبير بل السير في النار ووضع الأقفال على الأبدان، كما وبدل طرح الأبحاث التي باتت موضوعاتها مسلّمةً.. من الأفضل الدخول إلى مفردات القضايا مورداً مورداً، واستخدام الطريقة الفقهية، مع تأسيس أصل فقهي كي يتقدّم الموضوع نحو الأمام، من هنا سنعمد إلى تناول موضوع واحد فقط من الموضوعات الساخنة الإشكالية، ألا وهو موضوع التطبير، لنرى أدلّة الموافقين والمخالفين له ونقوم بتشريحها وتحليلها.

## نظرية جواز التطبير، الأدلّة والشواهد

فيما يرى بعض الفقهاء صراحةً في القرن الماضي وإلى اليوم إباحة التطبير بل استحبابه، يذهب فريقٌ آخر من الفقهاء المعاصرين صراحةً أيضاً إلى تحريمه، واللازم هنا معرفة كيف يستدلّ المجوّزون؟ وما هي الأدلّة التي تقع في نفعهم؟

بمطالعة النصوص التي كتبها أنصار التطبير والإشارات التي ألمحوا إليها، يمكن الخروج بمجموعة أدلّة تقع لصالحهم، وهي:

١ـ أصالة الإباحة. ٢ـ فعل المعصوم. ٣ـ تقرير المعصوم. ٤ـ الروايات الخاصّة. ٥ـ الروايات العامّة. ٦ـ دليل لزوم تعظيم الشعائر.

ونسعى هنا لتناولها بالتفصيل على الشكل التالي:

### ١. أصالة الإباحة

يعدّ أصل الإباحة اليوم من مرتكزات عمل فقهاء الشيعة، التي يستندون إليها، وقد قامت عليه أدلّة العقل والنقل، ومضمون هذا الأصل ـ المبدأ: أنّ كل عمل يعدّ حلالاً جائزاً ما لم يتوفر لدينا دليل على خلاف ذلك فيه، وفي هذا الإطار خالف في ذلك الأخباريون فذهبوا إلى أصالة الحظر[١]، والمستند الشرعي لأصالة الإباحة هو الروايات المنقولة عن المعصومين عليهم السلام، مثل ما قيل عن الإمام الصادق عليه السلام: «كل شيء مطلق حتى يرد فيه نهي»[٢]، و «كل شيء هو لك حلال حتى تعلّم أنه حرام بعينه فتدعه من قبل نفسك»[٣].

وقد استند أنصار التطبير إلى مبدأ الإباحة فحكموا بالجواز، ومن باب المثال، فقد اعتمد على هذا المبدأ عبد الحسين العاملي في كتابه «سيماء الصلحاء»، وكان يقول: إنّ هذا العمل مباحٌ في الأصل، وقد يكون ـ نتيجة عوامل خارجية ـ مستحباً أو واجباً[٤]، كما أنّ السيد الشيرازي استدلّ بهذا الأصل أيضاً، حيث كتب يقول:

---

(١) الحيدري، أصول الاستنباط: ١٧٤.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه ١: ٣١٧.

(٣) الكافي ٥: ٣١٣.

(٤) ثورة التنزيه: ٣٣.

«التطبير على الإمام الحسينعليه السلام جائز ذاتاً، ومستحب عرضاً، ولا يناقش فيه الفقيه المتأمل والمتدبّر»[١].

بدوره، يستدلّ الفحام بعدم وجود دليل على حرمة ضرب الذات على جواز التطبير[٢]، أما السيد الشيرازي، فبعد نقله جملة من الحوادث والروايات التاريخية المتعدّدة المؤيدة للتطبير، يذكر تسعة أدلّة على جواز التطبير أوّلها مبدأ الإباحة، ومن وجهة نظره، لا يوجد دليل في النصوص الفقهية على حرمة جرح الإنسان نفسه، وعلى هذا الأساس تكون أصالة الإباحة محكّمة[٣].

## ٢. فعل المعصوم

ينقل المجلسي في بحار الأنوار أنّ الإمام زين العابدينعليه السلام عندما كان يأخذ ظرف الماء ليشرب كان يبكي كثيراً حتى تمتلئ عيونه دماً، وهذا الفعل حيث صدر من المعصومعليه السلام فسوف يكون مباحاً، فإذا كانت تدمية العينين وهما أهم وأظرف أعضاء البدن جائزةً فإنّ التطبير سوف يكون جائزاً بطريق أولى، طبقاً لقياس الأولوية[٤]، كما أنّه وطبقاً لروايات بعض الأئمة فإنهم كانوا يدمون أعينهم، مثل الإمام المهدي في زيارة الناحية، حيث يقول: «ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً»، كما أنّ الإمام الرضاعليه السلام يقول: «إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا»[٥].

## ٣. تقرير المعصوم

جاء في روايةٍ صحيحة أنّ زينب الكبرى ضربت جبهتها بخشبة المحمل عندما شاهدت في الكوفة رأس أخيها المقطوع على الرمح، ورأى ناظرون أنّ الدماء كانت تسيل من تحت مقنعتها[٦].

---

(١) الشعائر الحسينية: ١٠٩.

(٢) السيد محمد رضا الحسيني العرجي الفحّام، أحسن الجزاء في إقامة العزاء على سيد الشهداء ١: ٢٧٥.

(٣) الشعائر الحسينية: ١٢٦.

(٤) المصدر نفسه: ١٢٧؛ وراجع: الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي: ١١٦.

(٥) الشعائر الحسينية: ١٢٨؛ وراجع: الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي: ١٣٤.

(٦) أحسن الجزاء: ٢٧٥؛ والشعائر الحسينية: ١٢٨، وعندما سئل السيد محمد الشيرازي عن

وقد بُيّن هذا الدليل عبر طريقتين:

**الأولى**: إنّ زينب تربّت في أحضان الوحي، وهي على اطّلاع على مختلف أحكام الشرع، ولم تعصِ الله تعالى أبداً، وقد كانت إلى جانب المعصومين عليهم السلام، ونسبة الخلاف والمعصية إليها في حكم التجاسر على مقام المعصوم، من هنا فإذا قامت بعمل فيمكن استنباط الجواز من فعلها(١).

**الثانية**: إنّ هذا العمل كان في محضر الإمام السجاد المعصوم عليه السلام وعلى مرأى ومسمع منه، ولم يمنع عليه السلام عنه ولم يردع، وبهذا يكون قد أقرّه وأيّده، وتقرير المعصوم حجةٌ أيضاً، وعليه فالتطبير جائز(٢).

يوضع أحياناً في بعض الحسينيات والأمكنة التي تروج فيها ظاهرة التطبير بيتٌ من الشعر على الجدران، وهو عبارة عن رواية مبسّطة لهذا الدليل، ويقول هذا الشعر (ما ترجمته بالعربية):

لقد أعطى العشّاق فتوى بجواز كسر الرأس

وخشبة المحمل شاهدة على هذا الابتكار الزينبي

## ٤ . الروايات الخاصّة

حكم المعصومون عليهم السلام في بعض الروايات وبصراحة بجواز إدماء الوجه وشقّ الجيوب في عزاء الإمام الحسين عليه السلام، ففي حديثٍ موثق عن الإمام الصادق عليه السلام:

«... على مثل الحسين، فلتشقّ الجيوب ولتخمش الوجوه ولتلطم الخدود»، فإذا كان خمش الوجوه جائزاً فإنّ إدماء البدن جائز أيضاً(٣).

---

صحّة هذه الرواية كان يجيب: «ثابتٌ ذلك»، فانظر مجلّة المنبر، العدد ١٢: ١١، صفر ١٤٢٢هـ؛ وفتاوى كبار علماء الشيعة في جواز اللطم والضرب بالسلاسل والسيوف، نقلاً عن موقع البرهان: www.alborhan.com

(١) أحسن الجزاء: ٢٧٧.

(٢) الشعائر الحسينية: ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٧، وراجع أيضاً كلمات كاشف الغطاء في كتاب فتاوى العلماء الأعلام: ١٦؛ وكلمات آية الله السيد محمد وحيدي، في كتاب عزاداري از ديدكاه مرجعيت شيعه: ٩٣.

### ٥ . الروايات العامة

لقد أراد منّا المعصومون إبقاء ذكر الحسين وحادثة عاشوراء حيّةً، وهناك روايات متعدّدة حول ضرورة الحفاظ على ذكر الحسين وقيَم أهل البيت؛ فقد نقل عن الإمام الصادقعليه السلام أنه بعد سؤال وجواب قال لأحد أنصاره عن مجلس العزاء الحسيني: «إنّ تلك المجالس أحبّها، فأحيوا أمرنا، يا فضيل! فرحم الله من أحيا أمرنا. يا فضيل! من ذكرنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذباب، غفر الله له ذنوبه، ولو كانت أكثر من زبد البحر»[1].

ومع الأخذ بعين الاعتبار هذا النوع من الأحاديث، يمكن عدّ أيّ عمل يذكّر بأهل البيتعليهم السلام ـ ومن جملة ذلك التطبير ـ مباحاً ومستحبّاً، من هنا أصدر السيد محمد الحسيني الشيرازي فتوى تجوّز تمام صور الشعائر الحسينية وتراها راجحةً وموجبة للثواب إن شاء الله تعالى، إلا ما أوجب قتل النفس أو تلف العضو، وهما عملين محرّمين في الشريعة الإسلامية، أما الضرر القليل الذي لا يجرّ إلى القتل أو التلف فهو لا يوجب تغيير الحكم، كما أنّ الاستهزاء لا يوجب رفع أيدينا عن الأحكام الشرعية[2].

### ٦ . لزوم تعظيم الشعائر

إنّ التطبير من الشعائر الحسينية والدينية، وتعظيم الشعائر من جملة الأمور التي ورد التأكيد عليها كثيراً في الشرع الحنيف، ومن ذلك القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢)، وقد لاحظنا وجود هذا الدليل في المصادر المختلفة وبصور وأشكال متعدّدة، ومن بين هؤلاء السيد حسن الشيرازي الذي كان يخوض معركةً مع من يعمل على حذف هذه الشعائر، حيث يستنكر على الطرف الآخر بأنّه إذا كنتم حقّاً تحاربون المحرّمات وتريدون حفظ الإسلام، فلماذا لا تقومون بوجه المحرّمات العلنية التي لا يختلف اثنان من المسلمين في حرمتها؟ فإذا كانت الشعائر الحسينية مانعةً عن تقدّم الإسلام، فلماذا لم تقوموا

---

(١) ابن إدريس الحلّي، مستطرفات السرائر: ٦٢٦.

(٢) فتاوى العلماء الأعلام: ٢٠.

بوجهها منذ اليوم الأوّل؟ والحال أنّ الشيعة قبل ذلك وقبل أن يولد أجدادكم كانوا يمارسون مثل هذه الشعائر، فهل صحيح ما ترونه من أنّ هذه الشعائر الحسينية بدعة محدثة وأنتم تريدون قتلها في مهدها أمّ أنّها كانت موجودة عندما ولدتم وأتيتم إلى هذه الدنيا ثمّ أنكرتموها من عندكم، أم أنّ الاستعمار حرّككم اليوم فاشتريتم رضا المخلوق برضا الخالق؟[١].

وأهم الأدلّة التي استعان بها أنصار التطبير للدفاع عن هذا العمل هو ما تقدّم من أدلّة، وبعد نقلهم لها يقولون بأن التطبير مباح ذاتاً، كما أنه مستحب بعنوان المتابعة للإمام الحسين عليه السلام ومواساته[٢].

## وقفات نقدية مع أدلّة نظريّة جواز التطبير

هل يمكن القبول بالأدلّة المذكورة أعلاه؟ وهل يمكن اعتماداً عليها الحكم بشرعية التطبير وربما أحياناً وجوبه الكفائي؟ من الأفضل لنا أن ندرس كلّ واحد من هذه الأدلّة، حتى نتمكّن بعد ذلك من الجواب عن هذا السؤال.

### ١. وقفة مع دليل أصالة الإباحة

في مقابل الذين استندوا إلى أصالة الإباحة هنا، تحدّث آخرون ـ مثل السيد محسن الأمين ـ عن أصالة الحرمة، فبنوا على أنّ هذا الفعل حرام انطلاقاً من كونه موجباً للضرر والأذية، إلا أنّ جواب هذا الاستدلال مرّ من قبل، وهو أنّ صرف الضرر لا يمكنه أن يكون مبرّراً للحرمة، إنما الضرر الكبير الذي لا يقبل الجبران أو ما كان فيه هلاك النفس هو ما يوجب تحريم عملٍ ما، كما أنّ الاستدلال بموارد مثل أدلّة نفي العسر والحرج يوجب سقوط الأحكام الإلزامية، لا إثبات الحرمة.

وطبقاً لما استدلّ به عبد الحسين الحلّي ـ وهو استدلال صحيح ـ من أن مجرّد التطبير إذا ألحق الضرر بشخصٍ كان حراماً عليه وحده، لا محرّماً بصورة مطلقة، طبقاً لذلك لا يمكن الاتكاء على مسألة الضرر للإفتاء بالحرمة؛ من هنا سعى

(١) الشعائر الحسينية: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٩.

المدافعون عن التطبير لنقض دليل المحرّمين على مستوى الصغرى والكبرى، أي على مستوى واقع قضية الضرر، وعلى مستوى قاعدة حرمة الإضرار، إنهم يعتقدون أنّه لا يوجد في الشعائر الحسينية ما يضرّ بسلامة الإنسان؛ فالتطبير لا يؤدّي سوى إلى قليلٍ من النزف الدموي الذي لا يُلحق ضرراً ببدن الإنسان، وإنّما هو مثل الحجامة والفصد المفيدين للبدن، كما أنّ الضرب بالسلاسل لا يؤدّي إلى إلحاق الضرر بكتف الإنسان أو ظهره، بل يفضي إلى تقوية الجلد والبشرة[١]. وما هو الدليل الدالّ على حرمة مطلق إلحاق الضرر بالبدن إن من العقل أو النقل؟ وبهذا خاض المجوّزون بحثاً مفصلاً لتقوية هذه المقولة ودعمها[٢].

وبغض النظر عما تقدّم، تدلّل تجربة المدافعين عن التطبير أنّ التطبير ليس فيه ضرر، وهذه التجربة شاهدٌ قوي بل أقوى من أيّ نوع من الاستدلالات النظرية، وهذا ما يذكره السيد الشيرازي في هذا الخصوص، حيث يرى أنّ له من العمر إلى الآن ستون سنةً، وفي كلّ سنة نرى أمام ناظرينا هذه التجمّعات الدموية، ولم نرَ أحداً مات أو لحق به ضرر منها، كما لم نسمع من الماضين من حدّث عن ذلك[٣].

إنّ هذا الاستدلال قويّ إلى حدّ أنه لا يمكن بعده مواصلة البحث في هذا السياق، وحقيقة الأمر أنه إذا كانت القضية مجرّد الحديث عن إلحاق الضرر بالبدن وأمثال ذلك فلا يمكن ببساطة هزّ أركان أصالة الإباحة؛ لذا يبدو لنا أنّ معارضي التطبير لم يسلكوا سبيلاً صائباً في الاستدلال، فليس الكلام في ضرريّة التطبير للبدن أو عدمها حتى نستعين بأصل الإباحة، وإنما المطلوب أن نحوّل وجهة البحث بعد الفراغ عن قضية الضرر الواقعي أو الافتراضي، فلنفرض أنّ التطبير ليس فيه أيّ ضرر بدني، فما هو الحكم حينئذٍ؟

إنّ السؤال الذي لابد لنا من الإجابة عنه هو: ما هو الأصل في النسبة إلى الشارع عملياً؟ وبعبارة أخرى: هل يمكننا القيام بعملٍ ما مع ادّعاء طلب الشارع القيام به أم نقول: نحن مرخّصون بالقيام بأيّ فعل إلا إذا قام دليل خاص على المنع عنه؟ إنّ مبدأ الرخصة حاكم في تمام الأمور الفردية والاجتماعية، لكن السؤال: هل أنا

---

(١) الشعائر الحسينية: ٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٣١.

مُجاز أن أنسب أيّ عمل للشارع أم لا؟ هنا لابد من تأسيس أصل وبناء تحتي.

لا يفترض بمعارضي التطبير القول: لماذا يجرح بعضهم رأسه ويُلحق ـ على أساس ذلك ـ الضرر بنفسه؟ بل المفروض ـ بدلاً عن ذلك ـ السؤال: لماذا يجرح بعض الناس رؤوسهم ثم يقولون: هذا العمل شرعيّ ومستحب ومن مصاديق تعظيم الشعائر؟ إنّ المعركة الأساسية بين أنصار التطبير ومعارضيه تكمن في شرعية هذا العمل بمعنى جعله واحداً من الأفعال العبادية أو أنه بدعة، فالمعارضون يصرّحون مراراً بأنه بدعة، والبدعة حرام[1]؛ من هنا، لابد من مركزة البحث حول هذا النقطة، وهو ما لم يجر الاهتمام به والحديث عنه، وحتى السيد محسن الأمين الذي حكم بكون التطبير بدعةً أدخل البحث من حيث لا يشعر في قضية الضرر، وهو ما أجاب منه ببساطة الحلّي والشيرازي وغيرهما.

الكلام يكمن في أننا إذا اعتبرنا التطبير اليوم أمراً مستحباً ومستحسناً هل نكون قد ابتدعنا؟ ولنفرض أنها بدعة حسنة لإعلاء كلمة التوحيد ونشر الشعائر الدينية فبين الماضين والمعاصرين هناك من يقبل ببعض البدع التي تقع لصالح الدين[2]، إنّ هذا الكلام بنفسه بحاجة إلى بحث مستقل، من هنا لا نطيل فيه ولا نكمل. وخلاصة الكلام: إذا استند معارضو التطبير إلى مسألة الضرر والأذية الجسدية فإنّ أصل الإباحة حاكم، أما إذا وصل الحديث إلى البدعة فإنّ هذا الأصل لا يمكنه فعل شيء، وعليه ، فالمفترض أن نركّز نظرنا على نقطة الخلاف في البحث كلّه.

### ٢. هل يمكن الاستناد إلى فعل المعصوم هنا؟

إنّ ما ذكروه من فعل المعصوم لا يمكنه ـ منطقياً ـ أن يعطينا نتيجةً مجوّزة للتطبير، فلا يمكن من امتلاء عين الإمام دماً بعد البكاء ـ حتى مع التكلّف الشديد ـ أن نستفيد الرخصة في التطبير، ويكفي هنا الالتفات إلى دلالة هذه الأحاديث ومضمونها، فالذي يُفهم منها أنّ الإنسان الذي يفقد عزيزاً فيبكي حتى تُدمى عيناه لا إشكال في

---

(١) ومن باب المثال، لاحِظْ السيد محسن الأمين والبحراني في قامعة أهل الباطل: ١٣؛ حيث يؤكّدان على البدعة.

(٢) انظر بهذا الصدد: أهداف دين از ديدكاه شاطبي (أهداف الدين عند الشاطبي): ١٤٦.

فعله، وبإلغاء الخصوصية يمكن القول: إنّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام لا إشكال فيه حتى لو أدمى العين، وبين هذه النتيجة وبين التطبير مسافةٌ بعيدة، وأما الاستشهاد بإدماء الجفون فليس من قياس الأولوية وإنما من مصاديق القياس مع الفارق بشكل واضح، فأن يبكي إنسانٌ بكاء شديداً حتى تدمى جفونه مختلف تماماً عن أن يأتي ودون بكاء فيدمي جفونه، نعم، إذا كان الإمام يأخذ في الحزن على سيد الشهداء خنجراً أو سكيناً ثم يجرح بها جفونه أمكن هنا استخدام قياس الأولوية حتى نصل إلى تجويز التطبير، أما هنا فهناك فرق بين النتائج غير المقصودة وتلك المقصودة بالمباشرة، وفي نهاية المطاف، فالذي يمكن الاستناد إليه من الأحاديث المذكورة هو أنه يجوز للإنسان أن يبكي حتى لو أدى بكاؤه إلى إدماء الرأس؛ لأنّ الأئمة كانوا يبكون حتى تدمى جفونهم، وهي أهم وأظرف من مقدّم الرأس. وبكلمة موجزة: إننا بمعونة الأحاديث التي من هذا النوع وفعل المعصوم لا يمكننا الحكم بجواز التطبير، والسبيل المنطقي لإثبات ذلك عن طريق فعل المعصوم هو أن يرشدنا المدّعون إلى أنّ أحد المعصومين طبّر أو شجّ رأسه قليلاً بضربه بجذع شجرة، أما الحصول على موارد من النوع الذي ذكرنا هنا فليس من السهولة توظيفه في الاستدلال، ولهذا تحصل هذه التكلّفات والاستحسانات.

## ٣. شرعية التطبير ومسألة تقرير المعصوم

يقوم هذا الدليل على حديث يذكر أنصار التطبير أنه صحيح، إلا أن تأملاً بسيطاً يوضح لنا جعله وكذبه، فلم يرد هذا الحديث في أيّ من المصادر القديمة الروائية والتاريخية، فلا إشارة في مقتل أبي مخنف[1] إلى هذه الحادثة إطلاقاً، كذلك في المقتل المعروف لابن طاووس «اللهوف في قتلى الطفوف»، لا حديث عن هذا الموضوع، بل جاء مكانه: «قال بشير بن خزيم الأسدي: ونظرت إلى زينب بنت علي يومئذٍ، ولم أر خفرة ـ والله ـ أنطق منها؛ كأنها تفرغ من لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا، فارتدّت الأنفاس وسكنت الأجراس، ثم

(١) انظر حول اعتبار هذا الكتاب وأنّ أصله ليس في يدنا اليوم: جشم اندازي به تحريفات عاشورا، لؤلؤ ومرجان ٦: ٢١٩.

قالت: الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار. أما بعد، يا أهل الكوفة! يا أهل الختل والغدر..»[(١)]؛ فالراوي هنا يتحدّث عن خطيب لا نظير له، وعن اقتدار زينب، وعن تلك الدعوة التي حبست أنفاس الكوفيين في صدورهم، وكأنّ الإمام علياً عليه السلام هو الذي يتكلّم معهم، ولا حديث في مقتل ابن طاووس عن امرأة تضرب رأسها بخشبة المحمل.

وفي الحقيقة، إنّ رواية ضرب الرأس بالمحمل إنما ظهرت في القرن الحادي عشر الهجري، وشيئاً فشيئاً أخذت تتحوّل إلى أساس لتشريع التطبير، أما العلامة المجلسي في بحار الأنوار، فعندما ينقل مقتل السيد ابن طاووس يذكر هذه الرواية ويدّعي أنها رؤيت في كتاب معتبر، دون أن يسمّي هذا الكتاب، وهذا نصّ كلامه: «رأيت في بعض الكتب المعتبرة: روى مرسلاً عن مسلم الجصّاص، قال: دعاني ابن زياد لإصلاح دار الإمارة بالكوفة.. فالتفتت زينب فرأت رأس أخيها فنطحت جبينها بمقدّم المحمل، حتى رأيت الدم يخرج من تحت قناعها»[(٢)]، وهنا يصرّح المجلسي بإرسال هذا الخبر، أما الشيخ عباس القمي الذي يقبل أنصار التطبير إيمانه وتعبّده والتزامه، فهو يتحدّث عن هذه القصّة بأنّه لا وجود لذكر المحامل والهوادج في غير خبر مسلم الجصّاص، وهو خبر وإن نقله العلامة المجلسي إلا أنّ مصدره كتاب منتخب الطريحي وكتاب نور العين، وهما كتابان لا يخفى حالُهما على أهل الاختصاص في الحديث، ونسبة كسر الرأس إلى زينب والأشعار المعروفة في هذا المجال بعيدان أيضاً عن هذه المخدّرة التي هي عقيلة الهاشميين والعالمة غير المعلّمة، وهي رضيعة ثدي النبوّة وصاحبة مقام الرضا والتسليم»[(٣)]. بعد ذلك يشـــكّك القمي في أصل وجود محمل أو كجاوة لأسرة النبي، معتبراً أنّ الثابت في كتب المقاتل المعتبرة هو أنّهنّ كنّ يُحملن على الجمال التي ليس عليها وطاء[(٤)].

والمقصود من الأشعار المعروفة هو ما جاء في قصّة الجصّاص من أنّ

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٦.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ١١٤ ـ ١١٥.

(٣) القمّي، منتهى الآمال: ٧٥٣.

(٤) المصدر نفسه.

السيدة زينب بعد ضربها جبينها في خشبة المحمل أطلقت شعراً مطلعه: «يا هلالاً لما استتمّ كمالاً»، والمراد من منتخب الطريحي كتاب «المنتخب في جمع المراثي والخطب» المعروف بالفخري، والذي دوّنه وجمعه فخر الدين الطريحي (ق١١هـ) على شكل مجالس لأهل المنبر، وقد جاءت هذه القصّة في الصفحة ٤٧٨؛ وقد شكّك الميرزا حسين النوري في هذا الكتاب، مصرّحاً بوهن بعض إخباراته[١].

كما أنّ كتاب «نور العين في مشهد الحسين» من الكتب المتأخرة التي أشارت إلى هذه الحادثة[٢]، وبعد هذه المرحلة شاع هذا الخبر في بعض الكتب مثل: العوالم لعبد الله البحراني[٣]، وينابيع المودّة لذوي القربى لسليمان القندوزي الحنفي[٤]، ووفيات الأئمة[٥]، ومستدرك سفينة البحار لعلي النمازي الشاهرودي[٦]، رغم أنّ كتب المقاتل المبنيّة على التحقيق والبحث، مثل: تفسير تاريخ سرخ، دراسة عقائدية لتاريخ النهضة الحسينية (تفسير التاريخ الأحمر)، لمحمد جواد صاحبي، لا إشارة فيها أساساً لهذه القصّة[٧]، وبناءً عليه، فيتحمّل مسؤولية إثبات هذا الحديث من يستند إليه ويجعله أساساً لتقرير المعصوم. هذا فيما يتعلّق بأصل هذا الخبر المجعول[٨].

أما على تقدير صحّة هذه الحادثة ووقوعها، فإنها تعارض خبراً آخر في هذا المجال؛ فقد جاء في الكثير من المصادر التاريخية أنّ سيد الشهداء قال ليلة عاشوراء لأخواته ونسائه و..: «يا أختاه! يا أمّ كلثوم! وأنت يا زينب! وأنت يا فاطمة! وأنت يا رباب! انظرن إذا أنا قتلت فلا تشققن عليّ جيباً، ولا تخمشن عليّ وجهاً، ولا تقلن

---

(١) جشم اندازى به تحريفات عاشورا: ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٢) راجع حول هذا الكتاب: عاشورا بزوهي با رويكردي به تحريف شناسي: ٦٣.

(٣) العوالم: ٣٧٣.

(٤) ينابيع المودّة لذوي القربى ٢: ٨٧.

(٥) وفيات الأئمة: ١٦٤.

(٦) مستدرك سفينة البحار ٤: ٦.

(٧) تفسير تاريخ سرخ: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٨) للمزيد أنظر: تحريف شناسي عاشورا وتاريخ الإمام الحسين: ٢٠٩ ـ ٢١٣.

هجراً»[١]، فإنّ الإمامعليه السلام في هذه الكلمات أراد منهنّ أن لا يفعلن ذلك على شهادته، كما أنّ الرسولصلى الله عليه وآله عندما بايعته النساء شرط عليهنّ الكفّ عن هذه الأعمال[٢]؛ وعليه يخالف ما يذكره أنصار التطبير أوامرَ الإمام المتقدّمة، وهو مؤيّد بروايات متعدّدة أخرى تعارض خبر المحمل، وهنا إما أن يقال: إنّ هذا الخبر كاذب أو أنّ السيدة زينب لم تصغِ إلى كلام أخيها، وعملت على خلافه، أو يُقال ـ كما يقول السيد محسن الأمين ـ: إنه حتى لو حصل ذلك فقد يكون وقع من حيث لا تشعر ولا تريد، وعلى أية حال، لا يمكن العمل بهذا الخبر واعتباره حجةً.

الأمر الثالث هنا أنه حتى لو فرضنا صحّة خبر المحمل، وقمنا بحلّ التعارض المشار إليه، يلزم على أنصار التطبير ـ عملاً بمضمون الخبر ـ أن يلتزموا بضرب الرؤوس في خشب المحامل ضمن مراسم خاصة، أي عين ذلك العمل الذي قامت به السيدة زينب، لا التطبير؛ فإثبات التطبير بهذا الخبر غير صحيح، إلا إذا ألغينا الخصوصية عن الحدث الذي وقع مع زينب بحيث نقول: إنّ المهم هو إخراج الدم بأيّ طريقٍ كان، وهذا ما يفتح الباب أمام أعمال كثيرة أخرى، وهو ما يحتاج بنفسه إلى بحث مستقل.

وخلاصة القول: إنّ هذا الدليل مبنيٌّ على خبر كاذب، إضافةً إليه معارضٌ لأخبار صحيحة، ومن ثم فلا يدلّ على جواز التطبير.

### ٤ . معالجة نقدية للروايات الخاصّة

إنّ الخبر الذي نقل في هذا الدليل عن الإمام الصادقعليه السلام يوحي وكأنّ الإمام يحث شيعته ويأمرهم بشقّ الجيوب في العزاء الحسيني وإدماء الوجوه، ثم وبالاستعانة بالقياس يدّعى بأنه إذا كان خمش الوجوه جائزاً فإن جرح الرأس ـ وبالتحديد التطبير ـ جائزٌ أيضاً، إلا أنّ هذا الكلام غير صحيح، لأربعة أسباب:

**الأول**: إنهم وبدل أن ينقلوا الحديث كاملاً اختاروا قسماً منه يؤيّد وجهة

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٠؛ ولواعج الأشجان: ١٠٣؛ وموسوعة كلمات الإمام الحسين: ٤٠٦.

(٢) الكافي ٥: ٥٢٧؛ ووسائل الشيعة ٢: ٢١١، و ١٤: ١٥٤؛ ومستدرك وسائل الشيعة ٢: ٤٤٩؛ وبحار الأنوار ٢١: ١١٣، ١٣٤، و ٦٤: ١٨٧، و ٧٩: ٧٧؛ والطباطبائي، سنن النبي: ١٤٣.

نظرهم فنقلوه، مع أنّنا لو لاحظنا الحديث كلّه لن نفهم منه هذا الاستنتاج، فهذا الخبر رواه الشيخ الطوسي في كتاب: تهذيب الأحكام، في قسم الكفارات، وإذا طالعناه من أوّله إلى آخره فسوف نخرج باستنتاج معاكس تماماً لما يريده أنصار التطبير، جاء في الخبر: «ولا يشقّ الوالد على ولده، ولا زوج على امرأته، وتشق المرأة على زوجها، وإذا شقّ زوج على امرأته أو والد على ولده فكفارته حنث يمين، ولا صلاة لهما حتى يكفّرا ويتوبا من ذلك، وإذا خدشت وجهها أو جزّت شعرها أو نتفته، ففي جزّ الشعر عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً، وفي الخدش إذا دميت، وفي النتف كفارة حنث يمين، ولا شيء في اللطم على الخدود سوى الاستغفار والتوبة، وقد شققن الجيوب ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي عليه السلام، وعلى مثله تلطم الخدود وتشقّ الجيوب»[1].

إنّ هذا الحديث ينسجم مع التربية الدينية، وهو من الشروط التي أخذها رسول الله على النساء في البيعة، فمن وجهة نظر الإسلام ثمّة الكثير من الأعمال التي كانت سائدةً في الجاهلية غير مشروع ولا صحيح، مثل جزّ الشعر أو نتفه عند موت الأعزاء، من هنا حرّمها، واليوم يرى الفقهاء أيضاً حرمة هذا النوع من الأعمال بل استلزامه للكفارة[2]؛ ومن مناخ هذه التربية الدينية سأل الراوي الإمامَ فأجابه وعدّد له كفارات هذه الأعمال، لكن حيث إنّ بعض الأعمال قد تصدر عند موت الأعزاء من حيث لا يشعر الفاعل ولا يريد فقد خفّف الإمام فأسقط الكفارة، فلو لطم الإنسان وجهه ولم يُدمه كَفَتْه التوبة، ولكي يبيّن أنّ هذا الحكم لا ينافي أوامر النبي صلى الله عليه وآله حاول تقريب الأمر لذهن المخاطب فذكر له أنّ الفاطميات فعلن ذلك في عزاء الحسين عليه السلام؛ فإذا بقينا نحن وهذا الحديث لا يُفهم منه رجحان هذا العمل، فغايته عدم الحرمة ولا الكفارة، أما الاستحباب فيصعب استنباطه إلا مع تكلّف وتحميل الرأي الشخصي على الحديث.

---

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام ٨: ٣٢٤.

(٢) المفيد، المقنعة: ٥٧٥؛ والطوسي، النهاية في مجرد الفقه والفتاوى: ٥٧٣؛ وابن البراج، المهذب ٢: ٤٢٤؛ وابن إدريس، السرائر ٣: ٧٨؛ والآبي، كشف الرموز: ٢٦٣؛ والنجفي، جواهر الكلام ٤: ٣٦٨؛ والخميني، تحرير الوسيلة ١: ٩١.

**الثاني**: حتى لو طابق مضمون الحديث وجهة نظر أنصار التطبير فغايته أنّ خمش الوجه جائز، مع أن الحديث نفسه شرط ذلك بعدم خروج الدم، أما الاعتماد على هذا الحديث لجرح الرأس فليس بممكن إلا عن طريق القياس، ومن الواضح ما هي مكانة القياس في الفقه الشيعي، وعليه فلا يمكن من هذا الدليل الخاص البتّ بجواز التطبير.

**الثالث**: لقد أضاف أنصار التطبير جملةً على الحديث لا وجود لها في أصله، وهي العبارة التالية: «على مثل الحسين فلتشقّ الجيوب ولتخمش الوجوه ولتلطم الصدور»(١)، كما أنّ السيد وحيدي كتب هذه العبارة على الشكل التالي: «إنّ الفاطميات شققن الجيوب في شهادة الحسين بن علي عليه السلام وخمشن الوجوه، ولابدّ من فعل ذلك»(٢)، إن جملة «ولتخمش الوجوه» التي هي نقطة الثقل في استدلال أنصار التطبير لا وجود لها في الرواية، فالإشكال الرئيس يكمن هنا، ففي تهذيب الأحكام جاء: «وعلى مثله تلطم الخدود وتشقّ الجيوب»(٣)، دون أيّ إشارة إلى خمش الوجوه، وهو ما تقوم عليه استدلالات أنصار التطبير، وهذا الأمر لا يختصّ بكتاب تهذيب الأحكام الذي وردت فيه هذه الرواية، بل سائر الكتب الروائية والفقهية، مثل كشف الرموز(٤)، والمهذب البارع(٥)، إذ ليس فيها هذه الجملة، ومن البعيد جداً أن تكون لدى ناقلي هذه الرواية من أنصار التطبير نسخةٌ فريدة جاءت فيها هذه الجملة، فهل أضيفت هذه الجملة سهواً وعن غفلة وعشق للتطبير؟ أم أنّ الجعل والدس في الأحاديث والتلاعب بها مستحبٌ إذا كان لترويج الشعائر الحسينية، والكذب في هذه الموارد لمصالح دينية يغدو مجازاً وحلالاً؟!

---

(١) الشعائر الحسينية: ١٢٧؛ وعبارة كاشف الغطاء في الآيات البيّنات بهذه الصورة أيضاً، فانظر: فتاوى العلماء: ١٦.

(٢) عزاداري از ديدگاه مرجعيت شيعه: ٩٣.

(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام ٨: ٣٢٤.

(٤) الفاضل الآبي، كشف الرموز: ٢٦٣.

(٥) ابن فهد الحلي، المهذب البارع ١٠: ٢٩؛ والأردبيلي، مجمع الفائدة والبرهان ٢: ٥٠٧؛ والبحراني، الحدائق الناضرة ٤: ١٥٢؛ والنجفي، جواهر الكلام ٤: ٣٦٨.

وعلى أية حال، فقد حصل ذلك مهما كان المبرّر، ولا أبحث هنا في خلط الأبحاث وإيجاد المغالطة، فقد تعرّضت لهذا الموضوع في دراسة أخرى[١]، وخلاصة القول: يفقد هذا الدليل قيمته لعدم وجود هذه الجملة في الرواية التي استند إليها السادة المناصرون للتطبير.

**الرابع:** لقد أسقط بعض الفقهاء المحقّقين هذا الحديث عن قابلية الاعتماد عليه، بل طعنوا في سنده، وكمثال على ذلك ما ذكره المحقق النجفي صاحب «جواهر الكلام» حيث رد دلالة هذا الحديث ومفهومه، وقال: «مع الطعن في سنده ولا جابر»[٢] أي أنّ سند هذا الحديث فيه مشكلة، وأحد رواته مطعون فيه، ولا يوجد شيء يجبر هذا الضعف فيه، كما أن الشهيد الثاني عندما يتعرّض لهذه الرواية يشير إلى راويها خالد بن سدير، ملفتاً إلى حالة الرواية ووضعها الضعيف[٣].

**وخلاصة القول:** إنّ هذا الحديث لا دلالة له إطلاقاً على جواز التطبير، كما أنّ الجملة المستند إليها فيه غير موجودة أساساً، مضافاً إلى وجود مشكلة سندية فيه.

## ٥ ـ الروايات العامّة، محاولة نقدية

لا إشارة في الروايات العامة الواردة في العزاء والتعاطف مع الإمام الحسين إلى مسألة التطبير، والروايات التي يذكرها المدافعون عن التطبير إنما تدلّ على إقامة مجالس العزاء والبكاء على سيّد الشهداء وحفظ قيم المعصومين حيّةً نابضة، وهذا كلّه لا نقاش فيه ولا بحث عنده، بل على العكس من ذلك تماماً يمكن ـ اعتماداً على هذه الروايات ـ تخطئة التطبير وأساليبه.

## ٦ ـ مقولة تعظيم الشعائر، تفكيك وتحليل

لا كلام في لزوم تعظيم الشعائر، وإنما في هل عمل التطبير وأمثاله محسوب من الشعائر أم لا؟ وهنا لابدّ للمدّعين أن يثبتوا هم أنّ هذا العمل من الشعائر ثم يتحدّثوا عن لزوم تعظيمها، فقد رأينا أنّ بعض المراجع قد حرّم صراحةً هذا العمل، وبعضهم الآخر اعتبره بدعةً، فكيف يمكن لعمل بدعة وحرام أن يكون من الشعائر

(١) راجع للمؤلّف: رؤياى خلوص، باز خواني مكتب تفكيك.

(٢) النجفي، جواهر الكلام ٤: ٣٦٨.

(٣) الشهيد الثاني، مسالك الأفهام ١٠: ٢٩.

الحسينية أو الدينية؟!

إننا هنا نقف أمام عمل لا يوجد نصّ على استحبابه أو جوازه، كما لم يقم به أيّ من أئمة الشيعة أو أصحابهم، كما لا خبر عنه أصلاً بين المتشرّعة والعلماء السابقين، وعلى حدّ قول السيد محسن الأمين: لم يقدم أحد من العلماء على فعل هذا الشيء بل اعتبروه نوعاً من البربرية والوحشية[١]، بل اليوم أيضاً يرى الكثير من العلماء أنّ هذا العمل أساس للإساءة إلى الشيعة وتشويه صورتهم وسمعتهم في العالم، فالصور الموحشة التي ترتعش لها الأبدان من هذه الأعمال تبثّ اليوم في العالم وتعدّ مستنداً لنقد الشيعة وإدانتهم بل أصل التشيع، كيف يمكن لشخص يعرف ألفباء الفقه ويجيز لنفسه أن يعتبر هذا العمل من الشعائر الحسينية أو الإسلامية؟ بل يرى بعض الفقهاء أنّ الشعائر توقيفية[٢]، بمعنى أنّ الشارع نفسه هو الذي لابدّ أن ينصّ على شعيريّة شعيرةٍ ما، من هنا فلا يمكننا فيما لا نصّ فيه عن نبيٍّ أو إمام أن نعتبره من الشعائر[٣]، وهذا ما يراه العلامة السيد محمد حسين فضل الله؛ بل ينقل فضل الله عن جواب استفتاء للسيد الخوئي حول التطبير قوله: «لم يرد نصّ شعاريّته؛ فلا طريق إلى الحكم باستحبابه»[٤].

ويرى بعضٌ أن هذه الشعائر أمرٌ عرفي، وأنّ المسلمين يمكنهم أن يجعلوا أيّ أمر شعيرةً، ذلك أنّ الشعيرة ليست شيئاً سوى العلامة، ويمكن تعيينها من خلال عرف المتشرّعة[٥]، لكن سواء اعتبرنا الشعائر توقيفيةً ومحصورةً ببعض المظاهر الدينية الخاصة أم ذهبنا إلى إطلاق يدنا في اعتبار أيّ عمل شعاراً دينياً.. فقط يمكننا أن نعتبر عملاً ما من الشعائر إذا كان حائزاً على اعتراف ومقبولية دينية، فتكون له امتدادات تاريخية وتشريعية في تراثنا، ومنسجماً مع الأصول والخطوط العامة للدين، ويحوز على اعتبار اجتماعي فلا يغدو سبباً لانزعاج بعض المتدينين، وما لم

---

(١) ثورة التنـزيه: ٢٧.

(٢) راجع حول مفهوم الشعائر وحدودها: الفاضل النراقي، عوائد الأيام: ٢٣.

(٣) السيد محمد حسين فضل الله، حديث عاشوراء: ٢٢.

(٤) الخوئي، المسائل الشرعية ٢: ٣٣٧، نقلاً عن حديث عاشوراء: ٢٢٠.

(٥) لمزيد الاطلاع على هذه الرؤية والدفاع عنها، انظر: الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد: ٥٠ وما بعد.

يحصل هذا الأمر من الاتفاق على ذلك فلا يمكننا ولوحدنا أن نحكم بأنّ هذا العمل أو ذاك شعيرةٌ دينية، أما المدعون هنا، فهم يصرّون على مبدأ تعظيم الشعائر قبل أن يُثبتوا أنّ التطبير شعيرة فعلاً أم لا، وعندما يُشكل عليهم بأنّ هذه الأعمال توجب سخرية الآخرين واستهزاءهم فهم يجيبون بأنّ الاستهزاء لا يوجب رفع اليد عن الأحكام الشرعية[1]!

نعم، إذا كان التطبير واقعاً حكماً شرعياً فلا ينبغي التخلّي عنه خوفاً من الآخرين، إلا أن مخالفي التطبير يقولون: لماذا تقومون بعمل لا يمكن الدفاع عن وجود أيّ أساس ديني له وعبر هذا الطريق نوقع أنفسنا في استهزاء الآخرين؟! وهذا السؤال ليس جوابه عدم التخلّي عن حكم الله لسخرية الآخرين[2]، فمن قال: إن التطبير حكمٌ شرعي؟[3].

## التطبير بمثابة الفعل الاجتماعي

لا يمكن لمن يدافع عن التطبير أن يبرّر أو يصحّح هذا العمل إلا عن طريق أقيسة غير صحيحة واستحسانات ضعيفة، مع هذا يواصل هؤلاء السير في طريقهم، وهنا يطرح تساؤلٌ جادّ نفسه: هل هذه الأعمال تقع بوصفها سنّةً دينية ينطلق المقدمون عليها من موقع العشق للإمام الحسين أم أنها تعبّر عن فعل اجتماعي يحمل في طيّاته أغراضاً متنوّعةً اجتماعية وسياسية وثقافية؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى دراسة مستقلّة، إلا أنّ المؤشرات الموجودة تدلّنا على أنّ الكثير ممّن يقومون بهذه الأعمال إنما يفعلونها من منطلق اجتماعي وينظرون إليها نظرةً عملانية ميدانية، ولكي نعطي مثالاً على ذلك نؤكّد أنّ أحد الباحثين كشف عن أن السيد شرف الدين المعاصر للسيد محسن الأمين، وهو من القائلين بعدم صحّة الكثير من هذه الألوان من العزاء، قد وقف موقف المدافع عن بعض هذه الجماعات في مقابل السفير الفرنسي كي يحصل على امتيازات خاصّة

---

(١) فتاوى العلماء الأعلام: ٢٠.

(٢) ثمة مثل آية الله الخوئي من يجيز التطبير بالعنوان الأولي لكنه يحرّمه إذا أوجب وهن التشيّع في نظر العرف، فانظر: حديث عاشورا: ٢٢١.

(٣) راجع: الخامنئي، أجوبة الاستفتاءات ٢: ١٢٩.

للشيعة في منطقته، فدعا السفير الفرنسي إلى بيته، ثم دخل اللاطمون صدورَهم في هذه الحال وشرعوا بألوان العزاء، وبإشارة واحدة منه يتوقّف جميعهم عن الحركة، وبذلك يُري السفير الفرنسي قوّته وسلطته ونفوذه[(١)].

لقد كان هذا الدور الميداني الاجتماعي للعزاء إلى حدّ من القوّة والفاعلية أنّ مرجعاً لو أراد التغافل عنه لخسر مكانته ومركزه، وأحد هؤلاء كان السيد هبة الدين الشهرستاني، فبعد سنتين من المواجهة اضطرّ الشهرستاني لترك مدينة النجف والسكن في بغداد[(٢)]، وقد اطّلعنا على نهاية السيد محسن الأمين وردّات فعل الآخرين عليه، وهذا هو الذي يبرّر سكوت الكثير من العلماء أمام الخرافات ورواجها. بل هناك في هذا المجال من فضّل التعاطف على السكوت أو المواجهة، فعلى سبيل المثال المرحوم آية الله السيد محمود الشاهرودي الذي أجاز حتى المشي في النار[(٣)]، والقصّة التي يرويها الشهيد مرتضى مطهري في هذا المجال تدلّل بوضوح على أنّ بعض هذه الأعمال التي تقع ـ وكانت تقع ـ باسم الإمام الحسين عليه السلام وعزاء سيد الشهداء لا علاقة لها أساساً بالسنن الدينية، ولابد من التفتيش عن دوافع أخرى لها؛ فقد جاء خبرٌ إلى آية الله البروجردي أنّ هناك الكثير من الأعمال التي تقوم بها المجموعات العزائية مخالفٌ للشرع، فعمد قبل بداية شهر محرّم من إحدى السنوات حين كان في بداية مرجعيته يملك آنذاك قدرةً ونفوذاً كبيرين.. عمد إلى جمع الهيئات العزائية في مدينة قم في إيران، ودعاهم إلى منزله، فجاء الجميع، فسألهم البروجردي: «من تقلّدون؟ فأجاب الجميع: نحن نقلّدكم، قال: إذا كنتم تقلّدونني فإنّ فتواي هي أنّ هذه التشابيه (المسرحيات) التي تمارسونها بهذا الشكل الحاصل حرام، وهنا صارحوا السيد البروجردي مصارحةً تامة حين قالوا له: إننا نقلّدكم سيدنا في تمام السنّة وأيامها، إلا في هذه الأيام الثلاثة أو الأربعة.. قالوا ذلك وذهبوا، ولم يعتنوا بكلام مرجعهم في التقليد؛ وهذا ما يشير بشكل جيّد إلى أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن هدفاً لهم، ولا حتى الإسلام، إنها مسرحيات يمارسونها

---

(١) حركة الإصلاح الشيعي: ٣٢٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٠.

(٣) فتاوى العلماء الأعلام: ٢١.

لأغراض أخرى، ولا أقلّ من أنهم يستمتعون بها»[١].

ويمكن أخذ عينة أخرى لهذا الفعل الاجتماعي عبر قراءة الأحداث التي أعقبت تحريم التطبير ومنعه في إيران عام ١٣٧٣ش/١٩٩٤م؛ فقد أدّى هذا الأمر إلى إقدام جماعات لم تكن تميل إلى التطبير أساساً.. على ممارسة هذا العمل بوصف ذلك موقفاً تتخذه إزاء ما أقدمت عليه الدولة الإيرانية.

إن التأكيد على دور التعزية في نشر الهويّة الشيعية من جانب الموافقين والمخالفين علامة أخرى على هذا الموضوع؛ إذ يعتقد بعضهم أنّ مثل هذه الأعمال تساهم في نشر هويّة الشيعة، وأنّ الاستعمار ليس أمامه من سبيل لإلغاء التشيع وإفنائه سوى مواجهة هذه النماذج من ألوان التعزية، ومن هذه الزاوية، يُرى أنّ المخالفين للتطبير أو هذا النوع من الأعمال ـ شاؤوا أم أبوا ـ قد وقعوا أنفسهم فريسةً للاستعمار[٢]. وفي محصلة الأمر يلزم ـ وفق هذا التصوّر ـ الدفاع عن مختلف ألوان العزاء، بل أكثر من ذلك، من الضروري اختلاق ألوان جديدة كلّ عام، أما المعارضون لهذه الأعمال فيرون أن الاستعمار نفسه هو الذي يسعى إلى ترويج هذه الأفعال بين الشيعة والمسلمين عموماً، ولا هدف له من ذلك سوى تشويه صورة الشيعة والإطاحة بإيمانهم[٣].

من هنا، وبدل أن يستفيد الشيعة من تعاليم الإسلام الأساسية نجدهم متأثرين بالعدو، ولا أقل أنّهم بدعمٍ منه اختاروا سبيلاً غير مناسب للتديّن ووحّدوا بين القالب والمحتوى، بين الصورة والمضمون، فغدوا أسرى لأعمال ظاهرية كاذبة وخدّاعة، إنّ هذا التأثير الميداني الاجتماعي الذي يظهر أحياناً بوصفه مظهر نشر الهوية الشيعية في بعض النقاط في العالم، يُبدي نفسه بوضوح في الإشكالات والمعارك المذهبية والتصادمات الطائفية في شبه القارة الهندية، ففيما يقوم الشيعة

(١) فتاوى العلماء الأعلام: ٢١.

(٢) عزاداري از ديدكاه مرجعيت شيعه: ٨١؛ وفتاوى العلماء: ٣؛ والشعائر الحسينية: ٢٢.

(٣) نعم، السيد محمد الشيرازي له وجهة نظر أخرى هنا، فقد سُئل عن تضعيف التطبير للإسلام، فكان جوابه: «بالعكس، يقوّي الإسلام»، انظر: فتاوى علماء الشيعة، وذلك على صفحة الانترنت: www.alborhan.com

هناك بمراسم العزاء في شهر محرّم، يقدم أهل السنّة في الأيام عينها على عقد الاحتفالات، وهو ما يؤدي إلى نزاعات دموية، من هنا نجد أن شيعة الهند ـ حتى المثقّفين منهم ـ يعارضون مختلف أنواع الإصلاح في أعمال العزاء[1]، فبعض الاشتباكات والمصادمات التي تحصل سنوياً في عشرة المحرم سيما في عاشوراء في باكستان وعلى أثرها يذهب ـ أحياناً ـ العشرات من الشيعة الأبرياء ضحايا لقنابل ومفخخات مذهبية إنما تنبعث من هذه المسألة عينها، فإذا كانت الحال كذلك، وكان يمكن أن نختار ألواناً من العزاء ندرسها في زاويتها الاجتماعية ألا يمكننا بل ألا يجب علينا أن نضع الأعمال العزائية في إطار التوظيف الإيجابي والنفعي، ونتعاطى معها بالمنطق المصلحي والضرري فنزنها وفقاً للمنفعة والمضرّة؟!

من هنا، وبعيداً عن المسائل الفقهية وتاريخية بعض هذه الأعمال التي تقام بعنوان العزاء واسمه، لابد لنا أن نعرف إلى أيّ حدّ قامت هذه الأعمال التي لا أساس ديني نصّي لها ـ وعلى المدى البعيد ـ بخدمة الشيعة وحفظ هويتهم الاجتماعية؟ وبعدها نقوم بإصلاحها ونشمّر عن ساعد الجدّ لإعادة إنتاجها مرةً أخرى، والشيء الذي يساعدنا في هذا المضمار أنّ مدافعي التطبير ومختلف ألوان العزاء أنفسهم أيضاً يقبلون أنّ هذه الصور والأشكال العزائية ليست تعبّديةً، وأن كل ما يكون بنفع العزاء الحسيني وترويج الفكر الشيعي يمكن اعتباره سنّةً دينية، فالشعائر الحسينية لا تنحصر بأعمال خاصّة، وإنما يُرجَع إلى العرف في تعيين مصداقها أو وضع شعيرةٍ جديدة.

---

(١) ميرفان، حركة الإصلاح الشيعي: ٣١٥.

# مجالس العزاء الحسيني.. بدعة أم سنّة؟

الشيخ رضا باباني(*)

ترجمة: محمد عبدالرزاق

## مدخل

إنّ إقامة العزاء والبكاء على الحسين عليه السلام قضية جوهرية نابعة من صميم الإسلام، ومع أنّ هذه السنّة المعنوية الروحية مما اشتهرت به الشيعة، إلا أنّ أدلّتها لم تقتصر على مذهبٍ خاص؛ حيث يمكن الاستدلال عليها بجملة من الفتاوى والنصوص المأثورة عن مختلف المذاهب الإسلامية. ولن نتطرّق هنا للأحاديث والأخبار المثبّتة في كتب الشيعة؛ فلا ينبغي الاستدلال على أسس مذهب ما من مصادره، ناهيك أنّ جلّ ما يرتبط بالنصوص والروايات الشيعية الدالّة على صحّة إقامة العزاء الحسيني قد جمعت في موسوعات مختلفة، ولا حاجة لذكرها في هذه العجالة. أمّا موضوع البحث الحالي فهو الردّ على «تبديع مسألة العزاء الحسيني»، ويمكننا أن نبدأ الحديث في ذلك من محطّاته البعيدة من قبيل «فوائد البكاء» و«آثار إقامة العزاء»، لكننا سنسعى للولوج من المحطّات الأولى، متخلّين عن جملة من المقدّمات، على أهميتها.

## العزاء الحسيني وانطباق مفهوم الشعائر الإلهية

إذا لم تكن إقامة العزاء والبكاء على مصائب الأولياء من أصول الدين أو فروعه، فليست بمنأى عنهما، والخطوة الأولى هي إثبات أهمية هذه السنّة المتأصلة في الأيديولوجيا الدينية، وتبيين مكانة إقامة العزاء على الأولياء ـ بشكل عام ـ وعلى الإمام الحسين ـ بشكل خاص ـ في الإسلام، وإثبات ذلك عند الشيعة سهل المنال لن

(*) باحث، ومصحّح معروف.

يحتاج في بحثه إلى عناء طويل؛ لأنّ من لوازم أصل الإمامة إحياء ذكر الأئمة، وهو لا يتحقق إلا بموالاتهم والتبرّي من أعدائهم، ولا داعي للتذكير بأنّ إقامة العزاء الحسيني هو من أبرز مصاديق التولّي والتبري. إذاً فالبكاء والعزاء نقطة البداية في إحياء أصلٍ من أصول الدين، وهو الإمامة، فتقوى بذلك شوكته.

لعلّ عنوان «تعظيم الشعائر الإلهية» ـ علاوة على ما تقدم ـ هو الأكثر انسجاماً من بين النصوص القرآنية مع فكرة المراسم الحسينية: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ (الحج: ٣٢)؛ فالشعائر جمع شعيرة بمعنى العلامة، وقد ذكر القرآن بعض مصاديقها مثل «الصفا» و«المروة»[١] و«ذبح الهدي في منى»[٢]، فإذا كانت هذه المناسك مقدّسةً ومن علامات الباري لمجرّد انتسابها إليه وتعلّقها به، فمن باب أولى أن يكون أولياء الله من مصاديق تلك الشعائر الإلهية.

ثم إنّ لتعظيم الشعائر سبلاً متعدّدة، منها الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، فإذا كانت الجمادات من قبيل الكعبة والصفا والمروة ومنى وعرفات جديرةً بالتقديس والاحترام؛ لارتباطها بمفهوم شعائر الله، أفلا يُعتبر تكريم أوليائه وأحبّائه تعظيماً لهذه الشعائر؟ يضاف إلى ذلك، أنّ وصية الرسولﷺ بالإحسان لذويه تمثل دليلاً آخر على صدقية مراسم العزاء، فقد جاء في القرآن الكريم على لسان النبيﷺ وخطاباً للمؤمنين: ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ (الشورى: ٢٣)، إذاً فقد اقترن أجر الرسالة بمودّة ذوي قربى الرسول، والمودّة متجليةٌ في البكاء على مصائبهم والابتهاج بأفراحهم.

وليس الحزن والبكاء من الأمور الاختيارية حتى تشملهما أحكام الأمر أو النهي، فالإنسان بطبيعته لا يبكي عن سبق إرادة وتصميم، كما أنه لن يجد مناصاً من البكاء إذا توفرت مقدّماته؛ وعليه فالنهي عن البكاء أمرٌ عبثي من قبيل النهي عن تصرُّم الزمن، نعم، قد تكون شروط البكاء وتوفير أرضيّته المساعدة مما يمكن للإنسان التحكّم به، فيمكن أن تخضع لأحكام الأمر أو النهي؛ إذاً فالمراد من النهي عن البكاء النهيُ عن مقدماته.

---

(١) البقرة: ١٥٨.

(٢) الحج: ٣٦.

ويندرج حكم البكاء وإقامة العزاء على الموتى ـ من حيث المبدأ ـ تحت مبدأ الإباحة، فلا يشملُه موضوعٌ من مواضيع النواهي الشرعية، وبالإضافة إلى السيرة النبوية وأخبارها هناك نصوص روائية عديدة تؤيد إباحة هذا النوع من البكاء في تاريخ الإسلام.

نعم، روى البخاري في صحيحه أحاديث تدلّل على أن بكاء أهل الميّت سببٌ في عذابه: «إنّ المَيتَ لَيُعَذَّب ببكاء أهلِه عليه»[1]، وقد وردت هذه الرواية عن الخليفة الثاني نقلاً عن الرسول ﷺ، في معرض نهيه (عائشة) عن البكاء في مأتم النبي ﷺ.

وثمة رواية أخرى تُنسب إليه ﷺ أشار فيها إلى تعرّض الميّت للعذاب نتيجة النوح عليه: «يُعَذَّبُ في قَبرِهِ بِالنِيَاحَةِ عليه»[2]، وتنقل هذه الرواية من طريق عبدالله بن عمر في حوارٍ مع عائشة في مأتم زوجها ﷺ. وقد ذكر في كتب الأخبار ردّ عائشة على الخليفة الثاني وابنه بالآية (١٦٤) من سورة الأنعام: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، فهي تريد أن تقول لهما: بأنّه حتى لو كان البكاء ذنباً فلا جريرة على الميت، وبما أن هذا الحديث مخالف للقواعد العقلية والعدل الإلهي، فلن يكون ـ بلا شك ـ من كلام الرسول ﷺ.

يقول النووي ـ من علماء الشافعية ـ تعليقاً على هذه الأحاديث: «هذه الروايات كلّها من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبدالله، وأنكرت عائشة عليهما ونسبتهما إلى النسيان والاشتباه، واحتجّت بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾»[3].

وكتب السيد عبدالحسين شرف الدين بعد نقله كلام النووي: «وأنكر ابن عباس هذه الروايات، واحتجّ على خطأ راويها، والتفصيل في الصحيحين وشروحهما، وما زالت عائشة وعمر في هذه المسألة على طرفي نقيض، حتى أخرج الطبري في حوادث سنة ١٣ عند ذكر وفاة أبي بكر في الجزء الرابع من تاريخه

---

(١) صحيح البخاري ٢: ٨٠.

(٢) سنن النسائي ٤: ١٤.

(٣) شرح صحيح مسلم المطبوع في هامش القسطاني وزكريا الأنصاري، المجلد الخامس: ٣١٨، نقلاً عن عبدالحسين شرف الدين، المجالس الفاخرة:١٧؛ ومنتهى الآمال، تاريخ حضرة سيد الشهداء، الخاتمة.

بالإسناد إلى سعيد المسيّب قال: لما توفي أبو بكر أقامت عليه عائشة النوح، فأقبل عمر بن الخطاب حتى أقام ببابها، فنهاهنّ عن البكاء على أبي بكر، فأبين أن ينتهين، وقال عمر لهشام بن الوليد: أدخل فأخرج إليّ ابنة أبي قحافة، فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر: إنّي أحرم عليك بيتي، فقال عمر لهشام: أدخل فقد أذنت لك، فدخل هشام فأخرج أم فروة أخت أبي بكر إلى عمر، فعلاها بالدرّة فضربها ضربات، فتفرق النّوح حين سمعوا بذلك»(١).

ومن الأحاديث المتقدّمة يخرج صاحب (المجالس الفاخرة) بالنتيجة التالية: «كأنّه لم يعلم إقرار النبيﷺ عمل نساء الأنصار في البكاء على موتاهنّ ولم يبلغه قولهﷺ: لكن حمزة لا بواكي له. وقولهﷺ: على مثل جعفر فلتبك البواكي، ولعلّه سهى نهي النبيﷺ إياه عن ضرب البواكي يوم ماتت رقية بنت رسول اللهﷺ»(٢).

علاوةً على ما تقدّم، فإنّ كتب التاريخ والسيَر مليئةٌ بأفعال النبي وقوله وتقريره على صحّة البكاء في عزاء المؤمنين، منها بكاؤهﷺ يوم توفي عمّه أبو طالب(٣)، وهكذا يوم استشهاد الحمزة(٤) وجعفر(٥) وزيد بن الحارثة(٦) وعبد بن رواحة(٧)؛ فقد روت المصادر شدّة بكاء الرسول على حمزة حتى أغمي عليه(٨)، كما بكى أيضاً على جنازة ولده إبراهيم، فسأله عبدالرحمن بن عوف قائلاً: «وأنت يا رسول الله؟!» فكان جوابه ردّاً على كل أولئك الذين يرون في البكاء وإقامة العزاء بدعةً من البدع: «إنّ العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربنا»، إذاً فالعين تدمع لحزن القلب، ولا يحزن القلب دون أن تذرف العين ماءها(٩).

---

(١) المجالس الفاخرة: ١٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) يراجع: السيرة الحلبية، باب أبي طالب وخديجة: ٤٦٢، نقلاً عن المجالس الفاخرة: ١٣. وقد ذكر مؤلّف المحاسن مصادر عديدة لهذا الخبر وما يليه.
(٤) السيرة الحلبية ٢: ٣٢٣، نقلاً عن المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) صحيح البخاري ١: ١٥٥، أبواب الجنائز، ويأتي تشبيه البكاء بحزن القلب هنا للدلالة على

وهناك روايات أيضاً تشير لبكاء الرسول على قبر أمّه آمنة[1]، ويذكر الحاكم النيسابوري في مستدركه بكاءَ فاطمة على قبر الحمزة كلّ يوم جمعة: «كانت فاطمة (رضي الله عنها) تبكي وتصلّي عند قبر عمّها الحمزة كل يوم جمعة»[2].

لقد باتت هذه السنّة الإنسانية والدينية متعارفاً عليها في زمن الرسول ﷺ، بحيث لم يبق مجال لأحد أن يشكّك في جوازها أو حرمتها فيسأل عنها؛ حيث يروي المؤرخون توافد المسلمين على قبر الرسول وبكائه بكاءً موجعاً، دون أن يعترضهم أحدٌ من الصحابة أو التابعين فينهى عن ذلك. إنّ هذه الروايات الجمّة والسيرة المنقولة مكّنت الرواة والمحقّقين من ردّ روايات المنع أو الجمع بينها إن ساعدت الأدلّة على ذلك[3].

## معارضو العزاء الحسيني، الأدلّة والمنطلقات

لم يكن المخالفون لمسألة البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام على شاكلة واحدة، بل تعدّدت مشاربهم وانقسموا إلى مجموعات ثلاث:

**المجموعة الأولى**: وهم الذين انطلقوا من اتجاههم السلفي، فنسجوا أدلتهم الشرعية والتاريخية ضدّ إباحة البكاء على الحسين عليه السلام.

**المجموعة الثانية**: وهم الذين جاء رفضهم للموضوع حفاظاً على مصالحهم السياسية.

**المجموعة الثالثة**: وهم أرباب التصوّف والعرفان.

وسنتناول كلّ مجموعة بالنقد والتحليل:

### ١ . الاتجاه السلفي، نظرية المخالفة الشرعية

يعتبر المذهب الوهابي وأتباع ابن تيمية مسألة البكاء على الحسين عليه السلام أو

---

اتحادهما في حكم الجواز.

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٧؛ والسمهودي، وفاء الوفا ٢: ١١٢.

(٢) وفاء الوفا ٣: ١٣٦١.

(٣) العلامة الأميني في الغدير؛ والسيد شرف الدين في المجالس الفاخرة؛ وآية الله جعفر السبحاني في (آيين وهابيت).

غيره من الموتى والشهداء أمراً مخالفاً للشرع والدين، وأنه بدعة فيه وخروج على السنّة النبوية وسيرة السلف؛ فقد بذل ابن تيمية ـ من علماء الحنابلة ـ قصارى جهوده للوقوف بوجه العقائد الشيعية وتفنيدها، وذلك عن طريق تفسير بعض الآيات ونقل جملة من الروايات، ثم جاء من بعده تلميذه «ابن القيم» فنشر آراءه وزاد من الدفاع عنها في كتابه «زاد المعاد في هدى خير العباد»، ومنذ ذلك الوقت بدأت مؤلّفات الشيعة والسنّة تدور حول نقد وردّ أو دعم وتأييد أفكار ابن تيمية، فعلى صعيد علماء الشيعة تجدر الإشارة إلى كتاب «إحقاق الحق» للقاضي نور الله الشوشتري، و«عبقات الأنوار» لمير حامد حسين، و«الغدير» للعلامة الأميني، و «المراجعات» للسيد شرف الدين. ولعلماء السنة أيضاً تأليفات عديدة في ردّ تلك الأفكار لا يسع المجال لإحصائها.

على كل حال، يبقى ابن تيمية وأتباعه وأبرزهم محمد عبدالوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ) من أشدّ المخالفين لموضوع البكاء وإقامة عزاء سيد الشهداء عليه السلام.

لقد قدّم علماء وكتّاب الشيعة والسنّة نقوداً عديدة على المعتقدات السلفية بأدلّة بيّنة من الكتاب والسنّة، ممّا لم يُبق حاجةً للخوض في تفاصيلها هنا. وما نريد إضافته هنا هو أنّ مواقف السلفية ونزاعاتهم وتحريمهم لمواضيع البكاء والتوسّل والزيارة وطلب الشفاعة، ذلك كلّه كان في حقيقته مخالفةً صريحة لجوانب مهمّة ومسلّمة في الشريعة والقرآن والسنّة؛ فلقد تمسّك ابن تيمية وأتباعه في تثبيت عقائدهم ببعض الأدلّة الضعيفة من سيرة السلف، ولإحكام تلك الأفكار كان عليهم تجاوز جملة من أخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسيرته.

وأهم ما توصّلت إليه هذه الفرقة بخصوص البكاء على الموتى والشهداء كونه بدعة لا دليل شرعي أو نصّي من سيرة السلف يؤيّده، ومعلوم أنّ ردّ ذلك متحقّق بمجرد إثبات نصّ معتبر أو حادثة تأريخية تروي البكاء على أحد الموتى أو الشهداء، والتاريخ الإسلامي بمصادره الأصلية يذكر لنا نماذج عديدة على ذلك، من قبيل بكاء الأولياء والأنبياء على بعض الموتى والشهداء. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الفرقة تقول بالحرمة، وهو ما يحتاج إلى أكثر من دليل على ثبوته. أما من يقول بالإباحة ـ وهي الأصل ـ فيكفيه في الإثبات أيّ دليل يقدّمه، فكيف إذا كانت هناك

مئات وآلاف النصوص والأدلّة على ثبوت هذه القضية وإباحتها؟!

من هنا، تقاطرت البحوث والردود على هذه الأفكار وخلّفت لنا مكتبات العلماء الأعلام رصيداً واسعاً في هذا المجال، ونحن بدورنا نحيل القارئ لمطالعة تلك الكتب أمثال: إحقاق الحق، والمراجعات، والمجالس الفاخرة.

## ٢ . الاتجاه السياسي السلطوي، نظرية الرفض السياسي

لم تأتِ مخالفة البعض لمراسم العزاء الحسيني نتيجة استدلالات شرعية أو نصّية، بل كانوا يبرّرون منعهم لها بما فيها من العواقب السيئة (!) فرأوا في تجنّبها مصلحةً في الحفاظ على وحدة الكيان الإسلامي؛ فإقامة المجالس الحسينية مدعاةٌ لبث الفرقة والتنازع بين المسلمين؛ نظراً لما تتضمنّه من طعن ولعن لبعض الصحابة، يقول ابن حجر في الصواعق المحرقة نقلاً عن الغزالي: «لا ينبغي للخطيب وغيره رواية مقتل الحسين، وأيضاً رواية ما يدور بين الصحابة من سجالات وخصام؛ لأنّ ذلك يستوجب الطعن بأعلام الإسلام والدين..»[(١)].

إذن ـ وفقاً لذلك ـ لا ينبغي لأحد الحديث عن مصائب أهل البيت وحادثة العبرات (عاشوراء)؛ لأنّ هذا حديثٌ فيه قدحٌ بالصحابة وغيرهم من الرواة والأعلام في صدر الإسلام!

وفي زماننا الحاضر أيضاً، تتكرّر هذه الأفكار بعبائر مختلفة، فقد دعا الحرص أو الغفلة بعضهم إلى الاعتقاد بأنّ وحدة المسلمين تُحفظ بتجنّب مثل تلك الروايات من صدر الإسلام، بحيث وصل بهم الأمر إلى إهمال مبدأ «البراءة» بشكل كلّي.

ومن الطبيعي أنّنا لا نرفض هذه الفكرة بجميع جوانبها؛ فقد تخضع المسألة لمتطلّبات العصر فيحصل فيها تغيير، كإقامة الشيعة لمجالس العزاء بشكلٍ أكثر إعتدالاً ومحافظة، لكن لا أنّ يجيء ذلك على حساب طمس الحقائق التاريخية والمسلّمات الشرعية؛ فلم يترك الأئمة وعلماء الشيعة الأعلام ذكر مصائب أبي عبدالله عليه السلام حتى في أصعب ظروفهم السياسية، بل كانوا يقومون بواجبهم وفقاً لما يتناسب مع الظروف الحاكمة في عصرهم. نعم لا بد من الاعتراف بوجود بعض

---

(١) الصواعق المحرقة: ٢٢٣.

أشكال العزاء التي لم تعد على المذهب الشيعي إلا بالضرر، وهو ضرر ناتج عن شكل من أشكال العزاء لا عن أصل إقامته.

أمّا فيما يخص كلام الغزالي وتحريمه رواية مقتل الحسين عليه السلام على الخطباء بذريعة الإفتاء في صالح الدين والحفاظ على حرمة الصحابة، فيمكن مؤاخذته من حيثيات مختلفة، منها أننا لو سلّمنا باستدلاله للزم أن نعمل بخيار الصمت في كلّ خلاف ينشأ بين المسلمين يدعوهم للنزاع؛ تجنّباً للتصعيد والتناحر، وليست واقعة كربلاء إلا نتيجة لهكذا نوع من الصمت والمحاباة، فلو أنّ المسلمين حزموا أمرهم ووقفوا مع جانب الحقّ لما حصل ما حصل في عاشوراء، ولو أنّ الشيعة اتبعوا ـ من بعد عاشوراء ـ ما صنعه المسلمون الأوائل في السقيفة والجمل وصفّين لكان التاريخ أكثر ظُلماً ولامتلأت صفحاته بحكّام الجور أكثر ممّا هو عليه الآن، فلم تأتِ مواقف الشيعة هذه عن اجتهادات شخصية، إنما استندوا في ذلك للعديد من الروايات التي تؤكّد على ذكر مصائب الإمام الحسين عليه السلام وإحيائها.

ناهيك مما كان ولا تزال تمثله مجالس العزاء الحسيني من محاضرات ودروس للجماهير الجالسة تحت منابرها؛ فتشرح لهم عقائد دينهم وأحكامه الشرعية، إلى غير ذلك من قصص التاريخ والسياسة في الدين وغيره، لقد كانت تلك المجالس منهلاً لرجال التقوى والصلاح والباحثين عن الحق وأهله، ومنطلقاً للوقوف بوجه الباطل وأهله، فلا يعني تركها إلا تركاً لجانبٍ مهمّ من نظام التعليم الديني؛ لذا علينا أن نتنبّه للمحدقين بنا من أعداء الدين والإنسانية كي لا يفسدوا علينا ما قطعنا من أشواط وحقّقنا على طريق الوحدة والتضامن بيننا نحن المسلمين.

نعم، هناك بعض الأنماط من العزاء الحسيني تصبّ في صالح أعداء الإسلام ممّن لا يرغب في بقاء الشيعة أو غيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى.

من جهة أخرى، لم نشاهد الغزالي وغيره ممن يدوّن أمثال هذه النصائح في الرسائل والكتب قد عملوا بها وتغاضوا وسكتوا مع الفرق والمذاهب التي خاضوا معها نزاعاتهم الفكرية والدينية، فالمطلعون على مباحث علم الكلام وتاريخ الحضارة الإسلامية يلمسون عن كثب شدّة تطرّف الغزالي وأتباعه في مواقفهم من الشيعة ـ لا سيما الإسماعيلية ـ في البحوث العقائدية، فلو كانت صفة التسامح مجديةً حقاً لما

كان لديه دافع في تأليف ردوده على الروافض والقائلين بالإمامة ليقدّمها بعد ذلك للخليفة العباسي أو الحاكم السلجوقي.

وعلى أية حال، نحن نؤمن بمبدأ الوحدة وأنّها من أهم الأصول والفروع في الوقت الحاضر، لكنّنا لا نرى في ذكر مصاب الحسين وإقامة العزاء عليه ـ بشكل عام ـ منافاةً لوحدة الإسلام وتلاحم أبنائه.

### ٣ ـ الاتجاه الصوفي، نظرية المخالفة العرفانية

هناك من يرى في إقامة العزاء على الميت ـ مهما علا شأنه ـ انحرافاً في العقيدة؛ معلّلين ذلك بأنّ الإنسان عندما يموت وتنفصل روحه عن بدنه ينتقل إلى جوار ربّه، وهذا أمرٌ جدير بالابتهاج والفرح؛ لأنّ من يموت أو يستشهد يتحقّق أملُه المنشود، وهو الاتصال بالعالم المعنوي ومجاورة الحق، كما هي حال المسيحيين في ذكرى استشهاد عيسى عليه السلام واحتفالاتهم بها، فعمل المسيحيين هذا يدلّ على أنّ عيسى في شهادته قد حقّق نجاحاً باهراً، لا الخيبة والفشل.

ويعدّ جلال الدين الرومي من جملة القائلين بهذا الرأي من بين علماء المسلمين؛ فهو يروي في مثنوياته ـ الكتاب السادس ـ قصّة شاعرٍ دخل مدينة حلب يوم عاشوراء وتفاجأ بطقوس أهلها في مثل هذا اليوم، وهي إقامة العزاء والمآتم على سيّد الشهداء عليه السلام، وبما أن الشاعر لا يعرف صاحب العزاء، أخذ يسأل الناس عنه؛ علّه يشارك بشعرهِ في رثائه، فقالوا له: اليوم ذكرى استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: لكنّه مات قبل قرون، أما العزاء والمأتم فأقيموه على أنفسكم، فهو ليس بحاجة له؛ لأنه أسعد إنسان في مثل هذا اليوم؛ وأنشد يقول:

إبكوا على غفلتكم؛ لأنّ الجهل أبشع مراتب الموت
الروح تشمخ إن تخلّت عن الجسد
فلمَ نبكي ويعرونا السواد
إنّ هذا لسليل المصطفى صلى الله عليه وآله
بعروجه غنّوا وكونوا فرحين
فهو قد نال بذلك سعادةً أبدية

وتخلّى عن قيود الدنيا الغرور[١].

وتأسيساً على هذه الرؤية الغريبة، ينبغي لنا أن نبتهج ونفرح لكلّ من يهجر هذه الدنيا.

وللردّ على ذلك نقول:

**أولاً:** إنّ ما يذهب إليه المسيحيون في فرحهم على قصّة عيسى عليه السلام ناتج عن خرافة اعتقدوا بها تقول بأنّ عيسى قُتل ليكفّر عن خطاياهم، إذاً فموته باعثٌ على السعادة الأخروية عندهم.

**ثانياً:** إنّ في ذلك يكمن الفرق بين الدين الإسلامي والمسيحية المحرّفة؛ فالإسلام مذهبٌ اجتماعي بينما بقيت المسيحية داخل أطر النصُح الأخلاقية ومثاليّاتها. من جهة أخرى، تختلف قراءتنا لحادثةٍ معينة بين النظرة الفردية والاجتماعية، فمن الناحية الفردية ينظر الإسلام لحادثة الحسين عليه السلام على أنه إمام حقّق بموته سعادة الدنيا والآخرة، وهو القائل: «خطّ الموت على وُلد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف»[٢]، فقد تكامل الحسين بعناوين الشهيد والشهادة. يقول الإمام علي عليه السلام بعدما نزل على هامته سيفُ الخوارج: «والله ما فجأني من الموت واردٌ كرهته أو طالع أنكرته، وما كنتُ إلاّ كقارب ورد وطالب وجد»[٣].

لكنّ الإسلام له موقفه على الصعيد الآخر للحادثة، ولا يكتفي بالجانب الفردي والشخصي؛ فهل هناك فرق بين الرؤية الفردية والاجتماعية لحادثة عاشوراء؟ لقد مثلت عاشوراء بالنسبة لمرتكبيها مشهد الانحطاط الذي عاشه المجتمع الإسلامي آنذاك؛ لذا لا بد من إحياء هذه الذكرى الأليمة والاعتبار بها لئلا تتكرّر مأساتها مرةً أخرى[٤].

زد على ذلك، كيف للمسلمين أن لا يحزنوا لاستشهاد ابن بنت نبيّهم، فيما

---

(١) مثنوي معنوي، نسخة نيكلسون، الكتاب السادس، رقم الأبيات: ٧٩٦ ـ ٧٩٩.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦؛ واللهوف: ٢٥؛ ومقتل الحسين للخوارزمي ٢٢: ٥؛ وكشف الغمة ٢: ٢٩.

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ٢٥٤؛ ونهج البلاغة: ٨٧٥.

(٤) الشهيد مطهري، الحماسة الحسينية ١: ١٢٨ (بتصرّف).

الرسولﷺ بكاهُ حيّاً يومَ ولادته؟! أي قبل يوم عاشوراء بسنين عديدة؛ فوفقاً للأخبار والأحاديث الواردة في كتب الفريقين، ذكر الرسول حادثة الحسين متوجّعاً في أكثر من موضع، فقد أخرج ابن سعد عن الشعبي قال: «مرّ عليّ بكربلاء عند مسيره إلى صفين فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه فقال: دخلت على رسول اللهﷺ وهو يبكي فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ قال: كان عندي جبرائيل آنفاً، وأخبرني بأنّ ولدي الحسين يقتل بشاطئ الفرات بموضعٍ يقال له: كربلاء، ثم قبض جبرائيل قبضةً من ترابه وشمّمني إياها»[1].

تأسيساً على ذلك، ليس موقف الشيعة في البكاء على الحسينعليه السلام وإقامة مجالسه تجسيداً ومنطلقاً من صميم الفكر الديني فحسب، بل إنّ معهم رصيداً وافياً من السنّة والسيرة النبوية دليلاً على صحّة معتقدهم ورجحان عملهم.

وكلمتنا الأخيرة في هذا البحث هي: إنّ موضوع البكاء وإقامة العزاء من قبل الشيعة على سيد الشهداء، علاوة على صحّته عقلاً وشرعاً، له أيضاً إيجابيّات في الواقع العملي بما يصبّ في صالح الدين والمجتمع، وإن فلسفة مجالس العزاء الحسيني بحدّ ذاتها مقولة ومبدأ بحاجة لدراسات مستقلّة ونظرة فاحصة، أما ما تطرّقنا له هنا فكان إثبات هذه المقولة في النصوص الدينية والردّ على منكريها.

(١) القندوزي، ينابيع المودة، الباب ٦٠، الأحاديث الواردة في شهادة الحسينعليه السلام.

# البكاء على الحسين عليه السلام

## نقد في السند والمتن لبعض نصوص الرثاء

د. محمد علي سلطاني(*)

ترجمة: محمد عبد الرزاق

### تمهيد

إنّ البكاء على سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في أيام عاشوراء ومحرّم وصفر، من معالم التشيّع بل وأهمها، منذ العصر البويهي ومعز الدولة الذي كان أوّل من أصدر أمراً بالحداد العام بهذه المناسبة، ودعا الناس فيها لممارسة طقوسهم بحرّية في ذكرى عاشوراء؛ فانطلقت المآتم وجرت الشعائر الحسينية في الأزقة والميادين(١).

وإذا كانت المهدوية عاملاً في تبلور الحركات والمذاهب السياسية في العالم الإسلامي، فلا شك أنّ حادثة كربلاء وإحياءها هو العامل الآخر في ظهور المتغيّرات السياسية في التاريخ الإسلامي، والأهم على صعيد التشيّع.

وأبرز ما يميّز شعائر كربلاء ونهضتها أمران: أحدهما تلك الحركات الثورية التي أعقبت الحادثة ثأراً للدماء التي سالت على رمضاء الغاضرية، فبات كلّ حاكم ظالم يزيداً أو شمراً أو ابن زياد آخر، أي بعبارة أخرى: «كلّ يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء»، وفي هذا يتلخّص المشهد السياسي في تاريخ التشيّع الملهم من كربلاء. أما الجانب الآخر فهو انطباع الحادثة بطابع الحزن والبكاء وإحياء ذكراها كلّ عام، وهذا ما يعنينا من البحث في تقصّي الروايات الدالّة على تلك الطقوس والمراسم

---

(*) باحث في الحوزة والجامعة.

(١) دائرة المعارف بزرك إسلامي ١: ٦٤٠، بإشراف كاظم الموسوي البجنوردي، طهران، ١٣٧٣ش/١٩٩٤م.

الرثائية.

هناك العديد من الروايات والأحاديث الداعية إلى إحياء ذكرى سيد الشهداء بالنوح والبكاء؛ فالكتب الروائية مليئة بشواهدها، ولطالما تناقلها الخطباء على منابرهم، وهذه الروايات ـ كغيرها من الأحاديث المروية ـ منها الصحيح ومنها الضعيف أو الموضوع، فهناك ما يستحقّ الدفاع عنه؛ وإثباته نظراً لقوّة سنده واعتبار متنه، كما وهناك ـ أيضاً ـ ما لا يمكن قبوله بوجهٍ من الوجوه نظراً لضعفه في السند أو المتن، وهذا التداخل هو الذي عقّد أداء الخطباء الملتزمين بالبحث عن الحقيقة، حتى أنّ هذا التعقيد قد يجرّ بعضهم إلى تشويه صورة كربلاء لدى المستمع وتحريفها دون أن يكون لديهم قصد مسبق إلى ذلك؛ من هنا، تظهر الحاجة الملحّة إلى تفحّص تلك الأحاديث والروايات سنداً ومتناً، وفصل صحيحها عن سقيمها، تسهيلاً لعمل المهتمّين بهذا الجانب من كتّاب وخطباء ومؤرّخين.

## الحاجة إلى نقد روايات السيرة الحسينية

وقبل الولوج في صلب البحث، علينا أن نذكر بأنّ نقد روايات كربلاء أو غيرها من الحوادث التاريخية لا يعدّ مساساً بحيثياتها أو انتقاصاً من منزلتها، إنما ـ وعلى العكس من ذلك ـ تعزيزٌ لموقفها وترسيخ لمبدئها، كذلك علينا أن لا نتهيّب من بعض النصوص حتى المشهورة منها؛ لأنّ ما ارتبط بالعاطفة يكون أوفر أرضيةً للوضّاعين والمستغلّين لمثل هذه الأجواء، ومن الطبيعي أن تنال كلماتهم شيوعاً وانتشاراً أكثر بين الناس.

من جانبٍ آخر، لا ينبغي أن يقودنا وجود هذه الأحاديث في بعض المصادر المرموقة وكتب بعض الأعلام الثقات إلى التغاضي عن مراجعتها وتحقيقها، ومن ثمّ نقدها نقداً موضوعياً، تعويلاً على استبعاد الخطأ عن أولئك الأفذاذ في إثباتها، فهم بشرٌ معرّضون للخطأ ولا تعصمهم شهرتهم وعلميّتهم عن الوقوع فيه؛ لاسيما في المسائل التي تشحّ مصادرها فتتضاءل المعلومات حولها، وهذه عوامل قد تحول دون وصول الباحث للحقيقة والصواب قبل هذا الوقت، بينما قد سهّلت بعض الوسائل المتاحة اليوم مهمّة ذلك؛ فزاد التدقيق والتحقّق من المعلومة الواردة في المصادر والمراجع قبل التعامل معها.

إضافةً إلى ذلك، قد يخضع الأعلام أنفسهم لما يتأثر به غيرهم من العواطف والأحاسيس، عندما تشكّل بدورها النواة الرئيسة لشحن أجواء بعض الأحاديث وإثباتها في كتبهم دون تمحيصها؛ لهذا ينبغي علينا أن لا نخشى النقد البنّاء ونتهيّب عواقبه؛ طالما الحقيقةُ ضالّتنا الوحيدة وغايتنا المثلى.

## بعض نصوص رثاء الحسينعليه السلام، وقفات نقديّة في السند

هناك أكثر من أربعين حديثاً، نصّت مضامينها بشكل مباشر على رثاء الحسينعليه السلام واشتملت العديد من الأحاديث والأخبار الأخرى على إشارات ضمنية على استحسان هذا الموضوع والحضّ عليه. وقد وردت جلّها في (كامل الزيارات) لابن قولويه، بالإضافة لما ورد في كتب أعلام الطائفة الشيعيّة، كالصدوق والطوسي والبرقي وغيرهم. وهنا سنتطرّق ـ بدايةً ـ لأحاديث (كامل الزيارات)، ومن ثم بعض الكتب الأخرى.

أثبت ابن قولويه جملةً من الأحاديث تعدّ نصوصها مقتبسات من أحاديث أخرى إذا ما قورنت بها، وقد نقل بعضها بسندٍ واحد وبعضها الآخر بأسانيد متعدّدة، وأحياناً قد يتحوّل الكلام عن بعض الرواة والرجال إلى حديث إذا اتصلت أسانيدهم، ومن جملة تلك الأحاديث رواية عن الإمام الصادقعليه السلام سندها كالتالي: حدثني حكيم بن داوود، عن سلمة، عن يعقوب بن يزيد، عن محمد بن أبي عمير، عن بكر بن محمد، عن الفضيل بن يسار، عن أبي عبد الله. وهذا متن الحديث: قال: «من ذُكرنا عنده ففاضت عيناه ولو مثل جناح الذباب[1] غُفر له ذنوبه ولو كان مثل زبد البحر»[2]؛ فبالإضافة إلى مجهولية حكيم بن داوود، هناك إشكالية أخرى أهمّ في سند الرواية، وهي وجود سلمة بن الخطاب فيه، وهو من قرية من قرى الري تدعى (براوستان)، وقد ضعّفه جملة من الرجاليين أمثال: النجاشي، وابن الغضائري، وقالوا فيه: أبو الفضل البراوستاني الأزدورقاني قريةٌ من سواد الري، كان ضعيفاً

---

(١) مثل جناح البعوضة.

(٢) أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه، كامل الزيارات: ١١١، ح٨، نشر الصدوق، ١٣٥٧ش/١٩٧٨م، الطبعة الأولى.

في حديثه. وقال ابن الغضائري: إنه يكنّى أبا محمد، وضعّفه[١].

إلا أنّ البرقي أورد الرواية ذاتها في محاسنه نقلاً عن يعقوب بن يزيد، عن محمد بن أبي عمير، عن بكر بن محمد، عن الفضيل بن يسار عن الإمام الصادقعليه السلام، وسندها هنا خالٍ من الضعف[٢].

وقد نقل في كامل الزيارات حديثاً مشابهاً لهذا الحديث، عن فضيل بن فضالة، إلاّ أن ملاحظة رواة سائر السند يقودنا إلى الحكم بالخطأ الوارد في اسم الفضيل بن فضالة، وأنّ الصحيح هو الفضيل بن يسار. وقد نقل الرواية حكيم بن داوود عن سلمة عن علي بن سيف، بالنص التالي: «من ذُكرنا عنده ففاضت عيناه، حرّم الله وجهه على النار»[٣]؛ فعلى الرغم من عمومية لفظ الحديث وعدم اختصاصه بالإمام الحسينعليه السلام إلا أنّ عامّة المحدّثين أدخلوه في باب البكاء على الإمام الحسين، و قد نُقلت الرواية ذاتها عند الحميري في كتاب قُرب الإسناد، بنصّ أكمل، جعلها أعمّ بكثير من موضوع الإمام الحسينعليه السلام لتشمل مظلوميّة كلّ العلويين؛ فجاء النصّ كالآتي: حدثنا أحمد بن إسحاق، عن بكر بن محمد، عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «قال لفضيل: تجلسون وتحدّثون؟ قال: نعم، جعلت فداك. قال: إن تلك المجالس أحبها فأحيوا أمرنا. يا فضيل! فرحم الله من أحيا أمرنا. يا فضيل! من ذكرنا أو ذُكرنا عنده، فخرج من عينيه مثل جناح الذباب، غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر»[٤]

وكما يلاحظ، فإنّ الرواية لم تنصّ على قضية الإمام الحسينعليه السلام وعاشورائه، وإنما هي من مصاديقها البارزة، فالنصّ يتضمّن أيضاً الدعوة إلى ذكر سائر الشهداء العلويين أمثال: زيد، ويحيى وغيرهما بل هو شامل أيضاً لعامّة الشيعة ممن هُجِّر وعانى التعسّف والاضطهاد، وقد تضمّنت الرواية أيضاً التذكير أو التلميح بالحقّ

---

(١) محمد بن علي الأردبيلي الغروي الحائري، جامع الرواة ١: ٣٧٢، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٣هـ.

(٢) أحمد بن محمد البرقي، المحاسن ١: ٦٣، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، قم، المجمع العالمي لأهل البيتعليهم السلام، ١٢١٣هـ، الطبعة الأولى.

(٣) كامل الزيارات: ٢٠٧، ح ١٢.

(٤) عبد الله بن جعفر الحميري، قرب الإسناد: ٣٦، ١١٧، تحقيق: مؤسّسة آل البيتعليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٣٧١ش/١٩٩٢م.

المغتصب من الأئمةعليهم السلام، وما لا شك فيه أن تكون واقعة كربلاء واستشهاد قائدها وأصحابه المصداقَ الأجلى لذلك. وينقل صاحب الكتاب حديثاً عن الإمام زين العابدينعليه السلام هو الأكثر تطابقاً مع الرواية السابقة، وزاد من مناسبته لحادثة كربلاء كونه مروياً عن الإمام السجّاد، إلاّ أنّ الحديث لا يصمد سنده أمام التمحيص لضعفه وإليك المتن والسند: حدثني حكيم بن داوود بن حكيم، عن سلمة بن الخطاب، قال: حدثنا بكار بن أحمد القسّام والحسن بن عبد الواحد، عن مخول بن إبراهيم، عن الربيع بن منذر، عن أبيه، قال: سمعت علي بن الحسينعليهما السلام يقول: «من قطرت عيناه فينا قطرةً ودمعت عيناه فينا دمعة بوّأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً» [(١)]؛ فمضافاً لوجود سلمة بن الخطاب، هناك أسماء أخرى في السند أمثال مخول بن إبراهيم والربيع بن منذر وأبيه، وبكار بن أحمد القسّام وحسن بن عبد الواحد كلّهم مجهولون، أو غير موثقين في أقل تقدير.

وقد ذكر ابن قولويه الحديث أيضاً في موضع آخر مع تفاوت في السند والمتن، نقلاً عن الباقرعليه السلام، وفيه تنصيص على رثاء الحسين.. وهو كالتالي: حدثني حكيم بن داوود، عن سلمة بن الخطاب، عن الحسين بن علي، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفرعليه السلام قال: «أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسينعليه السلام دمعةً حتى تسيل على خدّه بوأه الله بها غرفاً في الجنّة يسكنها أحقاباً»[(٢)]؛ فموضوع هذه الراوية هو البكاء على مصاب الحسين، أما السند ففيه سلمة بن الخطاب، وقد تقدّم الكلام فيه.

وفي الكتاب رواية أخرى عن الإمام الحسينعليه السلام يصف فيها نفسه بقتيل العبرات، وهي مروية بثلاثة أسانيد، أحدها: حدثني أبي، عن سعد بن عبد الله، عن الحسين بن موسى الخشاب، عن إسماعيل بن مهران، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، قال: قال أبو عبد اللهعليه السلام: «قال الحسين بن عليعليه السلام: أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا استعبر»[(٣)]، بينما سقط من الآخرين المقطع الأخير من الرواية[(١)]،

---

(١) كامل الزيارات: ١٠٧، ح٤.

(٢) المصدر نفسه: ١١١، ح٩.

(٣) المصدر نفسه: ١١٦، ح٣.

وفي السند اسمان أشكلاه: أحدهما إسماعيل بن مهران المختلف في أمره، حيث قيل فيه: هو إسماعيل بن مهران بن محمد بن أبي نصر السكوني ـ واسم أبي نصر زيد، مولى كوفي وكنيتهُ أبو يعقوب ـ من الثقات المعتمد عليهم، وهو من أصحابنا، وقد روى عن أبي عبد الله عليه السلام، هذه هي وجهة نظر خلاصة الرجال ورجال النجاشي والفهرست، وقد جاء في الأخير: وقد التقى بالإمام الرضا عليه السلام وروى عنه. وعدّهُ أبو عمرو الكشي من أصحاب الإمام الرضا، وقال فيه ابن الغضائري: يكنّى أبا محمد، ليس حديثُه بالنقيّ، يضطرب تارةً ويصلح أخرى، وروى عن الضعفاء كثيراً، ويجوز أن يخرج شاهداً، والأقوى عندنا الاعتماد على روايته. ويقول العلامة الحلي في خلاصة الرجال: ويمكن الاعتماد على روايته؛ لتوثيق الشيخ والنجاشي له. وقال الكشي: حدثني ابن مسعود، قال سألت علي بن الحسن عن إسماعيل بن مهران، قال: رمي بالغلو، قال محمد بن مسعود: يكذبون عليه، كان تقياً ثقة خيراً فاضلاً[٢].

وبالرغم من اشتمال هذه الآراء على الاتهام والتضعيف في بعض الأحيان، إلا أنه يمكن الاعتماد على بعضها في ترجيح كفّة قبول رواية إسماعيل بن مهران.

الراوي الآخر في السند هو علي بن أبي حمزة، وقد تشدّد الرجاليون تجاهه، فقال فيه النجاشي: «واسم أبي حمزة سالم البطائني أبو الحسن مولى الأنصار، كوفي، وكان قائد أبي بصير يحيى بن القاسم، وله أخ يسمّى جعفر بن أبي حمزة، روى عن أبي الحسن موسى عليه السلام، وروى عن أبي عبد الله عليه السلام، ثم وقف، وهو أحد عمد الواقفة». وجاء في خلاصة الرجال: قال علي بن الحسن بن فضال: علي بن أبي حمزة كذّاب متهم ملعون. وقد رويت عنه أحاديث كثيرة وكتب تفسير القرآن كلّه من أوله إلى آخره، إلا أني لا أستحيل أن أروي عنه حديثاً واحداً. وفي الكتاب أيضاً عن ابن الغضائري: علي بن أبي حمزة ـ لعنه الله ـ أصل الوقف وأشدّ الخلق عداوةً للولي من بعد أبي إبراهيم عليه السلام. وقد ذكره الشيخ الطوسي في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. وروى الكشي في ذمّه روايات كثيرة منها: عن حمدويه، عن الحسن بن موسى، عن داوود بن محمد، عن أحمد بن محمد، قال: وقف علي أبو الحسن وهو رافع صوته يا

---

(١) المصدر نفسه، ح٤، و ١١٧، ح٥.

(٢) المصدر نفسه.

أحمد، قلت: لبيك، قال: إنه لمّا قبض رسول الله ﷺ جهد الناس في إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتمّ نوره بأمير المؤمنين عليه السلام، فلما توفي أبو الحسن عليه السلام جهد علي بن أبي حمزة وأصحابه في إطفاء نور الله، فأبى الله إلّا أن يتم نوره[١].

ويشير هذا الجانب من الروايات إلى جرح علي بن أبي حمزة البطائني، وعلى ذلك لا يمكن الاعتماد على ما يرويه، وإن كان مضمون الحديث المذكور خالياً من الخلل، لاسيما وأنّ القسم الأول منه نُقل في كامل الزيارات بسند مختلف عن السابق؛ ففيه لم ينقل الحسن بن موسى الخشاب عن إسماعيل بن مهران، وإنما عن محمد بن سنان عن إسماعيل بن جابر، عن الإمام الصادق عليه السلام[٢]؛ وقد دارت نقاشات الرجاليين حول محمد بن سنان بما يستشفّ منها عدم توثيقه، حتى أنه ينقل عن الفضل بن شاذان اتّهامه بشهرة الكذب. ونقل عنه: لا أحلّ لكم ترووا أحاديث محمد بن سنان، وعدّه من الغلاة، وهناك أيضاً من أيّده واعتمد أحاديثه كالشيخ المفيد، وينقل محمد بن سنان بدوره روايةً عن الكاظم تؤيّده، إلا أن روايته هذه لم تحظ بالقبول؛ لأنها مروية عنه. والمحصّلة من أقوال الرجاليين فيه هو الترديد في أمره[٣].

أما فيما يخصّ إسماعيل بن جابر ـ الراوي الآخر في السند ـ فيمكن الدفاع عن توثيقه على الرغم مما ورد في ذمّه.

وينقل كامل الزيارات هذه الرواية بسند آخر: عن محمد بن جعفر الرزاز، عن محمد بن الحسين، عن الحكم بن مسكين، عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام[٤]، وهو سند قوي لا إشكال يشوبه لاشتماله على أسماء شيعية بارزة، باستثناء محمد بن جعفر الرزاز إذا كان هو محمد بن جعفر بن محمد بن عون الأسدي ـ وهذا غير مستبعد ـ حيث توقف بعض الرجاليين في روايته كالعلامة الحلي؛ فهو وإن كان ثقةً صحيح الحديث إلاّ أنّه روى عن الضعفاء، وكان يقول بالجبر والتشبيه[٥]، لكن ذلك

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه: ٥٤٧.
(٣) المصدر نفسه: ٥٤٧.
(٤) انظر: جامع الرواة ٢: ١٢٣ ـ ١٢٨.
(٥) كامل الزيارات: ١١٧، ح٥؛ يُشار إلى وقوع خطأ في طبعة مكتبة الصدوق بتكرار سند الحديث الرابع في الحديث الخامس أيضاً.

كلّه لا ينطبق على ما نحن بصدده من رواية؛ لأنه هنا لم ينقل عن الضعفاء، وعليه تكون من رواياته الصحيحة.

وفي موضع آخر، ينقل صاحب كامل الزيارات أربع روايات مطوّلة في البكاء على الإمام الحسين عليه السلام، وهي ممّا تناقله أرباب المنابر وذاع على الألسن، إلا أن ما يؤسف له وجود راوٍ في سندها عُرف بالكذب؛ فأسقط الرواية من الاعتبار.

وبدايةً، نتناول أسانيد الروايات، ثم نستعرض متنها الكامل بالنقد والتحليل:

فسند الحديث الأول هو: محمد بن عبد الله، عن أبيه، عن علي بن محمد بن سالم، عن محمد بن خالد، عن عبد الله بن حمّاد البصري، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، عن عبد الله بن مسكان، عن أبي بصير.

وفي سند آخر: عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، عن أبي يعقوب، عن أبان بن عثمان، عن زرارة. وفي سند ثالث: عن مسمع بن عبد الملك كردين البصري، أما السند الرابع فهو كالآتي: عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن عبد الله بن المغيرة، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، عن عبد الله بن بكير الأرجاني.

كذلك لهذه الرواية سند آخر هو: عن سعد بن عبد الله، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن عبد الله بن زرارة، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، عن عبد الله بن بكير.

إنّ ما يؤخذ على هذه الأسانيد المتقدّمة جميعها وجود عبد الله بن عبد الرحمن الأصمّ في صلبها، وهو من أهل البصرة وكذّابيها - حسب خلاصة الرجال - وله كتاب في الزيارات ينمّ عن فساد عقيدته، وقد اعتبره العلامة الحلي والنجاشي ضعيفاً مغالياً لا قيمة لرواياته[١]، وأغلب الظنّ أن هذه الروايات مستخرجة من كتابه الدالّ على تهافت اعتقاداته؛ ولذا فهي روايات غير معتمدة، ولا تصلح للنقل والإثبات، ولوقوف القارئ على نصّ الروايات ودلالاته نوردها كاملةً للاطلاع وتجنّب نقلها.

## بعض نصوص رثاء الحسين عليه السلام، وقفات في النقد المضموني

**الحديث الأول:** عن أبي بصير، قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام أحدّثه، فدخل

(١) انظر: جامع الرواة ٢: ٨٦.

عليه ابنه فقال له: مرحباً، وضمّه وقبله، وقال: حقّر الله من حقّركم وانتقم ممّن وتركم، وخذل الله من خذلكم ولعن الله من قتلكم، وكان الله لكم ولياً وحافظاً وناصراً، فقد طال بكاء النساء وبكاء الأنبياء والصدّيقين والشهداء وملائكة السماء. ثم بكى وقال: يا أبا بصير! إذا نظرت إلى ولد الحسين أتاني ما لا أملكه بما أتى إلى أبيهم وإليهم، يا أبا بصير! إنّ فاطمةﷺ لتبكيه وتشهق فتزفر جهنّم زفرةً لولا أنّ الخزنة يسمعون بكاءها وقد استعدّوا لذلك مخافة أن يخرج منها عذق أو يشرد دخانها فيحرق أهل الأرض فيكبحونها، ما دامت باكية ويزجرونها ويوثقون من أبوابها مخافةً على أهل الأرض، فلا تسكن حتى يسكن صوت فاطمةﷺ. وإنّ البحار تكاد أن تتفتق فيدخل بعضها على بعض، وما منها قطرة إلاّ بها ملك موكّل، فإذا سمع الملك صوتها أطفأ نارها بأجنحته وحبس بعضها على بعض مخافةً على الدنيا وما فيها ومن على الأرض فلا تزال الملائكة مشفقين، يبكون لبكائها، ويدعون الله ويتضرّعون إليه، ويتضرّع أهل العرش ومن حوله، وترتفع أصواتٌ من الملائكة بالتقديس لله مخافةً على أهل الأرض، ولو أنّ صوتاً من أصواتهم يصل إلى الأرض لصعق أهل الأرض، وتقطّعت الجبال وزلزلت الأرض بأهلها. قلت: جعلت فداك، إنّ هذا الأمر عظيم، قال: غيره أعظم منه ما لم تسمعه، ثم قال لي: يا أبا بصير! أما تحبّ أن تكون فيمن يُسعد فاطمةﷺ؟ فبكيت حين قالها، فما قدرت على المنطق، وما قدرت على كلامي من البكاء، ثم قام إلى المصلّى يدعو، فخرجت من عنده على تلك الحال، فما انتفعت بطعام وما جاءني نوم، وأصبحت صائماً وجلاً حتى أتيتُه، فلما رأيته قد سكن سكنت، وحمدت الله لم تنزل بي عقوبة»[(١)].

هذه هي أولى روايات عبد الله بن عبد الرحمن الأصمّ، وبشيء من التأمل يمكن لمس الطابع السردي الأسطوري المهيمن على مضمونها؛ فقارئ النصّ يتخيّل له استقرار الإله والملائكة على جانب يقابله آخر يقطنه أهل الأرض، وأنّ هناك معركة دائمة ومبيّتة. أما نار جهنم فهي ما تفتأ أن تدخل صراعاً مع من هو موكّل بها من الملائكة، فتشهق وتزفر فيتدخّل الملائكة حفاظاً ورأفةً بأهل الأرض للحدّ من غضبها. إنّ هكذا نوع من الخطاب لا يتلاءم مع المخاطب ـ أي أبي بصير ـ ولا هو من شأن المتكلّم وهو الإمام، فما ورد في هذا المتن كفيلٌ بإثبات الافتعال والوضع

(١) المصدر نفسه ١: ٤٩٤.

فيه، مضافاً لكون كتاب الراوي خير دليل على الخبث والتهافت في المعتقد حسب رأي العلامة الحلي.

**الحديث الثاني**: منقولاً عن زرارة عن الصادقعليه السلام، قال: «يا زرارة! إنّ السماء بكت الحسين أربعين صباحاً بالدم، وإنّ الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإنّ الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة، وإنّ الجبال تقطّعت وانتشرت، وإنّ البحار تفجّرت، وإنّ الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسينعليه السلام، وما اختضبت منّا امرأة ولا ادّهنت ولا اكتحلت ولا رجلت حتى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، وما زلنا في عبرة بعده، وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيتَه، وحتى يبكي لبكائه ـ رحمةً له ـ من رآه. وإنّ الملائكة الذين عند قبره ليبكون، فيبكي لبكائهم كلّ من في الهواء والسماء من الملائكة، ولقد خرجت نفسهعليه السلام فزفرت جهنم زفرةً كادت الأرض تنشق لزفرتها، ولقد خرجت نفس عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية فشهقت جهنم شهقةً لولا أنّ الله حبسها بخزّانها لأحرقت من على ظهر الأرض من فورها، ولو يؤذن لها ما بقي شيء إلا ابتلعته، ولكنّها مأمورة مصفودة، ولقد عتت على الخزّان غير مرّة حتى أتاها جبرئيل فضربها بجناحه فسكنت، وإنها لتبكيه وتندبه وإنها لتتلظى على قاتله، ولولا من على الأرض من حجج الله لنقضت الأرض وأكفأت بما عليها، وما تكثر الزلازل إلاّ عند اقتراب الساعة، وما من عين أحبّ إلى الله ولا عبرة من عين بكتْ ودمعت عليه، وما من باكٍ يبكيه إلا وقد وصل فاطمةعليها السلام وأسعدها عليه، ووصل رسول الله وأدّى حقنا، وما من عبد يحشر إلا وعيناه باكية إلا الباكي على جدّي الحسينعليه السلام فإنه يحشر وعينه قريرة، والبشارة تلقاه، والسرور بيّن على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حداث الحسينعليه السلام تحت العرش وفي ظلّ العرش لا يخافون سوء الحساب، يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه. وإنّ الحور لترسل إليهم أنّا قد اشتقناكم مع الولدان المخلّدين، فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة، وإنّ أعداءهم من بين مسحوبٍ بناصيته إلى النار، ومن قائلٍ: ما لنا من شافعين ولا صديقٍ حميم، وإنهم ليرون منزلهم وما يقدرون أن يدنوا إليهم، ولا يصلون إليهم. وإنّ الملائكة لتأتيهم بالرسالة من أزواجهم ومن

خدّامهم على ما أعطوا من الكرامة، فيقولون: نأتيكم إن شاء الله، فيرجعون إلى أزواجهم بمقالاتهم، فيزدادون إليهم شوقاً إذا هم خبروهم بما هم فيه من الكرامة وقُربهم من الحسين عليه السلام فيقولون: الحمد لله الذي كفانا الفزع الأكبر وأهوال القيامة، ونجّانا ممّا كنا نخاف، ويؤتون بالمراكب والرحال على النجائب، فيستوون عليها وهم في الثناء على الله والحمد لله والصلاة على محمد وآله حتى ينتهوا إلى منازلهم»[١].

هذه الرواية ـ كسابقتها ـ واضحة التكلّف والافتعال، مضافاً للاضطراب المهيمن على نصّها ودلالاته، وهذا لا يصدر إلاّ عن مخيلة وضّاعة كالتي عند عبد الله بن عبد الرحمن الأصم؛ فهو لم يفكّر في الذي سوف يحصل عند كسوف الشمس لمدّة أربعين يوماً على التوالي، فهذا أمرٌ ممتنع حسب قوانين الطبيعة، وإذا سلّمنا ـ جدلاً ـ بوقوعه، لكان له انعكاس واسع على صفحات التاريخ، وهكذا بالنسبة لبكاء السماء دماً أربعين يوماً!

ولو سلّمنا وفرضنا الجانب المجازي في تصوير البعد المأساوي المسيطر على الكون لمصاب سيّد الشهداء عليه السلام، لكان على متكلّم بليغ ـ كالإمام الصادق ـ أن يوظّف استعمالات بليغة فصيحة لغرض ذلك تكون معبّرةً عن المأساة بأروع تعبير، لا ما يواجهنا من عبائر في الرواية من قبيل مشهد الحرب والسجال في جهنّم مع حراسها، وتدخّل جبرئيل لنصرتهم وتهدئة أوضاع جهنم، الأمر الذي أشبه ما يكون بنزاع بين شخصين حلّهُ ثالث بوساطته. أما قصّة المراسلة بالمكاتيب من الحور والولدان، فهو ضرب لانعكاس قصص الغرام الدنيوية المرتسمة في ذهن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، فنسجها في مخيّلته ونسبها للصادق عليه السلام، ثم ختمها بارتقاء الصهوات للوصول إلى المنازل.

إذن، فهذا المنطق أبعد ما يكون عمّا عهدناه عن الإمام الصادق وهو لا يثبت فضيلةً للحسين عليه السلام وحسب، إنما هو مدعاة للمساس بمكانته وحقيقته الخالدة، ولا نقول إلاّ كما قال العلامة الحلي: إنّ نصوص عبد الله بن عبد الرحمن لا تنمّ إلاّ عن سخافة أفكاره وتهافت اعتقاده.

---

(١) كامل الزيارات: ٨٥، ح٧.

**الحديث الثالث:** نقلاً عن عبد الله بن عبد الرحمن الأصم، عن عبد الله بن بكير، قال: «حججت مع أبي عبد الله عليه السلام - في حديث طويل - فقلت: يا ابن رسول الله! لو نُبش قبر الحسين بن علي عليه السلام، هل كان يُصاب في قبره شيء؟ فقال: يا ابن بكير! ما أعظم مسائلك، إنّ الحسين عليه السلام مع أبيه وأمّه وأخيه في منزل رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعه يرزقون ويحبرون، وإنه لعَنْ يمين العرش متعلّقٌ به يقول: يا رب! أنجز لي ما وعدتني، وإنّه لينظر إلى زوّاره، وإنه أعرف بهم وبأسمائهم وأسماء آبائهم وما في رحالهم من أحدهم بولده، وإنه لينظر إلى من يبكيه فيستغفر له ويسأل أباه الاستغفار له ويقول: أيها الباكي! لو علمت ما أعدّ الله لك لفرحت أكثر مما حزنت، وإنه ليستغفر له من كل ذنب وخطيئة»(١).

لعلّ هذا الحديث أقلّ غرابةً من بين أحاديث عبد الله الأصمّ، إلا أنّ ما يؤاخذ عليه هنا هو السؤال المطروح من قبل عبد الله بن بكير، فهو لا يتناسب مع شخصية بوزن ابن بكير. ناهيك عن المبالغة في ثناء الإمام عليه السلام على سؤال ابن بكير في الرواية، إذا علمنا أنّ السؤال غاية في السذاجة، وهو مستبعد أساساً من ابن بكير. وعلى كل حال، فهذا الحديث - أيضاً - لا يصلح في نسبته للصادق عليه السلام وإنما هو منسجم مع ذهنية عبد الله الأصم.

**الحديث الرابع:** عن الأصم، عن مسمع بن عبد الملك كردين البصري قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا مسمع! أنت من أهل العراق، أما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟ قلتُ: لا، أنا رجل مشهور عند أهل البصرة، وعندنا من يتّبع هوى هذا الخليفة، وعدوّنا كثير من أهل القبائل من النصّاب وغيرهم، ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان فيمثلون بي، قال لي: أفما تذكر ما صنع به؟ قلت: نعم، قال: فتجزع؟ قلت: أي والله وأستعبر لذلك حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ فامتنع من الطعام حتى يستبين ذلك في وجهي، قال: رحم الله دمعتك، أما إنّك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا والذين يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا ويأمنون إذا آمنا، أما أنك سترى عند موتك حضور آبائي لك ووصيّتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة أفضل، وملك الموت أرقّ عليك وأشدّ رحمةً من الأم الشفيقة على ولدها.

(١) المصدر نفسه: ٨٣، ح٥.

قال: ثم استعبر واستعبرت معه، فقال: الحمد لله الذي فضلنا على خلقه بالرحمة وخصّنا أهل البيت بالرحمة. يا مسمع! إن الأرض والسماء لتبكي منذ قتل أمير المؤمنينعليه السلام رحمةً لنا، وما بكى لنا من الملائكة أكثر وما رقأت دموع الملائكة منذ قتلنا، وما بكى أحد رحمةً لنا ولما لقينا إلا رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه، فإذا سالت دموعه على خدّه فلو أنّ قطرة من دموعه سقطت في جهنم لأطفأت حرّها حتى لا يوجد لها حرّ، وإنّ الموجع قلبه لنا يفرح يوم يرانا عند موته فرحةً لا تزال تلك الفرحة في قلبه حتى يرد علينا الحوض، وإنّ الكوثر ليفرح بمحبّنا إذا ورد عليه حتى إنه ليذيقه من ضروب الطعام ما لا يشتهي أن يصدر عنه. يا مسمع! من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً ولم يستق بعدها أبداً، وهو في برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل، أحلى من العسل وألين من الزبد، وأصفى من الدمع، وأذكى من العنبر، يخرج من تسنيم ويمرّ بأنهار الجنان، يجري على رضراض الدرّ والياقوت، فيه من القدحان أكثر من عدد نجوم السماء، يوجد ريحه من مسيرة ألف عام، قد حانه من الذهب والفضة وألوان الجوهر، يفوح في وجه الشارب منه كل فائحة حتى يقول الشارب منه: يا ليتني تركت هاهنا لا أبغي بهذا بدلاً ولا عنه تحويلاً. أما إنك يا كردين ممّن تروي منه، وما من عين بكت لنا إلا نعمت بالنظر إلى الكوثر وسقيت منه من أحبّنا، وإن الشارب منه ليعطى من اللذة والطعم والشهوة له أكثر مما يُعطاه من هو دونه في حبّنا، وإنّ على الكوثر أمير المؤمنينعليه السلام وفي يده عصا من عوسج يحطم بها أعداءنا، فيقول الرجل منهم: إني أشهد الشهادتين، فيقول: انطلق إلى إمامك فلان فاسأله أن يشفع لك، فيقول: يتبرأ منّي إمامي الذي تذكره، فيقول: ارجع إلى ورائك، فقل للذي كنت تتولاه وتقدّمه على الخلق فاسأله إذا كان خير الخلق عندك أن يشفع لك، فإن خير الخلق حقيقٌ أن لا يردّ إذا شفع، فيقول: إنّ أهلك عطشاً، فيقول له: زادك الله ظمأً وزادك الله عطشاً. قلت: جعلت فداك، وكيف يقدر على الدنوّ من الحوض ولم يقدر عليه غيره، فقال: ورع عن أشياء قبيحة وكفّ عن شتمنا أهل البيت إذا ذكرنا، وترك أشياء اجتدى عليها غيره، وليس ذلك لحبّنا ولا لهوى منه لنا، ولكن ذلك لشدّة اجتهاده في عبادته وتديّنه ولما قد شغل نفسه به عن ذكر الناس، فأمّا قلبه فمنافق ودينه النصب باتّباع أهل النصب وولاية الماضين وتقدّمه

لهما على كلّ أحد»[١].

لا يتعارض مطلع الرواية مع المعهود في نصوص الأئمة عليهم السلام، إلاّ أنه سرعان ما ينحرف محتوى النص عن مساره ليقترب من ملامح الوضع والافتعال حتى يطغى على القسم الأخير من الرواية تناقض واضح في المضمون مما اضطرّ الراوي عبد الله الأصم إلى صياغته في سؤال على لسان مسمع بن عبد الملك يطرحه على الإمام عليه السلام، وما يفرضه الراوي من جواب ليس قادراً على رفع التناقض وحسب بل زاد في الطين بلّة أيضاً. فكيف يمكن فرض شخص متديّن ورع عن القبائح وكافّ عن عداء أهل البيت ثم يكون في داخله منافق؟! وهو من التديّن بمنزلة توصله إلى حدود الحوض فيكلّم أمير المؤمنين، وهذا لا يتوافق مع صفة النفاق إطلاقاً. ولو فرضنا ـ جدلاً ـ بوجود رجل موالٍ لشخصين ـ حسب الرواية ـ فإنّ ذلك نابع عن جهله وقصوره وهو أمرٌ لا يستوجب غضب أمير المؤمنين له بحيث يتسبّب بشدّة الجوع والعطش! نعم لو كان ذلك الشخص منافقاً وعدواً لأهل البيت عليهم السلام وسبّاباً لهم حقّ عليه الحكم المتقدّم، ولكنها سالبة بانتفاء الموضوع.

إذن، فهذه الرواية أيضاً لا يمكن نسبتها للإمام الصادق عليه السلام، بل يرجّح أن تكون هي الأخرى من نسج خيال عبد الله الأصم. والملاحظ في تلك الروايات سعيُ عبد الله الأصم إلى إقحام بعض الأسماء المرموقة ضمن أسانيدها أمثال: أبي بصير، ابن بكير، مسمع بن كردين، وزرارة، كي تشقّ طريقها إلى عوام الشيعة.

وهناك روايات أخرى في كامل الزيارات حول موضوع البكاء على الإمام الحسين تضمّنت أسانيدُها من يضعّفها ويسقطها من الاعتبار، فقد جاء فيه مثلاً: حدثني أبي سعد بن عبد الله، عن الحسين بن عبيد الله، عن الحسن بن علي بن أبي عثمان، عن عبد الجبار النهاوندي، عن أبي سعيد، عن الحسين بن ثوير، عن يونس وأبي سلمة السراج والمفضل بن عمر، قالوا: سمعنا أبا عبد الله يقول: «لما مضى الحسين بن علي عليه السلام بكى عليه جميع ما خلق الله إلا ثلاثة أشياء: البصرة ودمشق وآل عثمان»[٢]؛ فقد تضمّن سند الرواية شخصاً باسم الحسن بن علي بن أبي عثمان

(١) المصدر نفسه: ١١٠، ح٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٨، ح٦.

الملقّب بسجادة، وهو مصنّف على أصحاب الإمام الجواد والهادي‰، كنيته أبو محمد. وهو غالٍ ضعيف في عداد القميّين. يقول فيه العلامة الحلي نقلاً عن الكشي: على سجادة لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين، فلقد كان من العليانية الذين يقعون في رسول الله‰ ليس لهم في الإسلام نصيب. وقال النجاشي: أبو محمد كوفي، ضعّفه أصحابنا[1]؛ إذن فهو مطعون فيه بحيث يُلعن من قبل رجاليّ كالكشي.

وقد نقلت هذه الرواية عن عبد الجبار النهاوندي، ومع أنّ متنها ممّا يعتدّ به، إلاّ أن ضعف السند ألغى فرصة ذلك.

وفي كامل الزيارات رواية أخرى عن الشخص ذاته بهذا السند والمضمون: حدثني جماعة مشايخي، عن محمد بن يحيى العطار، عن الحسين بن عبد الله، عن الحسن بن علي بن أبي عثمان، عن الحسن بن علي بن عبد الله بن المغيرة، عن أبي عمارة المنشد، قال: «ما ذكر الحسين‰ عند أبي عبد الله‰ قط فرئي أبو عبد الله‰ متبسّماً في ذلك اليوم إلى الليل، وكان‰ يقول: الحسين‰ عبرة كلّ مؤمن»[2].

فمتن الرواية ـ كما نلاحظ ـ لا شائبة عليه ومضمونه طبيعي تماماً، فمن المنطقي أن يتأثر الإمام الصادق باستذكار الحسين ومأساته الأليمة فتهجرُه الابتسامة في ذلك اليوم، فيقول: الحسين عبرة كلّ مؤمن. لكن المشكلة تنشأ من حيث دخول شخص ملعون في سند الحديث هو الحسن بن علي بن أبي عثمان. والمستغرب في الأمر أنّ قسماً من الرواية ذاتها قد نقل عن الصادق‰ بطريق أكثر صحّةً، وقد نقله صاحب كامل الزيارات بشيء من التغيير في جملة من الأسانيد الصحيحة والقريبة من الصحّة، منها: حدثني أبي وعلي بن الحسين ومحمد بن الحسن، عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن سعيد بن جناح، عن أبي يحيى الحذّاء، عن أصحابنا، عن أبي عبد الله‰ قال: «نظر أمير المؤمنين‰ إلى الحسين فقال: يا عبرة كلّ مؤمن، فقال: أنا يا أبتاه، قال: نعم يا بُني»[3].

(١) المصدر نفسه: ٨٣، ح٤.

(٢) انظر: جامع الرواة ١: ٢٠٨.

(٣) كامل الزيارات: ١١٦، ح٤.

هذه الرواية وإن كانت مرفوعةً، إلاّ أنّ كل رواتها ثقات باستثناء أبي يحيى الحذّاء. أما فيما يتعلق بالمتن ووصف الحسين بـ «عبرة كل مؤمن» فهناك ما يؤيّده من الروايات الصحيحة في الكتاب، نقلنا بعضها سابقاً، وهنا نضيف هذه الصحيحة: حدثني محمد بن الحسن، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن خالد البرقي، عن أبان الأحمر، عن محمد بن الحسن الخزار، عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كنّا عنده فذكرنا الحسين عليه السلام، فبكى أبو عبد الله عليه السلام وبكينا، قال: ثم رفع رأسه، فقال: قال الحسين عليه السلام: أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا بكى»[1].

ويلاحظ في هذه الرواية وسابقاتها التقاؤها في المضمون؛ مما يولّد بعض الاطمئنان بنسبتها للمعصوم عليه السلام، فجميعها يعتبر الحسين قتيل العبرة.

وهناك رواية أخرى أيضاً بهذا الخصوص ينقلها كامل الزيارات: حدثني أبي، عن سعد بن عبد الله، عن أبي عبد الجاموراني، عن الحسن بن أبي حمزة، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: «إنّ البكاء والجزع مكروهٌ للعبد في كلّ ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عليه السلام، فإنه فيه مأجور»[2]؛ فمتن الرواية لا يؤاخذ في شيء، لكنّ سندها اشتمل على الحسن بن علي بن أبي حمزة وأبيه البطائني، وقد تحدّثنا عن الأب سابقاً وذكرنا طعن الرجاليين له. أما ابنه فلا يقلّ مرتبةً في الكذب والوضع عن أبيه، وهو واقفي، وقد قال فيه الكشي: قال محمد بن مسعود: سألت علي بن الحسن بن فضال عن الحسن بن علي بن أبي حمزة البطائني فطعن عليه، وقال: متّهم ملعون، وقد رويت عنه أحاديث كثيرة وكتبت عنه تفسير القرآن كلّه، من أوّله إلى آخره، إلا أني لا استحلّ أن أروي عنه حديثاً واحداً. وقال حمدويه ـ نقلاً عن مشايخه ـ: الحسن بن علي بن أبي حمزة رجل سوء. وقال ابن الغضائري: هو واقف ابن واقف، ضعيفٌ في نفسه، وأبوه أوثق منه، وقال علي بن الحسن بن فضال: إني لأستحي من الله أن أروي عن الحسن بن علي، وحديث الرضا عليه السلام فيه مشهور. وجاء في رجال النجاشي: كان أبوه قائد أبي بصير، ورأيت

(١) المصدر نفسه: ١١٧، ح٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٧، ح٢.

شيوخنا يذكرون أنّه كان من وجوه الواقفة[1]؛ وتأسيساً على ذلك يكون سند الرواية فاقداً للاعتبار.

لقد حاولنا هنا أن نقدّم صورةً عن جانب من الروايات التي ذكرها ابن قولويه حول موضوع البكاء على سيّد الشهداءعليه السلام. وهناك جانب آخر من تلك الروايات التي ذكرها هو وغيره من أرباب السير والتاريخ، سنتطرّق له في بحوث لاحقة.

## نتائج

بات واضحاً - من خلال ما تقدّم - المآرب المريضة لدى المعاندين والمناهضين لثقافة عاشوراء ومبدأ الإمامة، ومساعيهم في تحريفهما من خلال دسّ الأحاديث الموضوعة والنصوص المحرّفة، وهذه حقيقة تجعل نصب أعيننا الأمور التالية:

١ - إنّ استعاضة حركة عاشوراء الحماسية بمظاهر البكاء والاستكانة، وتحوّلها إلى بضاعة وتجارة مقايضة بالجنّة هي من أهداف أعداء عاشوراء المشؤومين.

٢ - لابدّ في فكر عاشوراء وثقافتها الالتزام بالتثبّت من صحّة الروايات أو عدمها قبل تداولها، وإنّ دافع المظلومية والبكاء وتحريك الأحاسيس ليس معياراً كافياً في نقل الأحاديث.

٣ - هناك روايات غير صحيحة بين طيّات الحوادث التاريخية، قد يتناقلها حتى الأعلام من الرجاليين والفقهاء كابن قولويه؛ لذا يجب أن لا تكون مؤلّفاتهم بمنأى عن النقد والتحقيق.

إذن، فالمرجوّ أن تشيع هكذا نقود بنّاءة في ثقافة عاشوراء ومصادرها؛ لتغربل الصحيح من السقيم.

---

(١) انظر: جامع الرواة ١: ٢٠٨.

# الشرعية الدينية للمأتم الحسيني

## إشكاليات في المقولات والنصوص الحديثية

الشيخ مهدي حسينيان القمي(*)

ترجمة: فرقد الجزائري

### تمهيد

«... فلئن أخّرتني الدهور، وعاقني عن نصرك المقدور، ولم أكن لمن حاربك محارباً، ولمن نصب لك العداوة مناصباً، فلأندبنّك صباحاً ومساءً، ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً، حسرةً عليك، وتأسفاً على ما دهاك وتلهفاً، حتى أموت بلوعة المصاب وغصة الاكتئاب..» [1].

أوصى زعماء الدين في روايات عديدة بإقامة المآتم على الإمام الحسين عليه السلام، والبكاء عليه، وقد عدّ هذا الأمر من أهمّ العبادات، وموجباً للتقرّب إلى الله عزّ وجلّ. ويمكننا ملاحظة ذلك بوضوح من خلال مراجعة الروايات المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام [2]، والإمام الرضا عليه السلام [3]، وكلمة الإمام السجاد عليه السلام قبل دخوله المدينة[4]، وزيارة الناحية المقدّسة لصاحب الزمان (عج).

يقول الإمام الصادق عليه السلام، في رواية منقولة عنه: «كلّ الجزع والبكاء مكروه،

(*) أستاذ في الحوزة العلمية في مدينة قم، وناقد في مجال علوم الحديث والتراث.

(١) محمد بن جعفر المشهدي، المزار الكبير: ٥٠١، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، قم، قيوم، ١٤١٩هـ.

(٢) راجع: رواية مسمع كردين عن الإمام الصادق، ورواية بكر بن محمد الأزدي، في بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٣، ٢٨٩.

(٣) راجع: رواية ابن مسرور عن الإمام الرضا في بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٣.

(٤) بحار الأنوار ٤٥: ١٤٨.

سوى الجزع والبكاء على الحسين عليه السلام» ويقول الإمام الرضا عليه السلام بعد أن عدّ مصائب عاشوراء: من القتل، وهتك الحرمات، وأسر النساء والأطفال، وحرق الخيام، ونهب أموال آل الله، وهتك حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ يَوْمَ الْحُسَيْنِ أَقْرَحَ جُفُونَنَا وأَسْبَلَ دُمُوعَنَا وأَذَلَّ عَزِيزَنَا بِأَرْضِ كَرْبٍ وبَلاء» ويقول صراحةً: «أَوْرَثَتْنَا الْكَرْبَ والْبَلاءَ إِلَى يَوْمِ الانْقِضَاء» وفي وصية هادفة، يقول: «فَعَلَى مِثْلِ الْحُسَيْنِ فَلْيَبْكِ الْبَاكُونَ» ثمّ يشير إلى سيرة أبيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حول العزاء على سيّد الشهداء، في العشرة الأولى من المحرم، ويقول: كَانَ أَبِي إِذَا دَخَلَ شَهْرُ الْمُحَرَّمِ لا يُرَى ضَاحِكاً، وكَانَتِ الْكَآبَةُ تَغْلِبُ عَلَيْهِ حَتَّى يَمْضِيَ مِنْهُ عَشَرَةُ أَيَّامٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْعَاشِرِ كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ مُصِيبَتِهِ وحُزْنِهِ وبُكَائِهِ ويَقُولُ: هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ الْحُسَيْنُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ.

نعم! في الحقيقة إنّ المأتم، والبكاء، والنعي، والرثاء على سيد الشهداء، نوعٌ من الحضور بالنسبة لنا، نحن الغائبين عن واقعة عاشوراء؛ حيث نشارك في المصاب بالبكاء والرثاء والنواح، ونُبدي حسرتنا وألمنا لفقد هؤلاء المظلومين، ونظهر سخطنا للظلم الذي حلّ بهم، ونعلن انضمامنا إلى أهدافهم وقيمهم، وتبعيّتنا لسيرتهم ومنهجهم. والأهم من ذلك كلّه، نسعى لتوثيق الصلة بين إقامة المأتم والثأر، والبكاء والمطالبة بالحقوق المضيّعة، إنّ هذا المأتم والبكاء والحزن ضرورة فطرية ماسّة، لا يقف مقابلها سلبياً من تصوّرها وتعقلها، ولا تصمد شبهة أمام هذا الوضوح والبداهة.

إن لم نبك الحسين، وأصحابه الأوفياء، ومصابهم، فعلى ماذا نبكي؟ وإن لم نبك للظلم الذي حلّ به وبأصحابه في يوم عاشوراء، وهو ظلم على البشرية جمعاء، لفقدهم الحسين، ولم نصرخ لذلك تظلّماً، مطالبين بالحق، فلأيّ ظلم نصرخ؟

لكن على الرغم من كل هذا التأكيد من قبل المعصومين عليهم السلام، وتوصيتهم بالبكاء على سيّد الشهداء عليه السلام، وإقامة المأتم له، طرحت بعض الشبهات حول ذلك، وعلينا مراجعتها، والردّ عليها، ونتطرّق في هذا المقال لسبعٍ من تلك الشبهات، ونتناولها بالنقد والتحليل.

## إشكاليات حول إقامة المأتم

**الإشكالية الأولى: التشكيك في الروايات التي توصي بالبكاء، وإقامة المأتم، والثواب الوافر المترتب عليه.**

إذ يستكثر من يشكّك في هذه الروايات الأجرَ المذكور فيها على البكاء وإقامة المأتم، ويستبعدون صحّتها، فإمّا أن يرفضوها، أو يأوّلوها، ويفسّروها بنحو آخر. ونذكر في هذا الخصوص كلام السيد هاشم معروف الحسني، في كتاب الموضوعات في الآثار والأخبار، وكذلك كلام الشيخ محمد باقر البهبودي في هامش المجلد الرابع والأربعين من بحار الأنوار، ونردّ عليهما بإيجاز.

**الإشكالية الثانية: إقامة مجالس الفرح والسرور في ذكرى الشهادة، بدل المأتم والبكاء.**

وردت هذه الشبهة في كلام السيد هاشم الحداد، نقلاً عن آية الله السيد محمد حسين الحسيني الطهراني، في كتاب الروح المجرّد، كما ذكرها السيد ابن طاووس في مقدّمة كتاب اللهوف، وقد أتى السيد هاشم الحدّاد على ذكر هذه الشبهة بأسلوب فظ؛ في حين كان أسلوب السيد ابن طاووس أكثر ليناً ولطفاً. يقول السيد هاشم الحداد ـ بعد وصفه المأتم والبكاء بأنّه فعل العوام من الناس ـ: لو كان هؤلاء العوام يدركون، لأقاموا محافل البهجة والسرور، بدل البكاء والحزن والمأتم. وهي عبارة في منتهى القسوة؛ لكن السيد ابن طاووس يقول: لو لم يأمر الله بإقامة المأتم لسيّد الشهداء، لاحتفلنا بشهادته ولأقمنا البهجة والسرور لذلك. وسنأتي بنصّ أقوالهما، ثمّ نبيّن ملاحظاتنا عليها.

**الإشكالية الثالثة: الشيعة أنفسهم قتلوا الحسين، وهم يبكوه الآن.**

**الإشكالية الرابعة: عدم مقبوليّة استمرار الحزن والمآتم والبكاء إلى اليوم، وبهذه الشدّة.**

**الإشكالية الخامسة: لماذا تقام المآتم في العشرة الأولى من المحرم، وتنتهي بعد مقتل الإمام بثلاثة أيام؟ في حين يجب استمرار المآتم بعد قتله.**

وسنأتي بنصّ كلام السيد ابن طاووس من كتاب الإقبال، حيث ذكر هذه الشبهة، وردّ عليها.

**الإشكالية السادسة: ضرورة وضع الاهتمام بالانتقام؛ بدل البكاء.**

**الإشكالية السابعة: الإشكال على طريقة إقامة بعض المآتم، والتقاليد المتبعة فيها.**

كانت هذه بعض الشبهات المطروحة، وسنتناول الإشكاليات الأولى والثانية والخامسة بتفصيل، وستتضح الإجابة على سائر الشبهات من خلالها، ونؤكّد على التمعّن في الروايات التي تدعو إلى إقامة المآتم الحسينية؛ إذ تتعامل هذه الروايات مع المأتم الحسيني بنحو يسدّ الطريق أمام أيّ شبهة عليه.

## وقفة مع التشكيك في روايات استحباب المأتم وثوابها

يعلم الباحثون والمختصّون في علم الحديث، أنّ كثرة روايات المآتم والبكاء، لا تدع مجالاً للتشكيك فيها؛ فهناك روايات كثيرة تدلّ على بكاء الأنبياء والملائكة، وأهل السماوات الذين لا تجف دموعهم، وأهل الأرض الذين يبكون دماً، من أول الخلق، إلى نهاية العالم، وحتى في تلك الدار الخالدة، وبكاء السماء، والأرض، والبحار، والصحاري، والحيوانات، والأسماك، والشمس، وكل الأحجار التي بكت دماً، وقد دعت الروايات العديدة لإقامة المآتم، وأقام أئمة أهل البيت المآتم، وبكوا بمرارة لفقدان سيّد الشهداء.

وحتى الجزع الذي ذُمّ في النوائب، وعُدّ مكروهاً، حيث دُعينا دوماً للصبر والتحمّل في المصائب ومُنعنا عن الجزع، صارت هناك دعوة إليه في هذا المصاب العظيم؛ فقد ورد في رواية مسمع، أنّ الإمام الصادقعليه السلام قال له: «يَا مِسْمَعُ أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ أَمَا تَأْتِي قَبْرَ الْحُسَيْنِ؟ قُلْتُ: لا أَنَا رَجُلٌ مَشْهُورٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَعِنْدَنَا مَنْ يَتْبَعُ هَوَى هَذَا الْخَلِيفَةِ وَأَعْدَاؤُنَا كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْقَبَائِلِ مِنَ النُّصَّابِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَسْتُ آمَنُهُمْ أَنْ يَرْفَعُوا عَلَيَّ حَالِي عِنْدَ وُلْدِ سُلَيْمَانَ؛ فَيُمَثِّلُونَ عَلَيَّ، قَالَ لِي: أَفَمَا تَذْكُرُ مَا صُنِعَ بِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَتَجْزَعُ؟ قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ وَأَسْتَعْبِرُ لِذَلِكَ حَتَّى يَرَى أَهْلِي أَثَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَأَمْتَنِعُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يَسْتَبِينَ ذَلِكَ فِي وَجْهِي، قَالَ: رَحِمَ اللَّهُ دَمْعَتَكَ أَمَا إِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ يُعَدُّونَ فِي أَهْلِ الْجَزَعِ لَنَا وَالَّذِينَ يَفْرَحُونَ لِفَرَحِنَا وَيَحْزَنُونَ لِحُزْنِنَا وَيَخَافُونَ لِخَوْفِنَا وَيَأْمَنُونَ إِذَا أَمِنَّا..».

إذن، يتّفق الجميع على صحّة هذه الروايات، وعدم الجدال في سندها، ولا يمكن لأحد تجاهل هذا الكمّ الكبير من الروايات. وقد دار الحديث حول تفسيرها وتحليلها، لكنّ محتواها ومفادها أوضح من أن تثار شائبة حوله؛ إذ لا يمكن استنتاج معان خاطئة منها، أو استخدامها بشكل خاطئ، كما لا يمكن نفي تلك القيمة والمكانة التي تعدّها لإقامة المأتم والبكاء.

## نظريات في تحليل روايات البكاء وإقامة المآتم

هناك ثلاثة آراء حول روايات البكاء والمآتم ـ التي أصبحت متواترة ولا حاجة للبحث في سندها ـ:

### ١ . نظرية السيد هاشم معروف الحسني

يضع الحسني[1] هذه الروايات في مجموعة الروايات المجعولة، ودليله على ذلك الأجر الوافر الذي ورد فيها لدمعةٍ تسكب، أو لإغروراق العين بالدمع؛ فهو يجعل من استبعاده الأجر العظيم على هذا العمل الضئيل، دليلاً على كون هذه الروايات مجعولة.

ويبيّن الحسني رأيه كما يلي: وقد أمعن القصّاص والوعّاظ في الكذب على الرسولﷺ فنسبوا إليه وعوداً وأقوالاً في الزهد في الدنيا، وفضل البلاء والفقر والمرض والجوع والأيام والساعات والأذكار والأدعية، وأسرفوا في عرضهم للمكافأة التي يلقاها الإنسان إذا صلّى ركعتين في بعض الليالي أو الأيام، أو صام يوماً أو أكثر من بعض الشهور، أو سعى لزيارة بعض الأولياء والأتقياء؛ فأعطوه على كلّ ركعة مئات القصور وآلاف الحور والولدان والأثاث المصنوع من الزبرجد والياقوت والمرجان، وعلى كلّ يوم صامه، أو خطوة مشاها إلى زيارة وليّ، أو عيادة مريض آلاف الحسنات، وأسقطوا عنه آلاف السيئات، وكأنّ له أجر ألف حاج، وألف معتمر، وثواب من صبر وأحسن عملاً كأيوب وأمثاله من النبيين والصدّيقين

---

(١) الحسني، الموضوعات في الآثار والأخبار: ١٧٠ ـ ١٧٣، عرض ودراسة، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٣٦٥.

كما جاء في بعض المرويّات، وفرشوا له طريق الجنة بالورود والرياحين، حتى ولو لم يفعل بعد ذلك من الطاعات شيئاً، بل وحتّى لو فعل المنكرات كما تصرّح بذلك بعض مرويّاتهم.

ثمّ يقول: وجاء في تفسير علي بن إبراهيم، أنّ الإمام جعفر بن محمدعليه السلام قال: «من ذكرنا أو ذُكرنا عنده، فخرج من عينيه دمع مثل جناح البعوضة، غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»، إلى غير ذلك من المرويّات التي سنعرض بعضها حسب المناسبات في الفصول الآتية من هذا الكتاب[١].

ويقول بعد عدّة صفحات: وفي الوقت ذاته ربّما يحذّر السامع عن العمل، ويبعث في نفسه روح الاتكال على الثواب الموعود به عندما يسمع أنّ الدمعة التي لا تزيد عن جناح بعوضة، إذا خرجت من عينه حزناً على ما أصاب أهل البيت، يغفر الله له بسببها جميع ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر كما جاء في رواية علي بن إبراهيم عن الإمام جعفر بن محمدعليه السلام..[٢].

## ٢ ـ نظرية الدكتور محمد باقر البهبودي

يذكر البهبودي[٣] رأيه بأسلوب حاد، ويقول ما مضمونه: يظنّ الجاهلون بأنّ هذه الروايات مطلقة، ولكلّ دمعة في كل زمان وكل ظرف هذا الاعتبار والقيمة؛ لذلك ينكرها بعضٌ ويعتبرها موضوعةً، ويسلّم بها بعضٌ آخر عن غفلة.

ثمّ يتبنّى البهبودي الرأي القائل بأنها ليست مطلقة، ولا يترتب على مطلق البكاء كل ذلك الأجر؛ بل إنّ هذا الأجر للبكاء كان في ظروف خاصّة حرجة، حيث يصدق فيه عنوان الجهاد في سبيل الله، ولا يصدق ذلك في الظروف العادية.

ويبيّن البهبودي موقفه حول هذا الموضوع كما يلي: «توهّم الجهّال أنّ لهذه الأحاديث إطلاقاً يشمل كلّ ظرف وزمان، فأنكرها بعضٌ أشدّ الإنكار، وقال: لو صحّ هذه الأحاديث لأتى على بنيان المذهب وقواعده، ولأدّى إلى تعطيل الفرائض

(١) المصدر نفسه: ١٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٣.

(٣) البهبودي، هامش بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٣.

والأحكام وترك الصلاة والصيام، كما نرى الفساق والفجار يتّكلون في ارتكاب السيئات والاقتحام في جرائمهم الشنيعة على ولاء الحسينعليه السلام ومحبته والبكاء عليه، من دون أن ينتهوا عن ظلمهم وغيّهم واعتسافهم؛ فليس هذه الأحاديث إلا موضوعة من قبل الغلاة، دسّهم في أخبار أهل البيت ترويجاً لمرامهم الفاسد ومسلكهم في أنّ ولاء أهل البيت إنّما هو محبتهم، لا الدخول تحت سلطانهم وأمرهم ونهيهم على ما هو الصحيح من معنى الولاية. وبعضهم الآخر الذين يروون الحديث، ولا يعقلون فيه، ولا يتدبرون، أخذ بالإطلاق، وادّعى أنّ «من بكى على الحسين أو أبكى أو تباكى فله الجنة» حتى في زماننا هذا وعصرنا، كائناً من كان. ثمّ شدّ على المنكرين بأنّهم كفروا وخرجوا عن المذهب، ولم يعرفوا الأئمة حق معرفتهم و.. ثمّ إذا ألزم بالإشكال أخذ في تأويل الأحاديث، وأخرجها عن معانيها ومغزاها، أو سرد في الجواب بعض الأقاصيص والرؤى.

والحق أنّ هذه الأحاديث بين صحاح وحسان وضعاف مستفيضة، بل متواترة، لا تتطرّق إليها يد الجرح والتأويل، لكنّها صدرت حينما كان ذكر الحسينعليه السلام والبكاء عليه وزيارته ورثاؤه وإنشاد الشعر فيه إنكاراً للمنكر، ومجاهدةً في ذات الله، ومحاربة مع أعداء الله، بني أمية الظالمة الغشوم، وهدماً لأساسهم، وتقبيحاً وتنفيراً من سيرتهم الكافرة بالقرآن والرسولصلى الله عليه وآله، ولذلك كانت الأئمة يرغّبون الشيعة في تلك الجهاد المقدّس بإعلاء كلمة الحسين، وإحياء أمره بأيّ نحو كان، بالرثاء والمديح والزيارة والبكاء عليه، وفي مقابلهم بنو أمية تعرج على إماتة ذكر الحسينعليه السلام، ويمنع من زيارته ورثائه والبكاء عليه. فمن وجد ويفعل شيئاً من ذلك، أخذوه وشرّدوه وقتلوه وهدموا داره؛ ولأجل تلك المحاربة القائمة بين الفريقين، أنصار الدين وأنصار الكفر، أباد المتوكّل قبر الحسينعليه السلام، وسوّاه مع الأرض، وأجرى الماء عليه؛ ليطفئ نور الله، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون.

فمن كان يبكي على الحسين أو يرثيه أو يزوره في ذاك الظرف، لم يكن فعله ذلك حسرةً وعزاء وتسلية فقط، بل محاربةٌ لأعداء الدين، وجهاد في سبيل الله مع ما يقاسونه من الجهد والبلاء والتشريد والتنكيل. فحقّ على الله أن يثيب المجاهد في سبيله، ويرزقه الجنّة بغير حساب؛ ذلك بأنّهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة

في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين؛ ففي مثل ذاك الزمان - كما رأينا قبل عشرين سنةً في إيران (قبل الثورة) - لم يكن ليبكي على الحسينعليه السلام، وينشد فيه الرثاء إلا كلّ مؤمن، وفي أهل التقوى واليقين، لما في ذلك من العذاب والتنكيل، لا كلّ فاسق وشارب، حتى يستشكل في الأحاديث، بل كان هؤلاء الفسّاق - في ذاك الظرف - مستظهرين بسلطان بني أمية، منحازين إلى الفئة الباغية، يتجسّسون خلال الديار ليأخذوا على أيدي الشيعة، ويمنعوهم من إحياء ذكرى الحسينعليه السلام، كما اقتحموا دار أبي عبد الله الصادقعليه السلام، بعدما سمعوا صراخ الويل والبكاء من دارهعليه السلام.

وأمّا في زمانٍ لا محاربة بين أهل البيت وأعدائهم، كزماننا هذا، فلا يصدق على ذكر الحسينعليه السلام والبكاء عليه عنوان الجهاد، كما أنّه لا يلقى ذاكر الحسينعليه السلام إلا الذكر الجميل والثناء الحسن؛ بل يأخذ بذلك أجرةً، والباكي على الحسينعليه السلام يشرّف ويكرّم، ويقال له: قدمت خير مقدم، ويقدّم إليه ما يشرب ويتفكّه؛ فحيث لا جهاد في البكاء عليه، فلا وعد بالجنّة، وحيث لا عذاب ولا نكال ولا خوف نفس، فلا ثواب كذا وكذا؛ فليبك الفسقة الفجرة إنّهم مأخوذون بسيئ أعمالهم. إنّ الله لا يخدع عن جنّته، وليميز الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون» [1].

## ٣. النظرية السائدة

وهي قبول هذه الروايات بشكل مطلق، وعدم تخصيصها بالظروف الحرجة؛ فإنّ شأن العبادة يعلو أو يدنو بتغيير الظروف، لكن لا يعني ذلك أنّ الصلاة مثلاً لا قيمة لها في الظروف العادية، أو الصيام لا أجر عليه في أيام الشباب والصحّة، أو لا شأن لحجّ المتمكّنين والأثرياء؛ فلم يكن الأمر كذلك إطلاقاً؛ بل إنّ لكافة العبادات قيمة وأجراً وشأناً عظيماً، والظروف الحرجة تزيد من قيمتها وأجرها.

إذن، يحتفظ بكاء الحسينعليه السلام وإقامة المأتم له بقيمته، وتتضاعف هذه القيمة في الظروف الصعبة. أمّا الغفلة عن ذلك فسببه عدم الالتفات إلى قيمة العقيدة بحدّ

---

(١) بحار الأنوار ٤٤، هامش ص٢٩٣.

ذاتها، أو يبدو أنّ البعض لا يتمكّن من التوفيق بين العقيدة الصحيحة والعمل الخاطئ، ويتصوّرون أنّ من صحّت عقيدته، صحّت جميع أفعاله، لكن في الواقع ليس الأمر كذلك؛ فمن يتمعّن في حياته الخاصة، يجد أخطاء وهفوات كثيرة اجتمعت مع عقيدته؛ فهو يعتقد بالله، لكن تصدر عنه أخطاء وزلّات كبيرة وصغيرة، وكأنّه لا يعرف الله إطلاقاً.

إذن ينبغي ملاحظة أمرين بدقة:

**أ ـ قيمة الاعتقاد:** لا تعدّ العقيدة جزءاً من العمل، وإن تمتعت العقيدة الصحيحة بحدّ ذاتها بقيمة كبيرة؛ فمن أحبّ الإمام الحسين بقلبه وتعلّق به، فلذلك شأن عظيم، وإن تلوّث بذنوب كثيرة، ومن أحبّ الأنبياء واعتقد بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام حجة الله وخليفته في الأرض وتبرأ من أعدائه، فله شأن عظيم، وإن تلوّث بالذنوب والمعاصي. ومن الممكن أن يعلو شأن فرد كهذا إلى مرتبةٍ يمكن القول معها فيه: إنّ عقيدته الحسنة أرجح من جميع أعماله السيئة، وتُلقي بظلالها على ذنوبه.

**ب ـ اجتماع الاعتقاد الصائب مع الذنب:** يقول بعضهم: من صحّت عقيدته لا يعصي. نعم، للعقيدة الصحيحة في المراتب العليا أثرٌ كهذا؛ لكن ليس لها في المراتب الدنيا ـ والتي يتمتع الكثير بها ـ هذا الأثر، بل تجتمع أحياناً أو حتى كثيراً مع الذنوب والمعاصي؛ فكثيرون هم الذين عرفوا أمير المؤمنين عليه السلام وحتى اختاروه مولى لهم، لكن بسبب البيئة المحيطة بهم أو بسببٍ في أنفسهم، تلوثوا بالمعاصي والذنوب. وكلنا يريد أن يعلو الحقّ، وأن ينقطع سبيل المعصية، وتبذل جهود أكبر في مجال الثقافة والمجتمع، لنحصل على دعم أكبر في صون إيماننا عن الذنوب، لكن بما أنّ الحق لا يحكم العالم وقد تغلّب الباطل وأهله في معظم الأمور، ونحن بين كلّ ذلك أقلية، فلا يمكننا حفظ نزاهتنا كما تقتضي عقيدتنا، ونتلوّث بأمور شتى، لكن هناك اختلافاً جوهرياً بين أخطائنا وزلاتنا وبين ذنوب أعدائنا؛ إذ هم طلبوها ووجودها لكننا لم نردها وابتلينا بها؛ ولعلّه وراء ما ذكرت بعض الروايات في فضل الشيعة المذنبين على غيرهم ممن لم يذنبوا، بل نسبت ذنوب الشيعة لغيرهم.

إذن، حبّ الحسين عليه السلام والبكاء عليه والإيمان به وبنهجه والدفاع عنه وإحياء

ذكره، قيّم في الظروف كافّة. بالطبع، قد يصبح البكاء كذباً وإقامة المأتم خداعاً؛ وفي مثل هذه الحال، لا قيمة للمأتم ولا للبكاء، لكن إذا تمتّع بدرجة مقبولة من الصدق والصحة، حتى ولو كان مذنباً، فسوف يطهّره ذلك من الذنوب تدريجياً، كما نجده عملياً. وخلاصة القول: إنّ لهذه النقطة البيضاء المنيرة في قلب الإنسان قيمة كبيرة، يمكنها محو المساوئ جميعها.

## ردود مقتضبة على نظريّتي: الحسني والبهبودي

١ـ في الظروف الحرجة، من الممكن أن لا يصمد حتى كثير من المتقين، فهل يدلّ ذلك على أنّ بكاءهم لا قيمة له؟

٢ـ من الممكن أن يصمد بعض ممّن أسميتموهم بالفاسقين، في الظروف الحرجة، وأن يقيموا مأتم الحسين عليه السلام، حتى لو كلّفهم ذلك أرواحهم؛ فهل تعتبرون هذه الروايات صادقةً في حقهم، أو أنّها لا تصدق فيهم لما ارتكبوه من الفسق؟

٣ـ لا نفع من البكاء الكاذب على الحسين عليه السلام؛ لكن إذا بكى أحدٌ الحسينَ عليه السلام صدقاً؛ لما حلّ به من ظلم، ونادى بمظلوميته، ومع ذلك أذنب ـ كما هي حالنا في الغالب ـ فلا أتصوّر أنّ بكاءه سيفقد قيمته.

٤ـ إن فتح الله باب التوبة أو إنقاذ الشفاعة للمؤمنين يوم القيامة، هل يؤدّيان إلى جرأة المذنب وتماديه في معصيته؟ إذن من الأفضل أن تسدّوا أنتم طريق العودة إلى الله، لكي لا يصدّ عنه أحد. بعبارة أخرى، من الممكن أن يحدث سوء استخدام لأي من التعاليم الدينية، لكن ذلك لا يعني أنّ تلك التعاليم خاطئة، كذلك هو الأمر بالنسبة للبكاء على الحسين، أو التوبة، أو الشفاعة، أو البكاء من خشية الله؛ فإن بكى عاصٍ عن صدق وتاب بإخلاص، فإنّه سيجني الآثار العظيمة لفعله هذا.

ويمكن القول في ما يخصّ استكثار الثواب على البكاء وإقامة المأتم، بأن استبعاد تحقّق هذا الأمر هو ما يتمسّك به كثيرون لرفض هذه الروايات، لكن ترد النقاط التالية عليهم:

١ـ استبعاد الأمر ليس دليلاً؛ إذ يمكننا الردّ على سؤالهم، «هل يمكن؟»: «نعم، يمكن بالتأكيد»؛ فالاستبعاد ليس بدليل، حتى نحتاج للردّ عليه.

٢ـ لا ينحصر هذا الاستبعاد بثواب البكاء على الإمام الحسين وإقامة المأتم له، بل يعمّ كثيراً من الأعمال الضئيلة في الظاهر لكنّها تتمتّع بأجر عظيم في الدين؛ فإن كان لكم ردود على تلك الأمور، فلدينا ما نقوله عن ثواب البكاء وإقامة المأتم.

٣ـ يظنّ بعضهم أنّ دمعةً واحدة ليست بشيء؛ فأحياناً يكون حجم العمل صغيراً، لكن له قيمة كبيرة وشأن عظيم. فمثلاً، الصلاة التي هي أهمّ الواجبات، ليست إلا قياماً وقعوداً وعدّة من أذكارٍ وسور وأدعية، وكذا الذنب الذي ارتكبه إبليس لم يكن إلا معصيةً لله في سجدةٍ واحدة؛ إذاً لم يلحظ حجم العمل؛ فما يعطي العمل قيمتَه إنّما هي روحه وحقيقته والآثار المترتّبة عليه.

٤ـ إنّ ثواب الله لعباده على أعمالهم من باب التفضّل؛ كالجوائز التي تعطى أحياناً لأعمال بسيطة؛ فلا يجوز لنا أن نستبعد ثواباً عظيماً على عمل بسيط.

٥ـ إذا نظرنا إلى الدمعة التي تُسكب بإخلاص في مأتم سيد الشهداء من زوايا مختلفة، وبحثناها من حيثيات متعددة، لوجدنا أنّها ليست بالأمر الهيّن؛ فهناك عالم من الحب والعشق وراء هذه الدمعة، يعجز الحديث ـ مهما طال ـ عن تبيينه؛ حيث تنمّ هذه الدمعة عن عالم من الفهم والاستيعاب خلفها، يعجز أحياناً كلّ الناس عن خلقها؛ فيترتب عالمٌ من الآثار والبركات عليها، لا يساويها شيء في الأثر والبركة؛ فهي دمعة، لكنّها تربطك بالأنبياء والأولياء والصلحاء، وهي دمعة، لكنّها ثمرة مساعي الأنبياء والأولياء والصلحاء، وهي دمعة، لكنّها تنمّ عن فهم وإدراك وتعلّق عميق.

## عاشوراء وضرورة البهجة، نظرية ابن طاووس وهاشم الحداد

يقول السيد محمد حسين الحسيني الطهراني عن أستاذه السيد هاشم الموسوي الحداد: «كان السيّد الحداد على غير طبعه طيلة عشرة المأتم؛ إذ يحمرّ وجهه، وتتلألأ عيناه، لكن لا يُرى الحزن عليه، بل كان في غاية البهجة والسرور. وكان يقول: ما أغفل الناس، وهم يتألمون على هذا الشهيد ويقيمون المآتم له! إنّ عاشوراء أعظم ملاحم الحبّ والعشق، ومجلى جمال الله وجلاله، ومسرح آيات رحمته وغضبه. أمّا أهل البيت، فقد سَمُوا على المراتب والدرجات، ووصلوا إلى ذروة الحياة في الخلد، وانسلخوا عن المظاهر وحققوا الظواهر، وفنوا أنفسهم في

ذات الأحد. إنّ هـذا هـو يـوم بهجـة أهـل البيـت وسـرورهم؛ إذ هـو يـوم سـعادتهم وفلاحهم بالدخول إلى الحريم الإلهي وحرمه الآمن، وهو يـوم الانتقـال مـن الجزئيـة إلى عالم الكلية، هو يوم النصر والفلاح. هـو يـوم تحقّـق الهـدف النهـائي والمطلـوب الحقيقي. هو يومٌ لو عُرِض جزءٌ منه على السالكين والمحبّين والوالهين في سبيل الله، لظلّوا بقيّة حياتهم في غمرة البهجة والسرور، ولسجدوا لله شكراً إلى قيام الساعة».

«كان السيد الحداد يقول: إنّ الناس في غفلة عن أمرهم، وقـد مـلأ حـبّ الـدنيا أعينهم وآذانهم، فيحزنون على ذلك اليوم ويبكون عليه بكاء الثكلى علـى ولـدها! ولا يعلمون أنّه فوز وفلاح ومعاملة رابحة كابتياع المجـوهرات بـالخزف، لـم يكـن ذلـك القتل موتاً بل كان عين الحياة، ولم يكن انقطاعاً للحياة، بل كان الحياة الخالدة.

وذكر أنّ شاعراً دخل حلب، وأنشد في أهلها، قـال: بلـى، لكـن قـل لمـن حـول يزيد، متى كان ذاك الحزن، ولـم تـأخّر فـي وصـوله إلينـا، فعـين الأعمـى رأت تلـك الخسارة، وأذن الأصمّ سمعت تلك الحكاية.

كان السيد الحداد يكثر من البكاء في العشرة الأولى من المحـرم، لكـن شـوقاً، وكانت دموعه تنهمر لشدّة سروره وابتهاجه، وكأنّ مطر الرحمة ينزل على محاسـنه الشريفة، وكان يكرّر قراءة أشعار جلال الدين الرومي بـصوت عـذب، ومـازال ذلـك الصوت وتلك الدموع المنهمرة حيّةً في ذاكرتي، وكأنّ الحـداد جـالسٌ أمـامي وبيـده كتاب المثنوي»[(١)].

وقد جاء السيد الحسيني الطهرانـي بأشـعار المثنـوي كاملـةً، فـي مـا يخـص الشاعر الذي دخل على أهل حلب، وهم يقيمون المأتم و..

ويأتي السيد ابن طاووس في كتابه اللهوف بمقدّمة مختـصرة، مفادهـا أنّ الله يتجلّى لعباده، ويطهّرهم من دنس الدنيا، ويهبهم البهجة الروحية؛ إذ أهّل بعض العباد أنفسهم لتلقّي الألطاف الإلهية، واستحقوا هذا الاهتمام من قبل الله تعالى؛ لذلك لا يريد الله لهم أن تُهدر أعمارهم؛ بل يوفّقهم ليقوموا بأحسن الأعمـال، وينـزع عـن قلـوبهم التعلّق بمن سواه، حتـى لا يطلبـوا إلا رضـاه. فتـراهم فـرحين كـالمؤمنين بالقيامـة، ووجلين من خشية اللقاء، توّاقين دوماً إلى ما يقرّبهم من مـرامهم الحقيقـي، وهـو الله

---

(١) محمد حسين الحسيني الطهراني، روح مجرّد: ٨٤، ط١، طهران، حكمت، ١٤١٤هـ.

عزّ وجلّ، ويريدون الدخول إلى الدنيا والخروج منها كما يحبّ الله لهم؛ فهم غارقون في الاستماع إلى أسرار الحقّ، وملأت حلاوة ذكر الله قلوبَهم، فحباهم الله بعنايته وحبّه بقدر ما أهّلوا أنفسهم لذلك. يصغر في أعينهم كلّ أمر يبعدهم عن الله، ولا يؤنسهم إلا ذكره. إن وجدوا حياتهم وبقاءهم مانعاً في تحقيق أوامر الله، يخلعون لباس الحياة، ويطرقون أبواب لقاء الله ببذلهم أرواحهم وأجسادهم، ويسلّمون أنفسهم للسيوف والرماح. وقد سمَى الحسينُ عليه السلام وأصحابه إلى هذا المقام الرفيع، حتى تسابقوا لنيل الشهادة.

ثمّ يبيّن السيد ابن طاووس رأيه كما يلي: «ولولا امتثال أمر السنّة والكتاب في لبس شعار الجزع والمصاب لأجل ما طمس من أعلام الهداية، وأسّس من أركان الغواية، وتأسّفاً على ما فاتنا من تلك السعادة، وتلهفاً على أمثال تلك الشهادة، وإلا كنّا قد لبسنا لتلك النعمة الكبرى أثواب المسرّة والبشرى، وحيث في الجزع رضاً لسلطان المعاد، وغرضاً لأبرار العباد، فها نحن قد لبسنا سربال الجزوع، وأنسنا بإرسال الدموع، وقلنا للعيون: جودي بتواتر البكاء، وللقلوب جدّي جدّ ثواكل النساء؛ فإنّ ودائع الرسول صلى الله عليه وآله الرؤوف أبيحت يوم الطفوف، ورسوم وصيّته بحرمه وأبنائه طمست بأيدي أمته وأعدائه».

ثمّ يخاطب ابن طاووس الضمائر الحيّة في العالم، ويدعوهم لإحياء ذكرى هؤلاء القتلى، والبكاء على عزيز النبي صلى الله عليه وآله وفاطمة.. ويتابع مخاطباً من أوفوا بعهدهم للنبي صلى الله عليه وآله: «لم لا تواسون النبي في البكاء؟» ويقسم عليهم أن يعزّوا الزهراء بالرثاء على ابنها، لينالوا أجر من واساهم، ثمّ يذكر الرواية التي وردت في فضل البكاء والإبكاء، وحتى التباكي.

## وقفة نقدية مع نظرية البهجة الصوفيّة

وترد على هذه الشبهة أنّ لمقتل سيد الشهداء وأهل بيته وصحبه الأوفياء وجهان؛ فهو بالنسبة لهم قربٌ ووصال وبهجة وسرور؛ إذ تحقّقت أمانيهم بالشهادة والفناء، وبلغوا مقاماً لا يناله أحد إلا بالشهادة، لكنّ الأمر بالنسبة لنا حزن ومأتم وبكاء؛ لفقدهم ولما شهدناه من تلك الفاجعة الأليمة؛ لذلك نقرأ في زيارة عاشوراء: «بأبي أنت وأمي لقد عظم مصابي بك». وكما عبّر عن هذه الحقيقة صعصعةُ حينما

قال عن شهادة أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الدنيا لفقدك مظلمة، والآخرة بنورك مشرقة؛ فنحن نبكي هذا الفقدان، وزادنا ألماً ومرارة وحشيةُ أعدائهم.

ولا بأس هنا بذكر كلام السيد الحسيني الطهراني؛ للردّ على هذه الشبهة؛ إذ يقول لتبرير فعل أستاذه السيد هاشم الحداد وكلامه عن المأتم الحسيني: «يجب الالتفات إلى أنّ ما قاله السيّد الحداد يمثل حالاته الخاصة؛ حيث اجتاز عوالم الكثرة ووصل إلى الفناء المطلق في الله، أي أنّه أنهى السفر الأول «إلى الله» وانشغل في السفر الثاني «في الله» وكذلك هو حال جلال الدين الرومي، حين أنشد الأشعار التي تحكي دخول الشاعر الشيعي مدينة حلب؛ فهم قد اجتازوا درجات النفس وسكنوا ساحة العرش، ونالوا قربه.

لكن سائر الخلق، الذين لا زالوا رهائن في عالم الكثرة، ولم يخرجوا من طوق أنفسهم، عليهم بالبكاء وإقامة المآتم والرثاء والنواح؛ لينالوا بها ذلك الهدف السامي؛ فهذا المجاز سبيلٌ إلى تلك الحقيقة، كما تدعونا روايات عديدة لإقامة المآتم؛ لنطهّر بها أنفسنا ونسير مع أولئك العظماء.

وبعد الانتهاء من الأسفار الأربعة، من مستلزمات البقاء بالله بعد مقام الفناء في الله، الارتباط بعوالم الكثرة وإعطاء كلّ عالم ما يستحقه؛ فيكون الإنسان مع الله في عالم الخلق ويتصف بالصفات الخلقية، في الوقت عينه الذي هو متحد بالربوبية، فهو حب وعزاء وتوحيد وكثرة، كما كنا نجد عين هذه الحالات لدى السيد الحداد في أيامه الأخيرة؛ فهو بعد أن بلغ مرتبة الفناء المحض وتمكّن من التجرد، أصبح في مرتبة البقاء، وكان ـ مع الوله ـ يذرف الدمع ويشارك في المأتم عن حرقة ورقّة قلب.. بعبارة مختصرة، واقعة كربلاء قصة غامضة ذات وجهين؛ وجه يظهر الحب والشغف والوصال وفوز سيد الشهداء ببلوغ تلك العوالم، ووجه آخر يملؤه الحزن والألم والعذاب والبكاء، لكن من يريد رؤية ذلك الوجه، عليه التمعّن في هذا الوجه، واجتيازه إلى الوجه الآخر؛ ولمثل هذا فليعمل العاملون.

أكثر لفظ كان يذكره الحداد هو «الفناء» ولم يرَ سبيلاً أو علاجاً أنجع منه، وكان يدعو أصحابه إلى ذلك»[1].

وفيما يخصّ كلام السيد هاشم الحداد وبيان السيد الحسيني الطهراني في

---

(١) المصدر نفسه: ٩١.

تبريره، نوصي بالتمعّن في كلام الحسيني الطهراني، ونضيف أنّ البكاء على المظلوم، خاصة إن كان سيد الشهداء وصحبه المضرّجين بالدماء، حسنٌ ولازم في كل الأوقات إلى القيامة، وللجميع في أيّ مقام كانوا؛ فنظرة عابرة على كلام الإمام المهدي في زيارة الناحية، كفيلة بإظهار حقيقة الأمر؛ إذ يقول: «.. فلأندبنّك صباحاً ومساءً، ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً. حسرةً عليك، وتأسّفاً على ما دهاك، وتلهّفاً حتى أموت بلوعة المصاب، وغصّة الاكتئاب» أو كلام الإمام الرضا عليه السلام حين قال: «إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا، بأرض كرب وبلاء، وأورثنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون..».

أمّا سائر التبريرات فلم تكن مفهومةً لكثيرين؛ فلا حاجة للردّ عليها؛ فالمأتم الحسيني والبكاء على سيد الشهداء واستذكار المصائب التي حلّت به، ومصيبة فقدانه، لا يُخدش بأقوالٍ كهذه.

وفي الختام، يجدر التنبيه إلى أنّ كلام السيد ابن طاووس، وإن كان أكثر مرونةً ولطفاً، لكنّه في حقيقته لا يختلف عن كلام السيد الحداد. وينبغي أن نلتفت إلى كلّ المعاني التي يحتملها كون الأمر ذا وجهين، ولا نغفل أياً منها؛ فنحن نريد أحياناً أن نلفت الانتباه إلى الوجه الآخر، لكن المهم هو أنّ التركيز على وجهٍ يجب أن لا يُسبّب صرف النظر عن الوجه الآخر، فيما كلاهما مهم، وينبغي الالتفات إليهما معاً.

## هل العزاء بعد العاشر أم في العشر الأوائل؟!

يطرح السيد ابن طاوس الشبهة الخامسة، ويردّ عليها، ولنقرأ معاً نص كلامه في كتاب الإقبال: «أقول: ولعلّ قائلاً يقول: هلا كان الحزن الذي يعملونه من أول عشر المحرم قبل وقوع القتل يعملونه بعد يوم عاشوراء؛ لأجل تجدّد القتل، فأقول: إن أول العشر كان الحزن خوفاً مما جرت الحال عليه، فلمّا قتل دخل تحت قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (◆) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فلما صاروا فرحين بسعادة الشهادة وجب المشاركة لهم في السرور بعد القتل لتظفرهم بالسعادة، فإنّ قيل: فعلام تجدّدون قراءة المقتل والحزن كل عام؟ فأقول: لأن قراءته هو عرض قصّة القتل على عدل الله جل جلاله ليأخذ

بثاره كما وعد من العدل، وأما تجدّد الحزن كل عشر والشهداء صاروا مسرورين؛ فلأنه مواساة لهم في أيام العشر حيث كانوا فيها ممتحنين ففي كل سنة ينبغي لأهل الوفاء أن يكونوا وقت الحزن محزونين ووقت السرور مسرورين»[(١)].

إنّنا نعتقد أنّ التأمّل في الروايات المذكورة في هذا المقال، يغنينا عن الرد المستقل لكلّ من الشبهات؛ إذ تدافع هذه الروايات بجدارة عن البكاء وإقامة المأتم والجزع والنواح على سيّد الشهداء، وتقدم تفاسير جيّدة لذلك. ونأتي هنا ببعضها:

فعن أبي عمارة المنشد، قال: «ما ذكر الحسين بن علي عند أبي عبد الله في يوم قطّ، فرئي أبو عبد الله متبسّماً في ذلك اليوم إلى الليل»[(٢)]، وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سمعته يقول: إنّ البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء على الحسين بن علي، فإنه فيه مأجور»[(٣)]، وعن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كل الجزع والبكاء مكروه، سوى الجزع والبكاء على الحسين»[(٤)].

يقول المجلسي صاحب البحار في ذيل هذه الأحاديث: «أَقُولُ: رَأَيْتُ فِي بَعْضِ تَأْلِيفَاتِ بَعْضِ الثِّقَاتِ مِنَ الْمُعَاصِرِينَ، رُوِيَ أَنَّـهُ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِـيُّ ابْنَتَـهُ فَاطِمَـةَ بِقَتْلِ وَلَدِهَا الْحُسَيْنِ ومَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْمِحَنِ بَكَتْ فَاطِمَةُ بُكَاءً شَدِيداً، وقَالَتْ: يَا أَبَهْ! مَتَى يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: فِي زَمَانٍ خَالٍ مِنِّي ومِنْكِ ومِنْ عَلِيٍّ، فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهَا وقَالَتْ: يَا أَبَهْ! فَمَنْ يَبْكِي عَلَيْهِ ومَنْ يَلْتَزِمُ بِإِقَامَةِ الْعَزَاءِ لَهُ؟ فَقَالَ النَّبِـيُّ: يَا فَاطِمَـةُ! إِنَّ نِسَاءَ أُمَّتِـي يَبْكُونَ عَلَى نِسَاءِ أَهْلِ بَيْتِي ورِجَالَهُمْ يَبْكُونَ عَلَى رِجَالِ أَهْلِ بَيْتِـي ويُجَدِّدُونَ الْعَزَاءَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ، فَإِذَا كَانَ الْقِيَامَةُ تَشْفَعِينَ أَنْتِ لِلنِّسَاءِ وأَنَا أَشْفَعُ لِلرِّجَالِ، وكُلُّ مَنْ بَكَى مِنْهُمْ عَلَى مُصَابِ الْحُسَيْنِ أَخَذْنَا بِيَدِهِ وأَدْخَلْنَاهُ الْجَنَّةَ. يَا فَاطِمَةُ! كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَيْنٌ بَكَتْ عَلَى مُصَابِ الْحُسَيْنِ فَإِنَّهَا ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ[(٥)].

---

(١) أبو القاسم علي بن موسى الحلّي الحسني، ابن طاووس، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة في السنة: ٥٨٣، تحقيق: جواد القيومي، ط١، قم، دفتر تبليغات اسلامي، ١٤١٤هـ.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢٩١.

(٤) المصدر نفسه: ٢٨٠.

(٥) المصدر نفسه: ٢٩٢، ٢٩٣.

وفي رواية أخرى، روي عن الصادق، أنّه قال: إنَّ زَيْنَ الْعَابِدِينَ بَكَى عَلَى أَبِيهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً صَائِماً نَهَارَهُ قَائِماً لَيْلَهُ، فَإِذَا حَضَرَ الْإِفْطَارُ جَاءَهُ غُلَامُهُ بِطَعَامِه وشَرَابِه فَيَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْه، فَيَقُولُ: كُلْ يَا مَوْلَايَ، فَيَقُولُ: قُتِلَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ جَائِعاً قُتِلَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ عَطْشَاناً، فَلَا يَزَالُ يُكَرِّرُ ذَلِكَ ويَبْكِي حَتَّى يُبَلَّ طَعَامُهُ مِنْ دُمُوعِه ثُمَّ يُمْزَجُ شَرَابُهُ بِدُمُوعِه، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ عَزَّ وجَلَّ. وَحَدَّثَ مَوْلَى لَهُ أَنَّهُ بَرَزَ يَوْماً إِلَى الصَّحْرَاءِ، قَالَ: فَتَبِعْتُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَجَدَ عَلَى حِجَارَةٍ خَشِنَةٍ فَوَقَفْتُ وأَنَا أَسْمَعُ شَهِيقَهُ وبُكَاءَهُ، وأَحْصَيْتُ عَلَيْهِ أَلْفَ مَرَّةٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقّاً حَقّاً لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعَبُّداً ورِقّاً لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِيمَاناً وصِدْقاً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ وإِنَّ لِحْيَتَهُ ووَجْهَهُ قَدْ غُمِرَ بِالْمَاءِ مِنْ دُمُوعِ عَيْنَيْه. فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي! أَمَا آنَ لِحُزْنِكَ أَنْ يَنْقَضِيَ ولِبُكَائِكَ أَنْ يَقِلَّ؟ فَقَالَ لِي: وَيْحَكَ إِنَّ يَعْقُوبَ بْنَ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ كَانَ نَبِيّاً ابْنَ نَبِيٍّ، كَانَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ ابْناً فَغَيَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَاحِداً مِنْهُمْ فَشَابَ رَأْسُهُ مِنَ الْحُزْنِ واحْدَوْدَبَ ظَهْرُهُ مِنَ الْغَمِّ وذَهَبَ بَصَرُهُ مِنَ الْبُكَاءِ وابْنُهُ حَيٌّ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وأَنَا فَقَدْتُ أَبِي وأَخِي وسَبْعَةَ عَشَرَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي صَرْعَى مَقْتُولِينَ؛ فَكَيْفَ يَنْقَضِي حُزْنِي ويَقِلُّ بُكَائِي؟![1].

وجاء في رواية أخرى: أَنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ دَخَلَ يَوْماً إِلَى الْحَسَنِ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ بَكَى. فَقَالَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ: أَبْكِي لِمَا يُصْنَعُ بِكَ. فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: إِنَّ الَّذِي يُؤْتَى إِلَيَّ سَمٌّ يُدَسُّ إِلَيَّ فَأُقْتَلُ بِه ولَكِنْ لَا يَوْمَ كَيَوْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، يَزْدَلِفُ إِلَيْكَ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَجُلٍ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أُمَّةِ جَدِّنَا مُحَمَّدٍ ويَنْتَحِلُونَ دِينَ الْإِسْلَامِ، فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى قَتْلِكَ وسَفْكِ دَمِكَ وانْتِهَاكِ حُرْمَتِكَ وسَبْيِ ذَرَارِيكَ ونِسَائِكَ وانْتِهَابِ ثِقْلِكَ، فَعِنْدَهَا تَحِلُّ بِبَنِي أُمَيَّةَ اللَّعْنَةُ وتُمْطِرُ السَّمَاءُ رَمَاداً ودَماً، ويَبْكِي عَلَيْكَ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ والْحِيتَانِ فِي الْبِحَارِ[2].

وفي رواية أخرى، قال معاوية بن وهب: كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، إِذْ جَاءَ شَيْخٌ قَد انْحَنَى مِنَ الْكِبَرِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّه. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ ورَحْمَةُ اللَّهِ يَا شَيْخُ، ادْنُ مِنِّي فَدَنَا مِنْهُ وقَبَّلَ يَدَهُ وَبَكَى. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَمَا يُبْكِيكَ يَا شَيْخُ؟ قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ! أَنَا مُقِيمٌ عَلَى رَجَاءٍ مِنْكُمْ مُنْذُ

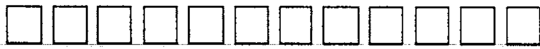
---

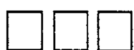
(١) المصدر نفسه ٤٥: ١٤٩.

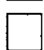
(٢) المصدر نفسه: ٢١٨.

نَحْوٍ مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ، أَقُولُ: هَذِهِ السَّنَةَ وهَذَا الشَّهْرَ وهَذَا الْيَوْمَ ولَا أَرَاهُ فِيكُمْ فَتَلُومُنِي أَنْ أَبْكِيَ. قَالَ فَبَكَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا شَيْخُ! إِنْ أُخِّرَتْ مَنِيَّتُكَ كُنْتَ مَعَنَا وإِنْ عُجِّلَتْ كُنْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ ثَقَلِ رَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ الشَّيْخُ: مَا أُبَالِي مَا فَاتَنِي بَعْدَ هَذَا يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: يَا شَيْخُ! إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ الْمُنْزَلَ وعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي تَجِيءُ وأَنْتَ مَعَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ قَالَ: يَا شَيْخُ! مَا أَحْسَبُكَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ. قَالَ: لا. قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ؟ قَالَ: مِنْ سَوَادِهَا، جُعِلْتُ فِدَاكَ. قَالَ: أَيْنَ أَنْتَ مِنْ قَبْرِ جَدِّيَ الْمَظْلُومِ الْحُسَيْنِ؟ قَالَ: إِنِّي لَقَرِيبٌ مِنْهُ. قَالَ: كَيْفَ إِتْيَانُكَ لَهُ؟ قَالَ: إِنِّي لآتِيهِ وأُكْثِرُ. قَالَ: يَا شَيْخُ! ذَاكَ دَمٌ يَطْلُبُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مَا أُصِيبَ وُلْدُ فَاطِمَةَ ولَا يُصَابُونَ بِمِثْلِ الْحُسَيْنِ، ولَقَدْ قُتِلَ فِي سَبْعَةَ عَشَرَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ نَصَحُوا لِلَّهِ وصَبَرُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ فَجَزَاهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ جَزَاءِ الصَّابِرِينَ، إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ومَعَهُ الْحُسَيْنُ ويَدُهُ عَلَى رَأْسِهِ يَقْطُرُ دَماً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! سَلْ أُمَّتِي فِيمَ قَتَلُوا ابْنِي؟ وقَالَ: كُلُّ الْجَزَعِ والْبُكَاءِ مَكْرُوهٌ سِوَى الْجَزَعِ والْبُكَاءِ عَلَى الْحُسَيْنِ»[1].

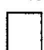
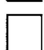
(١) المصدر نفسه: ٣١٣، ح١٤.

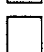
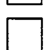


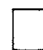
# الفصل الرابع

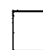
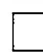
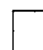




## الثورة الحسينية
## قراءات نهضوية وتحليلية معاصرة



















# عاشوراء الحسين وعاشوراء الشيعة

## تعدّد الأهداف والوسائل

أ. محمد إسفندياري[*]

ترجمة: محمد عبد الرزاق

### مدخل

في العاشر من محرّم سنة ٦١هـ حدثت واقعة في إحدى أصقاع العالم الإسلامي بقيت عالقةً في الأذهان ـ على تمادي القرون بها ـ شعلةً متوهجة، وكانت الواقعة عبارة عن مقتل سبط النبي على أيدي من يدّعون الولاء لذلك النبي نفسه؛ ومنذ ذلك الحين حدّثنا التاريخ عن عاشوراء كما أورثنا عاشورائين: عاشوراء الحسين، وعاشوراء الشيعة، هما محلّ بحثنا الحالي.

### عاشوراء الحماسة

عاشوراء قمّة في الحماسة وقمّة في التراجيديا؛ فلم يبصر تاريخ البشرية حماسةً بهذا الرقي، ولا تراجيديا بهذه الدموية، وبماذا يمكن مقارنة الراميانة والإلياذة وأوديزه وأناهيد أو الشاهنامة بسفر عاشوراء؟ وعاشوراء حماسة؛ لأن قائدها ترجّل فرداً أمام الحكم الفاسد والسفاك، فلم يبايع يزيداً وقال: مثلي لا يبايع مثله[1]، ولم يرضخ للبطش والسلطة ولم يرض بالذلّ والهوان بديلاً؛ لأنه قال: إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً[2]؛ فظلّ ثابتاً على موقفه قاتل وأثقل بالجراح حتى قُتل، وكانت كلّ جراحاته من وجهه، أي أنه لم يُدبر أمام

---

(*) باحث متخصّص في التراث والببلوغرافيا.

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٤: ٣٢٥، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣ هـ. ط.٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٩٢.

القوم[١].

وقد اختُلف في عدد شهداء كربلاء بين (٧٣) إلى (٢٠٠) شهيد، وليس هذا بالمهم، إنما السرّ يكمن في تضحية الحسين بجميع ما يملك ـ قليلاً كان أو كثيراً ـ والجود بالنفس أقصى غاية الجود، فقدّم كل شيء في رسم هذه الحماسة الرائعة، قدّم الأهل والأصحاب، وقُتل الجميع، إذاً فليس عدد القتلى ثلاثةً وسبعين، بل هو «جميع الموجودين»، وقد يصغر عدد الثلاثة والسبعين إذا ما قورن بمعركة سقط فيها بضعة آلاف من القتلى، لكنّ الحال يختلف مع كربلاء؛ لأنّ مجاهديها كافّة قد قتلوا عن بكرة أبيهم، فشهداؤها هم «الكل»، ولا يُهدف من هذا العدد القليل تعظيم معنى كربلاء، لكنّ ما يرفع شأنها هو استشهاد كلّ رجال المعركة فيها؛ من هنا باتت حماسةً خالدة. يقول «سيلونا»: إنّ أقصى ما تقدّمه النفس في كل عصر وزمان وأمام كلّ حكومة هو التضحية فتفنى من أجل المبدأ، والإنسان بما يملك ويقدّم[٢].

لم يكتف الحسين عليه السلام بتقديم نفسه بل قدّم القربان تلو القربان، ومن بين قرابينه ذووه وأهله بما يقارب الستة عشر رجلاً، بينهم أخوه الذي كان عضده وولده وكان عينه التي يبصر بها. لقد حاول الشيوخ والأقرباء نصيحة الإمام الحسين بالتراجع عن قراره نظراً للظروف المحيطة وانطباعهم عن الأجواء الحاكمة ففشلوا في ذلك، ومضى هو في طريقه على قلّة العدّة والعدد ليسجّل أروع حماسة تاريخية ألهمت الإنسان الحرية ومقارعة الظلم والموت وقوفاً، موتاً غبطته روح الحياة في قرارتها، حقاً أيّة حماسة أسمى من مفاهيم عاشوراء؟! تلك التي سجّلت سطورها على رمضاء حامية وفلاةٍ خاوية، لكنّها خلّدت أسطورةً لكلّ الأجيال.

## عاشوراء التراجيديا

وجهان لعملة واحدة ـ كما يقال ـ وجهها الأول في الحماسة والآخر في

(١) المصدر نفسه ٤٥: ٨٢.

(٢) سيلونه، نان وشراب: ٤٣٥، ترجمه للفارسية: محمد قاضي، طهران، زرين، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، ط.١٦، يقول آندرا جيد: (مآل كل تضحية تحقيق للوجود، وكلّ ما تتركهُ في خلجاتك يبحث عن وجوده، ومن أراد تحقيق ذاته ألغى وجوده؛ لأنّ التفاني في الذات إثبات لها»؛ انظر: مائده هاى زميني ومائده هاى تازه: ٢٧٢، ترجمة: حسن هنرمندي، طهران زوار، ١٣٥٧ش/ ١٩٧٨م.

التراجيديا، وأيّ تراجيديا أفجع من هذه؟! أن يُقتل ويُصرع أمام الحسين أخوته والخلّص من أصحابه بل حتى طفله الرضيع، ولم يقف الظلم عند هذا الحدّ، فقتل سبط الرسول على يد من ادّعى الانتماء لدين الرسول ﷺ، ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ، بل فصل ـ أيضاً ـ الرأس عن الجسد، ومن ثم داست الخيل بحوافرها على جسده الشريف، بعد ذلك حمل الرأس على الرماح وطيف به من ولاية إلى أخرى، ولم يُكتفَ بذلك بل ضربت شفاه الرأس المقطوع وأسنانه بالعصا، وحرقت الخيام وسُبيت النساء أسارى يحدو بهنّ الحادي من بلدٍ الى بلد؛ فحقاً أيّ فجيعة أمضى من هذه الفاجعة؟ وهي لا تزال حيّةً تستجري دموع العيون على ما تقضى من عمرها من قرونه، فهل لها نظيرٌ في التاريخ؟ لقد علقت ذكرى الحسين بالأرواح والألسن وما زالت دماه تغلي في العروق لا سكون لها، وكما يقول العطار النيسابوري:

لقد أراقوا ما أراقوا من الدماء
وسيبقى هذا الدم يغلي حتى يوم القيامة
فكلّ الدماء تسيل وتمضي
ووحده ذلك الدم بقي مخلّداً على مرّ العصور[(١)].

إنّ ما حصل بكربلاء لم يكن حرباً أو معركة، بل استباحة وإغارة على ركب الحسين، فلم تراعَ أبسط قوانين الحرب وتعاليم الإسلام، بل لم يراع حتى ما كانت تلتزم به العرب في الجاهلية[(٢)]؛ فمن تلك الأصول النزال والمبارزة وجهاً لوجه، أو عدم التعرّض للنساء والأطفال، ومنها أيضاً أن لا يؤسر المسلم، وحرمة المثلة بجسده و.. لقد تجاهلوا هذه القوانين كلّها في كربلاء وأغاروا واستباحوا كلّ محرّم؛ فلم يقاتل جيش يزيد جيشَ الحسين، بل أغار عليه بمذبحة غادرة، فكان منهم ما لم يكن في حروب الإسلام مع الكفر، فالجيش يعلم أنه أمام طائفة من المسلمين، لكنّهم مارسوا ما لا يجيزه الإسلام حتى مع المحاربين الكفار؛ فواقع قتال الحسين كان

---

(١) فريد الدين العطار النيشابوري، خسرو نامه: ٢٥، تحقيق أحمد سهيلي خوانساري، طهران، زوار ١٣٥٥ش/١٩٧٦م.

(٢) راجع في ذلك: جلال الدين الفارسي، انقلاب تكاملي إسلام: ٧٠٤ ـ ٧١٠، طهران، دار العلم والثقافة، ١٣٦١ش ١٩٨٢م.

عبارة عن مجزرة تاريخية وجريمة بأبشع صورها.

وإذا كان قد قيل في وصف وحشية المغول: إنهم قتلوا، أحرقوا ومضوا، فإنّ جيش يزيد مارس ما هو أفظع من ذلك بكثير؛ لأن أفراده قتلوا وأحرقوا وأسروا، ولم يتردّدوا في ارتكاب أيّ جريمة، ولذلك نسمع الإمام السجّاد يقول في وصف الفاجعة: «لا يومَ كيومك يا أبا عبد الله، ولا مصيبة كهذه المصيبة، حتى ما جرى يوم مقتل الحمزة بأحُد أو جعفر في مؤتة»[(١)]. وكما يقول أبو ريحان البيروني: لقد دار مع الحسين وأهل بيته ما لم يدر في ملّة، بل ما لم يدر مع الأشرار من الناس من قتل وعطاش وإحراق وحزّ للرؤوس ووطء للأجساد..[(٢)].

إنّ الكشف عن معنى (ثار الله) يدلّنا على جلل سفك دم الحسين؛ فالثأر يأتي بمعنى الدم وبمعنى الطالب بالدم، وهو ما ينطبق على مفهوم ثار الله أيضاً، فإذا فسّرناه بالدم فهو من باب الإضافة الشرفية؛ فالحسين ثار الله أي دمه، على غرار إضافة الأسماء إلى لفظ الجلالة بداعي تشريفها كما يقال: يد الله، عين الله، بيت الله، أي أنه كان الآمر ببناء البيت، إذاً فالحسين دم الله المسفوك، وسفك دمه سفكٌ لدم الإله. فثار الله هو ذلك الدم الذي شرّفه وحرّم سفكه. أما إذا أخذنا بالمعنى الآخر للثأر وهو المنتقم، فسيكون من قبيل تعابير الكناية، أي أن الله وليّ دم الحسين وهو الطالب بثأره، وعليه لن يكون حساب المذنبين إلا مع الخالق عز وجل[(٣)].

وأياً كان المعنى المقصود لكلمة (ثار الله)، يبقى المقدار المتيقّن منها هو حرمة سفك دم الحسين عليه السلام، وأنّ ذلك جرم وجناية ما بعدها جناية، لكن الجناية جاءت بعد خمسين عاماً على رحيل الرسول صلى الله عليه وآله، وسفك دم الله بأبشع الصور، فهل ثمة تراجيديا أكثر دمويةً من إراقة الدم السماويّ على الأرض؟!

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٨.

(٢) أبو ريحان البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية: ٤٢٠، تحقيق: برزيز اذكائي، طهران، مركز نشر ميراث مكتوب، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م، ط١.

(٣) للتحقيق في ذلك يراجع: الميرزا أبو الفضل الطهراني، شفاء الصدور في شرح زيارة العاشور ١: ٢٢٦ - ٢٢٩، ٤٤٨ - ٤٥٢، تحقيق السيد علي موحّد الأبطحي، قم، محقق الكتاب، ١٣٧٠ش/١٩٩١م، ط٣؛ وعلي شريعتي، حسين وارث آدم: ١١١- ١٢٢، طهران، منشورات دار القلم، ١٣٦٠ش/١٩٨١م.

## عاشوراء، تعدّد القراءات والتفاسير

عندما ندقّق في مقولة عاشوراء نجدها مزيجاً من عنصري: الحماسة والتراجيديا مع استحالة الفصل بينهما، لكنّ الكلام هنا في الأصالة فأيهما الأصل: الحماسة أم التراجيديا؟ والردّ على السؤال سيكون ملزماً بآلية في التعامل مع حياتنا، فمن أيّ «زاوية» نرصد المشهد الكربلائي؟ بمعنى كيف لنا أن نقرأ كربلاء؟ فالموضوع دخيل في آلية القراءة وفي آلية التوفيق في الحياة العملية.

تأسيساً على ذلك، يمكن رصد الموقف من ناحيتين، وحسب الشاعر جلال الدين الرومي من منظارين، أو كما يقول الغربيون من زاويتين: «الطابع السياسي» و «الطابع العاطفي»، ولكلّ طابع عاشوراؤه، فعلى صعيد السياسة تبدو أمامنا حماسة عاشوراء، وعلى الصعيد العاطفي تطالعنا التراجيديا، فإن نظرنا لها من المنظار السياسي استوحينا حماستها السياسية، وإذا كانت نظرتنا من زاوية العاطفة تجسّدت أمامنا المشاهد التراجيدية، ووفقاً لهذا ليست عاشوراء وحدها ما يتعدّد بل السلوك أيضاً تابع في التعدّد هذا.

لو جعلنا «الحماسة» هي الأصل في عاشوراء، كانت النتيجة نبذ الخوف والذل،والوقوف بوجه كل يزيد، وذلك بما ألهمتنا تلك الحماسة من أصول الحريّة والمقاومة والتمسّك بالعزة والشهادة. أما إذا اتخذنا «التراجيديا» أصلاً في قراءة عاشوراء، كانت النتيجة مأتماً دائماً وعزاءً سرمداً، واقتصرت نشاطاتنا على إقامة مجالس العزاء وسكب الدموع فيها، وتختصر كربلاء في الدمع والتطبير وتأسيس الهيئات والمواكب، ولا شك أنّ الأصالة عائدة إلى الحماسة لا إلى التراجيديا، نعم التراجيديا هي واحدة من لوازم المواقف الحماسية، لكنّ الأساس والأصل والغاية الأهمّ تنبع من تأصيل الطابع الحماسي لتلك الثورة، إنها الثورة التي بدأها الحسينيّون بالحماسة وختمها اليزيديون بالفاجعة، فعنصر التراجيديا جاء معلولاً لخطيئة الأعداء، ثم إنها تراجيديا بمنظارنا الضيّق، وإلا فهي عند بطلة كربلاء من الجميل الرائع، ألم تقل زينب عند مشاهدة وقائع الفاجعة: «ما رأيت إلا جميلاً»؟[1]،

---

(١) ابن طاووس، اللهوف على قتلى الطفوف: ٢٠١، تحقيق فارس تبريزيان (حسون)، طهران وقم، دار أسوه، ١٣٧٥ش/١٩٩٦م.

فلم يقتل الحسين من أجل حداد الأمّة الى أبد الآبدين، وإنما قدّم نفسه وضحّى بروحه ليحيي الأمّة بدرس التحرير والعزة، إنه خرج للإصلاح في أمّة جدّه، ألم يقل: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي»؟[١]، ألم يقل: «لكم بي أسوة»؟[٢]، إنه عليه السلام أسوةٌ في الإصلاح ومقارعة الظلم، وليس ذريعةً لالتزام الرثاء والبكاء وتهميش أهداف عاشوراء الحقيقية.

## عاشوراء بين النزوع العاطفي والمطالعة السياسية

ظلّت الرؤية العاطفية هي الطاغية على المشهد العاشورائي؛ وذلك بسبب تغيّب الشيعة عن الساحة السياسية تحت ضغط بعض العوامل، أما في القرن الرابع عشر وبعدما دخل التشيّع معترك السياسة بقوة، فقد بدأ يغلب طابع السياسة في قراءة معطيات عاشوراء، فبينما كانت الرؤية العاطفية تركّز على مصاب الحسين عليه السلام وتبكيه.. جاءت الرؤية السياسية وأضافت إلى ذلك مفردات السياسة والنضال والحماسة عند الحسين، موظفةً المأتم والمصائب فيما يصبّ في صالح الهدف الأصلي.

في السابق، كانت الرؤية العاطفية تحجّم عاشوراء عند حدود التراجيديا وتختصر شخصية الحسين في معاناته ورزيّته، ويشهد على ذلك ما وصلنا من عناوين وما تواتر على الألسن من قاموس المأساة، من قبيل مصطلحات: البكاء، الدمع، المصيبة، الحزن والغم، البلاء والابتلاء، العزاء، المأتم، الظمأ، الأسر[٣]. أما في

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣٨٢.

(٣) تظهر في أسماء وعناوين المؤلّفات السابقة مفردات تراجيدية كثيرة، منها: طريق البكاء، طوفان البكاء، عمّان البكاء، أمواج البكاء، رياض البكاء، مفتاح البكاء، منبع البكاء، مخزن البكاء، معدن البكاء، مناهل البكاء، مجرى البكاء، سحاب البكاء، عين البكاء، كنز الباكين، مبكى العيون، مبكى العينين، المبكيات، بحر الدموع، فيض الدموع، عين الدموع، سحاب الدموع، ينبوع الدموع، منبع الدموع، دمع العين، مدامع العين، مخازن الأحزان، رياض الأحزان، قبسات الأحزان، مثير الأحزان، مهيّج الأحزان، نوحة الأحزان وصحيفة الأشجان، أحزان الشيعة، بحر الحزن، كنز المحن، بحر الغموم، بحر الغم، قصص الغم، واحة الغموم، الهم والغم، مشرط الغم، كنز المصائب، مجمع المصائب، وجيزة المصائب، إكليل المصائب،

الوقت الحاضر وبعد غلبة الطابع السياسي على قراءات عاشوراء، تجلّى عنصر الحماسة بيّناً، فلم يعد الحسين فيه رمزاً للعزاء والمأتم وإنما أصبح رمزاً للحريّة والخلاص، ويؤيد ذلك المتداول من عناوين ومفردات هذه الحقبة والتحوّل الذي طرأ على مجراها بالتزام أدب الحماسة، من قبيل: التحرر والحرية، الثورة، النهضة، الخروج، النضال، الجهاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الإصلاح، الحكومة، السياسة، العدالة[1].

إنّ هذا التحوّل في مفردات الماضي والحاضر كفيلٌ بتفسير التمايز الجوهري في رؤى الفريقين؛ ففي السابق كانوا يردّدون الحسين في كلمتين هما: المصرع والمقتل، أما في الوقت الحاضر فيمكن ملاحظة شيوع مفردتين تمجّدان إنجازات الحسين هما: الثورة والشهادة، والبون شاسعٌ جداً بين الرؤيتين، كما يتضح لنا أنّ هذا التحوّل لم يأت من منطلق لفظي أو من التفنّن في صياغة هذا اللفظ أو ذاك، وإنما كان نابعاً من اختلاف الرؤية لجوهر ومعنى الحسين وعاشورائه؛ إنّ كلمتي: المصرع والمقتل تشيران الى البُعد المأساوي في الظلم النازل على الإمامعليه السلام، كما أنه ليس بعيداً أن يؤدّي تكرارهما إلى التقليل من شأنه وانكساره أمام الموقف الظالم، بينما تشير كلمتا: الثورة والشهادة إلى مدى جهادهعليه السلام ورفضه للظلم فصنع بذلك الثورة فهو هنا ثائر مجاهد. ونستنتج من ذلك أن مفردات من قبيل المصرع والمقتل لا توحي إلا بمعاني الاستعطاف والعزاء النابعة من منطق العاطفة في تراجيديا عاشوراء، أما كلمات مثل الثورة والشهادة فتدلّ ـ في أصدق دلالاتها ـ على الاستنهاض والحماسة، وهي معانٍ نابعة من حماسة السياسة وسياسة الحماسة عند عاشوراء.

---

للإطلاع يراجع: محمد اسفندياري، كتابشناسي تاريخي إمام حسينعليه السلام: ٣٨ ـ ٣٩، طهران، وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م، ط١.

(١) بينما شاعت في كتابات المتأخرين مفردات الثورة والحماسة والسياسة بشكل لافت من قبيل: في ظلال الحرية، زعيم الأحرار، الحسين حامل لواء الحرية، الحسين سيّد الأحرار، الحسين رمز الحرية، الملحمة الحسينية، ملحمة عاشوراء، ملحمة كربلاء، رجال الثورة، رسالة الحسين الثورية وظروفها الحرجة، ثورة الحسين، ثورة الطفّ، النهضة الحسينية، نهضة عاشوراء، الأهداف الاجتماعية عند الحسين بن عليعليه السلام، وتحليل دوافع ثورة كربلاء، الثورة الخالدة، للإطلاع المرجع السابق.

بعبارة مجملة، إذا كانت نظرتنا لعاشوراء سياسيةً باعتبار الحماسة أصلاً فيها، فالنتيجة ستكون «الإسلام الخماسي»، و «حسين الشهادة»، وليس حسين المصيبة والعزاء، بل «حسين الدم» وليس حسين الدمع، وسيكون هذا إسلاماً ملهماً من الحماسة الحسينية فيخلق الحماسات ويهدّ صروح الظالمين بسلاح الشهادة ويروي شجرة الحرية بالدماء الأبية. نعم سيظلّ البكاء أيضاً مفردةً من مفردات هذا الإسلام، لكنّ هدف الحسين ليس البكاء، كذلك الشفاعة حاضرة بين المفردات لكنّ دور الحسين ليس مقتصراً عليها ولن يكون شفيعاً لكلّ من هبّ ودب.

أما إذا كانت نظرتنا عاطفيةً بوصف التراجيديا أصلاً في عاشوراء، فستكون النتيجة «إسلام المراثي»،و «حسين المصائب»،وليس حسين الشهادة،بل «حسين الدمع» وليس حسين الدم. وسيكون الهدف الأساس كامناً في غرض الرثاء، والملاحظ في ذلك أنه لا يجنى من وراء إقامة العزاء إحياءٌ لمفاهيم الحسين، وإنما المراد والهدف قائمان بالعزاء نفسه، أي إنه هو الموضوع في القضية، وبذلك يُستبدل الهدف بالوسيلة والنتيجة بالمقدمات. فتغسل ـ حسب هذا الإسلام ـ كبائر الذنوب بقطرة دمع يذرفها الباكي كفارةً عن خطاياه؛ فيتحول الدمع إلى هدف، ويأخذ صفة المطهّرات فيزيل نجاسات الدنيا، الأمر الذي سينتج عنه إعراض أتباع هذا الدين عن العمل واكتفاؤهم بغرض البكاء. لقد شهد الماضي نادبين على الحسين أكثر منهم ثائرين معه، وتفوّق شعراء الرثاء على شعراء الثورة والملحمة، فما أكثر ما قيل في رثائه والبكاء عليه في مقابل ما كان ينبغي أن يحتفى بإنجازه الثوري والحفاظ عليه؛ لأن النظرة الغالبة كانت عاطفيةً، هذا من جانب، ومن جانب آخر وجدوا في البكاء على عاشوراء عملاً سهل المؤونة لا يتطلّب كثيراً من العناء، فلا شك أنّ تأبين الحسين أسهل بكثير من اقتفاء أثره في الثورة والخروج على الظالم، والجلوس في المجالس والبكاء على المصيبة أهون في نظر العامّة من الوقوف بوجه اليزيديين ومواجهتهم؛ لأن مطلب مجالس العزاء دمع والملاحم مطلبها دماء، والناس تلبّي نداء «حي على الصلاة» أكثر من تلبيتها نداء «حي على الزكاة»، فكيف إذا كان النداء «حي على الجهاد»؟!

## هدف الثورة الحسينية بين التعمية والتحريف

الإمام الحسين من الشخصيات التي قُتلت مرتين وظُلمت مرّتين، فالظلم الأوّل كان عندما قتلوه، والآخر عندما سعوا في طمس أهدافه وتحريفها، فظلموه في عاشوراء وتكرّر الظلم في أكثر منها، فالإجحاف كلّ الإجحاف وقع بتعمية هدف الثورة الحسينية. وعلى الرغم من بقاء اسم الحسين إلا أنّ الذي غيّب هو الهدف الحسيني، إذاً فهناك حسينٌ استشهد في حادثة التاريخ وحسين ظلّ يستشهد على مرّ التاريخ، وبعد دهس جسده الشريف دُهست أهدافه، فهذا من عدوّ مجرم وذاك من صديق جاهل.

فمن مصاديق وأد أهدافه ما يقال من أن خروجه كان أمراً شخصياً وواجباً فردياً لا يمكن تطبيقه على غيره، إقرأوا ما جاء في كتاب يحمل عنوان «مقصد الحسين»: لا يمكن التحدّث عن تفا صيل كربلاء وتفسير ما جرى فيها إلا في إطار مفهوم التكليف الشخصي[1]. ونقرأ أيضاً في «ناسخ التواريخ»: كان الحسين عالماً بمصير استشهاده وعزم عليه، وذلك تابعٌ لحكمة لا يُدرك سرّها إلا الله.. وليس لنا أن نقول: لماذا ألقى بنفسه في التهلكة؟ لأنّ تكليفه خارج عن تكاليف الخواص والعوام[2].

ومن مصاديق تعمية الأهداف ما كان يصل حدّ التحريف أيضاً، بحيث بات يقال: إنّه عليه السلام قُتل من أجل أن يبكي عليه الناس فتغفر ذنوبهم لا غير؛ فهذا الشريف الطباطبائي يقول: لا شك أن دعوات الإمام عليه السلام مستجابة، ولو دعا على القوم لهلكوا كما يجزع عليه المؤمنون من الأوّلين والآخرين ويبكوه دهورهم، ويتمنّوا الحضور معه ليفوزوا فوزاً عظيماً، وبذلك تغفر ذنوبهم ما تقدّم منها وما تأخر، ويكون بكاؤهم كفارةً لها، وهذا الجزع والبكاء لا يتحقق إلاّ باستشهاده، إذاً فحقيقة استشهاده كفارةٌ

---

(١) ميرزا أبوالفضل زاهدي قمي، مقصد الحسين: ٩، قم، مؤسسة بيروز، ١٣٥٠ش/١٩٧١م، ط٢، وجاءت هذه النظرية رداً على سؤال بعضهم عن مسألة الاقتداء بالإمام الحسين في مواجهة سلاطين الجور.

(٢) ميرزا محمد تقي سبهر (لسان الملك)، ناسخ التواريخ، في أحوال سيد الشهداء× ١: ٢٦٦، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٩٨هـ.

لجميع المذنبين[١].

وأسوأ من ذلك ما أورده النراقي في كتاب محرق القلوب، حيث قال: .. لقد ارتضى الحسين عليه السلام مصيرَ الشهادة من أجل نيل منصب الشفاعة الكبرى التي من خلالها يستخلص جميع الموالين والمحبّين.. وهذه درجة لا ينالها إلا باستشهاده؛ لأنّ محو معاصي الأمة والشفاعة لها متوقّف على مسيل الدم وبروز الألم[٢]. وتتلخّص هذه النظرية في أنّ الحسين استشهد من أجل نيل الشفاعة، فصار شهيداً لكي يكون شفيعاً؛ فيما لم يتطرّق الإمام لموضوع الشفاعة منذ انطلاقه من مكّة وحتى مهواه على رمضاء كربلاء، بل تحدّث عن مسائل أخرى. إن هذه النظرية عبارة عن تحليل مسيحي النزعة للثورة الحسينية، فكما أنهم يرون في صلب المسيح فديةً لخطايا البشر، كذلك عدّوا الحسين واستشهاده بغرض الشفاعة وغفران الذنوب، ومما يؤسف عليه تغلغل الوعي النصراني في ديننا وليست الإسرائيليات وحدها[٣].

لقد حملت عاشوراء في تاريخها ظلامتين ومصابين، أحدهما أبلغ من الآخر؛ ففي ظهيرة عاشوراء ظلم الإمام الحسين، وفي عاشوراءات لاحقة ظلم فكر عاشوراء الحسين، وأفرغت عاشوراء من محتواها وحُرّفت أهدافها، وإن كان في هذا الكلام غرابة على من لم يعرف عاشوراء أو عرفها ولم يطّلع على تاريخها، لكن إذا تصفّحنا التاريخ وقرأنا مصير عاشوراء سنتلمّس عن كثب مأساوية الواقع المرّ. حقاً لم يفـد

---

(١) ميرزا محمد باقر شريف الطباطبائي، أسرار شهادة آل الله صلوات الله عليهم: ١٣٣ ـ ١٣٤، [دون مشخصات مكتبية].

(٢) النراقي، محرق القلوب: ٤، الطبعة الحجرية.

(٣) يُذكر أن الكاتب مجيد محمدي كان قد صرّح بهذه النظرية في مقاله (فرهنك عاشورا در عصر سكولار) [عاشوراء في العصر العلماني] محاولاً تصوير فكرة الفدية بشكل أكثر منطقيةً. لكن على فرض التسليم بمنطقية هذه الفكرة يبقى من الصعب تطبيقها على ثورة الحسين واستشهاده. وقد يكون من السهل تضمين عشرات الأهداف للحسين في ثورته ويبقى الموضوع قائماً في تحديد أحدها، ثم إنّ التاريخ عبارة عن علم نقلي ولابد لنظرياته أن تنطوي على مقاييس النقل والرواية. أما فرضياتنا فهي وإن كانت على قدر من الصحّة، لكنّ الصعوبة تكمن في فرضها على ذلك التاريخ، فهو ليس محلاً لتأسيس الأفكار بقدر ما هو مظنّة للبحث عن الأخبار، إذاً يتعيّن علينا البحث في صفحاته عن أهداف الحسين من خلال المأثور عنه من أقوال.

الشيعة بشكل مناسب من نتاج عاشوراء، ولم يطبّقوا مفاهيمها بصورة صحيحة، ولم يوظّفوا سلاحها في مقارعة الظلم، بل كان جلّ همّهم أن يقيموا على أحزانها ومراثيها وحسب، فيما هي مليئة بالعبر والشخصيات الرائعة التي يمكن استلهام أسمى دروس الحرية من سيرتها بما يضمن لنا تحرّرنا ونشر العدالة في كلّ مكان، فلو كنّا قد اقتدينا بعاشوراء ـ وحدها ـ لما دامت حكومة ظالمة في ربوع أراضي الإسلام. لكنّ الذي يدعو للأسف هو استبدال التاريخ حماسة عاشوراء بتراجيديّتها؛ فلم يبق من كلّ تلك الملاحم سوى مواكب العزاء ومنابر الخطباء، وكأنّ الحسين كان قد خرج وقتل من أجل نعيه والبكاء عليه لا غير، والأسوأ من ذلك انجرار مراسم العزاء إلى هاوية الخرافات والبدع من قبيل التطبير وضرب السلاسل، وهي بدعٌ لا أساس لها في حقيقة تلك المراسم، ولم تمارس في أيّ مراسم أخرى في العالم، وليس العزاء إلا ما يكابده القلب من حزنٍ وأسى، لا ما يمارَس من تطبير الرأس وغيره.

أحياناً كانت بعض مواكب العزاء تتحوّل إلى ساحات تناحر وعراك بين المشاركين فيها من أجل التنافس على احتلال هذا الشارع أو ذاك الميدان، وبالطبع ما أكثر من يسقط بين جريح وقتيل، والسبب في ذلك عائدٌ إلى تغلغل بعض الفتوّات والأشقياء في أعضاء المواكب والهيئات ممّن كان يحاول طرح نفسه وفتل عضلاته إشباعاً لرغبته في التغلّب على الآخرين. ويروي لنا الرحّالة الإيطالي (بيتر دلاواله) المرافق للشاه عباس الأول أنموذجاً لهذه الظاهرة المأساوية في مواكب العزاء الحسيني مبيّناً رغبة الشاه عباس نفسه في إثارة مثل هذا الخلاف والتناحر من أجل إمتاع نظره والتفرّج على تلك المشاهد، من قبيل ما رواه عن مراسم العزاء في شهر رمضان ومحرّم حيث قال: تتجمهر المواكب حول الميدان الواقع قبالة القصر والمسجد الكبير، ثم تتفرّق بعد الدعاء [وهو لابد للشاه]، وكان وزير إصفهان وأمين الخزانة يتابع المشهد مع بعض فرسانه لمنع وقوع حوادث شغب بين المعزين أنفسهم على مداخل الشوارع المؤدّية للساحة، وهو أمرٌ يحدث كثيراً في مثل هذه المراسم ويحصد نفوس المشاركين، علماً أن الشاه عباس كان يستمتع بمشاهد العنف هذه آخذاً جانب إحدى الهيئات في الدفاع عنها، وبعد اندلاع الفتنة يختبئ هو

ومرافقيه في أحد البيوت المجاورة ويبقى يتفرّج على المعركة من النوافذ، هذا بالنسبة لمراسم استشهاد الإمام علي عليه السلام[١].

أما بالنسبة لمراسم استشهاد الحسين، فهي تماماً كسابقتها إلا أنها تتمتع باهتمام أكبر ورسمية أوسع ـ كمّاً ونوعاً وشدّة ـ في التناحر والعراك بين الفتوّات، كنت ممتطياً حصاني يوم عاشوراء أشاهد الدركيّين عاجزين عن السيطرة على أعمال الشغب، وقد وردتني الأخبار بوقوع أحداث مشابهة في المدن الأخرى انتهت بعودة البعض مدمّى الرأس والوجه إلى بيوتهم[٢].

إن عاشوراءات التاريخ مليئةٌ بهذه المشاهد وغيرها ممّا يضرب الناس على رؤوسهم وصدورهم أو على رؤوس ووجوه أخوتهم فيها، في حين لم يطلقوا كلمةً واحدة بوجه الظالمين، إما لأنهم لم يعرفوا الظالمين أو لأنهم لا يجدون حاجةً في ذلك وهو الأسوء، فيما المرجوّ من واقع عاشوراء تذكير الوجدان بالحسينيين واليزيديين في كلّ عصر ومكان، وعلى الأمة التي تحيي ذكرى عاشوراء أن تفكّر وتبحث في عاشورائها، أين الحسينيون وأين اليزيديون؟ وما الواجب عمله على كلّ فرد؟ وما هي وجهته؟ نصرةً لهذا الجانب ومناهضة لذاك، اقتداءً بسيرة الحسين في عاشورائه، وتكراراً لتلك الواقعة بجميع مفاهيمها وقيمها.

تجدر الإشارة إلى أنّ أحاديث الحسين كانت تنصّ على اسم يزيد تارةً، وعلى مثيله تارة أخرى، قال عليه السلام: «على الإسلام السلام إذ قد بليت الأئمة براعٍ مثل يزيد»[٣]، وقال في موضع آخر: «مثلي لا يبايع مثله»[٤]. فأما ما ورد فيه الاسم صريحاً فهو مرتبط بعصره آنذاك، وأما ما كان على سبيل أمثاله فليس مختصاً بعصرٍ بل هو لكلّ الدهور، وليس ليومٍ واحد بل لكلّ الأيام، وهنا يرسم الإمام للعالم ملامحه المستقبلية تنبيهاً للأجيال القادمة؛ لأنّ الحديث إنما هو عن تكرّر يزيد

---

(١) سفرنامه بيتردلاواله ١: ٥٢١، ترجمة: محمود بهفروزي، طهران، قطره، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م، ط١، بتصرّف.

(٢) المصدر نفسه ١: ٥٦٣، بتصرّف؛ وأيضاً يراجع: نصر الله فلسفي، زندكاني شاه عباس أول ٣: ٧ ـ ٩، طهران، جامعة طهران، ١٣٥٣ش/١٩٧٤، ط٣.

(٣) الملهوف: ٩٩.

(٤) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

واليزيديين تباعاً، وهو عن شخصية عامة وليس عن شخص بعينه؛ فحديثه عن كلّ من كان مثله في مواجهة من هو مثل يزيد، فلا ينبغي له الركون والتراجع، إذاً فحديثه عن طريقٍ يحتاج إلى مواصلة، تلك الطريق التي لم تنته بعدُ وما زالت في طور التكامل، وهي التي كانت من قبل الحسين وستظلّ من بعده أيضاً تفتّش عن السائرين، بعبارة أخرى: في أيّ يوم وفي أي مكان يتسلّم الحكم شخص مثل يزيد سيكون ذلك اليوم عاشوراء والمكان كربلاء، فالحسين من تمرّد على اليزيدي ولم يخضع لبطشه.

## المجدّد الكاشاني وإحياء مفهوم عاشوراء

في العام ١٣٢٦ش/١٩٤٧م توجّهت المواكب والهيئات الحسينية إلى منزل العالم المشوّه سياسياً والمجدّد آية الله أبي القاسم الكاشاني، وألقى في الجماهير خطاباً عاشورائياً ملفتاً فريداً من نوعه بين الخطابات الدينية آنذاك، وقد تطرّق ـ من خلال عرض أهداف ثورة الحسين والاقتداء بها ـ إلى انحطاط الدول الإسلامية والظلم المحدق بشعوب إيران وباكستان وفلسطين، ودعا الناس حينها إلى التعبئة لإقامة عاشوراء من جديد، وقال ما لم يقله الآخرون أو ما لم يكن يفقهوه.

جاء في الخطاب: أيها السادة! يا من تجمهر من أجل العزاء! هل تعلمون لماذا استشهد الحسين بن علي عليه السلام؟ إنّ ما يقال في حصر تلك الغاية بالشفاعة للأمة عارٍ عن الصحة، إنه عليه السلام عدوٌ لمن ينحرف عن هدفه المقدّس ولا يتورع عن هتك حرم الإسلام، فهل لهذه المنابر أثرٌ في الحدّ من فواحش المدينة. لقد أراد الحسين القضاء على الظلم المستفحل في المجتمع وتعليم الجميع درس الشهامة والتضحية، كان ينهى الناس عن الانصياع للظلم والجور والتواني في إحقاق الحق طرفة عين أبداً، لقد اختار الشهادة للحدّ من أوضاع مشابهة لما نحن فيه هذه الأيام، ولو كنّا عمِلنا بمفهوم التضحية الحسيني لما عشنا هذه الظروف القاسية أبداً.. أيها السادة! إذا كنتم في كربلاء وسمعتم نداء الحسين، فهل ستكونون بجانبه مع كلّ تلك الآمال والأهداف؟ فإذا كنتم مستعدين لإعانته إذاً فلماذا لا تبادرون الآن بذلك وتسيرون على دينه ونهجه المقدّس؟!.. إنّ حال المسلمين على عهد يزيد أفضل ممّا نحن عليه اليوم؛ لقد كان الكفار يؤدّون الجزية والخراج للمسلمين، أما اليوم فقد وطئت هاماتنا،

وبينما كان الدين آنذاك آخذاً بالتوسع والانتشار، نجده اليوم مشرفاً على الزوال، إنّ وضعنا الاجتماعي أسوأ بكثير ممّا كان إبّان حكم يزيد..»[1].

يُذكر أنّ الكاشاني كان مشوّهاً بسبب هذه الخطابات السياسية؛ لذا فهو يعرّج على الأحكام والتهم الصادرة بحقه فيقول: سيعتبرني بعضهم من السياسيين؛ لأنّني تكلّمت في هذا الموضوع، وسيشيع عنّي أنني صرت سياسياً.»[2].

ومهما يكن من أمر، فإنّ التحدّث بهذه اللغة وفي مثل هذه الأيام يكاد يكون مستغرباً، كأن يدعو المعزّين الى الاقتداء بالحسين والحال أن العزاء عندهم من الضروريات المسلّم بها ولا تأثير في أفكارهم لمعايير التحرّر والتمرد على الظالم، فهم يبكون من أمد بعيد على مظلومية الحسين لكنهم لم يفكّروا بسبب ذلك الظلم، إنّ عاشوراء حاضرة في هذه الأجواء بلا روح؛ لأنّها مفرّغة من الثورة والحماسة، بينما كان المفروض ـ حسبما يقول الحكيمي ـ: لو أنّ واحدة من مناسبات عاشوراء المتكرّرة أقيمت كما رسم لها الأئمة لكانت كفيلةً بتغيير مصير الأمم[3].

## كيف صارت السلطة نفسها ترعى عاشوراء الثورة ضدّ السلطة؟!

لقد حرّفت أهداف عاشوراء مراراً على طول التاريخ حتى أنها طمست بحيث لم تعد تشكّل تهديداً لأنظمة الغطرسة والاستبداد، ويكفي دليلاً على ذلك أنّ سلاطين الجور باتوا هم الرعاة والمؤسّسون لتلك المراسم والمجالس، كما هي الحال بالنسبة

---

(١) مجموعة من خطابات آية الله الكاشاني ١: ٢١، ٢٦ ـ ٢٧، جمعها: م. دهنوي، طهران، جابخش، ١٣٦١ش/١٩٨٢م.

(٢) المصدر نفسه ١: ٢٧.

(٣) محمد رضا حكيمي، سرود جهشها: ٧٢، طهران، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٧٨ش/١٩٩٩م، ط٩؛ ولعلّ مقولة حكيمي هذه قد تجلّت في عاشوراء ١٣٩٩هـ (آذر ١٣٥٧ش)، حيث شهدت إيران هذا اليوم أضخم مظاهرة في تاريخها ضدّ الحكم البهلوي بوحي من نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وليس هناك يوم بين أيام الثورة الإسلامية في إيران أهمّ من هذا اليوم المصيري، فالحقيقة كان سقوط نظام الشاه مؤرّخاً بهذا اليوم تحديداً وليس هو إلا عبارة عن استفتاء عام أُجري دون تسجيل أسماء؛ للاطلاع يراجع: محمد اسفنديارى، بيك آفتاب، بزوهشي در كارنامه زندكي وفكري آية الله السيد محمود طالقاني :٢٤٥ ـ ٢٥٨، قم، صحيفة خرد، ١٣٨٣ش/٢٠٠٤م، ط١.

لملك الجور الشاه عباس الصفوي؛ حيث كان يقيمها بنفسه ويشارك في تفاصيلها أيضاً، أو كما «كان الديكتاتور ناصر الدين شاه القاجاري الذي لم يرَ تعارضاً بين ممارساته القمعية وتوفير أفضل وأحدث الإمكانات بغية إقامة مراسم التشابيه»[١]، يضاف إلى ذلك اهتمام الحاكم البهلوي بشهر محرّم وجلوسه تحت منابر العزاء. وهذا الدكتور محمد مهدي ركني واحدٌ من رجال الدين المستنيرين في خراسان، كتب عن مراسم العزاء بمدينة مشهد بين الأعوام ١٣٢٠ ـ ١٣٤٠ش/١٩٤١ ـ ١٩٦١م: كانت الهيئات الدينية والمواكب الحسينية آنذاك تابعةً للسلطة الطاغية بأكثر من شكل ومنفذةً لمآربها، ولهذا السبب كان العلماء المجدّدون ينتقدونهم؛ لأنهم كانوا يرون في ذلك استغلالاً لعاطفة الشعب الصادقة بما يصبّ في المرامي الخبيثة لسلطة الجور، يُذكر أن عدد الهيئات في مشهد بلغ في وقتها سبعين هيئةً وموكباً[٢].

ويؤيّد الأمر عينه عالمٌ آخر من الطراز نفسه ومن المهتمين بشأن خراسان، وهو علي أمير بور، حيث يقول: لقد تحوّلت الهيئات الدينية تحت ظلّ الثورة الإسلامية ووصايا رجال الدين الواعين إلى عنصر فعّال في الحفاظ على كيان الدولة وقيم الثورة بعد أن كانت منقادةً ـ عن تضليل ـ لمآرب الاستعمار ومكايده[٣].

على أيّ حال، بقيت عاشوراء عالقةً في ذاكرة التاريخ لكنّها ابتعدت عن هدفها؛ الأمر الذي جعل الظالمين لا يرون مانعاً وخطراً في مراسمها، حتى تراهم أوّل الحاضرين فيها، وهذا في واقعه نتيجة لانتشار المراسم المفرّغة من الهدف والفلسفة المنشودة بين الناس، حتى باتت تلك المراسم تُدار من قبل حكام الجور أنفسهم، فما عادوا يرون منافاة بين جورهم وإقامة مثل هذه الشعائر. فإن كانت تكلفتها الدمع المجرّد وإظهار اللوم، فما أسهل ذلك، وما الداعي لمنعها؟

كان هذا الاتجاه السلبي يثير حفيظة الطبقة الواعية من المستنيرين، فتتعالى

---

(١) حميد عنايت، أنديشه سياسي در اسلام معاصر: ٣١٣، ترجمة بهاء الدين خرمشاهي، طهران، خوارزمي، ١٣٧٢ش/١٩٩٣م، ط٣.

(٢) ياد نامه أستاد محمد تقي شريعتي مزيناني: ٤٧، إعداد: جعفر بزوم، قم، خرم، ١٣٧٠ش/١٩٩١م، ط١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٥ ـ ٢٤٦؛ ومن ذلك ما جاء في مقال الدكتور غلام عباس توسلي في المصدر نفسه: ٢١٧.

انتقاداتهم له، فلم يكونوا ملحدين أو مرتدّين، وانما كانوا متقدّمين في فكرهم على عوام الناس، لقد قالوا أشياء أخذ بها رجال الدين الإصلاحيون فيما بعد، ومن بين هؤلاء محمد تقي بهار الذي هجا في قصيدةٍ له بعض المشاركين في مراسم العزاء ومواكبها؛ لجهلهم بحقيقة الحسين، فقال:

أصبح خادم الحسين شمرَ هذا الزمان

ثم يلعنه مائة مرّة في اليوم

هناك من يهتف بحياة يزيد كلّ صباح بتملّق وهم بالمئات

وهنا يلعنونه وهو جثةً هامدة، يلعنونه وحسب!

وبينهم مئات من عُبيد الله ماثلة

وهم يشكون عُبيد الله وهو مقبور[١]

كان هذا الواقع المرّ مشهوداً، مثل ما حصل في محرّم سنة ١٣٣٠ش/١٩٥١م إبان هجوم الروس على مدينة تبريز عندما أخذوا ثقة الإسلام التبريزي لحبل المشنقة في يوم عاشوراء، فما كان من الجماهير إلا أن تسير في طريقها تلطم على صدورها دون أن تلحظ ظلم يزيد، كانوا يشتكون ظلم يزيد بالألسن وينادون: «يا حسين يا حسين»، لكنّهم يغضّون البصر عن إعدام تابعٍ للحسين في نهجه على أيدي الجيش الأحمر[٢].

وقبيل تنفيذ الحكم قرّرت بعض الطلائع الحرّة أن تحشد الجماهير في مكان

---

(١) ديوان أشعار ملك الشعراى بهار: ٢٦٣، طهران، آزاد مهر، ١٣٨٢ش، ط١؛ أيضاً يراجع ما جاء من شعره: ٣٣٢ ـ ٣٣٣؛ ولبهار أشعار عصماء في مدح أهل البيت عليهم السلام.

(٢) والميرزا علي التبريزي المعروف بثقة الإسلام التبريزي هو أحد تلامذة حوزة النجف الأشرف وصاحب الكتاب القيّم (مرآة الكتب)، كان من قادة الحركة الدستورية بتبريز. وعلى الرغم من إغارة الجيش الروسي على مدينته ووصايا أقربائه بالرحيل إلا أنه لم يعبأ بكلّ ذلك وظلّ صامداً فيها حتى اعتقاله وإحضاره إلى القنصلية الروسية، وهناك قال مخاطباً القنصل الروسي: أنا أعمل بواجبي الإسلامي والوطني، لأنّي لا أرتضي خضوع المسلمين للأجانب، وقد طلبوا منه تأييد تواجد هذه القوات بذريعة عجز الحكومة الإيرانية عن إقرار الأمن في مدينة آذربيجان، فرفض وقال لهم: انسحبوا أنتم من هنا وأعدكم بإقرار كامل للأمن والقانون. هذه المواقف وغيرها هي التي قادته وبعض رفاقه إلى حبل المشنقة في يوم عاشوراء. يراجع: دائرة المعارف تشيّع ٥: ٢١٨ ـ ٢١٩، طهران، محبي، ١٣٧٥ش/١٩٩٦م، ط١.

الإعدام وتستنهض همّهم في إنقاذ هذا العالم، ولهذا الغرض توجّهوا إلى إحدى هيئات المدينة وكانت مركزاً لمواكب التطبير، وهناك قالوا لزعيمهم: إنكم مستعدّون لضرب رؤوسكم بالسيف من أجل الحسين، فهل تعلمون بأمر إعدام ثقة الإسلام على أيدٍ أجنبية مستبدّة؟ أنتم بأعداد مؤلّفة وهم لا يتجاوز عددهم المائتي جندي؛ فتعالوا وأثبتوا موقفكم وانتماءكم الحسيني بإنقاذه، وتيقنوا أنّ الحسين يثمّن هذه الرجولة أكثر من أيّ شيء آخر، فكان ردّ زعيم القوم باللغة التركية: أخي العزيز، إنهم يحملون أسلحةً قاتلة![١]، وما أصدق ما قاله جلال الدين الرومي في مواكب مدينة حلب:

إذن، اندبوا أنفسكم أيها الغافلون
فغفلتكم وجهلكم أفجع من ذلك الموت
إبك على دينك المهجور، إذا لم يكن فيه إلا هذا التراب الغابر[٢].

### استشهاد عاشوراء بعد استشهاد الحسين

نعم، هذا هو واقع الحال الذي يتحدث عنه الحكيمي فيقول: يضاف إلى استشهاد الإمام الحسين يوم عاشوراء، استشهاد عاشوراء نفسها على مسرح التاريخ؛ فقد غُيّب مبدؤها (العدالة)، ففي كل عاشوراء شهيدان يجب رثاؤهما[٣]، ولو أنّ الإنسان أدرك كُنه عاشوراء وأبعادها، لنسي مصاب الحسين المحزن ولانقطع عن نصب المآتم عليه[٤]؛ تأسيساً على ذلك، ثمّة ظلم في حقّ الحسين ظهيرة عاشوراء، وظلمٌ في حقّ عاشوراء على مرّ التاريخ، فلابد من بكاء الأول بعين والثاني بالعين الأخرى.

---

(١) مصطفى دلشاد الطهراني، مدرسة حسيني: ١٧، طهران، دريا، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م، ط١٦؛ نقلاً عن محمود عنايت، نكين (العدد ٢٣، فروردين ١٣٤٦): ٢.

(٢) الرومي، مثنوي معنوي، الكتاب الرابع: ٨٤٣ ـ ٨٤٤، تحقيق: قوام الدين خرمشاهي، طهران، دوستان، ١٣٧٩ش/٢٠٠٠م.

(٣) محمد رضا حكيمي، جامعة سازي قرآني: ٨٨، طهران، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٧٨ش/١٩٩٩م، ط ١.

(٤) الحكيمي، قيام جاودانه: ٩٢، طهران: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٧٣ش/١٩٩٤م، ط١.

## عاشوراء وآفة الإفراط والمبالغة

كان أرباب المراثي هم الورثة الأوائل - في القرون السابقة - للإمام الحسين عليه السلام بدلاً من حملة الثورة والحماسة، وعندما منع رضا شاه (١٣١٣ - ١٣٢٠ش) مراسم العزاء وإقامة المجالس الحسينية تعالت أصوات المرجعية والشعب بالفاجعة والاستغاثة، لكنّها لم تتعالَ خلال القرون المنصرمة عندما هجرت معالم كربلاء الثورية.

لقد بدا الانحراف يظهر أولاً عند استبدال عاشوراء الثورة بالمراثي والأحزان، وثانياً بدخول الخرافات على الثانية؛ فالكارثة الأولى في تنزيل عاشوراء الثورة منزلة المراثي، والأخرى في نفوذ الخرافة والتحريف إليها، وهذا ليس انحرافاً يسيراً، إنّ استبدال الثورة بالرثاء والرثاء بالخرافة يمثل انحرافاً مضاعفاً وأخطاء متراكمة، وسنتطرق هنا لكارثة الخرافات والمحرّفات في النصوص الكربلائية ودواعيها.

لقد شهدت قصة عاشوراء بطولتين في الذروة: إحداهما في الإمام الحسين عليه السلام وهي الإيجابية، والأخرى في يزيد وهي السلبية، فكان الحسين وأصحابه في ذروة المجد والعزة والمظلومية، كما كان يزيد وجيشه في ذروة النذالة والوحشية، فالحسين حقّق أعلى درجة في العزة والمظلومية، وكان عدوّه قد حقّق أعلى درجة في التعسّف والدناءة بخرقهِ قوانين الحرب وارتكابه تلك المجزرة البشعة، فكلّ شيء في عاشوراء كان في الذروة، ذروة الخير وذروة الشر، الشجاعة والجبن، الظالم والمظلوم، العزة والذلة؛ وإذا سلمنا بهذه الحقيقة، قادتنا للتسليم بقابلية حادثة عاشوراء لكلّ أنواع المبالغة والتهويل، لأنها مستعدة بطبيعتها لتمكين ظاهرة التعظيم المفرط من اقتحام جنباتها، فعلى سبيل المثال، لو قيل: توجد حيتان ضخمة في النهر، لصعب التصديق بها، بينما لو قيل بوجودها في المحيط الفلاني لما استبعد التصديق. إنّ عاشوراء بمثابة ذلك المحيط المترامي الأطراف المهيأ لنفوذ كلّ أنواع المبالغات والإفراط فيه، ومن لوازم هذا الاتساع بروز آفة إلصاق ما هو كاذب بها، الأمر الذي يستدعي التنبّه وعدم الخلط بين العقيدة والتاريخ، فعقيدتنا في الحسين أنه كان في قمّة المجد، وفي يزيد أنه كان في قمّة النذالة والظلم، لكن لا ينبغي أن تتحوّل هذه العقيدة إلى ذريعة لإقحام المبالغات بين حقائق التاريخ.

ويستحسن هنا ذكر أنموذج لنمطية تلك المبالغات، من قبيل ما روي في شجاعة الحسين وأبي الفضل العباس؛ فقد أحصى الفاضل الدربندي القتلى على يد الحسين في خمسين ألف مقاتل، بل في مائة ألف أو يزيدون[١]، بينما أثبت ابن عصفور البحراني رقم ثلاثمائة وثلاثين ألف مقاتل، وفي رواية أخرى أربعمائة ألف، أما من قتل على يد أبي الفضل العباس فقد بلغ خمساً وعشرين ألف قتيل[٢]. وتخلّصاً من بعض الإشكاليات وقع هؤلاء المبالغون في مبالغتين إضافيتين: الأولى عدّ جيش ابن زياد في (٤٦٠) ألفاً، بل بلغ الرقم (٥٠٠) ألف في بعض الروايات، وأعجب من ذلك الرقم (١٦٠٠٠٠٠) [٣]. أمّا الثانية، فجاءت لدفع استحالة مقتل هذا العدد الهائل في المدّة المعروفة عن واقعة الطف، فقالوا في تبرير ذلك: إنّ يوم عاشوراء كان (٧٢) ساعةً، وأنّ الله ـ عزوجل ـ أخّر الشمس في كبد السماء فلم تغب[٤].

أما تمديد يوم عاشوراء إلى سبعين أو أكثر، فهو افتراء من الراوي ولم تذكره المصادر إطلاقاً، ثم إنّ المسعودي ـ وهو من معاصري الكليني ـ لم تتجاوز مبالغته في عددهم أكثر من ١٨٠٠، أو ١٩٥٠ عند شهر آشوب ومحمد بن أبي طالب[٥]، ولو تنزلنا على رغبة الصياغة التاريخية وفرضنا مدّة خمس ساعات قضاها الحسين في قتال الأعداء وأنه يقتل واحداً كلّ ثانية ـ وهو مستحيل ـ فإنّ غاية ما يصله عدد القتلى هو (١٨٠٠)؛ فأين هذا العدد من الخمسين أو المائة ألف؟! إنّ أصل هذه المبالغات يعود للاعتقاد الراسخ بشجاعة الإمام الحسين عليه السلام، الأمر الذي شكّل ذريعةً بيد البعض ليضيف على عدد القتلى ما يشاء[٦].

---

(١) يراجع: الفاضل الدربندي، أسرار الشهادة: ٤١٨، طهران، الأعلمي.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤٥، ٤١٧.

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٥، ٤١٧ ـ ٤١٨؛ ويراجع في نقده: النوري، لؤلؤ ومرجان در شرط بله أول ودوم منبر روضه خوانان: ١٦٠ ـ ١٦١، ١٨٤ ـ ١٨٥، تحقيق: حسين استد ولي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٥ش/١٩٩٦م، ط١.

(٤) انظر: أسرار الشهادة: ٣٠٠، ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٥) أنظر: لؤلؤ ومرجان: ١٨٥.

(٦) ومن تلك المبالغات ما تقل عن عاقبة قتلة الحسين عليه السلام في الحياة الدنيا وما وقع عليهم من

## تأصيل البكاء والخرافة هدفاً للحادثة

ثمّة عامل آخر ساعد على انتشار الخرافة في نصوص عاشوراء، وهو سعي البعض لإبكاء الجمهور أياً كانت وسيلته، معتبرين البكاء غايتهم القصوى من فلسفة عاشوراء. وكما نعلم فهناك روايات عديدة في ثواب البكاء والإبكاء على مصاب الحسين، وقد اتخذ بعضهم هذه الروايات ذريعةً لاختزال فكر الحسين وثورته في الدمع والنحيب، متجاهلين ـ في السياق ذاته ـ كلّ شيء خارج عن ذلك، بوصف البكاء هدفاً أوحد للقضية، وإذا تأطّرت عاشوراء بهذا الهدف وحده فمن الطبيعي أن يعمد أولئك النعاة إلى الزيادة في مأساوية كربلاء بنقف الحنظل والفلفل طلباً لكمّية أكبر من الدمع الهاطل. لقد تحوّلت عاشوراء عند بعضهم إلى رواية مفعمة بالدراما، تحيطها جملةٌ من العناصر المساعدة على إبدائها في أشجى صورة تستفزّ الدموع.

لا شك في أنّ هناك طائفة بين الناس ترفض الواقع الخالص من الزوائد، ولا تنقل ما تسمعه أو تراه أو تقرأه كما هو، فلا مناص من إضافة بعض المحفزات وتجنيحه قبل تقديمه، فكلّ حقيقة تمرّ عليهم لابد وأن يتلاعبوا بها، وهذا ما اعترف به خالد بن صفوان، فقال: «إني لأسمع الحديث مجرّداً فأكسوه، ممرّطاً فأريشه»، وسمع عنه أيضاً: «إني لأسمع الحديث فلا أحدّث به حتى أتوبله وأفلفله، وأسعتره»[1].

---

بلاء وعذاب، فتذكر إحدى الروايات بأنّ رجلاً منهم ابتُلي بعاهة في جهازه التناسلي بحيث بلغ طوله ستة أمتار مما اضطرّه لحمله على كتفه حيناً أو إلى طيّه على رقبته حيناً آخر. ومما يزيد في السخرية أنّ راوية الخبر من النساء، وإنّك لترى هذا الخبر ـ على سخفه ـ يتداول بين هذا الكتاب وذاك زعماً في إثبات فضيلة للحسين عليه السلام؛ للاطلاع أكثر على هذا الموضوع أنظر: بحار الأنوار ٤٥: ٣١١؛ ومحب الدين الطبري، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: ١٤٤، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥٦؛ وابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب ٤: ٥٦، تصحيح: سيد هاشم رسولي محلاتي، قم، منشورات العلامة؛ وعبد الله البحراني، عوالم العلوم والمعارف والأحوال من الآيات والأخبار والأقوال ١٧: ٦١٣، قم، مدرسة الإمام المهدي، ١٣٦٥، ط١؛ والسيد شهاب الدين المرعشي النجفي، ملحقات الإحقاق ١١: ٥٣٣ ـ ٥٣٥، و٢٧: ٣٥١ ـ ٣٥٢، قم، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤١٥هـ، ط١؛ ومحمد باقر المحمودي، عبرات المصطفين في مقتل الحسين عليه السلام ٢: ٣٦٧، ٣٦٩، قم، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ١٤١٥هـ، ط١.

(١) أبو القاسم حسين الراغب الإصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١: ١٢٣، قم، المكتبة الحيدرية، ١٣٧٤ش/١٩٩٥م، ط١.

لابدّ هنا من التنبّه لمسألة هامة تخصّ الروايات الواردة في فضل البكاء، وهي استحالة إدراك مقصودها دون الرجوع إلى زمن صدورها وسبب هذا الصدور، وهو أمرٌ أشبه بأسباب النزول التي تعيننا على فهم محتوى الآيات؛ فلنفرض الرواية هي المتن (Text)، وزمن الصدور وسببه أرضيةً لذلك المتن (Context) فلن يتسنّى إدراك معنى المتن دون مراجعة أرضيّته.

كان الأمويّون يعدّون يوم عاشوراء عيداً لهم فيحتفل الناس به بالثوب الجديد وتبادل الحلوى وإبراز كل المباهج ومظاهر الفرح والسرور[١]، وفي المقابل جاءت ردّة فعل أتباع التشيّع على هذه الظاهرة المناهضة لمذهبهم وحسينهم فدعوا الناس إلى بث الحزن والأسى في يوم عاشوراء والبكاء والإبكاء، فمثل موضوع إقامة المأتم في هذا القرن وتلك الأرضية موقفاً مخالفاً للسلطة الحاكمة ومبادرةً ثورية، بمعنى الانتماء إلى حزب الحسين ورفض الحكم الأموي وقتلة الحسين، بعبارة أخرى، إنّ لروايات البكاء مفهوماً من جهة ومقصوداً من جهةٍ أخرى، فالمفهوم ظاهرٌ للعيان تكشف عنه الروايات بنصوصها الحاضرة أمامنا، أمّا المقصود فهو عبارة عن حالة التضامن مع فكر الحسين ورفض حكم قتلته، فالبكاء هنا تعبيرٌ عن خنجر في صدور أعدائه؛ ولهذا السبب نجد بعض الروايات توصي أيضاً بالتباكي[٢]؛ فلو كان البكاء في ذاته هدفاً لكان التظاهر به ضرباً من اللغو والعبث، لكنّ التأكيد على التظاهر بالبكاء يدلّنا على أنّ الهدف ليس في البكاء المحض، وإنما في أمرٍ آخر يقبع وراء البكاء نفسه.

لكنّ الذي حصل تغييب هذه الفلسفة الكامنة وراء المأتم والبكاء، فبات البكاء هدفاً قائماً بذاته، الأمر الذي جرّ بعضهم ـ بداعي إبكاء العوام الذي كان وسيلةً لا غاية ـ إلى خلط الصدق بالكذب بغية تحقيق هذا الهدف، إذاً هناك انحرافان حصلا على هذا الصعيد: الأول عدّ البكاء هدفاً بعدما كان وسيلة، والثاني تجويز شتى الوسائل بغية تحقيق هذا الهدف.

---

(١) السيد جعفر مرتضى العاملي، المواسم والمراسم: ٨٢ ـ ٨٧، طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٨هـ، ط٢، جاء في زيارة عاشوراء: اللهم إنّ هذا يوم تبرّكت به بنو أمية وابن آكلة الأكباد.. وهذا يوم فرحت به آل زياد وآل مروان بقتلهم الحسين صلوات الله عليه.

(٢) أنظر: الملهوف: ٨٦.

فلننظر إلى مهدي النراقي، ذلك العالم الأبرز في عصره، صاحب المؤلّفات الثمينة كجامع السعادات ومشكلات العلوم، كيف ترجّل عن صهوته العلمية بذريعة نيل الثواب، فعوّل على الضعيف من الروايات في كتابه: محرق القلوب، فكتب في تبرير رواية الأخبار الضعيفة والعمل بها يقول: «إنّ من المشهور بين العلماء وفقهاء الإمامية جواز الأخذ بالأخبار الضعيفة فيما يتعلّق بالمستحبات والمكروهات والمواعظ والحكايات، بمعنى أنّ ما يوجب منه الثواب لصاحبه عملاً أو تركاً سيكرمه الله تعالى على العمل بالمستحبّ أو ترك المكروه، وإن كان الرجل قد عمل بالحديث الضعيف. كذلك لو ورد خبرٌ ضعيف فيما يخصّ قصص الأمم السابقة جاز أيضاً للخطباء والرواة تناقله.. من ذلك يُفهم تعلّق الثواب والأجر برواية الأخبار الضعيفة وغير المعتبرة عن حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، ومن ينقل منها ما يبكيه ويبكي غيره فإنّ له أجر من بكى وأبكى في مصيبة سيّد الشهداء»[١].

وما تطرّق له النراقي هنا ليس إلاّ ما عُرف بقاعدة التسامح في أدلّة السنن المستندة لجملة من الأحاديث، لكنّ هذه القاعدة:

أولاً: مختصّة بالمستحبات والمكروهات فقط، ولا يجري حكمها على القصص والحكايا[٢]، وهو ما دعا ابنه أحمد النراقي في كتاب: عوائد الأيام، إلى نقده ورفض الفكرة برمّتها[٣].

ثانياً: لو فرضنا صدق هذه القاعدة على الأخبار والقصص، نسأل هنا عن هدف التأليف في الإمام الحسين عليه السلام: هل هو تدوين التاريخ أم المصائب؟ فإن كان المؤلّف كتاباً علمياً في أمور التاريخ امتنع درج الروايات الضعيفة فيه، وإن كان كتاباً في المصائب وما يُتلى على المنابر فالموضوع مختلف تماماً.

ثالثاً: حتى لو كان من نمط كتب المنابر والمصائب، فلماذا ندوّن من المصائب

---

(١) محرق القلوب: ٢.

(٢) للتحقيق في هذا الموضوع تراجع أحاديث (من بلغ) التي يفهم منها اقتصارها على المستحبات والمكروهات دون الحكايا والقصص، وقد جمعها السيد عبد الله شبر في باب مستقل من كتابه الأصول الأصلية والقواعد الشرعية: ١٦٤ ـ ١٦٥، قم، مكتبة المفيد، ١٤٠٤هـ.

(٣) أحمد النراقي، عوائد الأيام: ٧٩٣ ـ ٧٩٤، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، قم، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٣٧٥ش/١٩٩٦م، ط١.

ضعيفَها؟ فكربلاء حزينةٌ بما فيه الكفاية ورواياتها المعتبرة في ذلك تفي بهذا الغرض.

## ظاهرة النعاة تحت المنابر

قسّم علماء المسلمين ـ منذ القدم ـ المجتمعَ الى طبقات، منها: المفسّرون، المتكلمون، الفقهاء، الفلاسفة، وإلى جانب هذه الطبقات العلمية أيضاً ثمة مجاميع أخرى ليست في عداد العلماء لكنّها قريبة منهم وفوق مستوى عامّة الناس، وهم نعاة المراثي والمدّاحون والرواديد ووظيفتهم قراءة المصائب الحسينية وإبكاء الناس؛ إذاً فالنعاة أعلى مرتبةً من العوام ـ كما في الماضي ـ ولا يصلون مرتبة العلماء ولم يدّعوا ذلك إطلاقاً، ولعلّ من إشارات ذلك امتناعهم اعتلاء المنبر والاكتفاء بتلاوة المصائب والمقتل من تحته، مع ذلك تبقى هذه الجماعة الأكثر التصاقاً بقضية الحسين والراعي الأول لعاشوراء في المراثي.

وقد شكّلت طبقة النعاة منطلقاً لانبثاق الخرافات والتحريف في مشاهد عاشوراء، وقد اقتضت المرحلة تقسيم الأعمال كلاً بحسبه، فالفقه للفقهاء والعقائد للمتكلّمين وهكذا فروع العلوم الأخرى، أما تاريخ الإمام الحسين وسيرته ـ لا سيما القسم الأهمّ من حياته ـ فقد أوكل أمرُه للنعات، فإذا شئنا الاستشهاد بالقرآن قلنا: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم: ٢٢)؛ فلم يتطلّب النعي في الناعي شروطاً كثيرة، إذ يكفي امتلاكه صوتاً شجيّاً يساعده على إبكاء الحاضرين؛ وبذلك نكون قد أوكلنا موضوع الحسين إلى غير العلماء، وإنما إلى الغانين ذوي الأصوات الجيدة، وهذه الطبقة لا معرفة لها بمنهجيات التاريخ بل لا تحصيل دراسيّ لديها، فهم ـ أولاً ـ تابعون لرأي العوام، ومنقادون ـ ثانياً ـ لعواطفهم ومشاعرهم الجياشة، ولا هدف لهم ـ ثالثاً ـ سوى الإبكاء، وكل واحدة من هذه الصفات كفيلة ـ رابعاً ـ بسريان الخرافة والتحريف إلى نصوص عاشوراء، فكيف لو اجتمعت معاً في جماعةٍ ما؟ إذاً ما العمل؟ هل الحلّ إقصاء النعاة وسحب البساط من تحتهم؟ بالطبع ليس كذلك؛ لأنه إلغاء للمعادلة برمّتها، وإنما يكمن في تثقيف هذه الطبقة وتوجيهها نحو الصواب، أو بعدم تسليم زمام المنابر إلى أيديها؛ فإذا كانت لمنبر الحسين قدسيّته فكيف يجوز

تمليكه للنعاة تحته؟ فلا ينبغي لعلماء الدين «الاستنكاف» من صعود المنابر وإيكال القضية لغيرهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المحدّث النوري كان من أوّل المبادرين إلى نقد النعاة فهاجمهم هجوماً عنيفاً قبل ارتقائهم درجات سلم المنبر الأولى، جاء في مقدمة كتابه اللؤلؤ والمرجان: «لقد اشتكى السيد محمد مرتضى الجونبوري الهندي ـ أيّده الله ـ الوضعَ المأساوي للنعاة عندهم بما ينسجون من أكاذيب وخرافات دون أيّ اكتراث، حتى وصل بهم الحدّ إلى التحريض وتجويز ذلك بداعي إبكاء المؤمنين ليبعدوه عن دائرة المعصية.. ويظهر أنّ سماحته ظنّ في مدن العتبات المقدسة بإيران خيراً بابتعادها عن مثل هذا البلاء، فلم تدخلها البدع والأكاذيب، وأنّ الأمر مقتصرٌ على بلاده فقط، متناسياً انتشار هذا التلوّث بانتشار مصادره في كلّ مكان، لكنّ المهمة ملقاة بطبيعة الحال على مراكز الحوزة العلمية والمتشرعة في العتبات المقدّسة؛ فلو أنهم لم يغضّوا الطرف وأشرفوا على فصل الصحيح عن السقيم والصادق عن الكاذب من أقوال هذه الطبقة ونهوهم عن الإفتراء، لما وصل بهم الحال إلى ما هم عليه من عدم الاكتراث والتجرؤ في نشر الأكاذيب الفاضحة؛ فجعلوا المذهب عرضةً للسخرية والانتقاص»(١).

## بدعة التطبير

تعود غالبية مظاهر العزاء الحسيني وأنماطها إلى اجتهادات عامّة الناس، فهم من يديرها ويؤسّس لها بشكل مباشر، وقد ابتكروا لذلك أشكالاً متعدّدة من قبيل: اللطم على الصدور، وضرب الصدور(٢)، والضرب بالسلاسل، ونصب الأغلال، والتطبير(٣)، ولم يتلقّ الناس هذه الأنماط من عالمٍ من العلماء، وإنما جاؤوا بها من

---

(١) لؤلؤ ومرجان: ٢.

(٢) قد يكون اللطم على الصدور بحركات منتظمة موزونة يمكن تسميته بلطم الصدور، تمييزاً له عن ضربها.

(٣) يرجع تاريخ ما نشاهده في هذه الأيام من مراسم العزاء إلى القرن الرابع، حيث كانت النساء أيضاً تخرج للمشاركة فيها ناشرات الشعور وهو ما انقرض لاحقاً. ويروي ابن كثير في أحداث سنة (٣٥٢): (في عاشر المحرّم من هذه السنة أمر معز الدولة بن بويه أن تغلق الأسواق وأن

قبل أنفسهم دون تدخّل العلماء فيها، إلا أنهم ـ فيما بعد ـ أجازوا بعضها وحرّموا بعضها الآخر.

وكان في انفراد عامّة الناس ودخالتهم المباشرة في ابتكار تلك الأنماط السبب الأساس في تسلّل الخرافة والتحريف لمضامين عاشوراء ومراسم العزاء، وإن كان دافعهم ـ دون أدنى شك ـ عن حسن نية وصدق عاطفة، ومن يشكّك في هذا فعليه التشكيك بحسن نواياه أولاً، لكنّ الكلام ليس في حُسن النية وعدمه، وإنما المسألة متعلّقة بوعي أولئك العوام، وليس لحسن النية أن يحلّ محلّ الوعي، بل من المستحيل استبدال أحدهما بالآخر، ومن قال بوعي عامة الناس، فإما أن يكون منهم أو من مضلِّليهم.

يميل العوام بطبيعتهم لكلّ ما هو غريب من الأساطير والخرافات وسرعان ما يعدّونه من الدين، وتراهم يحكمون العقل ميزاناً في جميع أمورهم الدنيوية، لكن إذا جاء دور الدين تعطّل ذلك الميزان ومالوا نحو الباطل، وهذا نابعٌ من زعمهم استهجان تحكيم العقل في المجال الديني، وأنّ ذلك يسيء لدينهم فيجب حينئذٍ تعطيل العقل، والواقع إنّ العوام من الناس والسذج يقفون في مقدّمة المتبضّعين من سوق الخرافة، بل إنهم من أوائل المسجّلين على تجهيزها سلفاً، وما أصدق مقولة ديورانت وأتباعه: يرغب عامة الناس في دين تملؤ أبعادَه المعاجزُ والأساطير والأسرار[1].

لم يحصل ذات مرّة أن شرّع لنا عامة الناس أحكاماً في أمور الدين كالصلاة أو الصيام أو الحج، لكنّ إهمال ترسيم أطر محدّدة للشعائر الحسينية ترك الباب

---

يلبس النساء المسوح من الشعر وأن يخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهنّ، يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي بن أبي طالب)، ابن كثير، البداية والنهاية ١١: ٢٤٣؛ وعن عاشوراء سنة (٣٥٤) كتب يقول: «.. وغلّقت الأسواق وعلّقت المسوح، وخرجت النساء سافرات ناشرات شعورهنّ، ينحن ويلطمن وجوههنّ في الأسواق والأزقة على الحسين»، المصدر نفسه: ٢٥٤؛ أيضاً ينظر: تاريخ ابن خلدون ٣: ٤٥٢، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٣٩١هـ.

(١) ويل ديورانت، درسهاى تاريخ: ٢٠٧، ترجمه للفارسية: أحمد بطحائي، طهران، مؤسّسة الثورة الإسلامية للنشر والتوعية، ١٣٦٨ش/١٩٨٩م، ط٥؛ ويقول (هيوم) في هذا الصدد: «لابد لدين العوام أن يضجّ بالعجائب والأسرار بحثاً عن الخفاء والظلمة»، تاريخ طبيعي دين: ٨٨، ترجمه للفارسية: حميد عنايت، طهران، الخوارزمي، ١٣٦٠ش/١٩٨١م، ط٣.

مفتوحاً أمامهم؛ فبادروا إلى تقديمها بما يتماشى مع أذواقهم الخاصّة وميولهم، فجاء بعضها مشوباً بالخرافة والبدع.

ويفسّر العزاء عند سائر الأمم بملازمة الحزن والأسى ولبس السواد والجزع والبكاء، وأحياناً باللطم على الصدور والرؤوس، ويؤيّد ذلك الأعراف الحاضرة عند أبناء المعمورة وحتى عند المسلمين، لكنّه لم يحصل أن يضرب أحدُهم رأسه بالسيف والسكّين، أو يثقب بدنه بالأغلال أو يحرق نفسه جزعاً وحزناً على عزيزٍ يفقده. نعم قد يجرّه الجزع في أقصى صوره إلى إيجاد جروح طفيفة نتيجة بعض ضربات اليد المجرّدة. أما تطبير الرأس بالسيف، وتخديش الظهر بالشفرات، أو ثقب الأبدان بالأغلال والحديد، أو إحراق الجسد وما شاكل ذلك.. فليس من العزاء في شيء، حتى وإن قيل: إنّه لا يضرّ بالجسد، أو لا يُسيء لسمعة الدين؛ فإذا كان الملاك في هذا هو العرف ـ كما يسمّيه الفقهاء ـ فإنّه لا يؤيّد دخول تلك المظاهر في مفهوم العزاء أو التأبين، والدليل على ذلك عدم ممارسة هذه الأفعال من قبل الفاقدين والوالهين على موتاهم في أنحاء العالم الأخرى.

لكن يمكن رصد المسألة من زاوية أخرى؛ فهل هذه الأعمال موجبة لإضرار النفس أم لا؟ وهل هي مُضعفة لشوكة الدين ومكانته أم لا؟ يضاف إلى ذلك معيار آخر يتساءل عمّا إذا كان يصدق على تلك الممارسات مفهوم مجالس العزاء والرثاء أم لا؟ إنّ ظاهرة التطبير وما شابهها من أعمال لا تدخل في معاني العزاء إطلاقاً، حتى وإن لم توجب ضرر النفس، ولا يعدّها العرف من هذا القبيل؛ لأنّه لم يمارسها في حياتهم اليومية، فلو عمّمنا الإشكالية الشرعية لهذه الظواهر تبقى في ذاتها خارجةً عن مصداقية العزاء الحقيقي، إذاً المطلوب ـ أولاً ـ إثبات انخراط قضية التطبير في حقيقة مصاديق العزاء، ومن ثم يأتي الكلام في جوازها أو عدمه.

إنّ خير دليل على عدم تأييد العرف العام لإقحام التطبير في مصاديق رثاء الموتى ومواساتهم هو انتفاء هذه الظاهرة بين الناس في الحالات المشابهة، وقد يقال: إنّ الحسين فوق فَقْد كلّ عزيز، ولابد أن يتناسب عزاؤه مع مكانته الرفيعة، نقول: هذا صحيح، ونضيف عليه: «أين الثرى من الثريا؟»، وكلّنا إذعان بهول المصيبة التي حلّت بركب الحسين عليه السلام، مما يستحيل مقارنته بالسابق واللاحق لها،

ولا يكفي في الحزن والأسى إطباق السماء على الرؤوس وليس التطبير وحده. لكنّ السؤال المطروح هو دخول هذه الممارسة فيما يصدق عليه العزاء وعدمه.

ولنا سؤال نوجّهه للفقهاء القائلين بجواز أو استحباب التطبير، وهو: متى كان ضرب الرأس بالسيف وشجّه نمطاً من أنماط الحزن والعزاء على الميت؟ وهل ثمة عرف أيّد ذلك؟ إلا إذا عدّينا مذهب «لومبين» عُرفاً من الأعراف الاجتماعية، وهذا لن يقدّم لنا إلا عاشوراء من الصعلكة والإجرام ووأد شمسها في التراب. وسؤالنا الآخر لأولئك الفقهاء هو: إذا كان التطبير مباحاً أو مستحباً فلماذا تُعرضون عن ممارسته؟ إنكم لا تقولون بمخالفة هذا العمل للشرع المقدّس، لكنكم ترون فيه منافاةً للشخصية والكبرياء فلم تمارسوه بالمرّة، إذاً كيف يكون هذا منافياً لشخصيّاتكم ولا ينافي مكانة الحسين وعاشوراءه؟

وفضلاً عن عدم صدق مفهوم العزاء على التطبير، فإنّ مجرّد حمل هذه الآلة الجارحة يعدّ جرماً، فلم تُستعمل خلال القرنين الماضين إلا في أعمال الشرّ والتعدّي على الآخرين؛ فكان الأشرار من الفتوّات والأشقياء في المدن الكبرى يستخدمونها في استفزاز الآخرين وانتهازهم، لقد تحوّل هذا السيف من سلاح حروب إلى وسيلة في التعدّي على حقوق الآخرين وإيجاد الرعب والعنف في المجتمع. يقول عبدالله المستوفي في هذا الخصوص: في الماضي كان من أبرز دلائل شجاعة الفتوّات في حارات طهران العربدة والسكر في الشوارع وحمل الخناجر والسيوف وإغلاق الطرق والمعابر[1]. كما جاء أيضاً في قاموس (دهخدا) [بالفارسية] تعليقاً على معاني «قمة» [والتي تعني في العربية السلاح ذي الحدّين وهو أصغر من السيف]: «يعدّ سحبها والتلويح بها كناية عن الشر والطغيان»[2]، ولهذا يمنع حملها في القانون الإيراني.

في المقابل نجد الفقهاء كثيراً ما يمعنون النظر في أحكام آلات الموسيقى المستخدمة في مواكب العزاء؛ فيرفضون استخدام بعضها، وهذا النوع من التمحيص

---

(١) عبد الله المستوفي، شرح زندكاني من يا تاريخ اجتماعي وإداري دورة قاجارية ٣: ٣٢٤، طهران، زوار، ١٣٨٤ش/٢٠٠٥م.

(٢) علي أكبر دهخدا، لغت نامه دهخدا ١١: ١٧٧٥٧، طهران، جامعة طهران، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م، ط٢.

والتدقيق ـ بلا شك ـ من الأمور الملحّة، لكن كيف سقط حكم آلةٍ جارحة بهذا الحجم من تلك التدقيقات؟ فإذا كان استخدام آلات الموسيقى حراماً، فإنّ استخدام آلة الشر والعنف حرامٌ من باب أولى.

ومن المفارقات أيضاً ما يروى عن امتناع خطباء المنبر من استعمال مكبّرات الصوت الحديثة معتبرينها من «أبواق ومزامير» الشياطين، لكنّ هؤلاء المحتاطين تخلّوا عن احتياطهم عندما واجهوا موضوع التطبير؛ لقد شهدت السنون الماضية ممارسات غريبة على هذا الصعيد، فكان بعضهم يضع شفرات متعدّدة على قبضة السلاسل ويقرع بها ظهره حتى تنزل الدماء منه، كما كان هناك من ينخر جسده بواسطة الأقفال والأغلال، كما كانت الشيعة في الهند وباكستان توقد النيران وتقفز عليها، إلا أنّ هذه الممارسات انقرضت شيئاً فشيئاً، وبقي منها التطبير على حاله، ولا يزال بعض الفقهاء يقول بجوازه بل باستحبابه أيضاً، والحال أنّه لو جاز ذلك لسرى جوازه على تلك الأعمال المنقرضة؛ لأنها جميعاً من نمط واحد والإفتاء بجواز واحد منها إفتاءٌ بجواز أترابها؛ فما الفرق بين الضرب بالحربة والسيف والضرب بالشفرة؟ أو ما الفرق بين شجّ مَفْرَق الرأس ونخر الجسد بالأغلال؟ ومهما وضعت أسماء لهذه الممارسات، استحالت تسميتها بالعزاء والرثاء ونأت عن مصاديقهما، ويمكن أن نطلق عليها استعراضات مذهبية، ولا نعني بالاستعراض مفهومه الفنّي، ولا بالمذهبي أنّها مما أقرّه المذهب، بل هي عبارة عن بعض الممارسات التي تقدّم للمشاهد باسم المذهب، وهي وإن كانت بهدف العزاء لكنّها ليست من مصاديقه إطلاقاً، وهذا من قبيل أن يلتزم أحدهم الصمت بهدف العزاء والحزن وإثبات مشاركته فيه، فسكوته وإن جاء بهدف العزاء إلا أنه لا يندرج ـ بحالٍ من الأحوال ـ ضمن مصاديق العزاء.

إذن، كيف حدث وشقّت طريقها هذه الآلة القبيحة (الحربة) إلى الشعائر الحسينية؟ القصّة ـ باختصار ـ أنّ الفاضل الدربندي كان يرى في العزاء هدفاً يجوّز جميع الوسائل في تحقيقه، فالتجأ إلى موضوع التطبير ونظّر، وكان يقول: إنّ الغاية من خلق العالم هي إقامة العزاء على الحسين عليه السلام: «إنّ الدنيا وما خلق لأجل إقامة عزاء الحسين فيها»[1]. وما أكثر ما كتب ووضع من كلام بغية تسخين المشاعر، فشرّع ما كان ممنوعاً، وقد وردت أكثر تلك الأكاذيب في كتابه (أسرار الشهادة)

(١) أسرار الشهادة: ٥، ١١٥.

الذي سبقت الإشارة إليه. وكان من جملة محاولاته ادّعاء دفن رأس القاسم بن الحسن في الضريح الكائن في منطقة تجريش شمال طهران، والمعروف أنه استشهد يوم عاشوراء، وكان يبغي من زعمه هذا استثارة المشاعر في مواكب العزاء هناك. فما كان من الميرزا فرهاد ـ معتمد الدولة وهو من نجباء أمراء القاجار وصاحب الكتاب القيّم في الإمام الحسين ـ إلا أن طالبه بتقديم الدليل على ذلك، فأخرج الدربندي قرآناً من جيبه وقال: أقسم بهذا القرآن بأنّ هذا القبر هو مدفن رأس القاسم بن الحسن المقتول بوقعة الطف(١).

هكذا كانت مبادرات الدربندي؛ حتى وصلت إلى تأسيس ونشر فكرة التطبير، يقول المستوفي في هذا الخصوص: إنّ ضرب الرؤوس بالسيف والشفرات يوم عاشوراء كان من ابتكارات هذا العالم في تلك الشعائر، أو في أقلّ تقدير من المروّجين لهذه الظاهرة؛ فزعم الثواب في ارتكاب هذا المحرم(٢). كما قال مهدي بامداد أيضاً كلاماً مشابهاً: لقد جوّز ما كان مخالفاً للأصول الإسلامية، وسنّ ضرب الرأس بالسيف والشفرة في ذكرى عاشوراء، ومارس ذلك بنفسه أيضاً.. ومنذ ذلك الحين درج العوام.. اقتفاءً لعمله على التطبير في عاشوراء(٣). كذلك كان من جملة ما انتشر بين الناس آنذاك لبس الأطواق والقلائد على الرقاب تمثلاً بكلاب الحسين ومجانينه، والزحف على الصدور في زيارة مراقد الأئمة، والسجود على أعتاب الأضرحة والصحون، ولابد من تنبيه هؤلاء المعزّين إلى أنّ الحسين ليس بحاجةٍ إلى الكلاب، بل إلى الإنسان، ولا إلى المجانين بل للعقلاء، ولا يريد سجوداً لنفسه، وإنما يريد عبادة الله خالصة.

## أين هو فقه الشعائر الحسينية؟!

وليست هذه الأعمال والشعارات إلا مصداقاً لمفهوم (سباق الدين) والانجرار ـ بداعي الخوف من القصور والتقصير ـ إلى الغلوّ والإفراط في الأداء حتى التدلّي من الهاوية والسقوط فيها، إنّ للدين حدوداً لا يمكن تجاوزها، وإن كان على حساب

(١) شرح زندكاني من ١: ٢٧٦.
(٢) المصدر نفسه ١: ٢٧٦.
(٣) شرح حال رجال إيران در قرن ١٢ و ١٣ و ١٤ هـ ٤: ١٣٨.

التديّن المزعوم. لقد بات حرياً بفقهائنا الكتابة في فقه الشعائر الحسينية في عصرنا والشروع في طرح الوسائل والإمكانات المتعدّدة، تبييناً للمطلوب والمرفوض في هذا الباب؛ فليس ثمّة كتاب مستقل في فقه هذه الشعائر، والحال أنّ الناس تمارسها وتعكف عليها لمدّة شهرين من كل عام دون أن تطّلع على أحكامها الشرعية.

يُذكر أنه عندما اعترض آية الله البروجردي على بعض مظاهر العزاء في شهر محرّم جوبه بالانتقاد وقيل له: نحن مستعدّون لتقليدك في كلّ أيام السنة باستثناء هذه الأيام من محرّم، وكل من يتصدّى للبدع والخرافات يُتهم مباشرةً بالخروج عن منظومة الحسين عليه السلام وشعائره. هكذا كان السذج ومضلّلوهم يلجمون أفواه المستنيرين؛ إذاً كيف تتمّ المعالجة وما سُبلها؟

أحد تلك السبل تصدّي الحوزة العلمية لشرح أحكام فقه الشعائر الحسينية؛ وذلك باستنباطها من مظانّها وتقديمها على شكل رسائل علمية وعملية لكافّة المستويات، ولابد من تنفيذ ذلك بما لا يترك مجالاً للعوام بالمخالفة وعدم الامتثال للتقليد في هذه المسائل، وهو ما لا يحصل إلا بعزيمة الإصلاحيين من العلماء وترك التقية والخوف، والتضحية في سبيل تهذيب مراسم العزاء الحسيني، كما فعل العلامة السيد محسن الأمين في كتابه (التنزيه لأعمال الشبيه).

## ضرورة الإصلاح، النوري والأمين أنموذجاً

تنقسم الشعائر الحسينية إلى نوعين: قراءة المراثي على المنابر، ومواكب العزاء، أمّا الأول فمصدره النعاة، وتُدار المواكب من قبل الناس بشكل مباشر، وهنا يكمن السبب في نفوذ الخرافة والبدعة لهذين النوعين، وقد سبقت الإشارة إليه. لكن ما يجب الاهتمام به الآن هو تهذيب نصوص المراثي ومظاهر العزاء صيانةً لهاتين الشعيرتين، وقد كان من المبادرين لهذه المهمّة الصعبة خلال القرن المنصرم عالمان من كبار علماء الشيعة، ولم يعتن الآخرون بذلك؛ فظلّ الأمر مسكوتاً عنه تماماً.

أما العالم الأول فكان الميرزا حسين النوري ـ صاحب مستدرك الوسائل ـ الذي ألّف كتابه اللؤلؤ والمرجان سنة ١٣١٩هـ ونظّر فيه لضرورة توفّر شرطين أساسيّين في النعاة قبل ارتقائهم المنبر تهذيباً لأدائهم، فوضع في الدرجة الأولى

شرط الإخلاص، وفي الثانية شرط الصدق؛ كاشفاً من خلال ذلك عما يتلبّد خلف الستار من رياءٍ وكذب.

ثم جاء من بعده العلامة محسن الأمين ـ صاحب كتاب أعيان الشيعة ـ وكتب مؤلّفه (التنزيه لأعمال الشبيه) سنة ١٣٤٦هـ متصدّياً من خلاله لتهذيب مظاهر العزاء والتطبير ومراسم التشابيه الاستعراضية؛ حيث إنّ معنى التنزيه هو تنزيه الحقائق من التحريف، كما هو المعنيّ في كتاب اللؤلؤ والمرجان الذي تعهّد فيه النوري بمحاربة الخرافة وتنزيه المنبر عنها، بينما جاء كتاب السيد الأمين من أجل تهذيب مواكب العزاء من الخرافات والأساطير، على أن قصب السبق كان من نصيب كتاب اللؤلؤ والمرجان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد حظي اللؤلؤ والمرجان بقبول واسع، بخلاف التنزيه الذي عورض كثيراً وكتبت حوله الردود والرسائل[1].

## نقد فكرة حاجة الناس إلى الخرافة لتثبيت دينها

والمؤسف أنّ مشروع هذين العالمين لم يستكمل بعدهما، فاستفحلت نظريات العوام مرّةً أخرى، والأسواء من ذلك أنك تسمع بعض الأصوات تتعالى بالتهريج والفوضوية إذا ما طُرقت مواضيع التنزيه والتهذيب في الشعائر الحسينية، زاعمين أنّ ذلك ارتداد عن الفكر الحسيني برمّته، ويفسّرون نقد مظاهر العزاء رفضاً لأصل العزاء فيصوّرون الانتقاد على أنه مخالفة شاملة.

ونحن بدورنا نصرّح ـ علناً ـ أنّه لا يوجد شيعي، بل مسلم، بل إنسان حرّ يخالف فكرة عزاء الحسينعليه السلام، فالعين التي لا تدمع لمصاب الحسين، والقلب الذي لا يشجى في مأتم الحسين ليسا من الإنسانية في شيء، وأنّ كل من يرفض العزاء الحسيني فهو أمويّ الهوى والنزعة وإن كان من مسمّيات التشيع أو الإسلام.

---

(١) أنظر: ثورة التنزيه: رسالة التنزيه تليها مواقف منها وآراء في السيد محسن الأمين ضمن كتابشناسي تاريخي إمام حسينعليه السلام: ١٥٣ ـ ١٥٦؛ وقد ترجم جلال آل أحمد هذا الكتاب للفارسية تحت عنوان (عزاداري ها نا مشروع) [اللامشروع في مراسم العزاء] سنة ١٣٢٢ش/١٩٤٣م، ولم يمض يومان على صدوره حتى جمع من الأسواق وأحرقت جميع نسخه؛ أنظر: يك جاه ودو جاه ومثلاً شرح أحوالات: ٧٢، طهران، فردوس، ١٣٧٦ش/١٩٩٧م، ط١؛ وقد ظلّت تلك الترجمة قيد النسيان حتى أعيد نشرها بعد نصف قرن وبالعنوان نفسه.

باختصار، لم يقم أحد خلال القرن المنصرم بالاعتراض على أصل فكرة العزاء الحسيني، وما نحن بصدده هو الإصلاح في مصاديق ذلك العزاء ومراسمه دون توجيه أيّ انتقاد للعزاء بما هو عزاء في ذاته، لكنّ أولئك المهرّجين ضلّلوا الرأي العام بخلطهم الأوراق، وبثوا الخلاف والفرقة بذريعة مواجهة أعداء الحسين وعاشورائه، علماً أنّه كانت هناك طائفة من الراديكاليين ترفض مبدأ محاربة الخرافة أساساً بزعمهم أنّ لتلك الخرافات دوراً في تثبيت الدين والتفاف الناس حوله، وهم لا يرون في البدع تضعيفاً لكيان الدين، وإنما يقولون بعكس ذلك تماماً، أي أنّ الخرافة هي التي تؤمّن حيوية الروح الدينية لدى الشعوب، مع أنّ الخرافة بدعة، والبدعة عند المحافظين مرفوضة بكلّ أشكالها، لكنّهم هنا لم يعيروا بالاً لتلك البدع؛ لأنهم اعتبروها بدعاً حسنة تُسهم في الحفاظ على التفاعل مع الدين.

ويمكن تفنيد هذه النظرية بما يلي:

١ـ إنما يحفظ الإسلام بالمنطق القويم والعقلانية المثلى.

٢ـ الهدف لا يبرّر الوسيلة، وعليه لا يمكن استخدام وسائل غير شرعية في سبيل الحفاظ على الشرع.

٣ـ حتى لو سلّمنا بوجود طبقة من العوام تُيّمت ببعض الخرافات الدينية فتمسّكت بدينها، لكننا لا ننسى في المقابل أنّ هناك من فرّ من الدين بسبب تلك الخرافات ذاتها، وهي التي قد شوّهت صورة الإسلام في نظر البعض.

٤ـ لابد في الحفاظ على الدين من الاقتداء بأئمة ذلك الدين، فلسنا أحرص من البابا على المسيحية ولا من المعصوم على الإسلام؛ فهذا هو سيّد الأئمة لا يؤيد توظيف أساليب فاقدة للعقلانية والمنطق في طريق الحفاظ على الدين وكيانه، وخير دليل على ذلك ما روي عن النبي ﷺ من حادثة كسوف الشمس بُعيد وفاة ابنه إبراهيم، حيث سرعان ما زعم الناس اتصال هذه الظاهرة بنبأ وفاة ابن الرسول الأكرم ﷺ، وبمجرد أن سمع ﷺ بالخبر خرج إلى الناس وقال: أيها الناس! إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياة أحد[1]؛ فليس

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ١: ١١٤، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ، ط١.

هناك شخص أكثر حرصاً على الإسلام من النبي ﷺ، لكنه لم يتوسّل بالخرافة بغية تثبيت أقدام المسلمين على دينهم، بل إنه لم يسكت عنها أيضاً بل صرّح برفضها رفضاً قاطعاً، فأين من هذا المنطق أولئك الدعاة إلى تبرير إقحام الخرافات في الدين طلباً لاستمالة العوام والدخول فيه أو البقاء عليه فحرصوا على عدم (تشويش) خواطرهم الراكدة، فليس التسابق مع أئمة الإسلام إلا تخلّفاً عن ركبهم الحق، وهذا هو معنى الإفراط والتفريط بعينه، ومصدر كليهما الجهل المحض.

والغريب أنّ ذوي البدع يغلّقون مسامع الناس بشمع الخرافات التي تجري على ألسنتهم، فيما كان واجب الأنبياء في نشر رسالاتهم يتمحور في أمرين: التلقين وتجريد الناس من الباطل المقيم في مسامعهم وآذانهم، أي أنهم يطرحون عقيدةً ويلغون عقيدة سابقة؛ فإن كانت ثمة ضرورة في الحفاظ على أمزجة الناس وخواطرها فلماذا بعث الأنبياء بكلّ تلك الكتب والرسالات؟ وأين ذكرت مجاراتهم للعوام في الإبقاء على الخرافة والتحريف؟ بل في خلاف ذلك يكمن السبب في محاربة الأنبياء وكثرة خصومهم في مطلع بعثتهم؛ ذلك أنهم يمثلون ثورةً على كلّ باطل في المجتمع وخرافة، ولأنهم لم يؤسّسوا تعاليمهم ممّا يصدر من أفواه العوام بل بما يوحى إليهم من السماء. ودع عنك قصص الأنبياء وراجع تاريخ المصلحين بشكل عام، فهذا سقراط يحاجج ألقيبيادس فيسأله: أين تعلّمت هذه المعتقدات؟ فأجابه: من الناس، فقال سقراط: لستَ بالعالم الحصيف[1].

وتلخيصاً لما مضى نقول: ثمة ضرورة ملحّة ـ أولاً ـ لتنزيه وتهذيب كلام النعاة والخطباء، وكذلك هي الضرورة قائمة ـ ثانياً ـ لإصلاح مظاهر المواكب والهيئات العزائية، وهذه المهمّة منوطة برجال الدين قبل أيّ أحد آخر، ويتعيّن عليهم لتحقيق هذا الهدف أن لا يخشوا ردّة فعل العوام ومضلّليهم فيداهنوا أو يجاملوا على حساب ما هو أسمى وأبقى، وليشتروا ذلك بأرواحهم إن لزم الأمر.

---

(١) مهرداد مهرين، فلسفة وفلاسفة: ٣٤، طهران، بنك المنشورات في القائمقامية.

# مجالس العزاء
## الأدوار والوظائف الفردية والاجتماعية

د. محسن حسام ظاهري(*)
ترجمة: محمد عبد الرزاق

قدّم روبرت مارتون أهمَّ تعريف لمفهوم «الوظيفة» عندما قال فيه: «الوظائف عبارة عن أداءات يمكن من خلالها التوفيق في النظام الاجتماعي»(١)، وواضح أنّ هذا التعريف يستبعد أيّة دوافع فردية في هذه الهيكلية الاجتماعية، ويرى عالم الاجتماع مارتون، أنّ لكل مكوّن اجتماعي نوعين من الوظيفة: أحدهما ظاهر(٢) وهو ما يطبّق بقصد مسبق، والآخر مستتر(٣) وهو ما يطبّق دون قصد مسبق(٤).

### الوظائف العامّة في المواكب الحسينية

بما أنّ مجالس العزاء الحسيني عند الشيعة هي عبارة عن تجمّعات دينية ومكوّن اجتماعي ذي عراقة تاريخية؛ من هنا كان للقائمين على هذه النشاطات وظائف عديدة، تختلف باختلاف حيثيات تلك المجالس المقامة، ويمكننا تحديد بعض الوظائف المشتركة والعامة بين مختلف أنماطها.

#### أ. الوظائف الظاهرة

١ ـ الإعلام السياسي

---

(*) باحث متخصّص في الاجتماع الديني.

(١) Function .

(٢) Manifest functions.

(٣) Iatont functions .

(٤) جورج ريتز، نظرية جامعة شناسي در دوران معاصر (النظريات المعاصرة في علم الاجتماع): ١٤٧، ترجمة: محسن ثلاثي، طهران، العلمية، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م.

ليس جزافاً إذا قلنا: إنّ من أهم معطيات مجالس العزاء منذ تأسّسها ولحدّ الآن هو دورها السياسي، على أنّ ذلك الدور أيضاً لم يكن بمستوى ونمط واحد؛ فتعدّدت أنماطه بتعدّد وتباين مقتضيات الزمان والمكان، فكان الطابع السياسي متناسباً مع الظروف وتقلّباتها، وفقاً لذلك يمكن تقسيم التاريخ السياسي إلى أربع مراحل:

## المرحلة الأولى: منذ البداية وحتى عصر الغيبة الكبرى (٦١ ـ ٣٧٢هـ)

نظراً لطبيعة هذه المرحلة التأسيسية يمكن اعتبار دعوة الأئمة عليهم السلام إلى إقامة مجالس العزاء موقفاً سياسيّاً في قبال محاولات الأمويين والعباسيين في قمع الشيعة والعلويين وتهميش دور أتباع أهل البيت عليهم السلام، فجاءت المجالس لتسدّ الفراغ وتمدّ الجسور كأداة فاعلة بيد الأئمة في توجيه شيعتهم، فهي المنبر الناطق والوسيلة الإعلامية الفاعلة في تلك الأجواء، الموبوءة بالصراع ومناوأة التشيّع.

وكان في اهتمام الأئمة بمحتوى تلك المجالس وتشجيع الشعراء على نظم القصائد الولائية في المديح والرثاء، والتأكيد على بيان ثلاثة محاور هي: ذكر فضائل أهل البيت ومناقبهم، والإعلان عن مظلوميّتهم والعمل على سلب الشرعية من النظام الحاكم، ورواية مصائب الأئمة وحقوقهم المغتصبة.. مؤشرٌ آخر على الصبغة السياسية لمجالس العزاء والمواكب الحسينية، فكان اختيارهم لعنصر تحريك العواطف والأحاسيس اختياراً موفّقاً بوصفه عاملاً مساعداً في تحقيق بعض المرامي السياسية.

يقول الإمام الخميني في هذا الخصوص: «لا تحسبوا أنّ الغاية من اجتماعنا في المجالس الحسينية هي البكاء أو التباكي على الحسين عليه السلام فقط؛ فلا الإمام بحاجة إلى البكاء، ولا البكاء في حدّ ذاته يجدي في شيء، إنّما في المجالس تجمّعٌ للناس، وهنا يكمن الهدف السياسي منها.. والمعطى السياسي هو أهم معطيات تلك التجمّعات، وهذا ما يفسّر لنا طلب بعض الأئمة من الحاضرين قراءة المجلس ورغبتهم في الاستماع لمصيبة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، كذلك ليس اعتباطاً أن تنصّ رواياتهم على علوّ أجر من بكى أو حتى تباكى على مصابهم ومظلوميّتهم، فالقضية ليست قضية بكاء محض أو تباكي صرف، وإنما هي قضية السياسة بعينها التي أراد

الأئمة من خلالها توحيد الأمّة وتحصينها من الزلل»[١].

إذن، بشكل عام يمكن اعتبار المجالس في هذه المرحلة الملاذَ والكهف الحصين لأتباع أهل البيت عليهم السلام المناهضين لحكم الدولة الأموية والعباسية؛ وذلك من خلال النشاطات السرّية في مقارعة الظلم من جانب والحفاظ على مبادئ الإسلام العلوي في مقابل الإسلام الأموي من جانب آخر، بالاستفادة من استمالة الأحاسيس الصادقة والعاطفة الدينية. وقد بقيت هذه المجالس على ما هي عليه حتى بُعيد الغيبة الكبرى بقليل، أي حتى فتح بغداد على يد البويهيين.

## المرحلة الثانية: من فتح بغداد على يد معزّ الدولة وحتى بدايات حكم رضاخان (٣٣٤ ـ ١٣٥٠هـ)

لقد وصلت قوّة التأثير الكامنة في المجالس الحسينية مبلغاً أطمعت الحكّام في توظيفها بما يصبّ في مصالحهم، وذلك عبر عملية تغييرية ترمي إلى استدراج هذه الأداة وسلبها قوّة المعارضة والتأثير، وتحوّلت ـ إثر ذلك ـ إلى أداة بيد السلطان، الأمر الذي أفقدها إلى حدّ كبير فاعليّتها الثورية.

وقد بدأ هذا النهج الجديد ببداية الحكم البويهي بقيادة معز الدولة عام ٣٣٤هـ وهنا استطاع البويهيون ـ بوصفهم أمراء غير عرب من ناحية وشيعة من ناحية أخرى ـ استغلال سخط الشيعة المظلومين، وضعف الدولة العباسية للاستيلاء على مركز الخلافة بغداد، وهذه المرّة الأولى في تاريخ الإسلام التي يقع فيها الحكم بيد قيادة شيعية إيرانية. وكان من أبرز مبادرات هؤلاء الفاتحين الشيعة دعم ما كان ممنوعاً من النشاطات الشيعية، كإحياء مجالس العزاء والاعتراف بها رسمياً، بل حتى وصل بهم الأمر إلى الإجبار عليها أيضاً، وقد اتخذوا في نشر التشيّع أساليب مشابهة لما اعتاد عليه خصومهم العباسيون في نشر السنن، وهي أساليب غير مقبولة من منظار التشيّع الأصيل.

---

(١) روح الله الموسوى الخميني، قيام عاشوراء در كلام وبيام امام خميني (ثورة عاشوراء عند الإمام الخميني) ١: ٦٤، التبيان، المؤلّفات الموضوعية، الكتاب الثالث، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م. والنص مجتزأ من كلمة ألقاها بتاريخ ١٤/٨/١٣٥٩ش(١٩٨٠م).

وإذا كان سبّ عليعليه السلام وأهل بيته على المنابر فريضة ملزمة عند العباسيين، فلقد فرض البويهيون ـ بدلاً عن ذلك ـ سبّ الخلفاء الثلاثة، وكانت أسواق بغداد تغلق أبوابها بحلول ذكرى عاشوراء، وذلك بأمر خاصّ من الأمير البويهي، وتعلن المدينة حداداً عاماً فتكسوها حلّة السواد، يرافق ذلك مواكب عزاء منتشرة في الأزقة والميادين بعدما كانت في السابق تقام سراً وفي الخفاء.

وبديهي أنْ تجد هذه المقرّرات ردود فعل من قبل الممالك السنّية، وهذا ما حصل بسقوط البويهيين وتسلّط السلجوقيين ذوي الاتجاه السنّي، فتزايد الحقد على الشيعة وصبّ الزيت على النار لتتفاقم شدّة الخلاف بين الشيعة والسنّة.

لقد تتابع التوظيف السياسي لمجالس العزاء وفق ما درج عليه البويهيون لفترات متلاحقة، كما على عهد المغول والصفويين والقاجاريين، وحتى عصر رضاخان البهلوي، ومن المفارقات أن يروي لنا التاريخ اهتمام المغول بقضية الحسينعليه السلام على الرغم من وحشيّتهم وابتعادهم عن الثقافة والحضارة، فانتشرت على عهدهم الحسينيات وأماكن العزاء الرسمي، وإن كانت غايتهم من ذلك مفضوحة لا تحتاج إلى كثير من الاستدلال؛ فليس ثمّة ما يؤرّق بال هؤلاء الأجلاف أكثر من مسألة الحكم واستمرار سطوتهم على الرقاب، وهم لا يتردّدون في توظيف أيّ وسيلة تساهم في تحقيق هذا الهدف الأوحد، وليس هناك أنسب من موضوع الحسينعليه السلام وإقامة العزاء عليه في تخدير الغليان الشيعي والسيطرة على ما هو وشيك من الثورة، إذاً فلا فرق عند المغول في نوعية المذهب سواء كان شيعياً أو سنّياً، المهم عندهم أن يكون الشعب منشغلاً بأموره ومتقوقعاً داخلها دون التدخّل في قضايا الحكم والسياسة، وهنا ظهرت البوادر للاتجاه الفردي في الدّين وتفكيكه عن السياسة.

ثمّة موضوع بارز حظي باهتمام الحكّام وبدأ يطبّق شيئاً فشيئاً في كل عصر، وهو التخطيط لمواجهة المعارضة الشيعية المطالبة بإقامة العدل، والملهمة ـ دون شك ـ من وحي كربلاء، فعمد أولئك الحكام إلى التلاعب والتحريف في هذا المصدر الثريّ من الداخل؛ لأنّ الحقيقة فرضت نفسها في فشل المواجهة الخارجية بسبل القمع والترهيب فلم تنتج إلا عنفاً أكثر قسوةً ومواجهة مستمرّة، وهذا ما أثبتته

التجربة على أرض الواقع. لكن ما السبيل إلى هذه الآلية في التغيير؟ وكيف النفوذ إليها من خلال مفردات متأصّلة لدى الواقع الشيعي؟ هل من خلال مجالس العزاء؟ وكيف؟ إذاً كلّ ذلك يتحقّق في تعمية الطريق إلى هذا المصدر المقارع للظلم بشتى أنواعه، وبث التحريف بين طيّاته بشكل تدريجي يُسهم في تحريف الغاية الحقيقية له.

## كيف حوّل الصفويّون الصراع الصفوي العثماني إلى صراع شيعي ـ سنّي؟!

وهذا يعني أنه لطالما أفاد الملوك والحكام الإيرانيون من روح الحماسة الكامنة في نفوس الشيعة، إلا أنّهم حوّلوا وجهة هذا المؤشر من مقارعة الظالم الداخلي إلى الظالم الخارجي، وكان هذا التوجيه يتمّ أيضاً بما هو متعارف عليه من الوسائل لدى الطرف الشيعي؛ ولهذا نقرأ في التاريخ ـ مثلاً ـ أنّ الإيرانيين كانوا يقيمون مجالس العزاء ومعركة (جالداران) تطحن في رحاها، بمعنى نجاح الحكّام الصفويين في منح صراعاتهم مع الآخرين صبغة دينية لتتحوّل بذلك العناوين من صراع صفوي ـ عثماني، وصفوي ـ أوزبكي، إلى شيعي ـ سني أو صراع الإسلام مع الكفر[1]، وكأنّ شيعة ذلك الزمان لا ترى ظلم الصفويين أنفسهم أو أنهم لا يسمحون برؤيته والكشف عنه، بينما يوظّف مبدأ الاعتزاز بالمعتقد والتحمّس له في جانب آخر هو الوقوف بوجه الأطماع العثمانية والأوزبكية، أي مواجهة الظلم الخارجي فحسب. وهذا ما يشبه أيضاً تبديل عنوان الصراع البويهي ـ العباسي، والإيراني ـ العربي (الشعوبية) إلى حرب بين الشيعة والسنّة، وهذا ما عبّر عنه الدكتور علي شريعتي بـ«السحر الأسود»، ناسباً ابتكاره للصفويين[2]؛ حيث يقول: لكن الصفويين كانوا بحاجة إلى عنصر مثير للنفوس يحرّك فيها الدافع المذهبي؛ لأنهم وسائر الأنظمة الأخرى لا تقتصر حاجاتهم من المعتقد على التوجيه وتقديس نظام الحكم، وإنما يسعون كي يخلقوا منه قوّةً ضاربة بوجه العدو الأجنبي ومجابهة

---

(١) إعداد: بيتر جلكوفسكي، تعزية، نيايش ونمايش در ايران: ١٠، ترجمة: داوود حاتمي، طهران، العلمية الثقافية، ١٣٦٧ش/١٩٨٨م.

(٢) د. علي شريعتي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي (الأعمال الكاملة): ١٠٩ ـ ١٣٤، طهران، جابخش، ١٣٨٢ش/٢٠٠٣م.

المدّ السنّي؛ ولهذا عمدوا إلى تحجيم التشيّع في شكله العلوي الأول واستبدال الاعتدال الشيعي بالتطرّف والعزف على الوتر الحساس والمتشنّج.. إنّ ما أبدعت فيه الدولة الصفوية هو السيطرة على شيعة الدم والشهادة والثورات من خلال واجهة إعلامية حملت اسم الحسين عليه السلام، وحركة نهضوية باسم الإمام علي عليه السلام، وبذلك امتصّت ثورة الشيعة وألجمت بشهرٍ أو شهرين من السنة، هما: محرم وصفر؛ ليظلّ المجتمع يلهج بعاشوراء حتى نهاية ذلك العام.. جاء هذا السحر الأسود بغرض تثبيت النظام الاجتماعي على أسس ثورية، وتلبيس نظام القوّة والبطش والاستبداد السياسي والاستثمار الطبقي بعناوين الإمامة والعدالة، واستبدال ماهية التشيّع الحمراء ـ التي عرف بها منذ زمن الإمام علي عليه السلام وحتى زمن المهدي المنتظر ـ بالسوداء، وهي عباءة الموت التي ارتداها الصفويون. وأخيراً من أجل أن يخلقوا من الولاية رصيداً وقدسية داعمة للخلافة وأداة بيد الخليفة، اتخذوا من عاشوراء مادّةً تخدّر الإيرانيين وتحرّكهم ضدّ العثمانيين[1].

## التصوّف الشيعي وإفراغ المضمون الحركي لعاشوراء

المحاولة الأخرى على هذا الصعيد، كانت تفريغ محتوى أدبيات عاشوراء وسلب الاجتماع الشيعي مضمون وروح الحماسة والنضال؛ وذلك من خلال دسّ الروايات والتفاسير السطحية غير الحماسية عن حادثة عاشوراء؛ فمنذ زمن المغول أخذت واقعة كربلاء تبتعد ـ شيئاً فشيئاً ـ عن طابعها الثوري نظراً لوجود بعض العوامل المساعدة على ذلك، منها تدخّل الحكومات وانتشار المتصوّفة فاستبدل واقع هذه الحادثة بانطباعات معنوية وعرفانية، ويمكن الاستدلال على حضور هذا الاتجاه الجديد بقوّة من خلال انتشار كتابي: روضة الشهداء، للواعظ الكاشفي، (وتركيب بند/الأرجوزة) لمحتشم الكاشاني، وما حظي به هذان الكتابان من استقبال منقطع النظير[2]، ومن سخريات الأقدار أن يكون كلا المؤلّفين من رؤساء المتصوّفة البارزين في عصرهم، ومن الطبيعي أن يقدّما وجهات نظرهما عن عاشوراء بما

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٦ ـ ١٣٠.

(٢) يد الله هنري لطيف بور، فرهنك سياسي شيعة وانقلاب اسلامي: ٩٩، طهران، مركز وثائق الثورة الإسلامية، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م.

يتناسب ومذهبهما؛ أي انطلاقاً من المقولة التي تقول: البلاء للولاء.

يقول رسول جعفريان في تحليل رؤية كتاب روضة الشهداء الصوفية لواقعة عاشوراء: من لوازم الفكر الصوفي أن يقدّم المحلل الصوفي فكرته وانطباعه عن الحوادث بتجريدها عن جدّية السياسة، ويطبعها بما هو فوق الطبيعة، فعنده أنّ لكلّ حادث تأثيرات معنوية خاصة به.. يتشدّد المتصوّف حيال الدنيا لينال مقابل ذلك درجات رفيعة من المعنى والمثالية؛ فقد محص الله الأنبياء والأولياء بأشدّ أنواع البلاء كيما تزداد عزتهم ومنزلتهم. والتاريخ الديني مليء بحوادث الأنبياء والأولياء ومعاناتهم.. ولهذا لا نرى عبارة واحدة في كتاب: روضة الشهداء، تذكر حقيقة ثورة كربلاء أو ما انطوت عليه من أهداف سياسية. أما عن شهداء كربلاء فالحديث مقتصر على بيان منزلتهم الدنيوية واستعاضتها بما هو أعلى بانتقالهم إلى الدار الآخرة. إذاً، فهل من مبرّر لبقائهم في الدنيا؟! وبالنسبة للموالين للإمام فإنّ أفضل ما بين أيديهم هو البكاء طريقاً للخلاص والنجاة(١).

ويقدّم هنري لطيف بور ـ أ. سا ـ تحليلاً لنظرة كتاب (تركيب بند) العرفانية فيقول: لقد بلغ نمط الانطباع عن عاشوراء مبلغاً أشرك حتى الملائكة في الحزن على فداحة ذلك المصاب، بهذا تحوّل الإمام الحسين عليه السلام من مظهر للحرية والعزة إلى نائب للشفاعة في تخليص الأمّة من ذنوبها يوم الحشر أمام الحقّ تعالى، كذلك تحوّل الماء والعطش إلى محور أساس في قراءة كربلاء.. لقد استبدلت هذه النظرة في خطابها لمظلومية الحسين عليه السلام وأهل بيته بشيء آخر حلّ محلّ يزيد وأعوانه، وتوجهت بالملامة والتذمر من رموز أخرى وهمية كالدهر والفلك و..

جاء في أرجوزة محتشم الكاشاني:

لم تكن قبل هذا الوقت من خطيئة

ولم يجر على أحد ما جرى

فيا دهر أفّ لك وأنت تجهل حجم الفاجعة

وما أسّستَ له من ظلم وبغضاء على المدى(٢)

---

(١) رسول جعفريان، تأملي در نهضت عاشوراء: ٣٥٨ ـ ٣٥٩، قم، نشر أنصاريان، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م.

(٢) فرهنك سياسي شيعة وانقلاب اسلامي: ٩٩ ـ ١٠٠.

وتكتمل الرواية إذا عرفنا أنّ الكتابين ألّفا بأمر من الملوك، ولابد أن تكون آلية إصدارهما بما يصبّ في مصالح السلطان، فقاد الأمر إلى تقديم هذه القراءة المتشائمة القدرية، والنتيجة تخدير عامة الشيعة وتجريد مجالس أهل البيت من محتواها؛ فصدرت (روضة الشهداء) بأمر مرشد الدولة عبد الله، وهو من ولاة السلطان حسين المعروفين، بينما نظمت أرجوزة (تركيب بند) بطلب من الملك طهماسب الصفوي[(١)].

وفي زمن القاجاريين أيضاً، كانت هناك نماذج مشابهة لهذا النمط من التوظيف والاستغلال بصور متعدّدة، وقد حدّثنا عن ذلك عبد الله المستوفي حينما قال: «لقد أسّست المواكب واستغلّت للتطبيل باسم الوزير، بل اتخذت وسيلةً من وسائل نيل السلطة أيضاً»[(٢)]، وقد أفرز اهتمام ملوك القاجار بمراسم التشابيه ـ باستثناء الجانب الفني ـ نتائج سلبية، منها تهميش مضامين روايات كربلاء واستغفال عامّة الشيعة وتخديرهم، وهنا يكمن تقييمها الحقيقي.

نعم، لابد أن نستثني من هذا السياق بعض الفواصل التاريخية من قبيل ثورة التنباك والحركة الدستورية، التي تمكّن فيها العلماء من بسط مقترحاتهم ونشر العقائد الشيعية عبر قنوات مجالس العزاء السياسية، ومن شواهد هذا الجانب الإيجابي في دور مجالس العزاء السياسي إبّان عصر الحركة الدستورية، ما أعقب حادثة مقتل أحد طلبة العلم السيد عبد الحميد على يد جلاوزة السلطة من ردود فعل صاخبة، كذلك فيما يتعلّق بمسألة اعتقال الشيخ محمد واعظ من قبل عين الدولة[(٣)].

---

(١) علي محمد بشارتي، تاريخ تحليلي ايران بعد از اسلام: ٢٠٣، طهران، مؤسسة الإعلام الإسلامي، ١٣٧٨ش/١٩٩٩م؛ وتأملي در نهضت عاشوراء: ٣٣٦؛ وقد شكّك رسول جعفريان بالدور المباشر للقوى السياسية والسلاطين في تحريف حقيقة وهدف عاشوراء؛ لضعف الأدلّة الموجودة، وأوعز حصول تحريف في روايات عاشوراء إلى تردّي مستوى علوم التاريخ في المجتمع، وإن أذعن فيما بعد بتفاؤل الحكّام لتغييب البعد السياسي لكربلاء، وهو ما لا يهدّد كياناتهم الظالمة، من هنا يمكن تفسير مساعي الدولة لحسر ذكرى عاشوراء بمجالس العزاء ومراسم التشابيه, فانظر له: تأملي در نهضت عاشوراء: ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) عبد الله المستوفي، شرح زندكاني من يا تاريخ اجتماعي واداري دوران قاجارية ١: ٢٧٨، طهران, مكتبة زوار.

(٣) أحمد كسروي، تاريخ مشروطة ايران: ١٠٦ ـ ١١٦، مؤسّسة نكاه، ١٣٨٢ش/٢٠٠٣م؛ ومحمد بن

وإليك ملابسات مقتل عبد الحميد برواية أحمد كسروي: في هذا اليوم ـ وعلى الرغم من نداءات الدولة ـ أقفلت المحالّ أبوابها، باستثناء المخابز والحاجات الضرورية وملأت الجموع المعزية باحات الجوامع والمقامات، واستغرقت مراسم التأبين أكثر من نصف نهار، ارتقى خلالها الخطباء منابرهم معرّضين بعين الدولة وأعماله الدنيئة، في السياق ذاته عمد البزازون إلى صنع قميص ملطّخ بالدماء وشدّوه على العيدان بيرقاً، وسارت خلفه المظاهرات الصاخبة في طريق العودة من المأتم، وهكذا التحمت الجموع الغفيرة على شكل مواكب العزاء آنذاك والصيحات ترتفع: محمد يا محمد، أدركنا يا محمد، وطافت الجماهير في باحات الجوامع لمرات عديدة، ثم توجّهوا إلى سوق المدينة، ثم طافوا بمسجد الشاه ومسجد آدينه، ومن ثم عادوا إلى مقرّهم الأول.. ولأنّ القتيل من السادة الأشراف كان هذا دافعاً لإقامة مجلس العزاء على قتلى كربلاء أيضاً(١).

وكتب ناظم الإسلام الكرماني في هذا الخصوص: شهد يوم الجمعة من جمادى الأولى عام ١٣٢٤ إغلاقاً عاماً لجميع الأسواق، وتحشد الدركيّون في الأزقة والميادين، بينما أودعت الجماهير نعش السيد عبد الحميد في المسجد، ليقيموا مجلسهم التأبيني ويرتدوا لباس الظلامة الأسود. في هذه الأثناء أجرى عين الدولة تغييراً في صفوف جنوده المنتشرين في المدينة لضبط الأوضاع فيها.. في حين رفع الطلاب والسادة الأشراف قميص السيد عبد الحميد المغطّى بالدماء بيرقاً ومن حولهم الجماهير تلطم على الوجوه والصدور، هكذا سارت الجماهير المعزية يتقدّمها الخطيب السيد ذبيح الله ـ وهو من السادة الأجلاء ـ وهو ينادي بالظليمة: يا صاحب الزمان، الأمان الأمان، وموكب السادة والطلاب يردّد خلفه. أما موكب عامة الناس والكسبة فكان يردّد: يا محمد! استبيحت أمّتك، وهم يحملون عمامة السيد المقتول، وكان الأطفال أيضاً ـ من السادة وغيرهم ـ يسيرون أمام هذه المواكب المعزية.

ونظراً لتزايد الأعداد الغفيرة وحرارة الجوّ تحت سقف المسجد، قرّرت الجموع

---

علي ناظم الإسلام كرماني، تاريخ بيداري ايرانيان: ٤٠٢ ـ ٤١٢، طهران، نشر أمير كبير، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م.

(١) تاريخ مشروطة ايران: ١١٠.

التوجّه ـ وكما في اليوم الماضي ـ إلى الخارج والتجوال في الأزقة والأسواق في مواكب من الحزن والنحيب.. واستجابة للدعوات المتعالية قرّروا إخراج العلم من المسجد لتسير الجماهير خلفه، فسار الناس وهم يلطمون على رؤوسهم يتقدّمهم كبار السنّ من العلماء والسادة الأشراف بعمائمهم السوداء والخضراء وهم يرفعون المصاحف عالياً.. دون أن يعيروا بالاً لحالة الطوارئ المفروضة من قبل السلطة.. فما كان من الجنود إلا أن اعترضوا طريق المعزين ومنعوهم من مواصلة المشوار.. وكان الجنود قد أمروا بإطلاق النار إن لزم ذلك.. لهذا كثيراً ما كانوا يطلقون عياراتهم صوب سقف السوق.. وأحياناً نحو الجماهير؛ فأصيب بعضهم وحمل أحدهم إلى المسجد الجامع ونصبت حوله المناحة هناك والصيحات ترتفع: يا محمد! يا علي! يا حسن! يا حسين![1].

مع هذا كلّه، كان ملوك القاجار يحرصون ـ لآخر لحظة ـ على إجراء حيلهم كي لا تُكشف حقيقتهم لدى عامّة الناس في تحريف بعض معتقدات الشيعة والتلاعب بها. وتلك حيلة أغفلها خلفهم القوقازي رضاشاه البهلوي بقصد أو بغير قصد، وكانت النتيجة الكشف عن سرّ دام قرناً من الزمن. وبعد أقلّ من عقدين جاء دور هذا القائد العسكري؛ فاستعان بتظاهره بالشعائر الدينية ـ لاسيما مراسم العزاء الحسيني والمواكب ـ في استغفال العوام وبعض رجال الدين؛ ليصل عن هذا الطريق إلى سدّة الحكم، وبمجرّد تسلّمه السلطة أصدر أمره بحظر إقامة مجالس العزاء نفسها وسائر الشعائر الدينية الأخرى، وبعمله هذا كان قد خلق أرضيةً مناسبة لسقوطه دون أن يشعر.

وهكذا انفصلت الشعائر الشيعية المذكورة ـ بعد قرن من الزمن ـ عن السلطة وعادت إلى الشعب.

## المرحلة الثالثة: من عهد البهلوي الأول وحتى انتصار الثورة الإسلامية (١٣٥٠ ـ ١٤٠٠هـ)

لعلّه يمكن مقارنة تاريخ المواكب الدينية في هذه المرحلة في بعض جوانبها

---

(١) تاريخ بيداري ايرانيان: ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

بالمرحلة الأولى، فعلى الرغم من اختلافها النوعي عما كانت عليه في زمن الأئمة عليهم السلام إلا أنهما يشتركان بوصفهما من الأمور الممنوعة حكومياً وضرورة الحفاظ على سرّيتها التامة وإقامتها في الخفاء. وكذلك من ناحية موقفهما الرافض لأداء السلطة والمنتقد لتصرّفات النظام الحاكم، لاسيما مع انطلاق أوّل شرارة للثورة الإسلامية في مطلع الأربعينيات من هذا القرن، وبفكر المتنوّرين والعلماء الواعين - وفي طليعتهم الإمام الخميني - استعادت هيئات العزاء مكانتها الحقيقية، وعادت شيئاً فشيئاً إلى يد الشباب الثوري. وبهذا استعادت التجمّعات حياتها ونضالها في مقارعة الظلم وإقامة العدل، مع العمل على الإصلاح - إلى حدّ كبير - في التحريفات الطارئة على مضامينها، وعلاوة على مقارعتها للظلم الداخلي (الاستبداد البهلوي)، باتت أيضاً تهتمّ بمواجهة الظلم الخارجي المتمثل بـالاستكبار العالمي والصهيونية.

لقد شكّل جيل الشباب آنذاك - بتأثر من حركة الإمام الخميني وأفكار بعض الكتاب أمثال الدكتور شريعتي والأستاذ مطهري - النواة الأولى لهذه الحركة السياسية - الدينية، وقد اتسعت رقعتها حتى تحوّلت إلى جناح مستقلّ داخل الهيئات الدينية، فكانت تشترك في الاجتماعات الدينية كممثل عن اتجاهها وبعدها الفكري. وقد أطلق عليها: الهيئات الثورية، في مقابل: الهيئات التقليدية، التي بدأت فعاليتها خلال الأجواء المشحونة في المرحلة الثانية من عمر الهيئات والمواكب الحسينية، وكان يعبّر عنهما أحياناً بوصفهما نوعين من الإسلام: الإسلام المتحجّر والإسلام المتنامي، أو من خلال قراءة التشيّع بوجهين: التشيع الأسود والتشيع الأحمر، أو التشيع الصفوي والتشيع العلوي، بالطبع كانت الغلبة من نصيب الهيئات الثورية، الأمر الذي نتج عنه إحياء قدرة هذه المجالس المغيّبة ودورها المنسي، بحيث بات من الصعب إنكار دور الهيئات ونشاطاتها الدينية في إنجاح الثورة الإسلامية، وهذا كلّه مدين أيضاً - إلى حدّ كبير - لنجاحات الإمام الخميني وأتباعه من العلماء في تقديم أطروحة عملية عن ثورة عاشوراء في انتفاضة الشعب الإيراني.

## المرحلة الرابعة: عصر الثورة الإسلامية (١٤٠٠هـ.) هل تخضع المواكب الإسلامية للدولة الإسلامية أم نتركها حرّةً عامة؟

لا شك أنّ انتصار الثورة الإسلامية يمثل منعطفاً حسّاساً في تاريخ مجالس

العزاء والمواكب الحسينية في إيران على مختلف الأصعدة، فقد تميّزت في هذه المرحلة بتطوّر كمّي ونوعي منقطع النظير مع تنوع في الأداء والآلية. على أنّ لهذه المرحلة أيضاً نقاط اشتراك مع المرحلة الأولى والثالثة من جهة، والمرحلة الثانية من جهة أخرى؛ حيث تلتقي مع الأولى والثالثة في الحضور الواسع لأدبيات الحماسة ومحاربة الظلم، ومع الثانية من ناحية اتصال تلك الهيئات ـ المباشر وغير المباشر مادياً ومعنوياً ـ بنظام الحكم ومحاولتها للدفاع عن مبادئه وقيمه بما أوتيت من قوّة.

وقد تباينت الآراء والنظريات في حينها حول مسألة اتصال الهيئات الدينية بالسلطة الإسلامية الجديدة؛ فرأت جماعة التقليديين ـ القائلة بعزل مقولات الدين عن السياسة ـ أنّ أيّ اتصال للمجالس والهيئات بنظام الحكم سيجرّدها عن طابعها الشعبي المستقلّ ويجرّها إلى الانصياع وراء ما تُمليه مقررات الدولة وأهواؤها، وهو أمر مرفوض، سواء كان نظام الحكم إسلامياً أو ما يشابه حكم ناصر الدين شاه القاجاري.

في مقابل ذلك، كانت جماعة الثوريين على عقيدة راسخة في امتناع مقارنة الحكومة الإسلامية بسلالات الحكم الملكي الظالم، معتبرين انتصار الثورة الإسلامية نتيجةً لنضالات الشيعة على مرّ التاريخ في شتى المجالات، ومنها ما كان في إطار مجالس العزاء الحسيني؛ وعليه يتعيّن لتلك المجالس أن تبذل قصارى جهدها للحفاظ على كيان هذا النظام ومبادئه الأصيلة، ولابد لها أن تبقى وسائل فاعلة في الدفاع عنه، أي أن يصدق عليها عنوان الهيئات الثورية بما لهذه التسمية من معنى.

وهناك نظرية ثالثة ترى أنّ انصهار الثورة الإسلاميّة في قالب النظام الحالي (الجمهورية الإسلامية) هو بمثابة مشروع غير تام الأبعاد، وليس لأحد أن يدّعي مثالية نظامه السياسي وجدارته المطلقة في تمثيل التشيّع الأصيل بتمام جوانبه؛ لذا يحتمل تعرّضه لبعض الإخفاقات في مسيرته الطويلة، وعليه لا يمكن ربط مصير الهيئات الدينية بمصير الدولة؛ وإنّما لابد من العمل على تقويتها ومنحها استقلاليةً تليق بهذه المراكز الاجتماعية ـ الدينية، إلى جانب توفير أرضية ثقافية تنمّي القراءات الصائبة عن الإسلام الحقيقي والتشيّع الأصيل، ويتعيّن جعل تلك الهيئات محكّاً لأداء الثورة في مواصلة طريقها نحو تحقيق الكمال، وبديهي أن يلتقي الاثنان بالرؤى

والأفكار طالما بقيت الثورة محافظةً على مبادئ التشيّع الحقيقي، وهنا تتّحد مصالح الجانبين لا محالة، أما إذا انحرف النظام الإسلامي عن المسير المرسوم له، فإنّ الهيئات ستكون بمنأى عن ذلك الانحراف. ولابد من الإشارة هنا إلى أنّ مراعاة مصالح الثورة الإسلامية وأهدافها شيء، والدفاع عن المبادئ الحزبية والفئوية شيء آخر.

ولا ننسى أنّه كما كان هناك تلاعب وتحريف في بعض الروايات غير السياسية عن عاشوراء، كذلك ظهر التحريف والتأويل في تحليل هذه الحركة؛ فجرى مفعول التحريف أيضاً على الجانب السياسي منها[1].

## ٢ . صناعة القدوة وفعل الاقتداء

تستعرض الاجتماعات الدينية بشكل عام ومجالس العزاء بشكل خاص جوانب من حياة أئمة الشيعة ـ من مناقب ومصائب ـ بأكثر من طريق، من قبيل مجالس الرثاء وإنشاء القصائد الولائية وإجراء التشابيه والمسرحيات الاستعراضية، ومن الطبيعي أن تكون هذه السيرة أنموذجاً يقتدي به الشيعي؛ فعلاوة على ما جاء في النصوص الدينية من الدعوة للاقتداء والتأسّي بالنبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام هناك عامل آخر هو نوعية العلاقة بأهل البيت والقائمة على أسس المودّة والتأثر بسجاياهم الحميدة، ومن الطبيعي أن يسعى المحبّ في التقرّب إلى محبوبه، وغالباً ما يتحقّق ذلك بالسير على نهجه والاقتداء بأعماله.

من هنا، نجد أنّ المجالس الدينية قد أسهمت إسهاماً كبيراً في نقل الصورة العاكسة عن حياة أهل البيت عليهم السلام، سواء بالأساليب البيانية أو القصص الموثقة أو بإجراء الاستعراضات المباشرة بما يتناسب وفهم المخاطبين من أتباع بيت النبوّة.

ويمكننا ملاحظة وظيفة الاقتداء في المجالس والهيئات الدينية من جهتين: الفردية والاجتماعية؛ فالفردية تعود إلى اقتداء الأفراد الحاضرين في تلك المجالس بسيرة أهل البيت عليهم السلام الفردية في معاملاتهم وعلاقاتهم مع الآخرين في البيت والمجتمع، وهذا متّصل ـ بطبيعة الحال ـ بمقولة الأخلاق الفردية، ويصدق الجانب

(١) تأملي در نهضت عاشوراء: ٣١٠.

الاجتماعي على اقتداء الجماعات والتكتلات بسيرة أهل البيت الجماعية، من قبيل الدعوة إلى مقارعة الظالمين وإحقاق الحقّ والعدالة الشاملة بالثورة على السلطان الجائر؛ لذا لابدّ من إطلاق شعار: كلّ يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، واستنساخ المناضلين والقادة لبعض جوانب ثورة الحسين في حركاتهم كمصاديق تصبّ في هذا الاتجاه، من قبيل مقارنة الإمام الخميني للثورة الإسلامية بحادثة عاشوراء.

وللخميني خطابٌ بيّن خلاله آلية الاقتداء بعاشوراء ومعطياتها: «إنّ كلمة: كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، لشعار عظيم أخطؤوا فهمه؛ فتصوّروا معناه في استمرارية البكاء، وهو ـ بالتأكيد ـ خلاف مضمون نصّه، فماذا صنعت كربلاء؟ وما دور أرضها في يوم عاشوراء لكي يتحتّم على سائر البقاع أن تقتدي بها؟ إنّ معنى كربلاء يكمن في تلك الأرض التي سار إليها مجموعة من الأفراد ليقفوا بوجه يزيد ودولته الطاغية؛ إنهم جابهوا امبراطور زمانهم وضحّوا واستشهدوا دون أن يخضعوا للظلم، وبذلك انتصروا على يزيد؛ فعلى الأماكن الأخرى أن تكون بهذا المستوى، وعلى الأيام أيضاً أن يكنّ بمستوى مجد ذلك اليوم. وعلى شعبنا أن يتصوّر كل يوم كيوم عاشوراء؛ فلابدّ لنا من الوقوف بوجه الظلم، وهذه كربلاء هنا ولابد من إحياء دورها؛ فهي لا تحدّ بجغرافيا أو تاريخ، وليس دورها مقتصراً على عناصر محدّدة لا يتجاوز عددهم السبعين شخصاً، بل ذلك كلّه حاضرٌ في كل مكان وزمان»[(١)].

إن بإمكان الأنموذج المثالي في التوفيق بين كلا الجهتين أن يقدّم لنا مجتمعاً شيعياً خلاقاً وثورياً بوعي متكامل، يمثل أفراده طبقةً واسعة من العصاميّين الثوار، هذا في النظرية، أمّا على صعيد التطبيق فيكاد لا يوجد مصداق إلا من باب التسامح والمجاز فيما يتعلّق بالمجتمع الطليعي للثورة الإسلامية وإبان الحرب المفروضة. والسبب يعود إلى اختلال الموازنة بين الجهتين المذكورتين آنفاً، الأمر الذي يعتبر تركةً من تركات الأنظمة والحكومات السابقة، وآلية تعاملها مع مجالس العزاء الحسيني. فلو أمعنّا النظر في المراحل الأربع المتقدّمة لوجدنا طغيان السمة الاجتماعية على المرحلة الأولى والثالثة وبعض جوانب الرابعة أيضاً، تلبيةً لمتطلبات

(١) قيام عاشوراء در كلام وبيام امام خميني: ٥٨، تاريخ الخطاب ١٣٥٨/٧/٤ش(١٩٧٩م).

المرحلة وحاجة المجتمع الثوري آنذاك للروح الجهادية والطابع الحماسي، بينما كان الطابع الفردي هو المهيمن على المرحلة الثانية والرابعة تلبيةً لضرورات الدولة الملحّة في الحفاظ على النظام الحاكم والسيطرة على الحركات المتمرّدة، الأمر الذي نتج عنه شيوع الموضوعات والنزعات العرفانية وكذلك الأخلاق الفردية.

### ٣ ـ ترسيخ الاعتقادات

اتخذت المجالس والمواكب من منابر الخطابة والوعظ وسيلةً لنشر الأحكام الشرعية وترسيخ المعتقدات الدينية في وعي مخاطبيها، فاستمرار هذه المجالس استذكارٌ دائمٌ للبحوث العقدية، وأرضية مناسبة لنشر تلك المفاهيم بين عامّة الناس.

### ب ـ الوظائف المستترة

#### ١ ـ خلق روح التوافق والالتحام

إنّ اجتماع مجموعة من الناس واتحادهم في عملٍ ما بدافع العقيدة سيولّد ـ لا محالة ـ وشائج وثيقة بين الأفراد ويعزز العلاقات الاجتماعية بينهم، سيما وأنّ العامل المشترك بين الجميع هو عمل عبادي يبغى من ورائه نيل الثواب، وهذا ما ينطبق تماماً على مجالس العزاء ونشاط المواكب الحسينية.

#### ٢ ـ تدعيم النظم الأخلاقيّة

إنّ الغاية من المجالس والمواكب غايةٌ دينية تدخل في المعتقد والقدسية، وهي مصداق بارز لمفهومي: التولّي والتبري، وهما من فروع الدين الواجبة، وإذا تقدّست الغاية تقدّست وسيلتها بالتبع، أي أن تلك المجالس تتميز عن سائر اللقاءات والاجتماعات الأخرى بأنّ لها مكانةً وحرمة في النفوس، وتشمل هذه المنزلة أيضاً زمان إقامة المجلس ومكانه على حدّ سواء، الأمر الذي يستدعي الالتزام بجملة من القواعد السلوكية أثناء المجلس وفي محلّ إقامته، ومسلّمٌ أنّ نظام الأخلاق الدينية أحدُ مصادر تلك الأصول والقواعد.

ويتناسب الالتزام بهذه الضوابط طردياً مع مستوى حضور الفرد في المجالس والمواكب، وهنا تكمن قناة اتصاله بالقداسة، ومصدر اعتماده وثقته، فكلّما ازداد الحضور ازداد التأثر بتلك القدسية وتضاعفت الثقة بها، وهنا يكتسب الفرد

هويته الجديدة فيلقب بالحسيني، وهي هويّة قد تمنح صاحبها صبغةً قدسية مستوحاة من مصدرها الرئيس: الموكب؛ لذا ستكون له منزلة وقدسية كما أنّ لمكان المواكب وزمانها قدسية خاصة بها، لا تسمح بانتهاكها، ولعلّ للعلاقات الاجتماعية ومحيط المواكب الداخلي دورٌ فعّال في تثبيت هذه الأمور؛ من قبيل تطلّعات المجتمع للفرد الحسيني ـ سواء كان شيباً أو شباباً، وسواء كان راثياً أو خطيباً... وحتى مموّل المجلس أو المواكب ـ وطبيعة نظرته له، وكذلك إعداد الفرد الذاتي في تحقيق تلك التطلّعات والثقة الممنوحة له من قبل المجتمع.

ويمكن ملاحظة دور الهيئات والمواكب في تثبيت النظم الأخلاقية في المجتمع، من خلال ما حظيت به من منزلة ومكانة فيه ـ لاسيما في السابق ـ ونوع اتصالها بالأوساط الاجتماعية، كحضورها المؤثر في أسواق المدينة وبين التجار والكسبة.

**٣ ـ تثبيت مبادئ المجتمع ومصدرها**

انطلاقاً ممّا تقدّم من التفكيك بين الضوابط الدينية ومرآة المتديّنين في ذلك، على اعتبار أن تلك المرآة عبارة عن مقولة اجتماعية تتأثر بحسب العوامل المحيطية، انطلاقاً من ذلك يمكن فرض وظيفة مستترة أخرى للمواكب والهيئات الدينية هي: ثبات مبادئ المجتمع ومصدرها؛ فلا شك أنّ للهيئات الدينية ـ بوصفها مؤسّسة اجتماعية ـ دوراً مرآتياً عاكساً على أداء المجتمع والعلاقات السائدة فيه، بل إنّ ذلك ينعكس حتى على هيكلية وظاهر تلك المؤسّسة؛ فتأتي متأثرةً تماماً بهيكلية وظاهر المجتمع، بعبارة أخرى: يمكن اعتبار كلّ من مصاديق المواكب الأربعة: التقليديّة، والثوريّة، والخدميّة، والهيئات المصغّرة، أنموذجاً للعلاقات الاجتماعية بينها، وهو أنموذج يعكس ـ بطبيعة الحال ـ العلاقات ذاتها بشكلها العام في سائر المجتمع، أي إنّه أنموذج مصغّر للعلاقات الاجتماعية فيه؛ فلو نظرنا ـ على سبيل المثال ـ للمواكب التقليدية، فإنّ نظام الهيئات التقليدية ينطبق تماماً على مكوّنات المجتمع التقليدي المحافظ بجميع تفاصيله، فكما أنّ كيان المجتمع التقليدي قائمٌ على منظومة فكرية متسلسلة موروثة، كذلك الحال بالنسبة لكيان المواكب التقليديّة المحافظة في ميولها. وكما أنّ لظاهرة سيادة الأعيان وجوداً في علاقات المجتمع التقليدي، كذلك نجد الظاهرة نفسها حاضرةً بقوّة في صميم المواكب التقليديّة في مبدأ توزيع الأعمال في

داخله مع مبدأ ذلك في سنن المجتمع التقليدي الذي تحكمه رموز هرمية بشكل طولي، على رأسها أبرز الموجودين، وكذلك الحال بالنسبة للهيئات والمواكب الحسينية؛ حيث توزع الأعمال على الأفراد وفقاً للعملية الطولية ـ بتسلسل الأدوار من الأعلى إلى الأدنى ـ وغالباً ما يتزعّم «الأب» ـ أو شيخ الموجودين ـ الدور الأعلى والأبرز في المجموعة.

بقي أن نقارن ـ أيضاً ـ بين الاثنين من ناحية مسار التحولات الاجتماعية؛ فكما أنّها نادرة وبطيئة في المجتمع التقليدي الميّال للمحافظة على الحرم والأصول الموروثة، فإنّ التحولات غير محسوسة أيضاً على نطاق المواكب والهيئات التقليدية؛ لذلك نجد الأجيال تتوارث النظام السابق لها ولنشاطها وفاعليّتها عن آبائهم وأجدادهم.

ويمكن إجراء مقارنة مشابهة بين أنموذج المواكب والهيئات الثورية وكيان المجتمع النامي، أو بين مواكب الخدمة ومكوّنات المجتمع المتطوّر، وكيفما كان فإن ما يفرض نفسه من نتائج ذلك هو الالتزام وصيانة أطروحة المجتمع وفقاً للميزة المرآتية المذكورة، ومن خلال استنساخ واقعة على أنموذج مجتمع مصغّر، وقد يكتسب أنموذج المجتمع الأصلي استحكاماً ومصداقية أوسع تبعاً لحضور الأنموذج المصغّر وقيمته الاجتماعية، وهو ما حصل في بعض الأحيان في زمن البويهيين والصفويين والقاجاريين.

**٤ ـ ملء أوقات الفراغ**

من جملة الوظائف المستقرّة للمجالس، ملؤها أوقات الفراغ لدى الأفراد، ويمكن بيان مفهوم أوقات الفراغ من خلال بعض التعريفات العلمية الحديثة لها، منها:

**أ ـ الفراغ الزمني**: وقد عرّف كل من سعيد ضيائي وناهيد منصوري في دراستهما المشتركة أوقات الفراغ، بالقول: وفقاً للأعراف والتقاليد في المجتمعات، كان ولا يزال لكلّ فرد مساحة زمنية محرّرة من العمل المعتاد، من قبيل عطلة الأسبوع أو العطل الصيفية والمناسبات العامة وغيرها، وهذا ما يصطلح عليه بـأوقات الفراغ، ويتبع ملؤها عوامل مختلفة من قبيل نوع العمل والسنّ والجنس والمستوى الدراسي والدخل الفردي وطبيعة المعتقدات، والمحيط الجغرافي و..[(١)].

---

(١) بررسي وضعيت أوقات فراغت جوانان: ٦، المؤسسة الوطنية لرعاية الشباب، الدراسة

ب ـ **الفراغ بوصف النشاط**: يعرّف دوماسدييه الفراغ على أنه: نشاط هادف يختاره الفرد تحقيقاً لفرديّته، بعيداً عن تطلّعات المجتمع والعائلة والأصدقاء والدولة وغيرهم[(١)].

ج ـ **الفراغ الذاتي**: يقول دغرازيا في الفراغ: هو نوع من الوجود الإنساني نادر المصاديق وصعب التحقّق، بعيد المنال؛ فهو يرى تلاقي مفهوم الفراغ مع عامل أساسي هو: الوجود الإنساني وظروفه أو الإحساس بالمتعة[(٢)].

ويتضح من التعاريف المتقدّمة اشتراكها في: ١ ـ تباين وقت الفراغ عمّا يطلب أداؤه. ٢ ـ أنّ لاختيار وقت الفراغ حرية نسبية لا مطلقة. ٣ ـ غالباً ما يكون بدافع ذاتي[(٣)].

ومن خلال التعاريف الثلاثة المتقدّمة، يمكن استنباط وظيفة أخرى من وظائف المجالس والشعائر الحسينية، هي وظيفة ملء الفراغ؛ ذلك أنّ المشاركة فيها بمثابة وسيلة من وسائل ملء الفراغ، وهو ما جاء في التعريف الأول، وهي ـ من جهة أخرى ـ بمثابة نشاط هادف وغير قسري يختاره الفرد بوعي وحرية، كما جاء في التعريف الثاني، وهي تحتوي أيضاً على تجربة ذاتية مثلما ورد في التعريف الثالث. علماً أنّ هذه الوظيفة قد اختلفت أطرها ومرّت بمراحل تناسبت ومتطلّبات كل عصر ومجتمع وواقعه الثقافي، هذا بالإضافة لاختلاف تعريف مفهوم ملء الفراغ من عصر لآخر، من مجتمع راديكالي إلى مجتمع حداثي.

لكن وبشكل عام، لابد أن ننظر لمفهوم وقت الفراغ في العصر الحاضر بوصفه مفهوماً متأخراً وحديثاً؛ لأنه إن انطبق على المجتمع الراديكالي في بعض أحيانه فسيكون مقتصراً على جانب من الثقافة العالمية، أي يكون مختصاً ـ إلى حدّ كبير ـ بطبقة النخبة، ولا وجود له في حياة عامّة الناس، على أننا ملزمون باستثناء شعائر التشيّع والشيعة في إيران من هذه القاعدة؛ لأنها باتت ـ لاسيما في العهد

السادسة، طهران، نشر أهل قلم، ١٣٨١ش/٢٠٠٢م.

(١) المصدر نفسه: ٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٠.

(٣) المصدر نفسه.

الصفوي ـ فعاليةً عامة تمارسها طبقات المجتمع كافّة آنذاك، فقد حظيت باستقبال واسع من قبل الشعب نظراً لوجود بعض العوامل من قبيل انتشارها، وانطباعها بطابع الدين، وكون المشاركة فيها عامّة ومجّانية لا كُلفة تفرض فيها، أيضاً كان من العوامل المساعدة على انتشارها تنوّع أنماط العزاء من قبيل: مواكب العزاء والمراثي والمشاعل والخطابة على المنابر والتطبير وإجراء التشابيه الاستعراضية الحيّة، كما كانت هناك شعائر تملؤها البهجة والسرور من قبيل مهرجانات الخامس عشر من شعبان. ناهيك ما تتطلّبه تلك الشعائر من آداب وعادات وتقاليد كثيرة تحتاج في الإعداد لها إلى نشاطٍ أكثر من قبل مجموعة واسعة من الأفراد، الأمر الذي يحسب أيضاً على مصاديق مفهوم ملء فراغ كلّ هؤلاء الناس.

وقد حظيت مراسم التشابيه بحفاوة مميّزة من بين الشعائر الأخرى؛ نظراً للأساليب المبتكرة والمشاهد المؤثرة في المتلقّي، وتدلّنا الشواهد التاريخية على أنّ هذه الشعيرة كان لها دورٌ بارز في تلاشي بعض مظاهر الفرح والبهرجة لدى الشعب، وقد تصل إلى الحدّ المضاد لها أحياناً؛ فالتاريخ يروي لنا ما أعقب الفتح العربي من إلغاء لبعض تقاليد الإيرانيين ـ لاسيما بعض مظاهر الاحتفالات العامة ـ لاندراجها تحت عناوين الممارسات الجاهلية من قبيل: أعياد النوروز، ومهرجان (عيد الخريف)، وعيد سده (وهو يسبق النوروز بخمسين يوماً)، وحلّت محلها شعائر بديلة غلب عليها طابع الحزن والعزاء، وإن كان يحتمل أن نفي مظاهر الفرح جاء تبعاً للمعاناة المستجدّة وما يكابده الشعب من ظلم في تلك الفترة، لكنّ الأمر اختلف بعض الشيء على عهد القاجاريين، وخصوصاً العهد الناصري ـ المعروف بالعهد الذهبي لتلك الشعائر ـ نظراً للاستقرار النسبي الحاصل في المجتمع وحاجته لوسائل الراحة والرفاهية؛ لذا لم يكن من المستغرب دخول نوع آخر من التشابيه يكون أقرب لمراسم الفرح والاحتفال على سبيل الكوميديا الهادفة [١]، من أمثال مراسم زواج الزهراء، زواج القاسم، زواج نرجس والإمام العسكري، يوسف وزليخا، آدم وحواء، حادثة ابن ملجم، جباية ضرائب معين البكاء، بالإضافة لبعض الاستعراضات الأخرى كخروج المختار، والتي تنضوي تارةً تحت مراسم الفرح وأخرى تحت الحزن والرثاء.

---

(١) المصدر نفسه.

يروي لنا المؤرّخ المستوفي أخبار مواكب التشابيه في العهد الناصري، فيقول: سعى ناصر الدين شاه ـ الباحث عن كلّ وسائل الفرح والمرح ـ إلى توظيفها (التشابيه) فيما يلتقي وطموحاته، لكي تكون وسيلةً من وسائل الرخاء والبهجة؛ تحسيناً لملامح مملكته.. واقتدى به الأمراء فركّزوا على تلك الشعيرة.. حتى غلب طابع الفرح والبهجة عليها في أواخر أيامه، فكانت كلّما تقام تتجمهر عندها الناس وخصوصاً الحضور النسوي. هكذا أخذت هذه المراسم بالتطوّر فأجريت عليها بعض الإصلاحات بإشراك الأعيان والأشراف فيها، واشتمالها على بعض النماذج الخالية من طابع الحزن والمصاب، من قبيل تشابيه درّة الصدف، والأمير تيمور، والنبي يوسف عليه السلام، وحفل زفاف سليلة قريش. وقد تفتتح التشابيه ببعض المواعظ الأخلاقية، وتختتم بجانب من جوانب واقعة الطفّ حفاظاً على قليل من اللون المأساوي فيها[١].

**٥ ـ تسكين الآلام الفردية والاجتماعية**

شكّلت التراجيديا المقترنة بالانطباع الأسطوري عن عاشوراء شعاراً لواقع التشيّع في مراحل متعدّدة، وهي الصورة التي كان يرغب فيها الحكّام والسلاطين؛ لأنها تصوّر الحسين ضحيةً للظلم، فيتكبّد هو وخلّص أصحابه أشدّ ألوان العذاب دون أن يخضع ويستسلم أو يتذمّر من شيء[٢]؛ لأنه يرى في كلّ تلك المعاناة قدراً وقضاء ساقته المشيئة الربانية إليه، وأنّ تلك المشيئة هي التي ترغب في رؤية الحسين قتيلاً. ومن خلال هذا السيناريو تلقى جريرة كلّ تلك المآسي على عاتق القدر والمشيئة، وكأنّ في هذا مصير عاشوراء الأوحد الذي لا مناص منه. ويتحول الإمام الحسين ـ في السياق ذاته ـ إلى رمز من رموز الشفاعة؛ فيشفع لمحبّيه عند الخالق في يوم حشرهم[٣].

---

(١) عنايت الله شهيدي, بالتعاون مع علي بلوك باشى, بزوهشي در تعزية خواني، أر آغاز تا بايان دورة قاجار در طهران: ٢٦٢، طهران، مكتب الدراسات الثقافية بالتعاون مع اللجنة الوطنية في اليونسكو بإيران، ١٣٨٠ش/٢٠٠١م؛ وس.ج.و، بنجامين, إيران وايرانيان: ٢٨٦، ترجمة: محمد حسين كرديجة, طهران، نشر جاويدان، ١٣٦٣ش/١٩٨٤م.

(٢) شرح زندكاني من يا تاريخ اجتماعي واداري دوران قاجارية: ٢٨٨.

(٣) السيد هاشم آقاجري, عاشوراء در كذار به عصر سكولار (مجموعة مقالات): ٢٨٨.

وقد أضافت هذه النظرة المسيحية للإمام وثورته وظيفةً أخرى تتناغم مع ما يدور في الحياة من صراعات ومظالم على الصعيد الفردي والاجتماعي، فباتت بلسماً للأوجاع ومسكناً لبعض الآلام والمعاناة؛ فعلى الصعيد الفردي، تهون مصائب الشخص عندما يستمع إلى ما حلّ بالحسين وأهل بيته، لاسيما بعد المقارنة؛ ذلك أنّ الحسين ـ مع جلالة قدره وعظم منزلته ـ تعرّض لأنواع البلاء والمصاب، فصبر الصبر الجميل، فكيف بي!؟ إذاً هذا قضاء الله وقدره، ولعلّ بإمكان هذه النظرة القدرية أن تكون عاملاً أيضاً في صياغة الروح وتهذيبها، وذلك بما تتوفر لدى الفرد من أوقات الخلوة بالنفس ورثائها داخلياً مما يفرغ شحنات الكبت والعقد المتراكمة ليخلص إلى نوع من الهدوء والاستقرار والرضا عن الذات.

أما في البعد الاجتماعي فتتكرّر ـ أيضاً ـ الصورة نفسها لتهوّن المصائب مقارنةً بمصاب هؤلاء الأولياء الذين رضوا برضا الله، وبهذا يُستأصل دافع المقاومة والوقوف بوجه الظالم من أذهان الحركات والأحزاب، حفاظاً على ما هو مقدّر في كتاب المشيئة؛ فلا إرادة فوق إرادة الربّ؛ وبذلك تستبدل القناعة فيقعد القوم عن نيل المنشود، وهذا ما تعجّ به صفحات تاريخ التشيّع، لاسيما في إيران. ولعل هذه الأفكار الراديكالية كانت من البوادر الأولى لظهور فكرة عزل الدين عن السياسة، بل إنها كانت أيضاً عاملاً في انتشار بعض المذاهب والفرق الصوفية. على أننا لا نغفل ـ في السياق ذاته ـ دور هذه الأفكار في التغلّب على اليأس والقنوط لدى الأفراد[1].

(١) فرهنك سياسي شيعة وانقلاب اسلامي: ٩٩.

# بقاء النهضة الحسينية بين الشيعة

## تفسيرات سيكولوجية وسيسيولوجية وسياسية و..

د. محمد منصور نجاد(*)

ترجمة: مشتاق الحلو

### أ. المدخل

#### ١. منطلق البحث:

ألا يثير حضور الملايين من الناس، مرتدين زيّ الحداد، لاطمين وجوههم في أيّام محرم، التساؤل لدى الباحثين عن الأسباب التي أخرجت هؤلاء الناس من بيوتهم، خاصّة الشباب منهم ـ الذين لا يستجيبون بسهولةٍ لطلب الآخرين ـ إلى الطرق، بخضوع وخشوع وانسجام؟ لا يعدّ هذا السلوك الفردي والجماعي في شهر محرم أمراً عادياً، بل يستدعي الالتفات والانتباه، أحد الأسئلة التي تخالج الذهن في هذا المضمار، هو: ما السرّ وراء بقاء نهضة معيّنة ونفوذها على مرّ قرون متمادية، وبهذا الكمّ والكيف؟

ولكي نكون واضحين، فالسؤال الأساس ليس عن سرّ خلود النهضة الحسينية بوصفها إحدى نهضات مقارعة الظلم في التاريخ، فهذا السؤال يطرح على كل المسارات والأشخاص المقارعين للظلم، سواء كان عملهم على أساس ديني، كإبراهيم وموسى، أو غير ديني، ويشمل حتى الأشخاص والحركات الباطلة، كأن

(*) أستاذ جامعي، ومتخصّص في علم الاجتماع.

نسأل عن سرّ خلود أسماء مجرمين، من قبيل الاسكندر وجنكيز ويزيد.

إذن، لا يبحث هذا المقال عن سرّ الخلود بصورةٍ مطلقة، بل يسأل عن أسباب ردّة فعل الشيعة تجاه استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، حيث لم يقوموا بمثلها لأيّ شخص آخر، وحتى خير البرية صلى الله عليه وآله؛ إذ لم يألف الشيعة إقامة طقوس اليوم الثالث والسابع على وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، ناهيك عن الأربعين.

الحضور الجماهيري الواسع، التعاطف غير المألوف، الانسجام بين المعزّين، التضحية، الرثاء المستمر حتى يوم الأربعين من استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وصحبه، ذلك كلّه بعد أربعة عشر قرناً، ألا يثير التساؤل عن سرّ هذا الخلود؟[١]. ما يؤسف الباحث هو فقدان المصادر العلمية في هذا المضمار[٢]، وليس هذا المقال إلا مدخلاً للموضوع، ونترك تفصيل البحث إلى فرصةٍ أخرى، أو إلى كتّاب آخرين.

## ٢. منهج البحث:

من الواضح أن عملاً واسعاً وعميقاً للإجابة على مثل هذا السؤال الصعب،

---

(١) كنت قد فكّرت بهذا الموضوع من قَبل بشكل إجمالي، لكن في المؤتمر الأخير للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، والذي أقيم في الشهر الثالث من عام ٢٠٠٢م، حينما تناول خطيب الافتتاحية الموضوع بسطحية، من قبيل اعتباره الإخلاص والخصائص العائلية والوراثية للإمام الحسين عليه السلام سبباً لهذا الموضوع، في حين لا تصدّق هذه الأمور بالنسبة لسائر المعصومين عليهم السلام... قرّرت أن أدرس هذا الموضوع بتأنٍّ.

(٢) لم يرد في المصادر المشهورة، كالمقاتل، أبحاث تحليلية. ولم يتناول هذا الموضوع بالبحث والتنقيب في المؤلّفات المعروفة عن تاريخ إيران المعاصر، كحسين وارث آدم لعلي شريعتي، أو مقال حسين بن علي وجلال الدين رومي، من كتاب (قمار عاشقانه) لعبد الكريم سروش، وبرتوي از عظمت حسين عليه السلام [إشعاع من عظمة الحسين عليه السلام]، للطف الله الصافي، وبس از بنجاه سال بجوهش بيرامون قيام إمام حسين عليه السلام، [بعد خمسين عاماً من البحث حول نهضة الإمام الحسين عليه السلام]، لجعفر شهيدي، و.. وقد تناولت المصادر التالية فقط هذا الموضوع بشكل ناقص وغير مقنع: محمد إبراهيم آيتي، بررسي تاريخ عاشورا، [دراسة تاريخ عاشوراء]: ٤٧ ـ ١٢٨، طهران، مكتبة صدوق، ١٣٧٤ش/١٩٩٥م؛ وسجاد جوبينه، نكاه فلسفي به جريان عاشورا [نظرة فلسفية على واقعة عاشوراء]: ٥٩ ـ ٨٢، انتشارات أبرار، ١٣٧٧ش/١٩٩٨م؛ وعلي باقي نصر آبادي، مقال عوامل بايداري وجاودانكي نهضت عاشورا، [أسباب بقاء نهضة عاشوراء وخلودها]، مجلة حكومت اسلامي، العدد ٢٧: ٣٤٨ ـ ٣٧٤، ربيع ١٣٨٢ش/٢٠٠٣م.

يحتاج إلى بحوث معمّقة، وبطرق معتبرة علمياً. ويمكننا ذكر المناهج التالية من جملة مناهج البحث العلمي:

١ ـ **البحث الميداني**: والاستفادة من المقابلات والاستبيانات والاستطلاعات، ومن ثمّ تحليل المعلومات المتوافرة.

٢ ـ **البحث الاكتشافي**: ويستعان في هذا النمط من البحث بالمقدمات المشهورة والمقبولة نسبياً، ثم تطرح أفكار وفرضيات حول السؤال الأساس للبحث، وهذا هو المنهج المتبع هنا.

نذكّر بأنّ موضوع بحثنا (وهو النهضة الحسينية وآثارها)، يعتبر موضوعاً مرتبطاً باختصاصات مختلفة؛ لذا سوف نتناوله من زوايا مختلفة وبآليات اختصاصات علمية متنوّعة.

### ٣. زاوية البحث:

لم يكن هدفنا من هذا البحث المختصر توصيف طقوس العزاء والرثاء، وإن كان موضوعاً يستحقّ الدراسة، وقلّ ما تناوله الباحثون، ولسنا بصدد الحكم على التيارات التي ظهرت على هذا الصعيد، ونقدها، أو تقديم توصيات للأشكال المطلوبة منها، فقد قدّمت أعمال لا بأس بها في هذا المجال بالتحديد؛ بل هدفنا «التحليل والتعليل»، أي بيان أسباب الحضور الجماعي الغريب والمدهش للشعب الإيراني، وعلى الأقل الشيعة منهم، في طقوس العزاء الحسيني، وطرح فرضيات في هذا الصدد.

## ب. دراسة الموضوع

### ١. فرضية حبّ الفضيلة

١ـ هل نعلم، لماذا خلّد اسم سقراط في التاريخ، ويذكر بإجلال وإعظام، في حين مضى على قتله خمسة وعشرون قرناً، ولا علاقة لنا ـ نحن الإيرانيون ـ به؟ هل سألنا أنفسنا، لم لا يزال اسم «رستم» وملاحمه متلألئاً على صفحات أرواحنا، نحن الإيرانيون، ولا يمكننا نسيانه؟ و..

قد تكون الإجابة الإجمالية في إطار فرضية، تقول: إنّ بعض الفضائل تستهوي البشرية في كلّ زمان ومكان، حيث تحبّها وتحترمها، وتبعاً لذلك، تخلّد أسماء أصحابها؛ فقد قُتل سقراط في سبيل توعية الناس وتعليمهم، وأبرع رستم في الدفاع الملحمي عن هذه الأرض، وبما أنّ الصمود على الحقّ وتوعية الناس أمورٌ جميلة، والتضحية أمر مطلوب، خُلّد اسم أصحاب هذه الفضائل في التاريخ.

ألا يمكن اعتبار الفضائل التي كانت حاضرةً في كربلاء، كالمطالبة بالحق، والملحمة، والتضحية، و.. [1] سرّ بقاء النهضة الحسينية ونفوذها؟

هذه الإجابة ليست خاطئة، لكنّها غير وافية؛ إذ لا ينزل أحدٌ إلى الطرق كلّ عام من أجل أصحاب الفضائل، كسقراط[2] ورستم، بل تختصّ هذه الطقوس الشيعية بالنهضة الحسينية، فمازال سؤالنا دون جواب، على الرغم ممّا ذكرناه؛ ولذلك قلنا في بادئ الكلام: إنّ رمز الخلود بصورة مطلقة، غير رمز خلود النهضة الحسينية.

## ٢. فرضية الحاجة إلى البُعد المعنوي والقلبي

٢ـ ألا يمكننا ـ من خلال نظرة عرفانية ـ أخلاقية ـ التأمّل في أنه لو تمتع الإنسان بثلاثة أبعاد: «الجسم والعقل والقلب»، واحتاج كل منهم إلى تغذية خاصة به، وكان «القلب» الأهمّ من بين البعدين الآخرين، لكان غذاؤه أهمّ من غذائهما؛ فإذا كان الأمر كذلك، فجميع الناس وراء تلبية هذه الحاجة؛ لذلك، تخفق القلوب لنداء أولياء الله، وحتى أنبياء الديانات غير التوحيدية، فمنذ آلاف السنين يغذي نداء «بوذا»

---

(١) قالوا: «تعرف الأشياء بأضدادها». فإذا كانت الفضائل حاضرةً بقوة في كربلاء، في إحدى الجبهتين، كانت الرذائل حاضرة بمختلف أنواعها في الجبهة الأخرى، وهذا ما ساعد على معرفة الفضائل وأصحابها، وزرع حسّ المظلومية في الجانب المقابل، وهو ما يحزن القلب ويضاعف من تأثير هذه الواقعة. حيث ما استطاع أيّ مؤرخ درس هذه الفترة أن يتجاوز ذكر الحسين عليه السلام وأنصاره، لهذا دوّنت النهضة الحسينية وضبطت.

(٢) للتعرف على سقراط، راجع ـ على الأقل ـ المصادر التالية: برن جان، سقراط، ترجمه للفارسية: أبو القاسم بور حسيني، طهران، شركة نشر علمي وفرهنكي، ط٢، ١٣٧٤ش/١٩٩٥م؛ ورنر شارل، حكمت يونان: ٤٢ ـ ٧٣، ترجمه للفارسية: بزرك نادر زاد، طهران، شركة نشر علمي وفرهنكي، ط٢، ١٣٧٣ش/١٩٩٤م..

و«كونفوشيوس» ملايين الناس، فما بالك بنداء أولئك المرتبطين بالسماء؟! إذاً، ينبغي البحث عن سرّ بقاء الديانات بين البشرية في هذه الحاجة الإنسانية المتأصّلة؛ فإن صحّ ذلك، ألا يجوز تحليل النهضة الحسينية على هذا الأساس؟ أي إنّ هذه الواقعة تمتلك أصناف الأطعمة الشهيّة لقلوب البشرية، وهل هناك طعامٌ للقلب أفضل من العشق؟ فحتى العشق الأرضي من قبيل قصة «مجنون ليلى» لن ينمحي من ذاكرة الناس؛ فجدير بنا البحث عن سرّ خلود النهضة الحسينية في هذه الحاجة الفطرية الباطنية والقلبية للبشرية في التغذية المعنوية؛ فالحسين عليه السلام خير من يروي هذا الظمأ.

من الصواب الالتفات إلى هذا العامل في مطالعة النهضة الحسينية، لكنّه - كسابقه - ليس جامعاً؛ لأنّ الغذاء الروحي والقلبي ليس حكراً على مائدة الحسين عليه السلام، وإن لم يحظ الآخرون بالقدر عينه من الاهتمام والحبّ.

العجيب في الأمر، أنّ الناس يعرفون أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وحتى غير الهاشميين منهم، كالحرّ بن يزيد الرياحي، أكثر من معرفتهم ببعض المعصومين، ويتأثرون بابن الستّة أشهر، وابن الثلاثة أعوام، أكثر من تأثرهم بالأنبياء. إذاً يجب البحث عن هذا السرّ في أمر آخر؛ فلنلتفت إلى العوامل الأرضية والبشرية وحتى غير الروحية في أسباب خلود هذه النهضة.

### ٣. الفرضية السيسيولوجية في تفسير التفاعل مع النهضة الحسينية

٣ـ ألا يمكن تحليل أسرار خلود نهضة عاشوراء من زاوية «علم الاجتماع»؟ يبدو أنّ من الممكن، التوصل إلى بعض النتائج في هذا المضمار:

١ـ ٣ـ ليس لاعبو هذه القضية أشخاصاً محدّدين، بل هو عمل جماعي منسجم، منظّم، وهادف، وإذا كان العمل الروحي المبني على التضحية، والمؤثر، والفاضل، و.. جماعياً، أصبح أكثر خلوداً من العمل الفردي. ميّز هذا النمط من الشهادة الإمامَ الحسين عليه السلام عن سائر المعصومين؛ ولذلك أصبحت شخصيته أكثر نفوذاً.

٢ـ ٣ـ من الناحية السوسيولوجية، يجب أن نلتفت إلى أنّ اصطحاب الأهل

والعيال، يساعد كثيراً على حفظ جزئيات الحادثة واستمرارها، ونقل تفاصيلها فيما بعد؛ فالوفاء يكون في درجة عالية داخل العائلة، وأعضاؤها أقرب الناس من بعضهم، وأحقّ بنقل دروس هذه النهضة، وأكثر تأثيراً؛ لهذا دوّنت واقعة عاشوراء بتفاصيلها الدقيقة، ونقلت للطالبين، وخلّدت في العقول والأذهان.

٣ـ ٣ـ ظهرت واقعة كربلاء في إطار نهضة متحرّكة، ساهمت في مسارات اجتماعية مختلفة، دعمت بعضها، وأزالت أخرى، كتشتت أنصار مسلم بن عقيل، وقد تناول المؤرخون مصير كلّ واحدة من هذه الحركات الاجتماعية بحدّ ذاته، ووثّقوه ونقلوه للأجيال القادمة.

٤ـ ٣ـ أبدت مؤسّسة «رجال الدين» اهتماماً منقطع النظير بهذه الواقعة، وروّجت لها؛ حيث ينفرد الإمام الحسين عليه السلام من بين الأئمة في مدى الاهتمام الذي تبديه الحوزة العلمية بمناسبة استشهاده، حيث تعطّل دروسها لأكثر من عشرة أيام في ذكرى استشهاده، دون سائر الأئمة؛ لهذا، لا يمكننا من الناحية السوسيولوجية أن نغفل تأثير هذا العامل على الرأي العام؛ خاصة وأنّ المجالس الحسينية ليست حكراً على رجال الدين، فقد تناولها أصحاب الفنّ في أطر مختلفة، كالشعر، والنعي، والمراثي، والمسرح و.. بلُغات التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والمجاز و.. حتى مارسوا في بعض الأحيان التحريف اللفظي والمعنوي لها، لكنّ التحريف أيضاً لعب دوراً إيجابياً في ترسيخ أبعاد هذه النهضة[1].

٥ـ ٣ـ من ناحية أخرى، نحن بحاجة إلى دراسة سوسيولوجية لنفس الحضور العام للناس؛ لأنّ هذا الحضور بدوره يثير الأسئلة: كيف تظهر هذه الحركات الجماعية المنظمة والمكملة لبعضها، في أيام محددة، وبين جموع غفيرة من الناس؟ يمكننا إرجاع هذا الاجتماع العظيم للتقاليد الدينية. لكنّ السؤال هو: كيف خلق

---

(١) وقف بعض العلماء في وجه هذه التحريفات، من أشهرهم الشيخ حسين بن محمد تقي النوري من خلال كتاب لؤلؤ ومرجان، طهران، أمير كبير، والطبعة الأخرى بإعداد مصطفى داريني، قم، انتشارات الأستاذ أحمد مطهري، ومنهم الشيخ مطهري في كتاب تحريفات عاشورا، لكن في المقال الحاضر لا نبحث عن صحّة أو سقم هذه الأعمال وهذا الحضور الشعبي العام، بل نلاحظ هذا الحضور في مجموعه بغض النظر عن صحّته وسقمه، ونبحث عن أسبابه، أمّا البحث عن الحُسن والقبح فمتروك إلى مقام التقييم.

هذا التقليد العجيب والمنقطع النظير؟ كيف وجدت هذه الهوية الدينية الجماعية، ولماذا؟ أي شيء يؤدي إلى فعل جماعي كلّ عام؟

من الممكن إرجاع هذه الحركات للعادات، والقول: إنّ الفرد في الثقافة الشيعية، يستأنس منذ الصغر بالمراسيم الحسينية؛ إذ يصطحبه أهله في هذه المجالس، ويلبسوه السواد، ويعطوه الرايات السود، وحين يكبر يشارك في هذه المراسم من تلقاء نفسه؛ لهذا، تصبح هذه الطقوس عادة لا يمكنه التخلّي عنها، وتجرّه إليها من حيث لا يشعر، وتضطرّه للالتزام بها.

لكن مازال يمكننا التعمّق في التحليل، ودراسة أسباب هذه العادات والتقاليد بشكل أدق؛ فعلى سبيل المثال، يمكن دراسة أسباب انجرار الإنسان للأعمال الجماعية من خلال الأبحاث العميقة الفلسفية والاجتماعية؛ إذ في ضوئها يكون الإنسان مدنيّاً بالطبع، وحتى لو كان متوحشاً بالطبع، لكنّه مدني بالعقل، ويحتاج إلى الجماعة والمجتمع على أساس الضرورات العقلية، وحين يختار الاقتراب من جماعة، يجد المنسجمين معه أنسب لهذا الأمر، واقعة كربلاء من عوامل توحيد الشيعة، الذين يحسّون بالقرب والانسجام في إطار الثقافة الشيعية؛ لهذا تبرز نشاطات جماعية كمراسم أيام عاشوراء، كما أنّ هذه الواقعة تجذب الناس للمشاركة بسهولة، لأنّها جبلت بالرموز، والأساطير، والمعجزات، والكرامات و.. عبر القرون؛ لذلك أصبحت أكثر استمراراً وجاذبية.

٦ـ ٣ـ يجب الالتفات إلى أنّ الخصوصيّة تتشكّل قبال الخصوصيّة المخالفة، فطقوس العزاء من العلامات والرموز والمظاهر التي تميّز الثقافة الشيعية مقابل سائر الثقافات، ولا سيما ثقافة أهل السنّة، حيث كانت الثقافة الحاكمة في العالم الإسلامي في القرون الأولى، وكان الشيعة أقلّية بالنسبة إليهم، وكان هذا الجمع المحدود والمحجور عليه، بحاجة إلى الاقتراب من بعضه، والامتياز بهويّة خاصة دون الآخرين، وطرح مفاخره الثقافية؛ وقد ولّدت هذه الحاجة لبناء الخصوصية الشيعية، الدافعَ والوازع الكافيَين للاجتماع في أيام خاصة من كل عام، وإعلان الوجود بطرق مختلفة، وكانت جذوة الثورة الحسينية، أنسب من سائر الموضوعات للوحدة والمقاومة.

يبدو أنّ بإمكاننا دراسة واقعة كربلاء بوصفها ظاهرةً اجتماعية من خلال الأدبيات السوسيولوجية، وكشف الجوانب الخفية منها، لكنّ هذه النظرة لا تنسجم، على الرغم من محاسنها، مع الأبعاد الروحية للنهضة؛ لذا ينبغي دراسة أسرار خلود هذه النهضة من زوايا أخرى.

## ٤ . الفرضية السيكولوجية في تفسير استمرارية النهضة الحسينية

٤ـ ألا يمكن أخذ العوامل السيكولوجية في دراسة عناصر تأثير النهضة الحسينية على الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والفقير والغني و..؟ أليس لهذا الحضور الجماهيري دوافع نفسية، إضافة للأبعاد المعنوية؟ فعلى سبيل المثال، هل هناك مراسم، أو اجتماع، أو تظاهرة، أو.. يتمكّن الفرد فيها من إظهار نفسه إلى هذا الحد، وعرض إمكاناته، والحظوة برضا الآخرين وقبولهم له؟

تنفرد طقوس عاشوراء بهذه الصفة، حيث يستطيع من يتمتّع بقوة بدنية، رفع الرايات الثقيلة، والمباهاة بقوّته؛ ومن له صوتٌ حسن، نعيَ الحسين عليه السلام، والفخر بصوته؛ ومن كان متمكّناً، بَذْلَ مالَه، للحصول على وجاهة اجتماعية، وإذا كان ضعيفاً، يأكل الطعام ويلطم على صدره؛ وإذا كان شقياً، يضرب رأسه بالسيف؛ وإذا كان رقيق القلب يذرف الدموع؛ وإن لم يرغب أو يتمكّن من المساهمة الفعّالة، وقف متفرجاً، وكسب أجراً أخروياً ومتعةً دنيوية. وإذا كانت امرأةً، خرجت إلى الطرق بدل الانزواء في البيت، واختلطت بالمجتمع، دون أن يعترض عليها أحد، وإذا كان الفرد يتمتع باستعداد إداري، فإنّه يدير المواكب و..

بعبارة أخرى، من زاوية سيكولوجية، بما أنّ الجميع يستطيع المساهمة في هذه الطقوس بشكل مؤثر، وإثبات حضوره، فلدى الجميع دافع قوي للخروج والحضور إلى جانب الآخرين، دون إجبار أو إكراه.

يمكن أن يكون لحضور الناس مبرّر سيكولوجي آخر؛ فقد قلنا: إنّ رسالة عاشوراء روحية ومجبولة بالفضائل، لكنّ ما يميزها عن سائر الطقوس، أنّها منعت في بعض الفترات التاريخية منذ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وطوال العهدين الأموي والعباسي، فقد تعرّض قبر الإمام عليه السلام للغرق بيد أمثال المتوكّل العباسي،

وواجه زوّاره شتّى أنواع الإيذاء، وحتى القتل. وفي العصر الحاضر أيضاً، سعى أمثال الشاه الإيراني رضا بهلوي لمنع طقوس عاشوراء، بينما تزيد رغبة الإنسان بالممنوع من الناحية النفسية، وكما يقول المثل: «الإنسان حريص على ما مُنع»؛ فحين سعت الحكومات لمنع التعازي، حرص الناس على تقويتها وإقامتها في الخفاء، إن لم يتمكّنوا من إعلانها؛ من هذه الناحية، يغدو الدافع لإقامة الطقوس الحسينية فردياً ونفسياً، وحتى لو كانت هذه الحاجة روحية، لكنّها ليست سماوية وأخروية بالضرورة؛ لهذا، فحتى لو كان الناس ـ كما يصفهم الحسين عليه السلام ـ: «عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم»، لكنّهم يشاركون في هذه الحركات الجماعية، تلبيةً لحاجاتهم الفردية والنفسية، ويحصلون من خلالها على نتائج لا تتوفر من طرق أخرى؛ فهنا يتلقون الدعم والحماية والاهتمام والتشجيع، بخلاف سائر المجالات.

لا يفسّر هذا العامل أيضاً، على أقلّ تقدير، دافع الذين يشاركون بحماس شديد، وعشق، وشغف، واندفاع كبير؛ لهذا ينبغي البحث عن عوامل أخرى إضافيّة.

## ٥ . الفرضية السياسية في تفسير الاستمرارية

٥ـ ما هو دور الحكّام ورجال الدولة، من الناحية السياسية، في استمرار النهضة الحسينية ونفوذها؟

مما لا شكّ فيه، أنّ في إيران على أقلّ تقدير، لعب تأسيس الدولة الصفوية، وإعلان المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في البلاد، دوراً مهماً في تثبيت الطقوس والتقاليد الشيعية ونشرها، ومنها طقوس عاشوراء، وقد ساهمت السلسلة القاجارية أيضاً في إرساء الشعائر الشيعية. لكن كما أشرنا، إذا كان المنع الحكومي ينتهي بنتيجة معكوسة، فكذلك تصدّي الحكومات لترويج نهضة عاشوراء، يقلّل من عمقها، وقد تسبّب ردة فعل عكسية من قبل الناس في بعض الأحيان، وإذا أردنا ربط انتشار هذه الطقوس بصورة كاملة بالحكّام الصفويين، فمن المفروض أن تنقرض بانقراضهم، بينما الواقع ينبئ عن خلاف ذلك.

لعلّه بالإمكان اعتبار المشاركة في هذه الطقوس وإدارتها من قبل المؤسّسات المدنية الثقافية، وأفراد لا ينتمون إلى الدولة، من عوامل استمرارها وشدّ الناس إليها؛

فشدة الحماس لدى الناس، تأتي من التفاعل الجماهيري، لا الارتباط بالحكومات؛ فإذا لعبت العوامل السياسية دوراً في تفعيل هذه المشاركة، فما كان ذلك إلا مقطعياً، ولم يدم ولم يساهم بالضرورة في تعميق هذه الطقوس وشدّة إقبال الناس عليها، ولعله أثار في بعض الأحيان ردود فعل لدى الجماهير.

ويمكننا دراسة الخلفيات السياسية لاستمرار النهضة الحسينية في إطار أضيق، أي في أبعاد مقارعة الظلم والاستبداد، والمطالبة بالعدالة، واعتبار سلاطين العصر غير شرعيين، كان هذا الجانب السياسي في الثورة الحسينية فرصةً ثمينة لمن يريد مقارعة سلاطين عصره، ليبرّر موقفه بالاستناد إلى نهضة عاشوراء، ويثير الحماس لدى الثوريين، ويدفعهم للنضال والمقاومة، ويخلق كربلاء جديدة بالاستفادة من تمام أجزاء تلك الواقعة، وإحياء ذكراها.

## ٦. فرضية الإعجاب النخبوي بالثورة الحسينية

٦ـ العامل الآخر هو إعجاب كثير من النخب الفكرية، والسياسية، وحتى غير المسلمة منها، بشخصيّة الإمام الحسين عليه السلام ونهضته؛ فلماذا يتكلّم أمثال «غاندي»، في القرن العشرين، عن الحسين عليه السلام ويبدي اهتماماً بها؟

للإجابة على هذا السؤال، يمكننا القول:

**أولاً:** احتكّ أمثال هؤلاء المفكّرين والمصلحين بالشيعة وثقافتهم، نظراً لموقعهم الجغرافي أو تعاملهم الثقافي، ورأوا عن كثب حركاتهم الحماسية الجماعية بطابع قدسي حزين؛ لذلك تساءلوا عن الحسين عليه السلام، وكيف يثير هذا الشوق والحزن لدى الناس.

**ثانياً:** للنهضة الحسينية دلالات عميقة في أبعاد مختلفة؛ إذ تدعو ـ في البُعد الأخلاقي ـ للعزة المقرونة بالروحانية، وفي البعد السياسي والاجتماعي تحمل رسالة المقاومة والملحمية؛ لذلك، ينهل كلّ مصلح يريد معالجة آلام مجتمعه، من هذا البحر العذب، على قدر قابليته، وحسب حاجته والخلأ الذي يريد ملأه؛ فيتأثر بها ويتحدث عنها؛ إذ لا تزال آثارها الإيجابية باقيةً بين غير الشيعة، وحتى غير المسلمين.

## ج. تلخيص واستنتاج، التفسيرالشمولي

يمكننا دراسة العزاء الحسيني بشكل إجمالي من زاويتين على الأقل:

**الأولى:** تأثير هذه الطقوس على أخلاق الناس وثقافتهم، وفي هذه الحالة، يجب اعتبارها «متغيّراً مستقلاً» في البحث، وهو العمل الذي قمت به في كتاب (تأثير عزت وافتخار حسيني بر نهضت وانقلاب اسلامي).

**الثانية:** تأثّر الطقوس بسائر العوامل، وفي هذه الحالة، يدرس الحضور الجماهيري للناس بصفته «متغيّراً تابعاً» في البحث، وهو العمل الذي قمت به في هذا البحث، نظراً للسؤال الذي انطلقت منه، وهو: ما هي أسرار بقاء النهضة الحسينية ورواجها، خلال قرون متمادية؟

لا بأس بسرد نتيجة البحث من خلال مثال، وهو أنّه لو رأينا ناراً مشتعلةً في مكان ما، يمكننا النظر إلى هذا الحدث من زاويتين، الأولى: من أين أتت هذه النار؟ وما هي قوة اشتعالها؟ الثانية: كم كانت البيئة مساعدةً على اشتعالها؟ لأنّ شعلة الكبريت تنطفئ على التراب أو الصخر، ولا تكون مفيدةً أو مضرّة إلا في ظروف محدّدة.

فبالنسبة للهيب عاشوراء الذي ألهب نفوس الشيعة ـ على الأقل ـ وتزداد جذوته يوماً بعد يوم، يمكننا السؤال عن دور الإمام وأصحابه، أو الشعلة نفسها في هذا الاشتعال، ومدى تأثير الأرضية والبيئة في ذلك.

فمن ناحية الشعلة نفسها، يمكننا القول: ١ـ إنّ نار كربلاء كانت متأثرةً بالسيف والدم، وتلهب النفس أكثر من الموت العادي، أو القتل دون إراقة دم. ٢ـ هذه الشعلة جماعية، وإيقاعها أشدّ على النفوس من الفردية. ٣ـ ضمّت طيفاً واسعاً، من الشيخ الكبير إلى الطفل الصغير؛ ولذلك تشدّ الأصناف كافّة إليها. ٤ـ لاعبوها الأساسيون من سلالة الوحي، وبطلها إمامٌ معصوم. ٥ـ احتضنها أفراد، كانوا حاضرين وشاهدين على مجرياتها، وقدّموها بأحسن حلّة. ٦ـ كان هذا القتل قريناً للروحانية والطهارة والقداسة، ومحفوفاً بالفضائل البشرية، كالعزة والوفاء والعشق و.. والتي تعني الكثير للمتديّنين، وحتى بالنسبة لغيرهم. ٧ـ يجب أن لا نغفل في الختام، دور رذالة جيش عمر بن سعد ودناءتهم، في تمييز هذه النهضة عن غيرها؛ فقد ساعدوا على توقّد جذوة طلب الحق والعزة والإحساس بالمظلومية.

وأمّا بالنسبة للعوامل الخارجية والخلفيات التي ساهمت في بقاء هذه النهضة

وتعمّق جذورها، فيمكننا عدّ الموارد التالية:

١ـ الحاجة الفطرية لدى البشر للروحانية والفضيلة والملحمية والتعاليم الإيجابية؛ إذ تتمتع النهضة الحسينية بغذاء روحي سالم، لجميع الطالبين والمحبّين.

٢ـ لعب منع السلطات ومحاربتها لهذه الطقوس، دوراً في إثارة حساسية الناس تجاهها، كما ساهم بعض رجال الدولة في انتشارها.

٣ـ من ناحية سيكولوجية، يستطيع مختلف الأشخاص المساهمة بشكل فعّال في هذه الطقوس، والظهور فيها، ولذلك تكون المساهمة فيها شيّقةً للجميع.

٤ـ بَحْث الجماعات عن هوية تميّزهم عن الآخرين، وحاجتهم إلى ما يشدّهم إلى بعضهم في الحياة الاجتماعية، من دواعي النشاطات الجماعية الدينية، التي تحققت في هذه النهضة أيضاً؛ حيث كان الشيعة يبحثون عن هوية لهم مقابل سائر المذاهب، وما يجمعهم مع بعض. بعبارة أخرى: لاتساع طقوس عاشوراء وتحوّلها إلى عادات جماعية، جذورٌ في نفوس أفراد المجتمع نفسه.

٥ـ لا ينبغي الغفلة عن دور المؤسّسات المدنية والأعمال التعبوية والتعاطف الجماهيري في تعميق هذه النهضة؛ لأنّ النشاطات الشعبية العامة تتمتع بقوّة أكبر لجذب الناس إليها، مقارنةً بما تقوم به الدول والحكومات.

٦ـ لعب الفنّ دوراً مهماً في تركيز هذه النهضة واستمرارها، في قوالب مختلفة من قبيل: الخطابة، الشعر، النعي، التمثيل، الرسم و..

٧ـ ساعد تمتع هذه النهضة بأبعاد مختلفة، على إيصال رسالتها لكلّ من احتكّ بالشيعة، وإن لم يكن منهم، بحيث انتشرت خارج نطاق الشيعة أيضاً.

٨ـ استئناس عامّة الناس بالأساطير والحوادث الرمزية، ضاعف من قداسة هذه الواقعة وتأثيرها، ولا تجوز الغفلة عن خصائص الإمام الحسين عليه السلام نفسه في إضفاء القداسة على هذه النهضة.

ونذكّر في الختام، بأنّ هدفنا في هذا البحث القصير، كان «اكتشاف» الإجابة على السؤال التالي: لماذا بقيت نهضة الإمام الحسين عليه السلام حيّةً ومؤثرة إلى هذه الدرجة؟ حيث طرحنا فرضيات من زوايا عديدة، وناقشناها، وهيأنا مدخلاً لدراسة أساسية معمّقة في هذا المجال، آملين الرضا والقبول.

# عاشوراء في العصر العلماني
## من التناقض المفاهيمي إلى التناغم في القيم والحاجات

د. مجيد محمدي(*)
ترجمة: مشتاق الحلو

### ١. أهمية تقاليد عاشوراء في عالمنا المعاصر

١ـ ١ـ يهتمّ عالمنا المعاصر بتقاليد عاشوراء من عدّة جهات:

أ ـ بغض النظر عمّا نستحسن أو نستقبح، وما هو لائق وغير لائق من هذه التقاليد، فهي حاضرة بقوة لدى عامّة الناس في طقوسهم، وإن تأثرت بتقلّبات الظروف ومرور الزمن، لكن على الرغم من الصور المختلفة التي تمتّعت بها، حافظت على جوهرها، وهو الحزن على مصيبة محدّدة.

ب ـ تتمتّع هذه التقاليد بالقدرة على تعبئة الناس وتجنيدهم؛ إذ تجرّ طقوس عاشوراء الناس إلى سلوك معين، كتأدية النذور، والاجتماع في أماكن محدّدة، وقراءة المراثي، وأداء الحركات الموزونة و.. ومن شأن هذا السلوك دعم الحركات الاجتماعية والانتفاضات السياسية، كالثورات[١]، كما لعبت هذه الثورة دوراً دعائياً للتشيّع، وساعدت على تركيز هويّته[٢].

ج ـ اعتبر الكثيرون حركة عاشوراء عاملاً لأدلجة الدين، وبتفسيرهم انطلاق الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء مشروعاً للاستيلاء على السلطة[٣]، سعوا في

---

(*) باحث وأستاذ جامعي ناشط.

(١) يطرح كتاب الحسين عليه السلام وارث آدم، لعلي شريعتي (طهران، ١٣٦١ش/١٩٨٢م)، وجهاً محرّكاً ومتغيراً للإمام الحسين عليه السلام.

(٢) مرتضى مطهري، حماسه حسيني (الملحمة الحسينية)، قم، صدرا، ١٣٦١ش/١٩٨٢م، فصل «عامل التبليغ والتبشير في ثورة الحسين عليه السلام».

(٣) راجع حول هذا الموضوع كتاب شهيد جاويد (الشهيد الخالد)، لنعمة الله صالحي نجف آبادي،

اتجاه علمنة الدين.

د - مازالت العناصر الثلاثة المؤلّفة للنهضة الحسينية حاضرةً في الثورات جميعها، وهي: نداء الحرية، ملحمة الصبر والمقاومة، والحزن على المصاب.

لقد حرّكت هذه العناصر الثلاثة الشعوبَ على مدى التاريخ، فنداء هذه الثورة هو أنّ النفعية لا يمكنها أن تصبح مبرّراً للبقاء، وحفظ النفس تحت أي ظرف كان، وتقوم هذه الملحمة عملياً على عامل الإرادة واختيار جانب الحق، ولعلّ سُبل القيام بها أهمّ من هدفها وغايتها، ويرجع الحزن فيها إلى المحبّة، وتهتم بجانب الرقي الروحي للإنسان، وإكرامه بدل امتهانه والاستخفاف به.

٢- ١- من الواضح أنّ مطالعة نهضة عاشوراء بوصفها ثورةً للاستيلاء على السلطة، لا تتمّ إلا من خلال التصور القائل بأنّ الدين - إضافة إلى ارتباطه بالربّ والمقدس - يحوي مشاريع اجتماعية، وكذلك يجب التدخل لاجتثاث جميع أشكال الذنوب والفساد من خلال مجاري السلطة والقوة في المجتمع، أو من خلال اعتبار حركة الإمام هذه أمراً شخصياًخاصاً به وخارجاً عن نطاق إمامته. لكنّنا إذا فسّرنا علاقة الدين بالسلطة، أو الدين بالسياسة بشكل آخر، واعتبرنا الدين أمراً فردياً يختصّ برسم علاقة الفرد بربه وآخرته، فعلينا تقديم تفسير آخر لنهضة عاشوراء.

ما يطرح في الآونة الأخيرة حول عاشوراء يمتاز في غالبه بصبغة أيديولوجية وسياسية، فغالباً ما تطرح أبعاد رفض الظلم وسلب الشرعية عن النظام الحاكم، لكن لعاشوراء أن ترتبط بعالمنا العلماني والدنيوي، وتشكّل هذه العلاقة جسراً بين تلك الحادثة والإنسان المعاصر، فكما أنّ عاشوراء حقيقة تاريخية، كذلك علمانية العالم المعاصر حقيقة واقعية.

٣- ١- ولا تتعارض عالمية الثقافة والاتصال في عالمنا المعاصر مع تنوع الثقافات والأديان كما يقال في الغالب، فنحن مرغمون على النظر إلى أنفسنا في إطار دولي، وطرح ما لدينا خارج نطاق جماعة أو عرق أو بلد محدّد، كما علينا القبول بقواعد محدّدة للاتصال بالآخرين، منها أن لا أحد يمتلك الحقيقة، أو أنّ التفاهم بين الأفراد والجماعات والملل والنحل لا يتحقق من خلال القبول بأصل التفاهم فحسب،

---

طهران، رسا، ١٣٦١ش/١٩٨٢م.ومتغيراً للإمام الحسين عليه السلام.

بل من خلال الحوار، أو أنّ الثقافات والديانات لا يمكنها أن تغمض عينها عن الحقائق الواقعية؛ لذلك لا تتمكّن ثقافة التشيع اليوم أن تكتفي ببقعتها الجغرافية، أو أن تعيش التفكير داخل أطر الثقافة الإيرانية ـ الإسلامية فقط، بل ينبغي دراسة تمام أبعاد الثقافة الشيعية، كالفقه والكلام أو تاريخهما، في إطار أوسع.

لقد تركّز جلّ اهتمام تقاليد عاشوراء، كسائر أبعاد الثقافة الشيعية، على الداخل، أي بدل أن يكون عاملاً لطرح التشيّع خارج دائرته الخاصة، قام بخلق الوحدة والتماسك بين أتباعه، وقد سبّب الكلام عن تقاليد عاشوراء في إطار الثقافة العالمية، بزوغ مرحلة من الانفتاح في ثقافة الشيعة المنغلقة.

٤ـ ١ـ العناصر الأساسية المؤلّفة للثقافة العالمية اليوم، هي: المعرفة، الفردانيّة، والحرية، وهذه العناصر الثلاثة التي أصبحت أهداف البشرية، ويبحث عنها في مختلف الحقول المعرفية، كانت ـ تأريخياً ـ متداولةً في أغلب الثقافات، لكنّها برزت واتضحت في الثقافة العالمية المعاصرة، إنّنا نلاحظ وجود ثلاث أساطير للآلام المتعالية والموت العظيم في التاريخ، ونرغب هنا بمطالعتها ومقارنتها مع بعض.

## ٢. الآلام الأبدية المتعالية

### ١. ٢. آلام سقراط والهمّ الأخلاقي

ينشأ الألم الأبدي السقراطي من علم الإنسان بجهله، فهو لا يرى الحقيقة كنزاً ثميناً يمتلكه أفراد معيّنون، ويحتفظون به في مكان محدد، بل تتجلّى الحقيقة عنده من خلال محادثاتنا، كما أنّ المحادثة والحوار لا ينتهيان بالضرورة إلى نتائج قطعية، بل هما سبيلٌ للبحث عن الحقيقة. لقد كان سقراط يستغلّ أي فرصة للحوار مع أبناء بلدته؛ يبدأ بالبديهيات والمشهورات، ويصل في الختام إلى التناقض بين الأجوبة المختلفة، كي يبيّن أنّ الناس المغرورين بعلمهم في جهل مركّب، فينتهي بهم إلى حيث يقولون: «أظنّ من الأفضل لي البقاء صامتاً؛ لأنّي لا أعلم شيئاً»[1].

---

(١) ما بعد الطبيعة، مو ١٠٧٨.

إذا أقبل سقراط عامداً على التعاريف، فلأنه يريد تشييد أساس رصين للوقوف عليه في مجابهة نظريات السوفسطائيين المتلاطمة، ولا ينتهي من صعوبة الحصول على الحقيقة، أو خفاء الطرق المؤدية إليها، إلى إلغاء الأفق الذي يمكن فيه البحث عن الحقيقة، لا الحصول عليها.

وتتمتع عامة أبحاث سقراط المعرفية بصبغة أخلاقية؛ فهو يبحث عن علاقة المعرفة بالفضيلة؛ إذ يعتقد بضرورة معرفة الإنسان ماهية الحياة الحسنة، للقيام بالأعمال الحسنة، فلا أحد يرتكب الأعمال السيئة عالماً عامداً، ولا يأتي الشرّ لأنه شر. يقول أرسطو: «شغل سقراط نفسه بالفضائل الأخلاقية، وهو أوّل من طرح تعاريف كلّية لها»[1]؛ لذلك كان الهمّ الأول لسقراط همّ الأخلاق.

واليوم، تشكّل المصائب التي حلّت بسقراط في سبيل المعرفة، إحدى أساطير الثقافة العالمية؛ لأنّ البشر - بعد طول تجارب في جميع الحقول العلمية: الإنسانية والفلسفية والدقيقة - انتهوا إلى أنّ منهجه كان الأنجع والأنفع، ويتمتع سقراط بأربع ميزات أخرى تشكّل في مجموعها صبغته الأساطيرية في عالمنا المعاصر:

**الميزة الأولى:** كان عمله تحريك أذهان الناس، والتوصية بكتمان الأسئلة، والإذعان في مجال المعرفة.

**الميزة الثانية:** ركّز على الإنسان وطاقاته، بدل التركيز على الطبيعة والأشياء لاكتساب المعرفة.

**الميزة الثالثة:** أجبر - إثر اتهامه بعدم عبادة آلهة المدينة وإفساد عقول الشباب - على شرب السمّ.

**الميزة الرابعة:** كان متديّناً على الرغم من تأكيده على جهل البشر وطلب المعرفة، فكان يقدّم القرابين للآلهة، ويسعى لمعرفة ما هو التديّن، وما هو عدمه؟ كان يعتقد بوجود رموز الآلهة وإشاراتهم وسبل هدايتها في إطار الموجودات الخيالية، ولا يرى العقل وافياً لوحده بالمقصود.

يدفع سقراط ثمن العلم مقابل الجهل عالماً بنتائج عمله، ويعتقد بأنّ الموت إذا كان نوماً لا يوقظه أحد، فذلك مكسب[2]، وإن كان انتقالاً لعالم آخر، ومعاشرة

---

(١) المصدر نفسه: ب ١٩٠٠.

(٢) المصدر نفسه.

للسلف الصالح، فحفيّ بالإنسان أن يستعدّ له مراراً[١]، يعتبر سقراط الخلاص من هذا العالم شكلاً من أشكال الحرية: «تقول التعاليم الدينية بأنّنا في سجن ولا يحقّ لأحد فتح باب السجن والهروب منه.. ذلك صحيح، فليس للإنسان قتل نفسه، بل عليه انتظار سبب يوفّره الله له، كالسبب الذي توفّر لي اليوم»[٢].

كما يعتقد سقراط بأن الثمن الذي عليه دفعه مقابل التزامه بمعتقداته، والمصائب التي تحمّلها من أجل ذلك، ليس شيئاً مقابلَ الفوائد التي اكتسبها. «تذهب الروح بعد التحرّر من أسر البدن، إلى مكان طاهر سماوي غير مرئي، المكان الذي - إذا أراد الله - سوف تذهب روحي قريباً إليه»[٣].

ويَدَع سقراط باب محاسبة الربح والخسارة مفتوحاً لما يتّصف به من تواضع علمي، ويقول في آخر حديث له: «حان الأوان لأسرع في استقبال الموت، وأنتم اذهبوا وراء حياتكم، لكن أيّنا يسلك طريقاً أفضل؟ لا يعلم ذلك إلا الله»[٤]؛ إذاً لا يذهب سقراط لاحتمال الألم والموت، بل يواجههما.

## ٢.٢. آلام المسيح ومحنة العشق

الألم الأبدي الآخر الذي تحوّل إلى أسطورة في عصرنا، هو الألم العيسوي؛ فقد كان المسيح عليه السلام عاشقاً لله، وذاك هو سبب محنته، فهو أكثر ظاهرة مثيرة للشفقة والحزن في عالم الحب؛ إذ ليس العشق - أساساً - فكرة ولا إرادة، بل طلب وتمني، والعشق إحساس وانجذاب، فكما يبعث الأمل، قد يؤدي إلى اليأس الأبدي؛ فهو وإن حدث في هذا العالم المادي، لكنّه خارج عن قواعده.

عشق المسيح عليه السلام الروحي مثيرٌ للشفقة، فهو عاشق لله، ومشفق على البشر، وهو الذي أدرك مسكنته، وتقلّب أحواله، ودونيته، فانتبه إلى الآخرين، لهذا عَشِقه النصارى، رداً على شفقته عليهم، نعم، يأتي الإيمان بالله لدى النصارى بعد عشقه، والعشق في المسيحية منشأ جميع الفضائل البشرية، وإذا التفت الإنسان المعاصر

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

إلى المسيح، أو كان المسيح جديراً بالاهتمام عنده، فلأنّه يمكننا البحث عن سرّ التألم فيه، وهذا سرٌّ معقّد، لا يمكن للإنسان التوصّل إليه عنوةً، حيث ينشأ هذا السرّ من كون طاقات الإنسان محدودة، وإن أمكنته إحاطة الأمور بالعلم والأمل، لكنّ إنسان اليوم يريد الفرار من الرؤى الجزمية، إذ لا يريد القبول بأننا إما نعتقد بكلّ شيء، أو لا نعتقد بأيّ شيء.

كلّما تحدّث مسيحيٌّ عن عيسى أو المسيح الموعود، ذكر ذاك الألم: «على ابن آدم تحمّل آلام كثيرة، منها الاستبعاد من قبل كبار القوم وشيوخهم الكهنة وفقهاء الشريعة»[1]، يقول كتاب أشعياء عن ذلك: «تقبّل آلامنا، وتحمّل عذابنا.. بينما كانت أخطاؤنا سبب جراحاته، وشرّنا سبب عذابه.. وتحمّل مسؤولية ذنوب كثيرة، وشفع لنا في ذنوبنا»[2]؛ إذاً لم يأت المسيح لمحاربة الذنوب واجتثاثها، بل لتحمّل مسؤولية ذنوب البشر، كما لم يأت ليضيف مشقةً وألماً على آلامهم بنظريات محو الأخطاء والذنوب والعنف، إنما أتى ليخدم الإنسان، إنّه يهدي روحه لكثيرٍ منهم.

إنّ فردية الإنسان تمرّ في إطار تحمّل السيد المسيح مسؤولية الذنوب، كي لا يعتبر الناس الذنوب ظاهرةً عادية؛ فلم تتح له الفرصة كي يتمتع بالحياة الخاصة والفردية، لقد صنع العشقُ وتحمّل ذنوب البشر من المسيح عليه السلام بطلاً مبشراً بالفردية، فالمسيح بطل الفردية؛ إذ من غير الممكن حفظ فردية الناس في المجتمع الديني، إلا من خلال الاعتراف بالذنوب بوصفها أمراً واقعاً، ومنع الاعتداء على حقوق الأفراد بالأخطاء التي تسمّى في الدين ذنباً، وقد رفع المسيح أكبر مانع في طريق الفردية، بتحمله مسؤولية ذنوب البشر.

العامل الوحيد الذي يبرّر صدور الأحكام الدينية وإنفاذها، هو مكافحة الذنوب والمنع من ارتكابها، ويقال: إنّ الشيطان وسوس للمسيح من هذا الباب، فلم تجلب المسيحية لعيسى الهيبة والعظمة والجبروت، بل جلبت له الآلام، خلافاً لما يتوقّع الناس للنبي من خيلاء وجبروت، والخلود المسيحي يتحقّق من خلال الألم والعذاب، لا الدعة والعافية، وعهد عيسى في رأي النصارى دمٌ يراق من أجل الكثيرين، لكنّ

(١) إنجيل مرقس ٨: ٣٧ ـ ٤٠.

(٢) كتاب أشعياء ٥٣: ٤ ـ ٦، ١٢.

عهد اليهود وعدُ الله بأن يجعلهم عباده المصطفين إذا ما التزموا بالشريعة. يلغي المسيحُ الشريعة، فهو لم يأت بشريعة جديدة مقابل الشريعة اليهودية، وقد توقع الناس من ربّ اليهود أن يأتي لهم بالنصر، كما كان بنو إسرائيل يعتقدون أنّ انتصارهم على سائر الأقوام لم يتحقق بالحوادث الطبيعية، بل بعناية ربانية، أمّا المسيح فلم يبحث عن الانتصار، بل جمع المنبوذين حوله، وحسب اعتقاد النصارى، مات من أجل ذنوب البشر: «تحمّل العذاب لشرورنا».

كان المسيح إنسانياً كسقراط؛ إذ أراد الله للإنسان، خلافَ اليهود الذين أرادوا الإنسان لله: «خلق السبت للإنسان، ولم يخلق الإنسان للسبت»[1]، فربّ المسيح يتصل بالإنسان مباشرة؛ لأنّه رب تاريخي مارس الهبوط من قبل، ويستطيع البشر الاتصال به، كما يمكن اعتبار آلام المسيح، وتضحيته بنفسه من أجل ذنوب البشر، أحدَ الجذور الدينية لنظرية الفردانية؛ لأنّ هذا التفسير من المسيح عليه السلام يحصر الدين في إطار علاقة الفرد بربّه، ويسلب الدين دوره الاجتماعي بصفته عاملاً لمكافحة الذنوب، وفي مثل هذه الظروف، لو تهيّأت الأرضية الاجتماعية والسياسية اللازمة، لحفظت فردية الإنسان، ولاتّحد هؤلاء الناس، المنفرد كل منهم عن الآخر، بعشق الرب[2]، دون أن يمنع تفسير الدين مدرسةً أو مشرباً سلطوياً عنيفاً، العلاقةَ الودّية بين الإنسان وربّه.

### ٣. ٢. آلام الحسين عليه السلام والتضحية في سبيل القيم الأخلاقية

الإمام الحسين عليه السلام مظهرٌ للمصاب والألم في الثقافة الشيعية، ألمٌ من أجل الدفاع عن حرية الإنسان، وقبول مصيبةٍ مقابل مصائب أكبر، إنّه في رأي الشيعة شهيدٌ وشاهد وقربان، وقف في وجه الباطل وتقبّل الآلام لنفسه وعياله.

شهادة الحسين عليه السلام، كموت السيد المسيح الذي يعتقد به النصارى، أجلّ من

---

(١) إنجيل مرقس ٢: ٢٣ ـ ٢٨.

(٢) نظرية الاتحاد، إحدى النظريات المهمة في الفلسفة الاجتماعية للمسيح. راجع: أنطوني رادشر، «المسيحية الكاثوليكية والفلسفة الاجتماعية في عالمنا المعاصر» (مسيحيت كاتوليك وفلسفه اجتماعي جهان معاصر)، الحلقة الثانية، صحيفة همشهري الإيرانية، رقم ٦٣٨، ١٥/ ١٢/ ١٣٧٤ش/١٩٩٥م.

حياة أعدائه المنتصرين، يعطي هذا الموت الأبي الشيعةَ حماس الإقدام، ويتمكّنون نفسياً من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

وتجلب الثورة الحسينية للإمام الويلات، لا الانتصار، فقد عرّض الإمام نفسه ـ كسقراط والمسيح ـ لسخط كبار القوم وحكّام الشريعة، نتيجة إصراره على موقفه، وقضيته ـ كهذين الاثنين ـ أخلاقية أكثر مما هي سياسية أو حقوقية أو فقهية أو عقائدية، إنّه يرى في مراحل مختلفة من حياته وقيامه، ضعفَ الناس وتخاذلهم، لكن لا طريق للعودة بالنسبة إليه، فالحركات السياسية أو الحقوقية دائماً تبقي في داخلها طريقاً للانسحاب، لكن الالتزام بالقيم الأخلاقية، لا رجعة فيه؛ لذا يُسرع الحسين، كالسيد المسيح وسقراط، لاستقبال الموت، ويضحّي بدمه قرباناً من أجل البشرية[٢].

ويمكن الدفاع عن جانبين من جوانب الدين في عالمنا المعاصر: التجارب الإشراقية، والنظرة الأخلاقية للإنسان، وإن لم ينحصرا ـ كما النظام الاعتقادي والفقهي ـ في الأديان؛ لذا لو أردنا تقديم الحسين في المجالات المختلفة، ومن خلال القنوات البشرية المتنوّعة، فعلينا التركيز على تجاربه الدينية ودفاعه المستميت عن القيم الأخلاقية.

### ٣. سؤال الحرية المعاصر وثورة الحسين الشهيد

١ـ ٣ـ إذا كانت المعرفة سبيلَ الإنسان للتعامل مع عالميه الأول والثاني (عالم الواقع المحسوس، والعالم العقلي)، أو فسّرت الفردية علاقةَ الفرد بالنظام الاجتماعي، تبيّنت الحرية (والطاعة والاستسلام) في إطار علاقة الفرد بالنظام السياسي، فعندما لا يتمكّن الفرد من لعب دور مؤثر في صناعة القرار السياسي، فإمّا أن يتحوّل إلى لاعب مؤثر، أو إلى متفرّج أو لاعب منفعل.

لقد طُلب من الحسين عليه السلام أن يكون لاعباً منفعلاً من خلال بيع رأيه ليزيد

---

(١) مرتضى مطهري، الملحمة الحسينية، قم، صدرا، ١٣٦٥ش/١٩٨٦م، ج٢.

(٢) يذكر الشيخ مطهري في المجلد الثالث من الملحمة الحسينية: ٢٢١ ـ ٢٣٩، أوجه الشبه الظاهرية بين المسيح عليه السلام والحسين عليه السلام، ويقارن بينهما، من قبيل الأم، وكيفية الولادة، وينفي وجود الشبه بينهما من حيث تحمّل مسؤولية ذنوب البشر.

(لعدم إمكانية تحوّله إلى متفرج)، لكنّه كان عارفاً بظلم حكومة بني أمية[١]، ولذلك لم تستطع الحكومة تركه وشأنه، كي يعارضها بكامل حريته.

٢ـ ٣ـ تقبُّل الموت هو التعامل الواقعي معه، ومن مستلزمات الحرية، فقد أعلن الإمام الحسين عليه السلام في مناسبات مختلفة أنّه يذهب لاستقبال الموت، لكنّ الموت لم يكن للموت، بل كان من أجل الحرية. قال الإمام عليه السلام حين خروجه إلى العراق: «خطّ الموت على وُلد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة»[٢]، وقال في موضع آخر: «فإنّي لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برماً»[٣]، وقد نقلت عنه عبارات كثيرة تدلّ على استصغاره للموت[٤]، والتي اتخذها مخالفو نظرية قيام الإمام عليه السلام لتأسيس الحكومة الإسلامية، مستمسكاً يؤيّد رأيهم[٥].

٣ـ ٣ـ لا وجود لأي تلازم بين الحرية والانتصار، فلم يتمكّن بعض الذين فسّروا واقعة عاشوراء من استيعاب عدم انتصار الإمام وأصحابه وتألّمهم، لذا اعتبروا الإمام منتصراً في جهاده[٦]، إذ يعدّ هؤلاء وجه الانتصار في هدفية الحركة، وصحّة سبيل الجهاد، ومقاومة أبطال عاشوراء وثباتهم، علماً أنّهم يقرّون بصراحة أنّ هدف الإمام لم يكن تولّي السلطة، لكنّهم يرفضون نظرية الشهادة والهزيمة تماماً، ويعتبرون هذه الثورة مقدّمةً لانتصار الشيعة. ولو أردنا إضفاء صبغة أدبية على كلام هؤلاء، لقلنا: إنّ قبول الهزيمة من قبل الإمام في عاشوراء، انتصارٌ بحدّ ذاته.

٤ـ ٣ـ لا تجتمع الحريّة ـ دائماً وبالضرورة ـ مع حسن الظاهر، فحركة الإمام عليه السلام من الحجّ إلى كربلاء حركةٌ رمزية، تؤكّد أنّ الشريعة والأفعال الظاهرية

---

(١) لمطالعة بعض جوانب ظلم الحكم الأموي، راجع: محمد إبراهيم آيتي، مقال: «موجباتي كه إمام حسين عليه السلام را وادار به قيام كرد» (الأسباب التي دفعت الحسين عليه السلام للثورة) في كتاب كفتار عاشورا: ٧ ـ ٣٣، طهران، ميلاد، ١٣٥٦ش/١٩٧٧م.

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين ٢: ٥، ٦.

(٣) المحدّث القمي، نفس المهموم: ١١٦.

(٤) على سبيل المثال، راجع: المحدث القمي، نفس المهموم: ٢١٩؛ ملحقات إحقاق الحق ١١: ٦٠١.

(٥) راجع: لطف الله الصافي الكلبايكاني، حسين عليه السلام شهيد آكاه، رهبر نجات بخش إسلام (الحسين عليه السلام الشهيد الواعي، القائد المنقذ للإسلام)، طهران، مكتبة الصدر.

(٦) السيد محمد حسين بهشتي، مقال «مبارزه بيروز» (النضال المنتصر)، في كتاب كفتار عاشورا: ٣٧ ـ ٥٤، طهران، ميلاد، ١٣٥٦ش/١٩٧٧م.

والسلوك الحسن لا تشكّل جوهر الحرية والتدين الحقيقي. وقد أصدر مفتي الإسلام في عصره حكم الرافضة على الإمام لسلوكه ونظرته الخاصّة. وهو ما يعتبره علي شريعتي دليلاً على صراع الإمام مع الرياء[١].

٥- ٣- يبحث الإمام الحسين عن الحرية؛ ولذلك واجه في كربلاء «العبودية المتراكمة» المتجلّية في مواقف الناس، إنّه يرى أنّ المجتمع يتحرّك باتجاه نشر الباطل، والناس لا يجرؤون على إبداء رأيهم (إحدى خصال الأنظمة الاستبدادية سلب الناس شجاعتهم)؛ لذلك يقول الإمام للناس محذّراً: «ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به وأنّ الباطل لا يتناهى عنه»[٢]، وحين لا يجد الإمام طريقاً للإصلاح، يضطر لاختيار أحد الطريقين، إما الشهادة، أو الذلة: «ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين (السلّة) المرة والذلة، وهيهات منّا الذلة»[٣].

كان المنطق الذي يتعامل به الإمام عليه السلام مع آل أبي سفيان هو «إن لم يكن لكم دين ولا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم»[٤]، وفي حديثه لأهل الكوفة، يخبرهم بأنّ عبودية الظلمة ليست من سجاياه: «ولا أقرّ إقرار العبيد». فحريّ أن تطرح في عالمنا المعاصر نظرة الإمام الحسين عليه السلام للحرية التي كان يراها «أوسع من الدين» وإصراره على رفض العبودية للبشر، ففي عالمنا اليوم أصنافٌ من المنظّرين والفقهاء والمتكلمين بمشارب فكرية مختلفة، وبسبب معرفتهم بالوضع العالمي، يقدّمون أفكاراً ونظريات عملية وجذابة للإنسان المعاصر، لكنّ خطابهم لا يصل إلى مستوى خطاب الحسين عليه السلام.

لا تُقدّم صورة جميلة وإنسانية، وحتى قريبة من حقيقة عصر الإمام، في إطار البحوث الكلامية، كالحديث عن علم الإمام، أو المواضيع السياسية، كتفسير حركة الإمام بهدف تأسيس دولة «لو تركنا همّ تقوية دعائم الدين أو إثبات نقائه، لاتضح التفسير المذكور سلفاً»، إنّ تقديم صورة دنيوية عن قيام الحسين عليه السلام، كالعمل الذي

---

(١) شريعتي، وارث آدم: ٣١.

(٢) المحدث القمي، نفس المهموم: ١١٦.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩.

(٤) ابن شهر آشوب، المناقب: ٢٢٣.

قام به كتاب شهيد جاويد (الشهيد الخالد)، مرحلة ناقصة من أنسنة الإمامعليه السلام، ولم يغفل شريعتي الجوانب الأسطورية في شخصية الإمام، على الرغم من تقديم الإمام إنساناً ثوريّاً، لكن همومه الأيديولوجية لا تدعه ينأى بالإمام عن النزاعات السياسية، إنّ تقديم صورة سماوية مجبولة بالألم عن الإمامعليه السلام، توجب الحفاظ على علاقة روحية بين المؤمنين والإمامعليه السلام، في عالم لا تتصدى فيه المؤسسات الدينية لأمر الحكومة وإدارة الحياة.

٦ـ ٣ـ من الممكن اعتبار نمط تعامل الإمامعليه السلام مع الناس مؤيّداً لهذه الحركة التحرّرية، حيث يضطرّ كثير من القادة الثوريين للّجوء إلى القوة والقسوة والخطاب السلطوي وإرغام الناس على الطاعة، لكنّ الإمامعليه السلام يخيّر الناس في مراحل مختلفة، ليختاروا طريقهم بحرية كاملة، ولا يلوم أهل الكوفة على عدم تأييده وتبعيته، على الرغم من غدرهم به، بل يوصيهم أولاً بتقدير أنفسهم إذا ما كانوا يحتملون حدّ السيف ووقع السنان، وبعد اصطفافهم في وجهه اعتبرهم معتدين، في حال يعلم الإمامعليه السلام أنّ «الدين لعق على ألسنتهم»[1]، لكنّه يرى عامة الناس لا يرتكبون الأخطاء متعمّدين، كما يعتقد أنّ الناس هم الضعفاء المساكين، المسلوبة حقوقهم، ويجب اتخاذ موقف تجاه هذا الاعتداء عليهم.

٧ـ ٣ـ تتداخل المثل التي يؤيّدها الإنسان المعاصر، حيث أصبحت العناصر الثلاثة: المعرفة، الفردية، والحرية، متداخلةً أيضاً في عالمنا المعاصر؛ فلا يجوز تقديم الإمام الحسينعليه السلام إنساناً تحرّرياً، وفي الوقت نفسه قَبَلي، أو تقديمه شخصاً ثائراً بوجه الطغيان والاستبداد من ناحية، ثم تعريفه إنساناً سلطويّاً ومستبدّاً من ناحية أخرى.

إنّ العيب في التفاسير السياسية ـ الأيديولوجية لثورة عاشوراء، أنّها تختزل الإمام ونهضته في نهضة ثورية، حتى وإن لم تعتبر هدفه الوحيد الاستيلاء على السلطة، وهو ما لا ينسجم مع عناصر الفردانية والمعرفة؛ لأنّ الثورة غالباً ما تنافي فردانية الناس وحياتهم الخاصة، وإن كان الدين جزءاً من هذه الحياة، والمعرفة ليست كنزها الأول[2].

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ٢٤٥.

(٢) شريعتي، حسين وارث آدم: ٣١.

٨ـ ٣ـ إنّ التفسير المسيحي لألم الإمامعليه السلام ومصابه أكثر انسجاماً مع العالم الحديث؛ لذلك يجب تجاوز الصورة النمطية الحاضرة عند المسلمين، حول صلب المسيح لتكفير ذنوب البشر، ويقدّم غالب خطباء المسلمين ثلاثة أهداف للإمام من ثورته، ثمّ ينفون في الغالب الأولين، ويركّزون على الثالث، وهذه التفاسير الثلاثة كالآتي: ١ـ النفع الشخصي، ٢ـ غفران ذنوب الأمة، ٣ـ إنقاذ الإسلام.

وهناك اختلاف بين العلماء بشأن تحقق إنقاذ الإسلام بتأسيس الحكومة، أو الشهادة، لكن أصل مسألة إنقاذ الإسلام ـ أو على الأقل التشيّع ـ مقبولة لدى الجميع؛ فالشيخ المطهري، أحد القائلين بالتفسير الثالث، يرفض الآخَرَين بصراحة: التفسير الثاني هو الذي دخل ذهن كثير من عامة الناس، وهو أنّ الإمام الحسينعليه السلام قتل واستشهد لتُغفر ذنوب الأمة، أيّ إنّ شهادته كفارةٌ لذنوبها، وهذه هي عقيدة النصارى في السيد المسيح، وأنّه صلب فداءً عن ذنوب الأمة، أي أنّ للذنوب آثاراً، تحيط بالإنسان في الآخرة، وقد استشهد الإمام الحسينعليه السلام لتفنيد أثر الذنوب يوم القيامة، ومن هذه الناحية يعطي الناس الحرية(١).

ويعتبر الشيخ المطهري هذا التفسير تشجيعاً على ظهور أمثال يزيد؛ فقد رفض هذا التفسير والتفسير الأول، نظراً للبيئة السياسية ـ الأيديولوجية التي كان يعيش فيها، وقدّم تفسيراً اجتماعياً وسياسياً محافظاً من ثورة الإمامعليه السلام؛ إذ يرى أنّ قيام الإمام كان ضرورياً لإنقاذ الإسلام، وليس إنقاذ المسلمين أو الفرد المسلم، كما أنّ حربه كانت حرباً عقائديةً، ولو أردنا تقديم تفسير سياسي لقيام الإمامعليه السلام، لوجدنا أنّ التفسير الذي يقدّمه كتاب الشهيد الخالد، ولم يُشر إليه الشيخ المطهري في بحثه، يظلّ أكثر معقوليةً؛ لأنّه يعتبر الهدف الوحيد من قيام الإمام، هو تأسيس الحكومة الإسلامية.

ويريد الشيخ المطهري، بوصفه التفسير الثاني بالعامّي، أن يخلق جواً، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

أمّا التفسير الثاني، فهو تفسير ديني تماماً، وقد استخدمت فيه المفاهيم

---

(١) مرتضى مطهري، مقال «خطابه ومنبر»، في كتاب كفتار عاشورا: ٨١، طهران، ميلاد، ١٣٥٦ش/١٩٧٧م.

والمناهج الدينية، دون أن يكون فيه أيّ بعد سياسي، إلا أن نقول بأنّ هذا التفسير قدّم لسلب قيام الإمام عليه السلام قابليته على التعبئة والتجنيد.

لم يتحدّث أحد عن تفنيد أثر الذنوب يوم القيامة أو غفرانها، بل ما قيل هو تحمّل عبء الذنوب، وفدائها، فالشهيد ـ كيف ما كان ـ رمز لمحاربة الظواهر التي تنتج عن الذنوب الفردية والجماعية للبشر، فيصبح قرباناً عنها، وكأنّما تحمّل عبئها بدمه وروحه؛ لهذا لا يجوز أن نصف الوجه الديني والأسطوري لهذا التفسير، بأنّه تعبير بدائي، قبيح وغير عادل.

المشكلة التي يعاني منها الشيخ المطهري، تكمن في تصويره للفداء وتحمّل أعباء ذنوب الآخرين؛ فلا المسيح عليه السلام، ولا الحسين عليه السلام، ولا أيّ شهيد آخر، يذهب إلى المذبح كي يقول للناس بأنّنا أصبحنا قرابين لتعصوا بكامل حريّتكم، بل ما يقولونه هو أنّنا أصبحنا ضحايا ذنوبكم وغفلتكم، التي أنتجت النظام الجائر، فمصابنا هو مصيبة ذنوبكم وغفلتكم، وهو ما يجعل من المشاركة العامة في مراثي الشهداء تجربةً توعوية، كما يشرك الناس في تجربة آلام المسيح عليه السلام، والحسين عليه السلام، فأن يصبح الفرد ضحية الذنوب، أمرٌ متأخر عن الذنب، كما التوبة، لكنّها لا تبرر الذنوب، بل تقبلها بوصفها واقعاً بشريّاً.

# فهرس الموضوعات